رواية

إيلينه فيره

رائعة الكاتب الهولندي

لويس كوبيروس

ترجمة

د. علاء الدين محمود



آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

◆ Author: Louis Couperus
◆ Title: Eline Vere
◆ Translated by: Alaaeldin M. Mahmoud
◆ Fifth Edition: 2015
◆ Cover Design by: Afaq

◆ المؤلف: لويس كوبيروس
◆ العنوان: إيلينه فيره
◆ ترجمة: علاء الدين محمود
◆ الطبعة: الأولى 2015
◆ تصميم الغلاف: آفاق

رقم الإيداع:
٢٠٢٩٨ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي: ISBN
978-977-765-041-0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

4 Mohamed Mazloum st. - intersected with Houda Shaarawy - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2392-6114 Fax: 00202-2392-5917
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
٤ ش محمد مظلوم - تقاطع هدى شعراوي – القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٢٦١١٤ فاكس: ٢٣٩٢٥٩١٧

إيلينه فيره

لويس كوبيروس

ترجمة

علاء الدين محمود

آفاق للنشر والتوزيع

Nederlands letterenfonds
dutch foundation for literature

This book was published with the support of the Dutch Foundation for Literature.

English translation © Paul Vincent 2012

The Forbidden Kingdom first published in Dutch as Het verboden rijk in 1932

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

كوبيروس ، لويس. ماري آن، 1863 - 1923

إيلينه فيره: رواية / لويس كوبيروس؛ ترجمة : علاء الدين محمود

ط 1 القاهرة -آفاق للنشر والتوزيع - 2015

640 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20298 / 2015

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 041 - 0

1 - القصص الهولندية

أ - محمود ، علاء الدين (مترجم)

ب - العنوان 313.839

١

كانت حجرة الطعام، التي كانت بمثابة حجرة خلع الملابس كخلية نحل. وقفت فريدريك فان إرليفورت قبالة مرآة شيفال، بشعرها المفرود المتدفق، حيث بدت شاحبة للغاية تحت لمبة يعلوها غبارٌ كمسحوق الأرز، وحاجباها داكنا اللون بلمسة واحدة من فرشاة المكياج السوداء.

قالت متبرمة، وهي تختلس النظر إلى ساعة الحائط، أسرع يا پول! لن نتمكن أبدًا من أن نكون جاهزين في الوقت المناسب!

جثا أمامها پول فان رات على ركبتيه، تتحرك أصابعه بسرعة وخفة، وهو يلف وشاحًا طويلاً شفافًا باللونين الذهبي والقرمزي حول خَصْرها بما يجعل القماش منتفخًا فوق تنورتها التحتية وردية اللون؛ كان كتفاها وذراعاها العاريتان بيضاوين كالثلج بسبب ما وضعته من مسحوق وتحيط بها هالة تتلألأ من القلائد والسلاسل الكثيرة والملتوية.

«أوف، يا له من تيار هوائي! تأكدي أن يظل ذلك الباب مغلقًا يا دين»، قال پول متذمرًا، بينما كانت الخادمة العجوز تغادر المنزل، وهي تحمل بملء ذراعيها عددًا من الفساتين. سمح الباب المفتوح بإلقاء نظرة خاطفة على الضيوف، الذين يسيرون بمحاذاة أصص النخيل والأراليا في طريقهم من القاعة إلى جناح الاستقبال الكبير، كان الرجال يرتدون ملابس المساء بينما كانت السيدات ترتدين ملابس ذات ألوان فاتحة، وكلهم يحدقون ببصرهم في حجرة الطعام أثناء مرورهم بها.

كان هناك الكثير من مظاهر المرح وراء الكواليس، إلا بالنسبة لفريدريك، التي احتفظت بقدر من الهدوء بما يلائم جلال دورها كملكة من ملكات العصور القديمة.

طلبت منه قائلة: رجاء أسرع يا پول. لقد تجاوزت الساعة بالفعل الثامنة والنصف!

ردَّ عليها: نعم، نعم، فريدي، لا تقلقي، لقد انتهينا تقريبًا! وهو يشبك بمهارة بعض المجوهرات بين طيات فستانها الرقيقة.

سألت ماري ولي لي فرسترايتن لما خرجنا من الحجرة، حيث أقيمت خشبة المسرح، مُرْتَفع مبهم تميزه العين بالكاد في الضوء الخافت: جاهز؟

أجاب پول: جاهز! ثم عَقَّب بقوله رافعًا صوته بنبرة آمرة، والآن ليلزم جميعنا الهدوء!

كان لديه سبب وجيه لتوجيه اللوم إليهم، ذلك أن الصغار الذين تصرفوا كما لو كانوا مساعدي خزانة الملابس- وهم ثلاثة أولاد وخمس بنات- كانوا يتواثبون حول الحجرة غير المرتبة، ويضحكون ويتصايحون متسببين في أعلى درجات الفوضى، بينما حاولت لي لي دون جدوى انتزاع قيثارة ذهبية اللون من الكرتون من أيدي ابنة رب المنزل، البالغ من العمر اثنى عشر عامًا، واثنين من أبناء عمومته المشاكسين كانوا قد شرعوا في تسلق صليب أبيض كبير كان يترنح بالفعل على أثر هجماتهم.

زمجر پول: انزلا من فوق ذلك الصليب يان وكاريل! أعطني تلك القيثارة فورًا يا يان الآخر! خذيهما في يدكِ يا ماري. والآن - بِت ودين تعاليا إلى هنا لو سمحتما؟ بِت، أمسك المصباح، وأنت يا دين قِفي بجانب الباب المنزلق. وليخرج أي شخص آخر بعيدًا! لن تكون هناك مساحة كافية، لذا على البعض منكم الخروج إلى الحديقة والفرجة من خلال النافذة. وستشاهدون منظرًا بديعًا من هناك. تعالي يا فريدي، بحرص الآن، «إليكِ ذيل فستانك».

«لقد نسيت تاجي».

«سأضعه على رأسكِ عندما تتخذين وضعكِ. هيّا».

هرولت الخادمات الثلاث اللاتي أُبعدن عن الحجرة، ورَبَض الأولاد في

ركن ما بحيث يكونون غير مرئيين للجمهور، بينما ساعد پول فريدي لاعتلاء خشبة المسرح.

***

تحدثت ماري، التي لم تكن قد ارتدت بَعْدُ ملابس الحفل مثل لي لي من خلال النافذة المغلقة إلى رجل الإطفاء بالخارج، الذي كان مرتديًا معطفه الخارجي الثقيل في انتظار إشعال الأنوار البنغالية في الحديقة، التي غطتها الثلوج. وقام عاكسٌ كبير بجواره كشمسٍ شاحبة تفتقر إلى اللمعان.

أعطت ماري التعليمات، وأومأ رجل الإطفاء برأسه «أولاً الأبيض، ثم الأخضر، ثم الأحمر!»

كانت الحجرة مظلمة إلا من المصباح، الذي علَّقته بِت عاليًا، بينما وقفت دين بجانب باب حجرة خلع الملابس المهجورة الآن.

حذر پول قائلاً: «بحرص، يا فريدي، بحرص!».

استقرت فريدريك بعناية وسط الوسائد على الأريكة، التي قام پول بتعديل فستانها وقلائدها وشعرها وتاجها عليها، داسًا زهرة هنا وزهرة هناك.

«هل هذا على ما يرام؟» سألت بصوت مرتعش، وهي تتخذ وضعها، الذي تمرنت عليه جيدًا.

«تبدين فاتنة. تعالي يا ماري ويا لي لي، دوركما الآن!».

ألقت لي لي بنفسها على الأرض، واتكأت ماري على الأريكة ورأسها عند قدميّ فريدريك. كسا پول برشاقة كلا الفتاتين بالشالات والأوشحة الملونة الزاهية، وأحاط بسلاسل من الخرز ذراعيهما وشعرهما.

«الآن يا ماري ويا لي لي، لا بد أن تبدوا في ذهول! مع التواء أكثر في الذراع يا لي لي! معاناة أكثر، معاناة أكثر بكثير! فريدي: «نريد إظهار المزيد من اليأس من جانبك – ثبتي عينيكِ على السقف وافتحي فمك أكثر قليلاً».

«هكذا؟» قالتها ماري، وهي تنفجر ضحكًا.

«نعم، هذا أفضل! اثبتي على هذا، ماري، «هل أنتِ مستعدة؟»

أجابت ماري «جاهزة».

استمر پول في إضافة اللمسات الأخيرة، مُعَدِّلاً مرة أخرى ثنية هنا وزهرة هناك، وهو يعتريه الشك فيما إذا كان كل شيء لا تشوبه شائبة.

قالت لي لي، وهي تقف في أكثر الأوضاع غرابة، «هيّا، هيّا نبدأ».

«بِت، خذي المصباح بعيدًا، بعد ذلك تعالي أنتِ ودين إلى هنا وقِفا على أحد جانبيّ الأبواب المنزلقة!'

وفي النهاية وجدوا أنفسهم جميعًا غارقين في ظلام دامس وقلوبهم تخفق. طَرَق پول على النافذة، ثم ركض لكي ينضم إلى الأولاد المتواجدين في أحد الأركان.

توهجت الأنوار البنغالية بعد بداية بطيئة ومتقطعة تجاه العاكس؛ وانفتحت الأبواب المنزلقة بفخامة ليضيء التابلوه ببريق أبيض ساطع.

***

خيَّم صمتٌ على جناح الاستقبال والبيت الزجاجي أثناء تقدم الضيوف الباسمين إلى الأمام، تخطف أبصارهم الألوان والأضواء المتفجرة. تنحى الرجال جانبًا لإعطاء مساحة لفتاتين ضاحكتين، ووقف الشباب في الخلف على الكراسي من أجل مشاهدة أفضل.

قرأت بيتسي فان رات باللغة الفرنسية بصوت عالٍ لمدام فان إرليفورت، التي مررت لها البرنامج، «**وفاة كليوباترا**».

تعالت الصيحات «رائع! عظيم!» من كافة الجوانب.

عادت مصر القديمة إلى الحياة في وهج الأنوار البنغالية الأبيض. ظهرت من وراء الستائر الفخمة لمحات خاطفة من واحة ما، وسماء زرقاء، وبعض الأهرامات وبستان من أشجار النخيل، بينما اتكأت على أريكة تحملها تماثيل أبي الهول كليوباترا تتراجع بجدائل شعرها الهادر، وتلتف حول ذراعها أفعى،

وتسجد جاريتان بأسىً عند قدميها. وهكذا، وأمام أنظار حفل سهرة عصري، أُستحضر شعر العصر القديم من خلال منظر سخي للأبهة الشرقية لم يستغرق سوى بضع ثوانٍ.

قالت بيتسي: «تلك هي فريدي! جميلة كلوحة مرسومة»، شارحة الملكة المحتضرة لمدام فان إرليفورت، التي أوقعها كل هذا البذخ في حيرة شديدة لدرجة أنها أخذت لحظة لتدرك أن الفتاة الفاتنة الساكنة هي ابنتها.

«وهناك ماري، والأخرى، آه، تلك لي لي! لن تعرف على الإطلاق، أليس كذلك؟ ما تلك الأزياء الفخمة؛ لقد وقعوا في الكثير من المتاعب! أترين ذلك الثوب الخاص بلي لي، البنفسجي مع الفضي؟ أنا أعرتهن إياه.»

«كيف يفعلن ذلك؟»، غمغمت السيدة العجوز.

سار الضوء في ومضات وتيارات صغيرة، وانزلقت الأبواب لتُغْلَق.

«رائع، يا عمتي، رائع فعلاً»، هتفت بيتسي للمضيفة، مدام فرسترايتن، أثناء مرورها.

تردد الحلم مرتين أخريين، المرة الأولى في طوفان من اخضرار البحر، ثم بالأحمر الناري. استلقت فريدي مع أفعاها بلا حراك بإتقان؛ فقط لم يَسَعْ لي لي إلا أن تنتفض بسبب وضعها الملويّ بشدة. كان پول يراقب من الجانب، مبتسمًا بابتهاج - كل شيء يسير على ما يرام.

«كيف يمكن أن تظل فريدي ساكنة كل هذا السكون؟ كل شيء مفرط في البذخ، وإن لم يكن مبالغًا فيه بعد! تمامًا مثل تلك اللوحة لماكارت!»، قالت بيتسي، وهي تفتح مروحتها المصنوعة من الريش.

«لا بد أن ابنتك الموقرة تشعر بالإرهاق والتعب إلى حد بعيد، سيدتي العزيزة!، قال الشاب دي ڤوده فان بيرج متشدقًا بالكلمات، وهو ينحني أمام مدام فان إرليفورت، والدة فريدي.

***

بعد تشخيص الحلم المصري على المسرح للمرة الثالثة ذهبت مدام فرسترايتن إلى حجرة خلع الملابس، حيث وجدت فريدريك ولي لي تخلعان ثوبيهما، وتتجاذبان أطراف الحديث بعيدًا، أثناء التقاط الدبابيس بعناية من بين الثنيات. كان پول وماري، اللذيْن رقدا فوق سلالم نقَّالة طويلة أضاءتها خادمتان مشغولتان بتفكيك مخدع كليوباترا. وانشغلت دين بهمّة في جمع الثياب والقلائد. بينما كان الأولاد الثلاثة يقومون بالشقلبات على أحد الفُرُش.

سألت لي لي: «هل أعجبكِ يا ماما؟».

«هل أعجبكِ يا مدام فرسترايتن»، قاطعتها فريدريك.

«لقد كان رائعًا! كانوا جميعًا يودون لو شاهدوه مرة أخرى».

«ليس مرة أخرى! أنا قاربت على الهلاك بالفعل!» صرخت لي لي، وهي تزيل كومة من الملابس على الأرضية قبل أن تنهار جالسة على أحد الكراسي ذات الذراعين، وعيناها ثقيلتان من التعب. شعرت دين بالفزع والاستياء؛ لأنها لن تنتهي أبدًا مما يجب عليها القيام به بهذا المعدل.

صرخ پول من أعلى سُلَّمه في الحجرة الأخرى: «لي لي، يجب أن تستريحي! وضعكِ القادم سيكون مرهِقًا للغاية. العمة فرسترايتن، من فضلك أخبري لي لي بأنها لا بد أن تستريح». وجرَّ السجاجيد الشرقية ملونة السجاد من فوق حبل الغسيل، الذي كانت تتدلى منه، وشرعت دين في طيّها.

طلبت ماري قائلة: «دين، نحن بحاجة إلى ملاءات وتول أبيض – هنا! سمعتها دين خطأً، وأحضرت الأشياء غير المقصودة.

تكلم الجميع في آن واحد، يقدمون التعليمات في شيء ويثيرون اللغط في آخر في فوضى متصاعدة. احتج پول بشدة من أعلى السلم، لكن لا أحد كان يُصغي إليه.

استشاط غضبًا بينما نزل على فخذيه قائلاً: «غُلُب حماري! دائمًا أنا من يقوم بجميع الأعمال!».

كرر پول توبيخه للي لي، وانصرفت مدام فرستراياتن لتذكّر الخدم بأن الفنانين الشباب بحاجة إلى مرطبات. وعندما أُحضرت الصواني، وهى محملة بكؤوس النبيذ وعصير الليمون والكعك والشطائر، وصلت هذه الضجة إلى درجة الهياج المحموم. أصرَّ الأولاد الثلاثة على أن تُقَدَّم لهم المشروبات على فراشهم، الذي سكب عليه أحد الأولاد، يُدعى يان، قدرًا من عصير البرتقال. انقلبت ماري عليهم، موبخة إياهم بأعلى ما لديها من صوت، وبمساعدة دين سحبت بسرعة الفراش من تحتهم وجرته بعيدًا.

قال پول، بنبرة المتضرر، «فريدريك، من فضلكِ إن أمكن أن تساعديني قليلاً في العمل في الخلفية!»، كان قد يئس من محاولة ضبط سلوك الأولاد الثلاثة، الذين تهشهم الآن خارج الحجرة المرأة الثرثارة العجوز. استعيد قدرٌ من الهدوء؛ وكان الجميع مشغولاً، ما عدا لي لي، التي ظلت جالسة في كرسيها ذي الذراعين.

«ياه على الدَّوشة!»، همهمت بصوت مكتوم، وهي تمشط شعرها المتموج الأشقر المختلط بالرمادي، ثم بعد ذلك، أخذت علبة بودرة كبيرة لتنشرها على ذراعيها لتعطيهما لمعانًا بلون الثلج.

عادت دين، وهى لا تكاد تلتقط أنفاسها، وتهز رأسها، وتبتسم ابتسامة لطيفة.

«بسرعة يا دين! ملاءات بيضاء وتول!»، رددت معًا فريدي وماري وپول. كان پول قد نزل عن سلمه لنَصْب الصليب الأبيض ثقيل الوزن على المسرح، بينما كان يُعِدُّ الفراش الذي تكدست عليه الوسائد عند القاعدة.

«دين، ملاءات بيضاء وتول، كل التول والشاش، الذي يمكنكِ أن تجديه!».

وامتثلت دين إلى جانب الخادمات الأخريات، وأتين بأيد مملوءة بالمزيد من الأقمشة البيضاء.

* * *

اتخذت مدام فرسترايتن مقعدًا بجوار ابنة أختها، بيتسي فان رات، وهي متزوجة من أخ پول الأكبر.

«خسارة أن إيلين ليست هنا؛ كنت أعوّل عليها لتسلينا خلال فترات الاستراحة الطويلة بقليل من الموسيقى، فهى تتمتع بصوت حلو».

«إنها ليست على ما يرام يا خالتي، ولتكوني على يقينٍ من أنها تأسف للغاية أنها لن تستطيع حضور حفلة عيد ميلاد عمي».

«ماذا بها؟»

«امم، لا أعرف ... الأعصاب، على ما أظن».

«يجب ألا تستسلم بهذه السهولة لتلك النوبات المزاجية، التي تنتابها. أحسب أن بذل قدر قليل من الطاقة سوف يعتني بأعصابها».

ردت بيتسي، وعلى وجهها ابتسامة تعاطف زائف، «آه، هذا ما أُبتليَ به الجيل الأصغر، يا خالتي، كما أنني متأكدة أنكِ قد سمعت بذلك!».

تنهدت مدام فرسترايتن في تسامح، وهزّت رأسها، ثم علّقت قائلة: «على فكرة؛ أتوقع أن تكون الفتيات مُتْعَبات بدرجة لا تسمح لهن بالذهاب إلى الأوبرا غدًا. لذلك يمكنكِ أن تأخذي مقصورتنا إن شئتِ».

أطرقت بيتسي للحظة.

«لديّ حفل عشاء صغير غدًا يا خالتي، لكنني أود استخدام العلبة على أي حال. ليس مدعوًا في الحفل سوى عائلة فيريلاين وإيميلي وجورج، لكن عائلة فيريلاين قالوا إنهم سيغادرون مبكرًا لأن ابنتهم الصغيرة دورا متوعكة مرة أخرى، لذلك يمكنني الذهاب مع إيميلي وجورج واللحاق بالنصف الثاني من الحفل».

نهضت مدام فرسترايتن وقالت: «حسنٌ، اتفقنا إذن. سوف أرسل شخصًا ما بالتذاكر».

نهضت بيتسي أيضًا. كان جورج دي ڤوده فان بيرج على وشك التحدث

إليها، لكنها تظاهرت بأنها لم تنتبه إليه. رأت أنه مستفز جدًا الليلة – في المرتين اللتين تحدث فيهما معها قام بنفس التعليق بالضبط، بعض التعليقات المكررة حول التابلوهات. لا، لم تكن هناك أي محادثة لديه على الإطلاق، وفي مساء الغد عليها أن تتعامل معه مرة أخرى، لذا كان عرض خالتها بأخذ المقصورة بالأوبرا أمرًا سارًا. لمحت زوجها سريعًا في البيت الزجاجي مع عددٍ من الرجال الآخرين- السادة فرسترايتن وهوڤل وأوتو فان إرليفورت وشقيقه إتيان. دارت مناقشة مفعمة بالحيوية، لم يشارك فيها هِنْك على الإطلاق؛ فقط كان واقفًا هناك يبتسم بخجل وبلاهة، بجسده الضخم، الذي ضغط على سعف نخيل مزروع في أصيص. كان مستفزًا بالنسبة لها أيضًا. كان يشعرها بالملل لها لدرجة تبكي العين، ولم يَبْدُ حسن المظهر في ملابس المساء أيضًا – ليس أنيقًا على الإطلاق! بدا أفضل مرتديًا معطفه الخارجي!

وجدت فرصة لأن تتحدث بكلمة معه، وقالت: «أتمنى لو أنك تتحدث إلى شخص ما يا هِنْك. كنت متواريًا في هذا الركن لمدة طويلة جدًا. لماذا لا تتنقل بين الضيوف؟ تبدو مملاً للغاية. وربطة عنقك معوجة».

ردَّ عليها متلعثمًا ورفع يده إلى ياقته. تحولت بعيدًا عنه، وسرعان ما وجدت نفسها وسط تجمع صغير مفعم بالحركة ومتمركزًا حول سعادة الآنسة إيميلي دي ڤوده. حتى مدام فان رايسل ذات العيون الحزينة، أخت فريدي، كانت بين الحضور. كانت إيميلي دي ڤوده غير متزوجة، ووصلت إلى عامها الثامن والثلاثين بحيوية تُحسد عليها. جعلتها طلعتها اللطيفة والمرحة محبوبة لدى الجميع، وبينما كانت تشبه شقيقها جورج الأصغر منها بكثير في الملامح، كانت تميزها حيوية ما وضعتها على النقيض الملحوظ من تحفظه المهذب.

كان الجميع مشدودين دون مقاومة إلى إيميلي المتحمسة لسماع نوادرها وحكاياتها الكوميدية، وكانت الآن تُمْتِع جمهورها برواية عن سقطة حدثت لها مؤخرًا على بركة من الثلج المتجمد – لقد هبطت عند قدمي جنتلمان، والذي وقف بلا أي ردّ فعل بدلاً من تقديم المساعدة لها.

«هل تتخيلون؟ أنبوبي الفرو ملقى إلى اليسار، وقبعتي ملقاة إلى اليمين، وأنا واقعة في المنتصف، وهو واقف هناك، يحدق فيَّ فاغر الفم!».

* * *

دق جرس، عند سماعه قطعت إيميلي حكايتها لتُسرع إلى الجهة الأمامية، حيث فُتِحَت الأبواب المنزلقة أمام الجمهور المتجمع.

قالت إيميلي، وهي تقف على أصابع قدميها، «لا أستطيع أن أرى شيئًا!».

نادت فتاة صغيرة ترتدي فستانًا كريميّ اللون، وكانت أطول من الباقين، «يمكنكِ الوقوف على كرسيَّ، يا آنسة إيميلي!».

«أنتِ حبيبتي يا كاتو، هذا لطيف للغاية منكِ. أنا قادمة! أتسمحين لي بالمرور، مدام فان دير ستور؟ لقد أنقذت ابنتك للتو يومي».

تَنَحَّت مدام فان دير ستور جانبًا، وهي سيدة كانت تكتب قصائد الشعر تحت اسم مستعار، بابتسامة باردة. انزعجت قليلاً من عدم لياقة إيميلي، وهى نفسها لم تحاول الوصول إلى رؤية أفضل.

نهضت كلٌ من إيميلي وكاتو فان دير ستور على نفس الكرسي ووقفتا وذراعاهما حول خصر بعضهما.

هتفت إيميلي باهتمام طَرِب: «يااااه، أليس هذا رائعًا!»، من بين أمواج بحر مزبدٍ من الشاش قام صليب أبيض مصنوع على ما يبدو من خام الرخام المحفور، وتشبث به خيال شاحب وممشوق لفتاة يبدو أنها في خطر قاتل، تقبض أصابعها على صخرة الأزمان، وقدماها ملفوفتان بمويجات من التول.

تعالت همهمات تقول: «إنها لي لي!».

همست إيميلي إلى كاتو: «كم هي جميلة ورشيقة. لكن كيف فعلت ذلك؟ كيف يمكنها أن تظل ثابتة على ذلك الوضع لتلك الفترة الطويلة؟».

قالت كاتو: «إنها مسنودة بالوسائد، لكنه وضع متعب على أي حال. لا يمكنكِ أن تري الوسائد بالطبع».

«بالطبع لا يمكنكِ! لطيف جدًا، لم أرَ أبدًا في حياتي شيئًا أكثر شاعرية، لكن أليس من المفترض أن تشتركي بنفسكِ بشيء يا كاتو؟».

«نعم سأشترك، لكن في المشهد الأخير فقط، مع إتيان فان إرليفورت. يجب أن أذهب الآن لأرتدي ملابسي».

قفزت لتنزل عن كرسيها. أومض الضوء، وأغلقت الأبواب المنزلقة. أُثيرت جلبة من التصفيق، بعدها عاود الظهور منظر أبيض من الشاش الشبيه بزبد البحر؛ اتكأ الآن ملاكٌ على الصليب ليمد ذراعًا ليُنْهِضَ الفتاة البائسة، التي كان مغشيًا عليها عند القاعدة.

كان هناك المزيد من تصفيق، أعلى صوتًا هذه المرة.

قالت إيميلي وهي تهز رأسها، «بالطبع لن تستطيع ماري أن تكتم ضحكتها؛ فهي ستنفجر في الضحك في أي لحظة الآن».

والمؤكد أنه قد شوهدت رعشة من مرح غير لائق ترفرف حول شفتيّ الملاك، والذي اكتسب تعبيره المفعم بالعاطفة قالبًا كوميديًا إلى حد ما من وراء حاجبين ارتفعا بعصبية.

* * *

على الرغم من أن الجميع استطاعوا أن يستدلوا على أن الفنانين كانوا مُتْعَبين، ذلك أن أيًا منهم كان قادرًا على البقاء ثابتًا بشكل كامل، تُلقي التابلوه الأخير بابتهاج عظيم، وطالب الجمهور بإعادة العرض أربع أو خمس مرات. كانت قصة رمزية تدل على الحواس الخمس شخَّصَتها الفتيات الأربع، اكتست كل واحدة منهن بالكثير من الأقمشة الثقيلة - قماش من الذهب والفضة والديباج وفراء حيوان القاقم - وإتيان، وهو أصغر إخوة فريدريك، والذي كان مرتديًا ملابس كمنشد شعبي تجسيدًا لحاسة السمع.

ثم انتهى كل شيء.

ونظرًا لفترات الاستراحة الطويلة بين التابلوهات بلغت الساعة الآن الثانية

صباحًا، تحرك الضيوف نحو المضيف والمضيفة ليستأذنوا بالانصراف.

همست مدام فرسترايتن إلى مدام فان دير ستور، «هل تودين البقاء لتناول العشاء مع كاتو؟ تعرفين، لا شيء رسميا».

لكن مدام فان دير ستور اعتبرت الساعة متأخرة للغاية؛ لذا سوف تنصرف وقتما كانت ابنتها جاهزة.

انتقل الفنانون، بعدما غيروا ملابسهم بأسرع ما يمكن، إلى الصالون، حيث تلقوا التهاني على مهاراتهم في التمثيل وذوقهم الرفيع من قِبَل آخر الضيوف المغادرين. في تلك الأثناء كان يمكن سماع موسيقى مسيرة النصر العسكري تلعبها إيميلي على البيانو، والتي ستبقى، كونها صديقة مقربة من العائلة، إلى العشاء مع هِنْك وبيتسي.

سألت ماري: «ولكنك ستأتين بعد ظهر غد، أليس كذلك، يا كاتو؟ سيكون المصور هنا في تمام الساعة الثانية!».

كان اليوم التالي يوم الخميس؛ ولم ترغب كاتو في الذهاب إلى المدرسة لكي تنال قسطًا من الراحة، ووعدت بأن تكون موجودة في تمام الساعة الثانية.

جلس الفنانون المرهقون مسترخين على كراسي البيت الزجاجي الفسيح المريحة، حيث أقيمت مأدبة خفيفة هناك - ديك رومي وسلطة وكعك وشمبانيا.

تساءلوا، بصوت صاخب وضوضاء، «أيها كان الأفضل؟ ما الذي أعجبك أكثر؟».

تم تبادل الآراء ومقارنتها، وأطلقت صيحات الاستهجان والتهليل إزاءها وسط صوت صلصلة الأطباق والشوك والملاعق العام وخشخشة الكؤوس، التي ملئت حتى حافتها وفرغت بسرعة.

٢

في الساعة الثانية والنصف سار الأخوان فان رات في طريقهما إلى البيت، إلى ميدان ناساوپلاين. كل شيء كان هادئًا بالمنزل بعدما خَلَد الخدم إلى النوم. لما دسَّ هِنْك مفتاحه في جيبه وسحب المزلاج عبر الباب الأمامي، تذكرت بيتسي صبيّها الصغير وردي اللون بالطابق العلوي في سريره الأبيض الصغير، نائمًا وقبضتا يديه مضمومتان. أخذت الشمعة من دعامة درابزين السُلَّم، وبدأ صعود الدَّرَج، بينما دخل زوجها إلى حجرة الطعام ومعه الصحف. كان قنديل الغاز مُضاءً، مضبوطًا ليصير وهجًا باهتًا من شعلة صغيرة على شكل مروحة يد.

كانت حجرة بيتسي لخلع الملابس مُضاءة أيضًا. أدارت مقبض الباب مما تسبب في اشتعال الضوء فجأة بشكل زاهٍ، وانزلق معطفها المصنوع من الفراء عن كتفيها، وفي الموقد الصغير قفز لسان لهب إلى أعلى كلسان ناري لأحد تلك الأسود المرسومة على الأسلحة، وما شابهها. كان ثمة شيء ما يبعث على الهدوء في الحجرة، شيءٌ يذكرنا بحمام دافئ وعبق أزهار بنفسج الپارما حلوة الرائحة. للحظة وقفت ترنو إلى السرير الأبيض الصغير في حجرة نوم الطفل المجاورة المظلمة، ثم عادت وشرعت بعدما زفرت تنهيدة في خلع ملابسها، تاركة فستان نومها الدانتيل ينزلق عن أردافها كغيمة سوداء. فُتِحَ الباب ودخلت إيلينه، تبدو شاحبة اللون إلى حد ما، وهي ترتدي روب أبيض من الصوف الخفيف، وشعرها طليق ومتدفق.

«عجبًا يا إيلي، لستِ نائمة في سريرك حتى الآن؟».

«لا، أنا . . . أنا كنتُ أقرأ. هل استمتعتِ بأمسيتكِ؟».

«نعم في الواقع، كانت لطيفة جدًا. كنت أتمنى فقط لو لم يكن هِنْك مملاً

بشكل لا يطاق. لم يَقُلْ كلمة واحدة، فقط وقف هناك متململاً بسلسلة ساعته، ويبدو عليه الحرج وعدم الارتياح، إلا حينما كانوا يلعبون في أثناء فترات الاستراحة».

حشرت بيتسي بعصبية إلى حد ما إصبع إحدى قدميها على كعب القدم الأخرى، وارتدت حذاءً أنيقًا من الجلد المُذْهَب والخرز.

تَمَطَّعت إيلينه بكسل.

«هل أخبرتِ مدام فرسترايتن بأنني كنتُ متوعكة؟».

«نعم أخبرتها، لكنكِ تعرفينني يا أختي بعد ليلة متأخرة كهذه لن أنتظر طويلاً حتى أخلد إلى النوم. سنتحدث غدًا، اتفقنا؟».

اعتادت إيلينه على أن تكون أختها مُعْتَلَة المزاج بشكل معقول بعد قضاء المساء خارج البيت، بغض النظر عما إذا كانت استمتعت بالخروج، إذ لا ترغب سوى في خلع ملابسها في أسرع وقت ممكن.

ومع ذلك، كانت تميل لأن تردَّ ردًا ما قاطعًا، ولكنها شعرت في اللحظة التالية بأنها أكسل وأضعف من أن تقوم بذلك. طبعت شفتيها على خد بيتسي، وأمالت رأسها، دون تفكير، على كتف أختها في شغف مفاجئ للحنان.

«أنتِ لستِ مريضة حقًا، أليس كذلك؟».

«لا. فقط أشعر بالكسل بعض الشيء، هذا كل شيء. تصبحين على خير إذن».

«نامي جيدًا».

أوت إيلينه، التي بدت واهنة ورشيقة، وهى مرتدية روبها الأبيض، إلى فراشها، والتقطت بيتسي فستان نومها الدانتيل من الأرض، وواصلت خلع ملابسها.

* * *

في الممر انتاب إيلينه شعور غامض بالغربة، وهو ما تسبب في شعورها بالاستياء للحظة. كانت وحدها تمامًا طول المساء، بعدما استسلمت لنزوة من الخمول والسأم لكي لا تخرج، وتميل أي مدة من العزلة إلى توليد شعور بالشجن، مما يجعلها تحن إلى شيء من الصحبة والمداعبة خفيفة الظل. توقفت لمدة وجيزة في الظلام، غير قادرة على اتخاذ قرار، ثم التمست طريقها، وهي تهبط الدَّرَج ودخلت حجرة الطعام.

كان هِنْك قد طرح سترته على الأريكة، ووقف الآن مرتديًا صدريته وقميصه ليُعِدَّ مشروبه الكحولي الليلي الساخن. صعدت نفثات من البخار من الكأس أثناء استبداله الغلاية على الطبق الساخن.

«مرحبًا، حبيبتي!»، قالها بحرارة وابتسامة دمثة امتدت تحت الشارب الأشقر الكثّ، بينما كان ينظر إليها بعينيه الناعستين الزرقاوين المائلتين إلى الرمادي. «ألم تشعري بالكثير من الملل هذا المساء، وأنتِ وحدك تمامًا؟».

«قليلاً، نعم. ليس كما شعرتَ به ربما»، أجابت بابتسامة خجولة: «أنا؟ على العكس تمامًا، كانت التابلوهات جيدة نوعًا ما حقًّا». كان واقفًا برجلين مفتوحتين، وهو يرشف شرابه الساخن بنكهة مسموعة.

«أكان الصغير على ما يرام؟».

«نعم، يبدو نائمًا طوال المساء. هل ستظل مستيقظًا؟».

«أريد فقط أن ألقي نظرة على الجرائد، لكن لِمَ لَمْ تأو إلى الفراش حتى الآن؟».

«امم، لا يوجد سبب . . .».

مدت ذراعيها مرة أخرى بتثاقل وبطء، وهي تتجه إلى الجدار الزجاجي، ثم لَفَّت شعرها الفضفاض في هيئة عقدة أنيقة وداكنة. شعرت بحاجة إلى أن تفضي له بشيء، أن تتجاذب معه حديثًا من القلب إلى القلب، لكن عندما تقع في حالتها البلهاء والحالمة تشعر بالحيرة بشأن الموضوع المعين، الذي يمكنها

من خلاله كسب تعاطفه. كانت تودّ لو بإمكانها أن تنهار وتنخرط في البكاء، أن يغلب عليها بعض حزن ليس عظيم العمق، لا لغرض سوى سماع صوته الوديع الرخيم يواسيها، لكنها لم تستطع التفكير في أي شيء لتقوله، وظلت تتمطع بإيماءات فقدانها للهمة والنشاط.

«هل هناك مشكلة؟»، أخبريني يا عزيزتي، أهناك أمر ما؟'

زادت من اتساع عينيها، وهزت رأسها من جانب إلى آخر. لا، لا مشكلة.

«يمكنك أن تقولي لي، تعرفين ذلك!».

«حسنًا، أنا متضايقة بعض الشيء، هذا كل شيء».

«من ماذا؟».

تنهدت تنهيدة صغيرة، وزمَّت شفتيها.

«امم، لا أعرف. كل ما هنالك أنني بدأت أشعر بشيء من التوتر طول اليوم».

أطلق ضحكته الرقيقة الرنانة.

«أنتِ وحالاتكِ المزاجية! هيّا يا أختي الصغيرة، حان الوقت لكي تبتهجي. كم تكونين لطيفة المعشر عندما لا تنتابك أي من حالاتكِ المزاجية، لا ينبغي أن تستسلمي لها أبدًا».

لما شعر بعجزه عن إقناعها بهذا بحلو الكلام، ابتسم ابتسامة عريضة وغيَّر الموضوع:

«هل ترغبين في مشروب ساخن قبل النوم، يا أختي؟».

«شكرًا لك. نعم، سآخذ رشفة فقط من مشروبك».

استدارت لتواجهه، بينما رفع هو الكأس، الذي يتصاعد منه البخار الساخن إلى شفتيها، وهو يكتم ضحكته وراء شاربه الأشقر. ثم لاحظ بريق دمعة في عينيها المُغطاتين، وبتصميم مفاجيء وضع الكأس جانبًا وأمسك يديها بين يديه.

«انظري، انظري الآن، أخبريني ما الذي حدث. أَحَدَثَ شيء بينك وبين

بيتسي؟ قولي، تعلمين أنه يمكنكِ أن تخبريني بكل شيء».

رمقها بنظرة تأنيب ولوم بعينيه الواثقتين البلهاوتين كعيون كلب نيوفاوندلاند سهل المراس.

* * *

حينها فقط، وبصوت قطعه البكاءِ، أطلقت العنان لسيل عَرِم من البؤس، دون سبب واضح بخلاف حثه على إخراج صوته والنظر بعينيه. كانت الرغبة في أن تبوح بما في قلبها أقوى بكثير من أن تُقاوم. ما الذي كانت تعيش من أجله؟ ما النفع الذي يمكن أن تقدمه لأي أحد؟ ذَرَعَت الحجرة ذهابًا وإيابًا، وهي تفرك يديها وتنوح دون توقف. لم تكن تبالي إذا ماتت في غضون ساعة، لم تكن تبالي بأي شيء على الإطلاق، كان الأمر يتلخص في أن حياتها كانت بلا جدوى، عديمة الفائدة، بلا أي شيء يمكن أن تُكرس نفسها له بكل جوارحها تكريسًا كاملاً، وبات الأمر كله أعصى من أن تتحمله.

غمغم هِنْك تعبيرًا عن الاحتجاج، وشعر بالارتباك والإحباط من المشهد، الذي لم يكن أكثر من تكرار للكثير من مشاهد سابقة. بدأ في الحديث عن بيتسي وبِنْ ولدهما الصغير وعن نفسه، وكاد أن يذكر أنها أيضًا ستكون سيدة بيتها يومًا ما، لكنه رأى عندئذ أن ذلك ربما لا يكون من الحكمة. من جانبها هزَّت رأسها كطفل عنيد يرفض إلهاءه بعدما لم تَسِرْ الأمور على هواه، وقتئذٍ، ولما شعرت باليأس، خبأت وجهها في كتفه وشرعت في البكاء المتقطع، وهي تشبك ذراعها حول عنقه، قوي البنية. أُنهكت أعصابها من الساعات، التي أمضتها وحيدة في حجرة حارة أكثر مما ينبغي، واستأنفت نوبة تقريعها المطولة المفاجئة، وعبَّرت عن أساها بشأن عدم جدوى حياتها، وعبء الحياة البائس بالنسبة لها، كشف في نبرة صوتها عن لمحة من لوم موجه إليه هو، زوج أختها، لكونه السبب في كل مشاكلها. كان مرتبكًا ومشوشًا للغاية، وتأثر أيضًا بدفء حضنها العَطِر، والذي لم يكد يستطع احتضانها في المقابل بنفس القدر من الحنان. كل ما استطاع القيام به لوقف تدفق الجمل المفككة هو الهمس

بكلمات التعزية والمواساة المبتذلة.

ببطء، ببطء، على نغمات صوته الرنان الناعمة، خلعت عن نفسها حالة شجنها المزاجية، كما لو كانت تنثر بتلات وردٍ على جدول ماء.

صمتت في النهاية وأخذت نفسًا عميقًا، لكنها واصلت إراحة رأسها على كتفه. الآن بعدما هدأت، ظنَّ أنه يتعين عليه توبيخها بسبب حماقتها. يا له من هراء كان كل ذلك، بالتأكيد! الكثير من العبث! لأنه، اللعنة، لم يكن هناك داعٍ لمثل هذه الضجة، الآن، أليس كذلك؟

«ولكن هِنْك، حقًا»، بدأت الحديث، ورفعت عيناها المبللتين بالدموع.

«فتاتي العزيزة، كل هذا الحديث عن عدم وجود أي معنى لحياتك - مَنْ الذي أوحى لكِ بتلك الفكرة؟ تعلمين أننا جميعًا نحبكِ كثيرًا».

ولما تذكر اعتباره السابق، وغير المعلن، لزواجها في نهاية المطاف، أضاف قائلاً: «تخيلي فتاة صغيرة مثلكِ تشكو عدم جدوى الحياة! أختي العزيزة، لا بد أن تكوني مجنونة تمامًا!».

لما دغدغته هذه الفكرة، وأحس بأنه كان هنالك ما يكفي من الفلسفة في الوقت الحالي، هزَّ ذراعيها هزة صارمة وقَرَص شفتيها الحزينتين كي تبتسم. قاومت، وهي تضحك، كان الأمر كما لو أن التوازن في عقلها أُستعيد من خلال انفجار انفعالها. بعد لحظات قليلة عندما بدآ يصعدان الدَّرَج معًا، استطاعت بالكاد أن تكتم ضحكة عالية عندما خطفها فجأة وحملها بقية الطريق بينما خوفًا من السقوط، توزعت بين أمره والتوسل إليه أن يكف.

«الآن هِنْك، اتركني! لا تكن سخيفًا! أنزلني في الحال، هِنْك، ألا تسمعني؟».

٣

كانت إيلينه فيره، الأخت الصغرى بين الأختين، بشعر وعيون أكثر دكنة، وجسد أنحف وأقل استدارة. منحتها دكنة نظرتها المحدقة اللامعة، مصحوبة ببشرتها الشاحبة شبه الشفافة وبعض إيماءاتها المعينة المتسمة بالوهن، شيئًا أشبه بمحظية وسط الحريم مستغرقة في التفكير الحالم. كان جمالها مصدر قلق كبير بالنسبة لها؛ حيث جعلها تتوهج وتتلألأ كجوهرة ثمينة، وجعلها هذا الاهتمام المتواصل مفتونة تقريبًا بما اعتبرته أفضل ملامحها، فهي قد تحدق في انعكاس صورتها في المرآة لدقائق بلا توقف، مبتسمة وهي تتبع خط الحاجبين والرموش بطرف طلاء أظافر وردي، وتسحب جفونها إلى الجانبين بانكسار لتجعل عينيها لوزتيّ الشكل، أو تجعد كتلة خصلات شعرها البني لتبدي حيوية برية لفتاة غجرية. كانت خزانة ملابسها أيضًا موضع تأمل طويل وجاد، يشتمل على آثار لمعان الساتان البارد وتجانساته، وظلال القماش البلشي الحريري المتغيرة والأكثر دفئًا، وملمس الزَّبَد لقماش التول والشاش، وشفافية الموسلين والدانتيل. من ومضات خاتمها الماسي المرتعشة إلى الانبعاثات الرقيقة لروائح أكياسها المعطرة، منحتها تشكيلة الحُليّ والزينة إحساسًا لطيفًا من الفخامة والأنوثة بالغة الرقة.

***

لما كانت حالمة ورومانسية بعض الشيء بطبيعتها، فإنها قد تزجي أحيانًا الساعات، وهي مستغرقة تمامًا في ذكرى طفولتها. كانت ذكرياتها بمثابة بقايا أو آثار محببة بالنسبة لها، يتم إخراجها وإنعاشها على فترات منتظمة، وفي أثناء تأملاتها تعمد إلى استبدال الصور الأكثر بهتانًا بأخرى جديدة منظور إليها بمثالية، وعندما تستحضر تلك الذكريات إلى ذهنها مرة أخرى لاحقًا، يغيب

عن ناظرها ما كان صحيحًا منها وما كان مُخْتَلقًا، وتروي بتأكيد تام كل أنواع الحلقات التافهة بالأيام الخوالي في هذا الشكل الشعري المصقول. لم تفوّت بيتسي، بنزعتها الأكثر عملية وواقعية، فرصة للتخفيف من نغمة أي شيء يشبه تمجيد الماضي، وبالنسبة لكل ميولها للحنين للماضي، تنجح إيلينه عادةً، حينما يُشار عليها بالصواب، في التمييز بين الحقائق العارية وبين إشعاعات أوهامها الخيالية.

تذكرت والدها، رسامٌ، رجلٌ ذو مزاج فني راقٍ لكن تعوزه القوة للإبداع وتزوج في سنٍ مبكرة من زوجة مسيطرة تكبره بعدة سنوات. كان يشعر بأنها كانت تضطهده، وكانت أعصابه المشدودة للغاية كأوتار آلة موسيقية فخمة، ترتعش تحت خشونة لمستها، مثلما كانت أعصاب إيلينه ترتعش الآن تحت لمسة أختها. تذكرت ملامح والدها ذات اللون العاجيّ المصفر، وأصابعه الشاحبة الشفافة، التي تمتد في خمول وفتور بينما يتأمل قطعة فنية سيتركها بعد اللمسات القليلة الأولى بالفرشاة. كانت صديقته المقربة، وكاتمة سره الصغيرة، إن جاز التعبير، وفي عقلها تقترن عبقريته المحاصَرة بعبقرية رافائيل العظيم، الرسام، الذي رسم مريم العذراء ذات العيون الحزينة وجدائل الشعر المنسدل. كانت والدتها توحي لها دائمًا بالخوف الهاديء، ولما ارتبطت ذكريات خيبات أمل الطفولة وإحباطاتها بها في المقام الأول، لم تتمكن من وضعها في إطار مثالي، كما فعلت مع والدها.

تذكرت كيف عاشت هي وأختها، بعد وفاة والدها، التي أحاط بها استياء من حياةٍ لم تحقق لصاحبها ما كان يتمناه، ورحيل والدتها بعده بسبب سكتة قلبية، في ظل الوصاية الكريمة لعمةٍ أرملة. من الطراز القديم، نحيفة ومنتصبة القامة، وبمسحة حزينة غَشَت ملامحها العادية الجميلة سلفًا، ارتسمت في ذاكرة إيلينه كشخصية تقف وراء نافذة زجاجية، تتحرك يداها العتيقة مستخدمة أربع إبر لامعة للحياكة فيما يشبه رقصة مينيويت محسوبة ومهتزة اهتزازًا خفيفًا. قضت العمة فيره أيامها في حجرتها الأمامية الواسعة وسط زخارف ثروتها المقيِّدة

بخفة، ترتدي دائمًا أثوابًا مخملية حلوة الرائحة، وتحت قدميها بساط سميك من ديفْنتر، قطعة خشب مشتعلة في موقد النار، وبجوار الباب ستارة يابانية من الحرير الأصفر مرصعة بأزهار الفاوانيا القرمزية، وطيور اللقلق على الأطراف.

تطورت الأختان اللتان كبرتا معًا في ظل نفس الوصاية، وفي نفس البيئة المحيطة على طول خطوط عقلية وأخلاقية متوازية، لكن ومع مرور السنين اتبعت كل واحدة منهما ميل طبعها المتميز. استتبع نزوع إيلينه الواهن فاتر الهمة الحاجة إلى الاطمئنان الرقيق والمودة الدافئة، وكثيرًا ما عانت أعصابها، الحساسة كبتلات زهرة، بالرغم من الراحة المترفة، التي اتصفت بها بيئتها المحيطة. كان لديها حساسية مفرطة لأي معارضة أو عائق، ودفاعًا عن النفس لجأت إلى كبت مشاعرها، ما أدى بها إلى كتم كثرة من مشاعر الظلم الصغيرة والخاصة. يأتي التنفيس عن عاطفتها المكبوتة لفترة طويلة من خلال انفجار انفعالي بين الحين والآخر. في طبيعة بيتسي الأكثر نشاطًا وحماسًا نمت نزعة للسيطرة، والتي استفحلت بسبب رغبة إيلينه في الاعتماد على النفس. أحيانًا كانت هيمنتها تتمثل في أنها يمكن تقريبًا أن تدخل في عقل أختها، التي، بعد تلقي الصدمة الأولى، سرعان ما تبتلع كبرياءها وتمر بقدر من الهدوء والارتياح في أن تكون في كنف أحد وسيطرته. لكن لم تتسبب أعصاب إيلينه المشدودة للغاية ولا أنانية بيتسي الفائقة في وقوع أي أزمة مأساوية على الإطلاق، لأنه داخل الحدود المخففة لإقامتهما عند عمتهما امتزجت درجات ألوان شخصيتهما المتناقضة في ظلٍ موحد من الرمادي.

* * *

لاحقًا - بعد عدة حفلات راقصة تحركت إيلينه، التي تألقت، وهى ترتدي فساتينها الخفيفة فاتحة اللون وشبشبها الرقيق المصنوع من الساتان الأبيض، بخفة ورشاقة ودارت في الوقت الباعث على الانتشاء ثلاثي الأجزاء بين أحضان مجموعة متعاقبة من الفرسان الحريصين على مراقصتها - لاحقًا، تلقت عرضين للزواج، ردت على كليهما بالرفض. استقرا في ذهنها كالانتصارات

السهلة، ورسما ابتسامة هادئة من الرضا على شفتيها عندما جالا ببالها، رغم أن تذكرها للعرض الأول استدعى غالبًا تنهيدة خافتة أيضًا. لأنها كانت في ذلك الحين التقت بهنري فان رات، ومنذ ذلك اللقاء الأول كانت تتساءل كثيرًا كيف يمكن لمثل هذا الشاب المتلعثم الكبير، كما كانت تراه، رجل يختلف تمامًا عن بطل أحلامها، أن يجذب وبشدة مشاعر تعاطفها لدرجة أنها كثيرًا ما تجد نفسها، فجأة تمامًا، تتوق إلى صحبته. كانت هناك في بطل أحلامها لمسات من الصورة المثالية لوالدها، وبالمثل من الأبطال في روايات ويدا، لكن لا شيء على الاطلاق من فان رات، بأسلوبه الكسول الناعم الناشئ عن حماسٍ نابع من مزاج متفائل بشكل واضح، وعينين رماديتين حمقاوين مائلتين للزرقة، وطريقة كلامه البطيئة وضحكته غير المتكلفة. إلا أنه كان هناك في صوته وفي نظرته السريعة، كما في مودته الصادقة، شيء ما جذبها، شيء ما فيه الحماية، لدرجة أنها كانت تشعر أحيانًا بميل غامض لأن تريح رأسها على كتفه، كما أحس هو أيضًا، بقدر معين من الفخر، أنه كان يعني شيئًا بالنسبة لها.

إلا أن ذلك الفخر كان يختفي في اللحظة، التي تقترب فيها بيتسي. كان يشعر بالخوف من أخت إيلينه لدرجة أنه وجد نفسه في أكثر من مناسبة يردُّ على مداعبتها، حادة الطبع، بكلام أكثر بطئًا وضحك أكثر فظاظة من المعتاد. كانت ترى متعة رائعة، رغم قسوتها، في استدراجه لكي يجاملها بالكلام، عندها تعمد بشقاوة إلى تحريف معاني كلماته وتدعي بأنها أهينت. ثم يقدم على الاعتذار، متلعثمًا في البحث عن العبارات الصحيحة، وغالبًا ما يجهل تمامًا الأمر غير اللائق، الذي ارتكبه، وهو ما يربكه إلى حد كبير لدرجة أنه لا يستطيع سوى أن يتمتم بتأكيدات مشوشة عن نواياه الطيبة. عندئذٍ تدوي ضحكتها، ويثير صوت تلك الضحكة الكاملة النابعة من القلب، وهي تستهزئ به مع إحساسها بالتفوق، عاطفة أعظم داخله من جاذبية أختها الأكثر حيوية وأثيرية. كانت عاطفة إيلينه عاطفة ندّاهة ذات عيون حلوة دامعة تخرج من زرقة المحيط بذراعين مثنيتين تدعوانه للاقتراب وصرخة مثيرة للشفقة، لا لشيء سوى أن تنزلق بلا حول ولا

قوة في الأعماق مرة أخرى، بينما كانت عاطفة بيتسي أشبه بكاهنة باخوس، التي تمسك بعصا الشمر الملفوفة بأوراق الكروم، وسعت في تضفيره بتعريشة العنب، أو تهديده بتحطيم كأسها الممتلئة في وجهه من باب الاستفزاز المبهج.

***

وبذلك حدث أنه - لم يستطع أن يعرف كيف حدث هذا على وجه الدقة - في ذلك المساء، وفي البرودة الخضراء لمستنبت زجاجي مضاءٍ إضاءة خافتة، طلب من بيتسي فجأة، في عجلة من الكلمات، أن تكون زوجة له. كان هناك شيء ما جذابًا، بل مغناطيسيًا، يتعلق بسلوك بيتسي ذلك المساء مما دفعه لأن يتقدم لها. وافقت بهدوء تام، دون اعتراض، مع حرصها على إخفاء بهجتها باحتمال أن تكون سيدة بيتها تحت ستار من السكون. كانت تشتاق إلى تغيير من الكتمة الجليلة بحجرة العمة فيره الأمامية بنوافذها الزجاجية الكبيرة، وبساط ديڤنتر السميك، والنار في الموقد، وطيور اللقلق وأزهار الفاوانيا على الستارة اليابانية.

لكن عندما هنأت إيلينه هِنْك ببساطة وبلطف على خِطْبته، فوجيء بعض الشيء، وتركه شعوره بانقباض من الانزعاج بسبب فعلته المتهورة معقود اللسان في مواجهة تمنياتها الأخوية الطيبة.

شعرت إيلينه نفسها فجأة، المنزعجة أكثر مما كانت تدري بسبب هذا التحول غير المتوقع في الأحداث، بأنها تتعامل بحذر مع بيتسي، وانسحبت إلى الانطواء الحزين. ولما كانت تعلم نفسها بأنها الأضعف من أختها، صارت متعجرفة وسريعة الانفعال، وأخذت من الآن فصاعدًا في معارضة تأثير أختها المهيمن.

***

كان هِنْك وبيتسي مضى على زواجهما عامٌ عندما توفيت عمة البنات. أنجبت بيتسي ولدًا. بحث هِنْك بتحريض من زوجته عن عمل، لأنه أزعجها في

بعض الأحيان بتراخيه الدَّمْث متبلد الحس، والذي ذَكَّرَها بكلب مُخْلِص يظل راقدًا طول الوقت تحت قدميّ صاحبه، ويتعرض للركل دون قصد نتيجة لذلك. كان يؤمن أيضًا بمفاهيم غامضة عن ضرورة أن يحصل شاب صغير على مهنة ما، بغض النظر عن حجم ثروته الشخصية، لكنه في هذه الأثناء لم يجد شيئًا مناسبًا، وتوقف عن بذل جهوده. على أي حال، لم يكن لديها الكثير لتشكو منه. في الصباح كان معتادًا أن يخرج مع كلبين من كلاب أولمر للصيد واللذين كانا يركضان وراءه؛ وفي فترة ما بعد الظهر كان يرافق بيتسي في الدعوات الاجتماعية بناء على طلبها، أو يزور ناديه عندما يُعفى من هذا الواجب. كان في كثير من الأحيان يقضي أمسياته في مرافقة زوجته، التي تشبه الفراشة إلى المسرح والحفلات الساهرة، حيث كان يقوم بالواجب باعتباره شيئًا ثانويًا مرهقًا بعض الشيء، لكن لا غنى عنه. استسلم لهذه الدوامة الاجتماعية، لأنه لم يستطع أن يستجمع شجاعته للاحتجاج، وبوجه عام وجد أن ارتداء ملابسه والسير وراء بيتسي أقل ترهيبًا من تعكير السلم المنزلي عن طريق تصادم إرادته بإرادتها. لكن الأمسيات الهادئة، التي كانا يقضيانها وحدهما معًا، رغم قلتها، كانت ممتعة بالنسبة لولعه الفطري بوسائل الراحة المنزلية، وأدى رضاه الكسول بتلك المناسبات لإثارة حبه أكثر من رؤيته لها في بعض التجمعات الاجتماعية، وهى تنخرط في محادثة رائعة. لا يجعله ذلك إلا حاد الطبع، ويلجأ إلى الصمت المتجهم أثناء طريق العودة إلى البيت. بالنسبة لبيتسي كان البقاء في البيت مللاً لا يُحتمل؛ لذلك ستتكئ على الأريكة مع كتاب في وهج قنديل الغاز المثير للنعاس، تسترق النظر إلى زوجها وهو يحدق في صفحات مجلة مصورة ما أو يجلس فقط لينفخ في الشاي لدقائق دون توقف، وكلتاهما عادتان مستفزتان للغاية بالنسبة لها. أحيانًا تُستثار للغاية لدرجة أنها لا تستطيع مقاومة انتقاد فشله في إيجاد شيء يقوم به، وهو ما لا يمكنه سوى الرد عليه بكلام مدغم، بعد إيقاظه بوقاحة من الاستغراق في عالمه الخيالي الدافئ، ومع ذلك، من داخلها كانت راضية تمامًا؛ فقد أحبت قدرتها على الإنفاق قدر ما

تشاء على الملابس، دون الحاجة إلى أي من الحسابات الدقيقة، التي كانت عمتها تلزمها بالقيام بها، وكثيرًا ما كانت تتذكر في رضا باسِمٍ أي أسبوع دون قضاء أمسية واحدة بالمنزل.

في الوقت نفسه، أمضت إيلينه السنة في عزلة كئيبة في بيت العمة فيره بنوافذه الزجاجية وطيور اللقلق وأزهار الفاوانيا اليابانية، ولم تَدُرْ في دوامة بيتسي الاجتماعية إلا بين الحين والآخر. قرأت الكثير من الكتب، وانجذبت بخاصة إلى تتابع الصور الخيالية لحيوات متخيلة في روايات ويدا بدرجات ألوان تنبض بالحياة السماوات الإيطالية المغمورة بأشعة الشمس الذهبية كمشكالٍ متلألئ الألوان. قرأت رواياتها الأثيرة من طبعات تاوخنتس حتى تفككت الصفحات، التي انثنت أطرافها وتجعدت، وبات يمسكها خيط رفيع واحد، وعندما كانت عمتها مريضة قضت ساعات طويلة بجوار فراش مرضها، وحتى أثناء سهرها بجوراها، وهو ما أعطاها شعورًا بالسعادة الرومانسية، قرأت رواياتها وأعادت قراءتها مرة أخرى. في داخل حجرة المرض رديئة التهوية، والتي تنبعث منها روائح الأدوية، ابتهجت إيلينه ابتهاجًا كبيرًا بسبب فضائل الأبطال النبلاء ومروءتهم والجمال المذهل للبطلات الشريرات كشياطين الجحيم أو الصالحات كملائكة النعيم؛ بالفعل كثيرًا ما تملَّكها شوق وحماس للإقامة بنفسها في قلعة من تلك القلاع الإنجليزية القديمة، هذا النوع من الأماكن، حيث كان نبلاء المملكة ونبيلاتها ممن لُقبوا بالإيرل والدوقة يلتزمون بمثل هذا الإتيكيت المهذب في علاقاتهم العاطفية، وحيث كانت لقاءات الغرام الرومانسية بشكل فاتن تدور في الحدائق المفتوحة القديمة، بجانب تجهيزات تشبه خشبة المسرح تلمع في ضوء القمر على خلفية من الأغصان الخضراء المائلة إلى الزرقة.

وعندما توفيت العمة فيره، دعا هِنْك وبيتسي إيلينه كي تعيش معهما. في البداية رفضت، تَغْلِبُ عليها كآبة غريبة، حينما تراودها فكرة الرابطة بين أختها وزوج أختها، وفي النهاية نجحت في إخراج نفسها من هذه الحالة الذهنية

الموحشة، لكن ليس بشيء إلا من خلال مجهود هائل من قوة الإرادة، كأنه خفقٌ عنيف بالأجنحة. لطالما تساءلت حول الانجذاب الغامض، الذي كانت تشعر به تجاه هِنْك، لكن الآن، وبعدما تزوج بأختها غدا الوضع مختلفًا. نشأ فيما بينهما حاجز غير مرئي، لكن لا سبيل إلى فهمه من التحفظ، بحسب قوانين اللياقة والعُرْف، لذا من الآن فصاعدًا لم تكن بحاجة بالتأكيد لأن تشعر بأي وخز ضمير بشأن إظهار تعاطفها معه بوصفها أخت زوجته. قالت لنفسها إن الأمر سيبدو سلوكًا صبيانيًا للغاية إذا سمحت لذكرياتها عن المشاعر غير المتمايزة في الماضي أن تمنعها من قبول عرضهما، وإلى جانب ذلك، كان ولي أمرها القانوني، عمها دانيال فيره، والذي يعيش في بروكسل، عزبًا وصغيرًا في السن لدرجة لا تسمح له باستضافة ابنة أخيه في منزله.

وبالتالي تنازلت إيلينه عن اعتراضاتها، ووافقت على الإقامة في بيت زوج أختها، وأصرت مازحةً على السماح لها بتقديم مساهمة شهرية متواضعة في النفقات المنزلية. رفض هِنْك رفضًا صريحًا، رغم أن بيتسي هزت كتفيها استهجانًا، وقالت إنها لو كانت في محل إيلينه لأرادت هذا الأمر نفسه، من أجل الشعور بأنها حرة ومستقلة. كانت إيلينه تحصل من الميراث، الذي تركه لها والداها على دخل سنوي يُقَدَّر بألفيّ جلدر. تمكنت إيلينه بهذا المبلغ، الذي كان تحت تصرفها بالكامل وبممارسة دروس الاقتصاد، التي علمتها إيّاها العمة فيره أن ترتدي الملابس بما لا يقل أناقة عن بيتسي، التي اعتمدت على كيس نقودها غير المحدود.

مرت ثلاث سنوات، والتي كانت خالية من الأحداث، إلا من جولات التسلية الموسمية نفسها.

٤

عندما نزلت إيلينه لتناول الإفطار في الصباح، عقب انفجارها باكية، كان هِنْك قد غادر بالفعل، متجهًا إلى الاسطبلات، حيث كانت توجد خيوله إلى جانب مع كلبيّ أولمر للصيد، اللذيْن لن تسمح بيتسي بوجودهما في البيت. لم يكن هناك أحد سوى بِنْ الصغير، الذي كان يدندن بلا صوت بينما يغرس أصابعه الصغيرة القصيرة والسميكة في شريحة من الخبز والزبد. كان بالإمكان سماع بيتسي، وهى تتحرك بصخب هنا وهناك مُصْدِرَةً التعليمات إلى جريت، خادمة المطبخ المتجهمة. من المنتظر وصول أربعة ضيوف على العشاء في ذلك المساء - وهم فرانس وچين فيريلاين وسعادة الآنسة دي ڤوده فان بيرج وشقيقها.

بدت إيلينه مفعمة بالنشاط، ومتألقة في ثوب صباحي بسيط من الصوف الرمادي الداكن مع تنورة مكشكشة ذات ثلاث طبقات، ومشدّ صدر سادة ومجسم مشدود عند الخصر بشريط حرير رمادي، ومعلق في رقبتها بروش صغير من الذهب على شكل سهم. لم تكن تلبس أي خواتم أو أساور مما أسهم في إضفاء لمسة من البساطة المدروسة والتحفظ اللائق بالسيدات الراقيات. والتفت حول جبينها ورقبتها خصلات رقيقة لولبية من الشعر، لينة كالحرير المنسول.

بعدما أومأت برأسها بمودة لبِنْ لما دخلت، ذهبت لكي تقف وراءه. وضعت يديها على جانبيّ رأسه الممتلئ، ومع مراعاة تفادي أصابعه وشفتيه المزبدة، طبعت قبلة حنون على هامته.

جلست، مسرورة إلى حد ما بالطريقة، التي بدت عليها اليوم، وشعرت في حالة رباطة الجأش، التي استعادتها يهدهدها بانسجام دفء الفرن، بينما هبطت

الثلوج بالخارج في صمت كزغب الطيور. تبسمت بلا وعي، وهى تفرك يديها البيضاوتين النحيلتين، وتضبط أظافرها الوردية ذات الرؤوس البيضاء، وبعد ذلك، لما ألقت نظرة خاطفة قانعة إلى الخارج، رأت بائعة فاكهة نحيفة كعود قصب ومحنية الظهر للغاية تحت شالٍ رمادي حقير، تدفع عربة برتقال مغطىً بالثلوج. تناولت قرص خبز وجبة الإفطار، وفي أثناء ذلك شعرت برعشة أخرى من الرضا، ظلاً منها مكابرة، عند سماعها للجدل الساخن بين بيتسي وخادمة المطبخ – أوامر حادة صاخبة وردود سريعة لاذعة وقحة ومقتضبة تدوي فوق قعقعة الأواني المعدنية وخشخشة الصيني لكومة من الصحون تُوضع بعنف.

دخلت بيتسي وعيونها تومض بالسخط تحت حواجبها السميكة، ومَطَّت شفتيها الصغيرتين الممتلئتين. حملت مجموعة من صحون الحلوى الزجاجية البلورية، والتي قررت أن تغسلها بنفسها، ذلك أن جريت كسرت صحنًا منها. ورغم تبرمها، وضعت الأطباق على الطاولة بعناية، وملأت حوضًا بالماء الفاتر، وظلت تبحث عن فرشاة.

«تلك الفتاة الملعونة! تخيلي غسل طاقم صحوني الزجاجية البلورية المفضل في الماء الساخن المغلي. الأمر دائمًا كما هو؛ لا يمكنكِ أن تثقي بأولئك المخابيل بأن يقوموا بأي شيء».

بدا صوتها قاسيًا وحادًا، ودفعت بِنْ من طريقها دون تمسك بالشكليات.

على الفور عرضت إيلينه المهتمة بمشاعر الآخرين من خلال حالتها الذهنية اللطيفة أن تقدم المساعدة، وكانت بيتسي سعيدة بقبول العرض. قالت إن لديها الكثير والكثير من الأمور لتقوم بها، لكنها بدلاً من ذلك ألقت بنفسها على الأريكة لتشاهد إيلينه وهي تنظف الصحون الواحد تلو الآخر بالفرشاة ثم تجففها في طيات منشفة شاي بحركات خفيفة ورشيقة، مع حرصها على ألا تبلل أصابعها أو تسكب قطرة واحدة. أحست بيتسي بالتناقض بين سرعتها المفعمة بالحيوية، الناشئة عن صحتها القوية، وأناقة أختها الواهنة، والتي افترضت ضمنيًا قدرًا معينًا من الإحجام عن إرهاق نفسها أو تلويث يديها.

«بالمناسبة، أخبرتني عائلة فرسترايتن أنهم لن يستطيعوا الذهاب إلى الأوبرا هذا المساء لأنهم بحاجة إلى قسط من الراحة بعد عرض الأمس؛ لذا عرضت العمة أن آخذ مقصورتهم. أتودين الذهاب؟».

«إلى الأوبرا؟ ماذا عن ضيوفكِ على العشاء؟».

«أخبرتني چين فيريلاين أنها تريد أن تغادر مبكرًا لأن أحد أطفالها أصيب بنزلة برد مرة أخرى، لذلك فكرت في أن أطلب من إيميلي وأخيها إذا كانا يودان أن يزورانا. يمكن أن يبقى هِنْك بالبيت. إنها مقصورة تكفي أربعة أشخاص كما تعلمين».

«فكرة حسنة. فكرة حسنة للغاية».

بجوٍ من الرضا جففت إيلينه آخر صحن زجاجي بلوري متلألئ من صحون الطقم، وما أن تَنَحَّت بعيدًا عن الحوض حتى اندلعت مشادة عنيفة أخرى في المطبخ، مصحوبة بقعقعة الأشواك والملاعق ذات الرنين الفضي. كان الشجار هذه المرة بين جريت ومينا، خادمة الأعمال العمومية. ركضت بيتسي للخروج من الحجرة، وترتب على ذلك موجة أخرى من الأوامر الغاضبة والردود المقتضبة.

في تلك الأثناء، وقف بِنْ حيث دفعته أمه، فاغرًا فمه في ذعرٍ أبكم بسبب ما في المطبخ من ضجة وصخب.

طلبت منه إيلينه قائلة: «هيا يا بِنْ، أيمكننا أن نصعد إلى حجرة خالتك معًا؟»، ومدت يدها إليه مبتسمة. مشى بجانبها، وصعدا الدَّرَج معًا.

تحتل إيلينه حجرتين بالطابق الأول، وهما حجرة نوم ومخدع واسع ملحق بها. نجحت من خلال وسائل متواضعة، لكنها تتسم بالذوق الرفيع أن تخلق انطباعًا بالترف والفخامة بلمسات فنية واضحة، لا سيما في حالة الفوضى المفتعلة هنا وهناك، والتي استحضرت تكوينات الحياة الساكنة. وقف البيانو في إحدى الزوايا في أحد الأركان. كما ألقت الأوراق الخضراء الكثيفة بشجرة

الأراليا العملاقة بظلٍ ملطف على مقعد منخفض مغطىً بقماش فارسي. فوق مائدةٍ صغيرة للكتابة تناثرت تحف فنية ثمينة، بينما كانت التماثيل واللوحات والريش والدروع المعدنية، التي تُلْبَس في الكف أثناء الحياكة تملأ كل زاوية. وعُلِّقَت مرآة طويلة ڤينيسية مزينة بشرائط وشرابات حمراء فوق رف الموقد الرخامي الوردي، والذي استقر فوقه تمثالان صغيران لإلهيّ الحب والروح، مصنوعان من الخزف البني الفاتح على طراز منحوتات كانوڤا، حيث تظهر العذراء، وهى تخلع وشاحها مستسلمة للإله المجنح الوالهِ بحبها.

ما إن دخلت إيلينه مع بِنْ حتى شعرت بوهج الترحيب المنبعث من الموقد على خديها. أعطت الطفل بعض الكتب المصورة المهترئة لإبقائه مشغولاً، حيث استقر جالسًا على المقعد تحت شجرة الأراليا. وانسحبت إيلينه إلى حجرة نومها، حيث ظهرت من النوافذ بضعة من أشكال الجليد العالقة كالأزهار الرقيقة المرسومة في هيئة بلورات شفافة.

ومن الجانب استقرت طاولة زينتها، مكشكشة بوفرة بأقمشة التول والدانتيل، والتي كانت قد أضفت عليها بعض اللمسات هنا وهناك بعُقَد الساتان المتبقية من باقات أزهار الحفلات الراقصة؛ بينما كان سطحها مثقلاً بمجموعة متنوعة من القناني والصواني المصنوعة من خزف السيڤر والآنية الزجاجية البلورية. في وسط كل هذه الزخم الوردي والأبيض تلألأت المرآة كورقة من المعدن المصقول. وتوارى هيكل السرير وراء ستائر حمراء، وفي زاوية من الجدران قامت مرآة شيڤال عريضة تعكس طوفانًا من الضوء السائل.

بحثت إيلينه عنها للحظة، لترى ما إذا كانت الخادمة قد رتبت كل شيء بما يرضيها، وبعد ذلك، عادت إلى حجرة جلوسها وأغلقت الباب، وهى ترتجف من البرد في حجرة النوم، التي عُرِّضَت للتهوية لتوها. كانت الحجرة بجوها الشرقي الصامت ملاذًا أكثر جلبًا للسرور، بينما كان كل شيء بالخارج لامعًا بالجليد والثلج.

* * *

شعرت إيلينه بأن حنجرتها مليئة بالألحان. عثرت في أثناء بحثها بين نوتات الموسيقى المكتوبة الخاصة بها عن مقطوعة موسيقية تتناغم ومشاعرها على ڤالس من مقطوعات ميراي. غنتها بتنويعات مختلفة من ابتكارها مع وقفات متواصلة غير محددة الطول، منسوجة بسلالة كخيوط الزجاج الرنانة ورعشات الصوت الجذلة الرائقة كتغريد قُبَّرة. نسيت البرد والثلج بالخارج. ولما شعرت بوخز الضمير لأنها لم تتدرب خلال الأيام الثلاثة الماضية، بدأت الغناء حسب المقامات، تُراوِحُ بين إضفاء البهجة على علاماتها الموسيقية العالية والتدرب على الانتقال الصعب بين المقامات المختلفة. رنَّ صوتها بنغمات ذات رجعٍ شجيّ، تظهر فيه لمحة من برودة كاللؤلؤ والبلّور في آن واحد.

رغم أن بِنْ كان معتادًا على صوتها الرخيم، الذي يتردد في أرجاء المنزل، فقد توقف عن تقليب صفحات كتابه المصوَّر للاستماع فاغر الفم، حينما تبدأ بداية صغيرة بين الحين والآخر بنغمة «تي»، أو «دو» حادة بشكل متفرد في السلم الموسيقي العالي.

شعرت إيلينه بالحيرة لإيجاد تفسير لحالتها المعنوية المنخفضة بالأمس. من أين جاءتها تلك النوبة من الكآبة؟ لم تستطع أن تفكر في أي سبب معين وراء ذلك. كم من الغريب أنه كان لا بد لهذا الشعور أن يَصْدُر من تلقاء نفسه، لأنها لم تستطع أن تفكر في أي حادث مبهج يبرر لها تغيير مزاجها. شعرت بأنها الآن مشرقة ومرحة، وفي حالة جيدة؛ وندمت لأنها لم تشاهد العروض، وكانت تود أن تسمع كل شيء عنها من بيتسي. وأَمِلَت ألا يعتقد آل فرسترايتن أن نفورها كان حجة لعدم الحضور. يا له من جنتلمان طيّب، مستر فرسترايتن، مسلي للغاية ويحب المرح، وزوجته يا لها من حبوبة! كانت بالفعل ألطف شخص عرفته !ولما جلست إيلينه على البيانو الخاص بها لتتدرب الآن على تعاقب النغمات السريع، بعدها سلسلة من الترددات الصوتية، سبحت أفكارها إلى كل الأشخاص اللطفاء الآخرين الذين تعرفهم. كان جميع معارفها لطفاء بشكل أو بآخر: عائلة فيريلاين، وإيميلي دي ڤوده، ومدام فان رات العجوز،

ومدام فان إرليفورت، حتى مدام فان دير ستور. أما بالنسبة لكاتو الصغيرة- لقد كانت رائعة. ووجدت نفسها تفكر كم سيكون مسليًا لو أنها انضمت إلى عروضهم المسرحية بنفسها. وافقت من قلبها على الطريقة، التي كانت فريدريك وماري وليلي وپول وإتيان يجتمعون بها دائمًا في سعادة معاً، ودائمًا ما يدبرون للهو والمقالب. كم من الممتع أن ترتدي ثيابًا جميلة، وأن تكون محط إعجاب الجميع! كان پول ذا صوت جذاب أيضًا؛ كانت تهوى كثيرًا الغناء في ثنائي معه، ونسيت تمامًا أنه قبل بضعة أيام فقط، أثناء محادثة مع معلمها في الغناء، لاحظت أن پول لم يكن لديه صوت يمكن الحديث عنه.

إذن لقد كانت في حالة مزاجية نشوانة، وغَنَّت ثانيًا- ذلك الڤالس الخاص بچولييت في أوبرا جونو. كم كانت تعشق جونو!

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما كان هناك من يطرق الباب.

صاحت: «ادخل!»، وهي تسند أصابعها النحيلة على المفاتيح بينما كانت تختلس النظر من فوق كتفها.

دخل پول فان رات إلى الحجرة.

«مرحبًا إيلينه. مرحبًا، أيتها النذلة الصغيرة» .

«آه، پول!»

نهضت، مندهشة إلى حد ما لرؤيته. توجه بِنْ إلى عمه وحاول تسلق ساقيه.

قالت إيلينه، بحرارة، «جئت مبكرًا! كنت أظن أنك لن تغني حتى هذا المساء. لكنك على الرحبة والسعة بطبيعة الحال. تفضل لتجلس، وأخبرني بكل شيء عن العرض!» ثم، لما تذكرت حالة النفور، التي شعرت بها مؤخرًا، خفضت صوتها إلى درجة مكتئبة مناسبة:

«أنا آسفة للغاية أنني لم أتمكن من الذهاب؛ لم أكن على ما يرام على الإطلاق، كما تعرف ... يا له من صداع فظيع».

«لم يكن ليخطر ببالي من خلال هيئتك».

«لكن هذا صحيح، يا پول! وإلا لماذا برأيك أفوِّت الفرصة لإبداء الإعجاب بموهبتك؟ استمر، أخبرني كل شيء عنه، أريد أن أعرف كل تفصيلة!»، أزاحت الكتب المصورة عن المقعد ودعته للجلوس.

تمكَّن پول في النهاية من تخليص نفسه من بِنْ، الذي كان يمسك به بإحكام، وهو يتأرجح على كعبيه الصغيرين.

«هيا إذن، أيها القصير البدين، لابد أن تتركني! حسنٌ، إيلينه، هل زال الصداع الآن؟».

«آه نعم، تمامًا. سوف أذهب وأهنئ مستر فرسترايتن بمناسبة عيد ميلاده، وأعتذر عن عدم حضور الحفل، لكن في غضون ذلك يا پول، أخبرني ما كانت عليه».

«في الواقع، ما كنت أود أن أخبركِ به هو أنني لن أغني بعد ظهر اليوم، لأنه لم يتبق لي أي صوت. قمت بالصراخ كثيرًا بالأمس لدرجة أن صوتي صار أجشًا للغاية. لكنها حققت نجاحًا كبيرًا، مع وضع كل شيء في الاعتبار».

ثم انطلق في وصف تفصيلي للعروض. كانت تلك العروض فكرته، وأنجز قدرًا كبيرًا من العمل بنفسه، بما في ذلك تلوين الخلفيات، لكن الفتيات أيضًا كنّ مشغولات في الشهر الماضي في تصميم الملابس والانتباه إلى مئات التفاصيل. سوف يأتي لوش بعد ظهر ذلك اليوم لالتقاط صور فوتوغرافية للعرض النهائي، لذلك حتى لو كان صوته لا بأس به لم يكن ليتمكن من أن يأتي للغناء معها. وإلى جانب ذلك، كان قاسيًا صارمًا كلوح خشبي لأنه كان يكدح بجد كنجار. أما بالنسبة للفتيات، فلا بد أنهن كنّ مُرْهَقات للغاية أيضًا. لم يشارك في تقديم العرض بنفسه، لأنه كان مشغولاً بدرجة كبيرة بعمل جميع الترتيبات.

أسند ظهره إلى الوسائد الفارسية تحت شجرة الأراليا متدلية الأغصان، ومرر يده على شعره ليمشطه. صُدِمَت إيلينه عندما فكرت في الدرجة، التي

يشبه بها هِنْك، رغم أنه يصغره بعشرة سنوات: ذو بنية جسدية أكثر نحافة، بطبيعة الحال، وأكثر حيوية بكثير، وذو ملامح أدق وملامح أكثر إشراقًا بشكل عام. غير أن الإيماءات والحركات، التي يُصْدِرُها بين الحين والآخر مثل رفع الحاجب تبرز التشابه بينهما بدرجة مذهلة، وبينما كانت شفتاه تحت شاربه الخفيف أدق من شفتيّ هِنْك تحت شواربه الكثة، كانت ضحكته تشبه ضحكة أخيه كثيرًا؛ عميقة ودافئة ونابعة من القلب.

* * *

سألت إيلينه: «لِمَ لا تأخذ دروسًا مناسبة في الرسم يا پول؟».

«بالتأكيد، إذا كان لديك موهبة».

ضحك قائلاً: «لكنني لا أملكها!»، لذا فالأمر لن يستحق كل هذا العناء. أنا فقط أمارس هوايتي، كما تعلمين، سواء كان ذلك في الرسم أو الغناء. لا شيء من ذلك يرقى إلى أي شيء».

ثم تنهد لافتقاده الطاقة، التي عليه أن يبذلها لتحقيق أقصى ما يمكن من الموهبة الصغيرة، التي قد يمتلكها.

رَدَّت قائلة بلهجة تشفُّ عن حنين إلى الماضي لما استحضرت صورة والدها المرسومة بشاعرية في خيالها، «أنت تذكرني ببابا، كانت لديه موهبة هائلة، لكن صحته كانت سيئة وفي النهاية كان أضعف من أن يضطلع بأي شيء على نطاق كبير. كان قد بدأ لتوه الرسم على لوحة كَنَفَاه ضخمة، مشهد من «الجنة» لدانتي على ما أذكر، وبعد ذلك . . . وبعد ذلك توفي. بابا المسكين! لكن أنت، أنت شاب صغير السن وبصحة جيدة؛ لا أستطيع أن أتخيل لِمَ لا يتملكك الطموح لعمل شيء عظيم، شيء بعيد عن المعتاد والمألوف».

«تعرفين أنه كان من المخطط أن أعمل في مكتب هوفل، أليس كذلك؟ العم فرسترايتن اعتنى بذلك من أجلي».

كان هوفل محاميا معترفا به منذ فترة طويلة، ولما كان پول في الواقع،

بعد نوبات متبادلة من الاجتهاد والكسل، قد تخرج في سن مبكرة نسبيًا، رأى العم فرسترايتن أنه سوف يُسدي إلى الشاب صنيعًا لا بأس به بالإشادة به عند صديقه، ومن ثم استقر الأمر على أن ينضم پول إلى مكتب هوفل إلى أن يحين الوقت، الذي يُؤَسِّسُ فيه مكتبه الخاص.

«في مكتب هوفل؟ رجل لطيف للغاية! أنا أحب زوجته كثيرًا، أيضًا. ياه، لكن هذا سيكون رائعًا يا پول».

«لنأمل في ذلك».

«تعرف، لو كنتُ رجلاً لكنت عملت جهدي أن أصبح مشهورة. تعال إلى هنا الآن يا بِنْ، كن ولدًا مطيعًا، اجلس على الأرض وطالع تلك الصور الجميلة. ألا تحب أن تكون مشهورًا؟ ترى، لو لم أكن إيلينه فيره، لوددت أن أكون ممثلة!».

ثم انطلقت تُنَغِّم صوتها بدرجات متعاقبة، تدفقت من شفتيها كقطع الألماس السائل.

رَدَّ قائلاً باستهجان دالٍ على عدم الموافقة، «مشهورة! لا، كم هي فكرة صبيانية أن ترغبي في أن تكوني مشهورة! هذا آخر شيء اهتم به. ومع ذلك، أرغب في أن أتقن الرسم أو في الغناء من أجل ذلك».

«إذن لِمَ لا تتلقى دروسًا سواء في الرسم أو في الموسيقى؟ أتسمح لي أن أتحدث إلى مدرس الغناء الخاص بي في هذا الشأن؟».

«لا شكرًا، ليس روبرتس العجوز المتجهم. ثم إلى جانب ذلك يا إيلينه، وبصراحة، الأمر لا يستحق كل هذا العناء. لن أستمر على الإطلاق في هذا الكورس، مهما كان. فأنا تنتابني هذه الحالات المزاجية المفاجئة، كما تعلمين، عندما أشعر بأنني أستطيع أن أفعل أي شيء، ثم أنطلق لأبحث عن موضوع عظيم ما لأرسمه ...».

ابتسمت ابتسامة حزينة، «مثل بابا».

«بعد ذلك تحمست للغاية بشأن تقديم أفضل ما باستطاعتي من صوتي، كما هو تمامًا، لكن قبل أن أعلم ذلك كل ما لدي من خطط وقرارات تلاشت بالتدريج كأعداد كبيرة من أعواد الثقاب المحترقة».

«لا بد أنك تشعر بالخجل من نفسك».

«من الآن فصاعدًا سأعمد إلى إخفاء تطلعات عبقريتي في القضايا القانونية كما سترين»، قال ذلك بضحكة مكتومة وهو ينهض ليقف على قدميه. «لكن الآن عليّ أن أذهب إلى پرنسيسيخراخت - إلى آل فرسترايتن، في الواقع. لذلك لا تتوقعي مجيئي بعد ظهر اليوم. لدينا الكثير من العمل لنقوم به قبل وصول لوش. وداعًا يا إيلينه! وداعًا بِنْ الصغير!».

«وداعًا إذن. آمل أن يتحسن حلقك قريبًا».

غادر پول وعادت إيلينه إلى البيانو الخاص بها. جلست لفترة من الوقت تفكر أنه من المؤسف أن يكون لدى پول هذا القدر القليل من الطاقة، ومنه جَنَحَت أفكارها إلى هِنْك.

إلا أنها شعرت إجمالاً بالبهجة أكثر من أن تُقاد إلى الكثير من التفلسف، ولذلك استأنفت غناءها باستمتاع بالغ، ولم تتوقف حتى دعتها رنة جرس الساعة الثانية عشرة ظهرًا وبِنْ للنزول إلى الطابق السفلي.

* * *

قال پول إنه لن يتناول الغداء في المنزل لأن عائلة فرسترايتن كانوا في انتظاره على الغداء. كان پول يعيش في شارع فان ميردرفورت مع أمه، وهي الأخت الأكبر لمدام فرسترايتن وسيدة محترمة ذات عينين زرقاوين عميقتين وشاحبتين، وتعمل كوافيرة ذات شعر رمادي فضي، وذات طراز قديم قليلاً، وهيئة تشي بالاستعفاء والتعب. ولأنها كانت تعاني من صعوبة متزايدة في المشي، كانت عادةً ما تجلس وسط كرسيها المريح ذي المسند العالي وتطأطئ رأسها إلى أسفل وتطوي يديها ذات العروق الزرقاء في حِجْرها. عاشت

حياة هادئة ورتيبة في أعقاب حياتها الهادئة والقانعة، والتي لم يعكر صفوها شيء بجوار زوجها، والذي توجد صورة له مُعَلَّقة في مكان قريب. اعتادت أن تطالعها في أغلب الأحيان: شخص وسيم يرتدي زيّ جنرال، ملامح قوية وواضحة إلى جانب عينين تنمَّان عن الصدق والحكمة وتعبير ذي جاذبية يصف الفم الصارم المغلق. ابتلتها الحياة بالقليل من الأحزان العظيمة، ولهذا، كانت تشكر الرب من خلال بساطة إيمانها الشعرية. مع ذلك، وفي الآونة الأخيرة، بدأت تشعر بالتعب على نحو متزايد، مكسورة الروح تمامًا بسبب فقدان الرجل الذي حملت له مشاعر الحب حتى النهاية، بحلول ذلك الوقت هدأ حبها الفائر المفهم بالشباب ليستحيل إلى السكون الذي لا يعكره شيء لبحيرة ساكنة. كانت منذ رحيله قد بدأت في الغضب من آلاف الأمور التافهة، والتي نَجَم عنها مضايقات يومية مع الخدم والتجار، وتجمعت مصادر الانزعاج هذه معًا في رأسها كعبء لا يُحتمل. كانت تشعر بسنها؛ لم يعد أمام الحياة الكثير لتقدمه لها، وانسحبت إلى حالة أنانية بشكل هادئ من أحلام اليقظة عن الشعر المفقود من ماضيها.

وَلَدَت له ثلاثة أطفال، كانت أصغرهم فتاة، ماتت.

من بين ولديها كان هِنْك الولد المفضل بالنسبة لها، والذي تذكرها وقفته الثابتة أكثر شيء بزوجها. إلا أن طبيعته كانت سهلة المراس أيضًا، أقرب من قوة والدهما الصلبة من جموح پول المتوتر وعبقريته المقيدة. كانت دائمًا ترى پول غير مستقر وعصبي للغاية؛ فهو كطالب في ليدن كان قد انقطع عن دراساته القانونية عدة مرات، ولم يتخرج إلا بعدما تدخل العم فرسترايتن ليمارس بعض الضغط المعنوي. ثم إنها ليست أقل اهتمامًا اليوم، مع سهره بالخارج حتى وقت متأخر، وشغفه بالرسم والعروض الحية والغناء الثنائي، ناهيك عن نوبات الخمول المتكررة، والتي يسترخي في أثنائها على الأريكة طيلة فترة بعد الظهيرة متظاهرًا بقراءة كتاب.

في السنوات، التي سبقت زواجه، تأقلم هِنْك، الأكثر رزانة وعائلية من

پول، بشكل أفضل مع عادات أمه العجوز. لم يكن معتادًا على المحادثة، لكنها لم تجد أبدًا عيبًا في طبعه المُقِلّ في الكلام: بالنسبة لها كان الأمر كوجودها المطمئن في حضرة كلب نيوفاوندلاند، وفيّ يراقب صاحبته بعين ساهرة نصف مغلقة. كانت تشعر بالأمان جدًا في صحبة هِنْك العزيز. كانت تنفر من الوحدة، لأنه حينئذٍ تتناقض ذكريات الماضي البعيدة الملونة بالوردي بشكل مؤلم للغاية مع رمادية الحاضر المنتظمة، وبالنسبة لپول شاهدت أكثر قليلاً من ذكريات ازدراده لطعام العشاء سريعًا كي يلحق بموعد ما، أو الاسترخاء أثناء وجوده بالمنزل. قلما كانت تخرج خارج البيت، إذ صارت غير معتادة على حركة المرور الصاخبة في الشوارع وجلبة الأعداد الكبيرة من البشر.

كان هِنْك طفلها المدلل، ورغم المخاوف، التي كانت تغشى ذهنها كانت تنتبه دائمًا، حيث وُجِدَ ما فيه صالحه. شعرت بالأسف لزواج ابنها من بيتسي فيره. لم تعتبر مطلقًا بيتسي زوجة مناسبة لولدها، ولم تكن قادرة في الواقع أن تمنحه بركة الأم من القلب حينما أعلن أنه يعتزم اتخاذها زوجة. لكنها لم تُقْدِم على أية محاولة لتثني ابنها الحبيب عن اختياره خوفًا من أن تتسبب في تعاسته. على النقيض، ونوعًا ما بشكل أدهشها شخصيًا، أخفت شعورها بعدم الارتياح تجاه المرأة الدخيلة ورحبت بها كابنتها، كانت تشعر، رغم ذلك، بقلق عميق بشأن مستقبل هِنْك. كانت قد تعرفت إلى المرحومة مدام فيره، وإن كان ليس عن قرب، ولم تُولَع بها: كانت تتذكرها كشخصية مسيطرة وكريهة، وأزعجها التشابه بينها وبين بيتسي، رغم أن من الجليّ أن هِنْك كان يمتلك قدرًا من الحزم في شخصيته أكثر بكثير من والد بيتسي، والذي تذكرت أنه كان ممتقع الوجه كالأموات ومبتلىً بنوبات الصداع النصفي في الوقت، الذي كان يترك زوجته تفكر وتتصرف بالنيابة عنه، ورغم أن هِنْك ورث قوة والده، وأنه لن يتحمل أي هراء من أي زوجة، فقد كانت على قناعة أنه لن يكون سعيدًا مطلقًا مع بيتسي، كما كانت حالها مع زوجها. وعندما تطيل التفكير في هذه الأفكار تتنهد وتدمع عينيها؛ منحتها غريزة الأمومة، التي أعمتها عن إخفاقات هِنْك شعورًا

حادًا بالحقيقة الكامنة كذلك، بينما كانت أمنيتها الوحيدة لابنها أن يجد نفس السعادة في الزواج كما عرفتها هي.

أيقظتها لينتيه الخادمة من تأملها، وهي تضع الطاولة المستديرة لشخص واحد في الحجرة المجاورة، وباستعفاء منهك جلست لتناول طعام الغداء وحدها. كم هي بغيضة هذه العزلة! الغد سيكون نفس الشيء بالنسبة لها كاليوم: وَصَل صيف حياتها إلى نهايته، ورغم أن الخريف والشتاء ربما خَلَيا من العواصف، فإن كل ما أتيا به كان عبارة عن الكآبة والسُّبات البارد. وربما تكون ميتة كذلك!

جعلها الإحساس بالوحدة والهجر متبلدة لدرجة أنها لم توبخ لينتيه مرة واحدة على حماقتها، رغم أنه لم يخف عليها أن طبق التقديم الخزفي بات متكسرًا للغاية على طول حوافه أثناء عملية غسيل الأطباق.

* * *

بعد ظهر ذلك اليوم غادرت إيلينه المنزل في وقت أبكر من المعتاد لزيارة آل فرسترايتن. كان الوقت يقترب من نهاية نوفمبر، والشتاء قد بدأ يدق الأبواب بإصرار. كان هناك صقيع كثيف؛ بينما كانت الثلوج، التي كانت لا تزال بيضاء مائلة إلى الزرقة ولا تشوبها شائبة، تطقطق تحت وقع أقدام إيلينه الخفيفة والمنتظمة، لكنها إن أمكن كانت تلجأ إلى الأرصفة، التي كُنِسَت عنها الثلوج. سارت بطول شارع يافاسترات في اتجاه برنسيسيخراخت بيديها المغطاتين بأناقة بقفازين والمدسوسين في أنبوب الفرو الصغير، تلقي ابتسامة ودية بين الحين والآخر وتخفض رأسها لتحية بعض معارفها من تحت إيشاربها القصير المصنوع من التول. كانت لا تزال في حالة مزاجية سعيدة، تشعر بالرضا إزاء لبسها الشتوي المتأنق المُزيَّن بالفراء البني، وغير متأثرة تمامًا بالمشاحنة الخفيفة، التي نشبت لتوها بينها وبين بيتسي، والتي اتهمتها بأنها أمرت جريت للقيام بعمل مينا. أصبح هذا النوع من الخلافات متكررًا على نحو متزايد في الآونة الأخيرة، بما تسبب في الكثير من التكدير لهِنْك، ذلك أنه لا يكره شيئًا

أكثر من تفاهة المشاحنات المنزلية.

لكن هذه المرة لم تلتفت إيلينه إلا قليلاً إلى ملحوظة بيتسي، ورَدَّت بشكل أقل حدة بكثير عن المعتاد؛ لم تكن لديها أي نية لأن تسمح لحالتها المزاجية الجيدة أن تفسدها مثل هذه التفاهات - كانت الحياة غالية جدًا بالنسبة لها.

وبعد ذلك، ولما شعرت بالامتنان لأنها كظمت غيظها، دارت حول ناصية شارع يافاسترات.

عند وصولها إلى بيت فرسترايتن وجدته ما زال في حالة من الفوضى. أعلنت دين أن سيدتها لم تكن تتوقع زيارة أحد، لكن إيلينه تجاهلتها وشقت طريقها إلى الجناح، حيث دخلت على سيدة المنزل، التي اعتذرت لها لأنها قابلتها، وهى ترتدي روب البيت. دسَّ لوش المصور رأسه تحت القماشة الخضراء بجهازه لرؤية الفرقة وهم يُشَخِّصون الحواس الخمس. كان إتيان وپول والفتيات مبتسمين جميعًا، قالت إيلينه بعد اعتذارها إلى مدام فرسترايتن لتغيبها مساء اليوم السابق كم هى سعيدة من أجل فرصة رؤية شيء من العروض في النهاية، لكن الآن في ضوء النهار الكئيب المنعكس من الحديقة المغطاة بالثلوج، لا يعطي المشهد الانطباع الفخم المتوهج نفسه، كما في مساء اليوم السابق، ولا كانت الألوان زاهية كما كانت في بريق الأنوار البنغالية. كانت الستائر معلقة في طيات فضفاضة ومكومة، وكان فستان فريدريك الذهبي ذا لون مرقش داكن خفيف، وتحول فرو القاقم الخاص بها إلى بطانية سادة من الصوف مطرزة باللون الأسود، وباتت باروكة إتيان الشقراء بلا خصلات شعر. طلب لوش منهم أن يرسموا على وجوههم تعبيرًا أكثر بشاشة، لكن دون جدوى؛ أما لي لي، التي تمثل حاسة الشم، فقد كانت مستلقية نصف نائمة على وسائدها.

قالت ماري: «أخشى أن الصورة لن تساوي الكثير»، بينما كان لوش يقوم بتعديل ردائها، لكن الشابة كاتو فان دير ستور كانت تعتقد خلاف ذلك، وظلت ترقد بلا حراك، رغم إصابتها بتمزق عضلي لا يُحتمل في جنبها نتيجة لوضعيتها الصعبة.

ذهبت إيلينه، التي لم تكن ترغب في تعكير صفو تركيز الفنانين الواقفين إلى البيت الزجاجي، حيث جلست بجوار مستر فرسترايتن لتقدم التهاني بعيد ميلاده. طرح كتابه جانبًا وخلع عويناته، كان ذلك أفضل لتركيز عينيه البنيّتين المتلألئتين على الزائرة الشابة الأنيقة.

قالت، وهى تفك أزرار سترتها المزينة بالفراء، «أتعرف، أتعرف أنني أشعر بشيء من الغيرة من تلك المجموعة الصغيرة السعيدة بالجوار، مع بعضهم دائمًا، مرحين دائمًا، ممتلئين كالكأس المترعة بالأفكار والمرح. عجبًا، إنهم يجعلونني أشعر بأنني عجوز جدًا!».

ردَّت مدام فرسترايتن، وهى تضحك أثناء وقوفها، وهى ترتدي روب البيت وراء أحد الكراسي، «حسنٌ أنا أبدًا! أنتِ في نفس عمر ماري، أليس كذلك؟ ثلاثة وعشرون، صحيح؟».

«نعم، سيدتي العزيزة، ولكنني لم أكن مدللة مثل ماري ولي لي، إلا أنني لم أكن أعبأ بهذا ولو قليلاً! كما تعلمين، في منزلنا - عندما كنت صغيرة - كان بابا مريضًا في أغلب الأحيان وبطبيعة الحال جعلنا هذا هادئين، وبعد ذلك لما عشنا في بيت العمة فيره ... كانت لطيفة للغاية، ولكنها كانت أكبر من بابا بكثير، ولم تكن كثيرة المرح أيضًا».

قال مستر فرسترايتن: «لا ينبغي أن تتحدثي بكلام سيئ عن العمة فيره يا إيلينه! لقد كانت شخصًا عزيزًا على قلبي من زمن بالنسبة لي، وسوف تظل كما تعرفين».

«آه، ولا ينبغي أن تمازحها! أنا أحببتها كثيرًا، كانت بمثابة أمٍ ثانية بالنسبة لنا، وعندما توفيت بعد ذلك المرض الطويل كان الأمر صدمة مروعة. شعرت بأنني وحدي تمامًا في هذا العالم ... كما ترون، لم أتمتع بوقت سعيد تمامًا أثناء نشأتي». ابتسمت ابتسامة حزينة، وابتلت عيناها بالدموع عندما فكرت في كل الأشياء التي فقدتها. «لكن عندما تنظرون إلى پول وإتيان والفتيات،

لن تجدوا شيئًا إلا الضحك والبهجة. فعلاً، هذا من شأنه أن يُشْعِرَ أي إنسان بالغيرة. ثم إن كاتو فتاة حلوة أيضًا».

كان يمكن سماع الفنانين، وهم يتقافزون من خشبة المسرح: وصلت جلسة التصوير الفوتوغرافي إلى نهايتها. دخل پول وإتيان البيت الزجاجي مع فريدي وماري وكاتو، كلهن مرتديات ملابسهن، بينما ذهبت لي لي إلى الفراش لتنام، مرهقة من إثارة اليومين الماضيين».

«وداعًا آنسة فيره»، قالت كاتو، وهي تمد لها يدها الصغيرة.

شعرت إيلينه بعاطفة مفاجئة لا يمكن تفسيرها تجاه الفتاة الصغيرة، غاية في النقاء وفاتنة بلا وعي، ولما أرادت النهوض كي تغادر المنزل اضطرت لإخفاء مشاعرها بعناق كاتو عناقًا عنيفًا لعوبًا.

غمغمت: «وداعًا يا حبيبتي! حسنٌ، مدام فرسترايتن، أعتقد بأنه يلزم أن أغادر. أتوقع أن لديكِ الكثير من الأشياء للاعتناء بها الآن كي تعود الأمور إلى وضعها الطبيعي. فقط، وعدت بيتسي أنني سأسأل عن تذاكر الأوبرا. أيمكنني أن آخذها معي إن كانت معكِ، بمعنى آخر؟».

* * *

كان الوقت لا يزال مبكرًا، إذ دقت الساعة لتوها الثانية والنصف، وجال بخاطر إيلينه أنها أهملت زيارة مدام فان رات لبعض الوقت، رغم أنها تعرف أن السيدة العجوز لديها الوقت لها، وتحب استقبال الزوار في فترة ما بعد الظهيرة للدردشة. يحرص هِنْك على زيارة أمه كل صباح بعد ركوبه، يرافقه دائمًا كلبَا صيد أولمر، اللذين لا تطيقهما زوجته، وسوف يثبان ببهجة ومرح لصعود الدَّرَج في منزل والدته. نادرًا ما تظهر بيتسي معهما؛ لأنها على علمٍ بتحفظات حماتها تجاهها. إلا أن إيلينه فازت بقلب مدام فان رات، وذلك بفضلٍ أسلوبها الجذاب بطريقة مميزة تجاه السيدات الكبيرات في السن: شيء في نبرة صوتها، في لفتاتها المهتمة الصغيرة، التي تنمُّ عن مراعاة لشعور الآخرين، والتي تدل

على الاحترام الباعث على السرور.

عادت إيلينه عبر شارع يافاسترات إلى شارع فان ميردرفورت، ووجدت مدام فان رات وحدها، تجلس في كرسيها ذي المسند العاليّ ويداها مطويتان على حجرها. كانت الصورة، التي تُصَدِّرُها صورة هذه الكآبة المطلقة بدرجة أدت بالزائرة الشابة بالشعور بالقلق وعدم الارتياح؛ كانت المفروشات الفخمة، لكنها بالية تفوح منها رائحة الحنين إلى البهجة في الماضي، ومن الردهة إلى الحجرة الأمامية بستائرها المخملية الخضراء الداكنة كان الحزن والحنين محسوسيْن تمامًا. شعرت إيلينه بأن قلبها يتحطم. كم كان بائسًا كل شيء! لا، لم تكن الحياة تستحق أن تُعاش. لماذا، لماذا ...؟

ثم بعد ذلك سيطرت على نفسها. وبعد أن لملمت كل الأفكار التي جعلتها مبتهجة جدًا صباح ذلك اليوم، رسمت ابتسامة على وجهها واستخدمت نبرتها المعتادة الدالة على الاهتمام والمودة المحترمة لدى حديثها المتحمس عن بول، وعن التابلوهات، وعن حفلة العشاء ذلك المساء وعن الأوبرا، ووعدت بأن ترسل لمدام فان رات بعض الكتب: كتب أدبية خفيفة ومسلية، والتي يُنظر فيها إلى العالم من خلال نظارات وردية.

آلمها أنها واصلت ثرثرتها الفارغة المفعمة بالحياة في الوقت الذي كانت تود لو أنها أجهشت بالبكاء كثيرًا مع أم هِنْك، مبدية تعاطفًا مثيرًا للشفقة، لكنها احتوت مشاعرها، بل إنها استجمعت الشجاعة لتفتح موضوعًا أكثر جدية. كانت قد رأت الدموع في عينيّ السيدة العزيزة عندما وصلت، وقالت بصوتها المريح، إنه لا فائدة من إنكار الأمر؛ وإنها لا ترغب في أن تكون فضولية، لكنها تود مواساتها لو أنها تعرف ما خطبها فحسب، وبجانب ذلك، كانت المدام العزيزة قد أَسَرَّت لها من قبل، أليس كذلك؟

كانت إيلينه تلمح إلى شكاوى بشأن بيتسي وأمور أخرى مختلفة، مشاغل صغيرة رأت أن من الأفضل ألا تفصح عنها.

أطلقت السيدة العجوز، التي شعرت بالارتياح بالفعل ضحكة خفيفة وهزت رأسها: حقيقةً، لم يكن هناك شيء على غير ما يرام، كل ما هنالك أنها كانت تشعر بالوحدة أحيانًا، أو ربما كان مجرد ملل سنوات حياتها؛ إذ ليس لديها إلا عدد قليل للغاية من الاهتمامات في الوقت الحالي، لكن في نهاية الأمر كان هذا خطأها هي، أليس كذلك؟ المسنون الآخرون يقرأون الصحف ويواصلون مواكبة الأشياء عمومًا، لكنها ليست كذلك. ياه، إيلينه يالها من إنسانة عزيزة ورائعة؛ لِمَ لا تستطيع بيتسي أن تكون مثلها قليلاً؟

تنبهت ورفعت رأسها قليلاً، وبدأت الحديث عن حياتها حينما كانت فتاة صغيرة، ثم بعدها التفتت نحو صورة زوجها الحبيب، وحياتها معه.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة مساءً عندما استأذنت إيلينه بالانصراف وأسرعت بالمشي. بدأت تهبط ظلمة المساء، وبدأ الجليد في الذوبان، وبدت الغيوم المكفهرة، كما لو كانت على وشك النزول لتخنقها. قالت السيدة العجوز إنها كانت سعيدة ذات يوم، سعيدة جدًا ... لكن هل كان ذلك حقيقيا بالفعل؟ بعد ذلك انظر إليها، إيلينه: لم تكن سعيدة، حتى لما كانت صغيرة. فكيف سيكون شعورها لو أصبحت في نفس عمر مدام فان رات العجوز، وكلها تجاعيد وقبيحة؟ لن يكون حتى لديها عزاء من الذكريات السعيدة لكي تعود إليها بالذاكرة؛ ستكون حياتها بأكملها ظلاً كئيبًا من اللون الرمادي، الرصاصي كالغيوم! فكرت، يا الله لماذا يجب أن أعيش إذا لم أُرزق بالسعادة؟

همست: «لماذا، لماذا؟»، وهي تسرع الخطا عندما كانت تفكر في ضرورة أن تلبس ملابسها لتناول طعام العشاء.

* * *

كان من المتوقع أن يكون حفل عشاء بسيط وغير رسمي. وصل آل فيريلاين في تمام الساعة الخامسة والنصف، وما لبث أن لحقت إيميلي وجورج بهم. استقبلتهم بيتسي في الصالون وسألت عن ابنة آل فيريلاين الصغيرة.

قالت چين: «أفضل بكثير، شكرًا لك، لم تعد مصابة بالحمى، لكنها حتى الآن لم تتعاف تمامًا. كان الدكتور راير سعيدًا بحق بالتقدم، الذي حققته. كم هو لطيف منك أن تدعونا؛ فأنا لم تتح الفرصة لي للخروج مؤخرًا، لذلك فهذا تغيير يلقى أفضل ترحيب من أن نظل محبوسين في البيت. كل ما هنالك أنني أخشى أني قد أخذت دعوتك بمحمل الجد عن كونها أمرًا غير رسمي، كما ترين.

تحركت عينيها سريعًا في شيء من القلق بين فستانها الأسود البسيط وثوب بيتسي الرمادي المصنوع من الساتان.

«امم، لن يكون هناك أي شخص آخر غير إيميلي وأخيها، لكن بما أنكِ قلتِ لي إنكِ تريدين المغادرة في وقت مبكر، اعتقد بأننا سنذهب إلى الأوبرا بعد ذلك. سمح العم فرسترايتن لنا بأن نأخذ مقصورتهم. لذلك لا شيء يوجب أن تضايقي نفسك من أجله، كنتِ على حق تمامًا بأن تأتي كما أنتِ».

أتى هِنْك مسرورًا ودمثًا، وهو يرتدي سترته المسائية، والتي وجدتها چين أكثر بعثًا على الاطمئنان من رد فعل بيتسي بارتداء ملابس غير رسمية. كانت إيميلي، التي أصدرت خشخشة بما ارتدته من خرز الكهرمان الأسود والمليئة بالحيوية والطاقة أكثر من أي وقت آخر من المعارف المقربين، مما جعل جورج فقط- وهو يرتدى سترة رسمية ويضع زهرة جاردينيا في عروتها- يشعرها بعدم الارتياح، وهى ترتدي فستانها النهاري.

كان فرانس فيريلاين، الذي كان فردًا في الخدمة العسكرية الاستعمارية بالهند الشرقية في إجازة بهولندا بسبب حالته الصحية، وكانت زوجته صديقة مدرسة قديمة لإيلينه وبيتسي.

كانت چين امرأة صغيرة ومتواضعة، مكبوتة جدًا، وواقعة تحت وطأة مشاكلها المنزلية. عملت المرأة ذات البنية الخفيفة واللون الممتقع الدال على فقر الدم والعينين البنيتين الناعمتين جاهدة في مهمة تربية ثلاثة أطفال

ضعاف الصحة بموارد مالية محدودة، وعلاوة على ذلك مثقلة بالغربة في جزر الهند الشرقية، الأرض، التي وُلِدَت بها، حيث أحبت أسلوب الحياة البسيط في مركزهم النائي. كانت تعاني من البرد، وكانت تعد الأشهر المتبقية على رحيلهم من هولندا. أخبرت إيميلي عن بيتهم في تيمانجونج في كادو، حيث كان فرانس يعمل مراقبًا ماليًا للدرجة الأولى، وعن مجموعة الحيوانات والطيور، التي كانوا يملكونها من دجاج الكوشين الآسيوي والبط والحمام وبقرة هولندية تُحْلَب كل يوم، وزوجًا من الماعز وببغاء.

علقت إيميلي بقولها: «كأنها مثل حياة آدم وحواء في الجنة»،

ثم حَكَت چين كيف كانت معتادة على أن تخرج كل صباح لتعتني بورودها الفارسية وأشجار الكروتون الجميلة، وكيف كانت تقطف خضروات اليوم في حديقتها الخلفية الخاصة، وكيف كان صغارها يبدأون في السعال ويصابون بالمرض في اللحظة التي يصلون فيها إلى هولندا. صحيحٌ أنهم كانوا شاحبي اللون في جزر الهند الشرقية أيضًا، لكن على الأقل هناك لم تكن دائمة القلق بشأن تيارات الهواء والتأكد من أن الأبواب مغلقة بإحكام. قالت إنها افتقدت خادمتها، التي اُضطرت لتركها هناك لأسباب اقتصادية. في هذه الأثناء، كانت خادمتها واسمها ساريبا في الخدمة مع آخرين في سيمارانج، لكنها تعهدت بأن تعود بمجرد أن يرجعوا إلى جزر الهند الشرقية، ووعدتها چين بدورها بأن تجلب لها بعض القطع من الأقطان الجميلة من هولندا لكي تصنع فساتين «الكيبايا» لنفسها منها.

استمعت إيميلي باهتمام ودود وأمطرتها بالأسئلة، لأنها عرفت كيف أن الحديث عن جزر الهند الشرقية يمكن أن يُخْرِجَ چين عن تحفظها المعتاد. اعتبرتها بيتسي غير ملائمة لحفلات الاستقبال الكبيرة، لذلك عادةً ما تدعوها هي وزوجها وحدهما أو مع واحد أو اثنين فقط من المعارف المقربين الآخرين. الحقيقة كانت ترى چين مملة وتافهة وتفتقر إلى الأناقة وتميل إلى الشكوى المستمرة، ولكنها شعرت بأنه لم يكن هناك سبب لعدم دعوتها إلى اللقاء غير

الرسمي بين الحين والآخر. أُدرجت چين في الدعوة بدافع الشفقة، وإيميلي بدافع السرور، وجورج بدافع من الواجب.

بينما كان فرانس فيريلاين يسهب في الحديث مع هِنْك حول ترقيته الوشيكة إلى مندوب عسكري مساعد، وجورج يستمع بأدب إلى حكاية چين عن انحراف حصان زوجها ذات مرة إلى فرندتهم سعيًا إلى هديته اليومية من الموز، كانت بيتسي تتكئ إلى الوراء على كرسيها، معتقدة أن إيلينه استغرقت وقتًا طويلاً لكي تأتي. كانت تأمل أن تتناول العشاء في وقت مبكر لكي تصل إلى الأوبرا في الوقت المناسب للحاق بالقسم الثاني، ودَعَت الله ألا تكون عائلة فيريلاين مفتقدين للحكمة ويظلوا لفترة طويلة جدًا. فكرت من ناحية أخرى أنهم قلما كانوا مُسَلّين، ثم نهضت واقفة تخفي نفاد صبرها. لمست ريشات الطاووس في باقة الماكارت، وعَدَّلَت وضع بعض التحف الفنية الموضوعة على إحدى الطاولات الجانبية وببوز حذائها ساوت تجعيدة في السجادة المصنوعة من جلد النمر أمام النار المشتعلة في الموقد. كانت منزعجة من إيلينه.

بعد طول انتظار فُتِحَ الباب وظهرت إيلينه. اندهشت چين كيف بدت جذابة بشكل أنيق، وهي ترتدي ثوبها الوردي من الحرير المضلع، بسيط لكنه مُصمم بشكل جميل، مع فيونكات في هيئة فراشات صغيرة تنتشر هنا وهناك على طول الصدرية المفتوحة، وفي ثنيات الأكمام بطول الكوع وعند الخصر. وفي شعرها البني الأسمر المصفر، الذي غطته بما يشبه خوذة إغريقية، ارتدت حلية للرأس من الريش الوردي؛ بينما كانت قدماها متنعلة بحذاء وردي أنيق، ورقبتها مزينة بضفيرة واحدة من اللؤلؤ وأمسكت في يديها بقفازاتها الطويلة، ومروحتها الوردية من الريش ومنظارها المكبر كريستالي اللون.

وقفت فيريلاين ودي ڤوده لتحيتها، وبعد أن صافحتهما قَبَّلت إيميلي وچين برفق على جبينهما. وأثناء سؤالها عن صحة دورا الصغيرة، لم تستطع أن تقاوم ملاحظة أن كل العيون، بما في ذلك عيون هِنْك وبيتسي، كانت مثبتة عليها. كان مكياجها ناجحًا بوضوح، وعندما ذَكَرَت چين أن الدكتور راير صَرَّح بأن الفتاة

في تحسن، استجابت بابتسامة مبتهجة ومنتصرة.

***

على المائدة، كانت إيلينه تمزح باستمرار مع جورج دي ڤوده، الذي كان يجلس بجوارها. كانت بيتسي تجلس بين ضيفيها من الرجال، وجلست إيميلي بين هِنْك وفرانس، وجلست چين بين إيلينه وهِنْك. في حجرة الطعام الكئيبة قليلاً بمفروشاتها العتيقة، كان السماط الدمشقي بلون الثلج بالآنية الفضية والكريستال الفاخرة، بينما جعل ضوء لمبة الغاز الخافت، الذي يرتعش على قناني النبيذ والكؤوس النبيذ الأحمر الأرجواني أو الأصفر الأشحب يبدو كما لو أنه يرتجف. ومن حوض الأزهار في إحدى السلال الفضية قام التاج الشائك لإحدى ثمار الأناناس.

بدأت دي ڤوده تصف السهرة لإيلينه في بيت عائلة فرسترايتن، ووصفت لها وصفًا براقًا كيف بدت الآنسة المبجلة فان إرليفورت كأنها ملكة بحق أثناء وقفاتها، أولاً كالملكة كليوباترا، وبعدها أثناء تشخصيها لحاسة البصر. كانت إيميلي وفرانس وبيتسي يتناقشون حول جزر الهند الشرقية، وتنضم إليهم چين من حين إلى آخر، لكنها كانت تجلس بعيدًا للغاية مشتتة الانتباه بسبب ثرثرة دي ڤوده وضحكات إيلينه المثيرة عالية النبرة. تناول هِنْك حساءه ثم فطائر السمك في صمت، اللهم إلا لعرض تقديم المساعدة للآخرين من حين لآخر أو تقديم كأس آخر لچين أو إيميلي. شعرت چين بالانسحاب بصورة متزايدة، بسبب شعورها بالضيق بوجه عام، وكذلك بنفس القدر بسبب حديثها المطول مع إيميلي بعد يوم مليء بالمشاغل. أزعجها أن تجلس قريبة جدًا من إيلينه، متألقة في فستان العشاء، لأن كلاً منهما هى ودي ڤوده بديا كما لو أنهما حضرا مأدبة- لقد جعلاها تشعر بأنها مهلهلة الثياب للغاية، وهى ترتدي فستانها اليومي العادي. لكنها كانت ممتنة لأنها كانت جالسة بجوار هِنْك، وكانت على وعي غامض بنوع من التعاطف معه، لأنه بدا شاعرًا بأنه موجود في المكان الخطأ كما شعرت هى.

لم تستطع أن تقاوم مقارنة نفسها بإيلينه وبيتسي؛ فها هى ذا تكافح بأطفالها الثلاثة للعيش ببدل إجازة صغير، بينما تقضي إيلينه وبيتسي أيامهما في دوامة من اللهو والتسلية الأنيقة. أين ذهبت الصداقة الحميمة، التي جمعتهن عندما كنّ صغارًا لا يحملن للدنيا همًا، ويَسِرْن إلى المدرسة معًا وحقائبهن معهن، وعندما ملأت إيلينه غطاء معطفها الواقي من المطر بثمار الكرز وحرضتهما بيتسي على المشاغبة في الفصل؟ شعرت بالاغتراب عن مضيفتها الشابة، بل شعرت بالنفور من طريقتها المتعالية في الحديث ونبرتها المسيطرة تجاه زوجها؛ كما شعرت بالمثل بالاغتراب عن إيلينه، التي وجدتها فارغة وتافهة من خلال القفشات، التي كانت تتبادلها مع الغندور، الذي كان يجلس إلى جانبها. لم تتمكن من فهم إيلينه؛ إذ كان هناك شيء غريب فيها، شيء غامض ومتناقض. كانت ضحكتها الجاهزة دومًا تضغط على أعصاب چين، لم تستطع أن تتخيل كيف يمكن لشخص يغني غناءً رائعًا بحق بكل المقاييس أن يبدو مزعجًا ومصطنعًا للغاية عندما يضحك. ياه، لو أنهم فقط يصمتون! تمنت أن تعود مرة أخرى إلى الشقة الضيقة بالطابق العلوي مع صغيرتها دورا. ما الذي كانت تفعله هنا على أي حال؟ بطبيعة الحال، عندما صرَّح الطبيب أن دورا في مأمن من الخطر، كان فرانس حريصًا على قبول الدعوة كتسلية هم في أشد الحاجة إليها، لكن هذه، هذه لم تكن تسلية بأي شكل، كان الأمر مجرد أن تشعر بأنها متوترة وخجولة.

بعد ذلك رفضت عرض هِنْك لتناول البنكرياس البتلو والسفرجل، والذي أوصى بتناولها بحماس شديد.

سأل فرانس إيميلي: «أعتقد أن مستر دي ڤوده أخوكِ، أليس كذلك؟»، لم يقابلها أو يقابل جورج من قبل، واندهش من التشابه بينهما بنفس قدر اندهاشه من الاختلاف.

أجابت إيميلي بصوت منخفض، «في الواقع هو أخي. أخي الشقيق، وأنا فخورة بأن أقول ذلك. هو غندور لا يطاق، لكنه فتى غالي. يعمل في وزارة

الشؤون الخارجية، ويُعِدُّ نفسه لدخول السلك الدبلوماسي. لذلك لا تكوِّن انطباعًا خاطئًا! «ضحكت وهى تهز إصبعها أمامه، كما لو كانت قادرة على قراءة أفكار فيريلاين.

ردَّ عليها: «تبادلت بالكاد بضع كلمات مع مستر دي فوده، لذلك لن أفترض أنني كوَّنت أي رأي!»، مندهشًا إلى حد ما من تحذير إيميلي.

«إلى حد بعيد هذا صحيح أيضًا. معظم الناس يغيرون رأيهم في جورج بمجرد أن يعرفوه. كما ترون، أنا الأخت المخلصة، التي تقفز للدفاع عن أخيها. ألديك مانع في أن تصب لي المزيد من النبيذ؟».

ردَّ فيريلاين مرة أخرى، وهو مبتسم لأنه امتثل لطلب إيميلي، «أنت تدافعين عنه حتى قبل أن يهاجمه أحد! لكنني أستطيع أن أقول إنه المفضل عند السيدات هنا، ليس عند أخته فقط، لكن أيضًا عند مدام فان رات والآنسة فيره».

انضمت بيتسي إلى المحادثة المتبادلة بين إيلينه وجورج، جذبتها حيوية جورج أثناء دردشته، حيث يستخلص لب كل أنواع المواضيع: محادثة تخلو من أي مادة ثرية أو دسمة، بل ليس فيها الكثير بالنسبة لأسلوب الظرف الذكي، لكنها خفيفة ومرحة كفقاعات الصابون تتخللها ألعاب نارية. كانت هى في الموقف الذي تستمتع به هنا: فالكلام الجاد، مهما كان حماسيًا، كان أثقل من أن تحتمله، لكن هذا النوع من الزَّبَد والرغوة كان كالنبيذ الذي يُصْدِرُ حبيبات كاللؤلؤ في كأسها البلوري، وكان هذا يسعدها كثيرًا. رأت أن جورج أكثر تسلية بكثير هذا المساء مما كان عليه في بيت عائلة فرسترايتن، حين علق مرتين أن الإضاءة الحمراء أكثر إغراءً من الخضراء. اليوم لم يكرر نفسه، لكنه بعدما فقد تحفظه المعتاد، تكلم كثيرًا مُقاطعًا الأخوات الآن بوقاحة ساخرة، ثم قدم ردودًا حاضرة مهرجة بشأن بعض الآراء المتنازع عليها، بوجه عام لم يلتفت كثيرًا إلى أسلوبه في الحديث.

قامت إيلينه بعدة محاولات لجرّ چين إلى مجموعتهم الصغيرة المفعمة

بالحيوية، لكنها لم تتلق ردًا سوى ابتسامة باهتة أو على الأكثر لفظًا من مقطع واحد، ونتيجة لذلك تخلت عن محاولة تسليتها. صارت المحادثة أكثر عمومية؛ وانضمت إيميلي بأسلوبها المرح الصريح، بينما لم يتمكن فرانس في خضم هذه الدائرة الساحرة من مقاومة الإلقاء بقفشاته الطريفة بين الحين والآخر، رغم أنه كثيرًا ما كان يلقي نظرة قلق واهتمام على زوجته الصغيرة الهادئة.

***

بالنسبة لچين بدا أن العشاء قد طال للأبد، ورغم أنها لم تشعر بأي شهية، لم ترغب في جذب الانتباه إذا رفضت تناول الدجاج بكُرات التروفيل، وجاتوه هنري الرابع، والأناناس واختيار من الحلوى، لكنها بالكاد ذاقت النبيذ. تناولت الطعام هى وهِنْك بجانبها باستمتاع كبير، وتساءل بينما يمضغ طعامه لِمَ كانت چين تأخذ مثل تلك الحصص الصغيرة. لم يتناول جورج دي ڤوده قدرًا كبيرًا من الطعام كذلك؛ وذلك أنه كان مشغولاً للغاية في الكلام. إلا أن إيميلي تناولت طعامها بشهية، واستمتعت بنبيذها أيضًا.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما نهضوا من على المائدة وانصرفت السيدات إلى حجرة الرسم. انضم فرانس إلى هِنْك ودي ڤوده لتدخين سيجار ما بعد العشاء، بعدما وافقت چين على البقاء لمدة نصف ساعة أخرى. ضغطت بيتسي عليها لئلا تغادر الآن – إذ إنه من غير اللائق أن تصرف ضيوفها على الفور بعد العشاء، وكان هناك متسع من الوقت للأوبرا.

سألت إيلينه: «هل تصاب دورا بالمرض كثيرًا؟»، غاصت بحفحفة ثيابها الحريرية المضلعة الوردية لدى جلوسها على إحدى الآرائك بجانب چين وأخذت يدها. «آخر مرة رأيتها كانت لا بأس بها على الإطلاق، لكنني حتى حينذاك ظننت أنها بدت شاحبة وضعيفة نوعًا ما».

سحبت چين يدها بهدوء، إذ شعرت بالغيظ قليلاً من هذا السؤال الذي طُرِحَ

عليها عقب الحديث التافه، الذي دار على المائدة. جاءت بردٌ روتيني. لكن إيلينه، كأنما كانت تأمل في تعويض عدم اهتمامها قبل ذلك، أضفت الكثير من الدفء والمواساة على صوتها لدرجة أن چين ذابت. أعربت على الفور عن مخاوفها أن الدكتور راير ربما لم يفحص ابنتها الصغيرة بالدقة الكافية، وأصغت لها إيلينه بكل حواسها أثناء وضعها لملاعق السكر في كوب الموكا على الصينية الفضية، التي كان يحملها خيرارد الخادم. كانت إيميلي وبيتسي قد انتقلتا إلى حجرة الجلوس لإلقاء نظرة على صور أحدث الأزياء.

سألتها إيلينه، وهى تستبدل فنجان القهوة الصينية الشفاف على الطاولة الجانبية، «يا تعيسة، كل هذه المخاوف، وقد مرَّ أقل من ثلاثة أشهر منذ وصلتِ إلى هولندا. لقد جئتِ في سبتمبر، أليس كذلك؟».

لم تنطق چين بأي رد، لكنها انتصبت واقفة فجأة، لتقبض على يد إيلينه المرهفة الهادئة بين يديها، واندفعت تقول: «أقول لك يا إيلينه، أتذكرين كيف اعتدتُ دائمًا على التعبير عما يدور في عقلي؟ لأن هناك شيئًا أود أن أطلبه منكِ. أتسمحين لي؟».

قالت إيلينه، تتملكها الدهشة إلى حد ما، «بالطبع!».

«حسنٌ، إنه مجرد تساؤل لماذا لم تعد الأمور نفسها بيننا كما كانت عليه من قبل، عندما كان والداكِ على قيد الحياة. لقد مرت أربع سنوات منذ تزوجت أنا وفرانس، ورحلنا إلى جزر الهند الشرقية، والآن وبعدما عدنا، الآن بعد أن رأيتكما مرة أخرى، تمامًا كما لو أن كل شيء تغيَّر. أنا لا أعرف أحدًا في لاهاي؛ وليس لدينا عمليًا أي علاقات هنا أيضًا، سيكون أمرًا لطيفًا للغاية أن أحتفظ بأصدقائي القدامى».

«ولكن يا چين ...».

«آه، أعرف، ربما تظنين أنني سخيفة لأنني أتحدث بهذا الشكل، لكن الأمور صعبة للغاية أحيانًا لدرجة أنني أصبح حزينة وبائسة جدًا. ثم أنني أتمنى

لو أستطيع أن أبوح ببعض ما بداخلي إلى صديقة طيبة، وهو ما لا أستطيع أن أفعله مع زوجي كما هو واضح».

«لِمَ لا؟»

«حسنٌ، لديه ما يكفي من مشاكله الخاصة، وهو ليس على ما يرام على الإطلاق، كما تعرفين، ولذا ينفد صبره».

«لكن يا چين، لا أستطيع أن أفكر فيما يمكن أن يكون قد تغير بيننا».

«ربما أتخيل الأمور فحسب، لكننا كنا معتادين أن نقضي وقتًا أطول معًا في الأيام الخوالي. أنتِ تدخلين دوائر مختلفة تمامًا الآن، وتخرجين كثيرًا، بينما أنا ... حسنٌ، يبدو أننا أصبحنا مغتربين عن بعضنا نوعًا ما».

«نحن لم نر بعضنا البعض منذ أربع سنوات في نهاية الأمر».

«ولكننا كتبنا رسائل إلى بعضنا».

«ثلاث أو أربع رسائل في السنة ليس كثيرًا، كما تعرفين! فقط من المتوقع أن تتغير أفكارنا مع تقدمنا في السن وتغير ظروفنا، بالتأكيد. كما أخذت نصيبي من الهموم أيضًا. أولاً بابا عزيزي، ثم العمة فيره المسكينة، والتي راعيتها أثناء مرضها الأخير».

«هل أنت سعيدة هنا، هل تعيشين أنتِ وبيتسي في انسجام وكلٌ شيء على ما يرام؟».

«آه نعم، بشكل جيد جدًا، وإلا لم أكن لأنتقل للعيش معها، أليس كذلك؟»، لم تكن لدى إيلينه، بتحفظها الذي يميزها، الرغبة في الخوض في التفاصيل.

استطردت چين: «أترين! ليس لديك شيء لتقلقي عليه مطلقًا. أنتِ حرة ومستقلة، سيدة قرارك في أن تفعلي ما يحلو لكِ، بينما أنا - أنا في وضع مختلف تمامًا».

«ولكن هذا لا يعني أن تقولي إننا أصبحنا مغتربين، أليس كذلك؟ لسبب، وهو أن كلمة مغتربين تحمل في طياتها رنينًا مزعجًا، والسبب الآخر، أنه ببساطة

ليس صحيحًا، أيا كانت طريقة تعبيرك عنها».

«أخشى أنها كذلك».

«لا، ليست كذلك أؤكد لكِ. يا عزيزتي چين، إن كان بإمكاني أن أسدي إليكِ أي خدمة بأي شكل من الأشكال، فقط أخبريني. أعدك بأنني سأفعل ما بوسعي. وأود أن تصدقيني».

«أصدقكِ، أشكركِ على وعدكِ الكريم. لكن يا إيلينه، أردت أن أغتنم هذه الفرصة ...».

«الآن؟».

كانت چين تصوغ الأسئلة في عقلها: كيف حالكِ بحق؟ أخبريني أكثر عن نفسك حتى أستطيع أن أعرفكِ بالشكل، الذي صرتِ عليه الآن! لكنها لما رأت الابتسامة المهذبة على شفتيّ إيلينه الجميلتين والنظرة الحالمة في عينيها اللوزيتين، لم تقل چين شيئًا. وفجأة شعرت بالندم أنها تحدثت بهذا القدر من الصراحة مع الإنسانة الشابة المثيرة، وهى تفتح وتغلق مروحتها المصنوعة من الريش. آه، لماذا تحدثت إليها أساسًا؟ كانتا متباعدتين تمامًا.

«الآن؟»، كررتها إيلينه، رغم عزوفها عن سماع ما تود چين أن تقوله.

تلعثمت چين، وهى ترد أثناء نهوضها، «في وقت آخر، ثم عندما يكون لدينا مزيد من الخصوصية...»، كانت منزعجة، غالبًا من نفسها، وعلى وشك أن تذرف الدموع بعد عشاءٍ غير سار أعقبته هذه المحادثة غير المثمرة مع إيلينه. عندئذٍ فقط ظهرت بيتسي وإيميلي من المخدع.

قالت چين إنه قد حان الوقت لتعود إلى البيت. وسرعان ما ظهر الرجال الثلاثة، وساعد هِنْك چين في ارتداء معطفها الطويل الواقي من المطر. أجبرت نفسها على الابتسام بودّ، وقالت لهم وداعًا، مؤكدة أنه كان من اللطيف أن تدعوها بيتسي وزوجها لهذا التجمع الحميم، ومرة أخرى شعرت بوخزة من الانزعاج عندما قَبَّلَتها إيلينه على كلا الخدين.

قالت بيتسي بعدما غادرت عائلة فيريلاين: «چين هذه يا لها من مملة! لم تنطق بالكاد كلمة واحدة طوال المساء. ماذا الذي يمكن أن تكوني قد تتحدثين معها حوله حتى الآن يا إيلينه؟».

«آه، عن دورا الصغيرة، وعن زوجها . . . لا شيء محددا».

«چين المسكينة!»، قالتها إيميلي في تعاطف، «تعال يا جورج، هل يمكنك أن تجلب لي عباءتي؟».

لكن قبل أن يتمكن من القيام بذلك دخلت مينا بملابس السيدات الخارجية، لذلك ذهب دي ڤوده لارتداء معطفه الثقيل الطويل الخشن، تاركًا هِنْك يفرك يديه الكبيرتين من السعادة لاحتمال بقائه بعد عشائه العامر. كانت العربة تنتظر في نصف الساعة الماضية في الثلج، الذي بدأ يذوب، حيث جلس ديرك السائق وهيرمان السائس على المقصورة، مجتمعيْن تحت كابيهما الواسعين المصنوعين من الفراء.

قالت چين، بتضرع، «آه يا فرانس، لا تجعلني أبدًا أقبل دعوة أخرى من عائلة فان رات!»، وهي ترتجف على ذراع زوجها أثناء خوضهما في الشارع الموحل، وتحاول بيدها الصغيرة المتجمدة أن تجمع طرفيّ معطفها الكبير عليها معًا ضد الرياح العاصفة' «بصراحة، أنا ببساطة لم أعد أشعر بالراحة معهم، بيتسي وإيلينه تغيرتا كثيرًا».

جاء رده برفعه كتفيه دلالة على نفاد الصبر، ثم سارا متثاقلين في أحذيتهما المبللة، ولم تُقابَل رتابة تقدمهما في السير إلا من قِبَلِ مصابيح الشارع المتباعدة بانتظام، وهي تلمع مرتعشة في برك الوحل على طول الطريق.

* * *

كان الفصل الثالث من إشادة سمورة *Le Tribut de Zamora* قد بدأ لتوه عندما دخلت بيتسي وإيميلي وإيلينه وجورج مقصورتهم. وأدى وصولهم إلى اضطراب خفيف في سكون الجمهور؛ إذ كانت هناك حفحفة ملابس من حرير

وساتان، واستدارة عيون ورفع أعناق، وكثير من الهمس، متسائلين من يكون هؤلاء.

جلست إيميلي وإيلينه في المقدمة، وبيتسي وجورج وراءهما، بعدها ألقت إيلينه نظرة خاطفة حولها للحظة، مبتسمة ابتسامة باهتة بينما كانت تضع مروحتها ومنظار الأوبرا المصنوع من عرق اللؤلؤ، ثم فكت ببطء عباءتها القصيرة المصنوعة من الحرير الأبيض ببطانة الساتان الوردية ولتجعلها تنزلق عن كتفيها كسحابة لونيّة من الأبيض والوردي، وعندها أسدلت دي ڤوده الثوب على خلفية كرسيها، وبينما تظاهرت بعدم ملاحظتها لنظرات الإعجاب، استمتعت بانتصار جمالها.

همست إيميلي: «العدد مكتمل الليلة، نحن محظوظون. أظن أن الدار تبدو كئيبة، حينما يكون نصفها فارغًا».

قالت بيتسي: «آه، أتفق معك تمامًا! انظروا، هناك عائلة إيخوف وآنجي وليوني ومامتهم. كانوا في منزل آل فرستraيتن بالأمس أيضًا، وسوف يقومون بالرقص في السهرة الأسبوع المقبل»، اختتمت كلامها، وهى ترد تحية الفتيات.

قالت دي ڤوده لإيلينه: «سوف نستمع الليلة إلى ثيو فابريس، الباريتون الجديد من بروكسل. أتعلمين أن صوتين من أصوات الباريتون فُصِلا بالفعل؟ هذا هو الثالث منذ بدأت العروض الأولى».

تنهدت إيلينه، وهي تلتقط مروحتها، «لا يبدو أن هناك نهاية للعروض الأولى هذا الشتاء».

«كان التينور ممتازًا منذ البداية، لكن هذا الفابريس جيد جدًا أيضًا، كما سمعت. انظروا، ها هو ذا».

كانت جوقة جواري بن سعيد قد قاربت على الانتهاء، واقتحم الملك الأندلسي نفسه قصره ليقتاد شيماء من يدها، لكن إيلينه لم تكن منتبهة. كانت لا تزال تمر بعينيها على الجمهور، وتومئ برأسها وتبتسم لمعارفها، ولم توجه

نظراتها إلى خشبة المسرح إلا حينما نُصِّبَ بن سعيد وجاريته تنصيبًا فخمًا وحسب القواعد والأصول تحت المظلة، مؤذنًا ببداية الباليه. كانت تستمتع دائمًا بمشاهد الرقص، وتابعت بدقة راقصات الباليه وهن يرتدين صدرياتهن اللامعة من الساتان وتنوراتهن الكاملة من التول المتلألئ، بينما انسللن على أطراف أصابعهن في اتجاه الأروقة الأندلسية، واللاتي حُمْن تحتها في مجموعات، رافعات أوشحتهن عاليًا ومراوحهن المزينة بالشرابات الفضية.

«باليه جميل»، قالت إيميلي، وهي تتثاءب خلف مروحتها أثناء اعتدالها للخلف في مقعدها. كانت تشعر بآثار عشائها الفخم.

أومأت إيلينه برأسها، وبينما كان يمكنها سماع بيتسي وجورج وهما يهمسان وراءها، ثبتت عينيها على راقصة الباليه الرئيسية التي تحمل حلية متألقة للرأس من الألماس في شعرها، والتي كانت تطفو على أطراف حذاء الباليه الساتان المنحنية أثناء دورانها وسط الراقصات الأخريات ورفرفة الأوشحة والمراوح.

كان عند إيلينه ولعٌ بالأوبرا مخلصة لطبيعتها الحالمة والمثالية، ليس فقط لأنها أعطتها الفرصة لعرض أناقتها الحالمة، وليس فقط بسبب الموسيقى، وفرصة الاستماع إلى بعض المطربات الشهيرات وهن يغنين آريا معينة، لكن أيضًا بسبب الحبكات الدرامية المثيرة وعالية الرومانسية، ومشاهد الكراهية والحب والانتقام الميلودرامية. لم تكن تبالي بالحبكات الدرامية، التي يمكن التنبؤ بها، كما لم تكن تطمح لأن تجد أي شيء حقيقي فيها. لم تكن بحاجة لأن تنسى للحظة واحدة أنها كانت تشاهد ممثلين وممثلات، لا فرسانًا وسيدات نبيلات، أو أنها كانت في مسرح مزدحم تحدق في خشبة مسرح مضاءة إضاءة زاهية ومصحوبة بمناظر مصورة وموسيقى من أوركسترا مرئية، ولا تشارك حياة البطل والبطلة في شيء من الخيال الشعري الخاص بالعصور الوسطى- كان تمتع نفسها على أي حال، طالما كان الغناء مقبولاً، والتمثيل ليس رديئًا للغاية والملابس ملائمة للشخصيات.

على النقيض منها، ذهبت بيتسي إلى الأوبرا فقط لتشاهد الناس ويشاهدونها،

ولو أنها عرفت ما وجدته إيلينه شديد الإمتاع لاستهجنته باستخفاف، قائلة لها إنه أمر صبياني منها. لكن إيلينه احتفظت باستمتاعها لنفسها، لأنها كانت تعرف ما عليه بيتسي، وآثرت أن تترك شقيقتها تعتقد بأن الأمر بالنسبة لها أيضًا يتمثل في أن الغرض الرئيسي من قضاء أمسية في المسرح هو أن تشاهد الناس ويشاهدونك.

شعرت بالندم الآن لأنها وصلت في وقت متأخر للغاية، لأنه لم يسبق لها مشاهدة أوبرا إشادة سمورة، وبالتالي لم تكن تعرف ماذا حدث قبل مجيئها. التزمت إيميلي الصمت تحت تأثير فطائر السمك والدجاج المحشو بالتروفيل، وثبتت عينيها مثل إيلينه على خشبة المسرح.

وصل الباليه إلى نهايته. نزل بن سعيد وشيماء من على عرشهما، ولما نطق الملك بعبارة «أحاول دون جدوى أن أرضيكِ!»، بالفرنسية في الرسيتاتيف، انطلق في جو رومانسي قائلاً:

شيماء، من فضلكِ اسمعيني!

روحي ملككِ إلى الأبد!

كان صوت الباريتون الجديد عميقًا ومدويًا، أشبه قليلاً بباسو كانتانتي، وفي إلقائه ألقى بظلال من الشجن على الأغنية.

إلا أن الزي الأندلسي المبالغ فيه جعله يبدو كبيرًا وضخم الجثة نوعًا ما. لم يوصل لا من خلال وقفته ولا تعبيرات وجهه أي شيء يشبه التفاني المشتعل بالعاطفة عند العشاق، وفي النظرات، التي وجهها إلى المطربة الثانوية التي ارتدت فستانًا فضيًا وخصلات شعرها الشقراء المرصعة باللؤلؤ، كان هناك من الضراوة والشراسة أكثر من التفاني الحنون.

لم تغفل إيلينه عن هذا العيب في تمثيله، لكنها رغم ذلك فُتِنَت بالتناقض بين سلوكه الخارجي المزهوّ بنفسه ونبرة صوته المتواضعة والمتضرعة. تابعت أغنيته نوتة تلو النوتة، وعندما اتخذت إحدى الممثلات، في فورتيسيمو متردد

ومفاجئ، تعبيرًا عن الرعب الشديد شعرت بالدهشة وفكرت: لماذا هي خائفة لهذا الحد؟ ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ لا يبدو الرجل شريرًا بكل هذا القدر بالنسبة لي.

خلال التصفيق ألقت نظرة حول الجمهور مرة أخرى، وهبطت ببصرها على مجموعة من الرجال، الذين اتخذوا مكانًا لهم على السلالم المؤدية إلى الأكشاك. شاهدتهم وهم يتطلعون بأعينهم إلى مقصورتها، ويفترض أنهم كانوا يتكلمون عن الجالسين فيها، كانت على وشك أن تنظر بعيدًا لتبين عدم الاهتمام الرقيق عندما لاحظت أن أحد الرجال، والذي كان يمسك بقبعة وقصبة في يده، ابتسم لها بطريقة دمثة لكنها مألوفة. حدقت فيه للحظة، وهى مفتوحة العينين باتساعها، وأجفلت لدرجة منعتها أن ترد التحية، ثم انصرفت مبتعدة فجأة، ووضعت يدها على ركبة بيتسي، وهمست في أذنها:

«انظري، يا بيتسي، انظري من هناك!».

«أين، من تقصدين؟».

«هناك في الأكشاك. إنه فنسنت، ألا ترينه؟».

رددت بيتسي، في ذهول بالمثل» فنسنت! آه نعم، إنه هو!».

أومأت كلتاهما إلى فنسنت لتحيته. رد عليهما بالتطلع إليهما من خلال منظاره، عندئذٍ اختبأت إيلينه بغنج وراء مروحتها.

أرادت إيميلي وجورج أن يعرفا، «من هو؟ من فنسنت؟».

أجابت بيتسي: «فنسنت فيره، ابن عم لنا من الدرجة الأولى. أخشى أنه شخص يميل إلى المرح الصاخب. لا أحد مطلقًا يعرف مكانه؛ فهو يختفي لعدة أشهر ثم يظهر ثانيةً عندما لا يتوقع أحد ظهوره. لم تكن لدي أي فكرة أنه في لاهاي. يا إيلينه، توقفي عن تحريك مروحتك بعصبية».

قالت إيلينه: «ولكنني لن اسمح له بأن يحدق فيّ!»، أعادت تعديل مروحتها بلفة رشيقة بذراعها، وهي لا تزال تخبئ وجهها.

استفسر جورج: «هل لي أن أجرؤ وأسألكما متى كانت آخر مرة رأيتما فيها ابن عمكما؟».

«امم، مدة لا يقل عن العام والنصف. عندما تكلمنا آخر مرة أعتقد بأنه كان على وشك السفر إلى لندن، حيث كان من المفترض أن يجد وظيفة ما؛ للعمل في صحيفة أو شيء من هذا القبيل. هل تتخيل، يقولون إنه كان مع الفيلق الأجنبي في الجزائر لبعض الوقت، لكنني لا أصدق أيًا من ذلك. من المفترض أنه قام بكل أنواع الأعمال، ولم يدخر قرشًا واحدًا».

قالت إيميلي، وهى تتثاءب، «نعم، أتذكره الآن. أعتقد أننا التقينا في وقت ما. شخص غريب الأطوار».

«نعم، هو كذلك، لكنه يعرف أنه يجب أن يلتزم بالسلوك المهذب إلى حد ما عندما يتواجد في لاهاي، حيث يعيش أقاربه، وهذا ما يفعله، لذا نتحمله دون شكوى».

علَّقَت إيميلي تعليقًا فلسفيًا: «آه، حسنٌ، هناك شخص نشاز في معظم العائلات».

أطلقت إيلينه ضحكة خفيفة عند سماع التعبير الشعبي، وبعد طول انتظار طوت مروحتها الوردية من ريش النعام.

* * *

مضى الفصل الثالث دون أن تستوعب معظم المشهد في وجود مانويل، لكنها توصلت إلى لب اللحن الثنائي العظيم، الذي غنته هيرموسا وشيماء، لقاء الأم وابنتها من جديد بعد الدور التالي (بالفرنسية): «هبوا واقفين يا أبناء أيبريا!».

نزل الستار وسط تصفيق مدوٍ، وطُلِبَ من الممثلتيْن الوقوف في المقدمة ثلاثة مرات، حيث قُدِّمَت لهما باقات وسلال الزهور.

قالت إيلينه، وهى تستدير إلى جورج، «رجاءً، مستر دي ڤوده، هلا كنت

لطيفًا لتشرح الحبكة لي». واستطردت بالفرنسية، «لا زلت لا أفهمها بوضوح».

إلا أنه وقبل أن يتمكن من الرد، اقترحت بيتسي أن تأخذ دورة في الردهة، ونهضوا جميعًا واقفين وغادروا المقصورة. لخَّص جورج، وهو جالس على المتكأ بالردهة الحبكة لإيلينه، التي استمعت باهتمام أكبر مما كشفه تعبيرها. والآن وبعد أن عرفت لِمَ شعرت شيماء بالرعب من بن سعيد ندمت أكثر لأنه قد فاتها سحب القرعة في الفصل الأول، وبيعت شيماء في سوق العبيد في الفصل الثاني.

رأت فنسنت، وهو ينزل الدَّرَج. واتجه نحوهم في جوٍ من الألفة وعدم الرسمية، كما لو أنه رأى بنات عمه بالأمس فقط.

هتفت إيلينه: «عجبًا، فنسنت! أتتخيل رؤيتك هنا!».

«مرحبًا يا إيلينه! مرحبًا يا بيتسي! سعيد برؤياكم مرة أخرى. آه، والآنسة المبجلة فان بيرج دي ڤوده، أمحقٌ أنا؟».

تصافحوا بالأيدي.

أجابت إيميلي: «تقريبًا على حق! ذاكرتك في الأسماء جديرة بالإعجاب، على العكس من ذاكرتي، لأنني نسيت اسمك تمامًا».

قدمت بيتسي فنسنت وجورج.

«كيف حال الجميع؟ آمل أن يكون على ما يرام؟».

ضحكت إيلينه: «أنا مندهشة إلى حد ما، حقًا! أفترض أنك جئت لتقول إنك سوف تسافر مجددًا في الغد إلى سان بطرسبرج أو القسطنطينية، أليس كذلك؟».

ابتسم، متأملاً إياها من خلال منظار الأوبرا، وعيناه الزرقاوان الشاحبتان كالخزف الباهت وراء العدسات. كانت ملامحه عادية ووسيمة، تقريبًا من الوسامة لدرجة لا تلائم رجلاً، بأنف مستقيم ودقيق، وفم ناعم كثيرًا ما يتشدق بما يشبه السخرية، وشارب أشقر رفيع، لكن ما أفسد هيئته لونُ بشرته، الذي

كان شاحبًا ومُتْعَبًا. كان نحيل البنية، يرتدي ببساطة بذلة نصف رسمية داكنة، وتحتها بدت قدماه ضيقتان بشكل ملحوظ. كانت يديه، أيضًا، ذات شكل جذاب، بأصابع رشيقة وشاحبة كأصابع فنان، ذكَّرَت إيلينه بوالدها.

ردًا على سؤال إيلينه، جلس وأخبرها بنبرة ضجر أنه لم يصل إلى لاهاي إلا بالأمس في زيارة عمل. كان قضى بعض الوقت في ملقة مؤخرًا، شيء له علاقة بتجارة النبيذ، وكان قبل ذلك مع شركة تأمين في بروكسل؛ وقبلها كان استثمر في مصنع للسجاد في سميرنا تعرض للإفلاس. لم تكن الأمور تسير، كما يهوى، بحق، وبدأ يتعب من كل سفرياته؛ لم يجلس خاملاً بأي شكل من الأشكال، لكن قدره كان ضده، كل الأمور بدت أنها تسير على غير ما يرام. كانت هناك فرصة وظيفة في إحدى مزارع الكينين في چاوا، لكن كان عليه أولاً الحصول على المعلومات الصحيحة. كان يأمل أن يرى فان رات في الغد، لأن لديه أمرًا يرغب في مناقشته معه. قالت بيتسي في هذه الحالة عليه أن يأتي لتناول القهوة بعد الظهيرة، لأن فان رات يخرج دائمًا في الصباح. وقَبِلَ فنسنت الدعوة بامتنان، وبدأ الحديث عن الأوبرا.

«فابريس؟ آه، إنه الباريتون، أليس هو؟ نعم، صوت حسن، لكن كم هو رجل بدين وقبيح الهيئة».

ردت إيميلي: «هل تعتقد ذلك؟ لا أتفق معك، أعتقد أنه بدا جيدًا على خشبة المسرح!».

«آنسة دي ڤوده، لا يمكن أن تكوني جادة!».

التزمت إيميلي برأيها، واضطرت إيلينه للضحك بسبب اختلافهما، ثم قُرِعَ الجرس إيذانًا ببدء الفصل الرابع، واستأذن فنسنت بالانصراف رافضًا عرض جورج الكريم بأن يترك له مقعده في المقصورة.

«آه، شكرًا لك، ممتن لك كثيرًا، ولكنني لا أود أن أحرمك من مقعدك. إلى جانب ذلك، أستطيع أن أرى بشكل جيد للغاية من الأكشاك. لذا ألا يمكن أن

نلتقي غدًا إذن؟ أوريفوار، بيتسي، إيلينه ... أو بليزير، آنسة دي ڤوده ... تعرفي إليكَ من دواعي سروري مستر دي ڤوده».

انحنى للتحية، وضغط على يد جورج، ومشى بتراخٍ بعيدًا، وهو يهز قصبته الخيزرانية الرفيعة.

قالت إيلينه، وهي تهز رأسها، «أليس غريبًا؟».

همست بيتسي في أذن إيميلي: «أخشى دائمًا أنه سوف يفعل شيئًا لإحراجنا! لكنه كما قلت، كان طيب السلوك للغاية حتى الآن. كنتُ لطيفة معه منذ لحظة لأكون في أمان، لم أكن أريد أن أحتكّ به بطريقة خاطئة، فأنت لا تعرفين العواقب ...».

قالت إيميلي: «لا أستطيع أن أقول إنه أكثر الأشخاص المفضلين بالنسبة لي».، نهضوا جميعًا واقفين للعودة إلى مقصورتهم.

ردت لتغيظ جورج: «خلاص، خلاص يا إيمي، أنت فقط تقولين ذلك لأنه لم يعجب بشكل فابريس!».

هزت إيميلي كتفيها في تجاهل، ثم مروا عبر الردهة.

قالت إيلينه: «ياه، إذن لن يكون هناك فصل خامس! اعتقدت بأنه سيكون هناك فصل خامس!»، وهي محبطة تقريبًا، حتى أخبرها دي ڤوده بسرعة كيف انتهت الأوبرا.

***

أُفتتح الفصل الرابع بمشهد في حدائق بن سعيد المضاءة بنور القمر. استمعت إيلينه باهتمام إلى مقطوعة كاڤاتينا لمانويل، وإلى لحنه الثنائي مع شيماء، ثم لاحقًا إلى الثلاثي مع هيرموسا، لكن زاد اهتمامها حينما ظهر الملك الأندلسي عند بوابة القصر، حيث أمر جنوده بإعدام مانويل، ثم احتجز بنفسه شيماء العنيدة وجروها بعيدًا معه في ثورة غضب مفاجئة. أثَّرَت فيها نهاية الأوبرا عندما طعنت الأم بن سعيد في سعيها لإنقاذ ابنتها، أكثر مما اهتمت

بالاعتراف به. قام في مشاهده مع كلٍ من المرأتين والباريتون الجديد بالتمثيل بقدر من الحرارة والحماسة بما يضفي على الميلودراما وهجًا من الحقيقة الرومانسية، وعندما أصيب بجروح قاتلة، رَكَن إلى سلالم جناح القصر، التقطت إيلينه نظارات الأوبرا لتلقي نظرة أقرب على ملامحه السمراء باللحية السوداء وعينين نصف مغلقتين.

نزل الستار، وأُستدعي الممثلون الأربعة للظهور على خشبة المسرح، ورأته إيلينه مرة أخرى، بانحنائه للتحية مرات بجو من الانعزال البارد، في تباين كبير مع الابتسامات الكريمة للتينور والكونترالتو والسوبرانو.

نهض الجمهور واقفًا؛ وتأرجحت أبواب المقصورات، وهى تُفتح.

ساعد جورج السيدات في ارتداء عباءتهن، وتقدمن خلال الممر وهبطن سلالم الدَّرَج لينتظرن عرباتهن بجوار الأبواب الزجاجية. الآن ضم البواب يده إلى فمه، وأعلن وصولها بهتاف ممطوط طويل:

«فان را ... ااات».

سألت إيميلي، عندما كن يجلسن في العربة،» شخصيًا، لا أعتقد بأن إشادة سمورة واحدة من أفضل الأوبرات لجونو؛ ماذا عنكِ يا إيلينه؟ لا مقارنة بينها وبين أوبراه **فاوست** أو **روميو وچولييت**».

غمغمت إيلينه، كارهة أن تُظْهِرَ مدى تأثرها، «أعتقد بأنكِ على حق، لكن من الصعب الحكم على عملٍ موسيقي من المرة الأولى ،التي تستمعين فيها إليه. أعتقد بأن بعض الألحان كانت حلوة نوعًا ما، وبجانب ذلك، لم نشاهد إلا نصفها».

قالت بيتسي، وهى تتثاءب، «لا مانع لدي بأن أخبركِ بأنني أفضّل مشاهدة بضعة فصول فقط؛ فالاضطرار إلى البقاء حتى نهاية أوبرا كاملة يصيبني بالملل لدرجة البكاء».

بدأ جورج يدندن الدور: «هبوا واقفين يا أبناء أيبريا!».

أُوصل الأخوان دي ڤوده عند نورداينده، وبعدها ركبت بيتسي وإيلينه عائدتين إلى بيتهما في لانداو، متخفيتيْن بما يجلب الدفء في وسائد الساتان الدمشقي. تحدثتا قليلاً عن فنسنت، ثم صمتت كلتاهما، في الوقت الذي سبحت فيه أفكار إيلينه إلى الڤالس المبهج في ميراي، ومشاحناتها مع بيتسي حول الخادمات، وعرض الحواس الخمس، ومدام فان رات وإيميلي وجورج، وفستانها الوردي ... وبِنْ سعيد .

٥

مَرَّ قرابة أسبوع منذ عروض اللوحات الحية؛ كان الوقت بعد الظهيرة، وجلست لي لي فرسترايتن في حجرة الرسم، حيث عرضت اللوحات. كانت الحجرة قد عادت منذ فترة طويلة لترتيبها الطبيعي، واشتعلت نار مبتهجة في الموقد. بالخارج كان الجو باردًا؛ وهبت ريح قوية وبدا المطر وشيكًا. ذهبت ماري للتسوق مع فريدريك فان إرليفورت، لكن لي لي اختارت البقاء في المنزل، جلست الآن مرتاحة في كرسيها المفضل ذي المسند، والذي كان وثيرًا ومن الطراز القديم، وذا غطاء من قماش النسيج الخشن المزخرف بالرسوم والصور. كانت معها رواية ڤيكتور هوجو نوتردام باريس، لكن لم تكن لديها بالفعل رغبة في القراءة، وطُرِحَ الكتاب، الذي كان مُغلفًا بغلاف من جلد العجل الأحمر وحوافه مصفرة، غير مفتوح على حِجْرها. كم كان ممتعًا ألا تفعل شيئًا سوى الاستغراق في التفكير والأحلام، وكم كان سخيفًا من ماري وفريدي الخروج في هذا الطقس الفظيع! لكن الأمر لم يكن يشكل أي قلق بالنسبة لها، فقد كانت غافلة عن الرياح والمطر، لأن الجو داخل البيت كان دافئًا كأحسن ما يكون الدفء، إذ استطاع الضوء الشتوي المكتوم بالكاد أن يترسب من خلال الستائر الثقيلة. جاءت دين لكي تسحبها مرة أخرى، لكنها صرفتها. كان بابا في البيت الزجاجي، يقرأ بجوار النافذة؛ لم تتمكن إلا من رؤية الجزء العلوي من رأسه الرمادية الغالية، ولاحظت كيف كان يُقلِّب الصفحات بسرعة- كان منهمكًا في كتابه انهماكًا واضحًا- على العكس منها، ما أدى إلى إبراز انشغالها بكتابها للعيان. لم تكن تشعر أبدًا بالملل، حتى عندما لا يكون لديها ما تعمله. بل على النقيض من ذلك، تجد أنها تجلس وتستمتع بالأفكار، وهي تنجرف إلى عقلها: بتلات وردٍ تفوح رائحتها العطرة في نسيم عليل، ففقاعات صابون،

هشة وقزحية الألوان، والتي ستراقبها بهدوء واتزان، وهى ترتفع في الهواء؛ بعد ذلك سوف تتناثر البتلات بعيدًا، وسوف تنفجر الفقاعات، لكن ليس هذا مهمًا، وذلك أنها تفضِّل أن يكون لديها بتلات ورود كأفكار أكثر بكثير فروع اللبلاب الملتفة الخانقة، وتفضِّل فقاعة الصابون أكثر من بالونة في نهاية خيط. كانت ماما لا تزال بالطابق العلوي تقوم بالعديد من الواجبات المنزلية. آه حسنٌ، ليس بإمكانها عمل شيء حيال هذا الأمر: كانت ماما تصرّ دائمًا على القيام بكل شيء بنفسها، رغم أن ماري كانت تقوم بنصيبها من العمل أيضًا. كانت تأمل بألا يكون هناك أي زوار بعد ظهر هذا اليوم؛ فكل ما كانت تريد القيام به أن تحلم أحلام اليقظة، وهل هناك ما هو أكثر مجلبة للسرور من ذلك؟ كم هو رائعٌ أن تشاهد ألسنة اللهب، وهى تتلوى وتلتف حول الجمرات المتوهجة! كانت المدفأة طيفًا مصغرًا للجحيم، إذ بدا الخُثُّ المحترق كما لو كان جلاميد صخر كبيرة بينها شقوق فاغرة الأفواه عن نيران وكبريت- شيء أشبه بجحيم دانتي، حيث تجمع، الذين حَقَّت عليهم اللعنة على شفا حُفَر النار، مشفقين من رؤية اللهيب! بعدما تبسمت لما تصورته من خيالات جامحة، حَوَّلَت عينيها جانبًا، والتي أصيبت بالحكة من التحديق في النار المستعرة كنار جهنم. لم يأخذوا جميعًا وقفاتهم إلا الأسبوع الماضي في هذه الحجرة نفسها، أمام أعين أصدقائهم ومعارفهم المتحمسين. كم بدا مختلفًا كل شيء وقتذاك! الآن نُقِلَت المناظر الملونة والقيثارات والصليب وجميع الأغراض الأخرى إلى الحجرة العُلية لتخزينها؛ وقامت دين بطيّ كل الملابس بعناية ووضعها في صناديق. كان الأمر مرحًا كثيرًا، باعتبار كل التخطيط والتشاور بين پول وإتيان من قبل، واختيار الموضوعات للعروض، والملابس، ثم البروفات، واضطرار پول لأن يعرض كل وقفة بالترتيب! كم عدد المرات، التي لم ينهاروا فيها في مرح صاخب، وكم بذلوا من جهد من أجل بضع دقائق من التسلية !

بابا يقرأ ويقرأ، وحسبت الوقت، الذي يستغرقه لتقليب الصفحات - أولاً بعد خمسة وعشرين ثانية، ثم ثلاثين ثانية. كم كان قارئًا سريعًا! وكيف قَرَعَ

المطر على إطار النافذة، وكيف تقرقر في ماسورة الصرف! تصرفت فريدي وماري خارج حدود إرادتهم الحرة، ولكن ها هى ذا، تشعر بالدفء والأمان كالقطة الصغيرة، التي تموء بدلاً من أن تتسخ في المطر. تحسست بمقدمة حذائها في الصوف الأسود الخاص ببساط الموقد المصنوع من جلد الخروف وأراحت رأسها الأشقر على ظهر الكرسي القديم ذي المسند المغطى بالقماش المزين بالرسوم والصور.

كانت فريدي ذاهبة إلى حفلة راقصة مساء ذلك اليوم. كيف استطاعت أن تتحمل الخروج ليلة بعد ليلة! بالطبع استمتعت هى، لي لي، بالحفلة الراقصة أو السهرة المسلية، التي تقام بين الحين والآخر، لكنها أيضًا كانت تحب البقاء في المنزل، قراءة كتاب أو التطريز أو ... عدم القيام بأي شيء على الإطلاق، دون حتى أن تشعر بالملل. بدت حياتها كأنها تتدفق إلى الأمام كجدول ماء مترقرق وهادئ؛ كانت سعيدة جدًا في المنزل مع أبويها اللذين أحبتهما لدرجة العشق، وأرادت دائمًا أن يظل وضعها على حاله، ولم تمانع حتى لو أنها لم تتزوج وأصبحت فتاة كبيرة ... كوازيمودو، إزميرالدا، فيبوس دي شاتوبير... ياه، لِمَ لَمْ تُحْضِر نسختها من روايات لونجفيلو بدلاً من ذلك؟ لم تعقد «محكمة المعجزات» أي محاكمة لها على الإطلاق، ما كانت تتمناه الآن بضعة أبيات من الشعر من قصيدة إيڤانجلين، أو من الأسطورة الذهبية :

حياتي بسيطة،

فقط كوب من الماء،

لكنه نقي ورائق .

يا إلهي، إنها تتحول إلى الشاعرية تمامًا! ابتسمت لنفسها وتطلعت بعينيها إلى الحديقة، حيث كانت الأغصان العارية التي تَقْطُر مطرًا تجلدها وتعطفها الرياح بجنون.

دق جرس الباب بالخارج؛ سمعت وقع أقدام وضحكات في الصالة،

وتجفيفًا للأقدام لفترة طويلة على سجادة الباب. عادت ماري مع فريدي؛ افترضت أنهما ستصعدان إلى الطابق العلوي، لكن لا، جاءتا عبر هذا الطريق، ودخلتا بعد مرور لحظة، بعد تجريد نفسيهما من معطفيهما الواقيين، اللذين كانا يقطران مطرًا والكاوتشوك المغطى بالوحل. كانتا لم تزالا تضحكان، وأتيتا معهما بدَفْعَة من الهواء البارد والرطوبة إلى الحجرة الدافئة.

هتفت ماري: «حسنٌ لا يمكن أبدًا! انظروا ميلدي، وهي تدفئ قدميها بجوار النار! إنها على حق تمامًا كذلك!».

قالت فريدي ممازحة: «أتود ميلدي وسادة لظهرها؟».

همست لي لي، وهي تريح نفسها بالجلوس وسط كرسيها، «يمكنكِ أن تضحكي كما تشائين! ها أنا ذا، دافئة كخبز التوست وقدماي جميلتان وجافتان، لكن بإمكانك الذهاب للخوض في الوحل على الرحب والسعة».

قالت ماري إنها يمكن أن تكتفي ببعض الأطعمة الخفيفة وانطلقت لتعمل الشاي، بينما دخلت فريدي إلى البيت الزجاجي لتحية مستر فرسترايتن.

ثم جلسوا جميعًا معًا لتناول شاي بعد الظهيرة، وكانت لي لي سعيدة جدًا للانضمام إليهم، رغم أنها لم تكن تخوض في الوحل.

قالت ماري: «كم هو مظلم المكان هنا يا لي لي، كيف يمكنكِ الرؤية لتقرأي؟ تعلمين أن القراءة في مثل هذا الضوء الضعيف مُضِرٌّ لعينيكِ».

رَدَّت لي لي، وهي تستمتع باسترخائها اللذيذ، وهي لا تعمل شيئًا، «لم أكن بالفعل أقرأ على الإطلاق».

قالت فريدي «آه، ميلدي تستغرق في التأمل مرة أخرى».

قالت لي لي، وهي تبتسم بعينين نصف مغلقتين، «امم، رائع! لا تفعل شيئًا على الإطلاق ... فقط تضيع الوقت في الأوهام».

انفجرن جميعًا في الضحك على هذا الاعتراف بالكسل الفاضح. جاءت مدام فرسترايتن لتبحث عن سلة المفاتيح، التي أهملت ماري إعادتها، والتقت

بالفتيات الثلاث، وهن يضحكن أثناء تناول الشاي، بينما كانت المفاتيح ملقاة بجانب طبق الفطائر .

عندئذٍ أعلنت فريدريك أنها لا بد أن تذهب؛ إذ إنها كانت مدعوة إلى سهرة راقصة ذاك المساء، وكان لا يزال أمامها بعض التفاصيل كي تعتني بها بخصوص فستان الحفل. أعلنت مدام فرسترايتن أنه كان من الحكمة البالغة أن تظل لي لي في البيت عندما كانت السماء تمطر مدرارًا، بخلاف فريدي وماري.

* * *

مرة أخرى كان هناك طرق على الباب. هذه المرة كان پول، الذي جاء معه الكثير من البرد والمطر لدرجة أنه أُخرج خارج الحجرة مرة أخرى ليمسح حذائه بشكل مضبوط.

تنهد وهو يقول: «يا له من طقس بغيض!»، وشعر بالسعادة لما سُمِحَ له بالاستقرار على كرسي ذي مسند في النهاية.

انتقلت مدام فرسترايتن، بعدما تركت الشباب لأنفسهم، إلى البيت الزجاجي للجلوس مع زوجها، الذي ما أن سمع بوصول پول، تقدم لتحيته.

«مرحبًا بالعم».

«حسنٌ مرحبًا يا پول، كيف حالك؟ وكيف حال ماما؟».

«آه أنا على خير ما يرام يا عمي، ماما بخير كذلك؛ عندما غادرت البيت كانت منغمسة في قراءة كتاب أعارته إيلينه لها».

«أخبرني، ألم تقم بَعْدُ بزيارة مكتب هوفل؟».

«لا، يا عمي، آسف، ليس بعد».

«حسنٌ، لا تترك الأمر لفترة طويلة. هوفل حريصٌ على التعرف إليك».

صاحت ماري: «يا پول، قُلْتَ إنك كنت ذاهبًا لزيارة هوفل منذ أربعة أيام! كيف تأخذ كل هذا الوقت الطويل لتَعْزِمَ على القيام بتلك الزيارة؟ إنها ليست كما لو كانت رحلة طويلة، أليس كذلك؟» .

«كنت أخطط للذهاب غدًا».

«حسنٌ، أرجو أن تفعل. أقترح عليك أن تتصل في الساعة السادسة والنصف، فهو دائمًا موجود بالمنزل في تلك الساعة. أنصحك بصورة مُلِحَّة بألا تؤجلها لأي فترة أطول!». ردَّ العم فرسترايتن بمسحة من انزعاج بدت في عينيه البنيتين الداكنتين المبتهجتين في أثناء عودته إلى البيت الزجاجي بخفة حركة غير معتادة.

قالت فريدريك، وهي تهز رأسها، «پول، أيها الصبي الشقي! كيف يمكن أن تكون كسولاً لهذه الدرجة؟ أنت أسوأ من لي لي».

قال پول بشكل أجش، وهو يرفع كوب الشاي، «سأزوره غدًا بكل تأكيد».

تابعت ماري، وهي لا تخشى انفعاله، «أنت كسول أكثر من أي شيء آخر. ولنكن صادقين، كلنا غير موافقين على هذا».

«أتعطينني محاضرة الآن، أليس كذلك، أيتها الجدة العجوز؟».

«لا أعبأ بما تطلقه عليّ، أنا فقط أطرح لك رأيي. ترى، أعتقد بأنه من المخزي أن تكون بهذا الشكل، لأن هناك الكثير والكثير، الذي يمكنك تحقيقه إن كنت تملك قدرًا قليلاً من العزيمة. سَجِّل كلماتي، إن لم تستطع لملمة شتات نفسك فسوف ينتهي بك الحال كـ هِنْك؛ فهو طيب ودمث الخلق بكل تأكيد، لكنه ليس الشخص، الذي يُعْرَف بفهمه للكثير من الأمور، أليس كذلك؟ تعرف أنني لست غاضبة من بيتسي، لكن يمكنني أن أفهم تمامًا السبب وراء شعورها بالملل الرهيب في بعض الأحيان مع أخيك، الذي لا يفعل شيئًا طوال اليوم».

صاحت فريدريك: «الآن إياكِ أن تقولي كلمة واحدة ضد هِنْك! كم هو حبوب!».

واصلت ماري الحديث: «وإلى جانب ذلك، أنتَ أكثر موهبة بكثير من هِنْك، الأمر الذي يجعل كسلك وانعدام طاقتك أمرًا غير قابل للتبرير على نحو مضاعف».

قالت لي لي، وهي تهب واقفة من مقعدها، «فقط اتركيه وشأنه يا ماري. لا تتضايقي من حبيبنا پول المسكين». بعدها تحولت إلى پول، وهمست:» الآن ضع في حسبانك أن تذهب لزيارة هوفل غدًا، أتسمع؟ بعد ذلك كل شيء سيكون على ما يُرام».

فَرَج فمه عن ابتسامة واسعة، ووعد بأن يُحَسِّن أسلوبه إن كان ذلك ما يريدونه.

رَدَّ بطريقة تبدو منها روح الدعابة: «يبدو الحال كما لو كنتُ سأُوضَعُ تحت وصاية بنات عمي والآنسة فان إرليفورت. حسنٌ إذن، ألا يكونون من اللطف بأن يقدموا لوَصِّيهم الصغير كوبًا آخر من الشاي؟».

***

توقف هطول الأمطار، لكن الأغصان، التي تسقط منها قطرات الماء كانت لا تزال تتمايل في الريح. في تمام الساعة الخامسة والنصف دق جرس الباب مرة أخرى.

صاحت فريدريك: «الساعة تعدت الخامسة والنصف بالفعل! لا بد أن أنطلق، لأنني اشتريت بعض الأوشحة بعد ظهيرة اليوم، والتي ما زلت أرغب في ارتدائها على فستاني. ياه، سوف يكون الأمر لطيفًا هذه الليلة- أنا مرتدية كل هذا التول الخفيف المهفهف! أين تركتم أغراضي يا ماري؟».

سألت لي لي: «هل سمعتِ الجرس؟ أتظنين أنه زائر آخر؟».

انتظرت فريدريك برهة، لأنه كان عليها أن ترتدي معطفها الواقي من المطر في الردهة، وجاءت دين للاستفسار عما إذا كانوا بالمنزل لمستر دي ڤوده فان بيرج.

«لا أعتقد ذلك يا دين، ولكن اذهبي واسألي في البيت الزجاجي».

صاحت لي لي: «يوه، ليس هو مرة أخرى! يا له من مُراءٍ!».

رد پول بحسم: «إنه ليس سيئًا إلى هذه الدرجة، وليس فيه شيء من الرياء أيضًا».

«على أي حال، ليست لدي رغبة في أن أراه!»، رَدَّت، وهى تتجه لتغلق الباب المنزلق عندما أُرسلت دين لإدخال الزائر للمنزل.

قالت ماري: «لي لي، لا تكوني سخيفة، تعالي بسرعة الآن!».

«لا شكرًا جزيلاً لك، لتذهبي أنتِ»، وجَرَّت كلا البابين معًا في الوقت، الذي دخل فيه دي ڤوده إلى الصالون. رحبت به ماري، التي قادته إلى البيت الزجاجي.

ضحك پول وفريدريك ووَدَّعا لي لي، بعدها مر ثلاثتهم جميعًا عبر حجرة الطعام إلى الصالة.

قال پول: «أوريڤوار، أرجو أن تنقلوا تحياتي إلى العم والعمة، وأخبروا عمي بأنني سوف أذهب بالتأكيد لزيارة هوفل غدًا بعد العشاء».

ردت فريدي: «أرجو أن توصلوا لهم تحياتي أيضًا، وأخبروهم بأنني اضطررت للمغادرة بسرعة!».

«حسنٌ إذن، وداعًا، استمتعي هذا المساء وأنتِ ترتدين تولِّك الخفيف المهفهف! برر، كم الجو بارد هنا في الصالة!».

غادر پول وفريدي، ورجعت لي لي عبر حجرة الطعام. جورج دي ڤوده؟ آه، كان يقوم بزيارة مجاملة بعد سهرة الأسبوع الماضي، هذا كل ما في الأمر! لا، لا تستطيع أن تطيقه. مصطنع للغاية ومتغطرس للغاية! كيف يمكن لپول أن يرى فيه أي شيء؟ فَكَّرَت ألف مرة أن پول مقبول ومفعم بالحيوية أكثر منه. كيف ألقت ماري عليه بالمواعظ! كان پول على ما يرام، ولو أنه تغير قليلاً في الجانب الكسول، فماذا في ذلك؟ في نهاية الأمر، لديه المال الذي يُمَكِّنُه من الاستمتاع لفترة من الوقت؛ كانت على يقين أنه سوف يحصل في نهاية المطاف على وظيفة. سوف تخبر بابا أن پول قد وعد بزيارة هوفل في الغد، وأنه دائمًا يفي بوعوده.

جلست مرة أخرى في الكرسي ذي المسند القديم، ومالت إلى الأمام لتلكز

النار، ثم وضعت المزيد من الفحم والخُثّ، وقطعة أخرى من الحطب. دفأت أصابعها، التي صارت باردة، وفركت يديها الصغيرتين الأنيقتين كالساتان الأبيض. كان بإمكانها أن تستمع عبر الباب المغلق إلى الحديث المتبادل المكتوم، الذي كان يجري في البيت الزجاجي. غالبًا استطاعت أن تميز صوت جورج- من الواضح أنه كان في حالة ذهنية غاية في الثرثرة. وبعدما ثار فضولها، نهضت واقفة وفتحت بعناية بابًا من البابين المنزلقين فتحة ضيقة حتى تتمكن من اختلاس النظر إلى البيت الزجاجي، إلى الجانب البعيد من النخل ذي السعف العريض. لم يكن بابا وماما ظاهريْن للعيان، لكنها تمكنت فقط من رؤية وجه ماري وظهر جورج. كم سيكون الأمر هزليًا إن رأتها ماري، وهى تتلصص عليهما هكذا، لكن يبدو أن أختها كانت مستغرقة فيما كان يقوله ذلك الغندور جورج بنفسه. لم تستطع لي لي تمييز أي شيء سوى حافة ياقته اللامعة وذيول سترته- أنيق جدًا! هناك، شَخَصَت ماري ببصرها، نعم لقد لمحتها! لَوَّحَت بيديها بمرح، وانحنت انحناءة صغيرة، ثم تجهم وجهها مما جعل ماري تقطب حاجبيها وتزم شفتيها لئلا تنفجر ضاحكة.

* * *

بدأ يحل الظلام، حينما أسرعت فريدريك بالعودة إلى البيت في فورهاوت. أدخلها ڤيليم الخادم إلى البيت، لتنزل بسرعة إلى الصالة الرحيبة، وتصعد الدَّرَج الواسع. تعثرت تقريبًا بابنة وابن أختها، مادلين ونيكو فان رايسل. كانت أمهما أختها الكبرى ماتيلدا، التي أخذت أطفالها الأربعة، منذ انفصالها عن زوجها، لتعيش مع مدام فان إرليفورت.

«آنسة فرانتسين، خذي حذركِ، الأطفال سوف يقعون!»، قالت فريدريك، وهى تلهث عندما قابلت المربية ممتلئة الجسم عند بسطة دَرَج الطابق الأول، وهى تبحث هنا وهناك عن الصغار المشاغبين: «مادلين ونيكو يلعبان على الدَّرَج».

سألت الآنسة فرانتسين، يبدو عليها التوتر والقلق الشديد، «هل تصادف

ورأيتِ إرنستين ويوهان بأي شكل؟».

«لا، بالطبع لا، لقد عدت من الخارج للتو!»، رَدَّت فريدريك بضيق، وانطلقت بسرعة في طريقها. فتحت باب حجرتها بسرعة وعنف، ألقت معطفها الواقي من المطر بعيدًا، وشرعت بأصابع متوترة تفتح أحد الأغراض الصغيرة، التي حملتها معها إلى البيت في جيب معطفها وأنبوبها الفرو.

«لن أستطيع أن أكون جاهزة أبدًا في الوقت المناسب!»، تمتمت بعصبية، وهى تلقي جانبًا الستارة الدمشقية الخضراء عن هيكل سريرها، حيث كان فستان سهرتها الطويل، وهو عبارة عن سحابة شفافة من التول الأزرق الشاحب، ملقى وهو مفرود على غطاء السرير.

سَلَّمَت الخيَّاطة فستان سهرة فريدريك صباح ذلك اليوم، وأرادت هى إضافة بعض الفيونكات، لكنها تجرأت بالكاد على أن تلمس الثوب خوفًا من تشابك المادة الشفافة الرقيقة وتعقدها.

تنهدت بقولها: «ياه، ماذا أفعل؟»، ثم، وعلى أثر رغبة قوية، ركضت خارج الحجرة، ونادت من بسطة الدَّرَج:

«تيلي، تيلي، ماتيلدا!».

فُتِحَ بابٌ وظهرت أختها في شيء من الذعر.

«لكن يا فريدي، أيًا ما كان الأمر؟ هل أُضطرمت النار بالبيت؟».

«لا، لا ! لو كان الأمر كذلك لما كنت ناديتكِ أنتِ على وجه التحديد، والآن أليس كذلك؟ الأمر هو أنني بحاجة إلى مساعدة، لا أستطيع التفكير، ولن أكون جاهزة أبدًا!».

«مساعدة؟ فيمَ؟».

«في فستاني! أخبرتكِ بأنني أريد بعض الفيونكات الصغيرة كلمسة أخيرة. أعتقد بأنه بدا سادة إلى حد ما من الجانب، وقد اشتريت بعض الأشرطة».

قبل أن تجيب ماتيلدا، فُتِحَ باب حجرة أخرى لتظهر منه مدام فان إرليفورت،

وطالبت بأن تعرف السبب وراء هذه الضجة. في الوقت نفسه جاء صوت انفجار الأطفال في الضحك الصاخب من الطابق الثاني، أعقبه صوت عالٍ من طقطقة أقدام صغيرة. تعثرت ابنة أخت فريدريك ذات السنوات السبع، وهى تهبط الدَّرَج مع شقيقها ذي السنوات الست في مطاردة ساخنة.

«ماما! ماما!»، صرخت الفتاة الصغيرة، وهى تجتاز السُّلمات الأخيرة بقفزة.

وبختهم أمهم: «الآن، الآن، تينا وجو! ما هذة الضجة المروعة التي تصنعونها! ماذا تفعلون هنا؟».

«يو يغيظني طوال الوقت، يريد أن يدغدغني، وهو يعلم بأنني لا أستطيع تحمل هذا!»، أوضحت إرنستين، وهى تلتقط أنفاسها، وأختفت وراء تنورة جدتها في الوقت، الذي أمسكت فيه فريدريك بأخيها.

عَنَّفَتهم ماتيلدا: «كم مرة أخبرتكما بألا تركضا هنا وهناك داخل البيت، وأن تخفضا صوتيكما! تعرفان أن نينة ليست صغيرة في السن، وكل هذه الضوضاء أكثر مما تحتمل بكثير».

هدأت مدام فان إرليفورت منها قائلة: «لا يهم، كانوا يلعبون فقط».

«عليكَ أن تكون حذرًا أيها الشاب الصغير، وإلا دغدغتك!». صاحت فريدريك، ودغدغت يو تحت ذراعيه القصيرين لدرجة أنه وقع وهو يضحك.

قالت ماتيلدا متململة بالفرنسية: «طالما أنكِ تفسدينهما، كليهما، فلا تدلليهما وأنا غاضبة. أنا أفقد كل ما أملك من قوة إذا استمررتِ في ذلك!». اتكأت على الدرابزين، حيث دفعت مادلين ونيكو المربية فرانتسين البدينة إلى الارتباك بشقاوتهما.

صاحت: «مادلين ونيكو! توقفا عن ذلك فورًا!».

تضرعت فريدريك: «ياه، يا ماتيلدا، لا تعبأي بالأطفال، فقط تعالي، وألقي نظرة على فستاني!».

تنهدت ماتيلدا، وهى تقول: «من المستحيل التحكم فيهما!».

قالت مدام فان إرليفورت: «من الأفضل لكِ أن تسرعي يا فريدي؛ سوف يُقام العشاء في وقت مبكر اليوم- نأمل أن يكون في خلال نصف ساعة».

انفتح الباب الأمامي، ودخل أوتو وإتيان فان إرليفورت، يختلط صوتهما المبتهج بصيحات الأطفال المتحمسة، وتحذيرات الآنسة فرانتسين غير المثمرة، ونباح هيكتور، كلب أوتو الأسود.

نادتها فريدي بإغراء، وبصوت غاية في العذوبة، «ماتيلدا، من فضلكِ تعالي وألقي نظرة على فستاني، لمدة ثانية واحدة فقط!».

تخلت ماتيلدا عن المحاولات الأخرى لتأديب فروخها وتركت نفسها لتقودها فريدريك.

«حقًا، أنا أعني ذلك؛ لقد صارا خارج السيطرة تمامًا».

قالت مدام فان إرليفورت لإرنستين ويوهان: «الآن، الآن يا أطفال، توقفا عن الشجار! كونا مؤدبيْن الآن! تعاليا معي، انزلا الدَّرَج مع نينة. الجو بارد لدرجة التجمد هنا على البسطة».

* * *

كانت مدام فان إرليفورت معتادة على صخب الأطفال وهياجهم، وهو ما لم يسبب لها أبدًا أدنى استياء. كأم لسبعة أولاد كانت دائمًا محاطة بالضحك والمشاجرات والإثارة، ولم تستطع تصور نشأة أي عائلة كبيرة في جوٍ أكثر هدوءًا من ذلك الجو، الذي عرفته بنفسها. كان بيتها مليئًا بالبهجة الصاخبة، والشجارات عالية الصوت، وركض صغارها ذهابًا وإيابًا حتى كبروا، وكلٌّ يرفرف بمعنويات عالية ومفعمة بالشباب. بعد ذلك، ومع وفاة زوجها تيودور أوتو، بارون فان إرليفورت تير هورتس، وعضو الغرفة الثانية بمجلس طبقات الأمة [برلمان هولندا]، بدأت فترة من الهدوء غير المسبوق، عندما تزوج أربعة من أولادها تباعًا وتركوا البيت. كان تيودور، الأكبر سنًا، أول من غادر، وهو يدير الآن أملاكهم العقارية في خيلدرلند، والذي يبدو أنه من خلال امتلاكه

لزوجة شابة والكثير من الأطفال، قد تحول إلى عين من أعيان المزارعين ورب عائلة شاب. ثم بعد ذلك كانت ماتيلدا، ابنتها الثالثة، التي كان زواجها القصير تعيسًا للغاية؛ ثم أعقبها البنتان الأكبر سنًا، كاترين وسوزان، تزوجت الأولى من مصرفيّ إنجليزي اسمه پيرسي هوارد، ويقيمان الآن في لندن، والأخرى تزوجت معالي السيد آرنولد فان ستراالينبورج، ويعمل أمينًا للسجلات بمحكمة زفُلِه.

وهكذا لم يبقَ مع مدام فان إرليفورت إلا ولدان وبنت- أوتو ويعمل مفتشًا مساعدًا بوزارة الشؤون الداخلية، وإتيان يدرس القانون في ليدن، وأصغر أولادها وبناتها، فريدريك- وبدون السحر الجديد الخاص بكونها جَدَّة وعواطفه المنعشة، بالتأكيد جعلها الهدوء النسبي الذي أعقب زواجهم تشعر بالجزع ومعتادة على طقطقة الأقدام الخفيفة على الدَّرَج وأغاني الأصوات الصافية وضحكاتها في صالتها الفسيحة.

الآن عادت ماتيلدا إلى البيت مع أطفالها، الذين مُنِحَت حق حضانتهم بعد طلاقها من فان رايسل. سافر الرجل إلى الخارج، ولم يُسْمَع عنه إلا القليل منذ ذاك.

كانت مدام فان إرليفورت متعاطفة مع ابنتها، التي تحملت لفترة طويلة وبقدر من الكرامة نصيبها كزوجة مظلومة، واستقبلتها بأذرع مفتوحة، وهي مبتهجة داخليًا بالحياة الغضة المفعمة بالنشاط، التي أتى بها أحفادها الأربعة إلى منزلها. دللتهم جميعًا، حتى أن أكثر مقالبهم جموحًا لم تنجح في إثارة غضبها. كانت ماتيلدا من جانبها تشعر بالقلق إزاء الأثر، الذي قد يستتبعه هذا على أولادها الأربعة، وتوسلت إلى أمها ألا تعارضها عندما تريد أن تلقنهم شيئًا من العقاب، الذي يستحقونه. استسلمت مدام فان إرليفورت لهذا بما يكفي من السهولة، لكنها كانت تنسى كل شيء عن ذلك في الدقيقة، التي تليها، وبينما كانت فريدريك، وهي نفسها طفلة مدللة، تأخذ جانب أختها، فإنها لم تحاول، إلا قليلاً، غرس أي انضباط داخلهم أيضًا. لم تكن ماتيلدا تتوقع دعمًا حازمًا

إلا من أخيها أوتو، وفي الواقع لم يُظْهِر العفاريت الأربعة أي احترام إلا لعمهم فقط. كان أوتو قد ورث قلب أمه الطيب، وتفكير أبيه السليم، وبدا بسلوكه الهادئ أكبر من أعوامه الثمانية والعشرين. غير أن ملامحه الرجولية قد صُبَّت في قالبٍ ودود وصادق، وكان هناك الكثير من التعاطف والثقة في تلك العيون الداكنة والمشرقة، لدرجة أن الجو العام من الجدية والمنطق السليم لم يخل من جاذبية بأي حال من الأحوال. كان إتيان على النقيض من ذلك متململاً كله مرح وبهجة، والمفضل عند أمه، وشمس حياتها المشرقة. كرست فريدريك جهودها لكلا أخويها، لكنها غالبًا ما كانت تدعو أوتو «دادي»، بينما تمرح مع إتيان بقدر ما تفعله مادلين مع نيكو وتينا مع يو.

* * *

أصدرت مدام فان إرليفورت قرارًا بأن يُقام العشاء في وقت مبكر - في تمام الساعة الخامسة والنصف- حتى تأخذ قسطًا قصيرًا من الراحة قبل ارتداء ملابسها من أجل الحفل الراقص، الذي سيقام في منزل آل إيخوف، والذي سوف تحضره مع فريدي وولديها. أما ماتيلدا، الأم الشابة ذات العينين الحزينتين والهادئتين، والتي يبدو أنها فقدت القدرة على الضحك، فسوف تبقى في البيت مع الأطفال. تناول الأشقياء الأربعة وجباتهم بشكل منفصل مع الآنسة فرانتسين بناء على طلب ماتيلدا المُلِحّ، وذلك أن مدام فان إرليفورت لم تكن تحب شيئًا أكثر من اجتماع القبيلة بأكملها بالإضافة إلى مربيتهم ممتلئة الجسم في أوقات الوجبات، غير مبالين على الإطلاق ببقع المرق على سماطها الدمشقي أو انكسار عويناتها أو انغماس أصابع صغيرة في الطعام المحفوظ. وهكذا لم تستطع ماتيلدا منع الصغار من التسلل إلى حجرة الطعام الواحد تلو الآخر بعد تناول عشائهم، بما يثير ارتباك الآنسة فرانتسين وحيرتها، والتي كانت تفتح الأبواب، وهى تفتش، مفتوحة العينين في حذر. وبعدما فعلوا ذلك عدة مرات دون أي احتجاج من نينتهم جعلوها عادة لهم، وهو ما رضخت له ماتيلدا في حسرة .أخذ إتيان وفريدريك الموضوع كله كمزحة حلوة، وضحك

أوتو أيضًا، وفي النهاية رفعت ماتيلدا كتفيها وابتسمت: «لا فائدة».

قالت فريدريك، وهي على المائدة، «شكرًا لك يا أوتو، لا تقدم لي المزيد، لا يمكنني أبدًا تناول الطعام قبل الذهاب إلى الحفل الراقص، فأنتَ تعلم حالي».

سألها أوتو: «ألا تزالين متوترة كما كنتِ من قبل؟ كنتُ أظن أن أي فتاة لا يمكنها أن تأكل فقط إلا قبل ظهورها لأول مرة في المجتمع. أيتها المسكينة!».

قالت مدام فان إرليفورت بقلق: «فريدي، ماذا كنتِ تفعلين بفستانك؟ أتمنى ألا تكوني قد أتلفته».

استطردت: «لا، يا ماما يا عزيزتي، أخذتُ نصيحة ماتيلدا في النهاية، وتركت كل شيء كما كان عليه. أووه، لا أستطيع الانتظار لأريه لكِ»، ثم تحولت إلى أوتو. سأكون كالأثير تمامًا وأنا مرتدية التول الأزرق- تعلم، كما لو كنتُ أطفو على الماء. يوه، ها قد أتى أعداء الفن والجمال!».

كانت تشير إلى أبناء فان رايسل الأربعة، الذين انقضّوا على حجرة الطعام مع نيكو الصغير في المقدمة، وهو ينفخ بوقه اللعبة، الذي يَصُمُّ الآذان. جاءوا لتناول برتقالهم مع النبيذ والسكر في حجرة الطعام؛ وضعت مدام فان إرليفورت نيكو بجوارها، وأعدت له الحلوى باهتمام، بعدها ازدرد العفريت ذو الشعر الشبيه بالكتان ثمرة الفاكهة المقطعة إلى شرائح بينما سال العصير حتى أسفل ذقنه، ليتوقف بين الحين والآخر لينفخ في بوقه .

تشاجرت تينا ويو وإتيان شجارًا ساخنًا حول الحصة المقبلة، وقد تشابكت شوكاتهم في أثناء هذه العملية، بينما أخبرت فريدي أوتو عن الأشخاص، الذين يُحتمل أن يقابلهم في منزل آل إيخوف.

«حسنٌ، سوف تكون هناك عائلة هايدريخت، وكذلك إيلينه فيره، فضلاً عن عائلة فان لارن، وفرانسواز أودينדايك. ألا تظن أن فرانسواز أجمل من مارجريت فان لارن؟ قل لي يا أوتو، مَنْ منهما تود أن تغازلها؟ يووه، نيكو! آذاني البائسة! يا نيكو!».

انطلق البوق، تووووت توت تووووت توت

عَنَّفَته ماتيلدا: «نيكو، أنتَ تصيبني بالخبل والجنون بذلك الضجيج. ضع هذا الشيء جانبًا هذه اللحظة، وكُلْ بشكل سليم. انظر إلى ما فعلته بسترتك!».

«ياه، إنه فقط يحب موسيقاه- أليس كذلك، يا حبيبي؟». انطلقت مدام فان إرليفورت بحماس، ووضعت ذراعها حول الطفل، بينما صوَّب بوقه في أذنها ونفخ بصوت عالٍ بشكل يدل على الاستهتار بشكل صادم.

***

بعد ذلك، لعبت فريدي وإتيان مع الأطفال، بينما أوت جدتهم إلى مخدعها ودَخَّن أوتو سيجاره في صحبة ماتيلدا، التي شرعت تعمل فيما تطرزه. نظفت ريكا الخادمة المائدة، وقد أعاقها نيكو كثيرًا، والذي كانت تخشى أن يَقْلِب صينيتها المكدسة بالصحون والكؤوس. دقت الساعة الثامنة أخيرًا، وجاءت الآنسة فرانتسين لتُحْضِر الأطفال.

«يا الله يا روحي!»، هتفت فريدريك من أعماق الأريكة، حيث كادت تخنقها تينا وجو ومادلين، وانتشلت نفسها من بين أحضانهم، التي تشبه المجسات. «يجب أن أصعد إلى الطابق العلوي؛ ماتيلدا، هلا أتيتِ للمساعدة؟».

أجابت ماتيلدا، وهى تنهض واقفة، «حسنٌ جدًا، أما بالنسبة لكم يا أطفال، فيجب أن تنطلقوا، إنه وقت النوم!».

تكلمت تينا: «لا، لن أذهب إلى السرير، أولاً أريد أن أرى العمة فريدي، وهى تبدو جميلة تمامًا، وكما أريد أن أساعد أيضًا».

قالت ماتيلدا: «العمة فريدي ليست في حاجة إلى مساعدتكم؛ على أي حال، إنها دائمًا تبدو جميلة، انطلقوا معها الآن، واذهبوا مع الآنسة فرانتسين كالأطفال الشاطرين».

هرعت فريدي سريعًا، ولما كانت مدام فان إرليفورت تستريح استطاعت ماتيلدا، ولمرة واحدة أن تفرض إرادتها. هشت أبناءها الأربعة ليصعدوا الدَّرَج،

لتتوقف عند كل سُلَّمة لمنع نيكو من القفز لأسفل مرة أخرى، ومنع مادلين من اللعب مع هيكتور.

نادت ماتيلدا: «سأكون معك خلال لحظة يا فريدي! بمجرد أن يصعد الأطفال إلى الطابق العلوي!».

صاحت فريدي من حجرتها أنها في انتظارها، وبدأت تمشط شعرها الطويل والمموج، ضفائر كليوباترا المتدرجة... كان على ماتيلدا أن تصفف شعرها؛ فقد كانت ماهرة للغاية في ذلك. بعد ذلك وضعت اكسسواراتها: المروحة والقفازات ومنديل الجيب، وسَلَّت قدميها في حذائها الراقص من الساتان الأزرق الشاحب. لَوَّنت حمرة التوتر بشرتها البيضاء بلون الحليب، أثناء رؤيتها لنفسها في المرآة الشيڤال، وقَوَّست شفتيها لتتحول إلى ابتسامة لتُظهر النغازات في خديها. جال بخاطرها أنه لا بأس على الإطلاق، لا بأس على الإطلاق.

بعد نصف ساعة ظهرت ماتيلدا برفقة مارتا، خادمة الطابق العلوي، التي كانت تقوم بواجباتها كقهرمانة، وجلست فريدريك عند طاولتها لارتداء الملابس، وهى ترتدي قميصها التحتاني الفضفاض، ونعال الرقص الأزرق.

«من فضلكِ يا تيلي، فقط بسيط وجميل كما في المرة السابقة!». قالت فريدريك، ومارتا تقف على أهبة الاستعداد، ومعها الأمشاط ومشابك تمويج الشعر ودبابيس الشعر. «ياه، كم بارد الجو هنا! مارتا، ضعي شيئًا على كتفي، ممكن؟».

كَسَت مارتا كتفيها بشالٍ ملون بألوان زاهية، وفي وقت قليل أكملت أصابع ماتيلدا الماهرة تسريحتها.

قالت ماتيلدا، وهى تُعَدِّل خصلة صغيرة مموجة على حاجبها، «هناك! بسيط وأنيق، ولن يسقط كذلك. سعيدة الآن؟».

تأملت فريدريك انعكاسها ولمست بأطراف أصابعها جانبيّ شعرها.

ردت بقولها: «نعم، جدًا، والآن... الآن حان وقت تولّى الخفيف المهفهف».

سقط الشال جانبًا، واستعادته مارتا بسرعة، والتي تنقلت بنشاط لترتيب الملابس، التي تناثرت هنا وهناك في الحجرة. رفعت ماتيلدا الأزرق اللازوردي الرقيق وتركته يسقط، خفيفًا كتنهيدة، فوق رأس فريدي.

«إنها كالجنية أو حورية البحر!»، قالت فريدي، وهى مرفوعة الذراعين، بينما نزلت تيلي ومارتا على ركبتيهما لنفخ التنورة المنتفخة. لا، لا، لا، همهمت فريدي، وهي تنقر بقدميها.

«حافظي عليها ثابتة يا فريدي. مارتا، ناوليني دبوسًا؛ تلك الفيونكة انفكت من مكانها».

«كيف أبدو يا مارتا؟».

«أووه، جميلة يا آنسة!».

«أليس سادة قليلاً من الجانب الآن يا تيلي؟».

«لا ليس على الإطلاق، الفستان مليء بالشرائط والفيونكات على أي حال. ما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟ أنتِ مرفرفة من كل الجهات. من أجل ربنا يا فريدي، حاول أن تبقي ثابتة».

بدأ الباب في الصرير، كما لو دفعته يدٌ خفية مواربًا برفق. «كم الساعة الآن؟، هتفت ماتيلدا بغضب عندما شاهدت إرنستين في المدخل، وهى ترتعش وأشبه بالشبح في بيجامة نومها البيضاء.

«أرجوكِ، ماما، قالت على استحياء لكن بشقاوة خفية. «فقط قصدت أن...».

«إرنستين! سوف تصابين بنزلة برد مميتة، وأنتِ في بيجامة نومك! يا لكِ من فتاة غير مطيعة!».

«بسرعة يا تينا، اقفزي إلى فراشي، سوف تشعرين بجو لطيف ودافيء هناك؛ لكن انتبهي إلى صدريتي!»، صاحت فريدي، وأضافت في همس: «آه يا تيلي، لا عليكِ».

كانت تينا قد صعدت بالفعل إلى سرير فريدي، وشرعت في لملمة نفسها

كاليمامة وسط البطانيات، ومدت أصابعها الصغيرة بسعادة لتلمس ستان صدرية فريدريك الأزرق، والذي كان لا يزال ملقى على الوسائد.

تنهدت ماتيلدا ورفعت كتفيها، مضطرة لقبول الأمر الواقع كعادتها، لكنها أخذت الفستان بعيدًا عن يد التخريب، وكانت مدام فان إرليفورت، بحفيف تنورتها المتموجة، الشخص التالي، الذي يظهر في المدخل.

صاحت فريدريك: «ألا تبدو ماما جميلة! سوف ترين يا تيلي، سوف أكون آخر من يكون جاهزًا! يوه، أسرعي!».

ربطت ماتيلدا ظهر الصدرية الساتان الزرقاء، بينما كانت مدام فان إرليفورت تراقب، وهى تبتسم بفخر لحوريتها البحرية الرقيقة. بعد ذلك جاء صوت عراك خفيف من البسطة، ولما بحثت حولها لمحت يوهان ومادلين، وكلاهما يرتجف، وهما في لباس نومهما.

«هذا هو الحد! أنتم تدفعونني إلى اليأس!»، انفجرت ماتيلدا؛ وتركت فريدريك واقفة وصدريتها نصف مربوطة وتوجهت سريعًا إلى الباب. «كيف يمكن أن تكونوا أشقياء بهذا الشكل؟ أنتم تجعلون ماما حزينة جدًا. سوف تمرضون غدًا، كل واحد منكم. اصعدوا إلى الطابق العلوي، في هذه اللحظة!».

كان صوتها حادًا بدرجة أن الصغار بدأوا تقريبًا في البكاء، لكن مدام فان إرليفورت جاءت لنجدتهم.

«يوه يا ماتيلدا، اسمحي لهم بالبقاء للقليل فقط!».

«اذهبوا إلى سريري إذن، بسرعة!»، قالت فريدريك بين صيحات الضحك. وأضافت: «لا تجرؤوا على لمس تولّي!»، وهى ترتد من براثن المخربيْن الصغيريْن الممدودة والعازمة على التشبث بالقماش الرقيق والشفاف وسحب الشرائط.

رأت ماتيلدا أن أفضل مكان للصغار، في ظل هذه الظروف، هو سرير فريدي؛ وللمرة الألف استسلمت بحسرة، واستأنفت ربط صدرية فريدي

بحيث يُسمع صرير الساتان وهي تشدها. انزلق يوهان ومادلين تحت البطانية المبطنة بجوار إرنستين، وثلاثتهم جميعًا، حالمون أبرياء، حدقوا في الجنية الزرقاء.

كان يوهان يريد أن يعرف: «ألن ترتدي المزيد من الملابس، يا خالتي؟ أم هل ستظلين نصف عارية؟».

تهكمت إرنستين: «صبي سخيف!»، ودفعته دفعة قوية لدرجة جعلته يتعثر ويهوي على مادلين، التي بدأت في الصراخ بينما أمسى سرير فريدريك كتلة صاخبة ومنتفخة من البطانيات الصوفية، وتموجات الشعر الأشقر، والوسائد والأيدي والأرجل الوردية.

ضحكت مدام فان إرليفورت وفريدريك كثيرًا لدرجة أنهما بكيا تقريبًا، مما تسبب لماتيلدا في الكثير من الضيق، والتي وجدت صعوبة كبيرة في ربط أربطة الصدرية بشكل سليم، ونادت المدام على أوتو وإتيان، اللذين كانا يرتديان معطفيهما بالفعل وهما يهبطان الدَّرَج ليأتيا ويشهدا المشهد.

«تعال إلى السرير معنا، أونكل إتيان، إلى هنا!»، صاح يوهان، لكن إتيان رفض هذا الشرف، قائلاً إنه يرتدي ملابسه للخروج، وليس للذهاب إلى السرير.

«ابتسم أوتو: «تبدين فاتنة يا فريدي!».

«كما لو كنتُ أطفو على سحابة هواء، ألا تظن ذلك؟ سحابة ... يا تيلي، ألم تنتهي من تلك الأربطة بَعدُ؟».

«كيف يمكنني أن أنتهي منها إذا لم تبقي ثابتة؟».

جهزت تيلي أخيرًا، وكذلك كان الجميع جاهزًا أيضًا. هبطت مدام فان إرليفورت الدَّرَج إلى الباب الأمامي، حيث كانت العربة في الانتظار.

«الآن يا أطفال، لا تنهضوا أبدًا من السرير، لن أريد أن أراكم تركضون هنا وهناك في البرد!»، صاحت ماتيلدا بقوة. في تلك الأثناء ساعدت مارتا

فريدريك على ارتداء عباءتها، بعدما أعطت أوتو مروحتها ليحملها، وإتيان واحدًا من قفازاتها.

قال أوتو، وهو يقرع المروحة على كف يده، «أسرعي يا فريدي، ماما في انتظارنا في الطابق السفلي».

سألت ماتيلدا: «هل أنتِ متأكدة أن معكِ كل شيء؟».

«أقول لكِ يا فريدي، أين قفازكِ الآخر، أم ستخرجين وأنتِ ترتدين قفازًا واحدًا فقط؟' سألها إتيان، وقد رفع صوته لكي يجعل صوته مسموعًا وسط هرج ومرج الأطفال في السرير.

«يوه، كم تصيبونني جميعكم بالتوتر! انظروا، لقد ارتديت نصف القفاز الآخر بالفعل! مارتا، منديلي! شكرًا؛ هل الجميع جاهزون؟ جميل! وداعًا وداعًا أعزائي الصغار!».

صاح إتيان: «فريدي، لقد نسيتِ شيئًا!».

«يا ربي، ماذا الآن؟».

«مظلتك!».

«لا تمزح معي بهذا الشكل! ماما تنتظرني، وكل ما تفعله أن تغيظني وتجعلني أتأخر! حسنٌ، وداعًا جميعًا، وداعًا يا تيلي، وداعًا يا أعزائي، نعم أوتو، أنا قادمة... تيلي، شكرًا لمجهودكِ لمساعدتي. وداعًا يا مارتا».

«استمتعي بوقتكِ، يا آنسة».

«عيشي المرح يا فريدي، وداعًا وداعًا ...».

انطلقت فريدي فجأة، تبعها أوتو وإتيان، أما الصغار فقد قفزوا على الفور من السرير.

صاحت ماتيلدا: «تعالوا هنا يا أطفال، على الفور!».

ألقت بعض الأغطية على أكتافهم: شالا، ووشاحا صوفيا، ومعطف فريدي

الواقي من المطر، الذي تجرجر على الأرض خلف إرنستين الصغيرة كالقطار.

قالت بحدة وتذمر: «وأين الآنسة فرانتسين؟ كان لا ينبغي أبدًا أن تسمح لكم بأن تأتوا إلى هنا».

قالت إرنستين: «إنها في الحضانة مع نيكو يا مامي، ونيكو نائم، أرجوكِ يا مامي، لا تغضبي!».

أبقت ذراعيها الصغيرين في أكمام المعطف الواقي من المطر المتمايلة، رغبة منها في الإلقاء بنفسها على أمها.

ابتسمت ماتيلدا، وسمحت لنفسها بأن تحتضنها ابنتها.

قالت، وقد هدأت، «الآن عليكم جميعًا أن تذهبوا إلى السرير!».

قالت مارتا، وهي تهز رأسها، «انظروا إلى حالة سرير الآنسة فريدي. عليّ أن أعيد ترتيبه كله مرة أخرى، وذلك بفضلكم أنتم أيها الأطفال الأشقياء!».

ردت مادلين، مُخالِفة إياها، «الأطفال المهذبين!».

أخذت ماتيلدا الطفلة بين ذراعيها؛ وتبعها إرنستين ويوهان، وهم يتعثرون في أروابهم المرتجلة، وهم يضحكون في طرب أن حيلتهم انطلت على الكبار.

«هس الآن يا أطفال، وإلا سوف توقظون نيكو!».

كانت الآنسة فرانتسين، غير مدركة لمغامرة الصغار، تقوم بالحياكة في هدوء وهيكتور عند قدميها، بينما كان نيكو نائمًا في سريره، وشعرت بقدر كبير من الكرب والحزن لما رأت الموكب المتحمس وهو يقترب. المتشردون الصغار تسللوا بعيدًا بهذا الشكل، بينما كانت تظن أنهم مستغرقون في النوم في الحجرة المجاورة!

وُضِعَ الثلاثة في السرير، وهم يرتجفون من البرد والإثارة، وكانت الآنسة فرانتسين قد حذرتهم عدة مرات لكي يتوقفوا عن الكلام ويخلدوا إلى النوم كالأطفال الشاطرين.

حدقت ماتيلدا في المهد، الذي كان يرقد فيه نيكو الصغير مرتاحًا تحت الأغطية، وعيناه مغلقة بشدة، وشفتاه رطبتان ومفروجتان قليلاً، وتتدلى تجعيدات شعره الشبيه بالكتان فوق الوسادة. كم كان يبدو ملائكيًا! والآخرون أيضًا- كم بدوا مبهجين! هم مصدر إزعاج بالطبع، وخارج نطاق السيطرة تمامًا، خصوصًا مع جدتهم وفريدي، إلا أنهم كانوا نعمة! نعمة ذات أربعة أضعاف!

انحنت ولمست بشفتيها فم نيكو الصغير؛ شعرت بنَفَسِه الخفيف الحلو يداعب خدها، وسقطت دموعها على جبهته، بيضاء وشفافة للغاية، وناعمة للغاية ... ملاكها الصغير!

٦

من آنٍ لآخر تزور مدام فان رات العجوز ابنها في ناساوپلاين لتناول كوب من شاي المساء؛ إذ تصل هناك بسيارتها الكوبيه في الساعة السابعة، وتغادر مرة أخرى في تمام الساعة التاسعة والنصف.

هذا المرة كانت بيتسي لا تزال بالطابق العلوي، لا شك مع بِنْ، كما أكدت إيلينه لمدام فان رات، رغم أن آنّا المربية كانت في الواقع، التي وضعت الصبي الصغير في السرير كل مساء.

قادت المربية السيدة العجوز إلى حجرة الانتظار، حيث نشرت ثريا بلورية صغيرة نورًا خفيفًا على المفروشات البنفسجية المغطاة بالبلش، وتنعكس منشوراتها الزجاجية المتلألئة داخل دعامتها الزجاجية المستديرة.

قالت السيدة العجوز: «وهِنْك؟».

ضحكت إيلينه: «لا، لا يزال غافيًا على ما أتوقع! انتظري، سأذهب وأناديه».

قالت مدام فان رات: «لا، لا، اتركيه. دعيه ينام، عزيزي المسكين، وابقي معي لبعض الوقت لنتحدث».

غاصت، وهي تجلس على الأريكة، وابتسمت لإيلينه، التي استقرت بالجلوس على بوف قريب منها.

أخذت إيلينه يد السيدة العجوز الجافة والمعرقة في يديها.

«وكيف حالكِ يا سيدتي العزيزة؟ بخيرٍ كما آمل؟ تبدين نضرة ومفعمة بالشباب بشكل ملحوظ اليوم- أعلن لكِ أنني لا أرى خطًا واحدًا على جبينك!».

سَعِدَت مدام فان رات كثيرًا، كما هو الحال دائمًا، بالدفء في صوت إيلينه

وابتسامتها المشرقة، والتي أضفت عليها الآن، بقصد أو بدون قصد، مسحة من سذاجة.

«أنتِ شريرة! تسخرين مني في شيخوختي! يا إيلي، لا بد أن تخجلي من نفسكِ!»، وَضَعَت ذراعها حول كتفيّ إيلينه وقَبَّلَتها على جبينها، ثم أضافت همسًا: «وكيف حال بيتسي هذه الأيام، ليست مزعجة كثيرًا ؟»

«آه حسنٌ، تعلمين، بيتسي ليست سيئة لهذه الدرجة بالفعل، فقط هي سريعة الغضب قليلاً- قليلاً في الأشياء التي تقولها. كلنا عائلة فيره سريعو الغضب، وأنا أيضًا، رغم أنني لا أتذكر أن بابا كان يغضب مطلقًا، لكنه بعد ذلك كان رجلاً لا مثيل له. أنا وبيتسي منسجمتان بشكل ممتاز؛ بالطبع لدينا خلافاتنا الصغيرة، ولكن هذا طبيعي إذا كنت تقضين وقتًا طويلاً جدًا مع بعضكما. أعتقد أنه كان سيحدث حتى بيني وبينكِ إذا كنت أعيش في منزلك».

«حسنٌ، سأكون مسرورة لو جئتِ وجربتها!».

ضحكت بخفة: «آه لا، سأكون مزعجة أكثر مما يُحتمل على المدى البعيد. تعتقدين أنني لطيفة لأنكِ لا ترين الكثير مني، لكن إن فعلتِ ... !».

«يا للكِ من فتاة خبيثة، لقد جعلتني أنني سوف أصبح سريعة الغضب جدًا!».

«أوه لا، لم أقصد أن يكون الأمر هكذا. لكن فعلاً، بيتسي طيبة القلب إذا واجهنا الموضوع بصراحة، وأود أن أؤكد لكِ، إنها زوجة ساحرة لهِنْك».

«حسنٌ، إن كنتِ تقولين ذلك. لكنني لست متأكدة من كنتُ سأختار لابني لو كان الأمر بيدي... بيتسي أم أي إنسانة أخرى ربما ...».

وضعت يدها على قمة رأس إيلينه، ونظرت إليها نظرة معبرة، وعيناها غائمتان، وترتسم ابتسامة حزينة حول فمها الملتوي.

فقدت إيلينه ثقتها بنفسها قليلاً؛ ذلك أن كلمات مدام فان رات استدعت أفكارها القديمة، التي مَرَّ عليها فترة طويلة ونُسِيَت تقريبًا، تلك اللحظات من الحنين المفاجئ لأن تكون في صحبة هِنْك، الرغبة الغامضة في أن تتكئ على

كتفه، وتدعه يتحمل المسئولية، لكن هذا كله كان منذ فترة طويلة، وبدت لها تلك المشاعر الآن بعيدة للغاية، ضبابية بحيث تصبح مجرد ظلال أفكار، ظلال أوهام ... بدت تلك الأفكار سخيفة نوعًا ما الآن، بل غريبة بشكل مضحك، ولا يؤدي تذكرها إلا جعلها تبتسم.

همست، وأطلقت ضحكة خفيفة كشفت عن أسنان كاللؤلؤ، «أوه، سيدتي، من يعرف كم كان سيكون تعيسًا إذا تبدل الحال؟ حتى لو كانت بيتسي مسيطرة قليلاً، فهو ليس زوجًا مقهورًا؛ قدماها أصغر بكثير من أن تدوس عليه!».

همست مدام فان رات: «صَهٍ، شخص ما قادم».

كان هِنْك. سحب ستارة الباب جانبًا، وقال إنه لا أدنى فكرة لديه أن الوقت كان متأخرًا جدًا. ضحكت إيلينه، وسألته ما إذا كان قد رأى أحلامًا جميلة.

«أنت تأكل كثيرًا، وهذا ما يجعلك كسولاً جدًا في المساء. آه يا مدام، لا بد أن تَرى كم يأكل!».

«إليكِ يا أمي، تعرفين الآن، هذه هي نوع المعاملة، التي يتلقاها ابنكِ في بيته، حتى من أخت زوجته العزيزة- إنها قد تكون مُتْعِبَة للغاية!».

«لا، توقف يا هِنْك! لا فائدة من التظاهر والادعاء، لأن مامتك لن تصدق أي شيء سيئ عني، ولا حتى من حبيبها هِنْك! أليس ذلك صحيحًا يا مدام؟ لا يمكنكِ أن تنكري ذلك، أليس كذلك؟».

فتحت إيلينه عينيها اللوزيتين باتساعها، وحدقت في السيدة العجوز بجوٍ من البراءة الطفولية. كان كيانها بأكمله يشع ذلك التعاطف لدرجة أن مدام فان رات لم تستطع أن تقاوم احتضانها.

«أنتِ حبيبتي!»، قالت في سعادة، مستمتعة بدفء شمس الشباب الساطعة، التي أشرقت على شيخوختها.

* * *

عندما نزلت بيتسي إلى الطابق السفلي اعتذرت بشدة لأنها أخذت وقتًا

طويلاً، واقترحت أن حماتها قد تفضل تناول الشاي في الصالون بدلاً من البقاء محبوسة في حجرة الانتظار.

قالت مدام فان رات في الوقت، الذي سحبت فيه إيلينه مدفئة أقدام من الرخام من أجلها، «قال پول إنه سيأتي في وقت لاحق. بعد ذلك يمكنكِ غناء بعض الأغاني الثنائية. ما رأيكِ يا إيلي؟».

«سيكون هذا من دواعي سروري، سيدتي العزيزة».

أخرجت مدام فان رات نظارتها وشغل الكروشيه الخاص بها بينما جلست بيتسي بجوار صينية الشاي المثقلة بالفضة المصقولة والخزف الياباني، وظلت تثرثر عن هذا وذاك، بما في ذلك الحفل الراقص في منزل إيخوف، والتي كانت أكثر الأمور إمتاعًا بالنسبة لها.

سألت السيدة العجوز: «وأنتِ يا إيلي، هل استمتعتِ؟.

«نعم في الواقع، كان الرقص جميلاً، وكانت هناك رقصة كوتيلون فخمة أيضًا».

«وماذا عنك يا هِنْك؟».

«آه هِنْك!».

ضحكوا جميعًا، وهتفت إيلينه أنه ممتلئ الجسم بدرجة تمنعه من الرقص فعلاً، رغم أنه ربما لا يزال يحتفظ بقوام أنيق للقيام برقصة المينيويت الكلاسيكية- لقد عادت رقصات المينيويت موضة مرة أخرى، كما لا بد أن المدام العزيزة قد سمعت.

انضمت السيدة العجوز إلى جو المرح، وكان هِنْك انتهى لتوه من تناول كوب الشاي، الذي يتصاعد منه البخار عندما دق جرس الباب الأمامي. دخل پول معلنًا أنه عاد لتوه من زيارة هوفل في مكتبه في پرنسيسيخراخت. كان ينوي زيارة المحامي في مسكنه مساء اليوم السابق، لكنه بعدما التقى فنسنت فيره مصادفة في هوخسترات أرجأ زيارته للانضمام إلى بعض الأصدقاء لتناول

كأس من النبيذ في مكان فنسنت. وألفى هوفل أكثر الناس دماثة خلق لما اقترب منه أكثر عند تعارفهما، فهو رجل لطيف للغاية، وودود جدًا، ثم وصلا إلى اتفاق هو أن پول سوف يبدأ العمل في المكتب في يوم الاثنين المقبل.

عجزت مدام فان رات عن كتم تنهيدة ارتياح، وذلك أن الزيارة التي نوقشت طويلاً قد تحققت أخيرًا. في المرة الأخيرة، التي رأت فيها زوج أختها ظنت أنها لاحظت مسحة من ضيق في صوته عند ذكر پول، وفي المسائل، التي تتعلق بابنها الأصغر فإنها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على مساعدة فرسترايتن، الذي كان شريكًا في الوصاية على پول حتى بلغ سن الرشد.

بعدما سمعت رواية پول عن زيارته، عضت بيتسي شفتها؛ لماذا يضيع هِنْك زوجها كل وقته على حصانه الملعون ذاك، وكلاب الصيد الملعونة تلك؟ لكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ لقد أخبرته عن ذلك كثيرًا بما فيه الكفاية، ولا يمكنها أن تثير هذا الموضوع مرة أخرى في وجود حماتها.

صاحت إيلينه: «حسنٌ، پول؟ ماذا عن غناء أغنية إذن؟».

قال پول إنه على استعداد، ووقف على قدميه؛ وجلست إيلينه على البيانو. كانا يلتقيان كل خميس للتدريب على الغناء معًا، وافتخرا بالفعل بأن لديهما مجموعة متواضعة من الأغاني. لم يسبق لپول أن أخذ دروس غناء من قبل ويعزف بالكاد على البيانو، لكنه أخذ كل اقتراحات إيلينه بمحمل الجد لتحسين مستواه. ومن جانبها رأت أنه مدينٌ بقدرته على الغناء لها وحدها. لقد تعلم الآن كيف يفتح فمه عن آخره مع إبقاء لسانه بالأسفل، لكنها لا تزال تؤمن أن عليه أن يأخذ بعض الدروس عند روبرتس. لا يمكن أن نتوقع من أي إنسان الغناء دون دراسة سليمة.

«ما الذي سوف تغنيه لنا؟ أوبريت «**ليلة واحدة في البندقية**»؟».

«أنتِ على حق: «**ليلة واحدة في البندقية**»، هى الاختيار المضبوط!».

فتحت كتاب الأغاني المجلد بالجلد الأحمر، والمطبوع عليه «إيلينه فيره»

بحروف مذهبة على الغلاف.

أعطته التعليمات التالية: «تذكر أن تغني هنا، أليس كذلك؟ لكن لا تبقى في المقام العالي لفترة طويلة للغاية. من الأفضل أن تغنيها في وسط قدرتك الصوتية، وليس من الصدر؛ إذ سوف تبدو شجية أكثر بكثير. وابدأ برفق للغاية، ثم يمكنك أن ترتفع أكثر وأكثر، وتذكر أن تلتزم بالإيقاع الصحيح معي حتى النهاية، كما أن هناك تلك الزخارف في النوتات، أتذكر؟ خذ حذرك الآن يا بول».

لعبت مقدمة ثنائي لوكانتوني، وبعدما سعل بول سعلة خفيفة لجلاء صوته، وانطلقا في الغناء معًا، بدآ برفق بالتالي (بالفرنسية):

آه، تعالي، فالليل جميل!

تعالي، فالسماء زرقاء!

بدا صوته التينور الخفيف مهزوزًا بعض الشيء في البداية، إلا أن سحره الفطري تناغم تناغمًا رائعًا مع رنين صوتها السوبرانو الهادر. وجدت متعة كبيرة في الغناء معًا بهذا الشكل، شريطة أن يكون بول متوافقًا معها ويتبع توصياتها. وبدا لها أنها تغني بقدر أكبر من العاطفة عندما يرافقها صوت آخر، ولا سيما في تكرار أبيات شعرية كهذه:

دعني في عينيكِ

أرى انعكاس السماء!

والتي أشبعتها الآن بعاطفة عاشق إيطالي أضناه الغرام.

توهمت أنه بهذه الطريقة سوف يكتسب الثنائي قوة درامية، وصوَّرت نفسها مع بول باعتباره التينور، وكلاهما مضطجع في جندول أمام خلفية مرسومة لإحدى قنوات البندقية، التي تتوهج بوهج نور القمر الاصطناعي من المغنيسيوم. رأت نفسها مرتدية ملابس فاخرة كسيدة ارستقراطية، بينما يرتدي هو زي صياد شاب فقير؛ أحبا بعضهما، واستلقيا يحلمان، ويغنيان في قاربه

الصغير، وهو يجنح بهما صوب البحيرة أمام جمهور مفتون.

حتى أمام الله

أقول: أحبك

حتى الرمق الأخير ...

كانا على وشك الاقتراب من الجولة الأخيرة من النوتات، وبدأت تقلق من أن پول قد ينسحب، ولذلك تباطأت في أحد الأقسام، ولكن لا، حافظ پول على التوافق معها بشكل مثالي، وابتهجت كثيرًا للانسجام بين صوتيهما بينما كانا ينهيان الغناء ببطء:

حتى الرمق الأخير ...

* * *

«ممتاز يا إيلينه، كان ذلك ممتازًا!»، قالت مدام فان رات بحماس، حيث كانت تستمع باهتمام بالغ.

قالت بيتسي رغبة في أن تقول أي شيء أفضل، «كنت حسن الصوت يا پول».

قال پول، وهو مسرور بنجاحه، «حسنٌ يا إيلينه، حان الوقت لأن تغني لنا غناء منفردًا الآن!».

في تلك الأثناء أتت مينا بالصحف، «هيت فادرلاند»، و«هيت داجبلاد»، كان هِنْك مستغرقًا فيهما، وحريصًا على ألا يسبب سوى أقل قدرٍ ممكن من الضوضاء أثناء تقليبه للصفحات الجافة.

قالت إيلينه: «ولكن يا پول، ماذا عنك؟ ألم تعد تريد الغناء، أم أنك مُتْعَب للغاية؟».

«أفضِّلُ أن تغني أنتِ بنفسك يا إيلينه».

«هراء، إن لم تكن متعبًا جدًا فأنا أفضِّل أغنية ثنائية أخرى. بصراحة، أنا أحب

الغناء معك. ماذا عن الأغنية الثنائية الكبرى مع روميو؟ هيا إذن، أنا أتحداك!».

«أنا أقصدها يا إيلينه. أنا ما زلت لا أعرف هذا الجزء بشكل متقن حتى الآن، كما أنه صعب جدًا».

«حسنٌ، كنت تعرفه حق المعرفة من قبل. إذا ما واصلت الغناء بخفة وحلاوة، ولم تضغط على صوتك، فسوف تكون على خير ما يرام. انظر- يمكنك غناء هذا المقطع الكامل بقدرتك الصوتية المتوسطة. فقط لا تصرخ».

طلب نصيحتها بنظرة من قلق بشأن عبارة هنا ونوتة هناك، وسعدت بالاستجابة لطلبه.

«هيا الآن، كن جريئًا! لكن لا تصرخ، فهو لن يفيدك أبدًا. علاوة على ذلك، إذا كنا نتعثر، فماذا في ذلك؟».

«آه، حسنٌ إذن، إن أصررتِ».

توردت إيلينه بشعورها بالرضا، ولعبت المقدمة العذبة للأغنية الثنائية الكبيرة في الفصل الرابع:

اذهب! لقد سامحتك، تيبالت يريدك ميتًا!

بدأت، بشكل رائع، وهو ما ردَّ عليه پول بالرسيتاتيف الخاص به، ومعًا غنيّا:

ليلة الزواج، آه، ليلة الغرام الحلو!

مرة أخرى برزت نسخة خشبة المسرح أمامها: حجرة چولييت وروميو مرتديًا ملابسه الفخمة، وهو يتكئ على الوسائد عند قدميها، ولم يعد روميو پول؛ بل أصبح روميو هو فابريس، الباريتون الجديد، الذي أراحت رأسها على كتفه، وهي تغني:

تحت لهيب قبلاتك

تشرق السماء داخلي!

بدأ صوت پول يتهدج، لكن إيلينه لم تكن تعي أنه هو من كان يغني. في

عقلها كان لا يزال جَرْس صوت فابريس الغني هو ما تسمع، وارتفع حجم صوتها وصداه حتى أنها، دون علمٍ، حجبت شريكها تمامًا.

هناك، كانت القُبَّرة تعلن بزوغ الفجر، وتخيلت نفسها مستلقية في أحضان فابريس حينما سألت:

ماذا ... يا روميو؟

ردَّ پول، بعدما تعافى في أثناء فاصل الراحة، بنغمات أكثر ثباتًا:

استمع يا چولييت!

عندئذٍ صَدَح صوت چولييت ردًّا عليه: لا، لم تكن هذه قُبَّرة تلك التي سمعها روميو، بل كان عندليبًا، ولم يكن ضوء لقائهما فجرًا بل شعاعًا من ضوء القمر، وكانت إيلينه لا تزال مع فابريس، تسقط في أحضانه بينما عَظَّمَت الأوركسترا طبقات الصوت المختلفة التي كانت تعزفها على البيانو. في الوقفات الوجيزة بين الأقسام الصوتية نزلت إيلينه إلى أرض الواقع؛ بعدها تبخر منظر خشبة المسرح وفابريس، ورأت نفسها في حجرة رسم بيتسي وپول بجوارها، يقلب صفحات النوتة الموسيقية، لكن في اللحظة التالية، التي صارت فيها چولييت مرة أخرى، اعترفت چولييت بأنه لم يعد آمنًا بالنسبة لروميو أن يظل فترة أطول، بل حثته على الرحيل، وأجابها قائلاً:

آه! لا تزالين متشابكة في أحضاني!

يومًا ما سيكون حلوًا، وفيًا لحبنا،

لتذكر هذه الآلام الماضية!

كان هذا مقطعًا وصلت فيه حساسية پول الغنائية إلى أفضل حالاتها، بينما ابتسمت إيلينه بعدما استيقظت من خيالها الواهم، وفكرت كم كان أداؤه شجنًا وعذبًا. شعرت بوخز الضمير، مدركة أنه كان من الظلم منها أن تغني بصوت عالٍ أثناء الأغنية الثنائية فقط الآن، وتعهدت أن تأخذ حذرها أكثر في المستقبل.

انطلقت لتغني الفينالي، مفضلة نبرة التضرع على اليأس المفعم بالعاطفة،

بحيث تبدو نوتات صدر پول العالية ذات تأثير أفضل، لكن المنظر قد ولىَّ: خشبة المسرح، والجمهور، وفابريس- راح كل شيء.

وداعًا، يا چولييتي!

غناها پول، ثم صاحت هي صيحة خافتة، ردَّ عليها بوعده:

دائمًا أنت!

«ياه! كم أحب الغناء كهذا»، صاحت إيلينه ابتهاجًا، وركضت لتحتضن مدام فان رات حضنًا مرحًا. «ألم يكن صوت پول جميلاً، أليس عارًا ألا يأخذ الدروس السليمة؟ عليكِ أن تجعليه يأخذها، كما تعلمين».

ابتهج پول أن إيلينه منحته ما يكفي من دروس، وأنها سوف تقتله بأغانيها الثنائية الصعبة. لكن إيلينه أكدت له أنه غنى بإتقان يصل إلى حد الكمال.

تنهدت بيتسي تنهيدة ارتياح خافتة، لأنها رأت أن وداع العاشقيْن الڤينيسييْن بدا مفرطًا في العاطفية في صالونها بسقفه المرسوم بدقة وستائره المصنوعة من البلش؛ كان الأمر أشبه بمباراة في الصراخ إذا ما تعلق الموضوع بها. لِمَ لَمْ تستطع إيلينه أن تغني شيئًا خفيفًا ولطيفًا، أغنية من أي أوبرا فرنسية كوميدية مثلاً؟

جلست إيلينه وپول، وانجرف الحديث إلى موضوعات أخرى، الشؤون اليومية والحركة المزدحمة في الشوارع الآن لأن عيد القديس نيكولاس قد اقترب، ثم دقت الساعة التاسعة والنصف وجاءت مينا لتقول إن العربة تنتظر عند الباب.

«نعم، حان الوقت لأستأذن بالانصراف»، قالت مدام فان رات، ونهضت واقفة ببطء، وهرولت إيلينه لتخرج، وهى تتمتم لنفسها في طريقها لتأتي بما تتدثر به من حجرة الانتظار، وهى عباءة مبطنة بالفراء، وشال صوفي، وغطاء للرأس».

وضعت السيدة العجوز عويناتها، وشغل الكروشيه الخاص بها في حقيبتها الصغيرة، وسمحت لصديقتها الشابة العزيزة بأن تكتمها، وبعد ذلك قَبَّلَت الكل

لتوديعهم. رافقها هِنْك وپول إلى الباب الأمامي وساعداها في ركوب عربتها الكوبيه.

بينما مالت إلى الوراء على وسائد الساتان المنتفخة أثناء سير العربة، كان لا يزال في أذنيها رنين أغاني إيلينه وپول الثنائية، ابتسمت بحزن، وهى تمسح الماء المتكثف عن النافذة كي تنظر للخارج، حيث يقبع الثلج متسخًا ومتناثرًا في ضوء مصابيح الشوارع، وتذكرت الأيام الخوالي عندما كانت معتادة على زيارة الأوبرا مع زوجها الحبيب.

ظلَّ پول لساعة أخرى، ثم انصرف بعدما احتفل بنجاح أغانيه الثنائية بكأس من النبيذ الجيد. عندما ذهب صعدت إيلينه إلى الطابق العلوي- لتنتعش كما أخبرت بيتسي .كان الجو قارس البرودة في حجرة جلوسها، لكن الهواء البارد بدا منعشًا على خديها ويديها بعد الخروج من الصالون الدافئ زيادة عن اللازم. غاصت في أريكتها ذات الوسائد الفارسية، ورفعت يدها لتداعب أوراق شجرة الأراليا، وهى تقف في واحدة من وقفاتها المفضلة. ثم بعد ذلك ابتسمت واتسعت عيناها حالمة لما طارت أفكارها مرة أخرى لتعود إلى فابريس، بلحيته الوسيمة وصوته البديع. يا له من عارٍ أن بيتسي لم تكن أكثر ولعًا بالأوبرا! كانوا نادرًا للغاية ما يذهبون إلى هناك، بينما كانت هى، إيلينه، تعشقها. سوف تُعَرِّف مدام فرسترايتن بأسلوب مهذب وحصيف أنها تُقَدِّر دعوتها لمرافقتها من حينٍ لآخر. لم يذهب مستر فرسترايتن مطلقًا على أي حال، وعادةً ما كانت زوجته تطلب من بعض المعارف أن يشاركوها مقصورتها. كانت قد طلبت من فريدي من قبل، وپول كذلك، فلِمَ لا تطلب منها أيضًا؟

قفزت للنهوض واقفة، استولت عليها فكرة. قدم فابريس ظهوره للمرة الثالثة الليلة الماضية: كانت الأولى في **هاملت**، والثانية في **إشادة سمورة**، والتي شاهدته فيها، وبالأمس في **ويليام تيل** ...

ركضت لتخرج خارج الحجرة، واتكأت على درابزين السلم.

نادت: «مينا، مينا!».

«نعم يا آنسة!»، أجابت مينا ،التي كانت تعبر الصالة لتوها بصينية من كؤوس النبيذ .

«أحضري لي الصحف من فضلك، إذا كانوا انتهوا من قراءتها بالطابق السفلي».

«نعم يا آنسة، بكل تأكيد».

عادت إيلينه إلى حجرتها، واستقرت مرة أخرى على الأريكة. ضحكت عندما شعرت بقلبها يدق بسبب الفضول. مهما كان الذي تفكر فيه؟ بأي طريقة يمكن لهذا أن يكون له أي أهمية بالنسبة لها؟

كانت هناك مينا، تصعد السُّلَم. أحضرت كلتا الصحيفتيْن: «هيت فادر لاند»، و«هيت داجبلاد».

«إذا سمحتِ يا آنسة».

«شكرًا لكِ يا مينا»، قالت إيلينه، وهى تأخذ الصحيفتيْن، وهى تلوّح بلا مبالاة.

لكن ما إن غادرت الخادمة، وأغلقت الباب وراءها، حتى قفزت إيلينه للعمل. سرعان ما نشرت صفحات صحيفة «هيت فادرلاند»، وهى تطقطق، ومَرَّت بعينيها بحماس بحثًا عن قسم الفنون والأدب. آه، ها هو ذا:

دار الأوبرا الفرنسية .

بعد الأداء الناجح في «هاملت»، و«إشادة سمورة»، لم يكن هناك شك في أن مستر ثيو فابريس حظي بإطراء أصحاب تذاكر هذا الموسم للأوبرا الفرنسية، ولذلك كانت مفاجأة أن نسمع عن الأصوات الثلاثة المُدلى بها ضد هذا الباريتون الرائع. مرة أخرى في «ويليام تيل»، برهن مستر فابريس على

لياقته لأداء دور الباريتون في الأوبرا الكبرى، ونحن نهنئه بأخلص التهاني على تعيينه، فهذا الفنان جدير بالثناء يجمع بين تكنيك صوتي قوي إلى جانب الأداء التمثيلي الحماسي حسن الذوق، الذي يشهد على توافره على الكثير من الدراسة المتخصصة، وفي الأغنية الثنائية مع أرنولد (الفصل الأول)، والثلاثية الكبرى في المشهد مع جيمي، أظهر فابريس معيارًا للتميز قلما وجدناه على مسارحنا اليوم.

أومأت إيلينه موافقة. نعم، كان كل شيء صحيحًا، كل كلمة فيه، وقرأت المقال حتى النهاية، مبتهجة لنجاحه. ثم تحولت إلى «هيت داجبلاد» لترى ما الذي ستقوله تلك الصحيفة عنه.

٧

سكنت عائلة فيريلاين شقة ضيقة فوق محل بقالة في شارع هوجو دي جروتسترات، وتتكون في الطابق الأول من حجرتين متجاورتين ومطبخ وحجرة صغيرة جانبية، وفي الطابق الثاني حجرتيّ نوم، وكذلك حجرات جانبية صغيرة. ويغشى مكان معيشتهم ظلال حياة صعبة؛ إذ إن فرانس لم يترك له والداه سوى ميراث صغير، ونتيجة ذلك فهو مضطرٌ للإنفاق على الزوجة والأطفال للاعتماد على الراتب الصغير، الذي يتقاضاه عند حصوله على إجازة. قررا أن يتخذا سكنًا مؤقتًا في لاهاي، المدينة، التي عاش كلٌ منهما فيها منذ سن مبكرة، والتي تقابلا فيها لأول مرة، والتي لا يزالان يتوقعان أن يجدا فيها أصدقاءهما ومعارفهما، رغم أن فرانس رأى أنه كان من الأفضل لهما لو ذهبا للعيش في بلدة صغيرة. لكن كان أيضًا في لاهاي والد چين، مستر فان تولين، ضابط استعماري متقاعد يعيش حياة منعزلة، ونادرًا ما يسعى الأصدقاء والمعارف القدامى إلى لقائه بسبب مزاجه، الذي لا يُحتمل، وقليلاً ما يزوره أبناؤه بمجرد أن يتزوجوا أو يتولوا وظائف في أي مكان آخر، ولهذا السبب أقنعت چين زوجها بالبقاء في لاهاي، بالرغم من دخلهما الهزيل. وعدت بأن تحكم قبضتها بقوة على كيس المصروفات، والتزمت بكلمتها، ذلك أنها لم تكن مسرفة بطبيعتها.

ولذلك بقيا في لاهاي، رغم العديد من خيبات الأمل. أَلْفَت چين والدها أكثر شيخوخة بكثير في السنوات الأربع، التي كانا فيها بالخارج: أكثر تجهمًا وأَحَدَّ طبعًا مما عرفته. تذكرت أن الأيام الخوالي وَلَّت بالفعل؛ طفولتها السعيدة في بيتها المشمس مع والدتها وإخوتها وأخواتها، مقالبها البريئة مع زملاء المدرسة، أحلامها، وهى فتاة تحت أزهار اللَّيْلَك والياسمين في

الحديقة، تلك الأيام الأولى من خِطْبَتها لفرانس، مليئة بالأوهام الخيالية المثالية. تناثرت الذكريات، التي فكرت في استعادتها في هولندا في كل مكان كالأوراق المتساقطة. اشتاقت لجو الوطن المبلل وضبابه حينما كانت في جزر الهند الشرقية، ولكنها الآن، وبعد عودتها، وفي ظلِّ أن كل شيء مخيب للآمال للغاية والكفاح بلا هوادة لتغطية النفقات، اشتاقت للحياة غير المعقدة والهادئة، التي تمتعت بها في الخارج في كادو الريفية مع بقرتها ودجاجاتها. لكنها استجمعت شجاعتها، وكافحت ببسالة للتعامل مع التفاصيل المزعجة في حياتها الحالية الآن. يأتي الدكتور راير لزيارة دورا الصغيرة يومًا بعد يوم، إلا أنها اعتقدت بأنها اكتشفت في الطبيب الشاب المشهور تسرعًا متململاً جعله يعد كل ثانية يقضيها بجوار سرير الطفلة، فهو يستمع لفترة وجيزة إلى صدر دورا، ويؤكد لچين أن السعال يتحسن، ويذكرها بأن تبقي الطفلة بالمنزل، وبعد ذلك، وبعد أن يُجْري سن قلمه الرصاص الذهبي على القائمة، التي لا تنتهي من الأسماء في دفتر ملاحظاته، يقفز في عربته الكوبيه ويختفي. كان هو الذي نصح فرانس بطلب المساعدة بشأن نوبات الصداع النصفي والحمى، التي تنتابه من بروفسور معين في أوتريخت، والذي تراسل معه مراسلات مطولة بشأن هذه الحالة. ذهب فرانس في حينه إلى أوتريخت، لكنه عاد غير راضٍ لأنه اعترض على الأسلوب الغامض والمُراوِغ، الذي نصحه به البروفسور. ولذلك الآن عندما يزور الدكتور راير دورا، فإن فرانس يبقى بعيدًا، ممتعضًا من حقيقة أنه لا هو ولا بروفسور أوتريخت استطاعا علاجه. حاول تجاهل نوبات الصداع، التي تقرع الجزء الخلفي من رأسه والحمى، التي تجعله يرتجف من قطرة ماء مثلج أسفل عموده الفقري، وشرع بعزل نفسه في الحجرة الجانبية بالطابق الأول، والتي كانت بمثابة مكتبه الصغير الخاص. بقي هناك في عزلة كئيبة، ورغم أنه يشعر بوخز الضمير عندما يسمع چين تتحدث إلى الطبيب بالطابق العلوي، وإلى دورا بصوت عالٍ معترضة على فحص الطبيب لصدرها، فإنه لم ينهض من مكتبه. كان كل الأطباء دجالون فيما يتعلق الأمر به، كل ما يفعلونه

هو الكلام، بينما يعجزون عن علاج الإنسان عندما يكون مريضًا.

* * *

اصطحبت چين الطبيب أسفل الدَّرَج، وتحدثا وهما ينزلان، وسمع فرانس راير، وهو يستفسر عنه وزوجته ترد، وبعد ذلك نادت على الخادمة لترى الطبيب الطريق للخارج، ثم ما إن دارت العربة حتى قَدِمَت إلى مكتب زوجها.

«هل أُزْعِجُكَ؟»، قالتها بصوتها الناعم الخاضع.

«لا، لا، على الإطلاق؛ هل هناك شيء؟».

«لماذا لم تأت للطابق العلوي للحظة واحدة يا فرانس؟ راير سأل عليك مرتين».

رفع كتفيه متجاهلاً.

قال في غضب: «لن يكون هناك أي طائل من ذلك. كل ما يفعله هو أن يبعثني إلى أحد الأطباء المشاهير في ليدن أو أوتريخت، والذي يتقاضى عشرة جلدر مقابل دردشة لن تستمر أكثر من بضع دقائق!».

«كن عقلانيًا يا فرانس. لا يمكن أن تتوقع أن تُشفى في يوم واحد أو يومين من شيء كان يكدرك لمدة العامين الماضيين. أعتقد بأنك كنتَ غير مسؤول تمامًا، ولا تفعل شيئًا يُذْكَر بشأن الاعتناء بصحتك- والآن مرَّ بالفعل ثلاثة أشهر منذ وصلنا إلى هنا. وبَعْدُ كان هذا السبب الذي أتى بنا إلى أوروبا في المقام الأول، أليس كذلك؟».

«نعم، بالطبع، ولكن أولاً لا بد لي من العثور على شخص يثير قدرًا من الثقة أكثر من راير. راير طبيب على الموضة، أوصت به عائلة فان رات بحرارة، غير أن هذه التوصية ليست إلا لمصلحتهم الخاصة، فهو سنطحي للغاية بالنسبة لذوقي، ومتعجل جدًا. وتجدين أنه ينصرف دائمًا قبل أن تعرفي».

«عليك أن تحاول أن تكون أكثر صرامة قليلاً معه. أنا أسأله كل أنواع الأسئلة بشأن دورا، وبذلك يُضطر للبقاء لوقت أطول، وبالفعل، الآن، وقد تعرف إلينا

بصورة أفضل قليلاً، يبدو أنه قرر أيضًا الاهتمام بنا أكثر، والجميع يقولون إنه ذكي جدًا؛ وليس فقط عائلة فان رات هم المغرمون به إلى هذا الحد».

«حسنٌ، سوف نرى. ما زال هناك متسع من الوقت. أحيانًا تذكرينني بالماء، الذي يتساقط على أحد الأحجار، قطرة، قطرة، قطرة- الطريقة التي تواصلين بها الحديث عن مهنة هذا الطبيب!»، كان مستاءً من نفسه، وبحركة مفاجئة فَتَح حافظة أوراقه، كمن يود القول إن لديه أمورًا يريد الاعتناء بها.

انسحبت، وحبست تنهيدة في صدرها، وبهدوء أغلقت الباب وراء ظهرها. في الطابق العلوي في حجرة الأطفال قابلت خادمتهما الوحيدة، فتاة ذات ستة عشر عامًا ترتدي مريلة متسخة وشعرها ينساب مستقيمًا على جبينها. كانت ميتيه ترتب الأَسِرَّة بينما كانت دورا والولدان، ڤيم وفريتسيه، في الحجرة المجاورة يلعبون بطاقم جميل من لَبِنات البناء، هدية من جدهم مستر فان تولين.

قالت چين: «سأغلق الباب، عندئذٍ يمكنكِ تهوية حجرة النوم يا ميتيه»، وسحبت الأبواب المنزلقة لتغلقها. بعدما ابتسمت لأطفالها، جلست بجوار النافذة على طاولة فوقها أكوام من الملابس الصغيرة في انتظار فرزها: جوارب وكولونات، وقمصان نسائية داخلية وسترات للأطفال اُشتريت حديثًا إلا أنها بالفعل بحاجة إلى إصلاح. ياه، كم يُبْلي أطفالها ملابسهم بسرعة! تنهدت، وحركت كومة الملابس بيدها الصغيرة النحيلة، بينما امتلأت عينيها بالدموع. لو كانت تتمتع فقط ببنيان أكثر قوة، فكم كانت ستتمكن من إدارة بيتها الصغير على نحو جيد! كان من الصعب للغاية أحيانًا أن تعلو بنفسها عن الكآبة، التي شعرت أنها تغرق فيها كأنها تسقط في الهاوية، أن تَنْفُض عنها الكسل، الذي أحكم قبضته عليها بأذرعه المخملية، وبَعْدُ- كان هناك الكثير مما ينبغي القيام به. عليها ألا تستسلم لأحلام اليقظة الفارغة، ولا تشعل النار في ذكرياتها المبعثرة القديمة كأكوام من جمرات الفحم المحترقة، وتفقد نفسها وسط الحنين إلى الأوهام الغابرة: كان الواقع يحدق في وجهها، في هيئة تنورة دورا الصوفية المهترئة والغسيل القذر، الذي ينبغي أن يُعَدَّ قبل إرساله إلى المغسلة.

حتى الآن، عندما لمست الجوارب الصغيرة والقمصان بإصبعها، شعرت بنفسها تُجَرُّ أعمق وأعمق إلى أغوار السأم المكتومة. وفي أثناء عجزها عن استجماع قوتها وبدء العمل بنشاط، غفلت عن دورا وفريتسيه، وهما يتشاجران على لعبة لَبِنات البناء. كم وَدَّت لو تملأ مسكنها الصغير بالسعادة والانسجام، لكنها لم تكن أمًا روحية من الجنيات، شعرت بالكثير من الضعف وعدم الجدوى، مثبطة الهمة بسبب المضايقات الصغيرة في حياتها اليومية لدرجة أنها لم تجرؤ حتى على الأمل في مستقبل أكثر تفاؤلاً. في الواقع، كلما فكرت فيما قد يحمله المستقبل، يغلب على طبيعتها الجبانة شعور غامض بالظلام والموت، والذي كانت ترى أن من المحال ترجمته إلى كلمات.

أسندت رأسها بيدها الأخرى، وسقطت بضعة دمعات على الغسيل. ياه، لو أنها فقط يمكن أن تخلد إلى النوم، يداعبها بلطف شخص ما يحبها، ومن شأن رِقَّته أن تجعلها تشعر بالهدوء وراحة البال والأمان! وبعدها فكرت في زوجها فرانس، وفي اليوم، الذي تقدم فيه لخطبتها تحت أزهار اللَّيْلَك المتفتحة في الحديقة، وما آل إليه حالها: ماء يتساقط على حجر، قطرة، قطرة، قطرة ...

آه، تعلم أنها لم تُسْعِده؛ وأنها كانت خيبة أمل مريرة بالنسبة له، لكن لم يكن ذنبها أن رفض منذ البداية أن يراها كما هي: إنسانية بسيطة وضعيفة، شخص بحاجة إلى الكثير، والكثير جدًا من الحب، والكثير من الحنان والحميمية، شخص بلمسة من شِعْر عاطفي في روحها ...

أخذت نفسًا عميقًا ومَطَّت نفسها، وأخبرت الأطفال بألا يقوموا بالصراخ والضجيج بصوت عالٍ لأن بابا في الطابق السفلي، وبابا عنده صداع. تطلعت حولها بحثًا عن سلة الخياطة، لكنها كانت تركتها في حجرة الجلوس، ولذلك قالت لدورا أن تكون فتاة كبيرة وتتولي مسؤولية إخوتها للحظة. كان من عادتها مخاطبة الطفلة بنبرة كما لو كانت فتاة ناضجة، وكانت دورا، الفخورة بثقة والدتها، سعيدة بالانصياع لتعليماتها. بعدما خلعت عن نفسها رداء الخمول، ذهبت چين إلى الطابق السفلي إلى حجرة جلوسها وطعامها، وكانت تبحث

عن سلة الخياطة عندما دخل عليها زوجها.

سمع فرانس وقع خطواتها على الدَّرَج، وشعر بالحاجة إلى مصالحتها بسبب فظاظته من قبل. انسل وراءها، وهو يلبس نعاله، بينما كانت تبحث بجوار المدفأة، وبلطف احتضنها بين ذراعيه.

تطلعت إلى أعلى، مشدوهة، وفي عينيه رأت الدفء القديم، الذي طالما اشتاقت إليه بينما غمغم بابتسامة تضرع وقلق تقريبًا:

«أود أن أقول، هل أنتِ غاضبة مني؟».

هزت رأسها وامتلأت عيناها بالدموع، ثم أراحت ذراعيها حوله وأسندت رأسها على كتفه.

«لست غاضبة حقًا؟».

هزت رأسها مرة أخرى، مبتسمة وسط دموعها، وأغلقت عينيها لما شعرت بشاربه الخشن على شفتيها عندما قَبَّلَها. كم كان يتوب سريعًا عندما يكون غليظًا معها، وكم تشعر بالراحة عندما تسامحه!

«خلاص، خلاص، لا تبكي، لا بأس ...».

أطلقت تنهيدة ارتياح واحتضنته حضنًا شديدًا.

«طالما كنت طيبًا معي وتعاملني بلطف، ياه، عندها أشعر بأنني ... قوية جدًا، قوية بما يكفي للتعامل مع أي شيء«.

«زوجتي العزيزة يا أغلى ما أملك ...».

قَبَّلَها مرة أخرى، ووسط حنان شفته الدافئ نسيت البرودة في الحجرة غير المدفأة، مما جعلها ترتجف بين ذراعيه.

٨

اليوم الرابع من ديسمبر، عشية عيد القديس نيكولاس، منذ الصباح الباكر كان بيت عائلة إرليفورت في حالة من الإثارة المتزايدة- كل الهمسات والابتسامات العارفة والأشياء خُطِفَت بعيدًا عن الأنظار بمجرد أن دخل شخص ما الحجرة.

وصل آل فرستريتن بعد السابعة بقليل، مصطحبين معهم الولدين يان وكاريل، اللذيْن شاركا في التابلوهات. ثم جاء آل فان رات وإيلينه، وفي عقبهما جاءت مدام فان رات العجوز وپول، لكن هِنْك لم يدخل الصالون، لكنه انسلَّ دون أن يراه أحد مع يان فرسترايتن إلى حجرة جانبية، حيث وضعت ماري ولي لي ملابسهما.

في الصالون الفسيح وقفت مدام فان إرليفورت، مكللة بالابتسامات في أثناء استقبالها لضيوفها، عندما ارتفعت فجأة جوقة من الترحيب، الذي يصمُّ الآذان قام بها أبناء فان رايسل الأربعة وهيكتور، والتي فشلت حتى جهود ماتيلدا والمربية فرانتسين البدينة متضافرة في إسكاتها.

سألت مدام فان إرليفورت منزعجة: «ياه يا بيتسي، لِمَ لم تأتوا ببِنْ؟».

«بِنْ ليس كبيرًا في السن بما يكفي لحضور الحفلات؛ فعمره ثلاث سنوات فقط في النهاية، وسيكون موعد خلوده إلى الفراش مضى بحلول الوقت، الذي تنتهي فيه حفلتنا».

ردت مدام فان إرليفورت، معبرة عن أسفها، «كان يمكن أن نرسله إلى البيت مع مارتا عندما يحين موعد نوم الأطفال. لقد أحضرت له هدية صغيرة غالية أيضًا».

كانت هناك جلبة في حجرة الرسم، حيث وقفت الفتيات للدردشة مع أوتو وپول وإتيان؛ بينما تطلع صغار فان رايسل، يحبسون أنفاسهم من الترقب، في أثناء قدوم مارتا، خادمة الطابق العلوي. ابتسمت ابتسامة عريضة، ونقلت رسالة هامسة إلى فريدريك.

صاحت فريدريك، وهى تبدو جادة، «هدوء من فضلكم! أود أن أعلن لكم عن شيء! لقد وصل القديس نيكولاس، وهو يريد أن يعرف إن كان يمكن أن يدخل. هل ندعوه للدخول يا ماما؟».

الجميع حاولوا كتم ضحكهم، وهم يختلسون النظر إلى الأطفال الذين اتسعت عيونهم دهشة.

ظهر القديس نيكولاس في المدخل مرتديًا سترة قصيرة بيضاء وعباءة حمراء طويلة موشاة بالذهب عند الحواشي؛ كان ذا شعر رمادي طويل ولحية بيضاء طويلة، وارتدى فوق رأسه قلنسوة ذهبية اللون. جعل دخوله مصحوبًا بما يستحق من احتفال، توكأ على صولجانه، وصحبه غلام أسود كان زيه متعدد الألوان مألوفًا لدى الجميع ممن شاهدوا التابلوهات. بعدهم جاء ڤيليم والخادمات الثلاث، انسلوا جميعًا إلى حجرة الرسم لمشاهدة فقرات الحفل من هناك.

أما الكبار، وهم يبتسمون عن وعي، انحنوا أمام أحد الأساقفة من إسبانيا.

رَنَّم القديس نيكولاس تحية، كاد يتعثر في سترته الطويلة جدًا، وتَقَدَّم عبر الحجرة صوب الجمع. جلست مدام فان رات العجوز ومدام فرسترايتن على الأريكة، وجلست حولهما مدام فان إرليفورت ومستر فرسترايتن وماتيلدا وبيتسي وأوتو. لم يعبأ أحد بالنهوض، بينما رحبت مدام فان إرليفورت بالضيف المبجل بجوٍ من الألفة والمودة العميقة.

همست إرنستين، رافعة وجهها الصغير الذكي نحو ماري، «لِمَ تظل نينة جالسة؟ إنها دائمًا تنهض واقفة عندما يأتي شخص ما لا تعرفه معرفة جيدة

للزيارة».

«أنصتي إليها! كم هي قوية الملاحظة»، همست ماري لإيلينه، التي كانت تقف بجانبها.

إلا أن إيلينه لم تسمع؛ لأنها كانت تضحك مع پول وإتيان على القديس نيكولاس، الذي وُجِدَ أن سترته القصيرة فضفاضة وتجرجر الآن فوق حذائه، بينما لاحت خيوط كاشفة من الشعر الأشقر ما بين القلنسوة وخصلات الشعر الرمادية المتدلية.

***

شدَّ القديس نيكولاس سترته القصيرة بذيل مزخرف، ورفع صوته الممتلئ والعميق داعيًا أبناء فان رايسل للتقدم نحوه.

ساورهم الشك في البداية، ولكن عندما أخذ القديس نيكولاس كيسًا من الأكياس من غلامه وشرع كلاهما يبعثر محتوياته، نسي الصغار خوفهم وهتفوا ببهجة، وهرولوا فوق هيكتور وتدحرجوا على الأرض لجمع كل البضاعة: التفاح خمري اللون، والتين المجفف في سلال صغيرة، والبندق واليوسفي والشيكولاته.

حثهم القديس نيكولاس، «خذوا ما أمامكم كله، تفضلوا! لدينا الكثير أكثر من ذلك، انظروا! وماذا عن الأولاد الكبار، ألا تودون بعض الهدايا أيضًا؟».

لم يحتج أولاد فرسترايتن لأن يُسألوا مرتين، وانضموا بسعادة إلى التزاحم والتدافع.

صاح نيكو، وصَبَّ غنيمته في حِجْر جدته، «هل تحتفظين لي بهذه الأشياء يا نينة؟ حتى يمكنني الذهاب والحصول على المزيد!».

حذرته ماتيلدا: «الآن، الآن يا نيكو!».

هدأتها مدام فان إرليفورت: «لا بأس».

نَشَر القديس نيكولاس وغلامه آخر ما لديهما من أكياس مصحوبًا بالكثير

من الضجة، وبعد ذلك قلبوها قلبًا لظهر لإثبات أنها كانت فارغة بالفعل.

صاحت إرنستين، وهي تقفز إلى أعلى وتصفق بيديها، «آه، والآن سوف نذهب إلى حجرة الطعام!».

رد عليها يوهان، موافقًا إياها، «نعم، نعم! إلى الهدايا!».

نهض الجميع واقفين وتبعوا الأسقف والأطفال إلى حجرة الرسم، بينما قهقهت الفتيات بالضحك مرة أخرى على باروكته، التي انزلقت على جنب. لكن القديس نيكولاس لم ينتبه، ودعا ڤيليم والخادمات.

قال آمرًا: «الآن! افتحوا الأبواب لو سمحتم، بسرعة!».

انفتحت الأبواب المنزلقة، واندفع الأطفال بقوة إلى حجرة الطعام ساطعة الإضاءة، إذ أُستبدلت مائدة الطعام بأربعة طاولات خشبية بأرجل مزدوجة، لكلٍ منها اسم مكتوب بحروف من الشيكولاته، وتحمل كلٌ منها برجًا من اللعب.

أشار آل فرستراتين وآل فان رات بأن يأتي الخدم بهداياهم الخاصة إلى الداخل: طوق وسوط وحمالات مسدس لعبة وكرات مطاطية وجنود من القصدير وبقرة لعبة تعطي حليبًا.

في هذه الأثناء تسلل القديس نيكولاس بعيدًا مع غلامه، وبما أن الساعة اقتربت من الثامنة والنصف اعتبرت ماتيلدا أن الوقت قد حان للعودة للبيت. لكن الأمر استغرق منها الكثير من الوقت حتى تستعيد النظام، حتى بمساعدة المربية فرانتسين البدينة. شَعَر الصغار بالتشوش والحيرة بشأن الأشياء، التي تخص مَنْ؛ تساقطت حبات البندق من جيوب إرنستين على الأرضية؛ وجنود يوهان من القصدير، والذين فُكّوا من لفافتهم في غمضة عين، صار من المستحيل إعادتهم إلى صندوقهم من خشب الفلين؛ ودحرجت مادلين طوقها في أرجاء الحجرة مع نيكو، الذي كان ينفخ في بوقه الجديد وهيكتور، الذي كان يتقافز في ذيلهما، دون أن يقلقوا أنفسهم بشأن بقية هداياهم.

صاحت ماتيلدا: «هيّا يا أطفال! أسرعوا الآن، حان الوقت النوم».

لكن الصغار الأربعة لم يسمعوها. كانوا يركضون في هياج وإثارة هنا وهناك، وبعثروا في أشد أنواع الفوضى جموحًا اللعب التي جمَّعها الآخرون بشق الأنفس؛ ثم انضمت فريدريك للملعب، وجعلت نيكو يمتطي ظهرها بينما كان يضربها بالسوط حتى تمضي أسرع.

انضم فتيان فرسترايتن أيضًا إلى المشهد، ليطاردا إرنستين ويوهان بطول القاعة الرخامية الطويلة، واندفعا بقوة وهياج بأحذيتهما.

عصرت ماتيلدا يديها في يأس. لم ينتبه إليها أي أحد مطلقًا، بينما كانت المربية فرانتسين تساعد الخادمات في ترتيب اللعب والفتيات يثرثرن مع پول وإتيان مرة أخرى. شعرت بالارتياح لما وقع نظرها على أوتو، وهو يتحدث إلى بيتسي ومدام فرسترايتن؛ ذهبت إليه وشبكت يديه.

«ياه، يا أوتو، أرجوك ساعدني! مضى وقت نوم الأطفال، وهم ببساطة لن ينصتوا إليّ! وأنت تعرف حال ماما، لن تساعدني في أي شيء أيضًا».

وبالفعل، كانت مدام فان إرليفورت مشغولة في الحجرة المجاورة بملء طاقم الشاي اللعبة الخاص بمادلين بالماء والحليب والسكر، بينما كانت مدام فان رات العجوز ومستر فرسترايتن يتطلعان بالكثير من السرور.

قال ممازحًا: «يا عزيزتي، على أوتو أن يمثل دور الغول مرة أخرى، أليس كذلك؟».

« لا، ليس غولاً، ولكني استنفدت كل حيلي! أنا فعلاً بحاجة إلى مساعدتك. هل رأيتِ من قبل مثل هؤلاء الأطفال الأشقياء يا بيتسي؟ من فضلك يا أوتو، هل ستأتي؟».

ضحكت بيتسي.

قالت مدام فرسترايتن: «أعتقد بأنه من الأفضل لكِ أن تؤكدي سلطتكِ مثل خالهم مستر فان إرليفورت».

ذهب أوتو مع ماتيلدا، في البداية إلى فريدي.

«الآن، الآن يا فريدي، لا بد أن يخلد نيكو إلى النوم. انزل، يا هيكتور، انزل أقول لك! سوف تسمح لك عمتك بالركوب على ظهرها في الغد يا نيكو».

قالت فريدي: «امم، لكن ظهري ليس له أي علاقة معك! إنه ليس من شأنك، أتسمع؟ هيا يا نيكو، علينا أن نغادر».

انصاع نيكو لها على مضض، وظلَّ يطالب متذمرًا صاخبًا ببوقه بينما تأخذه أمه من يده. بعد ذلك ذهب أوتو إلى الصالة، حيث كان الولد والبنت الأكبر سنًا يركضان هنا وهناك، وبسط ذراعيه لحملهما على التوقف.

«الآن إذن، إرنستين ويو، أمكما تريدكما أن تذهبا إلى الفراش! افعلا كما تُؤمران، وإلا فإنكما سوف تجعلانها حزينة».

قالت إرنستين، وهى بالكاد تلتقط أنفاسها، «كم حصلنا على الكثير من الهدايا هذا العام يا خالي!»

دخلت ماتيلدا إلى الصالة أيضًا، وقادت نيكو ومادلين من يدهما.

«هل تصدق ذلك؟ كانت ماما هناك، تلعب بهدوء وسكينة في حفلات الشاي مع إرنستين!»، قالت ماتيلدا، أثارت نظرة اليأس في عينيها ابتسامة أوتو. «بصراحة أعتقد بأننا كنا سنكون في منتصف الليل حتى قبل أن تلاحظ مرور الوقت».

احتج يوهان: «ولكن يا مامي، ألا يجب أن نقول ليلة سعيدة للجميع أو لاً؟».

صرخت ماتيلدا: «لا، لا! لا يمكن أن نعمل ذلك!»، شددت قبضتها على جميع الأيادي الصغيرة، التي يمكن أن تقبض عليها. «أعدكم بأنني سوف أتمنى للجميع ليلة سعيدة بالنيابة عنكم! شكرًا جزيلاً لك على المساعدة يا أوتو».

أومأت له إيماءة امتنان ردَّ عليها بابتسامته الودودة الصادقة.

بعدها قادت ماتيلدا الأطفال لصعود الدَّرج.

* * *

«أعتقد بأنكِ لا تبالين بكل هذه الضوضاء والضجة إذن؟»، سألت مدام فان رات مدام فان إرليفورت بابتسامة، رغم وجود لمحة من عدم تصديق في عينيها الحزينتين الغائمتين.

ومع ذهاب الأطفال أخيرًا، تلا ذلك فترة هدوء مؤقت. غادر الكبار حجرة الطعام، التي كانت لا تزال تغطيها اللعب المتناثرة هنا وهناك، وتجمعوا مجددًا وبشكل تدريجي في جناح الاستقبال، الذي انتقل إليه أوتو أيضًا.

صَبَّت مدام فان إرليفورت الشاي، ومر ڤيليم بالكؤوس على الحضور.

«هل أمانع في الإثارة، تسألينني؟ لأقل لكِ الحقيقة، أنا أجدها باعثة على النشاط؛ تجعلني أشعر بأنني شابة بالفعل مرة أخرى. أنا بحاجة إلى صحبة الشباب، فكلما زادت صحبتهم زاد المرح. لم أقضِ في حياتي وقتًا مملاً أكثر مما قضيته بعد زواج ابني تيودور وبناتي، وإن كان لا يزال لدي ثلاثة أبناء في البيت، من بينهم فريدي إتيان، وكلاهما مليء بالنشاط والحيوية. ما يجعلني في قمة السعادة أن أُحاط بقبيلة من الأولاد الصغار، لا شيء يضاهيه كي تظلي شابة... أتريدين المزيد من الشاي؟».

مررت مدام فان رات كوبها، وشعرت بوخزة حسدٍ لحب مضيفتها ذات الشعر الرمادي لبهجة الحياة. وعقدت مقارنة مع نفسها، ورأت إحساسها بالوحدة والشجن يلوح أمامها في تناقض قاسٍ مع الصخب المرح، الذي تتمتع به هذه الجدة وسط كتاكيتها المفعمين بالطاقة والبهجة، وصحتها الجيدة وتحررها الظاهر من أي نوع من أنواع التوتر العصبي.

«آه، لا يمكنكِ أن تتخيلي كم أشعر بالأسى لأنني لا أرى أولاد تيودور إلا قليلاً- لديه ستة أولاد الآن- لكن ابني مفتون للغاية بالحياة في الريف لدرجة أنه لا يريد أن يسمع عن العودة للعيش في لاهاي مهما قلتُ له».

عَلَّقَت مدام فرسترايتن: «ابنتكِ في إنجلترا لديها طفل واحد فقط، إن لم أكن مخطئة، وماذا عن مدام فان ستارينبورج الشابة؟».

أمالت مدام فان إرليفورت رأسها ناحية مدام فرسترايتن، وهمست بشيء ما في أذنها، ثم غمزتها غمزة من يعرف شيئًا استجابة لحاجبيّ مستر فرستريتين المرفوعين في دهشة.

عندئذٍ بدأت تخبرهما كل شيء عن أولاد فان رايسل، الذين وضعوا أحذيتهم بجوار المدخنة مساء اليوم السابق، لكن، وقبل أن تنتهي فُتِحَ الباب دخل هِنْك، محمرًّ الوجه ومبتسمًا ابتسامة عريضة، وفي عقبه جاء يان فرسترايتن.

قوبلت ماتيلدا، التي انضمت إلى الصحبة مرة أخرى، بكل أنواع التعليقات عن كم كان أطفالها مبهجين، ثم دق جرس الباب الأمامي، بقوة ولمدة طويلة، ولتهدأ المحادثة المرحة.

كل العيون كانت على الباب، الذي انفتح متأرجحًا ليكشف عن ڤيليم والخادمات، وهم يحملون صندوقًا كبيرًا. وتقدموا نحو مدام فان إرليفورت.

صاحت فريدريك: «آه! الصندوق من لندن!».

أوضحت مدام فان إرليفورت لمدام فان رات أن زوج ابنتها هوارد يرسل لهم كل عام، في عيد القديس نيكولاس، صندوقًا يحتوي شيئًا ما لكل فرد من أفراد الأسرة. شرع ڤيليم في إزالة البراغي والمسامير، وإتيان يشرف عليه لتقديم المساعدة والجميع يتطلع بفارغ الصبر، فوابل الهدايا والمفاجآت يمكن أن يبدأ.

* * *

ابتسمت إيلينه بابتهاج. كانت قد رتبت بالفعل هداياها في هيئة عرض جميل، معلنة بقوة كم كانت مدللة بشكل عظيم من الكل، عندما أعطتها مارتا طردًا آخر. فَكَّت الشريط بتأنٍ، وفحصت الطرد من جميع الزوايا بحثًا عن علامة ما أو ختم أو الحرف الأول من اسم شخص ما والذي قد يدل على هوية مُرْسِل الهدية، لكن لم تكن هناك أي أدلة، كل ما كان موجودًا على الملصق هو اسمها مدموزيل إفيره. تمزق ورق التغليف ليكشف عن علبة طويلة ورفيعة مغلفة

بجلد رمادي، وفتحتها وهى تفكر كثيرًا فيمن جاءت هذه الهدية منه. استلقت على وسادة مخملية رمادية اللون مروحة من الصَّدَف المنحوت نحتًا فاخرًا. رفعتها وفتحتها ببطء، ثم حدقت فيها، وقد اتسعت عينيها إعجابًا.

غمغمت بوتشي، وهى ترنو إلى التوقيع على الحافة، «بوتشي ...».

كانت بالفعل مروحة رسمها الفنان الإيطالي الشهير: صورة فنتازية من الورود والجنيات على قماش الساتان عاجيّ اللون.

قالت: «ممن يمكن أن تكون هذه؟ إنها جميلة جداً».

نهض الجميع من مقاعدهم ليتجمعوا حول إيلينه، التي أخرجت بعناية المروحة الثمينة والمفتوحة للجميع لكي يبدوا إعجابهم بها. كانت منهدشة للغاية. زجاجة العطر كانت هدية من مدام فان رات، كانت متأكدة من ذلك، ولكن بالتأكيد لا يمكن أن يكون هِنْك وبيتسي ...».

سألت، وهى تنهض واقفة، » بيتسي يا حبيبتي، هل أنتِ من يجب أن أشكرها على هذه؟».

هزت بيتسي رأسها.

«كلمة شرف يا إيلينه، لست أنا!».

لا، طبعًا لا يمكن أن تكون بيتسي، لأنها وهِنْك قد أعطياها إسورة بالفعل... إذن مَنْ يمكن أن يكون قد أرسل هذه المروحة لها؟

سألت: «هل يمكن أن تكون من فنسنت، تحت أي ظرف؟».

»مِنْ فنسنت؟ لا، بالطبع لا، ما الذي ألهمكِ هذه الفكرة؟ إنها ليست نوع الهدايا، التي يمكن أن يجلبها. هل لي أن ألقي نظرة؟».

مدت إيلينه يدها لتعطيها المروحة.

قالت بيتسي: «إنها رائعة، رائعة جدًا».

هزت إيلينه رأسها ببطء من جانب إلى آخر؛ كانت تشعر بالحيرة.

مُررت المروحة على الجميع ليلقوا عليها نظرة فاحصة، وفتشت إيلينه كل وجه على حدة، دون أن ترى أدنى إشارة إلى تواطؤ أحدهم بإحضارها، رغم ذلك كانت هناك لحظة عندما اتخذت فريدريك جوًا غياظًا، تلاشى تمامًا تقريبًا في شكل لامبالاة واضحة مع اقترابها منها.

سألت: «أيمكنني رؤية هذه العلبة؟».

أعطتها إيلينه العلبة، ومررت فريدريك طرف إصبعها على البطانة المخملية رمادي اللون.

«هل أنتِ متأكدة تمامًا أنكِ ليست لديكِ أي فكرة عمن قد تكون هذه منه؟»، سألت إيلينه، وهي تنفض يديها بما يبين حيرتها الكاملة.

رفعت فريدريك كتفيها، وأنزلت العلبة.

«لا، ليست لدي أدنى فكرة»، ردَّت بدرجة ما بهدوء، وهي تتفحص تعبير وجه إيلينه. شعرت بأنه ثمة شيء بارد فيما يتعلق بنظرة عينيها اللامعة المعبرة تلك، ولم تستطع مقاومة التفكير بأن أسلوب إيلينه مصطنع، وحيرتها بشأن مصدر المروحة غير صادقة، ومنذ ذلك الحين تجاهلت فريدريك المروحة، التي حظيت بكثيرٍ من الإعجاب، وظلت هادئة على غير العادة بقية المساء.

* * *

وصل شلال الهدايا إلى نهايته. دَعَت مدام فان إرليفورت ضيوفها للحاق بها للخروج من الصالون وحجرة الرسم، والتي تناثرت فيها الآن أوراق التغليف، والقش وأجزاء من الشرائط، ثم فتح ڤيليم الأبواب المنزلقة مرة أخرى المؤدية إلى حجرة الطعام، حيث كانت تنتظرهم مائدة طاولة مزينة ببذخ.

كان حفل عشاء مفعم بالكثير من الحركة والحيوية، وما فتئ مستر فرسترايتن، الذي كان يجلس بين مدام فان إرليفورت وبيتسي يسلي السيدات بمزاحه وقفشاته الذكية، بينما انضمت ماتيلدا، التي كانت تجلس على الجانب الآخر من بيتسي كثيرًا إلى المرح الصاخب. شعر هِنْك، الذي كان جالسًا بين

والدته وخالته براحة البال تمامًا، في حين دارت بين أوتو وإيلينه محادثة حيوية وكان إتيان، الذي توسط لي لي وماري، يتحدث بأعلى صوته.

«فريدي يا عزيزتي، لقد صرتِ هادئة جدًا»، قال پول، الذي كان موزعًا بين تناول لقمات من سلطة الكابوريا ومحاولات إغراء جاره الثرثار بالكلام من ناحية أخرى. «هل أصبتِ بخيبة أمل لأنكِ لم تحصلي على المزيد من الهدايا؟».

«أنا هادئة؟ يووه!»، ردت فريدي بحسم، وبدأت تهذر بسرعة وبراعة تشبه كثيرًا سرعة وبراعة أخيها إتيان. إلا أنها بدت حماسية أكثر من اللازم قليلاً، وبدت بهجتها متكلفة قدرًا ما، وظلت تختلس النظرات إلى إيلينه، ذات الجمال المتوقد، وهي تتبادل عبارات المجاملات مع أوتو. نعم، كان بها شيء ما فاتن وساحر للغاية، شيءٌ ما ذَكَّر فريدي بالنداهة، الطريقة التي تضيق بها عيونها الحالمة عندما تضحك، والطريقة التي ينتهي بها الانحناء الناعم لشفتيها المرسومة بدقة بغمازة على كل خدٍّ من خديها، وبعد ذلك هناك يداها، أنيقة وشاحبة اللون، والتي تتحرك كثيرًا على نحو جميل جدًا يبرز الشريط الأسود والفيونكات الحمراء الغامقة بفستانها، وتلك الماسة الوحيدة المثيرة، التي ترتعش كقطرة ندىً وسط التول الأسود على رقبتها. اعتقدت فريدريك بأنها ساحرة حقًا، لكنها أيضًا باردة، وتابعت بعين الخوف تقريبًا وجه أوتو المبتسم بالبهجة وهو يحدق في النداهة .

في تلك الأثناء واصلت الحديث والضحك مع پول، ومع إتيان ولي لي، ومع ماري، لتستنبط من مدام فان رات العجوز تعليقًا من الطرف الآخر من المائدة أن فريدي تعيش بما يرقى إلى سمعتها المحبة للمرح.

تدفقت الشمبانيا، ورفع مستر فرسترايتن نخبًا إلى المضيفة الشابة دائمًا بخصلات شعرها الرمادي الجميل، شاكرًا إياها على الحفل الجميل بقُبْلة. قرعت إيلينه كأسها مع أوتو بنخبٍ ما لم تلحقه فريدريك، والتي كانت ستعطيها بكل سرور أفضل هدية لتسمعها، لكنها لم تغامر بالسؤال ...» .

«إتيان، أنت تتسبب في ضجة رهيبة!»، صاحت بغيظ عندما انطلق أخوها يغني أغنية وهو ثمل، ملوحًا بذراعه لدرجة أنه كاد أن يسكب كأس الشمبانيا على شريحة لي لي من الكيك. لكنها في الوقت الراهن أعربت عن أسفها عن انفجارها- في النهاية، لِمَ لا يجوز للآخرين أن يلهوا ويمرحوا حتى لو لم تكن هذه تلهو وتمرح مثلهم؟».

اقترب الحفل من نهايته، كانت العربات تنتظر، بينما استأذن الضيوف المثقلون بتشكيلة متنوعة من الأشياء بالرحيل وسط عبارات الشكر المفرط على الهدايا الكثيرة التي أُسبغت عليهم. كانت ماتيلدا متعبة، وما لبثت أن صعدت إلى الطابق العلوي، بينما تجولت مدام فان إرليفورت وأوتو حول المكان، ليلملما أوراق التغليف المكومة والملقاة في كل مكان.

«انظروا إلى حالة هذه الحجرات»، قالتها فريدريك، وهي تركل صندوق ممزقًا من الكارتون من أمامها. توجهت إلى المائدة، حيث وُضِعَت المروحة، ولكن إيلينه كانت قد أخذتها معها، بعد ذلك قَبَّلَت أمها وأوتو وتنمت لهما ليلة سعيدة، نكشت شعر إتيان، وأخذت هداياها إلى الطابق العلوي في حجرة نومها.

خلعت ملابسها ببطء، آخذة وقتًا طويلاً لدرجة أن الهواء قارس البرودة جعلها ترتجف. تسللت إلى السرير، وما أن مَطَّت نفسها تحت الغطاء حتى ظهرت إيلينه أمامها مرة أخرى، فاتنة وأنيقة بفستانها الدانتيل الاسود، مبتسمة لأوتو. بدأ كل شيء يدور كالدوامة أمام عينيها، كمشهد فوضوي: هِنْك مرتديًا كما القديس نيكولاس بسترته القصيرة التي تتجرجر وراءه على الأرض، وفرسترايتن الصغير كغلامه، والصندوق القادم من لندن، ومروحة البوتشي ...

٩

مرت أيام قليلة بعد عيد القديس نيكولاس، وقررت إيلينه أن تأخذ بِنْ الصغير لنزهة بعد الظهر. في مساء اليوم السابق كان في الأوبرا مع مدام فرسترايتن، وماري ولي لي ليشاهدوا أوبرا التروبادور، وفي ذلك الصباح طلبت من زميلها المتذمر العزيز من مُعَلِّمي الغناء لعب المرافقة لآريا ليونورا، «الليلة هدوء وسكينة».

هَزَّ رأسه، لأنه لم يكن يعبأ بأغاني إظهار البراعة بالمدرسة الايطالية، والتي كثيرًا ما يصطدم رأيه فيها مع رأي إيلينه. كانت ترى موسيقى بيليني ودونيزيتي وڤيردي متأنقة وشجية الألحان، كأنها كُتِبَت بصورة معبرة لصوتها السوبرانو الأشبه بالبلّور، بينما مال هو إلى نبذ إيقاعاتها الرقيقة والخفيفة بوصفها إيقاعات طفولية، مُصِرًا على عمق ڤاجنر الأكثر ثراء، لكنه كان تحت سيطرتها، ومن ثمَّ استجاب لدعوتها .

«تعال إلى هنا الآن يا بِنْ، لا تتلكأ، هنالك ولد شاطر لدينا»، قالت إيلينه للولد الصغير البدين، وهو يسرع الخطى وراءها بساقيه القصيرتين. «حاول أن تواكب خالتك. ألا يسعدك أن تذهب معي إلى المحلات؟».

في ليلة أمس بالأوبرا، وأثناء كاڤاتينا الكونت دي لونا، جاءت لإيلينه فكرة. كانت قد رأت في نافذة أحد المتاجر عدة بورتريهات لفابريس، تصوره بأزياء وأوضاع مختلفة، وتَمَلَّكَتها رغبة شديدة مفاجئة لاقتناء واحدة من تلك البورتريهات. والآن هي في طريقها إلى المتجر لاختيار واحدة منها، وابتسمت لنفسها سرًا لأنها صورت بنيانه طويل القامة والقوى ورأسه الوسيم مع اللحية السوداء. كم، لا بد أن يكون رائعًا أن تكون ممثلاً على خشبة المسرح!

من فابريس جنحت أفكارها مرة أخرى إلى مروحتها الجديدة، والتي استخدمتها الليلة الماضية. أخبرتها بيتسي بأنه من الحماقة أن تستخدمها قبل حتى أن يكون لديها أدنى فكرة عمن أرسلها، لكنها قررت أن تتجاهل نصيحة أختها؛ بل بالعكس، منحتها فكرة أن تُرى بها في الأماكن العامة شعورًا بالإثارة والسرور، وكانت قد استحضرت في ذهنها بالفعل مشهدًا من رواية رومانسية لإعطاء الهدية مجهولة المصدر تفسيرًا: رآها فابريس في مقصورة فرسترايتن، وشُغِفَ بها حبًا، ومنذ ذاك غنى لها ولها وحدها، وانكسر قلبه عندما عجز عن تحديد مكانها بين الجمهور؛ كان هو من أرسل لها المروحة وموجهة إلى مدموزيل إ فيره في غاية التكتم والسرية، وبالأمس رآها تستخدمها، وعاجلاً أم آجلاً سوف يبعث لها بإشارة ما عن طريق نظرة مقصودة أو نبرة معينة في غنائه ...

كان عليها أن تتبسم على خيالاتها المفرطة الخاصة، وفي برهة قصيرة تذكرت أين رأت للمرة الأولى مروحة زينها بوتشي. كان هناك معرض للرسم في الأكاديمية الصيف الماضي، ومن بين المعروضات كانت هناك عدة أعمال له: رسومات مروحة غير مسنودة على حرير معروضة من وراء زجاج. تذكرت أنها أَثْنَت ثناءً كبيرًا على الفنان وقتذاك، لتقول كم كانت تود لو أنها تملك مثل هذه المروحة، والواضح أن شخصًا ما انتبه إلى أمنيتها. مع مَنْ ذهبت لمشاهدة المعرض؟ مع إيميلي دي ڤوده، أو ربما مع جورج ... بالتأكيد لا يمكن أن يكون جورج ... أو ربما قد يكون ذلك الشاب، الذي رقصت معه، الشخص الذي تَقَدَّم لها ورفضته؟ ياه، هذا سخيف وغير معقول! يئست، ورفضت أن تفكر في ذلك بعد ذلك. فسوف تعرف في نهاية المطاف على أي حال.

سارا في شارع پاركسترات ثم أورانيه سترات، واقتربا من المحل، الذي به الصور في نورداينده حينما بدأت تنتابها الهواجس: ألن يعتقد صاحب المحل بأن من الغريب بالنسبة لسيدة شابة أن تأتي وتشتري بورتريه لممثل؟ كانت تخشى أن تخونها شجاعتها، لكن وقبل أن تعرف ذلك كانت هناك البورتريهات،

تقف بجوار اللوح الزجاجي، بادية للعيان في مكان العرض. وسط الركام غير المنظم من النقوش الكبيرة، والصور الفوتوغرافية والمنتجات الفنية المتنوعة كالتماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار أو طين التراكوتا، انجذبت عينها على الفور إلى صفٍ من البورتريهات، ممثلين وممثلات من الأوبرا، وأسماؤهم مكتوبة تحتها: إستيل ديڤو، مولينات، ثيو فابريس ...

قالت: «تعال إلى هنا يا بِنْ! وهي تدفعه برفق إلى داخل المتجر .

بالداخل، كانت هناك سيدات كثيرات يخترن صورًا فوتوغرافية، وكلهن تطلعن إليها بمجرد دخولها. كانت واثقة من أنها شعرت بخديها يتوردان قليلاً تحت وشاحها القصير من التول الأبيض.

«هل لي أن أرى بعضًا من بطاقات العام الجديد مثل تلك، التي تضعها في الواجهة؟»، سألت البائع بالمتجر عندما التفت لخدمتها، «لا تلمس تلك التماثيل يا بِنْ».

أتى لها بتشكيلة عريضة من البطاقات. تفحصتها باهتمام دقيق، وأمسكت كل واحدة منها بين أطراف أصابعها المغطاة بالقفازات، بينما وضعت بطاقتين أو ثلاثة جانبًا. نظرت نظرات عابرة حولها، وقعت عينها على كومة من البورتريهات، ومدت يدها بلفتة من لامبالاة وتخاذل. كان من بينهما عدد من البورتريهات لفابريس.

أي واحدة عليها أن تختارها؟ تلك المفعمة بالعاطفة، وهو يرتدي الملابس المخملية السوداء وياقة من الدانتيل كهاملت، أو تلك الصورة، مثل تيل؟ لا، الصورة الأخرى، التي تصوره كابن سعيد، بالشكل نفسه، الذي رأته عليه أول مرة، لكنها ستأخذ أيضًا صورة لمولينات التينور، فضلاً عن واحدة لإستيل ديڤو الكونترالتو؛ وبذلك سيكون أقل وضوحًا أن اهتمامها الوحيد منصبٌ على فابريس. بَعْدُ، وفي تلك الحالة يمكنها كذلك أن تأخذ البورتريه، الذي يصوره كهاملت أيضًا .

«رجاء، سآخذ هذه البطاقات؛ وإليك هذه البورتريهات الأربعة كذلك».

«هل يمكنكم أن توصلوها لي؟».

«آه لا، ليس هناك حاجة لذلك. سأدفع ثمنهم الآن. كم عليّ أن أدفع لك؟».

دفعت له المال ليسلمها بائع المتجر ظرفًا مغلفًا مقوى يحتوي مشترياتها. أخذت بِنْ من يده وانطلقت متوجهة نحو الباب، وتخيلت نفسها واقعة تحت عين ملاحظة السيدات المتفرجات كما لو كن جميعًا قادرات على قراءة ما يدور بطويتها من أفكار.

***

بالخارج، عاد وجه إيلينه ليشع مرة أخرى. انطلقت مسرورة بجرأتها مسرعة نحو البيت في مزاج متحمس، ومَدَحَت بِنْ الصغير بنبرة مولعة لأم محبة لدرجة الجنون. عندما نظرت عبر الشارع ووقعت عينيها على چين فيريلاين بمعطفها الشتوي العادي السميك وقبعتها السوداء السادة، أحكمت قبضتها على يد بِنْ، ولكي تتفادى التواجد بين عربتين، قادته متعجلة إلى الجانب الآخر، راسمة ابتسامات على وجهها. حَيَّت چين بحرارة، ومضيا في طريقهما معًا. أبلغتها چين أن دورا بصحة جيدة، وفي طريقها إلى التعافي، لكنها اُضطرت لاستئجار مربية لأن ميتيه كانت مستهترة تمامًا في رعاية الأطفال بشكل سليم، وبالتالي صار عليها مواجهة عبء مالي إضافي. أجبرت إيلينه نفسها على الإصغاء باهتمام لهذه الحلقة الأخيرة من المحن المنزلية، لكن چين ما لبثت أن تهللت وبدأت في الحديث عن فرانس ووالدها ومستر فان تولين وعن الدكتور راير، والذي تحسنت علاقتها به كثيرًا في الآونة الأخيرة، ولما لاحظت تعبير التعاطف لدى إيلينه أثناء استماعها، وكذلك أسلوبها اللطيف والحنون مع بِنْ، بدأت تحكي ذكرياتها عن أيام دراستهما معًا، وضحكت كلتاهما لما تذكرا غطاء إيلينه المليء بالكرز المسروق وكل المقالب التي كانوا يفعلونها. لامت چين نفسها على ظنونها بشأن إيلينه ذلك المساء في بيت عائلة فان رات، لأنها

تبدو الآن صادقة جدًا وطيبة القلب .

قالت، وقد توقفت فجأة، «لكنني لن أدعكِ تنتظرين لمدة أطول يا إيلينه. لدي بعض المشاوير الشاقة للقيام بها. لا بد لي من طلب شراء بعض طاسات القلي الجديدة وإبريق حليب ليحل محل الإبريق، الذي كسرته ميتيه- يالها من فتاة خرقاء».

«آه، لست في عجلة من أمري؛ سوف آتي معكِ إن أردتِ، وإن لم يكن بِنْ مُتْعَبًا للغاية. بِنْ يا عزيزي، أنت لست مُتْعَبًا، أليس كذلك؟ ياله من متمشٍ ممتاز كما تعرفين!».

وهكذا طلبت چين شراء طاساتها الجديدة وساعدتها إيلينه في اختيار إبريق حليب جذاب من أحد متاجر الصيني. ازدحمت الأفكار عن فابريس في عقلها طول الوقت، واستطاعت أن تقاوم بالكاد فتح المُغَلَّف في يدها لاختلاص نظرة على البورتريهات. كانت تحب الموسيقى فعلاً، وكان فابريس يغني بانفعال عاطفي غير عادي، بإحساس أكثر بكثير للغاية من إحساس أي من الفنانين الآخرين. اعتقدت بأنه كان شابًا صغيرًا، ولابد أن يصبح مشهورًا جدًا- لم يكن لديها شك بأنه لن يلبث إلا أن يشارك في الغناء في باريس. لم تذهب چين إلى الأوبرا مطلقًا، لذلك من المفترض أنها لم تسمع أبدًا بفابريس.

ألن تلتقي هي، إيلينه، به في الشارع في يوم من الأيام؟ كيف سيبدو شكله في ملابسه العادية؟ قررت أن تبحث عن حجة ما للذهاب مبكرًا صباح يوم ما حتى تتمكن من المشي أمام دار الأوبرا؛ بأي صدفة لأن تكون هناك بروفة وترى الفنانين، وهم يغادرون المبنى، بينما كانت مستغرقة في حساباتها الخاصة، لم تسمع سوى نصف ما قالته چين بينما كانا يسيران جنبًا إلى جنب، لكنها كانت تنظر إليها نظرة عابرة من وقت لآخر، وتبتسم لها الابتسامة البراقة، التي كانت أكثر ما بها جاذبية.

لما وصلا إلى هوجيڤال، وَدَّعا بعضهما، وذهبت كل منهما في سبيلها .

«أوريڤوار چاني، أعدكِ بأنني سوف أزوركِ في بيتكِ قريبًا، أوصلي تحياتي إلى فيريلاين. لا تنسى، حسنٌ؟ ثم الآن يا بِنْ، صافح السيدة.»

شعرت چين برعشة من دفء وحنان عندما سمعت صوت اسمها، وهى فتاة صغيرة، تذكار مؤثر من الأيام الخوالي، من فترة صباها، حينما كان الجميع يدعونها چاني.

سارت مسرعة في اتجاه شارع هوجو دي جروتسترات يملؤها الابتهاج والتلهف على العودة إلى مسكنها الصغير، حيث ينتظرها زوجها وأطفالها الأحباء.

ابتسمت إيلينه لنفسها، وهى تسير عبر الحديقة في طريقها إلى البيت. تتلالأ الأغصان العارية فوقها بالصقيع الأبيض المائل إلى الرمادي، كان الهواء المتجمد نقيًا ومسببا لوخز خفيف، مليئًا بالحياة والبشرى، وشعرت بالحاجة لتصدح بأغنية رولاد رائعة تتعاقب فيها النغمات بسرعة بما قد يملأ السماء ببهجتها.

أيمكن أن تكون مغرمة قليلاً بذلك ... الفنان؟

ياللهراء، كل ما هناك أنه يغني بشكل رائع !

١٠

بعثت ألسنة اللهب في الموقد بظلال ضخمة وممتدة كأشباح سوداء تحلق مرفرفة على الجدران والسقف في الحجرة المظلمة. كان ممكنًا أن تُرى الومضات المرتعشة على الإبريق الفضي ذي الطراز القديم، وعلى حافة خوانٍ منحوتة تلوح مظلمة وهائلة الحجم بالخلف، وعلى شتى الأطباق والأكواب الزخرفية المعروضة على الجدران.

اتكأ فنسنت فيره على أريكته، ليشاهد لعب الظلال بعيون نصف مغلقة. كانت الظلمة السائدة التي رآها إلى جانب ذلك الوهج الأحمر الداكن الغريب مستساغًا بالنسبة له، مما جعله ينسى ظلمة الشقة التي كان يستأجرها في شارع شبويسترات، حيث لم يبرز الجانب البرجوازي الرثّ إلا من خلال القليل من المقتنيات الثمينة الشخصية، التي رافقته في رحلاته. استلقى مستغرقًا في التأمل لبعض الوقت في الشفق، الذي يُذَكِّر بجحيم دانتي.

في الأيام القليلة الماضية كان قد غلب عليه التعب. كان بالكاد قادرًا على الحركة؛ كان يشعر كما لو أن هناك ماءً فاترًا يجري في عروقه بدلاً من الدم، كما لو أن نوعًا من الضباب كان يهبط على دماغه من وقت لآخر، ليسرق منه القدرة على التفكير. تَدَلَّت جفونه المعرقة على عيونه الزرقاء الشاحبة الفاقدة للحيوية، كانت شفته السفلى مرتخية، ومن ثمَّ تضفي إيحاءً بالمعاناة على فمه الصغير. لم يكن الشعور جديدًا عليه، لكنه ألقى باللوم هذه المرة على جو لاهاي، الذي وجده خانقًا. تاق لفضاء أوسع وهواء أكثر، ولم يستطع أن يتخيل ما الذي أغراه للبحث عن سكن في مدينة لم تمثل أبدًا أي جاذبية بالنسبة له. نعم، بإمكانه أن يتذكر من خلال ما خَيَّم على ذهنه من إنهاك وتعب شديد أنه تطلع إلى فترة من الراحة بعد رحلات سفره الطويلة، ولكنه شعر بالفعل

برعشة عصبية من الرغبة في الانغماس من جديد في دوامة من التغيير. كان للراحة والنظام تأثيرٌ مخدرٌ عليه، ورغم ضعفه وجد نفسه يتمنى الحركة والعمل والآفاق المتغيرة باستمرار، ورغم أنه افتقر إلى الطاقة لنذر نفسه لأي نوع من الأعمال، وما يتطلبه ذلك من عزيمة، قاده مزاجه المتقلب دائمًا إلى بحثه العقيم عن علاقات جديدة ودوائر جديدة قد تكون ملائمة بالنسبة له.

بدت له الخمسة عشرة يومًا، التي قضاها الآن في لاهاي كقرن من الملل. في اليوم، الذي تلا لقاءه مع بيتسي وإيلينه في الأوبرا قام بزيارة عائلة فان رات في ساعة القهوة، وطلب من هِنْك أن يقرضه مبلغ خمسمائة جلدر، قائلاً إنه يتوقع أن يصله بعض المال من بروكسل في أي يوم، وأنه سوف يسدد دينه في أول فرصة. تعامل هِنْك مع هذا الوعد من ابن عم زوجته بالكثير من الشك والريبة، ولكنه لم يرغب في الرفض، وبالتالي سَلَّمَه المبلغ المطلوب. حتى الآن كان فنسنت يعيش على المال المُقترَض، والذي كان يتركه ينساب من بين أصابعه كالماء اليوم ليتشبث به باقتصاد شديد البخل اليوم التالي، بينما تعجز الشيكات من بروكسل عن تصبح حقيقة.

كان لا يقلق إلا قليلاً بشأن المستقبل؛ حيث عاش دائمًا يومًا بيوم، فقد عاش أيام رفاهية في سميرنا وأيام حرمان في باريس ولندن، ولكن مهما كانت ظروفه، كانت دائمًا تدفعه تلك الرغبة المحمومة من أجل التغيي، لكن في الوقت الحاضر، ولما ووجِهَ بالحاجة لتدبير الحصول على خمسمائة جلدر، شعر بتوعك لدرجة أن عبء ضعفه مال إلى أن يطغى من خلال افتقادٍ كامل للطاقة.

وهكذا انجرفت أفكاره بينما كان يحدق في شبه الظلمة، حيث أبرز الوهج الأحمر الداكن من الموقد الأثاثَ بوضوح كالأشباح، كما يلائم إطاره الذهني المتشائم. لِمَ يجشم نفسه عناء التخطيط؟ بمجرد أن يَنْفَد المال، وهو ما لن يلبث إلا أن يقع قريبًا، فسوف يجد طريقه للحصول على المزيد بطريقة أو بأخرى، وما الخطأ في ذلك؟ مفاهيم الخير والشر ليست ذات صلة أو أهمية في

العالم الحقيقي، فالأشياء تحدث فقط لتكون بالطريقة، التي تمت بها، باعتبارها النتيجة الحتمية لتسلسل الأسباب والنتائج، كلُّ ما كان له الحق في أن يكون؛ ولا أحد باستطاعته أن يُغيِّر الذي كان أو ما كان سيحدث؛ لا أحد لديه إرادة حرة واحدة؛ فالكل يتمتع بمزاج مختلف، ومزاج الفرد ذاك، المرهون بالبيئة والظروف، هو ما يحكم تصرفات الفرد وسلوكه. تلك كانت الحقيقة، لكن الناس يحاولون دائمًا التلاعب بالأمور بمزيج من المثالية الطفولية والكلام الفارغ حول الخير، وكما في أكثر الأحيان، تُضاف معرفة سطحية بالشِّعْر الورع مجانًا بلا قيمة إضافية.

«يا إلهي، كم الحياة بائسة!»، فكَّر في ذلك، وهو يمسك رأسه بين يديه بينما غازلت أصابعه عقصات الشعر البنية فاتحة اللون على رقبته. «الحياة التي أعيشها الآن على أي حال. إذا سارت الأمور على هذا المنوال إما سأُجَنّ أو أموت في غضون العام. الغد سوف يكون مثل اليوم: باهت وكئيب وممل».

انغمس في بحر من الذكرى، ليزور ثانيةً مختلف بلدان ماضيه ومدنه، ليتأمل ويجتر تجاربه.

«إلى الآن، كل ذلك الجهد الضائع!»، تمتم همسًا، وتدلت جفونه فيما شعر بالضباب يهبط على ذاكرته مرة أخرى. تشكلت حبات من العرق على جبينه، وطَنَّت أذناه، وفي عين خياله رأى فضاءً مخيفًا، واسعًا بما لا يصدق، ويمتد بعيدًا أمامه.

لكن هذا الوهن، الذي كاد يقارب حدود الإغماء لم يستغرق سوى ثانية أو ثانيتين. وخرجت تنهيدة عميقة من صدره، ليعود إلى حالته الطبيعية.

* * *

أصدر وقع خطوات سريعة صوتًا على الدَّرَج، وكذلك سُمِعَ صوت مبتهج يتبادل كلمة تحية مع الفتاة في دكان الخردوات بالطابق السفلي. كان يتوقع أن يزوره عدد قليل من معارفه.

فُتِحَ الباب ...

صاح پول فان رات من المدخل، «كآبة ممتعة! تبدو وكأنه مشهد من الجحيم هنا، بتلك النار، التي تتلظى في الظلام. أين أنت يا فيره؟».

نهض فنسنت من على الأريكة وخطا إلى الأمام؛ ووضع يديه على كتفيّ پول.

«أنا هنا، أيها الشاب العزيز، لا تخف... انتظر، سوف أضيىء القنديل».

طفق يبحث عن أعواد ثقاب، وأضاء مصباحيّ پارافين من الطراز القديم على رف الموقد، أعماه للحظة الوهج الأصفر المفاجئ. تبدد الوهم الشبيه بجحيم دانتي، تاركًا حجرة مكفهرة ليس فيها من إشارة للبهجة سوى الموقد المشتعل باللهب زاهي اللون؛ وبدا الخوان ذو الطراز القديم، الذي يحمل فوقه الإبريق الفضي وبضعة أغراض شرقية في غير موضعه بقوة بجانب الكراسي المتهالكة المُنَجَّدة بالمخمل القطني من أوتريخت، تمامًا كما بدت المطبوعات العتيقة على الحائط أرستقراطية بصورة صارخة وسط النقوش المطبوعة الرخيصة والصور الملونة الشائعة المطبوعة على الحجر.

كانت هذه هي زيارة پول الأولى إلى شقة فنسنت، استرعى اهتمامه الإبريق الفضي والأطباق الخزفية، التي أعلن عن رأيه فيها أنها مثيرة للإعجاب.

«نعم، إنها لا بأس بها تمامًا في حد ذاتها. في الواقع، الإبريق يسرب، لكن براعة الصنعة على ما يرام كما ترى. ذهبت إلى أحد تجار القطع الأثرية اليوم، وهو يهودي مُسنّ، لأرى إن كنت أستطيع بيعها. إنها مجرد حمل ثقيل حقًا. قال إنه سوف يأتي بحلول الغد. أم هل أنتَ مهتم؟ إنها ملكك إن أردت أنه تأخذها».

«لا، حجرتي أو الاستوديو الخاص بي إن صح التعبير، ممتلئ بالفعل للغاية».

«هيا، بضعة أطباق أخرى لن تضر».

«لا، شكرًا».

«حسنٌ، أفضّل أن أبيعها لليهودي على أي حال. سأحاول الحصول على أفضل سعرٍ إن استطعت كما تعرف، ومعك سأكون صادقًا للغاية بطبيعة الحال بما يمنعني من أن أفعل أي شيء من هذا القبيل».

«ممنون جدًا. وافترض أنه كان أكثر ذكاءً منك؟»

«حسنٌ، إذن سيحصل على أفضل سعر مني، هذا كل ما في الأمر. كله في يوم عمل واحد، أم ماذا؟ لقد تناولت الشاي على ما أظن؟».

قال پول في أثناء جلوسهما معًا، «نعم. لستَ في حاجة لأن تزعج نفسك، ولكن قل لي، كم تنوي البقاء في لاهاي؟».

رفع فنسنت كتفيه وحاجبيه. لم يدر حقًا ماذا يقول؛ لم يقم بَعْدُ بالاستفسارات حول الوظيفة مع مزرعة الكينين في جاوا، لكنه كان قد سمع أنهم سيمنحون الأفضلية لصيدلي، وهو ما لا ينطبق عليه. لذلك فمن الأرجح أن يتخلى عن تلك الفكرة، بالإضافة إلى ذلك، لم يكن متيقنًا من أن مناخ الهند الشرقية سيلائمه. من ناحية أخرى، كان البقاء في لاهاي والعثور على شيء هنا غير وارد. كان بالفعل أصيب بالملل، حيث كانت لاهاي كالمياه الراكدة، الجميع يعرفون بعضهم البعض، على الأقل من خلال النظر، وتجد أنك تقابل نفس الناس طول الوقت– وهذا مملٌ بما تعجز الكلمات عن وصفه! لم يتخذ قراره بَعْدُ فيما سيفعله، لكن أولاً عليه أن ينتظر بعض الخطابات والشيكات من بروكسل. وختم كلامه بسؤال پول عما إذا كان يمكن أن يقرضه مائة جلدر لبضعة أيام. رأى پول أن ذلك سيكون على ما يرام، إلا أنه لم يستطع أن يجزم به.

«أنت تسدي لي خدمة كبيرة»

«هل لي أن أعرف بحلول الغد إذن؟ أم هل تظن أنني طائش».

«لا مطلقًا، مطلقًا. نعم، حسنٌ، أراك غدًا».

رد فنسنت بنبرة مختلفة، «حسنٌ، شكرًا جزيلاً لك مقدمًا. تعلم أن اثنين من

آل فان إرليفورت ودي ڤوده قادمون هذا المساء؟ لقد دعوتهم لاحتساء كأس من النبيذ».

رد پول قائلاً: «نعم أعلم؛ لقد رأيتهم بعد ظهر اليوم في نادي ڤيته».

استرخى فنسنت على ظهر الأريكة الحمراء القديمة، وألقى ضوء القنديل بطيفٍ رمادي على بشرته الشاحبة، لتلمع خطوط التعب أكثر حول شفتيه. دُهِشَ پول بمدى التشابه بين فنسنت وبورتريه لعمه فيره، والد إيلينه، خاصة التي يسند بها يده إلى رأسه عندما يتكئ إلى الوراء، بإيماءة كتلك، التي يلحظها في كثير من الأحيان لدى إيلينه.

* * *

كانت الساعة قد تخطت التاسعة عندما وصل جورج دي ڤوده دي بيرج وإتيان فان إرليفورت الواحد تلو الآخر بفترة وجيزة، واعتذر الأخير لعدم حضور أخيه. لم يكن أوتو مغرمًا كثيرًا بفنسنت، رغم أنه لم يكن هناك أبدًا أي اختلاف بينهما؛ كانت شخصيته عملية وحازمة جدًا، ويتسم بقدر كبير من التحفظ البارد، بما وجد معه من المستحيل أن يشعر بالتعاطف مع شخص سمح لنفسه، في رأيه، بأن يخضع تمام الخضوع لحالة من الاضطراب العصبي المرضي، دون أن يبذل أدنى جهد عقلي للتحكم في نفسه. كان أوتو واحدًا من الأشخاص القلائل الذين لم ينجح ڤيكتور في إقناعهم. جميع من التقى بهم تقريبًا شعروا بالحذر معه في البداية، وبعد ذلك صاروا مفتونين، فجاذبيته تشبه ذلك السم الحلو، الذي يمكن أن تتذوقه مثل الأفيون، ومن خلال أسفاره البعيدة اكتسب قدرًا كبيرًا من المعرفة بالطبيعة البشرية، أو بالأحرى كيفية التعامل بلباقة مع الناس من جميع مناحي الحياة، وكان قادرًا على لعب أي دور يختاره بسهولة وبلا جهد يُذكر كأفعى تتلوى أو كممثل ماهر، لكن أوتو، بثقته اللاواعية بصحته وقوته، احتقر فنسنت بسبب سحره السام، الذي بثه في السذج من الرفاق.

قبل فترة طويلة كانت الشقة مليئة بالضباب الرقيق المائلة للزرقة، إذ مرر فنسنت صندوقًا من السيجار، رغم أنه لم يدخن. أخذ بعض زجاجات من نبيذ سانت إيميليون من خزانة ما وفتحها، ووضع أربعة كؤوس من النبيذ على الطاولة. أمتعهم إتيان الذي كان صاخبًا أكثر من أي وقت مضى بسيلٍ من النكات والحواديت، التي قيلت بأسلوب الطلبة النابض بالحيوية، مع قدر من التقليد والإيماءات، التي منحته مظهر جنتلمان كوميديان في أحد مقاهى الغناء. ضحك پول وجورج، لكن فنسنت رفع كتفيه في تجاهل، وابتسم ابتسامة صغيرة تليق بمضيف بينما كان يسكب النبيذ.

تشدق بلسانه: «عزيزي إتيان، يا لك من طفل».

تجاهل إتيان التعليق وواصل هذره كالأطفال، وألقى بكل إحساس باللياقة والاحتشام للرياح، بينما استمع الآخرون، وهم يستمتعون برائحة النبيذ المميزة. ورغم ذلك، استمر فنسنت في السخرية من إتيان.

«يا له من صبي فاسد، هذا الشاب فان إرليفورت، ليقول مثل هذه الأشياء! شقي، شقي!»، قال متهكمًا، لكن كان هناك شيء ما ساحر للغاية في ابتسامته، وهو يقول هذا لدرجة لم تثني إتيان عما كان يفعله.

ملأ فنسنت كؤوسهم مرة أخرى، وأشاد جورج بالنبيذ. عادةً ما يكون هادئًا نوعا ما في صحبة أقرانه، سعيدًا بالاستماع، لأنه يفضل أن يوفر جهوده للمحادثات البراقة مع السيدات. سأله فنسنت عن عمله بوزارة الشؤون الخارجية، بينما تبادل إتيان وپول نظرات ذات معنى.

سأل فنسنت: «أظن أنك سوف تُلحق بمفوضية من المفوضيات في نهاية المطاف؟».

أجاب جورج: «هذا محتمل جدًا».

«حسنٌ، على الأقل هى وظيفة ستجعلك ترى العالم من خلالها. لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكن لأي إنسان أن ينفق حياته كلها في مكتب. سيكون ذلك

بمثابة الموت بالنسبة لي. خذ فان إرليفورت - لا، ليس أنتَ يا إتيان، أعني أخاك».

قال پول: «حسنٌ، يمكنك أن تترك أوتو خارج هذا. سيتمتع بحياة مهنية رائعة، سترى».

صاح إتيان: «أوتو يناسبه بطبيعة الحال أن يكون وزيرًا بمجلس الوزراء أو حاكمًا عامًا، كلنا نعلم ذلك- على الأقل، هذا ما تقوله المرأة العجوز دائمًا. أما أنا فآخر العنقود!».

ضحك فنسنت: «نعم، تمامًا كالطفل المدلل، أليس كذلك؟ إلى أي مدى وصلت في دراستك بالمناسبة؟».

"آه، ما زال لدي بعض الامتحانات لأقوم بها، ولكنني لا أحضر أي محاضرات في الوقت الراهن. أنا أدرس هنا في لاهاي».

سأله فنسنت، ناطقًا الاسم بنبرة استهجان، «هل أنت مغرم كثيرًا بالحياة في لاهاي إذن؟».

«ليست سيئة إلى ذلك الحد».

«كيف يمكنك بحق الشيطان أن تقول ذلك؟ لا بد يا رفاق أنكم ترضون بأي شيء بسهولة كبيرة، أو بالأحرى، ليست لديكم أي فكرة عما يمكن أن تقدمه سائر بلدان العالم. لاهاي تجعلني كئيبًا ونعسانًا، هناك شيء ما مخدر في الهواء كما يبدو لي».

ضحك پول: «أنت متحامل وحسب، هذا كل ما هنالك!».

«أحسب أنني كذلك، وأحسب أنه لهذا السبب يبدو لي نوع الحياة، التي يعيشها معظمكم مدمرة للذات تمامًا. هل لي أن أسأل كيف تقضون الوقت يا شباب؟ تدورون في دوائر كلعبة دوامة الخيل، وما إن تستقروا في وظيفة ما تجدون أنفسكم تقومون بنفس الواجبات القديمة يومًا بعد يوم، وتذهبون إلى السهرات القديمة نفسها إلى مالا نهاية. حياة مثيرة بالكاد، أليس كذلك؟».

سأله جورج: «حسنٌ، ماذا تنصحنا بأن نفعل إذن؟».

«يا الله، على الرحب والسعة في أن تستمروا في أن تعيشوا حياة فارغة كهذه، الأمر برمته متروك لكم، لكن ما لا أستطيع أن أفهمه هو أن أيا منكم لا يبدو أن لديه أية رغبة في الخروج إلى العالم، وإلقاء نظرة حوله».

«وماذا عنك إذن؟ أعلن پول بقوة، منزعجًا قليلاً بسبب سخرية فنسنت. لقد رأيت العالم، أليس كذلك؟ وأين أوصلك ذلك؟ سبع صنائع لا تجيد أي واحدة منها، ولذلك لا يمكنك القول إنك نجحت نجاحًا مبهرًا من ذلك، أليس كذلك؟».

لمعت شرارة من ضيق في عينيّ فنسنت الزرقاء الشاحبة، بينما تقوست شفتاه الرفيعتان في شكل ابتسامة متوترة.

صاح إتيان، وهم يقرع كأسه الفارغ، «كل هذا الكلام الفلسفي جعلك تتخلى عن واجباتك كمضيف!».

قال فنسنت متشدقًا: «آه حسنٌ، أظن إنها مسألة مزاج- فمزاجي أكثر اضطرابًا قليلاً من مزاجكما، وهذا كل ما في الأمر». نهض ليملأ الكؤوس مرة أخرى، ثم غاص في الأريكة بجوار جورج مرة أخرى، بينما تجوب عيناه بضجر خلال الشقة.

***

بات الجو حارًا للغاية في الشقة، كما يبدو أن دخان السيجار تدلى من السقف في هيئة صفوف ملموسة. فتح فنسنت الباب لإدخال بعض الهواء. أحمرّت عينا إتيان، الذي لم يستطع أن يشرب الكثير من النبيذ، وكان مثارًا إلى حد كبير؛ بل وكسر كأسه كذلك. استمتع جورج وپول كثيرًا بسبب هزله الماجن، لكن فنسنت، الذي كان يبتسم ابتسامة باهتة ظل متحفظًا.

شعر بشيء من الدهشة: كم من الغريب أن تكون شخصية الإنسان ثابتة للغاية، أن المرء عليه دائمًا أن يظل كما هو، محتفظًا بشخصيته المتفردة

الخاصة دون حتى أن تتوافر له إمكانية تبادلها مع شخص آخر. غالبًا، ودون أدنى سبب، حتى عندما يتواجد في صحبة مفعمة بالحيوية، يجد نفسه يتساءل عن هذا، وثار غضبه من تحقق قدره، الذي لا مفر منه: أن يظل أبدًا فنسنت فيره نفسه، عاجزًا عن تحويل نفسه إلى كيان مختلف تمامًا، شخص يتنفس ويتحرك في ظروف ومجتمعات مختلفة تمامًا. كان يفضّل أن يمر بخبرات من العواطف المتباينة، أن يعيش في عصور مختلفة، وأن يسعى للنجاح في مجموعة من عمليات التحول. بدت له هذه الرغبة من جهة صبيانية للغاية، أن تكون محالاً منافٍ للعقل، ولكنها من جهة أخرى بدت رغبة نبيلة بحق، على أساس الهدف السامي، الذي تمثله. لم يعتقد أن الناس الآخرين لديهم هذه الرغبة، وشعر بأنه متفوق عليهم إلى حد كبير لهذا السبب. وفي أثناء اجتراره هكذا، بدا زواره الثلاثة بعيدين جدًا، تفصلهم عنه سحابة من دخان السيجار لا يمكن اختراقها، وشعر بإحساس مفاجئ بالخفة في دماغه؛ إذ بدا كل شيء أكثر تلونًا بصورة زاهية، بدا حديث الآخرين وضحكهم أعلى صوتًا بالنسبة لأذنيه، كالقرع على صفيحة من المعدن، وطغت رائحة التبغ والنبيذ المسكوب، ونبضت العروق في صدغيه ورسغيه كما لو كانت ستنفجر.

دام هذا التشنج العصبي عدة ثوانٍ، وفي نهايته لاحظ أن ضيوفه يبتسمون له ابتسامة عريضة بترقب، ورغم أنه لم يفهم كلمة واحدة مما كانوا يقولونه، ابتسم ابتسامة عريضة أيضًا، متظاهرًا بمشاركتهم تسليتهم.

قال جورج: «أقول يا فيره، صار الجو رديء التهوية إلى أبعد حد هنا، عيناي تحرقاني من كل هذا الدخان! ألا يمكن أن نفتح أي نافذة؟».

أومأ فنسنت رأسه وذهب لإغلاق الباب بينما قام پول، الذي كان يجلس بجانب النافذة برفع إطارها مما سمح لنسيم من الهواء البارد بالدخول إلى الحجرة. كان هناك هدوء في الشارع؛ إذ يمكن سماع أصوات منخفضة بين الحين والآخر تقترب وتبتعد بجانب مصاحبتها لوقع أقدام أو اختلاس سماع أغنية بسيطة صاخبة بالشارع تتردد خلال السكون.

أعاد الهواء البارد فنسنت إلى أرض الواقع مرة أخرى، وقد تلاشت خيالاته الفخمة من ذهنه. في الواقع، شعر الآن ببوادر الحسد للحالة نفسها، التي كان قد أدانها فقط منذ لحظة، وهى أن تحيا حياة فارغة جسديًا وأخلاقيًا. حسد پول لصحته وعنفوانه الذي لا يُضبط إلا بنوبات من الكسل الفني، التي تنتابه بين الفينة والأخرى، وحسد جورج لرباطة جأشه الهادئ ومزاج الرضا والاطمئنان العام الذي يحيط به، وإتيان لكونه شابًا مفعمًا بالشباب ... لِمَ لَمْ يكن مثلهم، في صحة جيدة، مفعمًا بالشباب ومبتهجًا وذا كياسة، لِمَ لا يستطيع أخذ الحياة على علاتها، لم عليه دائمًا أن ينطلق في البحث عن شيء لا يستطيع هو نفسه حتى أن يُعَرِّفه ؟

كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة عندما نهض الشبان الثلاثة. أعلن پول أنه يتعين عليهم توصيل إتيان للبيت، ذلك أن حيويته المفرطة.قد أفضت إلى اكتئاب عميق مضافًا إليه مشاعر الرغبة في الانتحار.

سأل: «أقول لك يا إتيان، هل لديك مفتاح الباب الخاص بك؟». «مفتاح؟»، تكلم إتيان بصوت أجش، وعلى وجهه تعبير بلادة ودوار، »مفتاح؟، ردد الكلمة مغمغمًا.

»نعم، في جيبي. نعم، مفتاح، في جيبي ... هنا ...».

حثهم جورج قائلاً: «هيا بنا إذن، لنمضي من هنا«.

ذهب إتيان إلى فنسنت وأمسك به من ذراعه، بينما كان الآخرون يستمعون في استمتاع.

«فيره: أوريڤوار، شكرًا لك على حسن الضيافة الباعثة على البهجة. دائمًا كنت أظن بك خيرًا. فيره، أنت شاب طيب، أتسمع؟ أشعر بقدر كبير جدًا جدًا من التعاطف معك. فقط بعد ظهر اليوم في النادي كنت أقول ذلك ... كان پول هناك، سوف يخبرك ... كنت أقول أنك يا فيره لديك قلبٌ من ذهب. جميعهم لديهم تصور خطأ عنك يا فيره، ولكن ...».

«هيا، لا بد أن نذهب الآن!»، صاح پول وجورج، وجروا إتيان من ذراعه.

«أيمكنك أن تتوقف!».

«لا، لا. اسمحوا لي بأن أقول رأيي. لديهم تصور خطأ عنك يا فيره، لكن لا تعبأ بأي منهم يا صديقي العزيز. نفس الشيء معي، فهم لديهم تصور خطأ عني أنا أيضًا. هذا ليس عدلاً، ليس عدلاً على الإطلاق، لكن ما باليد حيلة. وداعًا فيره، ليلة سعيدة، نم جيدًا».

صحبهم فنسنت إلى الباب بشمعة مضاءة وانطلق الثلاثة، وهم يتأبطون بعضًا وواضعين إتيان في المنتصف.

«فيره، خذ بالك الآن. لكيلا تصاب بالبرد بوقوفك على الباب هكذا- ولا تُعِرْ ما يقولون اهتمامًا، جميعهم مخطئون، ولكنني سأقف في ظهرك!».

أومأ فنسنت برأسه بودٍ بينما كانوا يتهيأون للذهاب، وأغلق باب الدكان غير المضاء.

غمغم إتيان: «جدع طيب ملعون يا فيره!».

١١

بعد الساعة الرابعة كانت عائلة فرسترايتن عمومًا بالبيت، وكان اليوم واحدًا من تلك الأيام، التي تصادف بها، بطريق الصدفة المحضة، وجود سيل متدفق من الزوار، وعندما وصلت بيتسي وإيلينه، كانت عائلة إيخوف وهيدريخت، وإيميلي دي ڤوده وفريدريك هناك بالفعل، وأخيرًا وصلت مدام فان دير ستور، أيضًا، برفقة ابنتها الشابة كاتو.

أراحت إيلينه يدها على كتف كاتو، بينما أبديا إعجابهما بصورة فوتوغرافية معًا.

كانت تعي بأنها أثارت إعجاب الفتاة بأناقتها وأسلوبها الودود، وبما أنها تحب إثارة التعاطف معها عند الآخرين، فهي نفسها بحاجة إلى من يبدي إعجابه بها، إذا بها تمنح الاهتمام المفرط بكاتو، كما لو كانت ترعى إحدى النباتات المنزلية المفضلة. لكن اليوم كانت حاجتها هذه محاطة بكبرياء المنتصر فيما يتعلق بفريدريك، التي كانت تشتبه، منذ عشية عيد القديس نيكولاس، في أنها تمسك بشيء ما ضدها، رغم أنها لا تعلم السبب.

بينما كانت كاتو تتحدث إليها بصوتها الخفيض الجميل، رفعت إيلينه رأسها لتختلس نظرة إلى فريدريك لترى ما إذا كانت قد لاحظت نظرات الطفلة المتيمة بها، لكن فريدريك كانت منهمكة في حديث مزاح مع فتيات عائلة إيخوف.

سألت كاتو: «هل تغنين كثيرًا مع مستر فان رات؟ هل صوته جميل؟».

«ليس صوتًا قويًا جدًا، لكنه حلو جدًا».

«ياه، أحب أن أسمعكما تغنيان معًا!».

«سيكون لكِ ذلك، في يوم من هذه الأيام».

«لديكِ صوت رائع يا آنسة فيره! ياه، كم أحب أن أسمعك حينما تغنين، أعتقد بأنه كما لو كان صوتًا من السماء!».

أطلقت إيلينه ضحك خفيفة، مزهوة بحماسة كاتو الصادقة.

«حقًا؟ لكن عليكِ أن تتوقفي عن دعوتي بآنسة فيره، تعلمين، هذا يبدو رسميًا للغاية. قولي لي يا إيلينه، اتفقنا؟».

داعبت كاتو، التي احمرت خجلاً وفخرًا فراء أنبوب إيلينه الصغير، الذي تدفئ فيه يديها. كانت في قمة الانتشاء بسبب صوت بطلتها الشجي ونظرتها الناعمة والواهنة كغزال.

شعرت إيلينه بأنها عاطفية أكثر من المعتاد، وبحاجة إلى الحب، الكثير من الحب، يحيط بها من كل جانب. في أعماق روحها الخفية اشتعل إعجابها بفابريس ليصبح ولعًا مَلَكَ عليها جميع أفكارها، وكانت تسعى لإيجاد متنفس له دون أن تفشي سرها. شعرت أنها مغمورة للغاية برقة خفية لدرجة أنها بدت عازمة على مشاطرتها وسط من يستحق من أعضاء شِلّتها، كأزهار من باقة أزهار فاخرة. تطلعت حولها بعينين متلألئتين، وشعرت بسعادة غامرة عندما رأت الآخرين يعيرونها الاهتمام بمودة، ولكنها تشعر بالضيق أكثر، وبدرجة ملحوظة عندما تكشف أدنى تلميح من البرود نحوها. جرحتها فظاظة فريدريك، التي لا يمكن تفسيرها في ذلك المساء، ورغم أنها حاولت تجاهلها في البداية بسبب كرامتها، فقد بذلت الآن جهدًا لكسب ود فريدريك، وخاطبتها بأكثر نبراتها توددًا، لكن ردود فريدريك كانت قصيرة وغير محددة، مع تحويل نظرها بعيدًا عنها؛ كان لا بد لإيلينه أن تنتبه إلى برودها، طبعًا، لكنها لم تكن أبدًا تلك الإنسانة، التي تخفي مشاعرها، كانت صريحة جدًا لدرجة أنه لم يكن لها أي اهتمام بالمبادرات الدبلوماسية.

تطرق الحديث إلى البورتريهات، وخَطَت مدام فرستريتن مرورًا بإيلينه

وكاتو نحو طاولة جانبية أخذت منها ألبوم من الصور كانت تود أن تريه لمدام فان دير ستور ومدام إيخوف.

طارت أفكار إيلينه، التي كانت مشتتة الانتباه، وتستمع إلى كاتو بنصف تركيز إلى فابريس، حينما وقعت عيناها على الألبوم في يديّ مدام فرسترايتن. قفزت فكرة أمامها، كتدفق من خيالها الغزير كيفما اتفق. نعم، كانت ستشتري ألبومًا لاستخدامها الخاص، حيث ستحتفظ فيه ببورتريهات فابريس؛ سيكون بمثابة قِبْلة صغيرة لحبها، والتي سوف تترك نفسها أمامها متأملة معبودها، ولن يعرف شخص واحد عنها أي شيء. توهج وجهها لما أثاره هذا الاحتمال من إثارة سرية، ومنحتها فكرة وجود شيء ما بالغ الأهمية بما يتطلب إخفائه عن أعين المتطفلين من تلك حولها إحساسًا جديدًا بالأهمية، وشعرت بالفراغ في روحها، وقد بدأ يمتلئ بكنوز عشقها. كانت سعيدة، وتعززت سعادتها بابتهاج لعوب ومُسْكِر لامتلاكها سرًا سيعلن الجميع في جماعتها بأنه غاية في الحماقة وانعدام اللياقة لو أنهم فقط عرفوا به. فتاة مثلها، مغرمة بممثل ... ما الذي يمكن لمدام فرستريتن وبيتسي وإميلي وكاتو وفريدريك أن يقولوه عن ذلك، ناهيك عن هِنْك وپول وفنسنت، إن كان لديهم أقل قدر من أكثر ألوان الشك غموضًا؟

كان لديها شعور بالانتصار، وهى تلقي نظرة عابرة على أقاربها ومعارفها وهم يتدفقون على الصالون؛ كم كانت شُجاعة بأن تتحدى مفهومهم التقليدي عن اللياقة، وأنها جَرُأت بأن تُفْتَن بفابريس! ضحكت بمرح أكثر مما يتطلبه ضحكها عندما تخبرها إميلي بشيء هزلي، في الواقع كانت تضحك عليهم جميعًا، مبتهجة ابتهاجًا عظيمًا بعشقها السري المُحَرَّم.

سألت كاتو: «وهكذا فإن مستر فان رات- أقصد مستر پول- سوف يصبح محاميًا، أليس كذلك؟».

فكرت إيلينه، لماذا تفتأ تذكر پول؟ پول هنا، وپول هناك، صوت غنائه الرائع، والآن حياته المهنية.

قالت إيلينه: «أنت معجبة بپول، على ما أعتقد!».

انفجرت كاتو معبرة عن سعادتها، »أوه نعم، أنا معجبة به كثيرًا جدًا! فقط في بعض الأحيان، كما تعلمين، يمكن أن يصبح غاضبًا للغاية. تخيلي في ذاك اليوم في أثناء عرض التابلوهات».

واضطرت إيلينه إلى أن تستمتع إلى حكاية مطولة عن كيفية فقدان پول لأعصابه بشأن بعض التفاصيل بشأن التابلوه، وأيضًا كيف كان ماهرًا في ثني الملابس.

فكرت إيلينه» إنها لا تتصنع الأمور، ولكن بعد ذلك هذا لا يعني بالضرورة أنها مفتونة به على ما أظن، حتى لو كانت تتحدث عنه طوال الوقت. لأنها لو كانت كذلك، فالأرجح أنها لن تنبس بكلمة واحدة مثلي».

الساعة الخامسة والنصف؛ وبدأ الزوار في الاستئذان بالانصراف.

تضرعت كاتوا: «إذن سوف تسمحين لي بأن أسمعكِ أنتِ وپول وأنتما تغنيان؟».

«يمكنك أن تأتي بعد ظهر يوم الخميس، ذلك الوقت الذي عادةً ما نغني فيه معًا».

«يا إلهي، أنا سأكون في المدرسة إذن».

«حسنٌ، في هذه الحالة يمكنك أن تأتي في المساء لبعض الوقت».

«ياه، كم أود ذلك يا إيلينه».

كانت هذه المرة الأولى، التي تدعو فيها كاتو إيلينه باسمها الأول، وابتسمت بسعادة ورضا للمكانة، التي اكتسبتها لتوها، ثم طلبت الاستئذان للرحيل، وحثتها على ذلك أمها.

بالقرب من الباب الأمامي، وبعد أن استأذنت بالرحيل، وجدت إيلينه نفسها وحدها مع فريدريك، بطريق الصدفة تمامًا، في الوقت، الذي كانت تنتظر فيه بيتسي، التي كانت ما تزال تتحدث مع مستر فرستريتن. كانت إيلينه على وشك

أن تقول شيئًا لفريدي، ولكنها ترددت، ظنًا منها أن فريدي سوف تخاطبها أولاً، وفي النهاية ظلت صامتة.

كانت كاتو الصغيرة منتشية طيلة الطريق إلى البيت، وهي تتغنى بمديح إيلينه وپول لأمها.

* * *

وصل العام الجديد ودرجات الحرارة تصل إلى حد التجمد. دعت بيتسي عائلة فرسترايتن وعائلة فان إرليفورت، وكذلك مدام فان رات وپول إلى عشاء المحار عشية رأس السنة الجديدة، واستمتع الجميع بأمسية طيبة للغاية وسط الترف الدافئ لصالوناتها. تعاقبت أيام يناير الشتوية الواحد تلو الآخر في تطابق متواصل، ولا مهرب منها بالنسبة لبيتسي وإيلينه مساء كل يوم إلا سلسلة مستمرة من حفلات العشاء والسهرة. كانت عائلة فان رات تعيش حياة اجتماعية نشطة، وكانت بيتسي معروفة بحفلات العشاء الصغيرة الأنيقة، بضيوف لا يقلون أبدًا عن عشرة ضيوف ولا يزيدون أبدًا عن اثنتي عشرة ضيفًا، ودائمًا ما تدار بأسخى ما تكون الأناقة والترتيب، فهم ينتمون إلى مجموعة من الناس يقضي أفرادها كثيرًا من الأحيان في صحبة بعضهم على أساس التعارف وثيق الصلة، وهي حالة كانت نتيجتها شعورهم بقدر كبير من الرضا.

وسط هذه المواعيد الاجتماعية البهيجة نفخت إيلينه في لهيب حبها السري في طمأنينة صامتة، وشعرت بأنها غارقة في الرومانسية. في صباح أحد الأيام، وبينما كانت تسير عائدة إلى البيت في شارع پرنسيسيخراخت بعد أحد المشاوير، وقعت عيناها على فابريس، وهو يخرج من حيّ غابة لاهاي. شعرت بقلبها يدق ولم تجرؤ على النظر مرة أخرى، لكن وبعد لحظة أدارت عينيها لتختلس نظرة إليه بلامبالاة متكلفة. كان يرتدي معطفًا قصيرًا من صوف الدفيل الخشن وكوفية من الصوف ملفوفة عَرَضًا حول عنقه، وكان يمشي بخطا متروية واضعًا يديه في جيوبه، وتختبئ ملامحه داكنة اللون ومحياه متقلب المزاج نوعًا ما جزئيًا خلف قبعته ذات الحافة الواسعة والملمس اللين. ترك فيها انطباعًا من

التحفظ الرفيع، وهو ما أشعل خيالها: كان لا بد أن يكون من عائلة لا بأس بها، إذ كانت هناك ميزة خاصة في تكوين كتفيه العريضين اللَّذيْن أبهراها بكونهما متميزان للغاية؛ عارض والداه رغبته في أن يكرس نفسه للفن، ولكن موهبته جعلت مقاومته من المستحيلات؛ وتلقى تعليمه الموسيقي في الكونسرفتوار، وقَدَّم أول عرض ناجح، ولكنه وجد نفسه الآن في خضم خيبة الأمل والمرارة بشأن عالم المسرح، الذي كان قاسيًا جدًا، وغير راقٍ تمامًا بالنسبة لإحساسه الفني؛ ثم انسحب في عزلة المُعْتَدّ بنفسه؛ وتذكر طفولته وشبابه، ورأى أمه تفرك يديها وتناشده بأن يتخلى عن طموحه وألا يفكر في خشبة المسرح مرة أخرى ...

منذ ذلك اليوم أصيبت إيلينه بنزوة، كما تسميها بيتسي، التمشية لمسافات طويلة في الصباح. أعلنت إيلينه أن الغابة جميلة جدًا في الشتاء؛ عشقت كيف بدت جذوع الأشجار الطويلة المستقيمة كأعمدة الرخام عندما يهبط الثلج؛ فيبدو كما لو كانت في كاتدرائية. رافقها هِنْك عدة مرات مع ليو وفاوست، وهما كلبا أولمر للصيد، لكنه افتقد ركوبه المعتاد للخيل، ولهذا بدأت في التمشية وحدها، بعد زيارة للاسطبل لإحضار الكلبين، اللذيْن تقافزا بسعادة لحمايتها بجوارها كزوج صاخب وشقي من الغلمان.

هذا صحيٌ لتكوينها الجسدي، هذا ما أوضحته عندما ارتفع الحاجبان دهشة بسبب مسعاها الجديد؛ فهي لا تقوم بما يكفي من التمارين، وتخشى أن يزيد وزنها مثل بيتسي إذا سارت على منوالها، التي لا تذهب مطلقًا إلى أي مكان سيرًا على الأقدام. وإلى جانب ذلك، يعتقد الدكتور راير بأن الجولات الصباحية للتنزه فكرة ممتازة.

في الغابة كانت ترى أناسًا آخرين يتمشون على مهل للنزهة، وعادةً ما يكونون نفس الأشخاص، كان هناك رجل مسن رمادي الشعر يرتدي عباءة من الفراء، ويسعل دائمًا وراء يده، تمر من أمامه يوميًا، لكنها نادرًا ما رأت فابريس. لا شك أنه كان يقوم بالبروفات، هذا ما قالته لنفسها عندما لم يظهر الباريتون.

كل مرة تتركها خيبة الأمل منهكة المشاعر، وتعود في طريقها إلى البيت مشتاقة إلى حجرة نومها، وموقدها الدافئ والبيانو الخاص بها، لكنها أصرّت على نزهاتها رغم ذلك، وفي اللحظة المناسبة لاحظت أن فابريس يميل لتفضيل أيام الجمعة. كان أي يوم آخر لا يمكن التنبؤ به مطلقًا؛ إذ قد نراه، ولكنها أيضًا قد لا تراه. كانت تتأكد من الاستيقاظ مبكرًا، حتى لو كانت لم تخلد إلى النوم إلا الساعة الثالثة بعد حفلة ساهرة أو راقصة مرهقة، وتكونت هالات داكنة اللون تحت عينيها. صحيحٌ أنها رأت فابريس كثيرًا هذه الأيام، لكن كان هذا دائمًا في الأوبرا، من إحدى المقصورات أو الأكشاك عندما يرافقها بعض من أفراد عائلة فرسترايتن أو إيميلي دي ڤوده وجورج- في إحدى الأمسيات دعتها حتى عائلة فيريلاين للانضمام إليهم- لكن هذا لا شيء كرؤيته في الغابة. هناك رأته بشكل مختلف، لم يعد كمنظر على خشبة المسرح يفصله عنها وهج أضواء المسرح بل من مكان قريب، أقل من ثلاث خطوات يبعد عنها، رجلٌ من لحم ودم.

في الأيام، التي تقع فيها عينيها على فابريس، كان قلبها يحلق عاليًا، ليملأ القبة الزرقاء العالية من الأغصان المغطاة بالثلوج بالفرح. تراه قادمًا في اتجاهها بخطوته الرجولية القوية، وقبعته يرتديها بزاوية غير مضبوطة، والكوفية ذات الشراشيب تهفهف من على كتفه، وعندما تتقابل مساراتهما ينظر إليها خلسة أو إلى الكلاب، التي تتشمم ساقيه، بتعبير مبهم على وجهه. بعد ذلك، وفي طريقها إلى البيت بطول شارع ماليبان، الذي تصطف الأشجار على جانبيه، يغلب عليها الفرح، الذي يجعل صدرها يتنهد ويندفع الدم إلى خديها الباردين؛ ولا تشعر بأقل قدر من التعب، ولدى عودتها تنطلق تغني أغنية مبتهجة في اللحظة التي تعبر فيها العتبة. وتظل في حالة معنوية عالية طوال اليوم، وتتخلى عن كياستها فاترة الهمة المعتادة لتتحول إلى حيوية وتألق كلون الزئبق المذاب. تشرق عيناها، وهي تواصل مزاحها المستمر؛ فتطلق على هِنْك الكسول العزيز وبِنْ متبلد المشاعر وتغيظ كلاً من الأب والابن؛ وتجعل الصالة تضج بضحكتها الفضية ويُسمع صرير الدَّرَج بخطاها السريعة.

في صباح يوم من أيام الجمعة، لما رأت فابريس قادمًا نحوها، اتخذت قرارًا. فكرت في أن عدم التجرؤ على مقابلة نظرة عينيه أمر صبياني للغاية؛ فهو فرد من أفراد مهنة التمثيل في النهاية، بالتأكيد معتاد أن تتعرف عليه السيدات في الأماكن العامة. وهكذا، عندما يكون قريبًا منها، سوف ترمي رأسها إلى الوراء تقريبًا بجو من التحدي المتعالي، وتنظر في عينيه مباشرة. ردَّ على نظرتها بطريقته الفارغة المعتادة، ومر أمامها دون أن يبطئ خطاه. بعدها، شعرت بشعور طائش، وتطلعت إلى كتفه ... هل سيقوم بنفس الشيء أيضًا ...؟ لا، تابع المشي، يديه في جيوبه، وتابعت عينيها جسده عريض الكتفين وهو يبتعد شيئًا فشيئًا.

في صباح ذلك اليوم أسرعت الخطى نحو البيت، وهي تدندن في سرها، بلمحة من طربٍ شقي تدور حول شفتيها المغلقتين. لم تستطع أن تفكر في أي شيء سوى في لقائها بفابريس. وعندما دق الجرس في ناساوپلاين وأدخلتها جريت، قفز الكلبان إلى الصالة، وهما ينبحان بهياج. كان عليها أن تضحك: لقد نسيت تمامًا أن تترك ليو وفاوست في الإسطبل في طريقها للبيت!

خرجت بيتسي من حجرة الطعام فجأة، وهي تستشيط غضبًا.

«يا الهي، يا إيلينه، هل أنتِ مجنونة؟ متخيلة إحضار هذين الكلبين البائسين إلى هنا! تعرفين أنني لا أطيقهما. ما الذي دهاكِ لكي تقومي بشيء ضد رغباتي بهذا الشكل؟ كما لو كنت لست سيدة بيتي! رجاء أخرجيهما من هنا فورًا».

كان صوتها فظًا وحادًا، كما لو كانت تصدر أوامر لمرؤوس لديها.

«إنهما عطشى، وأردت أن أعطيهما بعض الماء»، ردت إيلينه متظاهرة بالقوة الهادئة حتى لا تظن بيتسي أن الكلبين غابا ببساطة عن ذاكرتها.

«ربما يكون الأمر كذلك! لن أسمح بأن يشربا الماء في بيتي، أتسمعين؟ انظري إلى تلك السجادة، آثار أقدامهما الموحلة في كل مكان».

«يمكن أن تنظفه جريت في لمح البصر».

«أنت لا تعرفين ما تقولينه! أنتِ تعيشين حياة أميرة هنا، تفعلين بالضبط كما يحلو لكِ، ولا تهتمين بي بأي شكل من الأشكال! أقول لكِ خذي هذه الكلاب القذرة بعيدًا!

«لا بد أن يتناولا بعض الماء أولاً».

صاحت بيتسي، وقد فقدت أعصابها من الغيظ، «ألم تسمعيني؟ قلتُ أنني لا أريدهم أن يشربوا الماء هنا!».

قالت إيلينه بهدوء: «حسنٌ، لا بد أن يشربا. سوف آخذهما إلى الحديقة».

صرخت أختها: «أتجرؤين! أتجرؤين!».

«تعال هنا ليو، تعال هنا فاوست»، نادت إيلينه، ورَبَّتت على فخذها ببطء مثير للغضب العارم.

شعرت بيتسي بالسخط الشديد. كانت شفتاها ترتجفان، ويداها تهزتان، وتأخذ نَفَسَها بلهثات سريعة وقصيرة. فقدت القدرة على الكلام بسبب ثورة الغضب، لم تكن تريد سوى أن تصفع أختها بقوة، لكن إيلينه كانت بالفعل تتسكع في الصالة بالأسفل مع كلاب الصيد المليئة بالطاقة في ذيلها إلى الحديقة، حيث شرعت في ملء دلو من الماء عند الصنبور الخارجي. منحها إغضاب بيتسي على هذا النحو متعة خفية. شرب الكلبان حتى الرواء، ثم أحضرتهما مرة أخرى إلى الداخل.

كانت بيتسي لا تزال واقفة في الصالة، تحدق بعجز في إيلينه، متمنية لو كانت قد ركضت وراءها وانتزعت الدلو من يدها.

«أحذرك يا إيلينه»، بدأت الكلام، بصوت مهزوز وخدين مشتعلين، «سوف أتحدث إلى هِنْك حول هذا الموضوع».

«آه، انظري إن كان يهمني!»، ردت عليها إيلينه في فورة غضب مفاجئة، عندها انتفضت للخروج من البيت مع الكلبين، وأغلقت الباب خلفها بقوة.

* * *

بعد خمس عشرة دقيقة عادت مرة أخرى، تدندن لنفسها في نشوة الطرب السرية حول لقائها بفابريس، ومع صعودها الدَّرَج، انطلقت في هدير طويل يشبه اللؤلؤ من الغناء، كما لو كانت تتعمد استفزاز بيتسي، التي كانت تمسح حجرة الطعام، وهي على وشك البكاء.

حينما عاد هِنْك إلى البيت في منتصف اليوم، أخبرته بيتسي بسلوك إيلينه غير المحتمل، لكنه كان قليل الصبر معها، ورفض أن يأخذ جانبها. ثارت ثائرة بيتسي، واتهمته بأنه ضعيف الشخصية، وخلقت مشكلة.

لمدة أسبوع كامل لا تتكلم الأختان بالكاد مع بعضهما، وهو ما أثار خوف هِنْك وفزعه كثيرًا، لأن نكدهما دَمَّر متعته بإحساس الراحة المنزلي، خاصة على الغداء، حيث كانوا يتناولون وجبات الطعام على عجل، بالرغم من ثرثرة إيلينه التي لا تتوقف معه ومع بِنْ.

١٢

خَطَر لفريدريك، في أثناء حفل عشاء عشية رأس السنة الجديدة في منزل عائلة فان رات، أن أوتو كان يتحدث ويضحك كثيرًا مع إيلينه؛ ليس بشكل ملحوظ، ولكن أكثر مما يفعل عادةً مع الشابات من معارفهم. ظلت تتساءل حول هذا الأمر لعدة أيام، لكن بدا أن الفرصة لطرحِ السؤال، الذي احتل المكانة الأولى في عقلها على أخيها لم تَحِنْ بعد. كان فظًّا وشديدًا مع إتيان حينما أراد أن يشارك نكتة معها، وكان قليل الصبر للعب مع الأطفال، وقالت عنه لي لي وماري پول أنه غدا أقل ملاطفة تمامًا في الآونة الأخيرة.

كانت واحدة من الأمسيات بالبيت؛ إتيان فقط هو من خرج مع بعض الأصدقاء. كان الصغار في فراشهم، وجلست مدام فان إرليفورت مع ماتيلدا في حجرة الرسم بجوار طاولة الشاي، انشغلت المدام بكتاب وماتيلدا ببعض شغل الإبرة. جاءت فريدريك، على وجهها ابتسامة، ثم صعدت إلى والدتها ومَلَّسَت بمحبة على الشعر الرمادي في فَوْديها.

سألت ماتيلدا: «فريدي، أيمكنكِ أن تدقي لڤيليم؟ أخبرني أوتو إنه يرغب في كوب من الشاي في حجرته؛ فهو يقوم ببعض العمل ولن ينزل إلا في وقت متأخر».

أجابت: «لِمَ لا تصببين له كوبًا فحسب، وأنا سوف آخذه للطابق العلوي له».

صَبَّت ماتيلدا الشاي، وأثناء صعود فريدريك للدَّرَج، وهى تحمل الكوب فكرت أن هذا قد يكون وقتًا مناسبًا لطرح سؤالها، رغم أنها كانت تُفَضِّل لو أنه بدأ الحديث بنفسه.

دخلت حجرة أوتو ووجدته يذرعها بجو من التشتت الشديد، كان محني الرأس ويداه مشبوكتان وراء ظهره، في موقف مناقض تمامًا لنشاطه المعهود.

«حسنٌ الآن، كم لطيف من أختي الصغيرة! قال ببشاشة، وأخذ الكوب منها، «سيكون طعمه أفضل عشر مرات لأن هذه الأيدي الجميلة قدمته لي».

صاحت فريدريك: «إخص عليك أوتو! كيف يمكن أن تكون مبتذلاً إلى هذا الحد! لا تخبرني أنك لا تستطيع أن تأتي بمجاملة أكثر ابتكارًا!».

ظلت تتبسم له، لكنها لم تدرك رده لأنها كانت مشغولة للغاية في التفكير مليًا في كيفية صياغة سؤالها بأفضل السبل. ففي نهاية الأمر، ربما يفهم قصدها خطأً. ولما حاولت، لم تستطع أن تفكر في أي طريقة سهلة وطائشة للدخول في الموضوع، ثم انطلقت فجأة بما أثار دهشتها عندما قالت:

«أوتو، أنا ... لدي أمر أود أن أقوله لك، شيء أريد الاعتراف به«.

«خطيئة؟».

«لا، ليست خطيئة، على الأقل لا أعتقد أنها كذلك؛ تصرف طائش ربما، ارتكبته ضدك عن طريق الخطأ. لكن أولاً يجب أن تقول إنك سوف تسامحني».

«دون أن أعرف علامَ؟».

«حسنٌ، لم يكن تصرفًا طائشًا متعمدًا؛ وإلى جانب ذلك، لم أكن طائشة كما كنت أود، لذلك يمكنك القول إنني حتى استحق مكافأة! لكن في الحقيقة، كل ما أطلبه هو أن تسامحني».

«حسنٌ إذن، سوف أكون رحيمًا معكِ. أخبريني بكل شيء عن ذلك الأمر».

«تعدني بألا تغضب؟».

«أعدكِ. استمري، أخبريني».

«كل ما في الأمر، بمحض الصدفة البحتة، حدث أنني عرفت من الذي ... كما تعلم، عشية عيد القديس نيكولاس ...».

تغير لونه قليلاً، وراقبها باهتمام، وكانت هى تعي تمامًا أنه منتبه إلى كل كلمة تفوهت بها.

«إذن أنا أعرف من الذي أرسل إلى إيلينه تلك المروحة ... المروحة البوتشي ...».

وقفت أمامه بجو طفلٍ يملؤه الشعور بالذنب، بالخزي والذل باعترافها، بينما حدق فيها هو نظره بعينين واسعتين وقلقتين.

«عرفتِ؟»، قالها متلعثمًا.

أومأت برأسها.

توسلت إليه: «يوه أرجوك، لا تغضب. لم يكن بيدي شيء بأمانة. ذهبت إلى حجرتك في صباح يوم ما لأنني كنت أريد أن اقترض شمع الختم الخاص بك. لم تمنعني مطلقًا من دخول حجرتك، أليس كذلك؟ طرقت الباب، لكنك لم تكن موجودًا هناك فدخلت، وبينما كنت أبحث عن الشمع على مكتبك تصادف أنني لاحظت العلبة الجلدية ملقاة في إحدى أركان الحجرة، ومن ثمَّ تعرفت عليها على الفور عندما رأيتها مرة أخرى في المساء. في البداية ظننت أنها قد تكون شيئًا ما لي، ولم أستطع مقاومة إلقاء نظرة سريعة عليها- تعرف كم أنا فضولية- لكنني لم أفعل لأنني شعرت بما يكفي من الاستياء لأنني اكتشفت هديتك. يا إلهي، أخشى أنك غاضب مني، لكن لم يكن باليد حيلة، أليس كذلك؟».

أجابها بخفة دم متكلفة،» غاضب؟ ولكن يا فتاتي العزيزة، لا شيء هناك لأغضب بشأنه! لقد كانت هدية مفاجأة، والمفاجآت لا تدوم إلى الأبد، أليس كذلك؟ لكني آمل ألا تكوني قد ذكرتِ ذلك لإيلينه».

«يوه لا، بالطبع لا».

«حسنٌ، ماذا في ذلك إذن؟ لم يحدث أي ضرر، قالها بلا مبالاة، «أم أنكِ شعرت بالأسى أن المروحة لم تكن مهداة لكِ؟».

رفعت كتفيها ازدراءً.

«أنا مندهشة من أنك تفكر أنني صبيانية إلى هذا الحد. فقط – ».

«ماذا الآن؟ ».

رفعت عينيها الصافيتين الخاليتين من المكر والدهاء إليه، وشعر هو بوخز طفيف من عدم الارتياح في ظل نظراتها المتفحصة.

«الموضوع هو أنني لا أستطيع أن أتخيل أن أي شاب يمكن أن يعطي مثل هذه الهدية الجميلة لفتاة إلا إذا كان مفتونًا بها كثيرًا».

«آه، ولكنني مغرم جدًا بإيلينه، فلِمَ لا أعطيها شيئًا بمناسبة عيد القديس نيكولاس؟ ».

«لا يا أوتو، أنت لست صريحًا معي!»، قالت بفارغ الصبر، وهى تجرّه إلى الأريكة. «تعال واجلس: أريدك أن تستمع إليّ للحظة. شاب رشيد ومتزن العقل مثلك لا يعطي فتاة مروحة يعلم الله كم تكلفتها ما لم يكن يحبها، مهما قلت. أنت لم تعط أي شيء لإيلينه من قبل، لم تعطِ أي شيء لــ لي لي أو ماري هذا العام أيضًا. أترى، أستطيع أن أخبرك بأن هناك شيئًا أكبر من ذلك في الموضوع!»، وقطعت كلامها فجأة ووضعت يديها على كتفيه.

ثم استطرت: «أم تظن أنني جريئة أكثر من اللازم؟ ربما تفضّل ألا تتحدث عن الموضوع ...».

«بالعكس يا عزيزتي فريدي»، رد عليها بلطف، وسحبها نحوه على الأريكة. «أنا سعيد جدًا أن أتحدث إليكِ عن إيلينه. لِمَ لا؟ ولكن لنفترض أنني أهتم كثيرًا بإيلينه، أما زلت تعتقدين بأنه تصرف أحمق ومتهور مني ... ؟ ».

«إذن فالموضوع صحيح– أنت تحب إيلينه؟ ».

قال وهو يبتسم: «تبدين مصدومة».

«آه، لكن إيلينه ليست النوع المناسب من الفتيات بالنسبة لك على الإطلاق!»، صاحت منفعلة: «لا يا أوتو، حقًا، إيلي لا تستحقك ولن تكون أبدًا.

أعلم بأنها جميلة وساحرة، لكن هناك شيء ما فيها أجد أنه، حسنٌ، أجد أنه غير مثير للتعاطف. جديًا، رغم ذلك، أرى أنك ستصنع خيرًا إن أخرجتها خارج تفكيرك. لا أعتقد أنكما يمكن أن تكونا سعيدين معًا في وقت من الأوقات. أنت طيب جدًا ولطيف، ولو وقعت بشدة في حبها فسوف تُسَلِّمُ لها نفسك جسدًا وروحًا، وسوف ترغب في أن تعمل كل شيء من أجلها، وفي المقابل ستعطيك أقل من عُشْر ما تعطيه لها. هى ليس عندها قلب، كل ما لديها هي الأنانية، أنانية باردة كالحجارة».

احتج بقوله: «ولكن يا فريدي، فريدي، كيف يمكنكِ أن تكوني متسرعة هكذا! ما الذي يجعلك تعتقدين أن لديكِ الخبرة الكافية عن الطبيعة البشرية لتعرفي بالضبط حال إيلينه؟».

جفلت من الطريقة، التي نطق بها اسم إيلينه، ببطء، كما لو كان يتذوقه.

«الطبيعة البشرية؟ لا أعلم شيئًا عن الطبيعة البشرية، كل ما أعرفه هو ما تقوله لي مشاعري، وهو أن إيلينه لا تهتم بأي أحد إلا نفسها، وأنها غير قادرة على القيام بأدنى تضحية لأي أحد. أشعر- لا، أكثر من ذلك: أنا مقتنعة تمامًا بأن زواجك من إيلينه لن يجعلك سعيدًا على المدى الطويل. قد تحبك لفترة سن الوقت، لكن ذلك سيظل بسبب الأنانية، الأنانية المحضة».

«كم أنتِ قاسية يا فريدي!»، غمغم موبخًا: «كم لطيف منكِ أن تكون اهتماماتي في القلب منك على هذا النحو، ولكنكِ قسوت جدًا على إيلينه. قسوتِ جدًا. لا أعتقد بأنكِ تعرفينها أساسًا، حقًا. شخصيًا أنا متأكد من نوع الفتيات اللاتي يمكن أن تقدم كل تضحية يمكن تصورها من أجل الشخص الذي تحبه».

«تقول إنني لا أعرفها حق المعرفة، لكن إلى أى مدى تعرفها أنت؟ أنت فقط تراها عندما لا ترى منها إلا الابتسامات والعذوبة».

«كيف يمكنكِ أن تلوميها لكونها فاتنة بدلاً من أن تكون غير مهذبة؟».

تنهدت فريدريك.

قالت بكل ثقة: «يوه يا أوتو، أنا لا أعرف ما أفكر فيه، كل ما أعرفه هو ما تقوله لي مشاعري: وهو أنك لن تكون أبدًا سعيدًا معها».

أخذ بيدها، وهو يبتسم.

«عجبًا، تتحدثين كما لو كنا سنتزوج غدًا».

«امم من فضلك قل لي، إذن- ولا تفكر في أنني أتطفل- ألم تتقدم لطلب يديها بالفعل، أليس كذلك؟».

تطلع في وجهها، وهو لا يزال مبتسمًا، وهزَّ رأسه ببطء.

«في تلك الحالة، أتمنى أن تفكر في الموضوع بعناية. فقط لا تغادر هكذا فجأة».

أراحت رأسها على كتفه، وبدأت الدموع تبرز من عينيها.

«أنتِ عزيزتي يا فريدي، لكن بصراحة-».

«لا بد أنك تظن أنه سخيف مني أن أحاول أن أخبرك بما عليك القيام به!».

«لا على الإطلاق. بالعكس، أنا أقدر قلقكِ واهتمامكِ كثيرًا جدًا. غير أنه لا يجب أن نحكم على أي شخص على أساس مجرد الشعور، عدم وجود التعاطف إن جاز التعبير- وهو ما لا أساس له من الصحة تمامًا على أية حال. لذلك يا أختي الصغيرة، كوني فتاة لطيفة، وخذي نصيحتي، وأنا لا أظن أنكِ سخيفة بأي شكل من الأشكال».

أخفت وجهها في كتفه وقَبَّلَها عدة مرات على جبينها.

«سوف تسامحني، أليس كذلك؟ حديثي معك كانت تعوزه اللباقة، لم يكن من حقي أن أتحدث إليك على هذا النحو».

«لكنني أحبكِ لأهم سبب، وهو كونكِ صادقة وصريحة معي، وأنا أعوّل عليكِ أن تستمري على هذا المنوال في المستقبل».

قالت بدلال: «عندئذٍ لن تظن إلا أنني غير مهذبة، ولست فاتنة على الإطلاق بكل تأكيد».

«الآن أنتِ حقودة بعض الشيء. أنتِ تغارين من إيلينه، أليس كذلك؟».

«نعم»، أجابت بصوت أجش.

قال ضاحكًا: «على أساس المروحة على ما أعتقد؟».

قالت منتحبة: «يوه، أنت تغيظني كثيرًا! لا، ليس بسبب ذلك- لدي عشرات من المراوح بالفعل- ولكن لأنك وقعت في حبها«.

«دعينا نعمل اتفاقًا إذن. اذهبي وابحثي عن فتاة لطيفة، والتي من شأنها أن تكون رفيقة مناسبة بالنسبة لي، فتاة لا تغارين منها وتروق لكِ، وعندما تجدينها، وإذا أحببتها أنا أيضًا، فلن أفكر في إيلينه مرة أخرى، فماذا تقولين؟».

لم ترد عليه، ووقفت تمسح الدموع من عينيها. شعرت بأنها جُرحت بسبب لهجته غير الجادة؛ ومن الواضح أنه لم يأخذها بجدية تمامًا. اقتربت من الطاولة، أشارت إلى كوب الشاي، وقالت:

«شايك سوف يبرد يا أوتو؛ سوف أشربه الآن لو كنت مكانك».

قبل أن يتمكن من الرد تسللت للخارج، تملؤها المشاعر المتناقضة- من جهة مرتاحة لأنها باحت بما كان يدور في عقلها وسعيدة بأنها اكتسبت ثقة أوتو، ومن جهة أخرى تتساءل إذا لم كان من الأفضل لها أن تمسك لسانها.

* * *

في الصباحات الخمسة الماضية لم ترَ إيلينه فابريس في أثناء تمشيتها، وأفسدت خيبة الأمل يومها بأكمله. في البداية كانت هادئة، معنوياتها منخفضة وسريعة الانفعال، لكنها ما لبثت أن صارت نكدة المزاج لدرجة أنها فقدت كل الرغبة في الغناء، وألغت موعدها مع روبرتس، مدرس الموسيقى الخاص بها، وأيضًا جلسة الغناء بعد ظهر الخميس مع پول فان رات. ذات مرة بعد عودتها من تمشيتها ذات صباح حوالي الساعة العاشرة والنصف في مزاج مستغرق في

الأفكار، جلست على أريكتها، ومالت إلى الوراء، وفكت أزرار عباءتها بأصابع فاترة. كانت صحبة بِنْ ثقيلة جدًا عليها، لذا أرسلته إلى روضة الأطفال من فورها. جالت عيناها العسليتان الكبيرتان، الرطبتان والمتألقتان بشوق لم يهدأ بتكاسل حول الحجرة، وسارت ببطء على المطبوعات على طول الجدران وأصص النخيل وتماثيل الكانوڤا الصغيرة. شعرت بأنها مكسوة بضباب من الجزع والقنوط، وسألت نفسها ماذا يمكن أن يكون الهدف من الحياة إذا كانت محرومة من كل سعادة، ولكي تمنح حزنها غير المتبلور شكلاً ما، بدأت تبحث عن شكاواها وتكدسها فوق بعضها: كان الحب هو ما تحتاجه، وها هي بلا أحد يحبها. كانت تجد صعوبة بصورة متزايدة في الانسجام مع بيتسي؛ إذ كانا يتشاجران كثيرًا، وفي معظم الأحيان حتى دون أن يكون خطؤها. بعد ذلك هناك فريدريك، التي كانت باردة بشكل ملحوظ معها، ولأي سبب ليس لديها أدنى فكرة، ورغم أن مدام فان رات بدت مفتونة بها إيما فتنة، لم تكن إيلينه نفسها في الآونة الأخيرة تراعي إظهار انفتاحها الساحر والباعث على الاحترام مما جعل السيدة العجوز تحبها. لم يكن ثمة هدف في حياتها، الطريقة التي انجرفت بها دون هدف من يوم إلى آخر، كانت تتوق إلى مثلٍ أعلى يلفه الغموض، حلم بدون قيد محدد إلا أنه مفعمٌ بنسجٍ من العاطفة والحب من الرفيع إلى العادي، من قمم الرومانسية المثالية إلى البهجة البسيطة والهادئة في البيت وأمام المدفئة.

تنهدت، رفعت يدها إلى شجرة الأراليا متدلية الأغصان، وكادت تسحق ورقة شجر بين أصابعها المتوترة أثناء محاولتها دفع خيالتها أن تأخذ شكلاً أكثر تحديدًا. فجأة، وعبر انحراف مفاجئ لأوهامها، رأت نفسها مع فابريس على خشبة المسرح في مدينة كبيرة. كانا يحبان بعضهما، مشهورين، وأمطرهما الناس بأكاليل وباقات الأزهار، في عين خيالها برز المشهد كاملاً كما لأنه برز في ذاك الوقت عندما كانت هي وپول يغنيان ثنائيات العشق تلك.

لكنها لم ترَ فابريس منذ وقت بعيد لدرجة أن وهمها المحروم من وجود انطباعات جديدة تعثر؛ وتبدد المشهد، تاركًا إياها في حالة ذهنية رمادية كئيبة

يبدو أنها انعكست على السماء بالخارج، التي كانت مثقلة بالغيوم الداكنة المحملة بالأمطار. شعرت بدموع ساخنة تنساب من على رموشها، ثم رغبة شديدة في صحبة هِنْك. على الأقل معه تستطيع أن تفرغ معاناتها؛ كان مخلصًا لها للغاية، بارعًا جدًا في تهدئتها بطريقته العطوفة الخرقاء- ورنين صوته وحده، العميق والدافيء جدًا، كان بمثابة البلسم لروحها.

بكت بهدوء، وفكرت كم هو كريه أن تكون هى وبيتسي على علاقة سيئة. في اليوم التالي، كان عيد ميلادها، عيد ميلاد إيلينه. هل ستقوم بيتسي باتخاذ الخطوة الأولى نحو المصالحة، أم كانت هى نفسها حقًا المسؤولة عن شجارهما الأخير؟ لو كانت متأكدة من رد فعل أختها، لعرضت بكل سرور أن تصل إلى سلام معها، أو حتى تعتذر لها إذا لزم الأمر، ولكنها كانت تخشى برود بيتسي، ولذلك سوف تنتظر؛ نعم، سوف تنتظر.

بدت ما بعد الظهيرة كأنها لا تنتهي، وطالت الساعات كما لو كانت مثقلة بكآبتها، بعد ذلك حان الوقت لكي ترتدي ملابسها لتناول العشاء مع عائلة هايدرخت، رغم أنه لم يكن لديها أدنى توقع بأن تجد أي تسلية هناك. تمنت لو تستطيع أن تطلب من بيتسي أن تقول إنها ليست على ما يرام وغير قادرة على الانضمام إليهم، لكن لا، هذا لن يفيد. بخلاف عائلة فرسترايتن، عائلة هايدرخت قد ينزعجون إذا عجزت عن الحضور، وبجانب ذلك، قد ترفض بيتسي مباشرة أن تفعل ما تطلبه منها، ولهذا ذهبت، بعد أن أعدت نفسها للدخول في روح المرح والدلال التي انطلت جميعًا بلا استثناء، ماهرة هي للغاية في اخفاء عواطفها.

***

كان اليوم التالي ٢٠ يناير، وعيد ميلاد إيلينه. ظلت في السرير لفترة أطول من المعتاد، تشد أطرافها وسط البطانيات الدافئة في وهج الستائر الأحمر الناعم، دون أدنى رغبة في النهوض، ولا حتى للذهاب لتمشيتها الصباحية، فهي لن تراه على أي حال، حتى لو خرجت- كانت تشعر بذلك ببصيرتها. بدأت الأوهام

الخرافية تحتشد في عقلها، وراهنت أن مينا لو جاءت لإعداد المكان، الذي تضع فيه إبريق غسيل يديها ووجهها قبل أن تدق الساعة التاسعة- كانت الآن قد اقتربت من التاسعة- فسوف ترى فابريس في الغابة غدًا، لكن مينا جاءت بعد الساعة التاسعة، وحينما غادرت مرة أخرى بعدما أعدت مستلزمات الغسيل نما لدى إيلينه وهم آخر: وهو أنها سترى فابريس إذا تركت أساورها على الصينية الكبيرة الليلة الماضية، لكن إذا تركتها على واحدة من الصينيات الصغيرة فلن تراه. نهضت، وأزاحت ستارة السرير الدمشقية الحمراء جانبًا وأنعمت النظر في منضدة زينتها. وجدت الأساور ملقاة على الصينية الكبيرة! واستكانت بابتسامة إلى وسائدها مرة أخرى.

فكرت أنه حان الوقت لأن تنهض من النوم، لكن لِمَ لا تظل في الفراش في الدفء المريح، ذلك أنها كانت منخفضة المعنويات للغاية، لِمَ تبدأ يومًا جديدًا؟ لن يمر وقت طويل حتى يأتي أصدقاؤها لتهنئتها، عليها أن تدير ابتساماتها وتتلقى هداياهم لعيد ميلادها بصيحات النشوة والإعجاب، لكن مزاجها لم يكن بأي حال من الأحوال قابلاً للتعديل، ولم تكن لديها الرغبة في رؤية أي أحد.

دقت الساعة العاشرة والنصف، فكرت في أن بيتسي كان يُفترض أن تظهر منذ فترة طويلة، ببضع كلمات ودودة لتصالحها بعد الشجار. أنصتت لوقع أقدام أختها على الدَّرَج، لكنها لم تسمع شيئًا، وأخيرًا، مثبطة الهمة لكونها منهكة جسديًا ونفسيًا، نهضت من الفراش ببطء وشرعت ترتدي ملابسها.

رأت وجهها في الزجاج ولاحظت نظرة حزينة في عينيها ولمحة من مرارة حول شفتيها، ورأت نفسها أنها قبيحة تقريبًا اليوم. ولكن ماذا في ذلك؟ من أجل مَنْ يجب أن تكون جميلة، على شرط أن لا أحد أحبها بأي شيء يشبه الولع، الذي تعرف أن قلبها قادر عليه؟

عندما انتهت أخيرًا من ارتداء ملابسها انتابتها هواجس. لو نزلت إلى الطابق السفلي الآن، كيف ينبغي أن تتعامل مع بيتسي؟ هل تتخذ موقفًا سلبيًا؟ لِمَ لَمْ

تقابلها بيتسي في منتصف الطريق؟ لِمَ استمرت تحمل الغلّ لفترة طويلة بشأن مثل هذا الموضوع التافه؟

فكرة رؤية بيتسي في حجرة الفطور ملأها بالذعر والريبة، ودخلت إلى حجرة نومها، حيث كانت المدفئة مضاءة من قبل وتشتعل بشكل زاهٍ. استرخت على أريكتها، وهي تشعر بأنه ينقصها شيء ومنبوذة. لماذا يا ربي لماذا تعيش؟

غاصت أعمق وأعمق في الجزع والقنوط، عندما جاءتها الإغاثة أخيرًا مع صوت هِنْك وبِنْ وهما يصعدان الدَّرَج. في الوقت الحالي كانا ينزلان، استطاعت أن تسمع صوتهما، ثم سُمِعَ صوت قَرْع مدوٍ على بابها.

صاح هِنْك: «أين أنتِ يا عزيزتي إيلينه، ألا تزالين في الفراش؟».

أجابت، وقد رفعت صوتها قليلاً، «لا، أنا هنا، في حجرة نومي!».

فُتِحَ الباب ليظهر هِنْك، يهز رأسه من جانب إلى آخر، بينما شقّ بِنْ، الذي أمسك بباقة أزهار في قبضته الصغيرة طريقه في الماضي للحاق بأبيه، الذي كان يرتدي أحذية ركوب الخيل.

«كل سنة وأنتِ طيبة يا خالتي! إليكِ، هذه من بِنْ!»، تلاها الولد الصغير المُدَرَّب جيدًا، وهو يرمي الأزهار بقوة في حِجْرها.

هتف هِنْك: «فتاتي العزيزة، كيف يمكنكِ أن تظلي محبوسة في حجرتكِ الخاصة طوال هذا الوقت؟ أنتِ عادة ما تعودين من تمشيتك في هذه الساعة!».

لم تقل أي تعليق، لم تفعل سوى أنها عانقت الطفل، قاومت نزول دموعها.

«ضعها في بعض الماء يا بِنْ، أنت ولد رائع؛ الماء الفاتر أفضل شيء. شكرًا لك، شكرًا لك، يا حبوب. هنا إذن، خذ المزهرية، كن حذرًا الآن».

انطلق بِنْ، الذي كان طيعًا أكثر من أي وقت آخر، بالمزهرية، يسابق ساقيّ أبيه مرة أخرى. عادت إيلينه بظهرها على الوسائد، وابتسمت لزوج أختها ابتسامة باهتة.

«لا أشعر بأنني على ما يرام مطلقًا هذا الصباح». قالت بفتور. اقترب منها

هِنْك، وهو يضع يديه على ظهره.

«ماذا، ليس على ما يرام في عيد ميلادك؟، سأل متهللاً: «هيا، هيا، حان الوقت لأن تنزلي إلى الطابق السفلي، أيتها الفتاة الكسول، ولكن اسمحي لي بأن أقبّلِكِ قبلة كبيرة أولاً! عيد ميلاد سعيد عزيزتي إيلينه!»، ضغط شفتيه على كل خدٍ من خديها على حدة، بينما ظلت هى ثابتة في مكانها، مبتسمة ابتسامة واهنة.

«وإليكِ شيء صغير لكِ يا إيلي. آمل أن يعجبكِ»، استطرد بالقول معطيًا إياها علبة صغيرة.

ضحكت ضحكة خفيفة.

«كم من المضحك أن تأتي، وتحضر لي هديتي إلى هنا! شكرًا لك يا هِنْك، شكرًا جزيلاً لك».

فتحت العلبة، ورأت دبوس شعر على شكل عنكبوت من الألماس.

صاحت: «ولكن هِنْك! كم تدللني! أذكر أنني رأيته في نافذة عرض محل فان كمپن منذ فترة، وأعلم بأنني ذكرت أنه أعجبني كثيرًا. أعتقد بأنني يجب أن أكون أكثر حذرًا بشأن ما أقول في المستقبل»، قالتها، وهى تشعر بلمسة من إحراج. كانت تفكر بمروحتها البوتشي.

أجاب: «عملت بيتسي على أن تتذكره في ذهنها وقتذاك. كلانا سعيد للغاية بأن نهديكِ شيئًا تحبينه».

حينما سمعت هذا شعرت تقريبًا بالضيق من هديتهما، لكنها ألقت ذراعيها حول عنقه وقَبَّلته على أي حال.

قالت متلعثمة: «حقًا، أنتَ تدللني!».

انفجر قائلاً: «يوه، ما هذا الخبل! لكن الآن عليّ أن أذهب لركوب الخيل. وأنتِ يجب أن تنزلي إلى الطابق السفلي يا عزيزتي، وإلا سوف أحملكِ إلى أسفل بنفسي».

«لا، لا، لن تفعل هذا!».

«حسنٌ إذن، لكن أسرعي، وإلا –».

«نعم، نعم، سأنزل بعد لحظة، ولكن لا أريد هراءً يا هِنْك، أتسمعني؟»، قالت بحزم وبشيء من التحذير، لأنها استطاعت أن ترى نية للدعابة والمرح من جانبه، وهى لم تكن في مزاجٍ للمزاح.

طمأنها ضاحكًا، وكان على طرف لسانه أن يقترح عليها التصالح مع زوجته، لكنه لم يستطع أن يفكر في وسيلة لبقة لإثارة الموضوع. قد تستشيط غضبًا، وبجانب ذلك، فكر أن الأمر كله سيعالج نفسه قريبًا جدًا، وغادر الحجرة.

على مضضٍ نهضت إيلينه من على الأريكة، اعتقادًا منها أن بيتسي لابد أنها قد أوعزت إلى هِنْك أن يأخذ الهدية إلى الطابق العلوي حتى لا تُضطر إلى أن تعطيها إياها بنفسها. فكرت كم صار الأمر صعبًا، وبات عليها الآن أن تتخذ الخطوة الأولى نحو صلح ما. كانت تلك ضربة لكبريائها. سيبدو الأمر كما لو كانت مسرورة بهديتهما لدرجة أن كل المشاعر السلبية نُسِيَت فورًا. كم هذا مزعج، لكنها ما زالت تستطيع أن تقول بالكاد صباح الخير، وتبدأ في تناول فطورها دون الإشارة إلى الهدية على الإطلاق. ندمت أنها لم تتبع غريزتها أمس لتحاول استرضاءها. يوه، كم هو أحمق كل ذلك الأمر، أن ينتهي بهما الموضوع هكذا، لا لشيء إلا بسبب تلك الكلاب!

وفي دافع من الخيلاء عَلَّقَت العنكبوت الماسيّ بهذه الطريقة وبتلك في شعرها، ثم في عنقها ...

* * *

قبل أن تنزل إلى الطابق السفلي فتحت إيلينه جزءًا من طاولة كتابتها، وبابتسامة خفية أخرجت الألبوم وفتحته. لم يكن يضم أي شيء إلا بورتريهات لفابريس في أوضاع وأزياء مختلفة، وهى التي كانت قد اشترتها على مدى فترة من الوقت بقدر كبير من الحذر والتوتر، الآن في محل ما، بعدها في آخر، ولا

تعود أبدًا إلى نفس المحل لئلا يخمن بائع المحل الذي يدور في عقلها. في إحدى المرات، عندما كانت في أمستردام طوال النهار لزيارة بعض الأصدقاء، كانت جريئة بشكل بارز: فقد اندفعت إلى محل لبيع الكتب بجو من اللامبالاة المتعجرفة، واشترت سبعة بورتريهات دفعة واحدة. لم يكن أحد هناك يعرف مَنْ هى على أي حال، وأخذت على نفسها عهدًا بألا تطأ أرض هذا المحل مرة أخرى طيلة حياتها.

أشرقت عيناها ببهجة عابرة بينما كانت تتفقد مجموعة صورها؛ في كل صفحة كانت ملامحه داكنة اللون واللحية السوداء تقابل نظراتها، وفي بعض تلك البورتريهات كان شكله بالضبط نفس الشكل عندما رأته في الغابة، وهو يرتدي قبعته ذات الملمس اللين وكوفيته. آه، ها هو ذا، ذلك الاندفاع العاطفي الأكثر حدة من الإعجاب بما لا يُبارى، أصابها مجرد عدم لياقة هذا الأمر بالنسبة لفتاة شابة في مكانتها برعشة خفيفة بطول عمودها الفقري. عَضَّت على شفتيها لما طالعت مظهره الذي تحبه؛ نعم، يمكنها أن تشعر بها الآن، الولع الذي ملأ عقلها مرة أخرى بالهناء والسعادة، العشق الذي من أجله سوف تبذل أية تضحية قد تُطْلَب منها ... منه.

مشهد رومانسي أشعل خيالها، الآن، وبعد أن ارتفعت معنوياتها إلى حد ما بفضل كلمات هِنْك المشجعة، وفي حرارة وهمها المتخيل رأت نفسها مع فابريس، في انتظار قطارهما في ذعر، خوفًا من أن يلاحقهما أحد.

صاح بِنْ من بسطة الدَّرَج: «خالتي، خالتي! اسمحي لي بالدخول!».

دَسَّت الألبوم بعيدًا عن الأنظار، وفتحت الباب. دخل بِنْ، وهو يحتضن المزهرية المملوءة بالمياه إلى صدره.

قالت إيلينه: «أحسنت، أيها الولد الشاطر! ولَمْ تسقط قطرة واحدة على الدَّرَج؟».

هزَّ رأسه من جانب إلى آخر، فخورًا بانجازه الذي توجب أن يشكر مينا

عليه. بدأ يضع الأزهار في المزهرية، وجال بخاطرها أن المبادرة بهدية الصبي الصغير أتت ولا شك من بيتسي أيضًا. كم كان مزعجًا كل هذا.

لكنها قَوَّت نفسها وتحركت بالنزول إلى أسفل الدَّرَج مع بِنْ. كانت بيتسي في حجرة الطعام، تصدر التعليمات لجريت.

قالت إيلينه: «صباح الخير، بيتسي».

قالت بيتسي، بدون عاطفة، «صباح الخير، إيلينه، عيد ميلاد سعيد اليوم!».

لم ترغب إيلينه في أن تقول أي شيء آخر في وجود إحدى الخادمات، وأخبرت جريت بأنه يمكنها أن تنصرف.

قالت، ولكي تخفي عدم ارتياحها تحولت إلى بِنْ وحاولت إضحاكه، «لن أتناول أي إفطار اليوم».

ظلت بيتسي، وهى تعطي ظهرها لها، منكبة على الفواتير والإيصالات على طاولتها المخصصة للكتابة بجو ربة المنزل التي تعرف واجباتها.

أعقب ذلك عدة ثوانٍ من الصمت الحرج، قطعتها لحظات توبيخ بيتسي لبِنْ لكونه يضيع وقته سدىً وأرسلته ليذهب إلى حجرة الأطفال، وبعدها نهضت إيلينه. عبرت الغرفة ووضعت يديها على كتفيّ أختها.

بدأت: «بيتسي».

لم تتمكن من إجبار نفسها على أن تقول أي شيء حتى الآن عن الهدية، العنكبوت الألماس.

«بيتسي العزيزة، أليس من الأفضل لو ...؟ لا أستطيع أن أخبرك كم أشعر بالأسف أننا وصلنا إلى هذا ... آه من فضلك لا تغضبي مني أي بعد الآن، كان خطأ مني».

«حسنٌ، إيلينه، يسرني أن أسمع أنكِ تعترفين بذلك، وأنا لستُ غاضبة منك».

«هل عدنا أصدقاء مجددًا إذن؟».

«ياه، بالطبع. تعلمين ليس هناك شيء أكرهه أكثر من الخلاف. أنا مع الصلح تمامًا. لذلك دعينا لا نتكلم في هذا الموضوع ثانية، ممكن؟».

كانت برودة نبرة كلامها كالجليد بالنسبة لإيلينه، لكنها مالت لتعطي بيتسي قُبْلة.

«لا، حقًا، أنا آسفة؛ وطبعًا لم يكن عندي أي حق في الوقوف ضد رغبتكِ في منزلك. أعتذر لكِ».

كان هناك شيء آخر أرادت أن تقوله، ولكنها لم تستطع أن تجد الكلمات، ومرة أخرى لثمت بشفتيها جبين أختها، ما جعل بيتسي تدفعها بعيدًا برفق.

«حسنٌ إذن، دعينا نهمل هذا الموضوع. أنا لم أعد غاضبة منك بعد الآن، لكن أرجوكِ توقفي عن تقبيلي، تعرفين أنني لا أحب ذلك».

* * *

قضت إيلينه عيد ميلادها في حالة ذهنية كئيبة، فالمصالحة مع بيتسي لم تمض كما كانت تتمنى؛ كانت تتوقع أن يكون هناك حنان أكثر، حضن من أخت لأختها، ربما دموع مشتركة، وبعدها سوف يستمران في صحبة ودودة لفترة طويلة من الزمن. لكن كان الواقع من جانب بيتسي لا يشكّل شيئًا سوى تعالٍ بارد كالجليد، والذي جعل مبادرتها تبدو هزيلة إلى حد ما. كانت تعرف نفسها بأنها الأضعف بينهما، إلا أنها لا تستطيع مقاومة اتخاذ موقف ضد بيتسي من وقت لآخر، لكن ومع كل فعل من أفعال التحدي، حتى إن أدى إلى انتصار مؤقت، فكانت تشعر أنها عاجزة بصورة متزايدة على مواصلة صراعها. كانت الظروف ضدها، ولم يكن آخر خلافاتهما إلا دليلاً آخر على تقلب كبريائها، الذي خذلها مرة أخرى، وألقى بغلالة قاتمة من السواد على أفكارها.

ورغم ذلك، أبقت على مظهر الابتهاج طوال بعد ظهيرة اليوم، وسط تهليل الأصدقاء أثناء مجيئهم ليعبروا لها عن أطيب الأمنيات. إلا أن مدام فان رات،

بعيونها الزرقاء الشاحبة المتأملة كانت سعيدة للغاية لأنها اكتشفت بصيصًا من تعاطف، وبعثت برسالة من خلال پول قائلة إنها تشعر بوعكة. كانت هذه خيبة أمل كبيرة بالنسبة لإيلينه، والتي لم تزدد عمقًا إلا عندما وصلت مدام فان إرليفورت وماتيلدا بالأخبار أن فريدي لن تتمكن من الزيارة لأنها أصيبت بنزلة برد، وتساءلت إيلينه مرة أخرى لِمَ بدأت فريدريك تنفر منها. تحدثت چين فيريلاين كثيرًا عن متاعبها المنزلية، لدرجة تطلب معها أن تحشد إيلينه كل الكياسة اللطيفة، التي تستطيع حشدها لئلا ينفد صبرها. لم تتخل عنها مدام فان رات فحسب، بل كاتو فان دير ستور أيضًا، وهى زائرة أخرى كانت تود أن تستقبلها، وفشلت في الظهور. الأسوأ من ذلك، يبدو أنها نست تمامًا أمر عيد الميلاد لأنها لم تقم حتى بإرسال رسالة. لحسن الحظ أن إميلي دي ڤوده حضرت، لتعرض روح دعابتها الطريفة التي تُكبت. أضاف هياجها لمسة من خفة وطيش على جو الصالونات الرسمي، حيث لم تكن قناديل الغاز أضيئت بَعْد، وحيث بدت التسقيفة المذهبة، ولمعان وسائد الساتان البنية الهاڤانا، وقماش الستائر الفاخر اللامع بالذهبي كأنها تتلاشى في الظلال، التي تزداد قتامة.

طلبت إميلي أن ترى هدايا إيلينه، ووُجّهت إلى طاولة جانبية تحمل أوان بيوتريه متنوعة وجميلة مرتبة حول سلة كبيرة مليئة بالفاكهة والأزهار.

«يا لها من سلة فاخرة!»، صاحت إميلي. «ثمار الخوخ والعنب والورود، كم هي جميلة! ممن، يا إيلي؟».

«من فنسنت. رائعة، أليس كذلك؟».

«أتمنى لو كان لدي أبناء عم رائعين مثلها!».

همست إيلينه: «صهٍ».

كان فنسنت دخل لتوه، وجالت عيناه، التي ضاقت قليلاً بحثًا عن المضيفة. استقبلته بيتسي، التي دائمًا ما تبدي حرصها في تعاملها مع ابن عمهما، بإظهار

مودتها المتحفظة المعتادة. شكرته إيلينه على هديته، وهي تضع يديه في يديها.

اعتذر عن الوصول في وقت متأخر للغاية؛ إذ كانت الساعة بالفعل الخامسة والربع، وبدأت عائلة فرسترايتن والآخرون في الاستئذان بالانصراف مع حلول المساء، بعدها جاء خيرارد ليضيء قناديل الغاز، ويغلق ضلف النوافذ ويشد الستائر.

سألت بيتسي: «فنسنت، سوف تبقى معنا لتناول العشاء، أليس كذلك؟».

لم تتخيل بيتسي مشهد قضاء أمسية مملة بالبيت. لم يدعهم أحد للذهاب إلى أي مكان، وبجانب ذلك، لم تفكر جيدًا في وضع خطط للخروج في يوم عيد ميلاد أختها حينما لم يكونا يتكلمان مع بعضهما. لما كان فنسنت أحد الأقارب المقربين، تمكنت بسهولة من توجيه دعوة غير رسمية دون إعطائه مهلة طويلة. فهو يستطيع الانخراط في الحديث عندما يكون حسن المزاج، على الأقل سيكون هناك وجه جديد على مائدة العشاء.

قَبِلَ فنسنت الدعوة بعبارة: «ياه، بكل سرور»، مقتضبة. هِنْك بعدما أعلن عزمه على التمشية، لم يرتدِ إلا قبعته وغادر البيت على عجل، وياقته مقلوبة ويداه في جيوبه. جاءت آنا المربية لتأتي ببِنْ، الذي كانت ذقنه ملطخة بالجيلي والكريمة بعد وليمة عيد الميلاد. اختفت بيتسي أيضًا بالطابق العلوي، تاركة إيلينه وفنسنت وحدهما في الصالون الفسيح، المتلألئ الآن بضوء قناديل الغاز.

«لنذهب ونجلس هناك»، قالت إيلينه، وتبعها فنسنت إلى حجرة الجلوس البنفسجية، إذ وزعت الثريّا الكريستالية الصغيرة وهجًا ناعمًا دعا للألفة والبوح بالأسرار، لكنها كانت بالنسبة لفنسنت مجرد حجرة تتنفس جوًا من الرفاهية والاسترخاء، وبتنهيدةٍ هوى جالسًا على الأريكة. شرع بأسلوبه الارتجالي اللامبالي المعتاد في الاستفسار عن الضيوف، الذين رآهم يغادرون البيت، وبينما كانت ترد على سؤاله، شعرت بقدر عظيم من التعاطف مع ابن عمها يتزايد داخلها. كانت تلك الحاجة مرة أخرى، التي تنبع من ولعها بفابريس،

تلك الرغبة في أن تغرق في الحب، أن تحاط بها من جميع الجوانب، وأن تمنحها للآخرين. ومثلما خَطَر لپول لدى رؤيته للوهج الشاحب لأحد مصابيح البارافين، كذلك خَطَر الآن لإيلينه تحت ضوء قناديل الغاز المتلألئة، التي تلمع على الحليات الكريستالية- فنسنت يشبه والدها الحبيب الراحل شبهًا لافتًا للنظر، وواضحًا لأن ينقلها في الزمن إلى طفولتها، عندما كان والدها يميل إلى الوراء بنفس الطريقة تمامًا كما يفعل فنسنت الآن، بنفس التعبير، الذي يوحي بالألم حول فمه، نفس العينين المُعبّرتين، اللتين تتأملان مشهدًا فنيًا عَصيًّا على المنال؛ حتى اليد المُعَلّقة بارتخاء على الجانب تمامًا كيد والدها حينما يدع الفرشاة تنزلق من أصابعه على الأرضية.

شعرت إيلينه بتعاطفها مع فنسنت يدوّي بالشفقة، ووجع الرأس الشعري أثناء استماعها لذكرياته، التي غمغم بها عن سميرنا، وهي تفكر كم كان شيقًا، أكثر بكثير من شبان آخرين من معارفها؛ وكم كان محقًّا عندما نَعَت الحياة في لاهاي بأنها بسيطة وكئيبة، وإلى أي مدىً فهمت رغبته في آفاق أوسع، ياه، لو أنها كانت فقط، أيضًا، تستطيع أن ...

«لكنني لا بد أنني جعلتكِ تملين من كل هذا الكلام عن الأشياء التي لا تعجبني»، واستطرد بلهجة متغيرة، «كما أنه ليس من الذوق من جانبي».

«ياه، لا مطلقًا، أنتَ لا تصيبني بالملل بأقل شيء!»، سارعت بالرد، بلمسة من فزع أن يقطع حبل، وهمها الخيالي فجأة هكذا. وتساءلت، وهي تلوّح بذراعيها كما لو كانت طائرًا في قفص يرفرف بجناحيه، «أتعتقد أنني لا أستطيع أن أتصور كيف تشعر بالضبط، كراهية روتين نفس الشيء، الذي تقوم به يومًا وراء آخر، الدوران بلا نهاية في دوائر نعرفها جميعًا؟ أحيانًا أتمنى لو استطعت أن أبتعد بنفسي عن كل شيء! أحيانًا أشعر بميل شديد لأن أفعل شيئًا صادمًا!»، وابتسمت ابتسامة سرية لما جال فابريس بفكرها.

ردّ على ابتسامتها بابتسامة، وهزّ رأسه، وصل إليها ليربّت على يدها المرفوعة، بعدها هبطت برشاقة إلى جانبها.

سألها: «لماذا تريدين أن تفعلي شيئًا صادمًا؟».

«أنت تبالغين. فقط أن تعيشي حياتكِ الخاصة دون الاعتماد على الآخرين، ألا تكترثي بما يتوقعه المجتمع منكِ، بل تتبعين إرادتكِ الحرة طالما كانت معقولة، أن تغيّري الأماكن المحيطة بكِ كلما رغبتِ في ذلك- ذلك هو هدفي الأسمى. ليس هناك شيء كالتغيير لكي تحتفظي بشبابكِ».

«ولكن أن تكون مستقلاً، وأن تفعل بالضبط كما يحلو لك ... هذا يحتاج إلى قدر من الشجاعة الأخلاقية أكبر مما يمتلكه غالبيتنا في مجتمعنا المفرط في الأدب والتهذيب هذا»، أجابت، وهي مسرورة إلى حد ما بالنقلة الإبيقورية- الفلسفية، التي اتخذتها محادثتهما.

قال بحزم: «الشجاعة الأخلاقية؟ لا، كل ما تحتاجينه هو المال! لو كنتُ غنيًا، وحسن الخلق، ولا أفعل شيئًا صادمًا أو مشينًا، وأحافظ على الظهور أمام أعين العالم، فسوف يكون بمقدوري تحقيق هدفي الأسمى دون أن يتهمني أي أحد بأي شيء أسوأ من، مثلاً، أنني غريب الأطوار بعض الشيء».

كان هذا واقعيًا للغاية، ومبتذلاً للغاية بالنسبة لطريقتها في التفكير، وردَّت بفرض رؤيتها الأكثر رومانسية.

«حسنٌ، نعم، المال ... بالطبع!»، استأنفت القول، رافضة حجته ببراعة أنثوية، «ولكن إن لم تكن قويًا بما يكفي لاتباع إرادتك، ستجد نفسك مرة أخرى، وعدتَ إلى نفس الروتين القديم قبل أن تدري. ولهذا السبب»- اضطر لأن يبتسم لافتقارها الجذاب للمنطق - ولهذا السبب أود كثيرًا أن أفعل شيئًا صادمًا، كما تعلم، شيئًا لم يُسمع به من قبل. شخصيًا، أشعر بأنني قوية بما يكفي لأني أفعل ما تمليه عليه رغبتي مهما قد يقوله الناس، في الواقع أشعر أحيانًا بأنني متهورة جدًا».

فَتَنته الحرارة والحماسة في عينيها المشرقتين بينما كانت تزدهي بتحديها الجامح، ودعاه بنيانها الرشيق والنحيل إلى التفكير في فراشة تستعد للرحيل بعيدًا.

ضحك ضحكة مكتومة، ولكن إيلينه! أيّا كان الذي تفكرين فيه؟ ما الذي من شأنه أن تكوني متهورة بما يكفي للقيام به؟ هيّا اعترفي، أيتها الفتاة الشقية!».

ضحكت.

«آاه، أن تهربي، على أقل تقدير!».

«معي؟».

«لِمَ لا؟ لكنني أخشى أن تتركني لإعالة نفسي بعد مدة قصيرة، سوف تعتقد بأني رفيقة مكلفة للغاية، وسوف أعود من حيث بدأت بخفيّ حُنين. حتى لو كان المقصود من ذلك مجرد دعوة، فأنا ممتنة كثيرًا، لكنني أفضّل أن أنتظر عريسًا غنيًا».

«لا كوخ خشبي إذن، في ضوء القمر؟».

«يوه يا فنسنت، كم هذا ممل! أبدًا! سوف أموت من الملل. خذ هذه عندك، أنا أفضّل أن أكون ممثلة ... وأهرب مع ممثل».

تألقت بالمرح الشيطاني والشعور بالأهمية، مغتبطة بحلمها السري مع فابريس، وتطلعت في عينيّ فنسنت بجرأة- فهو لن يخمن ما الذي كانت تفكر فيه على أي حال.

ضحك بحرارة؛ الحيوية، التي حلت محل أناقتها الواهنة في أثناء حديثهما، مصحوبة بالإشعاع في عينيها اللوزيتين والطريقة التي ظلّت تربّت بها على ركبتها بنفاد صبر لعوب، سلته أكثر مما كانت تقوله بالفعل، وإلى جانب ذلك، ضربت كلماتها على وتر حساس لديه: كانت رغبتها العميقة في التغيير تشبه كثيرًا رغبته. نظرا إلى بعضهما لمدة لحظة طويلة، وابتسما، وكان لنعومة نظرته الشاحبة، التي تغلغلت داخلها تأثير ساحر كما لو كانت نظرة من أفعى.

«كم ذلك مدهش، فهو يشبه تمامًا حبيبي بابا، كم هو مدهش للغاية!»، فكرت، متأملة في التعاطف، الذي شعرت به نحو فنسنت أثناء نهوضهما استجابة لجرس استدعائهما إلى حجرة الطعام.

١٣

ظلت مدام فرسترايتن بالبيت مع لي لي، التي كانت مصابة بنزلة برد قوية، بينما انطلقت ماري وفريدريك للخروج مع پول وإتيان، وزلاجاتهم تتدلى من فوق أكتافهم، إلى حلبة التزلج على الجليد في طريق فان ميدريفورت. كان مستر فرسترايتن يقرأ كتابًا في البيت الزجاجي الدافئ المُحاط بمساحات خضراء لامعة من أصص النخيل والأراليا. كانت لي لي منحرفة المزاج، إذ كانت ترد على ملاحظات أمها العارضة بكلماتٍ مقتضبة فاترة تتخللها محاولات شجاعة لقمع سعالها. كانت قد أعلنت لنفسها أنها تعافت تمامًا، وأن كونها محبوسة في البيت هكذا لن يفيدها في شيء، ولذلك عزمت على الخروج مرة أخرى في غضون يوم أو يومين. لما نظرت من النافذة شاهدت الحديقة، وبدت سيبيرية بصورة مؤكدة، مع الثلج الأبيض الهش، الذي يحيط بالشجيرات والأشجار، والمسارات، التي لم تطأها قدم تشبه ألواح الرخام المصقول. ركزت مدام فرسترايتن على شغلها للكروشيه، وأدت حركات الإبرة السريعة، وهى تشغل الصوف في هيئة نسيج مكون من عُقَد إلى الضغط على أعصاب لي لي، كما فعل الصوت العادي، الذي كان بعيدًا قليلاً لوالدها، وهو يقلّب صفحة أخرى. هى نفسها لم تكن تفعل شيئًا، إذ ألقت يديها خاملتين في حِجْرها، وبينما كانت تستمتع عادة بقضاء بعد الظهيرة في خمول لذيذ، فهى الآن تشعر بالملل بدرجة تدفع على الغيظ الشديد.

في السر حسدت فريدي وماري على صحتهما الجيدة ومعنوياتهما المرتفعة، بينما كانت هى لا تزال في فترة النقاهة، وملزمة بتغطية نفسها جيدًا ضد أقل تيار هوائي. غير أنه عندما كانت أختها مترددة في مرافقة فريدي وإتيان

في النزهة، لي لي نفسها حثها على أن تأخذ زلاجاتها وتذهب؛ حيث لم يمكن متوقعًا بقاء ماري معها طوال الوقت في أثناء مرضها، وبجانب ذلك، كانت لديها ماما لتكون بصحبتها.

أفلتت منها تنهيدة، وأخذت حبة دواء للسعال من طبق الحلويات. اختلست مدام فرسترايتن النظر إليها بطرف عينها، لكنها لم تُعَلِّق، لأنها تعرف أن لي لي عندما تكون في حالتها المزاجية الحادة لن تفعل سوى أن تبرطم فقط على ما قد تبديه أمها من رعاية وعناية.

مرت فترة بعد الظهيرة ببطء، دون أن يخفف أي من الزوار حالة الملل العام أو مزاج لي لي المتجهم وقليل الكلام، إلى أن صارت الساعة تمام الرابعة، وقرع جرس الباب. بعد لحظة ظهر جورج دي ڤوده، ومرة أخرى انزعجت لي لي، هذه المرة لأن دين لم تفكر في الإعلان عن وجوده أولاً قبل اصطحابه إلى الصالون- لم يكن الأمر كما لو كان جورج صديقًا حميمًا للأسرة بعد كل شيء. في الوقت، الذي صافح فيه أمها، استقبلته هي ببرود نوعًا ما مع التلويح بيدها ببلادة، ولم يكن في عجلة من أمره ليتابعها عندما قادته أمها إلى البيت الزجاجي للقاء أبيها، ولم تأتِ لي لي إلا عندما كان الثلاثة جالسين بالفعل، وسحبت كرسيًا من الخيزران بشيء من الحركة المتعمدة، كما لو أنها تقول إنها لم تُسَرَّ برؤيته تحديدًا وإنها ما انضمت إليهم إلا لأنه لو لم تفعل سيُعَدُّ ذلك سلوكًا غير مهذب. عندما تفوّه بالكلمات الأولى، التي وجهها إلى أبويها تطلعت بعيدًا، متظاهرة أن الحديقة شكّلت نقطة اهتمام لها أكثر من حديثهم. سألته مدام فرسترايتن عن برلين، حيث عُيِّن لمدة ثلاثة أشهر، لكنه أجاب في عجالة، تحوّل إلى لي لي أو كاد، وشرع في الاستفسار عن صحتها؛ وما لو كانت مريضة بشكل مثير للقلق؟ غمغمت لي لي باستخفاف، وتركت لمامتها الرد بالمزيد من التفاصيل، لكن ما صدمها أنه طرح سؤاله باهتمام معين، ليس رسميًا على الإطلاق، بل بلهجة قلق حقيقي على صحتها. ما الذي يهمه إذا كانت مريضة أم لا؟ لكنه لم يبدُ أنه لاحظ برودها، واستطرد في سرد روايته

المليئة بالحيوية عن الحياة في برلين مستجيبًا بأسلوبه المحبب المعتاد لمداخلات مضيفيه. ظلَّ يختلس نظرات خاطفة إلى لي لي، كما لو كان يرغب في أن يجرّها إلى المحادثة، ومن باب المجاملة كانت تبتسم ابتسامة خفيفة بين الفينة والأخرى، أو تطرح سؤالاً فارغًا. فكرت كم كان ثرثرًا، متذكرة في مناسبات سابقة عندما رأت أن كلامه مثير للإزعاج. في اللحظة التالية شعرت بأنها كانت ظالمة. كان كثير الكلام، هذا صحيح، لكن حديثه كان ودودًا وجالبًا للألفة، وبلا شك تحوّل مُرَحَّبٌ به بعد فترة بعد ظهيرة مملة قضتها، وهي تشاهد أمها تشتغل بإبرة الكروشيه. لم يكن أسلوب كلامه سيئًا، ربما متسرعًا قليلاً، ولكنه ليس مملاً، والآن وقد بدأت تفكر فيه، لم يكن حديثه متكلفًا على الإطلاق أيضًا. ربما كانت نبرته مدروسة بعض الشيء، لكن كان ذلك كل شيء؛ كانت حركات جسده بسيطة، وكان لصوته المهذب جَرْسٌ صادق بلطف، أما بالنسبة للباسه، فقد كان أنيقًا جدًا، تقريبًا غاية في الأناقة، حقًا، لكن على الأقل لم يكن صارخًا؛ كان ينبغي عليها أن تعطيه ذلك.

استمر في الدردشة ردًا على استفسارات مستر فرسترايتن فيما يتعلق بوظيفته، وبينما كانت تشاهده لمعت ابتسامتها دون قصد منها، وهو ما لم يَفُتْه الانتباه إليه، حتى إنه غامر بالعودة إلى سؤاله السابق: هل تشعر بتحسن، وهل ستتعافى قريبًا بالقدر الكافي الذي يسمح لها بالخروج؟ فكرت مرة أخرى ما الذي قد يهمه، وهي في ضيق تقريبًا؛ كان بالفعل قد سأل على صحتها من قبل- من قبيل التأدب بكل تأكيد، ورغم كل ما سبق، هذه المرة رَدَّت عليه بنفسها، قائلة إنها لم تعد تسعل- كذبت كلماتها على الفور سعلة قصيرة- وأنها تشعر بأنها أفضل بكثير جدًا بفضل رعاية ماما وماري الجيدة. قال إنه سعيد لسماع ذلك، ولكنه لاحظ خشونة في حلقها، وكان يوشك أن ينصحها بالمكوث في البيت طالما ظل الطقس البارد مستمرًا عندما فكَّر في ذلك، ربما قد تراه جريئًا للغاية، لذلك سأل عن ماري بدلاً منها.

ردت لي لي: «آه، إنها على خير ما يرام. لقد ذهبت للتزلج مع فريدريك وإتيان وپول. ألا تشعر بالأسف لي، واضطررت للبقاء في البيت مرة أخرى، وحدي تمامًا؟».

«أهذا خيبة أمل كبيرة بالنسبة لكِ؟ هل أنتِ مولعة بالتزلج على الجليد؟».

«نعم، يعني أنني أستمتع به، ولكنني لست ماهرة جدًا في تلك اللعبة لأكون صادقة. ماري وفريدي يتزلجان أفضل مني بكثير، فهما يدوران بسرعة بينما أتمايل وأنا أرتعش؛ أنا أخاف للغاية كما ترى».

«وماذا عن پول وإتيان، ألا يساعدانكِ؟».

«آه، پول يقول إنه من غير الممتع التزلج مع شخص لا يمكنه التزلج بشكل صحيح، وإتيان أيضًا، يتحملني أحيانًا لمدة خمس دقائق».

اعترضت والدتها: «لكن يا لي لي، إذا كنتِ لا تستطيعين التزلج فلن يكون الأمر ممتعًا كثيرًا بالنسبة للآخرين، أليس كذلك؟».

استدرك والدها: «أعتقد بأنني كنتُ أكثر شهامة على أيامي».

قالت لي لي، وسعلت مرة أخرى، «يوه، أنا لا أتهمهم بأي شيء، فقط أسرد حقيقة!».

«لكن بمجرد أن تستردي عافيتك تمامًا، وعندما تكونين بصحة جيدة بما يكفي للخروج»، استأنف جورج، مترددًا، ذلك أنه كان يعرف أنه يقتنص فرصة، «أتسمحين لي بأن أقدم لكِ بعض المساعدة على الجليد يومًا ما؟ أنا أقضي معظم وقتي في مكتبي، ولكن –».

صاحت لي لي»: أنت تتزلج إذن؟»، لم تكن لتظن فيه هذا الشيء على الإطلاق.

قال: «آه، نعم، أنا متزلج قوي! أتقبلين؟».

احمرت خجلاً تقريبًا، وهي تبتسم وتخفض عينيها.

«ياه، بسرور، نعم حقًا، ولكنني سأكون عبئًا لا يُحتمل بالنسبة لك. فأنا خائفة دائمًا، ودائمًا أسمع الجليد، وهو يتشقق تحتي. أخشى أنك لا تعرف الأمر، الذي تُقحم نفسك فيه».

رد بحسم: «آه نعم أعرف، أنا متأكد أنني لن أندم أبدًا على أنني سألتكِ».

أُعجبت لي لي بكيف بدا دافئًا وصادقًا، ولم تستطع أن تفكِّر في أي شيء تقوله، ولذلك تبسمت فقط. كانت هناك فترة هدوء قصيرة في المحادثة، وفي ظل الظروف العادية قد يدفع هذا بجورج لأن يستأذن بالانصراف، لكنه بدلاً من ذلك مكث، وطرح موضوعًا جديدًا، كما لو كان لديه قدرٌ غير محدد من الوقت، وواصل تدفق كلماته حتى وصل أخ لي لي يان إلى البيت من المدرسة دامًّا كتبه تحت ذراعه، وبحلول تلك الساعة كان الظلام قد بدأ الحلول بالفعل. نهض جورج في النهاية، معتذرًا عن مكوثه فترة أطول من مدة الترحيب به.

قال مستر فرسترايتن: «لا على الإطلاق، بل على العكس تمامًا! لقد كان من دواعي سروري أن أراك مرة أخرى. انقل تحياتي لأبيك ولأختكم اللطيفة».

وأضافت مدام فرسترايتن: «قالت إيميلي إنها لم تستطع العيش بدونك! لا بد أنها سعيدة جدًا لأن تعود إليها مرة أخرى».

وجدت لي لي نفسها تفكر أنه نعم، يمكن أن ترى لِمَ سوف تفتقد إيميلي صحبة جورج، ومدت يدها في تأنق مرة أخرى وشكرته على دعوته.

«رجلٌ لا بأس به، الشاب دي ڤوده!»، قال مستر فرسترايتن عندما غادر جورج. عادت لي لي إلى حجرة الرسم تمامًا في الوقت، الذي سمعت فيه ماماتها تتفق مع والدها أنه كان بالفعل شابًا أنيقًا للغاية.

«إنه يزورنا بانتظام في هذه الأيام، ولكنني أجرؤ على القول إننا لن نراه كثيرًا إن لم يكن من أجل البنات».

لم تسمع لي لي أكثر من ذلك؛ ابتسمت لوهمها المتخيل الخاص، لأنها رأت نفسها مع جورج، يتزحلقان على الجليد، وهما يشبكان ذراعيهما

ويمسكان بأيديهما.

* * *

جاءت ماري إلى البيت برفقة فريدي وپول وإتيان، اللذيْن استأذنا في الانصراف عند الباب. كانت تشعر بالإرهاق والبرد، بخديّن أحمرين وعينين مشرقتين. لقد كانت خروجة رائعة، حيث شاهدوا العديد من الأصدقاء على الجليد، من بينهم بنات إيخوف وإيلينه التي جاءت مع هِنْك.

علقت مدام فرسترايتن: «زارنا دي ڤوده في وقت سابق. لقد عاد مرة أخرى لمدة ثلاثة أيام».

قالت ماري بلا مبالاة، وبدأت تفك معطفها القصير،» أوه، حقًا؟».

«ودعاني للذهاب للتزلج معه، في أقرب وقت أشعر فيه بأنني أحسن»، أفضت لي لي، بخجل تقريبًا. وسعلت سعلة خفيفة.

حدقت ماري في أختها في دهشة.

«دي ڤوده؟ معكِ؟ وماذا قلتِ؟».

«قلتُ إنه لطيف منه جدًا أن يطلب ذلك، طبعًا. ماذا عساني أن أقول غير ذلك؟».

ضحكت ماري من فورها.

«أنتِ ذاهبة للتزلج مع دي ڤوده؟ لي لي، كيف يمكنكِ ذلك؟ أظن أنكِ قلتِ إنه غندور ممل، وأنكِ لا تطيقينه».

«حسنٌ، قال إنه سوف يساعدني على التزلج. على الأقل هو أكثر شهامة من پول وإتيان».

ضحكت ماري: «ولكنه لا يستطيع حتى التزلج!».

«رغم أنه يقول إنه قوي جدًا».

«ياه، لا تصدقي ذلك. إنه يتظاهر فحسب».

تجاهلتها لي لي بنفاد صبر.

«لا أرى سببًا يجعله يتظاهر بهذا الشأن».

«عزيزتي، كيف تقفزين للدفاع عنه! وأنتِ كنتِ لا تطيقينه من قبل!».

«كنت دائمًا أرى أنه ودود للغاية، ومهذب ...».

«لي لي، كيف يمكنكِ أن تقولي مثل هذه الأكاذيب السافرة! كنتِ ترين أنه لا يُطاق!».

صاحت لي لي، بتضرع تقريبًا، «ولكن يا ماري، هذا ليس سببًا لعدم الذهاب للتزلج معه. عندما تذهبين إلى حفل راقص ترقصين مع أناس آخرين إلى جانب حبيبكِ الغندور، أليس كذلك؟».

قالت ماري مستهزئة: «ومع ذلك، لا أكاد أعرف ماذا أقول. اذهبا للتزلج معًا، بهذه الطريقة تمامًا! وماذا عن ماما، هل وافقت؟».

تحولت لي لي بعيدًا بازدراء من يبدي الكبرياء.

«لا تكوني طفولية»، كان هذا كل ما قالته، وهي تنظر بازدراء إلى أختها، وشعرت بالفزع لأن تشعر بحمرة الخجل مرة أخرى - بلا سبب، في نهاية الأمر.

* * *

سأل جورج، وهو يدخل حجرة جلوس إيميلي بعد العشاء في ذاك المساء: «هل بابا نائم؟».

أجفلت إيميلي قليلاً. كانت قد تراجعت، وهي جالسة على كرسيها المريح بجوار الموقد، تشعر بآثار مأدبة عامرة.

قالت، وهي تغمز، «نعم، بابا نائم».

ضحك جورج.

قال ليغيظها: «وأنتِ يا إيميلي، هل نعستِ كذلك؟».

ردت إيميلي بروح دعابة جيدة مشابهة. أكدت له لا، لم تكن نائمة، فقط تأخذ قسطًا من الراحة. هل سيبقى جورج لتناول الشاي معها؟ سوف تستمتع بذلك لو فعل.

شعرت بنوع من الحب الأمومي نحو أخيها الأصغر منها بكثير، والذي كانت ترعاه وتحبه حبًا جارفًا منذ طفولته المبكرة، والذي عاد الآن تحت جناحيها بعد شهورٍ قضاها بالخارج. لاحظت بارتياح أنه يبدو بصحة جيدة، بل حتى زاد وزنه قليلاً، وسعدت بأن تتبين رجولة جديدة في ملامحه الجذابة- أم أنها ببساطة عجزت أن تنتبه إليها قبل أن يرحل؟

جلس جورج بجانبها، وبدآ الدردشة حول هذا وذاك. اعتقدت بأنها تعرفه جيدًا، وأنها يمكن أن تشعر بأنه لديه شيء ما يريد أن يطلبه منها. كانت مسرورة داخليًا بهذا، لكنه غير لائق بما يكفي لأن يجبره على طرح الموضوع دون أي مساعدة من جانبها. راوغ لمدة طويلة، لكن إجاباتها المحسوبة لم تبعث الثقة بداخله، وقرر تأجيل الفضفضة بما لديه. فجأة، وبلهجة متغيرة، وأكثر حزمًا، قدَّم ملاحظة تافهة إلى حد ما، عندها ندمت على لامبالاتها المزعومة وفكرت في طريقة ما لإغرائه بالكلام، لكنها لم تستطع التفكير في أي شيء لبق، لذلك سألته في النهاية بشكل مباشر:

«أقول لك يا جورج، ما الذي يدور بعقلك؟ ما الذي كنت تريد أن تقوله لي؟».

الآن جاء دوره في التظاهر، وباستغراب مصطنع ردد قائلاً:

«أقول لكِ؟ ماذا تقصدين؟».

«آه، لا أعرف، مجرد شعور لديّ. لا بد أن تكون تجعيدة شاربك!»، ردت ساخرة: «لكن على محمل الجد، أهناك شيء مهم؟ أمور مالية ربما؟».

لكنها كانت تعرف أفضل: لم يكن المال يشكل أي مشكلة بالنسبة له، ولم يكن كذلك؛ كان حريصًا ودقيقًا فيما يتعلق بالأمور المالية لدرجة أنها بعدما

تولت مسؤولية إدارة كل شؤون والدهما المسن لم تقابل مطلقًا أدنى سبب لتعدل عليه. ابتسم جورج وهز رأسه، ولكنه لم يقل شيئًا. أيمكن أن يكون الأمر الذي بين أيدينا ثقيلاً لدرجة تمنعه من الكلام، قالت مازحة: «ثرثارًا مثله؟».

أجاب: «لا، لا ، لا شيء. علاوة على ذلك، تعرفين أنهم يقولون - السكوت من ذهب وما إلى ذلك».

«أتوسل إليك يا جورج، لا تكن خجولاً معي! إن كان لديك ما تريد أن تقوله أو تطلبه، رجاء أخبرني به أو اطلبه مني، ولا تنمق الكلام من فضلك، تعلم أنه لا ضرورة لذلك تمامًا معي!»، ردت عليه لائمة تقريبًا، لكن بقدر كبير من التشجيع الدافئ في نبرتها مما دفعه لأن يأخذ يدها البيضاء الكبيرة ورفعها بشهامة مرحة إلى شفتيه.

«الآن إذن، أخرج بالسر!»، أصرت إيميلي، وعالجته بضربة خفيفة تحت الذقن بظهر اليد التي قَبَّلَها لتوه.

لا فرصة للتراجع الآن، واستحضر الشجاعة كي يتكلم، ببطء في البداية، وبجمل مفككة، لكن مسألته ما لبثت أن استجمعت زخمها وقوتها. هناك وظيفته، التي ينبغي أن يفكر فيها بالطبع، لكن هل ستظن أنه بالغباء الشديد أن يفكر في ... الزواج؟ اعترت صوته رعشة، كما لو كان مصيره متوقفًا على إجابتها.

أخذتها كلماته على حين غِرّة، لأنه، ورغم أنه يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا كانت لا تزال تعتبره ولدها الصغير، وطفلها المدلل، وها هو ذا، يفكر في الزواج! لكنها تعرف أيضًا أنه كبير وعاقل تحت قشرة خفيفة من التكلف؛ فهو لن يطلب رأيها ما لم يدرس في الأمر مليًا من قبل، ولم ترغب في أن تؤذي مشاعره بالكلام بنبرة استخفاف. إلا أنها شعرت بوخزة خطر عندما فكرت بأنه عاجلاً أم آجلاً سيفارقها.

«الزواج! جورج، هل أنت جاد؟».

ابتسم ابتسامة سرية، كما لو كان مستغرقًا في رؤية شيء ما ساحر.

قال وصوته يغرق في الهمس: «لِمَ لا؟».

«هل أنت ... هل أنت إذن ... غارق في الحب؟»، سألته بصوت مسموع بالكاد، «أهي ...؟»، نما اسمٌ على شفتيها، لكنها لم تشأ أن تتفوه به.

أومأ برأسه بسعادة، كما لو كان يعلم أنها خَمَّنت من تكون. قبل رحيله إلى برلين كانت تغيظه مزاحًا بالفعل بشأن كونه مهتمًا بـ لي لي فرسترايتن بشكل خاص، والتي كان يتكلم عنها كثيرًا. لكن الآن، وقد اعترف به، أصابها الحزن وخيبة الأمل. كيف عرف أن لي لي تهتم به؟ ألا يبني قصورًا في الهواء؟ لكنها لم تعبِّر عن هذه المخاوف، لأنه كان يبدو في غاية السعادة والأمل.

«جورج، إن كنت مهتمًا حقًا بشكل جدي، حسنٌ ... لنرى ...»، استأنفت كلامها، وهي تنقل كرسيها لتقترب منه. «لنفترض أن كل شيء مضى بسلاسة في البداية، لنَقُل أنك تقدمت لطلب يدها، وقَبِلَت، ماذا بعد؟ تعلم أنك سوف تضطر للانتظار لمدة طويلة جدًا قبل أن ترتب حفل زفاف».

«لماذا؟».

«لكن، يا جورج، ماذا تظن؟ بالتأكيد أنت لا تنوي الزواج اعتمادًا على راتبك كمساعد قنصل؟ مجرد ألف ومائتي جيلدر، ألست محقة؟ بالطبع هناك حصتك من عقارات ماما، لكنها شيء لا يُذكر، فهي لن تجعلك غنيًا بأي شكل من الأشكال! لذلك أسألك، ما الذي ستعتمد عليه في المعيشة؟ لا تعتمد على الكثير، الذي سوف تعطيه لك عائلة فرسترايتن كمهر؛ فهم يعيشون حياة مريحة بما يكفي، لكنها متواضعة. فهم ليسوا أغنياء كما تعلم».

«عزيزتي إيميلي، إن كان عليكِ أن تقومي بحساباتي من أجلي، فعلى الأقل اعمليها بشكل صحيح. صحيحٌ أنني لا أعتمد على الدعم من ...»، ابتسم بينما غاص صوته في همسة، «من حماي وحماتي المستقبليين، إن وصل الأمر إلى ذلك الحد. في الحقيقة أنا حتى لا أتمنى ذلك».

«لا أعتقد أنك ستقول لا إذا عرضوا عليك».

«لا أعرف، هذا جانبٌ لم أفكر فيه بَعْدُ. لم يَجُل حتى بخاطري، لأكون صادقًا معكِ، لكن ما قصدته أن حساباتك قد جانبها الصواب بشوط بعيد. لنفترض أنني لن أتقدم لامتحان نيابة القنصلية هذا العام، إذن فكلٌ منا يحق له ألف وخمسمائة جيلدر، أليس كذلك؟».

«تقريبًا حول ذلك».

«حسنٌ إذن، ألف ومائتان زائد ألف وخمسمائة يساوي -».

«ألفان وسبعمائة جيلدر، وهل ستتزوج اعتمادًا على هذا؟».

«ولكن يا إيميلي، لِمَ لا؟».

نفضت يديها في سخط.

«سامحني أن أقول ذلك يا جورج، لكن لا بد أن تكون قد فقدت عقلك! أتمنى أن تتوقف عن التصرف كطفل، وتعود إلى رشدك. أتوقع أنك كنت تقرأ ذلك الكتاب الصغير السخيف للأزواج الشباب- قل لي ما اسمه مرة أخرى؟ شيء من قبيل كيف تعيش بشكل مريح ومحترم بألف وخمسمائة في السنة».

«لا، لم أره، ولكن ألف وخمسمائة ليست مثل ألفين وسبعمائة، وأنا لديّ سبب لأكون على ثقة-».

«لديك سبب لتكون على ثقة؟ لا، لا، على العكس تمامًا، أنت ليس لديك أي فكرة! ما الذي يجعلك تعتقد أنك ستكون قادرًا على العيش مع زوجة من يناير إلى ديسمبر بألفين وسبعمائة جيلدر بائسة؟ أنت على ثقة، كما تقول!»، ردت منفجرة عندما حاول مقاطعتها، ونهضت من كرسيها المريح. «أستطيع فقط أن أراك الآن، وأنت تعيش في شقة غير أنيقة بطابق علوي بقطعة من لحم بقري مرة واحدة في الأسبوع من أجل الاحتفال! أنا لا أقول إنني أعرف ما سيكون من أمر، لأنني لم أكن في مثل ذلك الموقف، لكن ما أعرفه جيدًا أنك أنت ولي لي كلاكما نشأتما في ظروف مريحة، فكيف يمكن لكليكما أن ...؟

ياه تعال الآن، كل هذا الشيء عبثي. كن عاقلاً. أعلم أنك كذلك تمامًا».

«ربما لا تعرفينني جيدًا بما يكفي!»، ردَّ عليها، تتناقض نبرته الدمثة مع حدة صوته. «لأنني متأكد تمامًا أنني أستطيع أن أضبط احتياجاتي وفقًا لإمكانياتي».

«كل شيء على خير ما يُرام بالنسبة لك لتقول ذلك، ولكن ماذا عن زوجتك؟ هل تريد حقًا إجبار فتاة صغيرة ترعرعت في قدر معين من الترف، أن تضبط احتياجاتها وفقًا لإمكانياتك؟ صدقني يا عزيزي جورج، لا أحد يمكنه أن يعيش على الهواء هذه الأيام».

«لم أفكر مطلقًا أن بإمكانهم ذلك».

«دعني أنهي كلامي. الشباب مثلك ومثل لي لي بحاجة إلى كل أنواع الأشياء. بالنسبة لشيء ما الشباب يريد الخروج، واستقبال الأصدقاء، و-».

«آه، كل موضوع الخروج! لقد قمت بالخروج بما يكفي عندما كنت طالبًا ليظل معي مدى الحياة».

«أناني! فقط لأنك خرجت كما شئت عندما كنت صغيرًا لترغب في البقاء بالبيت من أجل التوفير عندما تزوج، وتجلس مع زوجتك في شقتك الصغيرة بالطابق العلوي لتستمع بتذوق البفتيك الأسبوعي. أمل رائع في المستقبل بالنسبة لها بالتأكيد!».

«بجد يا إيميلي، لِمَ كل هذا التركيز على الحاجة للخروج كل مساء؟ لا أعتقد بأن مجتمع الحفلات مكان جيد للبحث عن السعادة على أي حال».

«حتى الآن كنت تسعد للغاية بالقفز من سهرة إلى أخرى، بعبارة أخرى، كنت في دوامة اجتماعية ولا تزال، وقد مَنَحَك الوقوع في الحب أفكارًا شاعرية، لكن صدقني، سوف تبلى تلك الأفكار، عندما تصبح متزوجًا لفترة من الوقت ستجد نفسك مفتقدًا لصحبة الأصدقاء والمعارف».

«لنفترض ذلك، وفيما يتعلق بالأصدقاء والمعارف، فالتخلي عنهم ليس جزءًا من خطتي، ولن يكلف الاستمرار في رؤيتهم الكثير بذلك الشكل».

«سوف يكلف الكثير يا جورج، صدقني!»، استمرت إيميلي. «سوف تتلقى دعوات، وأنت لا تريد أن تظهر بمظهر البخيل لذلك ستكون ملزمًا بالردِّ بالمثل من وقت لآخر بحفل عشاء، مهما كان متواضعًا، وعليك أن تفعل ذلك مرارًا، وكل هذا بألفين وسبعمائة جيلدر في السنة؟ أستطيع أن أراك في ذلك الموقف بالفعل. ولا سيما زوجتك المسكينة، مضطرة لتدبير معيشة أسرة على تلك الألفين وسبعمائة جيلدر الزهيدة، أو بالأحرى، بالقدر الذي سوف تسمح لها به منها. حسنٌ، أستطيع أن أقول لك إنك لن تراني قادمة للبقاء معكما».

رأى غيظها الكوميدي مسليًا، لكنه كان عنيدًا.

«عزيزتي إيميلي، يمكنكِ أن تقولي ما تريدين، لكن إيماني الراسخ أنه يمكنك الحصول على الكثير بقليل من المال وشيء من التفكير المنطقي السليم، وتكونين سعيدة إلى جانب ذلك».

«أوه، أنصتوا إلى السيد جورج الذي يظن أنه يعرف أفضل من أخته الكبيرة، أليس كذلك؟ شديد العناد، إنها وصمة عار!». أطلقت كلماتها مندفعة، وهى متكدرة.

قال مهدئًا: «إيميلي، أهدئي أرجوكِ. لم يتقرر أي شيء حتى الآن. ليست لديّ في الواقع ... أنا لست حتى متأكدًا أنها ...».

ترك جملته ناقصة، إذ لم يرغب في التعبير بالكلام عن فكرة لم يستطع التفكّر فيها.

قالت إيميلي، وقد استرضتها نبرته إلى حد ما، «نعم، يا جورج أفهم. لكن مع ذلك، لا بد من مجابهة الاعتبارات المالية عاجلاً وليس آجلاً، وأنا متأكدة أنك توافقني الرأي».

«أتفق معك في ذلك، لكنك تبالغين بشأن ضيق ميزانيتي. بالمناسبة»، قاطع نفسه بابتسامة فائزة، «وبمناسبة الحديث عن الميزانيات، ألا يمكنكِ أن تسدي إليّ معروفًا هائلاً وتساعديني في ترتيب ميزانية؟»».

«بالنسبة لإجمالي سنوي من ألفين وسبعمائة جيلدر؟ مستحيل يا جورج، لا يمكنني ذلك. عجبًا، ستحتاج أكثر من ذلك لتعيش به إذا انتقلت للسكن في شقة مستأجرة، حتى لو لم تكن متزوجًا».

تنهد.

«إذن لا يمكننا الوصول إلى أي نوع من الاتفاق حول ذلك؟».

رفعت كتفيها استهجانًا.

«كم أنت عنيد. أنت كطفل، لا تعرف شيئًا عن الحياة».

جورج، رغمًا عنه، رأى عزمه يضعف. وبدأت آماله العريضة في الانهيار تحت عبء المنطق السليم الثقيل، وبدا المستقبل يتداعى أمام عينيه. مرر يده فوق جبهته بحركة بطيئة، ومهزومة وفكر: نعم، ربما من الأفضل أن أنتظر لبعض الوقت.

«الأفضل أن أنتظر لبعض الوقت إذن، على ما أظن»، ردد بصوت منخفض، بدا حزينًا لدرجة أن إيميلي بدأت تشعر بوخز الضمير بشأن انتصارها.

أخذت وجهه بين كلا يديها، وحدقت النظر في عينيه الحزينتين والمفعمتين بالأسى.

قالت، وقلبها معه،» يا لك من حالم!».

«حسنٌ، لا تزال شابًا، وربما يومًا ما ... لا تدري».

«ربما ماذا؟».

«ربما كنت على حق وأنا لا أدري عما أتحدث!»، اندفعت تشعر بوخز الندم لأنها آلمت أخيها الشاب، فقط، أتوسل إليك: كن عاقلاً ولا تتسرع في أي شيء يا جورج!»، وطبعت قبلات طويلة على عينيه المغلقتين، وهى تدرك الدموع، التي تكونت فيها.

١٤

«ليلة سعيدة يا بيتسي! تصبح على خير يا هِنْك! سآوي إلى الفراش؛ أنا مرهقة جدًا،' قالت إيلينه بسرعة، وهم يدخلون الصالة الأمامية.

سألتها بيتسي: «ألا تريدين أن تتناولي لقمة أولاً؟».

«شكرًا لكم جميعًا رغم كل شيء، ولكن لا».

بدأت إيلينه في صعود الدَّرَج. رفعت بيتسي كتفيها استهجانًا؛ إذ كان بإمكانها أن تعرف من النبرة القاطعة أن أختها كانت في حالة من حالتها المزاجية العصبية والحادة وأنها لن تحتمل أي تدخل.

سأل هِنْك في حجرة الطعام، متخوفًا من موجة أخرى من العلاقات المتوترة، «ما الذي دها إيلينه؟».

صاحت بيتسي: «يوه، كيف لي أن أعرف؟ بدأت الموضوع في الحفلة الموسيقية، ورأيت كيف تجاهلتني في العربة، ونحن في طريقنا إلى البيت. تظاهرت أنني لم أنتبه، لكنني لا أتحمل عندما تنتابها نوبة من نوبات النكد والعبوس».

صعدت إيلينه الدَّرَج، وهى ترتدي قميص نومها الناعم والفاخر بجوٍ من العظمة المُهانة، ودخلت حجرة جلوسها. تمتعت مينا بالحكمة لما أنارت قنديل الغاز، وحتى كانت هناك قطعة حطب تحترق في المدفئة. نظرت سريعًا حولها للحظة، ثم نزعت الشال الأبيض الدانتيل عن رأسها وطرحت قميصها بعيدًا، ووقفت هناك وهي محنية الرأس، تحدق بلا تعبير في الأرضية بأسلوب يعبّر عن خيبة أمل مطلقة.

رفعت عينيها إلى مرآة الحائط الڤينيسية بحبالها الحمراء الجميلة فوق

تمثاليها إلهيّ الحب والروح المصنوعين من الخزف، والذي كان منظرهما التصويري الساحر متناقضًا تناقضًا بغيضًا مع مشاعرها الحالية، رأت انعكاس صورتها: تلمع في ثوبها الوردي الحرير المُضلع وبحلية للرأس ذات ريش وردي في شعرها غير الممشط إلى الوراء، نفس الطاقم، الذي ارتدته عندما وقعت عينيها لأول مرة على فابريس، قبل ثلاثة أشهر كاملة.

والآن ...

ضحكت تقريبًا بصوت عالٍ على العبث المجرد لكل ذلك، ثم ارتدت إلى الاشمئزاز من نفسها، كما لو كانت قد دنست نفسها.

كانت هناك حفلة موسيقية لجمعية ديليجنتيا بقاعة الآداب والعلوم، والتي أقنعت هِنْك وبيتسي لمرافقتها إليها، وكان فابريس سيمَثِّل فيها: كتبت الصحيفة، «وُجِّهَت الدعوة للباريتون الشهير بالأوبرا الفرنسية ليجمع أمجادًا جديدة من جمهور جديد».، ولم يهدأ لإيلينه بالٌ حتى تيقنت أنها ستحضر الحفلة: أولاً خاطبت عائلة فرستريتن، لكن المدام لم تكن ميالة للحضور، وكانت لي لي لا تزال مريضة؛ ثم تحولت إلى إيميلي، لكن إميلي كان لديها ارتباط مسبق. وكملاذ أخير طلبت من هِنْك وبيتسي اللذيْن، رغم أنهما ليسا من جمهور الحفلات المتحمسين، وافقا على الذهاب. كانت إيلينه متحمسة للغاية: ليس فقط لأنها سترى فابريس يُمَثِّل في مكان جديد، لكنه سيمثل دورًا جديدًا أيضًا، وهو مغنٍ بحفلة موسيقية. لحسن الحظ، كانت مقاعدهم في البلكون بالقرب من خشبة المسرح، وياه، لا بد له أن يميزها من الأوبرا، سيبعث بإشارة ما لها، أنه واقع في حبها ... مروحة البوتشي ...! استحضرت الأوهام بلا نهاية بينما استشرى العشق في روحها، ليملأها في وجود ثانٍ رائع بما لا يُصدق، يجمع بين فابريس وبينها كبطل وبطلة مشهد رومانسي راقٍ.

سحره جمالها، عشقها حد العبادة، سيهربان معًا، ويغنيان على خشبة المسرح، يكابدان الصعاب، ويصبحان ثرييْن ومشهوريْن. لوَّن الأمل المذهل لرؤيته مرة أخرى شحوب خديها الشفافيْن بحمرة خفيفة كحمرة ثمرة خوخ

مخملية، وكذَّب الحماس في نظرتها المحدقة اللامعة سلوكها الواهن وهي تتخذ مقعدها، وهي تشع جمالاً، بينما كان كل منظار بالأوبرا وسط الجمهور مصوبًا عليها- وهذه حقيقة لم تمر مرور الكرام على هِنْك، وفي الواقع ولا على بيتسي. بدأ الحفل بسيمفونية مرحة الإيقاع، والتي بدت لها كما لو كانت أنشودة الحب والسعادة.

بعدها ... بعدها دخل إلى المسرح، تحت انفجار مدوٍ من التصفيق.

بينما كانت إيلينه تحدق منبهرة من خلال الزجاج، وهى تعيش اللحظة من جديد، جاءتها الصورة مرة أخرى بأزهى التفاصيل.

صعب المراس، كنجار ضخم الجثة يرتدي معطفًا ضيقًا جدًا، شعره الخشن المجعد ملزق بدهن الشعر، وجهه أحمر قرمزي على النقيض من صدرية قميصه بلون الثلج، بدا عاديًا وزائد الوزن، بتعبير كريه متجهم حول فمه الملتحي، وفي العيون، التي تحملق بسخطٍ من تحت الحاجبين الكثين. شعرت كما لو كانت تراه للمرة الأولى، وبدون الحركات المسرحية المهيبة وملابس خشبة المسرح الفاخرة، التي أظهرت شكله في أرقى مراكز الصدارة وأعلاها، انكسر السحر، الذي أصابها به فجأة، وفي الوقت، الذي دوى فيه بنفس التأنق المرتفع والواضح، والذي كان يملؤها بالنشوة والبهجة في الأوبرا، فإنها لم تعد تسجله، ذلك أنها كانت في غاية الرعب من فداحة خطئها.

كيف يمكن أن تكون عمياء إلى هذا الحد؟ وكيف يمكن لذلك النجار العادي أن يكون الهدف الأسمى لأكثر خيالاتها جموحًا؟ كان يمكنها أن تبكي من الغيظ وخيبة الأمل، لكن وجهها ظلَّ هادئًا أثناء جلوسها، وبظهر مستقيم بشكل متصنع تقريبًا، لا تفعل شيئًا سوى جذب جانبيّ رداء رأسها الأبيض الفخم معًا بقشعريرة لا يكاد يدركها أحد. بات تنفسها، وقد خنقتها عاطفتها سريعًا وقصيرًا أثناء تركيزها عليه طوال غنائه، تفحصته من رأسه إلى أخمص قدميه، كما لو كانت غير راغبة في ادخار مشاعرها. أيمكن أن يكون هذا نفس الشخص، الذي رأته في الغابة، بوشاحه الصوفيّ وقبعته ذات الملمس الناعم،

التي منحته الشكل الأنيق لقاطع طريق إيطالي؟ ما الذي دهاها؟

برجفة من ذعر، ألقت نظرة على الجمهور. لم يكن هناك مَنْ كان منتبهًا إليها، ولم يكن هناك مَنْ تشكك في الاضطراب داخلها، ذلك أن كل الآذان والعيون تركزت على فابريس. لا يكن أحد يعلم شيئًا، والشكر للرب، ولن يعلموا مطلقًا.

إلا أنها لم تجد الراحة في الهرب من نظرات الاستهجان في عيون الناس. عند قدميها تناثرت بقايا حطام القصر الزجاجي، الذي كانت قد استحضرته في خيالاتها المتيمة بالعشق، الصرح الشاهق الهش لخيالها، الذي أقامته عمودًا عمودًا، يرتفع أعلى من أي شيء آخر في رونق بلوريّ متلألئ لعشق يصل إلى حد العبادة فوق السحاب.

والآن تدمر كل شيء، كل رؤاها وأحلام يقظتها انسحقت، طيرتها بعيدًا عاصفة من رياح لم تتسبب حتى في حدوث أي خسائر أو خراب، ولم يتبقَ لها شيء سوى فراغٍ ضخم ومؤلم- ومشهد ذلك الرجل، الذي يشبه البائعين بوجه الأحمر يعلو صدرية القميص البيضاء، والكنزة الصوفية الضيقة للغاية والشعر الملزق إلى أسفل.

لم تستطع أن تتذكر لو أنها شعرت بهذا القدر من الإهانة من قبل.

لثلاثة أشهر كاملة كان طيف الحب والرومانسية يجعل قلبها يخفق أسرع في كل مرة تسمع فيها ذِكْرَه أو يتصادف أن ترى اسمه على ملصق ما، ولكن الآن لم يستغرق الأمر أكثر من نظرة واحدة على ذلك الرجل القبيح والسمين- تردد صدى كلمات فنسنت ساخرةً في أذنيها- لتمزق كل ذرة من شعور رومانسي من كيانها. لقد انتهى، انتهى كل شيء.

بعدها، لم تتكلم إلا قليلاً جدًا في الردهة، وعندما لاحظت بيتسي الشحوب عليها وسألتها إن كانت بخير، أجابت إيلينه ببرود أنها تشعر بوعكة صحية خفيفة بالفعل. كانت عائلتا أودندايك وفان لارن موجودين أيضًا؛ تبودلت

المجاملات وذُكِرَ اسم فابريس، لكن إيلينه ظلت جالسة في المقعد الطويل كحمامة جريحة، يكاد يُغشى عليها من الحزن، إلا أنها أجبرت نفسها على الابتسام، وهى تمثل أنها منتبه لأحد الأولاد من عائلة هايدريخت.

بعد الاستراحة ظهر فابريس مرة أخرى، مثيرًا التصفيق المتحمس نفسه، كما في المرة الأولى، وشعرت إيلينه بخبلٍ في عقلها، وكأن الجمهور المجنون بالإعجاب الزائد عن الحد كان على وشك الرقص رقصة شيطانية حول الباريتون، الذي وقف يبدو متجهمًا، أحمر الوجه وغليظًا كما كان من قبل. تفصَّد جبينها بالعرق، وكانت يداها باردتين كالجليد ورطبة في القفازات الجلدية الضيقة، ويجيش صدرها بسبب ما بذلته من جهد للتنفس بكتلة في حلقها. الشكر للرب، انتهت الحفلة.

* * *

وحدها أخيرًا، سمحت لنفسها للاستسلام لعاصفة العاطفة المُستعرة في قلبها، وبصرخة تألم جَثَت على ركبتيها بجوار الأريكة الفارسية. ضغطت جبينها النابض على الوسائد الناعمة المطرزة باللون الذهبي، في محاولة لخنق نشيجها شديد العذاب بيديها، وبينما هى كذلك هبط شعرها فضفاضًا ليتداعى جسدها الخفيف والمهتز في جملة من الموجات اللامعة.

تحول ألم التحرر من الوهم المبدئي إلى شعور بالمرارة، كما لو كانت، حتى لو كان ذلك في عينيها فقط، قد جلبت التهكم على نفسها، والعار الذي ستلتصق وصمته بها إلى الأبد، وتلازمها كطيف الاستهزاء.

بقيت لفترة طويلة هكذا، منغمسة في حزنها. سمعت هِنْك وبيتسي وهما يأويان إلى حجرتهما، ثم أغلق خيرارد باب الشارع في فترة الليل، وتردد صوته بشكل أجوف في البيت الصامت.

بعد ذلك لم يتحرك ساكنٌ، وشعرت إيلينه أنها وحيدة للغاية، تغرق في محيط من البؤس.

فجأة، فكرة ما جعلتها تجفل. سارعت بالوقوف على قدميها، ألقت خلفها خصلات شعرها الشعثاء، وبنظرة الكبرياء الجريح على ملامحها الملطخة بالدموع هرعت إلى طاولة الكتابة الخاصة بها، ترتعش يدها، وهى تدس المفتاح في قفل الحجرة الصغيرة، التي كانت تعشقها يومًا ما. أخرجت الألبوم، الذي بدا كما لو أن غلافه المخملي الأحمر أحرق أصابعها كالنار. سحبت كرسيًا بجوار النار، حيث كانت قطعة الحطب ما زالت متوهجة وسط الرماد، وفتحت الكتاب. كان هذا، وقتئذٍ، مقام حبها ومعبد عشقها، والمكان السري، الذي كانت تعبد فيه صنمها ... وبينما كانت تقلب الصفحات سارت البورتريهات جنبًا إلى جنب وراء بعضها البعض: بن سعيد، وهاملت، وتيل، ولونا، ونيلوسكو، وألفونس، دي نيڤرز ... ستكون هذه آخر مرة ... وهى تمسك بقوة صفحات الألبوم ذات الحواف المذهبة، سحبت الصور الواحدة تلو الأخرى، ودون أدنى تردد مزقت كل واحدة منها نصفين ثم نصفين مرة أخرى، وهى تكرمش الورق المقوى الصلب بأصابع منتقمة. ألقت القصاقيص في المدفئة واحدة تلو الأخرى، وهى تنتظر كل قصاصة تلي أختها لتمسك فيها النار قبل أن ترمي، التي تليها، وهكذا وهكذا، حتى أخذت أخيرًا عصا إذكاء النار لتحريك الجمر في فصلٍ أخير من الدمار ... تلك كانت النهاية؛ انتهى وفُرِغَ منها إلى الأبد.

نهضت واقفة، وهى تشعر ببعض الارتياح.

لكنها كانت لا تزال تحمل الألبوم، الذي أتلفته تلفًا بالغًا، غلافه المخملي يحرق أصابعها، وبصرخة اشمئزاز مخنوقة رمت الشيء، الذي أثار غيظها بقوةٍ إلى أبعد ما تستطيع، وكسرت ظفرها في تلك الأثناء. اصطدم الألبوم بالبيانو، مثيرًا صوتًا عميقًا غائمًا من الأوتار المهتزة.

انحنت لتلتقط رداء رأسها وشالها الدانتيل الرقيق من الأرض، ساوت حرير فستانها المكرمش، ودخلت إلى حجرة نومها، حيث نشر ضوء ليليّ ضئيل بظلٍ بلون الحليب وهجًا شاحبًا كئيبًا.

شعرت بنفسها تغرق مرة أخرى في ذاك المحيط من البؤس، تلك الهاوية من خيبة الأمل، التي لم يَلُح من أعماقها سوى طيف كآبتها الأسود، وفجأة قفزت مناوشتها الأخيرة مع بيتسي إلى ذهنها. كان ذلك قبل بضعة أيام عندما أدلت بتعليق عن روبرتس، معلمها الخاص بالغناء؛ قائلة إنه بدأ يكبر في السن وأنه ليس ممتازًا، بالفعل، وإنها تفكر في أخذ دروس عند فنان مناسب بدلاً منه- فابريس مثلاً- وردَّت بيتسي قائلة إنها لا بد أنها جُنَّت؛ فهذه فكرة خرقاء وعبثية، وإنها لن تقبل بأي شكل من الأشكال أن تتحمل مثل هذا الهراء السخيف طالما أن إيلينه تعيش تحت سقف بيتها.

حسنٌ، لن تكون بحاجة لأن تتحمله الآن.

١٥

خفت حدة برد الشتاء، وأتى هلول الربيع بأمطار غزيرة، وأيام باردة بحُجُب من الضباب تتدلى من الأشجار العارية من الأوراق. كان هناك الكثير من الحديث عن أوتو فان إرليفورت والاهتمام، الذي كان يغدقه على إيلينه فيره. آه، كان لا بد من الإعلان عن خطوبةٍ في وقت قريب جدًا، وهو ما اتفقت عليه عائلات إيخوف وهايدريخت وفان لارن ومدام فان دير ستور. كان هِنْك مسافرًا في خيلدرلند، وكذلك إتيان؛ وكانا يقيمان في هاوس تير هورسه، بيت آل فان إرليفورت الريفي حيث بنى تيودور، الابن الأكبر، بيتًا مع زوجته وأبنائه. في تلك الأثناء، قام أوتو بعدة زيارات لبيتسي وإيلينه؛ صحيحٌ أن هذه الزيارات كانت عادةً استجابة لدعوة للانضمام لضيوف آخرين في البيت في ناساوپلاين، ولكن ومع ذلك، ألم يكن ملحوظًا للغاية أنه هو الذي كان يعيش حياة هادئة بوجه عام، ويخرج قليلاً جدًا يمكن أن يكون هذا الزائر، الذي يتردد كثيرًا على محل إقامة آل فان رات؟ على أي حال، عقد خطوبة سيكون أمرًا رائعًا: أوتو رجل جذاب بما يكفي، ويتمتع بوظيفة جيدة، بينما كانت إيلينه فاتنة وأنيقة تمامًا ويُعتقد أن لديها ثروتها الخاصة. يبدو أنهما خُلِقا لبعضهما البعض، وبجانب ذلك، كان لا بد لإيلينه أن تقفز على فرصة أن يتزوجها أحد النبلاء. في الواقع، بديا متناسبيْن تمامًا لدرجة أن الناس كانوا يبذلون الجهد لإيجاد أي شيء ينتقدونه بشأن الخطيبين، وفي النهاية كل ما استطاعوا التوصل إليه هو أن بيتسي كانت تجد صعوبة متزايدة في الوفاق مع إيلينه، وهو ما كان معروفًا، وأنها ولا شك ستكون سعيدة بطريقة أنيقة ما بأن ترتاح من أختها؛ ولذلك كان من مصلحة بيتسي تشجيع أوتو، ليس أن إيلينه بدت غير راغبة في الخِطْبة، بكل تأكيد، لكن لولا بيتسي لما كان هو ولا هي فكرا في الموضوع. آه،

بطبيعة الحال، كانت بيتسي ساحرة في الأوساط الاجتماعية، لكن ما كان عليه حالها بعيدًا عن الأعين، بوصفها ربة بيتها، مسألة مختلفة كليةً. لديها إرادة قوية ويمكنها أن تصبح امرأة مشاكسة إلى حد بعيد، شاهد الطريقة، التي أبقت بها هِنْك الحبوب الطيب تحت إصبعها! وإذا لم تكن إيلينه أكثر مواءمة واستيعابًا، وإذا لم تقف للدفاع عن نفسها، لكانت وقعت أيضًا تحت إصبع بيتسي! بدا من اللطف والكرم الوفير أن تأخذ بيتسي أختها اليتيمة لتقيم عندها، لكن بمقدار المال، الذي كان يمتلكه آل فان رات كانت نتيجة هذا لا تُذكر؛ بجانب ذلك، كان لبنات فيره موارد مالية خاصة وكبيرة، ولم يكن أحد يعلم بأي شكل من الأشكال أن الأمور كلها كانت سمنًا على عسل في البيت. من الجليّ أن بيتسي فكرت أن الوقت حان لأن تجد أختها لنفسها زوجًا. تلقت إيلينه عدة عروض للزواج بالفعل، وكان هناك العديد من الخُطَّاب، ولكنها كانت فتاة جميلة للغاية يَصْعُب إرضاؤها، وإذن- كان الأمر كله بيدها، أليس كذلك؟

كانت إيلينه تعلم بأن الناس كانوا يتحدثون عنها وعن أوتو، لكنها أبقت على طريقتها في اللامبالاة المتعجرفة. رأت كما رأى كل الآخرين أن أوتو سيطلب منها الزواج منه، ورأت أنها ستقبل. ما شعرت به تجاه فان إرليفورت لم يكن حبًا كما فهمته، لكن لم يكن هناك أي سبب يمكن أن تفكر فيه لأن ترفضه. سيكون توافقًا جيدًا للغاية بكل معنى الكلمة، رغم أنها، من داخلها، كانت تُفَضِّل أن تكون ثروته أكبر قليلاً مما كانت عليه. لكنها كافية. ولأنها شخصيًا فطنة فيما يتعلق بالمال، فقد عرفت أنه سيكون هناك ما يكفيها لتصنع إيهامًا ملائمًا بالفخامة.

لم يكن رجوع كل شيء إلى تشجيع بيتسي لأوتو في واقع الحال هو لب الموضوع، ذلك أنها، ورغم أنها كانت تؤيد الزواج كثيرًا، غير أنها لم تشعر بأي تعاطف تجاه أوتو. كان أسلوبه جافًا جدًا ومتصنعًا أكثر مما يروق لها، وكان عليها أن تبذل جهدًا لتعامله بالدفء، الذي يستحقه زوج أختٍ محتمل.

كانت عائلة فان إرليفورت أيضًا عرضة لأسئلة حمقاء من وقت لآخر، لكن فريدريك كانت ترد دائمًا بتجاهل رافض برفع كتفيها: قد تقول إن إيلينه خُطِبَت مرات كثيرة بالفعل- وفقا للقيل والقال على أي حال- فلِمَ لا تُخْطَب لأوتو من باب التغيير، بقدرٍ من السخرية في نبرة صوتها لدرجة أن أحدًا لن يخمن الحقيقة. ومع ذلك، لم يَغِبْ عنها أن أمها وماتيلدا وأوتو كانوا يعقدون مناقشات غامضة من وراء ظهرها، نوعًا من مجلس العائلة الذي ظلت نتائجه لم يُبَتَّ فيها بشكل واضح.

شعرت بأنها جُرِحَت لاستبعادها، وشعرت بكبرياء شديد نظرًا لأنهم كما يبدو لم يولوا أي قيمة لرأيها، ولإبداء أي قدر أكبر من الاهتمام بالموضوع. فقط في ذلك اليوم، عندما دخلت على ماماتها وأختها وأخيها، وهم يجلسون معًا بعد العشاء، ولاحظت كيف توقفت المحادثة بمجرد ظهورها، وكيف بدأوا بقليل من الشعور بالحرج لما وقفت، وهي تضع يدها على مقبض الباب، واستدارت دون أن تنطق كلمة واحدة، وبهدوء أغلقت الباب وراءها، يملؤها الاستياء والمرارة، ولم تعد تَجِدّ في البحث عن أوتو مرة أخرى بعد المحادثة، التي دارت بينهما حول المروحة، لأنه ألم ينظر إليها على أنها مجرد طفلة؟ حسنٌ تمامًا إذن، فلن تزعجه بعد اليوم بوجهات نظرها الطفولية. لم تتحدث عن إيلينه سوى مع لي لي وماري، داعية إياها بالدلوعة المغرورة، ليس بها إلا ابتسامات ومظاهر متكلفة، دون أي بريق لإحساس حقيقي. عندما كان پول موجودًا ظلت صامتة؛ فهو دائمًا ما يأخذ صف إيلينه هذه الأيام- مجرد شخص آخر لفّته حول إصبعها! نفس الشيء مع إتيان، الذي لا يحب أن يسمع كلمة واحد تُنْطَق ضدها. لم تستطع فريدريك أن تتصور ما الذي يرونه فيها؛ بالنسبة لها كانت إيلينه مثالاً للتصنع والتظاهر، لا شيء سوى ممثلة.

على الرغم من غيظها من ولاء إتيان لإيلينه، افتقدت فريدريك أخاها الآن بعدما غادر البيت، وشعرت بالوحدة تمامًا في بيت كبير وسط ضجيج وصخب أبناء فان رايسل الأربعة، والكلب هيكتور ومحاولات المربية فرانتسين البدينة

اليائسة لدعوتهم للمحافظة على النظام.

***

اليوم يوم الأحد، وكان پول فان رات يجلس أمام حامل قماشة الرسم، متأملاً لوحة زيتية نصف مكتملة تتألف من بعض القطع القديمة من الخزف المصنوع بمدينة دلفت الهولندية، وكتاب مقدس عتيق، وكأس نبيذ الراين الزجاجي والإبريق الفضيّ، الذي اشتراه من فنسنت- جميعها مرتبة على نحو فضفاض على مفرش طاولة مجعد ببراعة من سميرنا، لكن العمل تواصل ببطء شديد، وكان الضوء في الحجرة غير كافٍ، رغم المحاولات المتكررة لضبط الستائر، ووَتَّرَته معرفة كم كانت أصابعه أكثر تكيفًا مع ترتيب شتى الأشياء في تشكيلٍ مُرْضٍ من تصويرها بالألوان الزيتية على الكنڤاه. كانت غلطة الطقس في النهاية: بمثل هذه السماء الممطرة بات من المستحيل أن يلتقط الكأس أي بريق، بينما بدا الإبريق الفضي رخيصًا بما لا يقبل الجدل. طرح فرشاته جانبًا، وحشر يديه في جيوبه، وأخذ يُصَفِّر صفيرًا كالطنين، وبدأ يذرع الأرضية. أزعجه افتقاره للطاقة لأنه، وبقدر ما كان يرغب في إنهاء اللوحة، وجد نفسه غير قادر على الاستمرار.

تناسبت الفوضى الفنية، التي عَمَّت حجرته مع فوضى مزاجه الهاوي للفن، والذي لا يكاد يُفضي إلى خلق فن جاد. فوق خزانة مصنوعة من خشب البلوط المنحوت عُلِّقَت مجموعة من الأسلحة العتيقة؛ الجدران كانت مغطاة حتى السقف بالخزف واللوحات والمطبوعات، وفي جميع أرجاء الحجرة قامت تماثيل لنساء من الرخام وطين التراكوتا، حريم حقيقيون بجمالٍ بلون الحليب الأبيض والعنبر. الكتب موجودة بوفرة، ثم كانت هناك الملفات، التي اندلقت منها الاسكتشات والمطبوعات، بينما كانت الأرضية حول حامل قماش الرسم تتناثر فوقها أنابيب وفرش التلوين من كل نوع. فاضت طفاية السجائر الكبيرة عن آخرها، وكان يوجد غبار في كل مكان، ذلك أن لينتيه الخادمة نادرًا ما كان يُسمح لها بالدخول.

وفي أثناء تجواله في مزاجه الكئيب، جال بباله أنه قد يشعر بتحسن لو أنه ليس فقط تخلص من كل هذه الكراكيب الفنية، ولكن أيضًا أبعد حامل قماش الرسم وفرش التلوين الخاصة به إلى العُلّية. فكر أنه بمجرد أن تصبح حجرته خالية من القطع الفنية، فإن رغبته في خلق الفن سوف تتلاشى من تلقاء نفسها، ومعها إحساسه بالوهم. لأن الأمر كان، لنَقُلْ الحقيقة، مجرد مضيعة للوقت، لأنه كان ببساطة يفتقر إلى الموهبة، ويمكنه أن يجد وسائل إلهاء وتسلية أفضل من هذه الطرطشة غير المثمرة في الألوان الزيتية. تحول ذهنه إلى سبل إعادة طلاء حجرته: سيبقي عليها بسيطة ومرتبة، بحيث يمكن للمرء الحركة فيها أن شاء دون أن يصطدم بالتماثيل أو التعثر فوق الستائر الشرقية. ومع ذلك، كان أمرًا سيئًا للغاية أن كل هذا كان وهمًا، ولم تكن الحاجة إلى التخلص من البقية الباقية من طموحه الفني شيئًا يتطلع إليه.

قُطِعَت أفكاره على صوت إيلينه المرح في الصالة، وهبط إلى الطابق السفلي. دخل حجرة الرسم في اللحظة، التي كانت تحيي فيها أمه بحضن. أحضرت بِنْ، وجاء بالنيابة عن بيتسي لدعوة أمه لتناول العشاء ذلك المساء في ناساوپلاين. الضيوف الآخرين سيكونون مدام إيخوف وبناتها آنجه وليوني، وفريدريك واثنين من أخوانها، وفنسنت.

قالت، وهي تمتد يدها له، «طبعًا نحن نعتمد عليك أيضًا يا پول!».

«هذا غني عن القول يا سيدتي العزيزة، وآمل أنكِ لن تخيبي رجاءنا؛ لذلك رجاء قولي نعم! بأعدكِ أننا لن نجعلك تمكثين إلى وقت متأخر عن ساعتكِ المعتادة. لا يمكنك أن ترفضي»، (قالتها بالفرنسية) .

ترددت مدام فان رات، قائلة إن لديها تحفظات على تواجدها في مثل هذه الصحبة الشبابية.

«لكنها سوف تفيدكِ! قليل من التسلية سيُنسيكِ نفسكِ! فكّري في مدام فان إرليفورت»، استطردت إيلينه: «إنها تجد ذلك ممتعًا بما يكفي! لِمَ لا تأخذيها كمَثَل؟».

تأثرت مدام فان رات بلهجة الفتاة العزيزة المقنعة، ووافقت على المجيء. پول أيضًا قَبِلَ الدعوة، ثم التفتت إلى إيلينه، التي كانت تجلس بجانبها، وعالجتها بنظرة فاحصة، كما لو كانت تفكر مليًا في سؤال ما في ذهنها، وفي الوقت نفسه، لما رأى پول كسل بِنْ بشكل مزعج، وهو جالس بهدوء على مقعد صغير عند قدمي جدته، بذل قصارى جهده لإشراك الطفل في بعض اللعب.

«الآن عزيزتي إيلينه، هناك شيء أريد أن أسألكِ عنه»، بدأت مدام فان رات في همس تآمري. «قولي لي، أهذا صحيح؟».

شعرت إيلينه بحمرة خجل خفيفة تعلو خديها، لكنها تظاهرت بأنها لا تفهم السؤال.

«أنا لا أعرف تمامًا ماذا تقصدين».

ابتسمت مدام فان رات، ولم تتابع الموضوع لأكثر من ذلك، فقط سألتها: «هل قلتِ أن فريدريك قادمة أيضًا؟».

قالت إيلينه: «نعم، أتوقع ذلك، فقط ...،».

«فقط هي؟».

«لا، لا، سأتي مع إخوانها، أوتو وإتيان ...».

«آه، فعلاً»، قالت السيدة العجوز بنبرة عفوية، لكنها رمقت إيلينه بنظرة طويلة عارفة أخرى، بما يشبه الومضة في حملقتها الغائمة عادةً. ابتسمت إيلينه، بقدر قليل من عدم الارتياح.

قالت، وهي تملّس على أنبوبها الفرو، «أعتقد بأنكِ تمازحينني».

«آه، تعرفين كيف يتحدث الناس. المرء يسمع هذا وذاك وجميع أنواع الأمور، ومع ذلك، قلما يسمع المرء شيئًا صحيحًا».

«وماذا سمعتِ؟».

«شيئًا كنتِ ستخبرينني به منذ فترة طويلة بنفسك إذا كان لديكِ أي ثقة فيّ. الآن كان عليّ أن أسمعه من بيتسي».

أجفلت إيلينه.

قالت متلعثمة: «هل قالت بيتسي ...؟».

قالت السيدة العجوز، وهى تشاكسها، «نعم، يا عزيزي، أخبرتني، وكنت أود كثيرًا لو أنني سمعت ذلك منكِ أولاً».

انزعجت إيلينه سرًا. كان صحيحًا، أوتو طلب منها أن تتزوجه - لكنها لم تحزم أمرها حتى الآن بشأن القبول، وكان الأمر مزعجًا للغاية كيف بدا الكلّ على علم به، وحريصين على إبداء رأيهم، وكيف كانت لديهم الجرأة لتوجيه جميع أنواع التعليقات لبيتسي، حتى تلك شديدة الفجاجة منها. لدرجة أن هناك شخصًا ما، في ظل ذريعة الصداقة المخلصة، همس في أذن أختها بأن تحث إيلينه على الإعلان بنفسها. كانت كل هذه التصرفات الطائشة تضغط على أعصابها، وكانت على وشك الرد ردًا حادًا، ولكنها غيرت رأيها. لم تُظهر أي عاطفة، وتمتمت في أذن السيدة العجوز:

«حسنٌ، ما الذي هنالك لأقوله حقًا؟ نعم، فان إرليفورت تقدَّم لي، لكنني لم أكن لأقول شيئًا عن ذلك حتى أصل إلى قرار».

اختلست نظرة إلى پول، ثم وجهت نظرها بعيدًا بسرعة لأنه توقف عن اللعب مع بِنْ، وكان يراقبها بحرص، في محاولة لمتابعة ما كان يُقال، لكن لم يكن لديها أي نية لإرضاء فضوله أو فضول المدام، لذلك نهضت واقفة، وهى تقصد أن تنهي المحادثة في أقرب فرصة، وعندما قالت مدام فان رات أن أوتو شاب حسن المظهر والخُلُق للغاية في رأيها، تدخلت إيلينه بأن احتضنتها بمودة، وقالت لها إنها يجب أن ترحل.

قَبَّلَتها السيدة العجوز في المقابل بإصرار مرتجف، وهذا ضايقها، كما فعلت النظرة الطروب في عينيّ پول، وضاعف من انزعاجها الاضطرار لانتظار بِنْ، الذي أخذ وقتًا طويلاً للغاية لتوديع جدته.

* * *

لا، لا تتمكن إيلينه من حزم أمرها. كانت تخشى اتخاذ الخطوة، التي قد تجعلها سعيدة أو تعيسة إلى الأبد، وكأن مستقبلها بأكمله متوقف الآن على كلمة واحدة، وأنها لا تستطع أن تجبر نفسها على النطق بها. خائفة أيضًا من زواج الصالونات، لأنها تعرف أن قلبها يتوق للحب المشتعل، رغم جهودها الباسلة لكبت كل هذه المشاعر بعد إفاقتها من الوهم. بالنسبة لأوتو، حسنٌ... لقد رقصت معه، وضحكت ومزحت معه، لكنها لم تجد نفسها للحظة واحدة تكوّن صورة له في ذهنها، في الواقع يبدو أنها تنسى شكله بمجرد أن يختفي عن ناظرها. من ناحية أخرى، كان طيبًا وصادقًا بشكل واضح، وعندما أدركت لأول مرة أنه يحبها كان ذلك بالتأكيد شيئًا يثلج الصدر، لدرجة أنها أخبرت نفسها بأنها سوف تتألم لو تسببت في حزنه، أو أن ترفض له أي شيء، بما في ذلك يدها في الزواج. وبينما كانت تتعمد بذلك خداع نفسها، بدا أن دماثة حبه الهادئ صَبَّت بلسمًا على قلبها الجريح.

في حالة خداع النفس، التي مرت بها مؤخرًا، جعلتها فكرة أن تصبح زوجته تركن إلى شعورٍ من الرضا الهادئ، وشيء أقرب إلى مستقبل وردي طفا أمام عينيها. علاوة على ذلك، ففكرت مليًا في المزايا المالية.

أملٌ مبهج آخر تمثل في حصولها على استقلالها، أن تصبح سيدة نفسها. أخيرًا ستستطيع مغادرة منزل أختها، حيث كانت تشعر دائمًا، على الرغم من دخلها الخاص، بأنها مقيدة وزائدة عن الحاجة، كما لو كانت مستأجرًا كثير الطلبات، والذي يتحمل أصحاب البيت وجوده من أجل المظاهر فقط، لكن وتحت كل هذه الأفكار المتأنية، التي تحمسها لصالح أوتو يرقد هناك كأفعى غير مرئية أسى مرير على تحطم أحلامها، وإن كانت سوف تعطي نفسها له في أي وقت فإنه سيكون لأجل الانتقام، الانتقام من فابريس، ومن نفسها.

أما الآن، وقد تقدم لها أوتو بالفعل، والآن، وقد غدت ملزمة بأن تأتي بردٍّ في غياب عاطفة كبرى تملك عليها حواسها، ونأت بنفسها عن إعطائها.

أوتو، من جانبه، انتظر اللحظة الملائمة؛ على الأقل كان حصيفًا في ذلك.

لعدة أيام مضت تجنب التواجد في محل إقامة آل فان رات. واعتقدت إيلينه أنه يستحق مكافأة على لباقته، لذا غامرت بسؤال بيتسي- ولم تملك إلا أن تحمر خجلاً بعض الشيء- بأن تدعوه إلى تجمع غير رسمي مع فريدي وإتيان.

سوف يأتي، وسوف تتحدث إليه، وانتابها شعورٌ بأنه لم يعد لديها إرادة خاصة، كأن قوة خفية ما كانت تدفعها نحو منحدر شديد الانحدار صوب قَدَرها الذي لا مفر منه؛ شعرت كما لو كانت معصوبة العينين، تتلمس طريقها نحو سعادتها، يداها ممدودتان، وأذناها تصغيان لتلتقط أوهن صدىً لذاك الفرح، رغم أنها تعرف أن من شأنه أن يضللها إلى الأبد.

* * *

صَبَّت بيتسي الشاي. تقاسمت الأريكة معها حماتها ومدام إيخوف واستغرقت في الحديث مع إيميلي دي ڤوده؛ وقف هِنْك ويديه في جيوبه يستمع بانتباه إلى فنسنت، بينما ناقشت إيلينه وپول وبنات عائلة إيخوف النوتات الموسيقية، التي كانت موضوعة على البيانو، ثم وصل أوتو وإتيان.

سألت بيتسي في شيء من المفاجأة، وهي تمد يدها لأوتو، «أين فريدريك؟».

أجاب ببساطة: «فريدريك تشعر بالتعب إلى حد ما؛ وتطلب أن تُعفى من الزيارة».

قال إتيان بحسم، كما لو كان يريد أن يعطي وزنًا لكلمات أخيه، «إنها متعكرة المزاج غالبًا في هذه الأيام».

بدأ قلب إيلينه ينبض أسرع. شعرت بتوتر شديد، رغم أنها نجحت في تغطية عاطفتها بغلالة من ابتهاج. شعرت كما لو كان الجميع بالحجرة يستطيعون أن يخمنوا ما الذي كانت تفكر به، وما كادت تجرأ أن تختلس النظر هنا وهناك خوفًا من رؤية كل العيون تحدق بها، لكن عندما غامرت بالتطلع بعينيها، رأت أنه لم يتغير شيء: السيدات العجائز كن يدردشن مع بيتسي وإيميلي، وفنسنت كان يتحدث بصوت خفيض لهِنْك، والآن كان إتيان يصافح پول والفتيات.

إلا أن أوتو تقدم نحوها مباشرة. كانت مرتبكة، وخشيت أن يظهر ذلك، لكن قلقها السري أضاف مسحة من تردد على قوامها الضئيل، والذي كان ملائمًا لها جدًا. سمعته يقول مساء الخير بطريقته البسيطة المتواضعة، لكن كان هناك شيء ما دافئ وسخي في صوته بدا لها كبشير بالحنان. فجأة شعرت بعاطفة جديدة، نعومة تذوب في قلبها، والتي لم تستوعبها.

انضم إلى التجمع الصغير حول البيانو، يقف قريبًا منها، ولكنه يدردش مع آنجه بينما كانت ليوني تضحك على تعليقات إتيان المغازِلة. بين الحين والآخر كان يختلس النظر إليها، ساعيًا إلى إشراكها في حديثهم عن اللا شيء؛ ابتسمت، دون أن تسمع ما جرى. طَنَّت أذناها باختلاط الأصوات، ولم تتمكن من أن تتابع أفكارها، والتي حَلَّقت في عقلها ورفرفت كعدد كبير جدًا من الفراشات.

كانت تعرف بأن عليها أن تقاوم الانزلاق في واحد من تأملاتها المهدئة؛ لم تستطع أن تقف هناك تحلم أحلام اليقظة في وسط صالون ممتلئ بالناس، وبعد الإدلاء بملاحظة خفيفة أو اثنتين بصوت لم تكد تميز أنه صوتها، إذ بدا مكتومًا للغاية، ابتعدت عن الناس.

«أنت تلعب أيضًا، أليس كذلك يا فنسنت؟»، سمعت بيتسي تسأل، بينما رأت بطرف عينها السيدات ينهضن من الأريكة وهِنْك ينتقل إلى الصالون، حيث شرعت في أخذ القطع المعدنية الصدفية من علبة يابانية. شعرت بأنها في حلم. رأت ورق اللعب منشورًا على قماشة حمراء دائرية بشكل حرف S؛ ورأت الشموع مضاءة عند أركان الطاولة، ورأت أصابع مدام إيخوف المرصعة بالجواهر تسحب ورقة لعب.

بدا أن كل شيء يحدث من مسافة بعيدة. جلس فنسنت في مواجهة مدام فان رات، وكان على هِنْك أن يشارك مدام إيخوف، وجاءت بيتسي مع إيميلي معًا؛ وسوف يأخذون لفة في وقت لاحق.

سألت ليوني بيتسي، مشيرة إلى طاولة ورق اللعب، «هل من الممكن أن نُشَغِّل بعض الموسيقى، أم أنهم منهمكون جدًا في لعبهم؟».

«ياه، بكل ممنونية، وبكل سرور!»، (بالفرنسية) ردت بيتسي، ودعت أوتو وإميلي للانضمام إليها على الأريكة. كان أسلوبها في التعامل مع مَنْ هم خارج أسرتها أسلوبًا لطيفًا دائمًا.

استطردت ليوني في مزاجٍ عالٍ لا يمكن كبته، «هيا يا إيلينه، دعينا نسمعكِ! مشتاقون للغاية لسماع أغنيتكِ الجميلة الأسطورية في سحرها! وأنا سوف ألعب المصاحبة بأصابعي الخفيفة كأصابع الجنيات في الحكايات».

«أوه لا يا ليوني، أرجوكِ. صوتي ليس في أفضل حالاته هذا المساء».

«صوتك ليس في أفضل حالاته؟ أنا لا أصدقكِ! هيّا! هيا غنّي يا عزيزتي الجميلة (بالفرنسية)! ماذا دهاكِ؟».

«نعم يا إيلينه، غنّي لنا!»، نادت مدام فان رات من الصالون المجاور، وبعد ذلك سألت بقلق شريكها: «ما الذي تعنيه كلمة ورقة رابحة».

«لا، حقًّا سيدتي، لا أستطيع؛ لا يا ليو، ليس اليوم. أستطيع دائمًا أن أعرف متى لا يكون صوتي في أفضل حال، وأنا نادرًا ما أرفض الغناء، أليس كذلك؟ لكن ألم تقولي أنكِ قد أتيتِ ببعض الموسيقى معك؟».

«نعم، لكنها ليست النوع المناسب من الأغاني، التي نبدأ المساء بها؛ يمكننا أن نشغلهم في وقت لاحق. دعونا نسمع شيئًا جادًا أولاً- أرجوكِ يا إيلينه، أتوسل إليكِ».

«لا، لا يمكنني الغناء على الأرجح!»، قالت إيلينه، وهي تهز رأسها. كان الموضوع غير وارد: شعرت بنفسها كأنها محمومة والدم يصعد إلى وجنتيها وجفونها متدلية ونبضها يخفق وأصابعها ترتجف. لن تستطيع أبدًا احتواء الاهتزاز في صوتها، لم يكن صوتها بحالة جيدة اليوم.

«لا يمكن على الأرجح؟»، سمعت شخصًا ما يتمتم وراءها، واختلست

النظر حولها. كان أوتو، يحدق فيها بإعجاب من الأريكة، التي كان يشترك فيها مع بيتسي وإميلي. مرة أخرى هزت رأسها من جانب لآخر. شعرت بالحرج وعدم الارتياح وهى تفعل ذلك، رغم أنها بدت ببساطة مغرية للآخرين.

«حقًا، لم أستطع ...».

سرعان ما حوَّلت نظرها، لئلا يشك في سبب إحجامها عن الغناء. نظرتها إليه، وهو يحدق بصره فيها أحرجتها كثيرًا، حتى ولو لم يكن هناك أي أثر من استنكار في عينيه. كان لديها شعور بأن هناك شيئًا ما يجري بين الأصدقاء والمعارف يملأ الحجرات المجاورة بحديثهم المفعم بالحيوية. كان الجو مشحونًا، بشكل أو بآخر، إلا أنه جال بفكرها أن بيتسي ومدام فان رات كانتا الوحيدتين اللتين تعلمان أن أوتو تقدم بطلب الزواج منها بالفعل وأنه يُتوقع أن يتلقى ردًا منها في هذا المساء نفسه، ولكن أيًا ما كان قد يشتبه فيه الآخرون، فلن يكونوا طائشين لدرجة الضغط عليها لتكشف عن سرها قبل أن تكون مستعدة لذلك؛ لحسن الحظ، لقد كانوا مهذبين لدرجة أنهم لن يطلبوا منها ذلك.

اتهمت ليوني إيلينه أنها أفسدت الحفل، وعندها صاح پول وإتيان بصخب مطالبين ليوني بالغناء بدلاً منها، وطلبت أن تأتي بنوتتها الموسيقية من الردهة، حيث كانت قد تركتها فيها عن تواضع زائف. توجها نحو الباب، لكن ليوني حاولت إيقافهما مما تسبب في ضجة مفاجئة ومرحة جعلت اللاعبين الصامتين ينظرون إلى أعلى عن بطاقات لعبهم. أفلت إتيان منها بصعوبة، وما لبث أن عاد منتصرًا، ملوحًا بنوتة أوبرا لا ماسكوت الموسيقية المثنية أطراف صفحاتها. اقتنعت فتاتا عائلة إيخوف من حينهما، وانطلقا في أداء ضاحك، بطيء ومتردد، وعلى درجة عالية من المهارة للثنائي بين پيبو وبيتينو.

غنيًا: «يا حبيبي پيبو، يا إلهي، كم أنت مبجل!»، بينما لعب إتيان المصاحبة، وضرب نغمات مشكوك في صحتها في كثير من الأحيان.

لكن الجميع كان مبتهجًا على أي حال، وهو ما شجع إتيان وپول على

الانضمام. فعلوا ذلك باستمتاع كبير، وشدا الأربعة في تجاهل سعيد لكلٍ من الوقت واللحن، إذ أطالوا في الجملة الحالمة» قُبلةٌ شديدة الحلاوة»، وابتهجوا عندما غنوا اللحن الكوميدي لجملة «الغوريلا من أمريكا».

جلست إيلينه على وسادة فوق مقعد منخفض بلا مسند، تسند صدغها الحار من الحماس البالغ على البيانو، يَصُمُّ آذانها تقريبًا ضرب إتيان القوي على المفاتيح. كانت تربت بيدها على ركبتها على إيقاع الموسيقى لكي تبدو مهتمة، ولكن أوجعتها أذناها من طنين العزف على الآلة، ومنعتها الضوضاء من التفكير واتخاذ القرار. وظلت انفعالاتها تتأرجح من النقيض إلى النقيض. نعم، سوف توافق عليه، فحبه، وإن كان حبًا غير متبادل، سيجعلها سعيدة، لقد كان قدرها ... لا، لم تستطع الوقوف ضد أعمق مشاعرها، ولم تستطع السماح لنفسها بأن تُقيّد إلى شخصٍ لا تحبه. شعرت أنها أصيبت بدوار شديد من التأرجح ذهابًا وإيابًا كالبندول، كما لو كانت هناك ساعة تدق في رأسها: نعم، لا، نعم، لا ... كم سترتاح لو أنها ببساطة أغلقت عينيها وأشارت عشوائيًا إلى الإجابة. لكن لا، فقد آلت على نفسها أن تفكر في الأمور بشكل صحيح. فقط لو أن تلك الساعة تتوقف عن التكتكة ... لم تكن في حالة لتتعارك مع انفعالاتها، فقد كانت هشة للغاية.

عليها أن توقف جميع التأملات، أن تُسَلِّم للقوى الخفية، التي تدفعها أسفل ذلك المنحدر السحيق، وأن تخضع تمامًا لظروف اللحظة الراهنة- لأن تدعها تقرر. التقت عيناها بعينيّ أوتو، وانتابتها رجفة وصلت أسفل عمودها الفقري. نهضت.

***

قام فنسنت من على طاولة اللعب؛ وأخذت بيتسي مكانه.

سأل فنسنت، مقلدًا لهجتها، «حسنٌ، إيلي، هل فكرت بَعْدُ في أي شيء صادم؟».

التزم البيانو الصمت. كانت ليوني قد ذهبت للجلوس مع إيميلي، وكانت تعطيها وصفًا حيًا لإحدى الرقصات، التي استضافتها عائلة فان لارن مؤخرًا. دار إتيان حول كرسي البيانو، ما أضحك آنجه كثيرًا لدرجة أنها انهارت على المقعد المنخفض، وهي تغطي وجهها بيديها، وكان پول، وهو يضحك أيضًا، يتصفح بعض النوتات الموسيقية.

تلعثمت إيلينه: «ماذا؟ ما الذي تعنيه؟».

«تتذكرين أنكِ أخبرتني من قبل كم كنتِ تريدين أن تفعلي شيئًا صادمًا؟ حسنٌ، أنا أسألكِ فقط إذا كنت قد فكرت بَعْدُ في أي شيء، وأنا سأسعد بالانضمام بكل ممنونية».

أزعجها أسلوبه المازح، ففي حالتها الذهنية الراهنة غير العادية، جاء ذكر انفلاتها العاطفي الطائش ليذكِّرها بآمالها، التي اختفت. لا، لم تكن لديها الرغبة في الانغماس بأقل شيء في شيء مشين أو متهور؛ كانت ترغب في أن تكون عاقلة، عاقلة كأوتو. كانت ما يكفي من حماقة لأن تسمح نفسها بأن تصاب بخيبة أمل في الحب، إن كان يمكن أن تطلق على جنونها هذا الاسم، وهي لن تدع عواطفها تهرب معها مرة أخرى أبدًا.

كافحت لدرء الندم المرير، الذي يُطل بوجهه القبيح كالأفعى في روحها.

تملَّكها شعور بالذعر، وهي تبحث عن رد خفيف الظل على مزاح فنسنت. فكرة جديدة فرضت نفسها فجأة. لا، لم تكن هناك عودة إلى الوراء. من الواضح أن أوتو وبيتسي كانا يتوقعان منها الموافقة. لماذا إذن طلبت من بيتسي دعوته على تجمع ودي لو كانت فقط ترغب في رؤيته؟ بالتأكيد كانت ستكتب له رسالة موجزة من جهة أخرى؟ لقد اتخذت قرارها، قُضِيَ الأمر، أفسح ذعر لحظة مضت الطريقَ أمام إحساس بقدر كبير من الهدوء الذي اجتاح كيانها كله.

«ولكن يا فتاتي العزيزة، أعتقد بأن عقلك يلف ويدور!»، قال فنسنت

ضاحكًا. سألها لِمَ لَمْ يكن جورج دي فوده بين الحضور، غمغمت، وهي مشتتة الذهن:

«ياه، أليس موجودًا هنا؟».

جعل هذا إيلينه تضحك أيضًا، والآن عادت لنفسها مرة أخرى. جلسا.

«سامحني، لدي قليلٌ من»، غمغمت، ولمست بإصبعها خصلة شعر حليقة طائشة طارت على صدغها.

قال، وهو يلاحظها في ارتياب،» آه، صداع! أعرف كل شيء عنه. أعتقد بأنها شكوى عائلية، نحن عائلة فيره عرضة للصداع».

تطلعت إليه وأجفلت. هل خمَّن أي شيء؟

«أنا نفسي أصبت بالصداع فقط الآن؛ كانت الموسيقى السبب فيه- كما تعلمين، كل ذلك القرع على البيانو. كان الأمر كما لو كنت أرى كل أنواع الألوان الصارخة، الأخضر والأصفر والبرتقالي، كلما بدأت تلك الشابة المفعمة بالحيوية- ليوني، أعتقد أن هذا هو اسمها- الغناء، أرى اللون البرتقالي».

سألت بدلال: «وماذا عنيّ عندما أغني؟ ما الذي تراه إذن؟».

«آه هذا أمر مختلف تمامًا»، أجاب جادًا: «كلما غنيتِ أرى مجموعة كبيرة ومتناغمة من الوردي والأرجواني، كلها نعومة وذوبان. طبقات صوتك المنخفضة وردية، والعالية أرجوانية وبراقة»، وعندما يغني پول يصبح كل شيء رماديًا، مع مسحة من البنفسجي أحيانًا».

بدأت تضحك، كما ضحك پول، الذي تناهى إلى سمعه التعليق الأخير.

«ولكن يا فنسنت، أنت تهذي!».

«ربما هو كذلك، غير أن رؤية الألوان بهذا الشكل شعورٌ غير عادي. ألم يحدث لكِ من قبل؟».

فكرت للحظة، بينما اقتربت آنجه وإتيان، بعدما سمعا ما كان يقوله فنسنت.

«لا، لا أعتقد أنه قد حدث لي.».

«ألم تجدي من قبلُ أن نغمات موسيقية بعينها تذكركِ برائحة عطر معين مثل الأبوبناكس أو ريسيدا؟ صوت الأرغن يشبه البخور. الاستماع إليكِ وأنتِ تغنين آريا بيتهوفن آه پرفيدو يذكرني دائمًا برائحة عشبة رِعْيُ الحَمام بالنسبة لي، خاصة أي من المقاطع العالية في نهاية الآريا. في المرة القادمة، التي ستغنينها فيها سأخبركِ بالضبط أي مقطع منها».

قهقهت آنجه.

«يوه، يا مستر فيره، كم رائع أن تكون لديك مثل حاسة الشم الحادة هذه!».

ابتسم الجميع، وبدا فنسنت أيضًا في حالة معنوية عالية.

«لكن هذا صحيح، لأعطيكِ كلمة شرف».

همس إتيان: «أخبركم بشيء: بعض الناس يذكرونني بالحيوانات. هِنْك، مثلاً، يذكرني بكلب كبير، بيتسي تذكرني بدجاجة ومدام فان دير ستور بالكابوريا».

أعقب كلامه دويٌ من الضحك، مما دفع أوتو وإيميلي وليوني بأن ينهضوا من مقاعدهم، ويقتربوا.

سألت إميلي بفارغ الصبر: «ما الأمر المضحك هكذا؟».

صاحت آنجه عاليًا، وعيونها تدمع من الضحك، «مدام فان دير ستور كابوريا!».

سألت ليوني: «وأنا يا إتيان، بماذا أذكرك؟».

صاح إتيان: «أوه، أنتِ وآنجه زوج من جراء الكلاب، هوو، هوو، أما بالنسبة للآنسة دي ڤوده»، همس في أذن آنجه». «فتذكرني بديك رومي، بذقنها المزدوجة. آنسة فرانتسين ديك رومي أيضًا، من نوع مختلف قليلاً. ڤيليم الخادم لقلق مبجل، ودين، خادمة عائلة فرسترايتن العجوز، ببغاء بعُرْف».

قالت ليوني، وهي تكتم ضحكتها، «يا له من معرض للحيوانات! فُلْك نوح بحق!».

سأل پول: «وإيلينه؟».

«آه، إيلينه»، ردد إتيان على نحو غامض. «أحيانًا تكون طاووسًا، وأحيانا أفعى، لكنها الآن حمامة صغيرة».

ضحكوا جميعًا بحرارة، وهم يهزون رؤوسهم على خيالاته المفرطة.

* * *

«إتيان ظريف دائمًا،' علقت إيلينه لأوتو عندما تفرقت المجموعة الصغيرة؛ استدارت لتبتسم، وتلوح لمدام فان رات، التي كانت تخلت عن مكانها على طاولة اللعب لإيميلي. في الوقت نفسه حاصرت فتاتا إيخوف فنسنت اللتان أحدثتا ضجة لتعرفا ما كان يعتزم افتتاح محل للعطور.

قال أوتو: «نعم، بالفعل. إتيان ظريف جدًا، ولديه كل الأسباب لكي يكون كذلك، لأن لديه كل شيء قد يتمناه».

كان في لهجته مسحة حزن، كما لو لم تكن هذه هي المسألة بالنسبة له، ولم تستطع إيلينه أن تفكر في أي رد. لفترة من الوقت ظلا واقفين جنبًا إلى جنب، دون أن ينطقا كلمة واحدة. مدت يدها لتلمس مجموعة الريش في باقة ماكارت لأزهار الزينة، وبدأ الاضطراب في عقلها مرة أخرى.

«ألديكِ أي شيء تودين أن تقولينه لي؟»، غمغم. لم يكن هناك أي أثر للعتاب في صوته.

أخذت نفسًا عميقًا.

«حقيقة، أنا ... آه، ليس بَعْدُ، أرجوك سامحني. في وقت لاحق، أعدكم، خلال فترة قصيرة ...».

قال: «حسنٌ، في وقت لاحق. سأكون صبورًا- طالما استطعت إلى ذلك سبيلاً»، صوته الهادئ أسكن روع تعقيد مشاعرها المتشابكة. لا تستطيع أن

ترفضه الآن، لكنها لم تستطع أن تعلن عن قبولها كذلك.

شعرت بدفعة من إعجاب للباقته ودماثته في أثناء استمراره في التحدث في مختلف الموضوعات، التي شكلت شيئًا من اهتمام لأي منهما. كانت تلك الطبيعة غير المتكلفة في الواقع أعظم مزاياه، وذلك السبب كان الناس يحبونه كثيرًا؛ كان نفسه بصدق تمامًا لدرجة أنه بدا عاجزًا عن الاحتفاظ بأي أسرار قد يُفَضِّل أن يخفيها. بينما كان يتحدث لم يتظاهر بمناقشة أي شيء ذي أدنى أهمية، تمنى ببساطة أن يظل واقفًا بجانبها، ومن أجل ذلك أراد أن يجذب انتباهها- كان ذلك واضحًا تمامًا في صدى صوته الدافئ. لم يكن ذهنه في المحادثة، بل لم يعبأ حتى إن كانت قد لاحظت ذلك. لأول مرة شعرت بشيء كالشفقة تجاهه. كانت قاسية معه، وكانت تجعله يعاني، ومرة أخرى شعرت بتلك النعومة الغريبة الذائبة في قلبها.

دار خيرارد حاملاً الصواني الفضية المحملة بالمرطبات.

«هل ترغبين في تناول الشربات يا مدام، وفطيرة حلوة؟»، سألت إيلينه مدام فان رات، التي كانت تجلس وحيدة على الأريكة وتبدو مهجورة إلى حدٍ ما، رغم أنها كانت تبتسم بين الحين والآخر لمجموعة الشباب، الذين كانوا يخبرون أنصبتهم لبعضهم في بطاقات اللعب.

«انظر»، قالت لأوتو: «ماما هِنْك جالسة وحدها تمامًا، يَحْسُن بي أن أذهب وأشاركها الصحبة».

أومأ رأسه بلطف، وذهب ليستمع إلى الطالع الذي كانت آنجه تقرؤه لپول. أشارت إيلينه إلى خيرارد، وأخذت شربات وفطيرة حلوة من الصينية، وقدمتها لمدام فان رات، ثم جلست بجانب السيدة العجوز وأخذت يدها.

نظرت مدام فان رات متجاهلة المرطبات في عينيّ إيلينه.

سألت المدام: «حسنٌ، ماذا يكون من أمر؟».

في حالة ذوبانها في الرقة، لم تكن إيلينه حتى منزعجة من إصرار السيدة

العجوز. أجابت بهدوء جدًا، بصوت غير مسموع تقريبًا:

«أنا ... أنا سأقول نعم».

تنهدت، وشعرت بالدموع تموج في عينيها بينما تسمع نفسها تتحدث. نعم، سوف توافق. لم تستطع أن تجد شيئًا أكثر لتقوله للسيدة العجوز، لأن ذلك الاعتراف الوحيد شغل ذهنها عن آخره حتى استغرق كل الأفكار الأخرى. جلسا معًا في لحظة صمت، وتحول ظهرهما بنصف حركة نحو الجمع المبتهج في جميع أرجاء الحجرة. فجأة أدركت إيلينه صوت آنجه الحاد، وهى تقرأ بطاقات اللعب الواحد تلو الآخر.

«الآن استمع جيدًا، مستر فان إرليفورت. أنا أذكى بكثير في هذا من مدام لينورماند، كما تعلمون. وهاك بطاقتك: ملك القلوب. أرى أنك في وادٍ من الدموع، لكن ليس لفترة طويلة. سوف تصبح غنيًا جدًا، وسوف تعيش في قصر ريفي ضخم في جبال البرانس. أم تُفَضّل ڤيلا في نيس؟ آه! ها هى ذي! ملكة القلوب! أنت بعيد بعض الشيء، لكن كل البطاقات فيما بينها مواتية. سيكون عليك التغلب على العديد من العقبات للوصول إليها، لأن الكثير يسعى للوصول إليها: انظر، ها هو ملك الأندية، وملك الماس، بل إن هناك أحد من عامة الشعب، واحد ديمقراطي اشتراكي من فضلك، جاك البستوني!».

«ياه، بلاك جاك!» صاحت ليوني. «اخص عليه!»

ابتسمت إيلينه ابتسامة شاحبة، وهى تمسح دمعة التصقت برموشها، وابتسمت مدام فان رات أيضًا.

تابعت آنجه بحماس: «انظروا، انظروا كيف بدأت تظهر تلك الآسات بشكل رائع! لا تخف، مستر فان إرليفورت، لا تخف، كل شيء يتضح بشكل لطيف».

غمغمت مدام فان رات: «يبدو أن البطاقات تبشر بالخير».

ابتسمت إيلينه بشفاه مزمومة، لكنها كانت متوترة، فبطاقة بلاك جاك ذكرتها

بفابريس.

***

نهض لاعبو الورق، كان الجميع يتحدثون في وقت واحد، وأفضت قراءة الطالع إلى المرح في كل الأرجاء، وعندما تنبأت آنجه أن إتيان لن يتزوج أبدًا، احتج بشدة، قائلاً إنه ليس لديه نية للبقاء عزبًا طوال حياته.

بعد ذلك أقنعت آنجه وليوني پول بغناء قطعةِ موسيقية لماسينيت بمصاحبة ليوني، بينما كان يغني، أبقت بيتسي عيونها مفتوحة على أختها وأوتو؛ كانت على يقين بأن شيئًا لم يستجد حدوثه بينهما حتى الآن. لِمَ كانت إيلينه خجولة للغاية؟ بيتسي نفسها لم تصدر عنها مثل هذه الضجة في يومها، ووافقت على طلب فان رات المتلعثم للزواج بلطف كبير. ما الذي كانت إيلينه مترددة بشأنه؟ ما السبب، الذي قد يكون لديها لرفض فان إرليفورت؟ لقد خُلِقا لبعضهما. كانت منزعجة من تذبذب أختها العاطفي عندما أتيحت لها الفرصة للزواج من عائلة ممتازة، ورجل يعمل في وظيفة مقبولة كبداية. استقرت نظرتها السريعة ببرود على بنيان إيلينه النحيل، والتي أضفت عليه تلك الحالة المتذبذبة نفسها المزيد من الجاذبية، لاحظت بيتسي هذا، كما لاحظت جدية غير معتادة على سلوك أختها. يا لها من جلبة حول مثل هذا الأمر البسيط! لكن عندما وقعت عينيها على زوجها، الذي كان يدردش مع أوتو، شعرت بالضيق ربما أكثر. يا له من مغفل! أليست لديه أي فكرة لِمَ دُعِيَ أوتو على العشاء في منزلهم الليلة؟

كانت مدام فان رات غادرت بالفعل، متأخرًا أكثر مما هي عادتها ومصابة بخيبة أمل كبيرة، لأنها كانت تأمل أن تسمع الإعلان عن خِطْبة إيلينه في الجو الحميم وسط بيت ابنها. كان الوقت الآن بعد منتصف الليل؛ استأذنت مدام إيخوف وبناتها بالانصراف، وإيميلي كذلك، وكان فنسنت وپول أيضًا يستعدان للذهاب، بينما رافق هِنْك وإتيان الفتيات ذوات المعنويات المرتفعة نزولاً إلى الصالة نحو عربتهم.

بقيت بيتسي وإيلينه وأوتو في حجرة الانتظار. أطبق صمت غير مريح، ثم توجهت بيتسي إلى الصالون، حيث شغلت نفسها بترتيب طاولة اللعب.

شعرت إيلينه بأن الأرض تميد تحت قدميها. لم تستطع إخفاء ارتباكها عن أوتو الذي، رغم أنه لم يكن يقصد فرض نفسه عليها للمرة الثانية هذا المساء، وجد نفسه عاجزًا عن مقاومة إغراء فرض نفسه عليها، لأنهما كانا وحدهما.

همس بصوت اختنق: «إيلينه، أيجب عليّ حقًا أن أتركِكِ هكذا دون إجابة؟».

حبست أنفاسها للحظة في خوف؛ ثم غمغمت بتنهيدة مرتجفة:

«أوتو ... حقيقة، أنا ... أنا لا أستطيع ... ليس بعد!».

قال لها: «تصبحين على خير إذن، أرجو أن تسامحيني لأنني سألت مرة أخرى»، ومع رده هذا ضغط برفق على أصابعها وتركها، لكنها شعرت فجأة بأنها تذوب. ارتجفت جميع أعضاء جسدها، وسقطت تقريبًا على الأرض، ولكنها أنقذت نفسها بالإمساك بستارة الباب حتى لا تسقط، وصرخت، في استسلام كامل لاجتياح عاطفتها:

«أوتو! أوتو!».

أفلتت منه صيحة منخفضة، وهو يعود ركضًا ليمسكها بين ذراعيه، ومبتسمًا بابتهاج وفرحة أخذها إلى حجرة الانتظار مرة أخرى.

صاح: «إيلينه، إيلينه! هل هذا صحيح؟».

لم تتكلم، ولكنها اندفعت في النشيج، مكسورة ومهزومة، إلى صدره، وشعرت به يشدد ذراعيه حولها.

«إذن أنتِ ... سوف تكونين زوجتي؟».

بادرت برفع وجهها إليه، وهي محبوسة في حضنه، ولم تُجِبْه إلا بنظرتها الدامعة وابتسامتها العابرة السريعة.

«إيلينه، ملاكي»، قال هامسًا، وضغط شفتيه على جبينها.

من الصالون أتى رجع الأصوات: هِنْك وإتيان عادا من الردهة، إتيان مرتديًا معطفه الخارجي، وممسكًا قبعته في يده.

«ما الذي أخَّرَ أوتو؟»، سمعته إيلينه يسأل بصوتٍ عالٍ، وسمعت بيتسي أيضًا تهمس بشيء ردًا على السؤال.

نظر أوتو لأسفل، وهو يبتسم لعاطفة إيلينه بينما كانت تبكي وخدها على صدره.

«هل يمكن؟»، قالها ببساطة، وهو يشع فرحًا.

ببطء، ببطء شديد سمحت له بأن يقودها نحو الصالون، وهي في نشيجها الرقيق بين ذراعيه، ودفنت وجهها في كتفه. تقدمت بيتسي نحوهما وهي تبتسم، وألقت نظرة تواطؤ خاطفة على أوتو وهي تصافحه. أصيب هِنْك وإتيان بالدهشة الكاملة.

قال أوتو: «فان رات، اسمحوا لي ... اسمحوا لي بأن أقدم لكم خطيبتي؟».

بدأ هِنْك يبتسم أيضًا، في حين ابتسم إتيان ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن ودارت عيناه في مقلتيهما.

«يا لكَ من ثعلب عجوز ماكر!»، هتف بالقول، وهو يهز إصبعه نحو أخيه. «أخفيت عنّا الأمر بهذا الشكل!».

لكن إيلينه، التي كانت لا تزال تذرف الدموع، انفصلت عن حضن أوتو، ودفعت بذراعيها حول عنق هِنْك. قَبَّلَها، ثم تمتم بصوته العميق:

«حسنٌ، حسنٌ، أختي الصغيرة، أهنئكِ من كل قلبي! الآن إذن، لا تبكي، لا داعي لذلك، أليس كذلك؟ هيا، أعطني ابتسامة، لدينا فتاة شاطرة هنا».

أخفت وجهها بين يديها، الأمر الذي جعل بيتسي تخطو للأمام وتساوي خصلة شعر طائشة من على جبهة أختها قبل أن تُقَبِّلَها أيضًا.

قالت بفخر: «أنا سعيدة للغاية أن سهرتي الصغيرة انتهت على خير من ما يرام!».

***

أراد هِنْك من أوتو البقاء لفترة أطول قليلاً عندما تمكن إتيان من التسلل في الانصراف سرًا، لكن إيلينه غمغمت بصوت خافت إنها في غاية التعب أكثر من أي وقت مضى، لذلك رفض أوتو البقاء. كان مبتهجًا للغاية لدرجة أنه لم يكن يتمنى شيئًا أكثر من ذلك: سوف يذهب يملؤه الفرح حتى الثمالة، ورأت أن اللطيف للغاية منه أن يصافحها ببساطة لتوديعها بدلاً من تقبيلها أمام الجميع.

بمجرد أن ذهب الأخوان فَرَّت إيلينه إلى حجرتها، حيث قَدِمَت على مينا، وهى تضيء القنديل. كانت الخادمات قد سمعن الخبر بالفعل من خيرارد، الذي دخل الصالون في لحظة غير مناسبة، هنأتها مينا، وهى تحدق فيها بابتسامة فضولية.

قالت إيلينه متلعثمة: «شكرًا لكِ يا مينا ... شكرًا لكِ».

وحدها أخيرًا، ألقت نظرة خاطفة في المرآة، وصُدِمت لرؤية شحوب خديها، اللذين خطت عليهما الدموع. لكنها في اللحظة التالية شعرت وكأن روحها تنزلق إلى بحيرة ضحلة زرقاء هادئة، شعرت بالمياه الساكنة قريبة منها، ووجدت نفسها فيما بدا أنه عالم السلام الأبدي، نيرڤانا من الغبطة والسعادة لم تخطر لها على بال.

١٦

كان يومًا منعشًا ومشرقًا في مايو، بعد أسبوع من لا شيء سوى المطر والضباب البارد. كانت چين أرسلت الأطفال- دورا وڤيم وفريتسيه - لنزهة في غابة شيڤينينجن مع المربية، بينما ظلت هي بالبيت، ذلك أن هناك دائمًا الكثير مما يجب عليها القيام به. شعرت الآن بالوحدة والهجر في الشقة الضيقة فوق دكان البقالة، التي تجلس فيها وحدها تمامًا، تقوم بإصلاح أشياء في أشعة الشمس الشاحبة، التي رحبت بها الآن في مسكنها، دون أن تفكر في سجادها وستائرها. كان فرانس بالخارج؛ كان قد أخذ القطار إلى أمستردام لاستشارة أحد الإخصائيين. أيقنت أن الساعة كانت الآن الواحدة والنصف، ونظرت نظرة عابرة على الساعة على رف المستوقد تدق بصوتٍ عالٍ في الحجرة الساكنة. ولن يعود فرانس قبل حوالي الساعة الخامسة والنصف. بدت الساعات، التي تتخللهما كأنها الدهر، رغم أنها كانت سعيدة بوجود فرصة للعمل دون أن يقاطعها أحد.

لم تبالِ حينما مالت أشعة الشمس على وجهها؛ بل بالعكس، استمتعت بدفئها الواهن، وتلألأ النور على شعرها البني الفاتح، مانحًا خديها الشاحبين الغائرين شفافية كالمرمر؛ وتلألأ أيضًا على الأصابع النحيلة الدقيقة، التي كانت تستعمل الإبرة بانتظام يدٍ خبيرة. ياه، كم اشتاقت للصيف! لم تطق أن تنتظر انتهاء مايو- كل ذلك الطقس الرطب والضبابي، الذي أتاهم، وقلما جاء يوم صافٍ! كم كان سخيفًا منها أن تتوقع من شهر مايو هذا أن يرقى إلى مستوى السمعة الجليلة كان حَظِيَ بها بين كل أولئك الشعراء الرومانسيين!

ابتسمت بحزن، وهي تنحني على ما كانت تحيكه، وتدفع بالدرزة إلى أسفل بظفرها، وهي تخيط الغرزة. كم كانت غريبة الطريقة، التي تلاشت بها خيالاتها

في الهواء، حتى أكثر تلك الخيالات تواضعًا، بينما تواصلت حياتها، وكيف ظَلَّ المستقبل الذي مَثَّل رهبة لا تُوصف لها يتراجع لإفساح الطريق لرتابة واقع حياتها اليومية. شعرت بقشعريرة لدى إحساسها بهذا الإحساس الداخلي المتشائم يتسرب إليها كأنه شبح يكتنفه الغموض، بالخوف من أن كارثة ما ستصيبهم وتسحقهم جميعًا. ضغطت يديها على صدرها، وأخذت نَفَسًا عميقًا ومرتجفًا، وشعرت بالقشعريرة مرة أخرى، لا لنفسها، ولا لزوجها، ولكن من أجل أطفالها.

نهضت واقفة. رأت أن من المستحيل أن تواصل عملها، إلا أنها لا ينبغي أن تكون كسولة في اليوم المشمس، الذي يندر وجوده عندما يكون الأطفال خارج البيت، ولا يوجد هناك أحد ليزعجها. ياه، لِمَ لَمْ تكن أقوى؟ اتكأت على النافذة، لتتلذذ بأشعة الشمس كزهرة شاحبة في صوبة زجاجية تشتاق إلى الضوء والهواء، نظرت إلى أسفل على المساحة المربعة من الحديقة في الجانب الخلفي من دكان البقالة. كانت هناك شجيرة لَيْلَك تفتحت براعمها، لكن لم يكن هناك أي شيء آخر ينمو في فراش الأزهار الرئيسي أو على الجانبين، وفجأة وقع نظرها على الورود الفارسية، كتلك، التي كانوا يزرعونها في مسكنهم في تيمانجونج، معرضٌ من الزهور وردية اللون تنشر أزكى شذاها. كان بإمكانها أن تشم رائحتها الآن، وبدا أن تذكرها للورود الحمراء دفع بهمومها بعيدًا، ولم يتبقَّ سوى شعور بالحنين اللطيف للدفء والحب.

كانت تقف هكذا عندما دق جرس الباب؛ وبعد لحظة دخلت ماتيلدا فان رايسل.

* * *

كانت المرأتان التقتا عدة مرات في منزل عائلة فان رات، ووجدتا أن لديهما تعاطفًا لبعضهما البعض.

«لا بد أن اعترف أنني جئت بدافع خفي، لأنني أريدكِ أن تتمشي معي»،

قالت ماتيلدا بدفء: «الطقس اليوم لطيف بالفعل، ومن المفيد لكِ أن تستنشقي بعض الهواء».

«ولكن يا تيلي، الأطفال بالخارج، وكذلك فرانس. لذلك علي حقًا الاستفادة من ذلك والانتهاء من بعض الأعمال».

«حسنٌ، ألا أستطيع أن أغريكِ بأي شكل؟»، استطردت ماتيلدا: «الأمر يبدو كما لو كان عليكِ حراسة المنزل، أليس كذلك؟».

«لا، لكن الأطفال ... سوف يعودون في وقت قريب، وماذا لو لم يجدوني في البيت؟»

«يوه بجد، يا چين، سوف يظلون على قيد الحياة. أنتِ تفسدينهم. وبالنسبة لزوجك فإنه خارج المنزل، حسنٌ، ذلك ليس سببًا يجعلك تبقين في المنزل، أليس كذلك؟ لذلك لو سمحتِ ارتدي قبعتكِ ومعطفكِ، لدينا هنا فتاة عاقلة، وتعالي معي. يمكنك استكمال الخياطة عندما تُمطر».

لم تشعر چين بالراحة تمامًا إلا عندما أخذتها من يديها صديقتها الجديدة، التي تجد في صوتها الطيب، حتى عندما تمزح، اتجاهًا خفيًا من الجزع أو اليأس. تم التوصل إلى حلٍ لذلك إذن، وسوف تذهب معها، ركضت إلى الطابق العلوي لتغير ملابسها، تدندن في سرها.

كانت جاهزة في وقت قصير للغاية، وبعد تحذيرات متكررة لميتيه صَحِبَت ماتيلدا إلى الشارع. النسيم البارد صَفَّى ذهنها، وجعل وجنتيها الشاحبتين تتوردان قليلاً بينما واصلت صديقتها الدردشة، موضحة أنها أوصلت تينا وچو لتوها في ناساوپلاين لأن بيتسي وإيلينه كانا قد أخذا بِنْ في نزهة، وكانا قد دعيتا الطفلين الأكبر سنًا للمجيء.

سألت چين: «والصغيران؟».

«آه، ماما أصرت أن تأخذ مادلين ونيكو للنزهة، إنها تعشق أحفادها كثيرًا. عزيزتي ماما!».

بعد وصولهما إلى نهاية طريق فان ميرديفورت، عَرَّجا على الطريق إلى شيڤينينجن. كان ثمة عدد قليل من الناس. شعرت ماتيلدا أن الهواء النقي أمدها بالحيوية والنشاط، وخلافًا لعادتها، أصبحت ثرثارة.

قالت: «ليس لديكِ أي فكرة كم ماما طيبة معي. كل ما تهتم به هو الأسرة، أولادها وأحفادها. لا تفكر في نفسها أبدًا، وحياتها بأكملها مكرسة لنا، وأنا على يقين من أنكِ لو سألتها أي منا تحبه أكثر، فسوف تعجز عن أن تخبركِ. بالطبع هى تحب إتيان لدرجة العبادة، فهو دائمًا سعيد كطفل يلعب في الرمال، ويجعلها تضحك، لكن ليس لدي أدنى شك مطلقًا في أنها مكرسة لفريدريك وأوتو على قدر المساواة، ولصغاري أيضًا. ودائمًا ما تبعث برسائل إلى أبنائها، الذين يعيشون بعيدًا تشكو أنها لا تراهم بالقدر الكافي. يمكنكِ أن تتخيلي كم كانت متأثرة عندما تركت كاترين وسوزان البيت لتتزوجا. أعتقد بأن ما تود أن تفعله حقًا هو أن تبني فندقًا ما حتى يمكنها أن تجعل كل واحد منا يعيش معها: تيودور وهوارد وسترالنبورج والباقي. عزيزتي، ماما الطيبة!».

توقفت كلٌ منهما عن الكلام لفترة من الوقت. امتد الممر أمامهما كشريط رمادي، ليبرز عنه منظور طويل من جذوع الأشجار تحت زخرفة شجرية مكونة من أغصان في مهدها. تلألأت أشعة الشمس على أوراق الأشجار الخضراء والصفراء، التي تتجلى للعيان وسط السماء الزرقاء الصافية، اكتست الجذوع، التي أبلاها الزمن بالطحالب الجديدة ذات الملمس المخملي، وبدت زقزقة أصوات العصافير بلورية في الهواء الصافي.

قالت ماتيلدا: «كم جميل الجو هنا! منعش للغاية. ولكن لنأخذ أحد ممرات المشاة. هناك لن يتعين علينا رؤية أولئك الناس هناك، ولن يتعين عليهم رؤيتنا. نحن البشر نبدو نشازًا في البيئات الطبيعية. أرى أن الناس يفسدون المنظر، خاصة في الربيع، عندما يكون كل شيء أخضر بكثافة كبيرة ... أصبحت فيلسوفة، أتصدقين!».

ضحكت چين. شعرت بقدر كبير من البهجة؛ العالم مليء بالجمال والخير،

مليء بالحب أيضًا، وتحولت أفكارها لفرانس ...

* * *

جلسا على دكة للراحة، وبادرت چين بالسؤال: «ماذا بكِ يا ماتيلدا؟ دائمًا تتحدثين عن أملِ، ولا تتحدثين أبدًا عن نفسكِ».

بدأت ماتيلدا.

«عني؟ أنا أبذل ما في وسعي حتى لا أفكر في نفسي ... أنا ... أنا لا شيء، لا شيء من دون أطفالي. يمكنني أن أفعل أي شيء من أجل صغاري. لولاهم لكنتُ في عداد الأموات».

حزن كلماتها كذبه التسليم في نبرة حديثها.

«تخيلي أن تعتقدي بأنكِ سعيدة في زواجكِ من زوج محب لدرجة أنكِ مستعدة للتضحية بالروح والجسد من أجله، لتستيقظي بعدها في يوم من الأيام لتجدي ... لكن دعينا لا نتحدث عن ذلك الآن؛ كل ذلك كان في الماضي».

«هل تذكرها مؤلم لهذا الحد؟».

«أوه لا، لم يعد كذلك، لكن مَرَّ عليّ وقت عندما كان الألم سيئًا للغاية لدرجة أنني ظننت أنني فقدت عقلي، ولمتُ الله على معاناتي، لكن ومنذ ذلك الحين بات الألم شيئًا ضبابيًا، ولم أعد أشعر به بعدها. لا أفكر فيه أبدًا، فقط أفكر في أطفالي الأربعة الأعزاء، وهم يشغلونني كثيرًا لدرجة تجعلني لا أفكر باستمرار في الماضي. تعرفين أنني كنت أعطيهم دروسًا في المنزل، أليس كذلك؟ لكنني أظن أن الوقت قد حان لأن تذهب تينا ويو إلى المدرسة، على الأقل هذا ما يقوله أوتو، لكنني سوف أفتقدهم بشكل فظيع، وبالطبع ماما تتفق معي حول هذا الموضوع. فأنا أحبهم كثيرًا!».

ظنت چين أنها كشفت عن مسحة من مرارة في صوت ماتيلدا، وتقدمت نحو صديقتها لتأخذ يدها.

همست: «أيتها العزيزة المسكينة».

أجابت ماتيلدا ببساطة: «نعم، أنا مسكينة. مسكينة أكثر منكِ، على أي حال، لأنكِ على الأقل زوجة وأم كذلك!»، حاولت أن تبتسم، وامتلأت عيناها بالدموع بينما تابعت القول: «أعلم بأنكِ لا تقضين وقتًا سهلاً بسبب هذا بأي شكل من الأشكال، لكنكِ لست مسكينة مثلي. يمكنك التفكير في ذلك كعزاء عندما تشعرين بالإحباط، فقط فكري فيّ وكم أحسدكِ إذا لم أشعر بأنني ... مقتولة تمامًا من الداخل».

«ياه، يا ماتيلدا، يؤلمني أن أسمعكِ تقولين شيئًا من هذا القبيل!».

«حسنٌ، ليس هناك سبب يحملكِ على ذلك، لأنني أنا نفسي لم أعد بَعْد أشعر بالألم. إنه مجرد ذكرى بعيدة عن شيء انتهى وقضي أمره، كما تعلمين. هذا كل ما في الأمر. ومع ذلك، فمن الأفضل ألا نتحدث عنه، لننسى ما فات».

«ياه، يا ماتيلدا، كيف يمكنكِ تحمل إبقاء كل شيء محبوسًا داخلكِ؟ لا يمكنني أبدًا القيام بذلك، فأنا أفضّل أن أبوح بما في قلبي لشخص ما ...».

«لا، يا چين، لا! أنا أعني ما أقول! لا تذكري هذا الموضوع بأي شكل مرة أخرى، أتوسل إليكِ، وإلا ســ... سأعود للحياة مرة أخرى».

اتكأت على ظهر دكة الحديقة، وعيناها تملؤهما الدموع. لما كانت تتشح بالسواد، ووجهها رمادي كالرماد، بدا بها شبهٌ بأيقونة لأسى جارح لانهائي.

لم تكن ترغب في تعود إلى الحياة مرة أخرى؛ بل كانت تود لو ظلت في عداد الأموات.

* * *

أرادت چين أن تعود تقريبًا في الوقت، الذي سيعود فيه فرانس، لذا انطلقتا مسرعتين نحو البيت.

قالت ماتيلدا: «عزيزتي، أخشى أنني أحزنتكِ، بينما كان كل ما أردته أن أبعد ذهنكِ عن الأشياء بنزهة ممتعة. كل ذلك نتيجة لتفلسفي. كلي أمل أنكِ ستسامحينني».

لم تجد چين شيئًا تقوله، لذلك هزت رأسها فقط بابتسامة لتبين أنه لا، لم تكن حزينة، وكان الأمر صحيحًا: في أعماقها كان عليها أن تعترف أنه بينما كانت مفجوعة في البداية بسبب يأس ماتيلدا الهادئ، فقد أدركت الآن، وبعد أن استعادت ماتيلدا جو قبولها وامتلاكها لذاتها، أن ما شعرت به من شفقة نحو صديقتها جعل مشاكلها تبدو تافهة على نحو لا يقبل الجدل بالمقارنة، ولو كانت تعرضت هي نفسها لمأساة كمأساة ماتيلدا، لما تمكنت من اجتيازها مطلقًا. لامت نفسها على شعورها الدائم بالجحود لكل الخيرات، التي تنعم بها، وشعرت بالندم بسبب تذمرها بشأن ظروفها المنزلية في حين أنها عُفِيَت من الكثير والكثير من المحن والبلايا! والعزيز فرانس ... لديه عيوبه، بطبيعة الحال، كان من الممكن أن يكون سريع الغضب وفظًا معها عندما لا يكون بصحة جيدة، لكنه دائمًا ما يعود بسرعة بمجرد أن يدرك أنه كان على خطأ، وهو يهتم بها. يحبها. ارتفع قلبها بالفخر، ووجدت أنه لم يعد من الممكن أن تظل حزينة بدافع الشفقة على ماتيلدا. كان ذلك أنانية منها، ولكن لا يَهُم، فمثل تلك اللحظات من الرضا الحلو بظروف حياتها عابرة جدًا ونادرة جدًا- وبالتأكيد لحظة أنانية لن تفضي إلى أي ضرر؟

لما وصلا إلى البقالة ودعتها ماتيلدا ومضت في طريقها. اشتاقت چين، التي تُرِكَت مع نفسها في شقتها بالطابق العلوي لعودة أولادها، وسرعان ما ظهروا، ووجوهم مفعمة بالنشاط من نزهتهم، احتضنت وقَبَّلَت كل واحد منهم بدوره، أرادت أن تعرف بالضبط إلى أين ذهبوا، وما هي الألعاب التي لعبوها، وعندما ارتسمت على وجه دورا علامات الحزن فعلت ما بوسعها لجعل ابنتها تبتسم مرة أخرى بالنكت والمرح. لا، في الواقع كل شيء كان يسير على خير ما يرام في الدنيا.

١٧

كانت لي لي تقرأ كتابًا في حجرة المعيشة عندما دق جرس الباب. كانت فريدريك، تقوم بآخر زيارة لها في فترة ما بعد الظهيرة.

سألت فريدي: «أين ماري؟ أليست موجودة؟».

ردت لي لي: «نعم موجودة، خرجنا في وقت سابق، لكنها بالطابق العلوي الآن».

قالت فريدريك: «الطابق العلوي؟ كم هو غريب. يبدو دائمًا أنها بالطابق العلوي عندما أزوركم. أنت متأكدة، أليس كذلك؟«.

ردت لي لي: «أوه لا، على الإطلاق. إنها على الأرجح ترسم، أو تكتب».

«تكتب ماذا؟ رسالة؟».

«أوه لا، رواية قصيرة على ما أعتقد، أو شيء من هذا القبيل، لكن لا تقولي أي شيء، حسنٌ؟ أعتقد بأنها تقصد إبقاء الأمر سرًا».

بعد وقفة قصيرة، سألت فريدريك: «هل تجدين أن ماري تغيرت في الآونة الأخيرة؟».

«تغيرت؟ ماري؟ لا، لم ألحظ أي شيء. لماذا تسألين؟».

«أمم، لا يوجد سبب، كل في الأمر أنها تبدو مشغولة دائمًا هذه الأيام».

«لكنها دائمًا هكذا، دائمًا مشغولة، تمامًا مثل يان؛ أنا الكسولة الوحيدة في العائلة وفقًا لبابا».

لم تدلي فريدريك بأي رد. اندهشت أن لي لي لم تلحظ كيف باتت أختها متوترة، ومنعزلة في الآونة الأخيرة، لكنها أخبرت نفسها أنها ربما كانت تتخيل

كل ذلك، وإلا لي لي لن تكون بهذا الرفض.

قالت لتغيير الموضوع: «تعرفين أننا ذاهبون إلى منزل عائلة أودندايك هذا المساء، أليس كذلك؟».

قالت لي لي مازحة: «نعم، لقد ذكرتِ الدعوة. آه، إذن سوف تذهبين. كذلك أيضًا لأنك قد أصبحتِ مملة بشكل فظيع في الآونة الأخيرة، أليس كذلك؟ تصابين بوعكة في كل مرة تُدْعَين فيها، هذا ما يبدو لي».

قالت فريدريك: «حسنٌ، كنت متضايقة. الموضوع أن ... حسنٌ، كان الموضوع بسبب إعجاب أوتو بإيلينه، لكن الموضوع كله قد سُوِّي الآن، وغسلت يديَّ من المسألة برمتها. أنا أفترض أنه يعرف أفضل من الجميع. على أي حال، لا فائدة من الضيق والغيظ لأن ...».

توقفت، عيناها أصبحتا رطبتين وشفتاها متيبستان بالعاطفة المكبوتة.

قالت لي لي بهدوء: «لكن فريدي، إنه يعرفها منذ فترة طويلة، منذ أن انتقلت للعيش مع عائلة فان رات، وإذا كان يحبها -».

«أمم، فقط أريد أن ينتهي كل شيء لما فيه الخير، وأتمنى أن يكونا سعيدَيْن للغاية. المشكلة تتمثل في أنني لا أستطيع أن أطيق إيلينه. بالطبع أبذل قصارى جهدي لأكون لطيفة معها، لكنكِ تعلمين كم هو صعبٌ بالنسبة لي أن أخفي مشاعري. أمم، دعينا نتحدث عن شيء آخر. لا يمكن عمل أي شيء حيال ذلك الأمر على أي حال، وأنا أفضّل ألا أفكر فيه أيضًا. أيمكن أن نذهب، ونبحث عن ماري؟«.

وافقت لي لي، وانطلقتا مسرعتين للطابق العلوي، حيث وجدتا ماري تجلس على طاولة الكتابة الصغيرة في حجرة الجلوس التي تتشارك فيها الأختان. صفحات عديدة من الكتابة مطروحةٌ أمامها، لكنها الآن جالسة وتسند بيدٍ خدها وتشخبط بالأخرى على ورقة فارغة من الورق. أجفلت عندما دخلت فريدي ولي لي.

«لقد أتينا كي نشتت انتباهكِ»، قالت فريدي بصوتٍ عالٍ، وهي تبتسم ابتسامة عريضة». إلا إذا كنتِ تفضلين أن نتركك في سلام بطبيعة الحال».

«أوه لا، مطلقًا. ولي لي لا تظل في صحبتي أبدًا، على أي حال».

لم تقم لي لي بأي تعليق. رأت أن أختها لم تكن عادلة، لأن الصعود للطابق العلوي وحدها كان فكرة ماري، وليس فكرتها، كما أنهما لم تكونا معتادتين على قضاء فترة ما بعد الظهيرة معًا في حجرة جلوسهما.

«ما الذي تكتبين؟ أم أنه سر؟»، سألت فريدي وألقت نظرة جانبية على صفحات دفتر الأوراق.

أجابت ماري بلامبالاة مصطنعة: «لا، ليس سرًا. إنه شيءٌ بدأته منذ فترة، نوعٌ من يوميات السفر عن الرحلات، التي قمنا بها العام الماضي، إلى تورينجن والغابة السوداء، وأهدف إلى تحويلها إلى قصة قصيرة، لكنني مللتها الآن. لا أعرف لِمَ بدأتها في المقام الأول، بحق. لست أنا من تريد كتابة القصص، أليس كذلك الآن».

«ولِمَ لا؟»، قالت فريدي بحماس: «ألن تقرأي لنا شيئًا؟».

«بالتأكيد لا! أضجركم بكتابة نثرية كنثر تلميذة في مدرسة؟ مَنْ تظنونني؟ إنه مجرد شيء لأظلَّ مشغولة، هذا كل ما في الأمر. كنت أشعر بالملل، لذا اضطلعتُ بالكتابة، تمامًا كما تضطلع لي لي بالقراءة. أتعرفين ما الذي أراه يا فريدي؟»، رسمت ماري تعبيرًا جادًا بشكل هزلي على وجهها. «أعتقد بأننا هَرِمْنا! نعم، أقول هِرَمات بكل معنى الكلمة، ومملات كذلك. أتدركين أنه منذ أشهر لم نضحك كثيرًا كما كنا معتادات؟».

قالت لي لي: «أو مع پول وإتيان!».

«معهما أو بدونهما. نحن الفتيات اعتدنا أن نمرح بهذا الشكل! لكن في هذه الأيام ... لا أعرف عنكِ، لكنني أعتقد بأننا جميعًا صرنا مملاتٍ كالمياه الراكدة! ها أنتِ هنا، محبطة وحزينة لأنكِ لا تحبين إيلينه، ولي لي صارت

هادئة وعاطفية تمامًا، تنفق كل وقتها في أحلام اليقظة، وهنا أنا ذا أكتب عن جبال زرقاء وآفاق غائمة نتيجة لمجرد الملل».

ضحكت فريدي: «إلى أين سينتهي كل هذا؟ نعم، المستقبل يبدو موحشًا جدًا، خاصة في حالتكِ. أراهن أن هناك سرًا يكمن وراء تلك الجبال الزرقاء والمشاهد النائية».

«سر؟»، رددت ماري. «أوه لا، لا شيء من هذا. لا شيء على الإطلاق». لمست فودها بيدها، وظنت فريدريك أنها كانت تمسح دمعة بديها. ركزت لي لي على إعادة ترتيب الكتب في إحدى الخزانات.

«ماري!»، قالت فريدريك بهدوء: «إن كان هناك أي شيء يمكنني القيام به للمساعدة، أتمنى أن تخبريني به. أستطيع أن أرى تمامًا أنكِ مستاءة من شيء ما. لِمَ تحتفظين به لنفسك؟».

نهضت ماري واقفة، وأشاحت وجهها جانبًا.

«عجبًا يا فريدي، لا ينبغي أن تقفزي إلى نتائج! أنتِ خبيثة مثل لي لي، تريان أسبابًا رومانسية لكل شيء. لا يوجد أي شيء في الموضوع، اللهم إنني أشعر بالملل نوعا مًا، وأفضّل أن أعمل شيئًا مسليًا من أجل التغيير. حسنٌ، مرحبًا بك، مستر يان!».

وقف يان في المدخل بنظرة متحيرة ساخرة.

قال: «ما الذي تعملونه أنتم الثلاثة؟ تنممن على رجالكم الغندورين على ما أظن».

«هل سمعتن هذا الافتراض من قبل!' «هتفت ماري، نفضت يديها من الرهبة. «غرورك الذكوري الفطري هو ما جعلك تقول ذلك، أنت مجرد طفل مراهق؛ انتظرني، سوف أريك!«.

بدأت تطارده حول الطاولة بينما كان يضحك ويروغ من هذه الناحية أو تلك، ويضع الكراسي في طريقها بسرعة ما وسعه ذلك، الأمر الذي كان تسلية

كبيرة لفريدي ولي لي. وفجأة اندفع خارجًا من الحجرة، وماري خلفه.

«ماذا حدث لماري؟»، تساءلت فريدي. بعد لحظات قليلة عادت ماري، مقطوعة النفس تمامًا.

سألت لي لي: «هل أمسكتِه؟».

أجابت ماري: «بالطبع لا، ذلك الفتى سريع كالبرق، ورشيق وخفيف الحركة كماعز جبلي أيضًا! ياه، كم هو إحساس جميل أن تركضي ... أتمنى لو كنت ولدًا!».

عندما استأذنت فريدريك بالانصراف، صحبتها لي لي إلى الطابق السفلي؛ قالت ماري إنها ستنزل بعد قليل.

لكنها بقيت بجوار النافذة، وحدقت في الخارج، حيث كان الضوء الباهت يغشى العالم بضباب رقيق شفاف ورمادي بلون الرماد. استطاعت رؤية القناة، خضراء ولا تزال الأغصان الممتلئة كثيفة الأوراق تحتها، الطريق يغفو من الخلف ويذوب في الغسق النديّ.

أخذت نفسًا عميقًا. سوف تُخْرِجُ ذلك الإحساس القاسي بالندم من قلبها مرة واحدة وإلى الأبد، بينما شرعت بالفعل في القيام بذلك بعد ظهر هذا اليوم. شعرت بأنها تَهْرَم، هَرِمَةٌ بالتأكيد، وأنها غدت كئيبة ومثقلة بالهموم، لكنها سوف تتحلى بالشجاعة، ولن تغمس نفسها في همومها ومشاكلها، سوف تسحق الزهرة المتفتحة في روحها، وتلعن ذلك المشهد، تطمسه. كان ذلك عذابًا، لكنها رأت أنها تستحقه.

وحدقت دون أي تعبير في الظلام المتزايد، صعد وجه حبيبها أمامها. رأت رأسه الناعم، وصدق نظرته الدافئ، وملامحه الطيبة، وابتسامته الحميمة، لكنه كان يبتسم لإيلينه، وليس لها.

* * *

كانت عربات الترام، التي تسير بين آوده شيڤينينجنزڤيج وكورهاوس مكدسة. وعند تقاطع آنا باولوناسترات وطريق كوبس فان كاتنبورخ اندفع فيها حشد الناس، الذين كانوا منتظرين وامتلأت العربات بسرعة لتطفح من الداخل والخارج على السواء. كان هناك الكثير من التدافع ودهس أصابع القدم، حتى السيدات اللائي كن يرتدين فساتين صيفية ملونة رفرافة انضممن إلى التدافع المحموم على الأماكن. قَرَعَ الجرس، وبدأت الخيول في السير، وابتسم جميع الركاب، الذين تمكنوا من صعود الترام بانتصار في الوقت، الذي صاح فيه الكمساري للناس، الذين خاب رجاؤهم لما تركهم الترام، والذين انصرفوا على الفور لمواجهة وصول الترام القادم.

قالت إيلينه، وهى تراقب هذه الضجة بابتسامة هادئة، «يا له من زحام! كم مريع هذا الأمر!».

كانت تجلس بجانب بيتسي في عربة اللَّندوية المفتوحة في مواجهة هِنْك وأوتو. اضطر ديرك الحوذي للتوقف للحظة، لكن الآن بدأ رتلُ المركبات الطويل في التحرك مرة أخرى. جلس هيرمان السائس الشاب بالزي الرمادي الشاحب ذي الأزرار اللامعة مستقيمًا كمسمار وذراعاه مطويتان إلى صدره وشفتاه مزمومتان في تعبير عن إحساسه بأهميته.

قالت بيتسي: «لا بد أن يكون هناك أعداد كبيرة من الناس، لكن بما أننا في الهواء الطلق، فستكون هناك أماكن كافية، ليس هناك داعٍ للقلق».

ليس ثمة نسمة هواء تحرك أوراق الشجر الكثيفة، وبعد نهارٍ درجات الحرارة العالية أتى الغسق المتزايد بقليل من الارتياح. بدا الهواء خاملاً، ثقيلاً كالرصاص. اتكأت إيلينه بظهرها على مقعدها، وبدت باهتة اللون بسبب الحرارة؛ تحدثت قليلاً، اختلست النظر فقط إلى أوتو من وقت لآخر بعينين مسدلة الجفون، بلمسة من الرضا المشوب بالدلال. وكانت بيتسي تدردش مع فان إرليفورت، لأن هِنْك لم يجد كلامًا كثيرًا ليقوله. كان ذهنه مشغولاً بأمور أخرى، مثل كم كان الأمر سيكون أكثر متعة لو أنه ظلَّ بالبيت، وأخذ الشاي في

الحديقة بدلاً من الإسراع في الذهاب إلى شيڤينينجن فورًا بعد العشاء.

إلا أن بيتسي شعرت كأنها تملك العالم، مستمتعة بهواء المساء الحار والرطب، وتنجيد المقاعد اللين في عربتها اللَّندوية المجهزة تجهيزًا جيدًا، والتي تفوق المركبات الخاصة الأخرى بالمقارنة، ومرأى هيرمان، وهو يجلس ثابتًا كقضيب البندقية على مقعد السائق المزين بمُعلقات مزخرفة بالفضي. كانت مسرورة بنفسها، بالترف الذي كان لديها الفرصة لإظهاره والصحبة، التي رأى الآخرون أنها معها. كانت إيلينه تبدو جميلة كلوحة مرسومة في طاقم بسيط بأناقة في ظل باهتٍ من الأواني البيوترية، وجهها مرسوم ببونيه صغير مصقول مربوط بشريط حريري فضفاض، وكان فان إرليفورت شابًا جميل الملامح، رجلًا ذا شخصية وخصالٍ مميزة. أما بالنسبة لهِنْك، فقد بدا موشيً بالعظمة والنعومة تمامًا ... لا في الواقع، لم يكن زوجها سيئًا للغاية بالفعل، إذ كان من الممكن أن تفعل بنفسها ما هو أسوأ بكثير.

عندما تجاوز ديرك مركبة أخرى من معارفهم، حَيَّت بيتسي ركابها بابتسامتها الأكثر سحرًا، لأنها لم ترغب في أن تبدو فَرِحَة بسرعة خيولها الجميلة.

«أوه، جميل! بدأت تخف حرارة الجو، وبدأت أشعر بأنني استعدت نشاطي تمامًا»، غمغمت إيلينه. أخذت نفسًا عميقًا وجلست مستقيمة الظهر في الوقت، الذي وصلوا فيه إلى نهاية المتنزه. «بالضبط هذا ما أحتاجه: بعض الهواء النقي بعد الحرارة الفظيعة، التي كان عليها الجو بعد ظهر اليوم».

ردت بيتسي: «هراء يا إيلي، كان الجو ممتعًا! في الحقيقة أتمنى أن يأتينا مثل هذا الطقس الدافئ دائمًا».

«حسنٌ، سيقتلني هذا الطقس بعد بضعة أسابيع! امم يا أوتو، أنت تضحك، لكنني جادة، الحرارة تجعلني أشعر بالاعتلال تمامًا. ألا تصدقونني؟«.

«لكن يا إيلي، بالطبع أصدقكِ!».

هزت رأسها، ورمقته بنظرة تأنيب زائفة.

همست: «دعوتني بإيلي مرة أخرى».

«إذن فعلتها، كم سخيفٌ مني. آه، خطرت لي فكرة للتو»، همس ردًا عليها بسعادة.

سأل هِنْك: «ما الذي تدبرانه أنتما الاثنان؟».

«امم، لا شيء. سر صغير بيني وبين أوتو ... اشش»، قالت ووضعت إصبعها على شفتيها، مبتهجة لما أثارته من فضولهم.

لأنها طلبت من أوتو ألا يناديها بالاسم الشائع، الذي يستخدمه الجميع. أرادت منه أن يخترع اسمًا خاصًا بها، اسمًا لا يستخدمه أحد سواه، اسمًا ليس مبتذلاً ولا قديمًا- لم يرَ أن هذا طفولي منها، أليس كذلك؟ لقد استنفد نفسه محاولاً الخروج باسم تدليل مناسب، لكنها لم ترضى أبدًا وظلت تخبره بأن يفكر مرة أخرى. والآن بدا أنه وجد شيئًا.

همست، وهي تبتسم: «سأموت لأعرف».

رد عليها، مبتسمًا لها: «في وقت لاحق».

«حتى الآن لم أجدكِ مزعجة بنصف القدر، الذي عليه معظم الفتيات المخطوبات، وأتمنى أن تتوقفي عن الغمغمة بكلام غير واضح هكذا، هذا شيء ممل للغاية!»، صاحت بيتسي عاليًا وبقدر لا بأس به من الغضب.

ردت إيلينه: «حسنٌ، ألم تكوني أفضل مع هِنْك في الأيام الخوالي! هل كانت كذلك يا هِنْك؟».

ضحك هِنْك ضحكة مكتومة: «لا، لا أعتقد بأنها كانت كذلك!»، شعرت إيلينه بغُصَّة: استعاد التفكير في خِطْبَة أختها منذ عدة سنوات لحظات دُفِنت منذ زمن بعيد لحزنٍ معين في قلبها كانت تشعر به وقتذاك. بدا أن كل الأمر وقع منذ فترة طويلة جدًا، لكنها كانت لا تزال منزعجة.

لكنهم مكثوا وقتًا طويلاً منذ تركوا بادهاوسڤيج وراءهم، ومروا بالجاليري، وداروا حول الجزء الخلفي من الكورهوس، والآن سوف يتوقفون عند السلالم

المؤدية إلى التراس، الذي يُطلُّ على البحر.

* * *

مَرَّت بيتسي وإيلينه وأوتو الواحد تلو الآخر عبر الباب الدَّوار، بينما تبعهم هِنْك، الذي كانت معه التذاكر في آخر الصف. لم يروا أحدًا من آل إيخوف وآل هايدريخت، الذين كانوا جالسين على إحدى الطاولات بالقرب من منصة الفرقة الموسيقية، ومضوا في طريقهم. كانت يد أوتو تلمس ذراع إيلينه.

«انظروا، ها هي عائلة فان رات، والآنسة فيره مع فان إرليفورت!»، قال الشاب من آل هايدريخت: «لقد باتوا يأتون إلى هنا كل مساء في الآونة الأخيرة».

«يا له من فستان عادي بصورة عبثية هذا، الذي ترتديه إيلينه!»، قالت ليوني: «أتساءل مَنْ الذي تحاول إبهاره بهذا ... وتلك القبعة مع الوشاح! يبدو أن جميع الفتيات هذه الأيام يعتقدن بأنهن لا بد أن يرتدين قبعة مع وشاح بمجرد أن يُخْطَبْن. هذا مضحك وغير معقول!».

«ورغم ذلك، هما يمثلان زوجين رائعين، أليس كذلك؟». أدلت مدام إيخوف برأيها: «إنهما منسجمان معًا بشكل ممتاز.».

قالت آنجه: «على الأقل لم يصنعا من أنفسهما مشهدًا عامًا كما يفعل بعض المخطوبين. ليسا كمارجريت فان لارن مثلاً، التي دائمًا ما تنفض غبارًا غير مرئي عن طيات صدرية خطيبها. أتذكر كم ضحكنا ذاك اليوم يا هايدريخت؟».

قالت بيتسي، التي كانت تهز رأسها لتحي الآخرين ذات اليمين وذات الشمال، وهم يشقون طريقهم عبر الجموع إنه ينبغي عليهم العثور على طاولة بسرعة وإلا سوف تُؤخذ جميعها.

لحسن الحظ كان الأمر باعثًا على السرور في كل مكان - حتى إن الجلوس على بُعْدِ مسافة من منصة الفرقة الموسيقية كان أفضل بسبب الضوضاء- لذلك ساروا في طريقهم إلى القسم المجاور لحجرة المحادثة، والذي كان لا يزال غير مزدحم بالناس إلى حد كبير. اختاروا طاولة في الواجهة، حيث يمكن أن

يروا ويراهم كل مَنْ يتمشى بجوارهم.

وسط التبادل المستمر لإيماءات الرأس قليلاً والمصافحات بالأيدي، تبادلت بيتسي وإيلينه تعليقات هامسة حول المكياج المضحك والقبعات المسرفة، التي كانت تمرُّ بجوارهما. كانت إيلينه نفسها راضية تمامًا عن طراز الفستان غير المزين، الذي قررت ارتداءه منذ خِطْبتها، نوع راقٍ من البساطة، أكثر أناقة بكثير من زيها السابق الأكثر إسرافًا، ومختلفٌ بما يكفي لأن يجذب الأنظار. أطرت الفساتين البسيطة جيدة التطريز على قوامها الممشوق وجعلتها تشعر بأنها جذابة وشامخة كالتماثيل، وإلى جانب ذلك، منحتها الفساتين جوًا غير معتاد من الجدية والاحتشام، والتي كان لا بد لأوتو المحب بطبيعته للبساطة أكثر من التباهي والتفاخر أن يجدها فاتنة.

كانت هذا الشخص، التي صارت عليه الآن؛ كانت تعرف أنه كان من العسير عليها ببساطة أن تصبح نفسها، وكان من الأسهل أن تنزلق إلى أي دور يناسب مزاجها، والآن كان دورها دور الخطيبة المتكلفة إلى حد ما، ولكنها مغرية وسعيدة سعادة غامرة لشاب مناسب، شخص من مجموعتها الخاصة، والذي يحبه الناس بوجه عام لحسه الفكاهي المقبول وعدم تصنعه، وسعيدة سعادة غامرة- وهو ما كانت عليه، ذلك أن دعاء قلبها من أجل السعادة أُستجيب- ابتهجت بهجة كبيرة للسلام، الذي منحه إياها حبه العظيم الهادئ، الذي أحسته أكثر مما فهمته؛ كانت سعيدة في السكون الأزرق لتلك البحيرة، تلك النيرڤانا التي انزلقت إليها روحها التي يعصف بها الخيال كأنها انزلقت إلى سرير من الزَّغَب؛ شعرت بأنها مغمورة بالفرح لدرجة أن توترها العصبي خفَّ، ووجدت نفسها في أحيانٍ كثيرة مما أثار دهشتها والدموع في عينيها بسبب شعورها بعظيم الامتنان.

كان تدفق الخارجين للنزهة بلا نهاية، وشعرت بأنها مصابة بالدوار تمامًا.

همست بيتسي بصوت خفيض: «إيلينه، ماذا دهاكِ؟ انظري، هناك مدام فان دير ستور وكاتو الصغيرة أيضًا!».

ركزت إيلينه عينيها وأومأت رأسها للتحية، بطريقة تخفي الشكوك قدر استطاعتها، ثم شاهدت فنسنت فيره وپول فان رات الذين كانوا مقبلين على طاولتهم. ظلوا واقفين، متكئين على صولجاناتهم، إذ لم تكن هناك كراسي شاغرة في الجوار.

طلب أوتو منهم، وهو يهب في النهوض،» هل وددتما لو جلستما للحظة- فقط ذلك، لو ودت إيلينه أن تأخذ لفة معي؟»

رأت إيلينه أنها فكرة ممتازة، وبينما جلس فنسنت وپول مع هِنْك وبيتسي، انضمت هى وأوتو إلى جمع الناس المتعرج. كانا يقتربان من منصة الفرقة الموسيقية، التي تحلقت حولها نصف دائرة من المستمعين المتعطشين للاستماع، وسمعا نغمات مقدمة لوهنجرين العالية تصدح من الكمنجات في الوقت، الذي تحكم فيه المايسترو الذي وقف وظهره لهما في صعود موجات الموسيقى وهبوطها بعصاه، وعندما أوصل أوتو إيلينه إلى الممر الضيق بين الكراسي الشاغرة ومحبي الموسيقى، توقفت قليلاً وهمست قائلة:

«دعنا نتوقف ونستمع لبعض الوقت؟»

أومأ برأسه إشارة للموافقة، وتوقفا. ابتهجت في ظل حالتها المزاجية الهادئة بارتفاع الألحان الجليل. بدا لها أنها انغمرت، ليس بالموسيقى بقدر ما انغمرت بمياه بحيرتها الزرقاء الساكنة، الرائقة والصافية كالنهر، الذي تهادى عليه مركب لوهنجرين الصغير، ورأت بجعات مهيبة وجميلة ...

عند أعلى نقطة في الفورتيسيمو أخذت نفسًا عميقًا، وعندما مَطَّت الخيوط الزجاجية، التي شدتها الكمنجات نفسها، أكثر فأكثر، تهادت البجعات المهيبة بعيدًا أيضًا.

انفجرت موجة من التصفيق؛ وانفضت نصف الدائرة من المستمعين.

«رائع ... كان ذلك رائعًا جدًا!' غمغمت إيلينه كأنها في حلم، شعرت بيد أوتو تبحث عن ذراعها. ياه، الحياة حلوة بحق ...

غمغمت، ووضعت شفتيها بالقرب من أذنه لكي لا يسمع أحدً» شيء غريب جدًا كما تعلم. دائمًا أشعر بأنني أفضل بكثير عندما استمع إلى مقطوعة موسيقية جميلة؛ يمنحني ذلك شعورٌ بأنني قد لا أستحقك تمامًا في النهاية. أتوقع أنه سخيفٌ مني أن أقول ذلك، لكن ليس بيدي شيء».

ابتسمت له ابتسامة مترددة، متشوقة لسماع إجابته، فهي غالبًا تشعر بأنها مترددة قليلاً، كما لو كانت سوف تفقده بسبب كلمة حمقاء واحدة، لأنها لم تدرك حتى الآن كم كان يحبها كثيرًا، ولماذا.

«امم، لا ينبغي لكِ أن تصنعي لي تمثالاً»، قال بلطف، خافضًا صوته، وهو يتحدث إليها، بحيث بدا حديثهما كأنه يحوم في الهواء، الذي يفصل بينهما. «أنا شاب عادي جدًا، لست أفضل بذرةٍ واحدة من أي أحد، ولا ينبغي أن تضعي نفسك تحتي، أنتِ لستِ جديرة بي! الفكرة نفسها! عجبًا، أعتقد بأنكِ لا تعرفين نفسكِ جيدًا على الإطلاق».

أيمكن أن يكون على حق؟ ألا تعرف نفسها؟ فاجأها الاحتمال وأسعدها، ذلك أنها كانت تعتقد دائمًا بأنها تعرف نفسها حق المعرفة. أيمكن أن يكون هناك حقًا ركنٌ ما خفي من روحها لا تعرف عنه شيئًا، منبع سري ما لإخلاصها له؟ هل سيعلمها أن تعرف نفسها؟

أجفلت: «أوه، أوتو!»

سأل بصوت خافت: «ماذا؟«

«لا شيء، كل ما هنالك أنني أحبك كثيرًا عندما تتحدث عنا بهذه الطريقة»، غمغمت، يملؤها شعورٌ بالسعادة الغامرة، التي لم تجد كلمات تعبر عنها. شعرت بلمسة رقيقة من يده على ذراعها، واعترتها رعشة خفيفة بينما كانا يشقان طريقهما وسط الحشد المتزاحم والضاحك، ورصدهما بحرص من الطاولات معارفهما، والذين يعرفونهما من هيئتهما.

«هناك مضى فان إرليفورت وإيلينه، وعيونهما ملؤها التفاؤل والرومانسية!

لدرجة أنهما حتى لم ينتبها لنا، أتصدق!»، هتفت ليوني للشاب هايدريخت، بلمحة من حسد في صوتها.

***

لما سمعا اسميهما يُنادى عليهما، نظرت إيلينه وأوتو حولهما ووقع بصرهما على مدام فرسترايتن تجلس على طاولة مع ماري ولي لي وفريدريك. نهض جورج دي فُوده واقفًا؛ كان يدعوهما للاقتراب بود. تصافحوا.

قال أوتو بشيء من المفاجأة: «آها، فريدي!».

قالت موضحة: «كانت المدام لطيفة جدًا لأن تدعوني على العشاء، بالمناسبة، يا أوتو، بمجرد أن غادرت جاءت رسالة من دي هورسه: جميعهم بخير ويرسلون لك تحياتهم. وأنتِ أيضًا يا إيلينه».

«شكرًا لك»، قالت إيلينه بحرارة، وغاصت في الكرسي الذي أخلاه جورج بجانب مدام فرسترايتن. صارت ماري شاحبة اللون جدًا، وهو الأمر الذي لم يلحظه أحد لأنها كانت ترتدي قبعة بوشاح أبيض.

«كتب تيودور أن سوزان وفان سترالنبورج والبيبي سيأتون للبقاء معهم الأسبوع المقبل، والآن ماما في ورطة كبيرة».

«ماذا؟ هل كانت ماما تخطط للذهاب إلى دي هورسه؟ وهل سيأتي هوارد إلى هنا؟».

«نعم، هذا هو المأزق».

قالت مدام فرسترايتن متأملة: «عزيزتي مدام فان إرليفورت».

«أخبرها بيرسي بأنه سيأتي في الأسبوع الأخير من يوليو، في حين كتب تيودور رسالة تقول إن فان سترالنبورج لن يبقى لبعد يوم ٢٠. لذلك يمكنكم أن تتخيلوا»، استطردت فريدريك، وأجبرت نفسها على إلقاء نظرة ودية على إيلينه، «كم هو معقدٌ الأمر بالنسبة لماما. ليست لديها فرصة كبيرة للسفر إلى زڤُله، ومغادرة لاهاي قبل يوم ٢٠ في الوقت، الذي سيأتي فيه هوارد وكاترين،

حسنٌ، لن يُجدي الأمر على الإطلاق».

سأل أوتو: «ولكن سيسافر هوارد إلى دي هورسه لاحقًا، أليس كذلك؟».

أجابت فريدريك: «نعم، لكنه يرغب في قضاء بضعة أيام في لاهاي أولاً، للاستفادة من الشاطئ في شيڤينينجن. ولذلك الآن ماما لا تعرف إذا كانت قادمة أو ذاهبة، ولن يمكنها أن تتحمل أن تفوتها رؤية حفيدها الجديد هذا الصيف كما تفهم بالتأكيد».

قال أوتو: «حسنٌ، في هذه الحالة عليّ أن أقنع ماما بأن آخذها إلى زڤله يومًا ما. بسيطة! وسوف يوفر عليها هذا الرحلة إلى دي هورسه، والتي تعدُّ أكثر صعوبة».

قالت فريدريك: «يمكنك المحاولة. هذا من شأنه أن يحل المشكلة بالتأكيد».

طلبت لي لي بأن يُسمح لها لأنها كانت تود أن تأخذ لفة مع دي ڤوده، عندها دعت والدتها أوتو للجلوس بجانبها حتى يعود الشباب.

سألت لي لي: «كم تبدو إيلينه جميلة! ألا توافقني على ذلك يا دي ڤوده».

سمحت له منذ كانت تذهب للتزلج معه في الشتاء الماضي بأن يدعوها بألفة باسمها الأول، بينما قررت هي أن تخاطبه ببساطة بـ «دي ڤوده».

أجاب جورج بعدم اكتراث: «نعم ، هو ذلك تمامًا».

قالت لي لي باقتناع كامل: «حسنٌ، أعتقد أنها جميلة حقا!» .

«كيف لا تراها جميلة؟ ذوقك غريب جدًا!».

ضحك بلذة سرية.

«ليست غلطتي أنها تجعلني أشعر بالبرود كما تعلمين. تصادف أن لدي فكرة مختلفة من الجمال، لكن إذا كنتِ مصرة تمامًا أنني يجب أن أراها جميلة، حسنٌ إذن، فسوف ألقي نظرة أخرى».

أجابت، وهي تضحك معه، «أوه لا، لست بحاجة لذلك. كل ما هنالك أن كل رجل أعرفه يعتقد بأنها جميلة، لذا لم أستطع أن أرى لماذا لا تراها كذلك. ولا أستطيع أن أتخيل لماذا فريدريك ليست مولعة بها. إذا كنتُ رجلاً لوقعت في حبها رأسًا على عقب».

«وتخوضين مبارزة مع فان إرليفورت، على ما أظن».

وصل الجزء الأول من البرنامج إلى نهايته، وبدأ المستمعون في الانصراف في كل الاتجاهات. وجد جورج ولي لي أنفسهما مُطوَّقيْن بكتلة من الرؤوس والأكتاف، كلها تضغط إلى الأمام.

قالت لي لي: «هذا مستحيل. أكره تواجدي وسط حشد من الناس كهذا. أتعتقد أنه يوم الأحد».

«ماذا تقولين لنزهة للتمشية على الشاطئ»، اقترح بهدوء. «المَخْرج يوجد هناك».

قال لي لي، وهي متحمسة للفكرة، «هل هذا مسموح؟ هل تعتقد أن ماما سوف تُمانع؟».

قال، ويبدو عليه الفخر تقريبًا، «بالطبع لا، لن تمانع إذا كنتِ معي».

مَرَّا عبر الباب الدوار، وأسرعا بالنزول على السلالم، عبرا الطريق، وبعدها أخذا الدَّرَج الخشبي الواسع وصولا الى الرمال.

تراصت كراسي الشاطئ الكبيرة المصنوعة من الخوص في مجموعات في فترة الليل. يمكن رؤية أحد مواطني شيڤينينجن هنا وهناك، وهو يضبط مشيته المختالة على إيقاع خطوات زوجته البطيئة ذات التنورة الواسعة.

تلألأت الموجات، التي ترتطم بالشاطئ بالأضواء الساطعة، التي تلمع من الكورهاوس المضاء بالغاز.

قالت لي لي: «أووف! بعض الفراغ أخيرًا!»

تجلى البحر الهادئ والممهد للعيان في ظلالٍ من الأخضر واللازوردي

والبنفسجي، يعلوه هنا وهناك زبد أبيض لامع بامتداد الشاطئ. كانت ليلة مرصعة بالنجوم، وكانت مجرة درب التبانة تشبه غبار لؤلؤ منثور في الرحابة الغامضة للسماء الزرقاء، وكان الهواء مليئًا بطنين ثابت، كما لو كان صادرًا عن صدفة عملاقة واحدة.

انطلقت لي لي بحماس: «كم هادئ هذا المكان هدوءًا رائعًا هنا بعد كل هذا الضجيج! كأنه الجنة تمامًا».

قال جورج: «نعم هو كذلك».

كانت قد تعثرت تقريبًا في شيء ما، بعدها مدَّ ذراعه لها، والذي قد أخذته. كان هناك الكثير مما أراد أن يقوله، لكنه لم يستطع أن يجد الكلمات خوفًا من أن يبدو مثيرًا للسخرية. شعرت أيضًا بحافز لذيذ بأن تفصح عن مشاعرها، لأن تخبره كم شعرت بالرهبة لجمال البحر والسماء المرصعة بالنجوم، لكنها شعرت بالحرج قليلاً بشأن حالة السعادة الغامرة الشعرية في قلبها، والتي كانت تتناقض تناقضًا غريبًا مع الدوائر المعتادة والمملة، التي كانا يتحركان فيها. لذا لاذ كلاهما بالصمت بينما كانا يتنزهان على امتداد الشاطئ، بطنين البحر في آذانهما والعاطفة الرقيقة نفسها في قلبيْهما، والتي يمكن لكل منهما أن يحسها في الآخر، والتي بدت أنها ملأت الصمت بينهما بأكثر من الكلمات.

كانا قد تمشيا دون أن ينطقا بكلمة مسافة ما بامتداد البحر الساكن، تائهان في عزلتهما المشتركة، عندما شعر بأن عليه أن يقول شيئًا.

قال مازحًا لإخفاء قصده الجديّ، «يمكنني أن أمشي معكِ إلى أقاصي الأرض، أو بأي حال طول الطريق إلى كاتقايك!».

ضحكت؛ كانت مزحة، في نهاية الأمر.

«في تلك الحالة يُحتمل أن أصبح متعبة جدًا».

«إذن سوف أحملكِ».

«لن تستطيع – أنا ثقيلة جدًا».

«إذا كان هذا ما تظنين، تعالي إلى هنا وسوف أريكِ».

«جورج! يا لها من فكرة صادمة! الآن سأغضب منك- إلا إذا اعتذرت لي الاعتذار اللائق، هذا ما في الأمر».

سأل بتواضع: «ماذا تقصدين باللائق؟».

«كرر ما أقول: أنا جورج دي فوده فان بيرج اعتذر بتواضع لـــلي لي»، قالت ترنم صوتها، إلى جانب غير ذلك الكثير. كرر كل كلمة بإخلاص، وظلت تضيف العبارات ببساطة لأنها سُرَّت بصدى صوته.

في الواقع، لم تكن غاضبة على الإطلاق. تمنت لو أن نزهتهما لا تنتهي أبدًا، وأن يمشيا بامتداد البحر ذي الزَبَد الخفيف إلى الأبد، بحثًا عن آفاق جديدة.

قال فجأة: «أعتقد بأننا يجب أن نعود».

نظرا حولهما، ودُهشا لما شاهدا كيف ابتعدا بعدما شردا بعيدًا عن الكورهاوس، الذي بات الآن وهجًا أحمر من على بُعد، ولكن قلق لي لي الأوليّ ما لبث أن أفسح الطريق لإحساس بالجموح الرومانسي- ماذا كانت تعبأ بكل هؤلاء الناس، الذين تزدحم بهم مصاطب الجلوس؟ كانت معه على البحر، وكان ذلك كل ما يُهم!

قال جورج، بضحكة مرتبكة، «يحسن بنا أن نسرع بالعودة. سوف تتساءل ماماتك ما الذي جعلنا نتأخر».

أزعجتها عجلته. ألم يكن يشعر بما كانت تشعر به؟ ألم يكن مستغرقًا فيها تمامًا كما كانت مستغرقة فيه، ألم يشعر بأن الشيء الوحيد الذي يُهم في العالم بأسره أن يكونا معًا، الآن، بجوار همس الأمواج الخافت؟

قالت في ضيق، وهي تشدد قبضتها على ذراعه، «لا أستطيع السير بسرعة في الرمال!».

«إذًا عليكِ أن تتكئي عليّ، هيا تعاليّ»، قالها بحزم. لذا كانت هناك شدة أيضًا، تحت كل تلك الحلاوة والشهامة!

«ولكن يا جورج، أنا ببساطة لا أستطيع السير أكثر، أنا أُستنفدت!»، قالت لاهثة، بدت حزينة أكثر منها غاضبة. لكنه لم يفعل شيئًا سوى الضحك، وبذراعها مشبوكة بقوة في ذراعه، دفعها صعودًا على الدَّرَج الخشبي الواسع إلى الطريق، وفي النهاية لم تملك إلا أن تضحك أيضًا. كان ذلك متعة إلى حد ما، الاندفاع هكذا في الظلام على هذا النحو.

توقفا لالتقاط أنفاسهما قبل أن يصعدا السلالم المؤدية للتراس، وبينما تحسس جورج جيوبه بحثًا عن التذاكر، نفضت لي لي الرمال عن حاشية فستانها.

كانت الاستراحة قد وصلت إلى نهايتها، وبدأت الأوركسترا في نفخ الأبواق النحاسية إعلانًا عن مسيرة ملكة سبأ العسكرية. نقصت أعداد الحشد إلى حد كبير، واحمرت لي لي خجلاً حينما ذهبت هي وجورج إلى الطاولة، حيث كانت مدام فرسترايتن وماري وفريدريك في انتظارهما. كان أوتو وإيلينه قد غادرا.

«يا إلهي، أين كنتما مختبئيْن أنتما الاثنان؟ صاحت ماري، بينما جلس جورج ولي لي على الكرسييْن، الذين تُركا شاغريْن لهما من خلال وضع أغراض مختلفة على ظهريهما. «قضيتما وقتًا طويلاً جدًا؛ ذهبت للتمشية مع پول لما كنتما غير موجوديْن، ولم تتمكن إيلينه وأوتو من الاحتفاظ بمقعديكما إلى الأبد».

أضافت فريدريك: «واستغرق الأمر جهدًا هائلاً من جانبنا لابقائهما لكما، آملُ أن تدركا هذا».

سألت مدام فرسترايتن: «ولكن في أي بقعة من بقاع الأرض كنتما؟ هل ذهبتما إلى حجرة المحادثة لمشاهدة الرقص؟»».

شرع جورج في إخبارهم عن تمشيتهم على طول الشاطئ، وأعجبت لي لي سرًا بردوده اللبقة على استفسارات أمها.

***

كان هِنْك وفنسنت الشاغليْن الوحيديْن لطاولة في محيط حجرة المحادثة. انطلقت بيتسي في مزاجها المتدلل مع هايدريخت الشاب لتأخذ لفة نحو الشرفة، بينما انتقلت إيلينه وأوتو إلى طاولة مدام إيخوف في محاولة للتكفير عن غلطة مرورهما أربع مرات دون أن يلقيا التحية عليها، وهو التصرف الخاطئ، الذي أشارت إليه آنجه.

تمتم فنسنت: «كدت أموت بعد ظهر هذا اليوم، كانت الحرارة سيئة للغاية!».

«إيلينه لا تستطيع تحملها أيضًا»، انضم هِنْك مرة أخرى، وهو يخفض كأس بيرة البيلسنر الخاص به.

لم يشرب فنسنت شيئًا؛ لم يكن يشعر بأنه على ما يرام، ولم يستمتع بالشجار. لم يذهب الى شيفينينجن إلا نادرًا: في الصباح كانت الحرارة لا تُحتمل على الشاطئ الحارق، وفي المساء قلما كانت لديه الطاقة للذهاب، ولكنه ذهب إلى هناك بين الحين والآخر، فقط من أجل أن يكون قد ذهب إلى هناك.

كان يفكر في كيفية صياغة السؤال، الذي كان الأكثر أهمية في ذهنه: طلب للحصول على قرض. المرة الأخيرة، التي أقرضه فيها هِنْك بعض المال لم يفعل ذلك بروح الكرم الودود المعتادة، لأنه بات منزعجًا من نقص الأموال المستمر لدى فيره. هذا لم يَفُت فنسنت، لكن ما باليد حيلة، عليه أن يجد طريقة ما غير مباشرة لإثارة الموضوع.

«أعتقد بأنني سأستطيع سداد جزء من ديوني في وقت لاحق هذا الأسبوع يا فان رات، عندما تأتي التحويلات. آه حسنٌ، أظن أنني سأستطيع إدارة أموري بطريقة أو بأخرى».

لم يدلِ هِنْك بأي تعليق، فقط دق بعصاه على إيقاع الموسيقى البطيئة: كانت الأوركسترا تعزف مقدمة ويليام تيل.

استطرد فنسنت: «يا له من أمر مزعج أنني لم أصل إلى اتفاق بشأن تجارة

الكينين تلك، لكن الآن كتب لي أحد الأصدقاء من أمريكا؛ غنيٌ ولديه علاقات جيدة، وأخبرني بأنه يمكن أن يقدمني لشركة تجارية في نيويورك، لكن في الوقت الحالي ... أقول يا فان رات، أنك ستسدي لي معروفًا كبيرًا لو أقرضتني خمسين جيلدر أخرى».

أحجم هِنْك.

«فيره، أنت لا تتوقف أبدًا، أليس كذلك؟ أنا بدأت أكلُّ من هذا الموضوع، لأقول لك الحقيقة. أولاً خمسمائة جيلدر، ثم مائة، ثم خمسين ... ما الذي تنتظره؟ ما الذي تخطط لعمله؟ إذا لم يكن لديك موارد مالية خاصة بك، إذن لِمَ لا تبحث عن وظيفة ما؟ لا تتوقع مني أن أستمر في دعمك ماليًا، أليس كذلك؟».

كان فنسنت يتوقع تأنيبًا بشكل أو بآخر، وتحمل فورة غضب هِنْك دون احتجاج. ما لبث أن أحس هِنْك بالحرج بسبب غلظة لهجته، ولكنه واصل ضغطه رغمًا عن ذلك: «كل هذا الحديث عن الأموال القادمة من بروكسل، مالقة، نيويورك- متى تظن أنها ستأتي؟ ليس الأمر أنني سأفلس إذا لم تسدد لي المال كما تفهم، ولن أُسبب لك المتاعب من أجل ذلك أيضًا، لكن المبلغ وصل إلى قرابة ألفيّ جيلدر حتى الآن. أنا سئمت ذلك. لِمَ لا تتوقف عن التسكع هنا في أنحاء لاهاي وتفعل شيئًا!».

بدأت لهجته تلين بالفعل، لكن فنسنت ظلَّ صامتًا، وعيناه ثابتة على حذائه، الذي كان يربت به بخفة برأس عصاه. لم يستطع هِنْك أن يجد كلامًا أكثر ليقوله، وشعر بالارتياح عندما رفع فنسنت رأسه أخيرًا وتكلم بصوت منخفض: «هذا أمر مؤسف. أنت محق تمامًا، طبعًا، لكنه ليس خطأي، حقًا. الظروف كما تعلم. آه حسنٌ، سأرى ما يمكنني القيام به. سامحني على إزعاجك».

نهض واقفًا على قدميه متعمدًا، وترك هِنْك معقود اللسان من الإحراج.

«حسنٌ، أوريڤوار إذن»، قال فنسنت بابتسامة باهتة وأومأ برأسه لهِنْك،

«أوريفوار، لا بد أن أرحل».

مد هِنْك يده دون أن يلحظها فنسنت، الذي كان قد شق طريقه بالفعل على مهل وسط الجمهور، يرفع يده بفتور إلى قبعته من آن لآخر.

بقي هِنْك وحده على الطاولة، وشعر بالكثير من السخط من نفسه، لكن بعدها بوقت قصير عادت إيلينه وأوتو ليمزحا حول كيف بدا مهجورًا. بيتسي أيضًا شقت طريقها إلى الطاولة برفقة هايدريخت الشاب، الذي ضغطت على يديه بحرارة عند توديعه. كان الوقت متأخرًا؛ كان كثير من الناس قد غادروا قبل العرض النهائي، والآن، وبعد أن انتهت الحفلة بدأت البقية في التقاطر نحو المخارج. وسقطت الأجواء النابضة بالحياة من موسيقى ودردشة مفعمة بالحيوية في حالة من الهدوء؛ كانت قناديل الغاز أطفئت بالفعل هنا وهناك، ولم تبق سوى مجموعة شاردة أو اثنتين جالسين على الطاولات، مستمتعين بهواء المساء؛ الذي كان مشوبًا الآن بطراوة البحر. هدأت الأحاديث بينما حدق الزوار الباقون بأنظارهم في البحر والسماء الرحبة فوقهم، والتي رسمت مجرة درب التبانة خطوطًا شاحبة عليها.

سألت بيتسي: «يا له من مساء جميل! أيمكننا البقاء هنا لفترة أطول قليلاً؟».

قالت إيلينه: «امم، أفضّل لو ذهبنا في نزهة بالعربة. ما لم تروا أن الوقت سيتأخر جدًا، هذا ما في الأمر، وإذا كانت الخيول مستعدة لذلك. ما رأيك يا هِنْك؟».

رأت بيتسي أنه غريبٌ إلى حد ما من إيلينه أن ترغب في أخذ جولة في هذا الوقت من الليل، لكن الفكرة راقت لها رغم ذلك، ومن ثمَّ مشوا جميعًا إلى الطريق عند الجزء الخلفي من الكورهاوس، حيث كانت تنتظر عربتهم مع العربات الأخرى.

رأت إيلينه أن الرياح ثارت قليلاً، وأعربت عن رغبتها في الجلوس في الأمام تحت الغطاء المرفوع إلى النصف بجانب أوتو. أعطت بيتسي تعليمات

لديرك ليقوم بالالتفاف عبر حديقة فان ستولبارك في طريقهم إلى البيت.

لاحت الڤيلات الغافية كأطياف أشباح وسط كتل أوراق الشجر المظلمة التي تتحرك في النسيم المعتدل، الأصوات الوحيدة، التي أقحمت نفسها على السكون كانت جلجلة حوافر الخيول وصرير العجلات الخفيف على الطريق المفروش بالحصى. لم يتحدث أحد. اتكأت بيتسي بظهرها بشكل مريح لتستمتع بهواء الليل. شعر هِنْك بضيق داخلي بشأن فظاظته نحو فنسنت، الذي لا بد أنه شعر بالإهانة، وتركت إيلينه نفسها لمتعة اللحظة الحالمة. خلعت قبعتها، وأمالت الآن رأسها قليلاً نحو أوتو، تستمع إلى تنفسه المنتظم، وفي العتمة تحت غطاء العربة المرفوع إلى النصف انسل ذراعه حول خصرها، وجذبها بلطف نحوه بحيث لامس خدها كتفه تقريبًا، بينما كانت يدها تمس ركبته برفق. شعرت بأنها سعيدة جدًا، ولم تتخيل وجود أي شيء أحلى من الجلوس قربه هكذا، والشعور بأنفاسه تداعب شعرها كالقبلات، والشعور بذراعه يطوق خصرها كحزام من الحب.

وفي دفقة من العاطفة الرقيقة، سمحت أخيرًا لرأسها بأن تتكئ على كتفه.

همست في أذنه: «ما الاسم الذي فكرت فيه لي؟».

«نيلي!»، همس ردًا عليها.

شعرت بذراعه يشتد حول خصرها، وكررت الاسم الجديد في سرها عدة مرات، مبتهجةً ابتهاجًا كبيرًا باسم التدليل الحلو.

***

اتخذت ماتيلدا فان رايسل خيمة شاطئ لفصل الصيف، وقالت چين فيريلاين أن تأتي، وتنضم إليها مع أطفالها وقتما تشاء. كانت چين مترددة في البداية، إذ لم ترغب في فرض نفسها، لكن ماتيلدا أقنعتها، وباتت تزورها كثيرًا مؤخرًا. كانتا ترتبّان أحيانًا للخروج معًا، تغادران في وقت مبكر للغاية غير مجهزتيْن سوى بسندويشات، وذلك لأن حليب الصغار يمكن شراؤه

من الكشك. كانتا تجلسان براحتهما تحت سقيفة الخيمة، التي كانتا تخزنان أغراضهما فيها، وهناك تقضيان الوقت في الحديث والقراءة والخياطة بينما انطلق الصغار للعب مع الدلاء والمعاول، وعمل حفر في الرمال بالجوار وشق قنوات مبتكرة بجانب حافة المياه.

تخيلت چين أن أطفالها باتوا أكثر قوة ونشاطًا وبالتأكيد أكثر مرحًا تحت تأثير صغار فان رايسل، واستمتعت هي وماتيلدا كلتاهما بمشاهدة الفرقة الصغيرة المرحة المكونة من سبعة أطفال، وهم يركضون كالجراء ذهابًا وإيابًا بين مواقع الحفر وأشغال المياه. كانت مسرورة جدًا بالبقاء في صحبة ماتيلدا، التي وجدت فيها صديقة تفهم همومها وتقدم لها النصيحة الودية. تحدثتا طويلاً عن أولادهما، وكذلك عن الترتيبات المنزلية لكل منهما، ورأت چين أن ماتيلدا مقتصدة وعملية للغاية بالنسبة لإنسانة اعتادت على العيش في ظروف مريحة.

لكن الأيام المشمسة على الشاطئ لم تَدُم طويلاً، لأن عائلة فيريلاين كانوا سيرحلون. كانوا راحلين إلى بوپارد، حيث كان فرانس ينوي العلاج بالمياه الباردة. كانت چين قلقة بشأن التكاليف؛ فكانت هناك تكاليف سفر لا بد من وضعها في الحسبان، وإقامتهم، لأنه كيف تستطيع عائلتهم المكونة من خمسة أفراد تحمل تكلفة بقائهم هناك لستة أسابيع في حين لا بد من دفع إيجار الشقة بالطابق العلوي في شارع هوجو دي جروتسترات أيضًا؟

تمنى أوتو أن يقدم خطيبته لأسرة أخته، ووافقت مدام فان إرليفورت على مرافقتهما في زيارة لزُلُه لبضعة أيام. كانت المدام في قمة حماسها ونشوتها بشأن حفيدها الجديد: أجمل أطفل في العالم وأكثرهم تختخة، برأسه الجميل وشعره المجعد الداكن! كانت ممتنة لأوتو لأنه أقنعها بأن تأتي معه. كانت تزور دي هورسه كل صيف، إذ كانت معتادة على الرحلة لدرجة أنها لم ترَ أي إزعاج فيها على الإطلاق، لكن في أوقات أخرى وجدت أنه من شبه المستحيل أن تقتلع نفسها خارج لاهاي. أحبت بيتها الواسع في فورهاوت بفخامته ذات الطراز القديم، والذي بهت لونه قليلاً الآن، لكنه لا يزال دافئًا ومريحًا. وجدت

إيلينه عائلة سترالنبورج غاية في اللطف. كانت سوزان أُمًا صغيرة ومحبوبة، ليست جميلة للغاية ومهملة بعض الشيء في لباسها، لكنها طيبة المعشر للغاية وسعيدة سعادة غامرة بابنها الرضيع بصورة تسرُّ الناظر إليها، أما بالنسبة لزوجها، فكان رجلاً اجتماعيًا وفكاهيًا، ومدللاً حتى النخاع من زوجته التي تعتني وتهتم به بحيوية وحماس شديد في بعض الأحيان لدرجة تجعل إيلينه تنفجر في الضحك. لا، لم تعتقد بأنه يمكنها يومًا ما أن تنجح أن تكون هكذا مع أوتو، ووثقت أنه لن يتوقع ذلك منها! إلا أنها رغم أنها حذرته من باب الدعابة، شعرت في أعماق كيانها بأنه لا بد أن يكون إحساسًا كالحياة في الجنة حقًا بأن تكرسي نفسكِ قلبًا وروحًا لرجل بالطريقة، التي كرست بها سوزان نفسها لفان سترالنبورج، أن تعيش له وحده، أن تكون جاريته المحبة المخلصة، أن يتملكها كليًا وتمامًا. حتى في حالتها الراهنة من سهولة الحياة لم تستطع أن تقاوم أن تحمل في مخيلتها بأسباب أكبر للفرح في المستقبل، استحضرت مشاهد تفصيلية لنفسها كزوجة أوتو العاشقة وحياتهما معًا في نعيم منزلي دافئ.

في هذه الروح من الابتهاج العظيم شاهدت السعادة أينما تلفتت؛ بدا لها كل من تعرفهم طيبين ومراعين لمشاعر الآخرين، وبدوا أنهم جميعًا يعيشون في وئام، لا ينفجرون أبدًا في نوبات غضب شديد أو يُظهرون أقل إشارة إلى الأنانية. كانت متأكدة أن المشاهد مع بيتسي باتت شيئًا من الماضي، لأنها أصبحت الآن قادرة على الرد على تعليقات أختها القادحة بروح دعابة خفيفة، كما لو أنه لم يكن هناك شيء في العالم يمكنه أن يفسد فرحتها، التي وجدتها مؤخرًا. هدأت أعصابها إلى حد كبير، واندهشت هي نفسها عندما لاحظت مزاجها الهادئ المبتهج، الذي لا تعكره مطلقًا نوبات كآبة الماضي وإرهاقه المنتظمة. اختفت الغيوم المنخفضة المظلمة بالرمادي والأسود، ذلك أن الهواء نفسه، الذي تتنفسه بدا متغيرًا؛ كان أزرق سماويًا، معطرًا برائحة الزهور، تتخلله أشعة الشمس.

شعر هِنْك بكثير من الضيق وعدم الارتياح لعدة أيام بعد واقعته المؤسفة مع

فنسنت. كان عدم تسامحه متناقضًا تمامًا مع رقة حاشيته بوجه عام، وخَشِيَ أنه قد جرح مشاعر فيره- إذ ربما كان يعاني ببساطة من سلسلة متصلة من الحظ العَثِر في نهاية الأمر. لذا زار هِنْك فنسنت ليقدم له القرض المطلوب، لكن فنسنت رفض العرض، رغم توسلات هِنْك، بل وسدد جزءًا كبيرًا مما كان مستحقًا عليه. من أين حصل على الأموال ليفعل ذلك كان لغزًا بالنسبة هِنْك، كما كان كل شيء آخر حول فنسنت.

ولما عاد إلى البيت، تلقى هِنْك توبيخًا من زوجته لأنه لم يكن لبقًا مع ابن عمها. شعرت بيتسي بتخوف غامض حيال فيره، استشعرت فيه قوة سرية له تتضاؤل طبيعتها المهيمنة بجانبها لتصبح شيئًا لا يُذكر، وقررت أنه لا يجب ألا يحمل في صدره غلاً ضد زوجها. سافرت إيلينه: كانت قد وُجِّهَت الدعوة لها لقضاء أغسطس في دي هورسه عند تيودور، وستسافر إلى هناك مع عائلة فان إرليفورت وهوارد في أواخر يوليو. تأملت بيتسي أن البيت الكبير في ناساوپلاين سيكون موحشًا بعض الشيء. لم تكن ترغب في الذهاب في عطلة مع هِنْك الآن، وتفضل رحلة إلى جنوب أوروبا في فصل الشتاء بعد زفاف إيلينه، لذلك ولأسباب التسلية والدبلوماسية كليهما قررت بيتسي أن تطلب من فنسنت البقاء معهم طيلة مدة غياب إيلينه. أخبرته كم ستشعر بالوحدة الرهيبة بدون إيلينه، وكم تستمتع دائمًا بصحبة فينسنت، بسبب كل هذه القصص الشيقة عن ترحاله، لذا فإنه سيقدم لها خدمة كبيرة بأني يأتي للبقاء معهم. كان فنسنت مسرورًا سرًا لفرصة أخذ فترة راحة مؤقتة من حياته المعدمة الخالية من أي هدف. يا له من ترف! شهر كامل من السلام والهدوء، ولن يكلفه بنسًا واحدًا. لذلك قَبِلَ دعوة بيتسي، مخفيًا سروره تحت غلالة من التعالي الكريم، كما لو كان يتفضل بالسماح لها بأن تكفر عن سلوك زوجها عديم الشفقة.

١٨

كانت لي لي غاضبة جدًا؛ شفتاها ترتجفان، وعلى وشك البكاء.

اشتكت لماري: «حقًا لا أستطيع أن أرى لِمَ لا نطلب منه أن يأتي معنا. فهو يزورنا كثيرًا بما فيه الكفاية».

«ياه يا لي لي، ليكن عندكِ بعض المنطق! ماما دعته بالفعل لزيارة المنزل عدة مرات هذا الشتاء، وليس الأمر كما لو كنا نعرفه جيدًا بما يكفي لنأخذه معنا في نزهة ريفية. طلبنا منه أن يأتي معنا من شأنه أن يُصَعِّب الأمور».

«لكنه ليس صعبًا على الإطلاق!».

«لا، هو ليس كذلك. إنه ألطف بكثير مما ظننت في البداية، إلا أننا رغم ذلك لا نعرفه بنصف القدر، كما نعرف پول وإتيان».

«آه، هم! كل ما يفعلونه هو التسكع ذهابًا وإيابًا بين نادي ڤيته والنادي الآخر، والنزول في بوردوليه أو بوديجا في الطريق، وهذه الأيام دائمًا ما يكونان مع ذلك البائس فيره. لم نَرَهُم كثيرًا على الإطلاق في الآونة الأخيرة. أعلم بأن پول يأتي مرة كل فترة، لكن إتيان أصبح غامضًا بقدر ما يعنيني الأمر. لِمَ لا نطلب من فيره المجيء أيضًا، طالما أنكِ في الموضوع؟».

رفعت ماري كتفيها تجاهلاً.

قالت بلطف: «لا فائدة من أن تغضبي مني يا لي لي، لمجرد أن ماما لم تطلب من دي ڤوده المجيء. لا علاقة لي بأي شيء».

«لا، بالطبع لا، لكن دائمًا الأمور كما هي، كلما فكرت في شيء لا يسمع عنه أحد. حسنٌ، سأستسلم لليأس. لا يمكنني الاهتمام بالنزهة بأي درجة أقل».

غادرت لي لي حجرة المعيشة، وهى تغالب دموعها؛ وأخذت ماري كتابها،

وهى تتنهد.

كانت مدام فرسترايتن سمعت كلمات لي لي الغاضبة، وهى تجلس في البيت الزجاجي مع زوجها، واعترت ملامحها الطيبة نظرة قلق.

سأل: «هل هناك أي شيء ليس على ما يرام؟».

«امم، كل ما هنالك أن دي ڤوده»، همست المدام حتى لا تسمعها ماري. «لي لي تريدني أن أدعوه لقضاء يوم بعد غد».

«لِمَ لا إذن؟ ليس لديّ أي شيء ضد دي ڤوده، رغم أنه غندور قليلاً، وأنه ظريف إلى حد ما مع الفتيات».

«لكن يا كاريل، حقيقة، لا أعتقد بأن ذلك سيكون من الحكمة. دائمًا أعامله بالكياسة اللائقة حينما أراه، لكن ليس هناك حاجة لتشجيعه أكثر من ذلك، أليس كذلك؟ ما الفائدة التي ستُجنى من وراء ذلك؟ لي لي لا تزال صغيرة جدًا، وكلها أفكار طفولية أيضًا».

«ألا ترين أنكِ ذهبتِ بعيدًا إلى حد ما؟ لِمَ سيفكران في الزواج؟ إنها مجرد مسألة دعوة في نهاية الأمر».

«أظن أنك على حق، لكنك لا تراهما أبدًا معًا كما أراهما. لو أنك كنت تأتي معنا إلى شيڤينينجن مساء يوما ما!».

«لا، شكرًا جزيلاً».

«سترى بنفسك إذن. يظل يحوم حول طاولتنا. إنه عاقل بما يكفي بألا يقبل كل مرة أعرض عليه تناول الأيس كريم، لكنه يظل موجودًا دائمًا حتى نغادر، ولا يكاد يتحدث إلى أي أحد آخر، ويأخذ لفة مع ماري بين الحين والآخر لكي يكون مهذبًا، لكن بغض النظر عن ذلك إنها لي لي، لي لي في كل مرة. لا أعتقد أن الأمر مناسب، كما يمكنك أن تتخيل».

«وهل تعتقدين أن لي لي -؟».

«نعم بالطبع، من الواضح تمامًا! لقد لاحظ الجميع، وبدأ الناس يتكلمون.

لا أعرف تمامًا ما الذي يجب عمله حيال ذلك»، قالت مدام فرسترايتن، ومرة أخرى بدت قلقة.

جلس مستر فرسترايتن لحظة للتأمل، بعدها استأنف هو وزوجته نقاشهما، وانخفض صوتهما إلى الهمس.

وجدت ماري أنه من المستحيل أن تركز على كتابها، لذلك صعدت إلى الطابق العلوي بحثًا عن لي لي. وجدتها ملقاة على سريرها، وهي تنتحب على الوسائد.

دعتها بهدوء: «لي لي! ما خطبكِ؟».

أجفلت لي لي عند سماع صوت ماري.

صاحت: «أوه، أتركيني وحدي!».

لكن ماري أخذت يديها وأجبرتها على التطلع إليها.

«لي لي، لا تكونن سخيفة! أنتِ غير عقلانية تمامًا، تنطلقين في نوبة غضب مجنونة لأقل استفزاز. لي لي! استمعي إليّ!»

«يوه، من فضلكِ، فقط أتركيني وحدي».

«لماذا تجعلين نفسكِ أكثر بؤسًا بالصعود إلى هنا لتبكي وحدكِ تمامًا؟ لِمَ لا تقولين لي ما الذي يضايقكِ؟ من الأفضل بكثير أن نثق في بعضنا، وأن نكون غير متحفظين وصرحاء ونبوح بما يدور في عقلنا».

ماري نفسها تمنت كثيرًا لو أنها كانت غير متحفظة وصريحة، كانت تود لو أنها باحت بما يدور في ذهنها للي لي، لماما، لأي أحد، لكن هناك بعض الأمور من الأفضل أن تُترك دون البوح بها.

جلست لي لي وأزاحت شعرها المنكوش عن خديها المبلليْن بالدموع.

«ماذا الذي تريدينني أن أقوله إذن؟ أنتِ تعرفين كل شيء بالفعل. ماما دائمًا ما تجد خطأ ما في جورج، وأنا أكره ذلك».

«توقفي الآن، أنتِ تبالغين. كلٌ من بابا وماما يحبانه بما فيه الكفاية».

«أعرف، أعرف! لكن عندما يتعلق الأمر بأن نُظهر له بعضًا من المجاملة ... على أي حال، أنتِ نفسك قلتِ ذلك».

«ماذا قلتُ؟».

«قلتِ أن أخذه معنا من شأنه أن يصعب الأمور!»

«لو كنتُ أعرف أنكِ تهتمين بذلك إلى هذا الحد لما قلتُ ذلك. كل ما هنالك أنني لا أطيق أن أراكِ تتضايقين من أجل لا شيء يا لي لي. أنت مستمرة في الضيق وكأن حياتك كلها تحولت إلى خراب لمجرد أن ماما ترى أن من الأفضل عدم دعوة دي ڤوده لمرة واحدة».

«لكن هذا محرج جدًا بالنسبة لي! لقد أخبرته بالفعل عن النزهة، وبطبيعة الحال سوف يظن-».

«حسنٌ، لا ينبغي عليكِ أن تعطيه الأفكار. الموضوع محرج لماما أيضًا، مع بدء الناس في النميمة عليكِ. بالأمس فقط مدام إيخوف كانت تقول-».

«لا أعبأ بذرة واحدة بما تقوله مدام إيخوف، لأننا نحب بعضنا! الجميع ضدنا، وهذا ليس عدلاً».

«في الواقع يا لي لي»، انطلقت ماري، في محاولة لإخفاء مشاعرها السرية الخاصة. «الموضوع مأساوي للغاية. أنتِ تحبين جورج وجورج يحبكِ، والعالم كله ضدك، ماما ومدام إيخوف والجميع أيضًا. إنه لمحزن جدًا يا عزيزتي، محزن جدًا في الواقع! وبالطبع ليس هناك أي بصيص من أمل في أن يتغير أي شيء. محزن للغاية».

«ماري، كيف تجرؤين؟ تسخرين مني في الوقت، الذي تعرفين فيه كم أنا متضايقة!».

«نعم، أنا قاسية جدًا، ألست كذلك؟»، تابعت ماري، وخفضت صوتها. «تعاليّ هنا يا لي لي، جففي دموعكِ وأعطني قبلة، تمام؟ لم أكن أقصد أن أكون

فظة. هل تريدينني أن أحاول لأجعل ماما تغيّر رأيها؟».

«يوه، فقط لو غيرته أنتِ! أنا متأكدة أن ماما ستقول نعم لو طلبتِ منها».

«آه نعم، أنا التي لا يستطيع أحد أن يرفض طلباتها، ألستُ كذلك؟ وأنتِ التي يقف الجميع دائمًا ضدكِ، ألستِ كذلك؟ أيتها المسكينة!».

اضطرت لي لي لأن تبتسم من خلال دموعها. «ماري، أنتِ مُضحكة جدًا عندما تتكلمين هكذا! أضحكتني!».

«نعم يا لي لي العزيزة، يمكنكِ أن تضحكي. لنضحك جميعًا إذا وجدنا إلى ذلك سبيلاً. وداعًا الآن. لِمَ لا تصلحين شعركِ، وسأنزل إلى الطابق السفلي وأتكلم مع ماما».

غادرت ماري الحجرة، شعرت بوخزة من غيرة لقدرة أختها على الفضفضة بهمومها. وبينما كانت تنزل الدَّرَج ابتسمت بحزن على يأس لي لي العميق منذ لحظة واحدة، وعلى افتتانها بجورج. كانت أختها مجرد طفلة فيما يتعلق بها، تبكي على فقدان لعبة ما مؤقتًا، وكانت على ثقة من أنها ستنسى كل شيء في غضون نصف الساعة. كم كانت لي لي محظوظة! حرة في أن تذرف الدموع عندما تكون حزينة وحرة في أن تقول أشياء مثل: «لا أعبأ بذرَّة واحدة بما تقوله مدام إيخوف، لأننا نحب بعضنا!»

***

كانوا في الطريق إلى مزرعة ومبانيها يمتلكها أحد معارفه عائلة فرسترايتن القدامى. سارت الحافلة المزدحمة عن آخرها بطول شارع لوسداونسيڤيج تحت سماء حارقة، ويمر الترام البخاريّ بجوارهم أثناء حركته في الاتجاه المقابل بين الحين والآخر. جلست مدام فرسترايتن وماتيلدا في المقعد الخلفي ونيكو بينهما، وجلست ماري ولي لي وفريدريك في المنتصف في مواجهة پول وإتيان وجورج، واحتلت الدكة الأمامية إرنستين ومادلين وأولاد فرسترايتن الصغار. جلس يوهان على مقعد السائق، بينما تقاسمت كاتو فان

دير ستور المقعد الخلفي مع يان. كان يفترض أن تكون نزهة عائلية ظريفة، لا شيء رسميا فيها، بحيث يمكن للجميع الاسترخاء والاستمتاع. وزعت ماري حفنات من الكرز من سلة كبيرة، وأخبرهم إتيان وهو يأكل بأنه وفقًا لمارجريت فان لارن فإن الذهاب في نزهة في حافلة شيء برجوازي للغاية.

قال جورج: «أظن أن عائلة فان لارن يسافرون دائمًا في نزهاتهم في عربة للنقل، وتُستكمل بخدم يرتدون باروكات رمادية!».

ردت لي لي، وهى تبتسم بافتتان لجورج، «طبيعي! والسيدات ترتدين تنورات منفوخة كبيرة، كما في لوحات واتو، يقدن حِملان صغيرة بأشرطة وردية!».

كان هناك الكثير من المرح الصاخب في هذا؛ كانوا جميعًا في حالة معنوية عالية، النساء في فساتينهن القطنية البسيطة بنفس القدر، الذي كان عليه الشبان في ملابسهم الصيفية الخفيفة وطواقيهم المصنوعة من القش.

«خذي بعض الكرز يا كاتو»، قالت ماري، وهى تمد يدها لها بحفنة. «يمكنكِ مشاركتها مع يان».

«آه نعم، سوف نتشاركـ!»، هتف يان بجو يوحي بالاحتيال. «هل لي أن أريكِ خدعة يا كاتو؟»

«أي نوع من الخدع؟»

«انظري إلى هاتين الكرزتيْن؟ حسنٌ، ضعي واحدة منها في فمك».

سألت كاتو، فعلت كما طلب منها، «لماذا؟»

«بعد ذلك سآخذ الكرزة الأخرى. انظري، هكذا!»، أجاب الولد العفريت، ماسحًا شفتيها بشفتيه بسرعة قبل أن يعض الكرزة الثانية.

وبخت المدام: «يان! تأدب!»

قهقهت فريدي: «لقد انطلت عليها! كاتو الساذجة!»

احتجت كاتو: «لم تكن لدي أي فكرة عما كان ينوي القيام به! ولد شقي!»

سخر پول: «هراء، لا يمكنكِ أن تقصدي ذلك. بالطبع كنتِ تعرفين!»

تمايلت الحافلة أثناء سيرها عبر تضاريس منبسطة من المروج وأبقار المراعي الملساء، التي لمعت جلودها السوداء والبيضاء كالساتان، مرورًا بصفوف لا نهاية لها من أشجار الصفصاف المُقلَّمة تنشر مراوحها الفضية.

سألت لي لي بعاطفة: «أشجار الصفصاف تبعث على الحزن، ألا توافقني على ذلك يا جورج؟»

صاح إتيان: «ها هى تبدأ، تصبح شاعرية مرة أخرى! هيا إذن يا لي لي، دعينا نسمع أنشودة شعرية إلى الصفصاف».

تنهدت: «لا أستطيع أن أقول أي شيء هذه الأيام دون أن يسخر مني الجميع، الله يعرف لماذا».

الآن جاء دور لي لي لكي تُغاظ، ضحكوا جميعًا بحرارة وهم يمضغون الكرز الذي معهم.

بدأ الطريق في الصعود نحو آفاق متموجة. قامت استراحة ريفية هنا وهناك، تائهة وسط المساحات الخضراء، أو بيت بمزرعة تحيط به حقول مزروعة بالجزر والقرنبيط أو الفاصولياء في صفوف مرتبة، وتشتعل الحدائق بأزهار عباد الشمس والفاوانيا والخطمية. اعتدلت غسالة كانت تدعك الملابس على ضفاف أحد الجداول المائية واقفة لتبتسم لهم أثناء مرورهم، وركض اثنين من الصغار خلف العربة، بينما قذفهما يان وكاتو بالكرز.

* * *

امتد الطريق وسط حقول الذرة الصفراء والكتان الخضراء تتناثر عليها نُقط القنطريون العنبري الزرقاء وشقائق النعمان الحمراء، وصعدوا وهبطوا حتى وصلوا أخيرًا إلى المزرعة. ظهرت زوجة المزارع عند البوابة، تبتسم ابتسامة عريضة، وانطلق الصغار ينزلون من الحافلة، بينما تولّت مدام فرسترايتن

وماتيلدا مهمة إنزال حمولة الصناديق والسلال المغطاة بالقماش وسلال الخوص من الحافلة.

فكّ سائق العربة البخارية الخيول من رباطها وقادها إلى الإسطبل.

وقف يان فرسترايتن وكاتو وأبناء فان رايسل الأربعة في طابور مستقيم من أجل اللعب بالأرجوحتيْن، لكن ليس قبل أن يؤكد يان لمدام فان رايسل أنه سيأخذ حذره للغاية ووعدت كاتو بأن تولي اهتمامًا خاصًا بنيكو الصغير.

«إنهما يتصرفان تمامًا كزوجين مع أبنائهما!»، ضحكت ماري، وهى تتابع الفرقة المرحة بنظرها.

«سوف آخذهم بعيدًا عن الأراجيح بعد قليل لأنني أريد أخد دوري!»، صَرَّح إتيان، الذي كان بالفعل دائخ الرأس قليلاً من الشمس والهواء النقي. «لي لي، هل تنضمين إليّ على الأرجوحة الأخرى؟ إذا كان دي ڤوده سيسمح لكِ، هذا ما هناك!»، قالها همسًا، وعيونه تدور في مقلتيهما.

«دي ڤوده لا يقول شيئًا بخصوص ما أفعله! ولكن لا شكرًا، أنا لا أحب الأراجيح. إنها دائمًا تسبب لي الصداع».

صاحت ماري: «ولكنني أحب الأراجيح يا إتيان! لذا سأعتمد عليك كجنتلمان لكي تدفعني عاليًا بقدر ما أستطيع، عاليًا بحق، أتسمعني؟ عاليًا حتى السحاب!».

اقترح پول: «دعونا نذهب لنجد بقعة لطيفة للجلوس- هناك، عند تلك التلال الرملية».

قالت فريدي: «تظن أن الوقت حان للراحة، كم أنت نمطي! لكن يا عزيزي پول، الجو حار عند التلال الرملية».

«لا، هناك بعض الأشجار، أشجار سِنديان على ما أعتقد، هناك وراء الصيوان».

قالت لي لي: «حسنٌ، لنذهب. الجو حار جدًا لعمل أي شيء مرهق بأي

حال. أتفق مع پول؛ أنا أحب النزهات، التي تشجع على الكسل. مجرد الاستلقاء في الظل الأخضر البارد، ومشاهدة السحب، وهى تسير فوق رؤوسنا- رائع».

ضحكت ماري: «كم هذا شاعريّ! أَوْكِلوا لي لي لتحوّل الخمول التام إلى مناسبة رومانسية. من أجل خاطر الله يا دي ڤوده، لِمَ لا تقول شيئًا؟ ها نحن هنا، كلنا ندردش بينما تغرق أنت في نشوة كالمجذوب، لا أتعجب إن كنتَ تؤلف أبيات الشعر في رأسك».

نفى جورج هذا بروح دعابة لا بأس بها، وانطلقوا جميعًا، وهم يدفعون جانبًا فروع الأغصان المورقة من الشجيرات المتدلية في طريقهم. كانت لي لي مرعوبة للغاية من عنكبوتٍ كان يهبط خيطًا فضيًا طويلاً، وأدت إزالة دي ڤوده للحشرة لانطلاق نوبات جديدة من الضحك والنكات على لي لي باعتبارها فتاة في محنة وجورج فارسًا يرتدي ملابس مدرعة لامعة آتٍ لنجدتها.

قال جورج: «هل لي أن أسأل، ما الذي فعلناه لنستحق كل هذا الاهتمام؟».

قالت لي لي: «لا يهم يا جورج، لا تعبأ بهم! هُم يظنون أنهم خفيفو الظل. يوه يا پول، إلى أين تأخذنا؟ الجو حار جدًا، وزلق للغاية تحت أقدامنا أيضًا. كم تبلغ المسافة إلى بقعتك اللطيفة تلك؟ كل هذه الفروع المتعبة- آآي!»

توقفت لتتفقد إصبعها، والذي كان قد خُدِشَ بسبب شوكة.

«لِمَ لا تدعونني أسير في المقدمة إذن»، عرض جورج، وهو يتحدث بهدوء شديد وتسلل أمامها بهدوء بالغ لدرجة أن الآخرين، الذين ما زالوا يضحكون بحرارة لم ينتبهوا. تخلَّف هو ولي لي عن الآخرين، وأمسك بعناية كل فرع غصن شجرة مزعج لإفساح الطريق لها.

طلب منها: «دعيهم يضحكون! أنتِ لا تعبأين بهم، أليس كذلك؟»، بنظرة سعيدة وحالمة في عينيه.

«مطلقًا! أجابت بسكينة. هزت رأسها، التي وضعت فوقها قبعة شمس واسعة تزينها الزهور البرية، وابتسمت ابتسامة مقوسة. «لقد حان دورنا لأن

نضحك عليهم الآن. مَنْ هذا الذي يصيح بأعلى صوته؟».

قال جورج: «إتيان طبعًا!»

كان پول وإتيان وجدا منحدرًا تعلوه الطحالب تحت شجرة كستناء صغيرة، يمكن منه رؤية منظر بانورامي جذاب: مدى من المروج وأبقار المراعي، وخطوط مستقيمة من القنوات المليئة بالماء تتلألأ في ضوء الشمس الساطع، وطاحونة هواء وراءها، وعلى بُعد صفٌ من أشجار الحور الباسقة.

وعندما التحقت لي لي وجورج بالآخرين وجداهم في نشوة كبيرة.

قال پول: «هذا بديع! الكثير من الطحالب الباردة للاستلقاء عليها ومنظر شامل لطيف».

وافق الجميع، وأسقطوا أنفسهم بقوة على الأرض، منهكين من رحلتهم، وعلى المَرْج المرقّش المعتم انتثرت مجموعة من القبعات الملقاة والمظلات ذات الشرائط، بينما ألقت أشعة الشمس الشاردة بقعًا من الضوء المتلألئ على حشد التنورات القطنية الخفيفة.

قالت لي لي، وهي ترفع شمسيتها الوردية، «المكان ليس ظليلاً هنا في نهاية الأمر، على أي حال، أنا في الشمس تمامًا،» اختلست نظرة ساخطة على پول، الذي حصل على بقعة من الظل الظليل، حيث استرخى فيها الآن على ظهره واضعًا منديل جيب على وجهه.

تمتم قائلاً: «صهٍ يا لي لي، لا نريد كلامًا أكثر الآن، حان وقت القيلولة!».

«كل شيء على خير ما يرام بالنسبة لك لأن تأخذ قيلولة، بينما احترق أنا كالفاكهة المُحَمَّصة في الشمس».

غامر جورج بالقول: «هل علينا الذهاب والبحث عن بقعة أفضل يا لي لي؟».

قال پول: «نعم، يمكنكما أن تفعلا ذلك- فكرة جيدة».

قال إتيان: «وتطلق صُفّارة عندما تجدها».

وعد جورج بأنه سيفعل، وانطلق هبوطًا على المنحدر الرملي ولي لي تتشبث بذراعه.

قال إتيان: «لن يصَفِّرا، فقط انتظر لترى».

قال پول متثاءبًا: «لي لي كثيرة المتطلبات للغاية!».

كان خموله أمرًا يفوق احتمال إتيان، الذي أمسك بكاحليّ پول وجَرَّه بعض الشيء، الأمر الذي كان مسليًا جدًا للفتيات.

إلا أن الجو كان حارًا جدًا، ولما بدأوا جميعًا يشعرون بالكسل، قرروا بالإجماع أن ينتظروا إلى ما بعد الغداء للانطلاق في تمشية ملائمة. عندما أُستعيد السلام بين پول وإتيان، وضعت فريدريك رأسها على ركبتيّ إتيان، الذي دغدغ أذنها بورق عُشب، بينما تظاهر پول بالنوم. جلست ماري في سكون تام، تقلب نظرها، وهى تحدق في المروج والقنوات والأبقار.

***

كان الطريق، الذي أخذته لي لي جورج مريحًا. شعرت لي لي كأنها تطفو، وهى تهبط الطريق متعلقة بكتفيّ جورج بكلتا يديها، وهو يلهث بالفرحة كلما سار أسرع فأسرع. لقد منحها جناحين!

«كم من العبث منهم البقاء، حيث لا يوجد أي ظل مضبوط؛ انظر، هناك أجمة من الأشجار أمامنا!».

«أشجار الكستناء تلك؟».

«تبدو مبشرة. أنذهب ونلقي نظرة؟».

«حسنٌ جدًا».

انطلقا في طريقهما إلى الأشجار ووجدا نفسيهما في مكان مفتوح وظليل تكثر فيه الخضرة في الغابة تحيط به أشعة الشمس الحادة من كل جانب.

صاحت لي لي: «أليس المكان رائع هنا؟ انظر، أزهار البنفسج البرية!».

جلست على المنحدر، الذي تعلوه الطحالب، وبدأت تقطف الأزهار البرية، التي تصل إليها يداها. غاص جورج جالسًا عند قدميها، أقل شيء يمكن قوله إنه كان سعيدًا جدًا، يعبث بالشرائط الحمراء بمظلتها الوردية.

«ينبغي عليك أن تُصَفِّر يا جورج كإشارة للآخرين أن يأتوا»، قالت متظاهرة بالرزانة، وهى تعلم تمام العلم أنه لن يفعل.

أجاب بمرح: «لا أستطيع أن أصفر، لم أستطع أن أفعل ذلك مطلقًا!».

ضحكت، وبدأت ترشقه ببنفسجها، الذي جمعه على الفور في هيئة باقة صغيرة ووضعها في عروته. ثم أخذ بيدها.

«أتحبينني؟»، قالها، وهو ينظر في عينيها. وضعت يديها البيضاوتيْن الصغيرتين على كتفيه ومالت إلى الأمام، نظرت إليه محدقة.

غمغمت برقة: «ماذا؟».

«أتحبينني؟، كررها، ومالت لتقترب أكثر، بحيث مسّ شعرها شفتيه برفق، متلقيًا القبلات.

قالت: «نعم»، وأسندت جبينها على جبينه. «نعم، أحبكَ».

جلسا هكذا فترة من الوقت، وبالرغم من الوضع غير المريح تقريبًا، الذي كان فيه جورج، لكنه سُرَّ بالإحساس بثقل رأسها الحلو، وعندما نهضت واقفة أخيرًا، انتقل للجلوس بجانبها، ثم رفع ذراعها ووضعها حول رقبتها.

بدأ: «بالمناسبة، أختي إيميلي -».

قالت: «ماذا عنها؟».

«لقد تحدثت إيميلي مع أبي. ألا تظنين أنها قد تتحدث مع والديكِ أيضًا؟».

أجابت، في ابتهاج، «آه، نعم! لكنني لا أعرف، لست متأكدة إذا كانت -».

«إيميلي متحدثة جيدة جدًا».

«أنت تحبها كثيرًا، أليس كذلك؟».

«نعم، وأحبكِ أيضًا».

ويدها على عنقه جذبته إليها أقرب قليلاً، وقَبَّلَت جانب رأسه- كانت المرة الأولى التي تُقَبِّلُه فيها. كان الهواء الصيفي المعتدل تحت المظلة من أوراق الأشجار مثقلاً برائحة أزهار البنفسج المختلطة بالطحالب، ونكشت الشعر الأسمر المصفر فوق أذنيه بأصابعها. كان الإحساس باعثًا على السرور لدرجة أنه كاد يغشى عليها.

استمعت بسعادة لصوته الخفيض، وهو يروي المحادثة، التي دارت بينه وبين أخته، في وقتٍ لم يكن يعرف فيه حتى إذا كانت لي لي تُكِنُّ له أي مشاعر بحق. كان يشعر بالكثير من القلق في البداية، لكنه الآن تملؤه الثقة، مهما كانت التحديات، التي قد يحملها المستقبل.

قال: «ظننت إيميلي أنكِ لن تفكري في الزواج من رجل بلا مال. هل ذلك صحيح؟ ألا تقبلين بزوج مفلس؟».

«هل أنتَ مفلس؟».

«حسنٌ، أنا لستُ غنيًا حرفيًا».

«حسنٌ إذن، يمكن أن أقبل بزوج مفلس. امم، يمكنني أن أكون مقتصدة جدًا، كما تعلم. في بعض الأحيان أحتفظ بمصروف الملابس لشهر واحد يستمر معي لمدة ثلاثة أشهر، وأظن أنني نجحت في أن أبدو على ما يُرام، ألست كذلك؟».

«تبدين رائعة».

«لكن لا تهاجمني أنت لأنني اقتصادية للغاية. أظن أنه ربما لديك قدر كبير من الاحتياجات أكثر مني».

«كل ما أحتاجه هو أنتِ. أنتِ كل شيء بالنسبة لي».

«هل تحبني إيميلي؟».

«بالطبع تحبكِ. إنها ستكون كأمٍ بالنسبة لنا، وسوف تأتين معي بغض النظر

عن المكان، الذي سوف يرسلونني إليه؟ إلى القاهرة؟ القسطنطينية؟ الكاب؟».

«إلى لابلاند إذا اقتضت الحاجة. في أي مكان على الإطلاق».

«زوجتي العزيزة!».

احتضنها بالقرب من قلبه وقَبَّلَها. كان الهواء ساكنًا، انفصلا بعيدًا عن العالم، وكانا وحدهما في الجنة، مرتبطان في حبٍ بمقدار عظيم كما لم يعرف أحد قطّ من قبل.

* * *

صاح يوهان فان رايسل الصغير: «ماما تريد أن تعرف إذا كنتم ستأتون لتناول الغداء! كم أنتم كسالى جميعًا! تبدون نصف نائمين بالفعل».

تسلق المنحدر صاعدًا وانقض على ساقيّ پول الطويلتين ليهزهما. نهضت فريدريك وإتيان، وقالا نعم، إنهما جائعان جدًا.

صاح يان، الذي جاء ركضًا، «أظن أنكما جائعان من عدم القيام بأي شيء! لقد كنا نلعب بالأراجيح والنوّاسة، وركبنا عربة يجرها حمار وصعدنا فوق قمة عربة تبن، وكل ما كنتما تفعلانه هو النعاس!».

قالت ماري بنبرة جادة زائفة: «بَسْ بَسْ، المزيد من الاحترام للكبار من فضلك».

تقاطروا جميعًا إلى بيت المزرعة من الطريق، الذي جاءوا منه، وشقوا طريقهم عبر الشجيرات، حينما سمعوا صافرة من ورائهم. ولما نظروا حولهم رأوا جورج ولي لي يبادلونهم ابتسامات متواطئة.

قال جورج: «وجدنا بقعة ممتازة، منعشة بصورة رائعة».

رددت لي لي: «منعشة بصورة رائعة».

تعرض كليهما للهجوم بالأسئلة والنظرات المُطَّلعة، التي حاولوا صرفها عنهما بإبطاء سرعتهما، لكن مع حرصهما على ألا يصلا في وقت متأخرٍ بكثير

عن الآخرين على المائدة.

كانت مدام فرسترايتن وماتيلدا مشغولتيْن جدًا، بالرغم من الحرارة. كانت المائدة الكبيرة المغطاة بقطعة قماش ريفي من القطن الأبيض عامرة بسخاء بأقراص الخبز، وسلطانيات الكرز والفراولة، إلى جانب كعكتيْن اسفنجيتيْن ذهبيتيْن على شكل عمامة وضعتا على جانبيّ جرة كبيرة من القشدة. توزع ستة عشر كرسيًا من أجل الحفل، بينما الْتَهَم أبناء فان رايسل الأربعة، الذين احمرت وجوههم، وأشرقت عيونهم بسبب الحرارة والتصق شَعْرُهم في هيئة خصلاتٍ على جبينهم المبلل كل شيء بعيونهم. كان نيكو جالسًا بالفعل، يخشخش بكأسه ويضرب الطاولة ضربًا عنيفًا بشوكة، وحاليًا في الوقت الحاضر كان الجميع جالسين حول المائدة، بينما أشارت المدام وماتيلدا إلى الأطعمة المختلفة.

«دي ڤوده، ولدي العزيز، تفضل الطعام!»، قالت المدام، وامتلأ الجو بأصوات مبتهجة، وقتما بدأوا جميعًا في الأكل بحماس. اختفت أقراص الخبز والكعكتان الإسفنجيتان بمعدل مرعب، بينما قرقرت الدجاجات بهمّة حول المائدة، خصوصًا بالقرب من نيكو، الذي ظلَّ يطعمها شرائح كاملة من الخبز، ووجد يان في هذه الأثناء سببًا جديدًا لنخس الشبان الثلاثة عن كسلهم.

وراء المزرعة كان هناك جدول مائي عريض، بقارب تجديف صغير راسٍ بالقرب من الضفة. طلب يان وكاتو ركوب المركب الصغير بضجة وصخب، لكن مدام فرسترايتن لم تكن لتأذن لها إلا إذا رافقهما شخص أكبر سنًا وأكثر مسؤولية. لذا بعد الغداء تم الاتفاق على يأخذ بول وإتيان المجاديف، ويعمل يان بمثابة مدير الدفة وستكون فريدريك وماري وكاتو «حمولة السيدات الشقراوات»، بحسب وصف إتيان.

قال بول، وهو يدفع القارب بعيدًا عن الضفة بمجدافه، «جورج ولي لي يبدوان كعصفورين أليس كذلك؟».

صاحت فريدريك: «إلى أين وصلا؟ آه، انظروا، ها هما هناك، وراء ذلك السياج! عجبًا يا ماري، كيف يمكنكِ باعتباركِ الأخت الكبرى السماح بحدوث شيء كهذا!».

ابتسمت ماري.

قالت ببساطة: «على الأقل هم سعداء».

حاول إتيان بكل ما أوتي من قوة إخفاء افتقاره لمهارات التجديف من خلال بذل الكثير من المجهود المضني، لكن پول لم يكترث.

احتج پول: «امم يا إتيان، أنت ميؤوس منك. ألا تعرف أنه يجب عليك أن تغمس المجاديف بنظافة، لا أن تتسبب في كل تلك الطرطشة!».

هبط عليهم وابلٌ من الرذاذ.

اشتكت فريدريك: «لقد جعلتني مبتلّة تمامًا!».

«تعال الآن، هل تقولين أنني لستُ مجدفًا جيدًا؟».

ضاعف إتيان جهوده، لكن دون جدوى، وهو ما وجدته كاتو ويان مضحكًا للغاية، وما لبثا أن استجمعا شجاعتهما لسؤال پول، اللذيْن اعتبراه القبطان، إن كانا يأخذان دورهما في التجديف. انتقل إتيان وفقًا لذلك من مقعده، نتيجة لذلك كاد القارب ينقلب تقريبًا، وجلست كاتو منتصرة بجوار پول، وحرصت على الحفاظ على الإيقاع المثالي مع ضربات مجدافه. قبضت بإحكام على مجدافها بكلتا يديها، غير مبالية بفقاقيع الماء، فُتِنَت عندما تأتي ضربتها وضربة پول كأنهما ضربة واحدة، تضربان بهدوء عبر المياه الخضراء.

قالت ماري: «مبهر يا كاتو، أنتِ تجدفين تجديفًا رائعًا بفظاعة! يان، لِمَ لا توجهنا لنقترب أكثر من زنابق الماء تلك؟».

امتثل يان لقولها، وانحرف القارب ببطء نحو رقعة واسعة من الطحلب البطيّ بزنابق ماء بيضاء وصفراء وتحيط بها أوراق الزنابق الكبيرة والمستديرة. مالت ماري عند جانب القارب لتمسك بزنبقة وجذبت بقوة الساق اللزج

الصلب حتى صار مهلهلاً واستطاعت رفع الزهرة من الماء.

قال يان، مشيرًا إلى الضفة البعيدة، «هناك كميات أكبر هناك!».

انزلقوا على الماء مرورًا بالمروج، التي تحدها أشجار الصفصاف تترك أغصانها الفضية آثارها في الماء، وواصلت ماري، بجوٍ من الحيرة والتشتت، جذب الزهور الموحلة من الأعماق. بدت وكأنها لا تسمع النكات ولا الضحك، ولا المشادة الحامية، التي اندلعت بين كاتو وإتيان فيما يتعلق بالطريقة الصحيحة لاستخدام المجداف، كانت منهمكة للغاية في جذب زنبقة تلو الأخرى والإلقاء بسيقانها عند قدميها كثعابين ماء زلقة. كانت تجذبها بقوة لدرجة أنها جرحت جلد أصابعها، شعرت كما لو كانت تقتلع أفكارًا غير مرغوب فيها من خاطرها، والتي من أجل التخلص منها تستحق سفك الدم.

***

عزّى أبناء فان رايسل الذين لم تثق ماما بوجودهم في القارب طالما كان إتيان فيه أنفسهم بالنواسة والأراجيح. دفعت تينا نيكو وقور المظهر بشكل ملحوظ على أرجوحة من الأراجيح، بينما ركب يوهان الأرجوحة الأخرى ومادلين جالسة بين قدميه. بعد فترة شعر نيكو بالملل، وتخلى عن أرجوحته لماري وإتيان، اللذيْن عادا من القارب.

صاحت ماري: «أعلى يا إتيان، أريد أن أصعد عاليًا كالسماء!».

اشتركا في الأرجوحة. ثَبّت إتيان قدميه بقوة على المقعد الخشبي وثنى ركبتيه لتحريك الأرجوحة.

«آه، أرى أنك أفضل على الأرجوحة منك في قارب تجديف!» قالت ماري، وهي تجثو بين قدميه تدفع نفسها إلى الأمام، وإلى الخلف للمساعدة في دفع الأرجوحة لأعلى. انتفخت تنورتها وطارت، وطارت قبعتها بعيدًا، ورفرف شعرها حول خدّيها. في أعلى نقطة، عندما تعلقت عموديًا تقريبًا على إتيان، ابتلعت ريقها قبل النزول بالأرجوحة إلى أسفل، ثم إلى أعلى مرة أخرى،

وهبوطًا ... تملكها إحساس بأنها تحلّق فوق هاوية سحيقة بينما ترتفع أعلى وأعلى في السماء الزرقاء، محمولة عاليًا على جناحيّ طائر كبير. لمعت عيناها بالدموع، واشتعلت وجنتاها، وتخيل نفسها تترك الحبال، وتندفع بقوة وسرعة في الفراغ العريض.

وقعت عيناها على الأطفال الأربعة بالأسفل، وهم يحدقون عاليًا في روعٍ عليهم، وهم يجرؤون على التأرجح عاليًا للغاية، وأرادت أن تنادي عيلهم، لكن لم يخرج أي صوت من حلقها. بدا إتيان منتشيًا من زخم الحركة، واستمرا في التأرجح، أعلى وأعلى.

قالت ماري، وهى تلهث، وأغلقت عينيها، «كفى يا إتيان- هذا يكفي».

شعرت بقدر كبير من الدوار لما خفَّض الطائر الكبير السرعة، متأرجحًا تدريجيًا أدنى وأدنى حتى توقف تمامًا، وعندما لمست قدماها الأرض مرة أخرى ووقفت على قدميها شعرت بدوخة شديدة لدرجة أنها كادت تفقد توازنها.

ركض إتيان لاسترداد قبعتها.

قالت، وهى تلتقط أنفاسها، «كان ذلك ممتعًا، أليس كذلك؟».

أومأت ماري برأسها، وابتسمت ابتسامة باهتة، وهى تزيح شعرها المنكوش عن وجهها. انطلق إتيان بسرعة، داعيًا أبناء عمومته بأن يمسكوه، وعندها ذهب أبناء فان رايسل الأربعة في مطاردة ساخنة ونيكو الصغير وراءهم، راكضًا بأسرع ما استطاعت ساقاه القصيرتان أن تحملاه. وحدها أخيرًا، غرقت ماري، وهى تجلس على العشب بجوار الأراجيح في طوفان من الدموع. دار ببالها لي لي وجورج، وكيف كانا يكملان بعضهما ذاك الصباح بينما كانت هى، ماري، لا تفعل شيئًا سوى الجلوس والتحديق في المروج والأبقار، حتى شاهدت نجومًا أمام عينيها، وفكرت كيف تسللا معًا خلسة، بينما كانت تجلس هى في قارب تقتلع الزنابق من الماء حتى أوجعتها يداها.

١٩

«إيلينه! إيلينه!»، نادى صوت من الحديقة.

استيقظت إيلينه فجأة في الساعة السابعة والنصف- تُقَدَّم وجبة الفطور في دي هورسه في تمام الساعة الثامنة- كان عليها أن تسرع في وضع مكياجها. توجهت عند سماعها اسمها أثناء ارتداء ملابسها إلى النافذة، التي كانت مفتوحة، ولما بحثت بالخارج، رأت ابنتيّ تيودور الكبريين ماريان وهنرييت، البالغتين من العمر ستة عشر وأربعة عشر عامًا.

نادت إيلينه بابتهاج: «صباح الخير!».

«أهلاً، هل استيقظتِ؟ هذا سريع! أيمكنكِ أن تأتي قريبًا؟».

«في خلال لحظة».

صاح صوت جديد من الخارج: «مرحبًا إيلينه، مرحبًا إيلينه!». نظرت إيلينه مرة أخرى ورأت جوستاف، صبيٌ وسيم عمره عشر سنوات ذو عيون زرقاء جريئة، وأيدٍ متسخة دائمًا وفكاهي كمهرج.

نادت: «مرحبًا جوس!».

«أقول، إيلينه، أتتذكرين ما وعدتِ به؟».

«لا، ماذا؟»

«أنكِ ستتزوجينني بدلاً من أونكل أوتو! لقد وعدتِ، تذكرين!»

ردت إيلينه، وهى تعود إلى المرآة لتصفف شعرها، «حسنٌ إذن، سأفعل! لكن عزيزي جوس، لا بد لي أن أجهز الآن، وإلا سوف أتأخر عن وجبة الإفطار!»

ارتفعت أصوات أكثر من الحديقة، التي أنارها ضوء الشمس، من بينها تمكنت الآن من تمييز نبرة صوت تيودور العميقة وكذلك صيحات أبناء فان رايسل المتحمسة. شعرت بتوتر، كانت لا تزال عيناها منتفختيْن قليلاً من النوم، ولم تستطع أن تجعل شعرها يبدو كما تتمنى.

رددوا: «إيلينه! إيلينه!»

«نعم، نعم، قادمة!»، نادت بتبرم. انطلقت بسرعة، وهي لا تزال تربط وشاحها بطول الممر المظلم المغطى بألواح البلوط، ونزولاً على سلالم الدَّرَج الفخمة ولتخرج من الردهة.

في الحديقة شاهدت أوتو يتمشى مع أخته كاترين هوارد. لم تكن جميلة، لكنها كانت تمتاز بطريقة لطيفة وباعثة على البهجة، وحيوية مرحة تتناغم تقريبًا مع حيوية أخيهما الأصغر إتيان.

«آه يا أوتو، أستطيع أن أتصور تمامًا»، تنهدت كاترين، وهي تحتضن ذراعه. «أعتقد بأنها جذابة جدًا. في رسائلهما أعطتني فريدي وماتيلدا انطباعًا بأنها فتاة مجتمع، لذلك كنت أتوقع إلى حدٍ ما أن تكون واحدة من شابات لاهاي المتعجرفات أولئك. لم أرها إلا مرة واحدة أو مرتين من قبل كما تعلم، وكان ذلك منذ فترة طويلة. ألم تكن تعيش مع تلك الأرملة العجوز، عمتها فيره، في ذلك الوقت؟».

قال أوتو: «نعم، كانت».

«على أي حال، أعتقد بأنها أحلى فتاة تمامًا! تتحدث بأسلوب لطيف وحلو، ليس فيه شيء من التكلف مطلقًا، غير أنها ذات ملامح مميزة، ليدي بحق. وجميلة كلوحة مرسومة. جميلة، في الواقع.

سألها أوتو: «أتعتقدين ذلك؟».

«نعم، لا بد أن تكون فخورًا بها للغاية، ليس كل شاب لديه حسن حظك. يوه، بدأ الجرس يدق! يفضلون أن تكون البداية مبكرة في دي هورسه».

ساروا في طريقهم إلى البيت الزجاجي بالجزء الخلفي من المنزل، حيث وجدوا مدام فان إرليفورت تشرف على مائدة الإفطار الطويلة. تطلعت إليهم بابتسامة حنونة عند دخولهم. كانت إيلينه تتحدث إلى تيودور، ولاحظت كيف كان قوي البنية، عريض المنكبين بل وممتلئ الجسم قليلاً، ولحيته الكثيفة، التي هذبها لتصبح قصيرة، بالعكس تمامًا من إخوته أوتو وإتيان، لكن بصوته العالي، والمبتهج الشبه مع العائلة لا تخطئه العين. كانت زوجته، مدام فان إرليفورت الشابة أو تروس كما يدعونها، ما زالت مشغولة بتحضيرات الإفطار، تساعدها ماتيلدا وفريدريك؛ ووضعت المربية فرانتسين أبناء فان رايسل الأربعة على كراسيهم وربطت المناديل تحت ذقونهم. أتى إتيان من الحديقة مع كور، ابن تيودور، الذي يبلغ عمره ثمانية عشر عامًا، ضابط صف بحري في إجازة، ولحقهما البنات والأولاد، ڤيلي وجوستاف، يملؤهم المرح على حساب زوج خالتهم هوارد الذين لم يفهموا إنجليزيته، والذي كانوا يحاولون تعليمه الهولندية.

قال أوتو، وهو يقترب من إيلينه، «صباح الخير يا نيلي».

«صباح اليوم يا أوتو»، أجابت إيلينه، وهي تمد يدها إليه لتصافحه. وجدت نفسها مستمتعة بصخب أسرة سعيدة مليء بالضجة. بالنسبة إليها، التي لم يكن لديها أي أحد تلعب معه سوى أختها، والتي قضت سنوات عديدة من الملل الهادئ مع عمتها المسنة، كان العراك الصاخب المرح، البعيد كل البعد عن السهرات والحفلات الراقصة، التي كانت معتادة عليها في لاهاي مثيرًا للبهجة. كان الجميع ودودًا جدًا أيضًا؛ بدا أنهم جميعًا صاروا مولعين بها للغاية بصورة متزايدة حتى فريدريك. لم تكن تتضايق عندما كان الصغار يتسلقون على حِجْرها ويربتون عليها بأصابعهم اللزجة أو يبعثرون شعرها. كان تجلس بين أوتو وتينا الصغيرة، التي شَغُفَت بها، والتي ظلّت تحوم حولها تمامًا، كما فعلت كاتو فان دير ستور في لاهاي. أصبح ذلك مكانها الثابت على المائدة. أُحيطت مدام فان إرليفورت العجوز بأصغر أحفادها- أصغر أبناء تيودور، إدميه أو

ميميه، وكيتي هوارد، الابنة الوحيدة لزوج ابنتها الإنجليزي، ولما ألقت نظرة على المائدة الطويلة المفعمة بمرح الشباب مرَّ ببالها ألا أحد في العالم أكثر سعادة منها، ذات شعر أشيب، لكنها قلبها لا يزال شابًا.

بعد الإفطار اقترح تيودور زيارة إلى الشجرة الكبيرة، التي تتمع، بحسب ادعائه، بواحد من أكثر جذوع الأشجار سُمْكًا في خيلدرلند؛ وسوف يذهب إلى هناك سيرًا على قدميه مع هوارد وإتيان وكور. أعلنت إيلينه وأوتو أنهما سيمشيان أيضًا، وساقت البنات الثلاث كل الأطفال، ومن بينهم ميميه وكيتي، إلى العربة المغطاة.

كانت حجرة الإفطار في حالة من الفوضى، الكراسي مبعثرة والمائدة فوضى الصحون والأكواب بينما تناثرت المناديل على الأرض وكذلك قبعة تينا، ومجرفة نيكو اللعبة وكرة ميميه.

«هل أنتِ متأكدة من أنكِ غير متضايقة من كل هذه الضجة يا ماما؟»، سألت تروس، وأخذت بيد مدام فان إرليفورت. كانتا لا ما تزالان جالستين في مقعديهما على مائدة الإفطار، تلقيان نظرة على الحطام. «حقًا، لقد أصبحت قلقة نوعًا ما. الأطفال مثيرون للضجيج بشكل فظيع في بعض الأحيان لدرجة أننا نشعر بالراحة عندما لا يكونون موجودين».

رَدَّت المدام: «ما هذا الذي تقولينه! لا بد أن تكوني خجولة من نفسك!».

أكدت ماتيلدا لها: «حسنٌ، أبنائي الأربعة غالبًا ما يدفعونني إلى اليأس أيضًا يا تروس!».

قالت المدام: «يا عزيزتي، الآن لا تقلقي بشأني. لقد قضيت كل الشتاء أتطلع إلى زيارتي الصيفية إلى دي هورسه، وسعادتي غامرة بأن أكون معكم جميعًا، وكان لطيفًا منكم دعوة إيلينه أيضًا».

قالت كاترين: «لقد دعوتهما لزيارة لندن للانضمام إلينا في الموسم بالعام المقبل بمجرد زواجهما. أنا أحبها إلى حد ما».

حَوَّلت تروس نظرها، ومدت يدها لمنديل مُكَوَّم شرعت في فرده وطيه.

«وأنتِ يا تروس؟»، سألت مدام فان إرليفورت، ولاحظت تردد زوجة ابنها. «أنتِ تحبينها أيضًا، أليس كذلك؟».

«حسنٌ، أنا لا أعرفها بشكل جيد جدًا حتى الآن. أعتقد بأنه لطيف للغاية منها أن تتكيف تمامًا مع أساليبنا وعاداتنا، لدرجة يمكننا معه الاستغناء عن الرسميات- الأمر الذي لن يكون لدي وقت من أجله بأي حال؛ أنا مشغولة للغاية. أنا أقدر ذلك كثيرًا. لكنكِ تعرفينني، الموضوع يأخذ مني بعض الوقت لتكوين رأي عن الناس».

«ذلك يبدو ردًا دبلوماسيًا بشكل لافت على أذني. أما بالنسبة لي، أنا إما أحبّ شخصًا ما أو لا أحبه. الأمر بهذه البساطة».

«امم، لا أحاول أن أكون دبلوماسية، كل ما قصدته أنني بالكاد أعرف إيلينه لأنها لم تكن هنا إلا منذ أسبوع. تبدو لطيفة جدًا، لكنني لست متأكدة كيف أشعر حيالها حتى الآن».

كان على طرف لسان ماتيلدا أن تقول إنها ليست واثقة كيف تشعر حيال إيلينه أيضًا، رغم أنها كانت تعرفها لسنوات، لكنها التزمت الصمت.

«من فضلكِ لا تسيئي قصدي يا ماما، لكن الآن نحن نتكلم عن الموضوع-».

«حسنٌ؟»

«الموضوع هو أن هناك شيئًا بشأن إيلينه يجعلني أرى أنها قد لا تنسجم تمامًا مع بقية أفراد الأسرة. هي قادرة على التكيف بالتأكيد، لكنني لست متأكدة أنها تفعل ذلك بكل قلبها. أنتِ لستِ متضايقة مني لأنني أقول هذا، أليس كذلك؟ لا شيء أود أن يحدث أكثر من أن أجد أنني مخطئة تمامًا بشأنها، وهو ما قد أفعله بمجرد أن أتعرف عليها كما ينبغي».

كرهت أن تعترف بذلك، لكنها لم تحب إيلينه. كامرأة كبيرة وعقلانية وأم صالحة، سيطرت تروس على إمبراطوريتها الصغيرة بالحزم والعزم الدمث،

مما يجعل إرادتها تمرّ كقانون، وبالتالي كانت معتادة على أن تفصح عما يجول في ذهنها. لكنها الآن تمالكت نفسها، لأنها لاحظت أن حماتها كانت متأثرة عاطفيًا باهتمام إيلينه وما أبدته من المودة تجاهها؛ لم تكن ترغب في أن تُخَيِّب أمل السيدة العجوز، التي كان جليًا أنها تعاملت بقلبها مع إيلينه كعروس ابنها المستقبلية، ورغم ذلك، لم تستطع تروس مقاومة الإحساس بأن إيلينه بدت غير منسجمة بعض الشيء في محيطهم الأسري الريفي، كان بها تكلف لا ريب فيه، شيء لم يبدُ حقيقيًا. لم تكن تعرف أن إيلينه كانت في الواقع تشعر بأنها نفسها أكثر من ذي قبل، أنها كانت تشعر بالسعادة في حضن أسرة فان إرليفورت، وأن الإقامة في دي هورسه قد شحذت مَلَكاتها. كل ما استطاعت تروس أن تراه هو فتاة مجتمع مدللة ومفرطة في التمدن تتصنع حب الحياة البسيطة في الريف، وهذا ضايقها، مثلما ضايقتها الفيونكة الزرقاء الكبيرة على فستان إيلينه المصنوعة من القطن الناعم ذي اللون الأزرق الباهت.

شعرت كاترين هوارد بالسخط. كانت ترى أن إيلينه ستكون زوجة أخ محبوبة، واندفعت في الثناء على إيلينه ثناءً رفيعًا لدرجة أن وجه مدام فان إرليفورت ما لبث أن تكلل بالابتسامات مرة أخرى.

«لا، حقًا يا تروس، لا أفهم تحفظاتكِ. أنا معجبة بإيلينه لا سيما بالطريقة، التي أحست بها أنها في بيتها معنا جميعًا. يمكنني أن أؤكد لكِ أنني عندما وصلت لأول مرة في لندن مع هوارد لمقابلة عائلته شعرت بالكثير من الحرج وعدم الارتياح، رغم أنهم رحبوا بي ترحيبًا حارًا أكثر مما تتخيلين. أما بالنسبة لإيلينه- يا الله! أشعر كما لو كنت أعرفها طوال حياتي، وهي عذبة الصحبة بشكلٍ كبير، وقادرة على الاستيعاب كثيرًا، لدرجة أنني لا أستطيع تصور أي أحد يَسْهُل التعايش معه أكثر منها. حقًا، لا أستطيع أن أفهم ما الذي يجعلكِ تعتقدين أنها قد لا تتكيف معنا، وليس من الخير منكِ أن تظني ذلك أيضًا».

أطلقت تروس ضحكة خفيفة واعترضت قدر استطاعتها، وما أن جاءت الخادمة لمسح المائدة حتى خرجت حماتها وماتيلدا وكاترين إلى الڤارندا

للجلوس في الظل، بينما ظلت هى نفسها بعيدة عن الأنظار لبقية الصباح، منهمكة في أداء واجباتها المنزلية.

***

كانت العربة المغطاة غادرت منذ فترة طويلة. مشى تيودور وهوارد وإتيان وكور في المقدمة، في أعقابهم أوتو وإيلينه، التي فتحت مظلتها الدانتيل الكبيرة.

تحدث الرجال مزيجًا من الإنجليزية والهولندية؛ ادعى هوارد أنه يفهم الهولندية، وكان يستطيع أن يتكلم كلمتين أو ثلاث كلمات، في حين ظلَّ تيودور يتذبذب في خطابه الإنجليزي عن موضوع المستأجرين والزراعة. مَرَّ بهم بعض عمال المزرعة مرتدين ملابس الأحد وقدموا لهم تحية محترمة. امتد الطريق، الذي شَوَته الشمس بين حقول الجاودار والشوفان الذهبية المائلة إلى الخمري؛ لم تكن ثمة نسمة هواء. وراء ذلك المنظر، لمعت الحنطة السوداء المتفتحة باللون الأبيض على الوردي، وفي الأفق قام بيت مزرعة بالقرب من بعض الأشجار، بعمود باهت من الدخان الرمادي يتصاعد الى السماء الزرقاء الصافية.

قال هوارد: «أتوقع أن تشعر بأنك ملك القلعة تمامًا هنا».

أجاب تيودور: «أوه لا. أشعر بأنني مزارع أكثر مني ملكًا لأكون صادقًا، لكنك إن أدرت نظرك للحظة سترى منظرًا لطيفًا لقلعتي».

توقفوا جميعًا مؤقتًا لينظروا. من خلال فجوة بين الأشجار كان بالإمكان رؤية دي هورسه عن بُعْد، ناصع البياض، بمصاريع نوافذه الأنيقة، وأبراجه المدببة البيضاء، التي تبرز مقابل الفرندات الزرقاء والواسعة المُزيَّنة بنباتات فرجينيا المتسلقة. وتلمع البركة كمرآة بيضاوية وسط العشب النَّضِر، الذي تناثرت فوقه حمامات بيضاء.

قالت إيلينه بحماس: «يا له من منظر باعث على السرور. ياه انظروا، هناك ناس يلوّحون لنا!».

قال كور: «أعتقد بأنهن جدتي والعمّات».

في ظل إحدى الفارندات استطاعوا تَبَيُّن رفرفة العديد من المناديل البيضاء، وردوا بالتلويح عليهم، بينما صاح إتيان مرحى بأعلى صوته.

قال تيودور: «حسنٌ، يكفي هذا بالنسبة للمنظر اللطيف. حان الوقت كي نمضي من هنا وإلا لن نصل إلى الشجرة الكبيرة».

تحدثت إيلينه الإنجليزية بطلاقة تمامًا، واستمتع هوارد بالحديث معها. انخرط معها في محادثة حيوية بينما كانت تتمشى، وهى تتأبط ذراع أوتو، الذي كان يحمل مظلتها. خَطَر لها كيف كان سهلاً عليها أن تجذب تعاطف الرجال، بينما لم يبدُ أن النساء يحببنها إلا إذا بذلت جهدًا واعيًا لتجعل نفسها مقبولة لديهن.

في أثناء حديثها جال فجأة بذهنها أن مدام فان إرليفورت تحبها فقط بسبب أوتو، وكاترين فقط لأنها ودودة بطبيعتها. استطاعت أن تدرك أن مشاعرهما لم تصل إلى العمق، لكن من جهة أخرى، كم كان الأمر مختلفًا مع مدام فان رات العجوز، والعزيزة كاتو، والآن مع تينا الصغيرة كذلك. ابتسمت ومالت لتقترب أكثر من أوتو؛ ما الذي تعبأ به بشأن الآخرين؟ هو ملكها الآن، وحبه هو كلُّ ما تحتاجه.

كانت قرابة الساعة من المشي إلى الشجرة الكبيرة، بعدما تركوا حقول الذرة الذهبية وراءهم أخذوا الممر على امتداد مساحة من الأرض البور، التي تَوَرَّد لونها بنبات الخلنج، ثم دخلوا تحت ظلٍّ ظليل لأيكة من أشجار الصنوبر الكثيفة، والتي فاحت فيها رائحة الراتنج النفاذة.

انحرف الممر، وظهر في الأفق تجمع من البيوت. كانت القرية المعروفة أيضًا باسم دي هورسه، التي تفخر بوجود مخبز، وبيت لكاهن الكنيسة، ونُزُل باسطبلات وكنيسة متواضعة في وسطها. تطلعت إيلينه حولها بذهول، معلنة أنها لم تَرَ أي قرية من قبل.

قال أوتو: «ولكن هذا كل شيء- هناك!»

قالت إيلينه، وهي تلتقط أنفاسها، «ماذا؟ تلك الأكواخ؟»

ضحكوا جميعًا بما فيهم هوارد، وسأل إتيان إيلينه إن كانت تتوقع أن ترى شيئًا على غرار نيس أو بياريتز.

قال متهكمًا: «أم كنتِ تفكرين في مكان مثل شيڤيننجن بالكورهاوس؟ أقول لكِ يا إيلي، ألا تعرفين الفرق بين الجاودار والشوفان؟».

«لا، ليس تمامًا. أعرف شكل الحنطة السوداء، وأعرف الكتان عندما أراه- أصفر باهت للغاية، تتخلله الزهور البرية- وأعرف البطاطس»، قالت إيلينه، وهي تعد المحاصيل على أصابعها الرشيقة. «لكنني لا أعرف أي شيء عن الجاودار أو الشوفان أو الشعير. لذا توقف عن سؤالي بسخرية يا إتيان! ولكن تيودور، أنت تقول لي أنك سيّد كل هذا؟».

ضحكت تحت قبعتها واسعة الحواف من القش. كانت هناك ضحكات مكتومة في كل مكان على جهل إيلينه، رغم أن نظرة فزع وحيرة اعتلت ملامح تيودور. ندمت إيلينه على الفور على أنها ضحكت، لأنها لم ترغب في إثارة الاستياء، وأضافت بسرعة أن دي هورسه كانت بحق مكانًا باعثًا على السرور بأكثر المناظر روعة وحيوية.

سألت: «والشجرة الكبيرة؟ أين الشجرة الكبيرة؟».

مَرّوا بالقرية، رأوا دجاجات هنا وهناك في طريقهم. رفع الحداد وبعض المزارعين قبعاتهم للمالك أثناء وقوفهم على جانب الطريق، مبتسمين ابتسامات عريضة وغامزين للغرباء في صحبته. بعد ذلك اضطروا للسير عبر أحد المروج ونادى تيودور على أحد عمال الزراعة الشباب لكي يُبقي على البقرة مربوطة، وذلك أنه كان جليًا أن إيلينه كانت خائفة من الحيوان الضخم ذي العينين المنتفختين، والفم الذي يمضغ ويسيل منه اللعاب.

وعندما بدأ إتيان وكور في عمل أصوات خُوار مملة على البقرة، توترت

إيلينه، وتوسلت إليهم أن يتوقفوا.

«تستحقين لأنكِ سخرت من دي هورسه يا إيلينه!»، اندفع تيودور يقول بصوت عالٍ، لكنها لما رمقته بنظرة خفية سحرته حتى سارع ليضيف أنه على إتيان وكور التوقف عن مضايقتها. في الطرف البعيد من المرج وقفت الشجرة الكبيرة، وهى شجرة بلوط ذات جذع هائل وأغصان قوية. كانت فريدريك وماريان وهنريتا والأطفال جالسين بالفعل بين الجذور المنتشرة عند القاعدة، وهتفوا عندما وصلت المجموعة السائرة على الأقدام. طالبوا هوارد وإيلينه بصخب أن يقولا رأيهما في الشجرة الكبيرة. امتثلت إيلينه، وهى تبدو جادة جدًا بوصفها أنها هائلة ومذهلة، لكن تيودور لاحظ الوميض في عينيها لما قالت هذا، وهز إصبعه في وجهها متهمًا إياها حتى انفجرت في الضحك، خصوصًا عندما اختتم هوارد كلامه بوقار:

«شجرة كبيرة في الواقع! لم أر أبدًا شجرة كبيرة للغاية هكذا. كم هى مثيرة للاهتمام!».

«انتظريني! سوف أمسككِ!»، صاح تيودور، وركض وراء إيلينه التي هربت، وهى تصيح حتى سقطت على العشب وذراعاها ممدودتان.

«تيودور، توقف عن ذلك! سأنادي أوتو!»

«سأعلمكِ أيتها الفتاة الشريرة! نادي أوتو إذا أردت! سأعلمكِ!»، وأمسك بمعصميها وهز ذراعيها بقوة وهمية، في حين تظاهرت هى بأنها تشعر بألم فظيع. أخيرًا ساعدها للوقوف على قدميها، ووعدت، بينما كانت تقهقه، بأن تحسن سلوكياتها وتظهر المزيد من الاحترام للطبيعة.

كان الصغار وزوج خالتهم الإنجليزي شابكين أيديهم لتشكيل حلقة حول الشجرة.

تمتمت فريدريك لنفسها، ولكن إتيان سمعها، «إنه أمر مثير للسخرية تمامًا من تيودور أن يسبب كل هذه الضجة حول إيلينه».

هتف: «كم أصبحتِ مزعجة في الآونة الأخيرة! ألم تعودي تستطيعين حتى أن تستمتعي بنكتة!».

* * *

بالقرب من الكنيسة الصغيرة كان هناك بستان صنوبر، حيث تمددت إيلينه على أحد الضفاف المستوية بأوراق الصنوبر الإبرية الساقطة، تسند رأسها بيدها. وجلس أوتو بجانبها. كان بإمكانهما سماع صرير الحبل، الذي يسحب غُراب الرأس قبل كل رنة بطيئة من الجرس. حان الوقت للذهاب للكنيسة. مَرَّ بعض الريفيين مرتدين ملابس من الجوخ البراق ومآزر حريرية لامعة أثناء سيرهم في الطريق، وكتاب الصلاة في يدهم، وتابعتهم إيلينه وأوتو بعيونهما، بينما لم يكونا مرئيَيْن وسط الأشجار. كان رواد الكنيسة هنا وهناك قليلي العدد، وبعدما أسرع عدد قليل من القادمين متأخرًا هَبَط صمتُ الأحد الصمت على الريف. كان كل شيء ساكنًا إلا ثغاء شاةٍ من بعيد.

كان هذا صحيحًا: تخيلت إيلينه دي هورسه أكثر عظمة فخامة بكثير مما صار عليه، وجعلتها بساطة الحياة في العزبة تبتسم عندما تذكرت قلاع ويدا الإنجليزية، وما يصحبها من دوقات وأمراء، وكيف حلمت أثناء سهراتها بجوار فراش مرض العمة فيره بأن تسكن مثل هذه القلعة. مقارنة بأبهة أرستقراطية الروايات تلك في الماضي، كانت الظروف المعيشية لساكني بيتٍ قديم الموسرون إلا أنهم مقتصدون بالضرورة ظروفًا تقشفية بما لا يدع مجالاً للجدل، لكنها لم تكن لتستبدل ظروفها الحالية بأي شيء، وبابتسامة أخبرت أوتو كيف كانت يومًا ما مفتونة بروايات ويدا وقلاعها الإنجليزية، ولكنها الآن ستمنح الأفضلية لدي هورسه، تمامًا كما فضلته هو، رفيقها الريفي الفقير، على ثري اسكتلندي خيالي ذي ثروة هائلة واسم كإركيلدون أو ستراثمور.

نعم، شعرت إيلينه بقلبها ممتلئا بالسعادة، وهى تجلس في تلك الفسحة الهادئة الواسعة تحت أشجار الصنوبر، وصوت أوتو العميق والجهوري يتردد في أذنيها. أخبرها بأنه لا يكاد يصدق أنها له، له وحده، وأنهما سيرتبطان في

الواقع إلى الأبد. أخبرها بأن بها خطأ واحدًا فقط، وهو أنها لا تعرف نفسها كما عرفها هو. عرفها كما هى حقيقتها: أنها تمتلك كنوزًا لا حصر لها مخبأة داخل شخصيتها، وأنه سيكون له شرف محاولة إخراجها للنور. في اكتمال بهجتها غَدَت صريحة، حتى تجاه نفسها، أكثر مما كانت عليه من قبل، وشَابَت صوتها مسحة من أسف وهى تردُّ عليه أنه سيكتشف فيها عندما يعرفها أفضل الكثير مما هو سيئ. لا، لا، حقًا، لم يكن يعرفها كما كان يظن. هناك الكثير جدًا مما يعتمل في قلبنا لدرجة أنكِ تشعرين بأنك مشوشة أحيانًا- وهى تشعر بالتشويش على أية حال- واضطرت للاعتراف بأن أفكارها لم تكن دائمًا الأفضل، كما لم تكن دائمًا معتدلة المزاج مثلما تظاهرت بذلك كلما رآها؛ وأنها يمكن أن تكون حادة الطباع أحيانًا دون سبب، أو عصبية أو في حالة معنوية منخفضة، لكن من أجله- لقد كان مثاليًا إلى حد كبير! ستسعى بالتأكيد إلى أن ترقى إلى الصورة، التي شكَّلها عنها. شعرت بأنها نقية وطيبة لأنها أدلت بهذا الاعتراف، وأكدت أنه يمكنها أن تفصح له بحُرية عن أفكار لم تَكَدْ تجرؤ على الاعتراف بها لنفسها. ذهب الخوف من فقدانه بسبب كلمة ما لم تلقِ لها بالاً؛ استطاعت الآن أن ترى جليًا كم يحبها، وأنه أحبها أكثر بكثير لأنها تكلمت عن مشاعرها بذلك الأسلوب الصريح وغير المتكلّف. كان أشبه بتجسيدٍ لضميرها، شخصًا يمكنها أن تأتمنه على أي سرٍ يمكن لفتاة أن تكتمه، وكلما أنكرت نفسها في مثل تلك اللحظات من الصراحة والصدق، أحبها أكثر لحد العبادة، واعتقد أكثر بأنه يمكنه أن يسبر أغوار أسرار روحها الرازحة تحت هذا المظهر الخارجي الجميل.

استمعا إلى ترانيم الفلاحين تتحرك في الهواء من الكنيسة كجدول ماء رقيق من التقوى البسيطة، وفي هدوء اللحظة وسكونها بدا لهما أن الأصوات الريفية غارقة في الشعر، شعرٌ اختلط بالأغصان المظلمة فوقهما، وبرائحة أوراق الصنوبر الإبرية، وبالحب في قلبيهما. شعرت إيلينه بعاطفتها تتحرك لدرجة أنها رفعت نفسها قليلاً، بحيث تريح رأسها على صدره بشكل أفضل؛

لم تستطع أن تقاوم وضع ذراعيها حول عنقه أيضًا، وفجأة، شعرت بأنها قريبة منه للغاية، وصدرها ضاغطٌ على قلبه، اهتزت وهى تختنق بالبكاء.

سأل بلطف: «يا ربي! إيلينه، ما الأمر؟»

«لا شيء!»، أجابت، وهى تلتقط أنفاسها من فرط سعادتها. «لا شيء، دعك مني- كل ما هنالك أنني أشعر بأنني سعيدة! سعيدة جدًا!»

وبكت في حضنه.

***

كان الجميع يستيقظون مبكرًا ويأوون إلى الفراش مبكرًا في البيت الريفي، وكانت الأيام تمر سريعًا. كان الطقس رائعًا، ومعظم الوقت كان يُقضى في الهواء الطلق، ولا سيما الأطفال، الذين لم يكونوا يدخلون البيت إلا في أوقات الطعام أو للاحتماء من أمطار نادرة. بوجوهم وأيديهم البُنيّة كالتوت من الشمس، كان الصغار- أبناء فان رايسل الأربعة، والولدان ڤيلي وجوستاف، وإيدميه وكيتي هوارد- يشبهون عصابة من الزنوج الصغار يتواثبون مرحًا على العشب وبجوار البركة وسط رفرفة الحمائم المذعورة. في أغلب الأحيان كانت تطاردهم أي واحدة من المربيات الثلاث: مربية أطفال تروس، ومربية كاترين الإنجليزية، والمربية فرانتسين، الأخيرة، التي تنتابها حالة قلق مستمر بشأن خطر وقوع نيكو في البركة. تفقد الصغار قفص الطيور والإسطبلات، وكسبوا صداقة كبير الجنائنية ورجاله، وكذلك سائق العربة وصبي الإسطبل، وأطعموا الطيور والدجاج والبط، وذهبوا السباحة وتناوبوا ركوب حصان تيودور غير المُسرَّج تحت الإشراف اليقظ لصبي الإسطبل طيب القلب، كما أنهم أنعموا النظر أيضًا في نوافذ حجرة الألعاب الرياضية لمشاهدة الرجال وهم يتمرنون، ورأوا أن تيودور مفتول العضلات بصورة لافتة وهوارد أكثر رشاقة ومرونة، بينما قَدَّم إتيان عرضًا من التأرجح بعنف على الحلقات والوثب على الحصان، لكن والأهم من ذلك كله أن الأطفال كانوا مبهورين بكور، الذي علت وجهه

علامات الإعجاب بنفسه إلى حد ما أثناء قيامه بأكثر اللفات جرأة على الحلقات دون أدنى جهد بأطرافه القوية والمشدودة. بعد القهوة لعب الأولاد الكريكت مع هوارد، أو انضموا إلى البنات في لعبة تنس الحشائش في ظل الأشجار الباسقة في المتنزه، أو استرخوا تحت شجرة مع كتاب، أو ببساطة لم يفعلوا أي شيء سوى الاستلقاء والاستغراق في أحلام اليقظة وأيديهم مطوية تحت رؤوسهم. وبعد العشاء ذهبوا للتنزه أو تناوبوا ركوب القارب الصغير ليطفو فوق سطح البركة، حتى يحلَّ الظلام، وستصلِ الساعة العاشرة مساء قبل أن يدركوا ذلك.

سعادة إيلينه واستمتاعها بمعيشة الريف جعلتها تشعر بأنها غَدَت نفسها تمامًا لدرجة أنها بالكاد صدقت أنها كانت الشخص نفسه، الذي كانت عليه قبل بضعة أشهر. شعرت بأنها مختلفة تمامًا؛ كان الأمر كما لو أن روحها حررت نفسها من قماشاتها اللامعة، وارتفعت الآن أمامها كتمثال أبيض في أنصع صوره. لم تعد تحجب نفسها في التكلف بعد اليوم، لم تعد تُمَثِّل بعد اليوم، كانت نفسها، كانت زوجة عزيزها أوتو المستقبلية الصغيرة، أضفت هذه الصراحة والوضوح المُكتشف حديثًا قدرًا كبيرًا من الفتنة على إيماءاتها، على أقل كلمة تقولها، لدرجة أن تروس لم تعترف فحسب بأنها كانت مخطئة بشأن إيلينه، وهو ما أسعد كاترين كثيرًا، بل أيضًا لدرجة أن فريدريك بدأت تنفق الساعات تتبادل أسرارًا بين الأخوات معها، ولدرجة أن مدام فان إرليفورت وصفتها بالملاك، وخلال لحظات التأمل المنعزل في خصالها الفردية الجديدة، تصاعدت الدموع في عينيها امتنانًا لكل ما لقيته من طيبة قلب، وكانت أمنيتها الوحيدة ألا يمرَّ الوقت، بل أن يتوقف مكانه، بحيث يستمر الحاضر إلى الأبد. أكثر من ذلك لم تكن تريد شيئًا، وانبعث من كيانها شعور بالراحة اللانهائية والهدوء الأزرق الهانئ.

***

حلَّ المساء ببطء، وتحولت السماء الصافية إلى غلالة رمادية من اللآلئ المرصعة بالنجوم. بدا المتنزه كتلة معتمة ومبهمة في الخلفية، كانت الأبواب

الزجاجية لحجرة الحديقة المضاءة مفتوحة على مصراعيها، وفي التراس لمعت طاولة الشاي في الضوء الخافت القادم من المنزل. كان الأطفال في الفراش، لكن ماريان وهنريتا سُمِحَ لهما بالاستيقاظ لفترة أطول قليلاً. جلسوا جميعًا في دائرة كبيرة بينما صَبَّت تروس الشاي. في الداخل، كان بالإمكان سماع إيلينه، وهي تغني، ومن آنٍ لآخر يسقط نجم من السماء.

لعبت كاترين مصاحبة الغناء، بينما جلس أوتو على الأريكة ليستمع. بدا لإيلينه كما لو كانت تستمع إلى صوتها للمرة الأولى. كانت تغني مقطوعة موتسارت» تأملات مسائية»- شفافة لكنها مصحوبة بجَرْسٍ مخملي جديد، خفيفة وناعمة تقريبًا، واختفت منها السمة الرنانة البراقة السابقة. غنت دون أن تبذل جهدًا يُذكر، دون تفكيرٍ في تكنيك أو فنية، ولم تتخيل للحظة نفسها على خشبة المسرح أمام جمهور، كما اعتادت أثناء أغانيها الثنائية مع پول. كان عليها فقط أن تفرج شفتيها وبدت أن كل بهجتها تدفقت من روحها، لتشحن كلمات أغنيتها الحزينة بعمق جديد من العاطفة. في هذا الأمسية الصيفية الخفيفة والطويلة، والآن، وبعد أن انتهى لعب الصغار الصاخب، سكبت موسيقاها هدوءًا شجيًا على الجمع السعيد، وأحبوها فوق ذلك من أجل الشعر، الذي منحته إياهم.

بعد الأغنية انطلق هديرٌ من التصفيق بالتراس، وكان بالإمكان سماع إيلينه، وهي تضحك بمرح وتتحدث مع أوتو وكاترين. وركضت هنريتا وماريان إلى الداخل لتهنئتها على أدائها.

«أوه، لن أكون أبدًا ممتازة مثلكِ يا إيلينه!»، صاحت ماريان التي، ككل أبناء تيودور، خاطبت زوجة عمهم المستقبلية بحميمية باستخدام اسمها الأول. «أنا أغني في جوقة في مدرستي الداخلية في بون، لكن معلمنا، الذي يعلمنا الموسيقى عجوز وممل، ولا أتعلم شيئًا. هل كنتِ تأخذين دروسًا في الغناء لفترة طويلة؟ ومن معلمكِ؟»

جلست إيلينه بجانب أوتو على الأريكة الوافرة ذات الطراز القديم، بينما

جلست الفتاتان على الذراعين، وأخبرتهما عن روبرتس وأغانيها الثنائية، وخرجت كاترين.

سألت هنريتا: «أقول لكِ يا إيلينه، ألا تجدين الحياة مملة هنا؟»

مملة؟ لِمَ يجب أن أشعر بالملل؟ بالعكس!»

دُهشت هنريتا. كانت ثقيلة نوعًا ما بالنسبة لسنها، لكنها ما زالت تبدو كالأولاد كثيرًا، وهى تجلس على ذراع الأريكة، وهى تفتح رجليها مرتدية جواربها الحمراء وأحذية ركوب الخيل ذات الأربطة المفكوكة. لم يكن هناك أي أثر لأي دلال أنثوي؛ كان شعرها أصفر مائلاً للحمرة في هيئة ضفيرة سميكة أسفل ظهرها، وعيونها رمادية مرحة، وفمها واسع وأسنانها جميلة. احتفظت في ذهنها بصورة مشوشة عن الحفلات الراقصة، التي يحضرها الرجال وهم يرتدون زيًا موشىً بالذهب والسيدات يرتدين فساتين ديكولتيه، وبالنسبة لها كانت إيلينه تجسيدًا للاهاي، حيث كل ما يُهم هو الرقص وثياب الحفلات.

«حسنٌ، لقد كنت أظن أن لاهاي مختلفة تمامًا!»، تساءلت بصوتها الذي يشبه صوت الأولاد. «أكثر تسلية بكثير جدًا، أعني الذهاب إلى كل تلك الحفلات. لستُ متأكدة إن كان ذلك سوف يناسبني على المدى الطويل، لكنني أحب أن ألقي نظرة يومًا ما. سآتي وأبقى معكما في وقت لاحق، عندما تتزوجان. إذن ظننتُ أنكِ وجدتِ دي هورسه مملاً إلى حد ما- إنه دائمًا نفس الشيء. في الواقع، أنا أحب الحياة هنا، لدي عربتي التي يجرّها الحمار وحماري، ولدي عنزة أيضًا، ولا أستطيع تحمل فكرة الرحيل بعيدًا إلى مدرسة داخلية».

«فقط انتظري!»، قاطعتها ماريان التي بدأت تتقمص أسلوب السيدات. «عامان آخران، وبعدها سيكون الوقت قد حان لتخرجي، وبالنسبة لكِ لشَحْنكِ إلى بون!»

قال أوتو، وهو يكتم ضحكته، «في عربتكِ التي يجرها الحمار أو مع عنزتكِ!»

«كم هذا بغيض! إلى بون! لا شكرًا جزيلاً لك! لا يهمني إن كنتُ لست ذكية. آنسة فورمانز مناسبة بما يكفي بالنسبة لي».

سألت إيلينه: «هل هي مربيتكِ؟»

«نعم. إنها تقيم مع أقاربها في ليمبورج في الوقت الراهن. لقد كانت معنا لفترة طويلة؛ تعلمني وتعلم الأولاد، لكن ماما تقول إن الأولاد كبروا جدًا وإنهم لا بد أن يذهبوا إلى مدرسة داخلية أيضًا. بابا لا يرى ذلك، فهو أكثر رشدًا بكثير، ولا يهتم بكل هذا القدر من التعليم. آنسة فورمانز لا بأس بها، رغم أنها قبيحة جدًا، ونحيفة كالمقشة. إذن أنتِ تحبين الحياة هنا، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد أحبها. في الواقع ليست لدي أي نية للمغادرة! لقد قررنا البقاء هنا، أليس كذلك يا أوتو؟»

ابتسم وأخذ يدها.

صاحت ماريان، هبت واقفة على قدميها وجَرَّت أختها من كُمّها، «تعالي إلى هنا يا هنريتا، لقد جعلناهما يملان من حديثنا!».

«ألا ترين؟ كيف يمكنكِ أن تسألي مثل هذا السؤال السخيف على أي حال؟»

«ماذا تقصدين؟»

«من السخف أن تسألي إيلينه ما إذا كانت تشعر بالملل».

سألت إيلينه: «لماذا تعتقدين أنه سخيف؟»

«لأن المخطوبين لا يشعرون بالملل!»

قالت هيتي: «كيف عرفتِ؟ ليس الموضوع كما لو كنتِ قد خُطبتِ من قبل».

نهض أوتو وإيلينه، وهما يبتسمان على استنكار الأخت الأصغر الخشن.

أرادت ماريان أن تعرف: «إلى أين أنت ذاهبٌ يا عمي؟»

«نحن ذاهبان للانضمام للآخرين في الحديقة».

قالت هيتي مازحة: «ليس هذا ما سوف تفعلينه، أليس كذلك يا ماريان؟ سوف تختبئين في ركن مظلم مع حبيبكِ، أليس كذلك؟»

نظرت ماريان إلى أختها من أعلى لأسفل للحظة ورفعت كتفيها تعبيرًا عن حنقها وضيقها، وعندها ألقت إيلينه عليها ابتسامة تعاطف وأخذت ذراعها.

بالخارج، أزيلت أغراض عمل الشاي لإفساح المكان لوعاء كبير من الشراب من المصنوع من نبيذ الراين الخفيف بنكهة التوت والفراولة. خيمت على المائدة محادثة حيوية بينما أخذت تروس مغرفة كؤوس طويلة وملأت كأسًا تلو الآخر.

سألت السيدة العجوز، وهي تتطلع حولها، «ما الذي أَخَّرَ تيودور وإتيان؟».

أجابت ماتيلدا: «لقد ذهبا للنزهة في الحديقة».

نادت فريدريك: «تيودور! إتيان!».

عرض أوتو أن يذهب ويعثر عليهما، وانطلق نحو ظلام الغابة حيث توارت الظلال بين جذوع الأشجار الباسقة، ومن خلال ثغرة في الظُّلة فوقه استطاع أن يرى قمرًا شاحبًا يسطع في سماء المساء الرمادية بلون اللؤلؤ. واصل السير متبعًا طريقًا متعرجًا، ولما لم يرَ أحدًا، صرخ مناديًا أسمهما:

«تيودور! إتيان!»

رد عليه صوت رنان، لما سمعه أخذ مسارًا جانبيًا. في الوقت الحالي قابل أخويه التائهيْن في الظلام، والجالسيْن على أحد المقاعد في المتنزه. لم يكد يتمكن من تمييز وجهيْهما.

أعلن أوتو: «لقد افتقدناكما كثيرًا! والآن يجري تقديم الشراب!»

توقع من إتيان أن يقفز واقفًا على قدميه بطريقته الصاخبة المرحة المعتادة، وأكثر ما أدهشه رؤية أخيه الصغير لا يزال جاثمًا على المقعد ومرفقاه على ركبتيه ورأسه بين يديه.

سأل: لا شراب لكَ إذن؟»

قال تيودور: «هيا يا إتيان، دعنا نذهب! لكن دعونا نأخذ وقتنا في العودة يا أوتو، لأن هناك شيئًا نود مناقشته. كنت أتحدث إلى إتيان، وعلى ما يبدو أنني لم أكن دبلوماسيًا للغاية. على أي حال، يبدو أن أخانا الصغير هنا متضايق إلى حدٍ ما».

قال إتيان متذمرًا: «لا لستُ متضايقًا».

سأل أوتو: «فما الخَطْب؟»

«لا شيء. كل ما هنالك أنه لمدة الربع ساعة الماضية كان تيودور يوبخني. لقد أصبحتُ الفتى اللعوب والكسول والخامل والمسرف والله يعلم ماذا أيضًا. بعبارة أخرى: لا أصلح لأي شيء».

احتج تيودور: «يوه، أسكتْ الآن، لا تُنكد علينا، لن ينفعك ذلك بشيء. كل ما فعلته أنني ذكرتُ مستقبلك وأثرتُ الموضوع الممل بما لا يُنكر الخاص بوضعك المالي. لا ضرر في ذلك بالتأكيد. ما رأيكَ يا أوتو».

«آه، لقد تحدثتُ إلى إتيان بشأن تلك الأمور. وكان على استعداد تام ليسمعني، لكن علي أن أقول إنني لا أعتقد أنه أعارني الكثير من الاهتمام».

«حسنٌ، أعتقد بأنني لستُ لبقًا مثلك. ربما كان».

غمغم إتيان: «لكنك تجعل الأمر يبدو كما لو كنا فقراء كفئران الكنيسة!»

«وأنت يا فتاي العزيز، تبدو مثيرًا للشفقة كفتاة. أنا فقط أوضحتُ لك أن علينا أن نُحْكِم الزمام جيدًا على نفقاتنا هنا في دي هورسه- والأمر نفسه ينطبق على ماما في لاهاي- لأننا إن لم نفعل سنكون مضطرين لأن نقتصد بأبغض الطرق بعد ذلك. هل يمكنك أن تتخيل ما الذي سيحدث لماما إذا اضطرت إلى ترك منزل العائلة، الذي تحبه كثيرًا، وعاشت فيه لسنوات طويلة؟ إن الأمر لا يحتمل التفكير. ثم هناك ماتيلدا؛ ولا يبدو أن هناك أي أموال قادمة من فان رايسل، لذلك ليس لديها أي خيار سوى اللجوء إلى ماما للحصول على

مصروف لتعليم الأطفال. نحن جميعًا نعيش بشكل مقتصد جدًا، كما رأيت بنفسك عندما كنت هنا في الشتاء الماضي مع فان رات، ولا يختلف الأمر الآن. الترف الوحيد، الذي يمكننا تحمل تكلفته هو أن ندعوكم جميعًا للبقاء معنا في فصل الصيف. بينما تنغمس أنتَ في الملذات والإسراف مع أصدقائك الطلبة في ليدن، وجميعهم من الأغنياء أو مَنْ يتظاهرون بذلك، وتحصلُ تقريبًا على نفس المبلغ من المال هناك، الذي نحصل عليه نحن هنا كأسرة بأكملها. لذا كما ترى يا عزيزي أنه لا يمكن الاستمرار في هذا. أنا لا أحسدك على أيام دراستك الخالية من الهموم، وأنا أعي أنه أبعد ما يكون عن السهولة أن يعتاد المرء على الإنفاق بحرية، ثم يبدأ في شد الحزام، لكن رغم ذلك يا إتيان، لا بد حقًا أن تحسن أسلوبك».

ظلَّ إتيان محني الرأس في أثناء سيرهم في الطريق، وقد أُثْبِطَت معنوياته العالية المعتادة. شعر بوخز الضمير.

«شيء آخر: لقد حان الوقت لتبدأ في التفكير في التخرج. لأنك لا يبدو أنك كنتَ مشغولاً للغاية في الآونة الأخيرة».

قال إتيان: «حسنٌ، نحن في الصيف الآن، أليس كذلك؟»

«ماذا عن الشتاء الماضي؟ قمت بالكثير من الدراسة إذن، أليس كذلك؟»

تنهد إتيان.

«لا أعتقد، لكنني أتمنى لو توقفت عن مضايقتي! أنتَ تعرف أنني سأتخرج في نهاية المطاف. لننتظر ونرى. سأعمل بجد أكثر».

ابتسم أوتو، وشعر بوخزة من شفقة على أخيه الصغير. العمل وإتيان لا يبدو أنهما يمكن أن يجتمعا على الإطلاق!

استمر تيودور: «حسنٌ، هذا وعد! يمكنني أن آخذ كلامك محل ثقة إذن، أليس كذلك؟ هيا، لنتصافح معًا على ذلك!»

مدَّ إتيان يده.

«تمام. لا مزيد من النكد الآن من فضلك، ولا وجوه حزينة!»

«لست أنكد عليكم»، قال إتيان معارضًا. فقد لمست معاتبات تيودور وترًا حساسًا. لما فكر في امتحاناته، أدرك كم كان غير مستعد، وكم سيكون من الصعب عليه الوفاء بوعده. لم يخطر بباله قط أنه خذلهم جميعًا- ماما وماتيلدا وتيودور والأطفال- ببساطة من خلال إمتاع نفسه في ليدن والانغماس في كل حفلات العشاء الفخمة تلك مع رفاقه، وشعر بحيرةٍ من أمره في كيفية إصلاح ما أفسده، وفي الوقت نفسه كانوا قد وصلوا إلى التراس، حيث كانت تروس تعيد ملء الكؤوس.

«آه، ها أنتم هنا! في الوقت المناسب تمامًا أيضًا، لأنني لم أكن لاحتفظ بأي شراب لكما إذا تسببتما في انتظاركما لفترة أطول!»، أعلنت متظاهرة بالضيق: «إيلينه كانت تتساءل ما الذي أخركم يا أوتو؛ كانت تخشى أنكم ربما سقطتم في البركة!»

«هذا ليس صحيحًا!»، قالت إيلينه، وهي تنفخ غضبًا، وعندها أثارت كاترين وكور والفتيات موجة من الاحتجاج الصاخب بسبب إنكارها. كان هناك الكثير من البهجة والمرح لدرجة أن إتيان نسي همومه بسرعة، ولم يستطع مقاومة الانضمام إلى الجدل بشهقات عالية من الضحك. حاولت فريدريك تهدئته دون جدوى، بينما شرحت ماتيلدا لهوارد ما كان يجري.

هزت مدام فان إرليفورت رأسها مصدومة.

«من غير اللطيف تمامًا أن تناكفوها بهذا الشكل!»، وبختهم برفق، لكن دفاعها عن إيلينه لم يَزِدْ سوى مرح إتيان الصاخب.

***

كانت الأيام القليلة الماضية حارة ورطبة. بعد القهوة تفرق الصغار. تحلقت الحمائم حول أعشاش اللقالق فوق قمة عمودين طويلين وسط العشب. في الفارندا والسلالم المؤدية إلى الحديقة جلست السيدة العجوز مع بناتها، بينما

كانت إيلينه وفريدريك بالداخل، تلعبان البلياردو مع الرجال.

«أين الأطفال؟»، استفسرت كاترين، ألقت نظرة فاحصة على العشب المجزوز لتوه، والمهجور الآن إلا من كلاب صيد تيودور التي غالبها النعاس.

أجابت تروس: «لقد ذهبوا للتمشية؛ إلى الجوف الأبيض على ما أعتقد».

صاحت ماتيلدا في فزع: «الجوف الأبيض؟ لكن ذلك يبعد ساعة مشيًا على الأقدام! أنا متأكدة أنها ستمطر».

وقفت تروس وحدقت النظر في السماء.

«قد تكونين على حق يا تيلي. أظن أنه لم يكن ينبغي لي أن أسمح لهم بالتمشية، لكن هيتي كانت مصرة جدًا وأولادكِ متلهفون للغاية أن أذعن لهم دون التفكير في الطقس. أخشى أنني لم أعد أستطيع التفكير في كل شيء. كل نشاط الأطفال وحماستهم يجعل رأسي يدور بين الحين والآخر- لكن تذكري أن هذا لا يعني أنني لا أحب وجودكِ هنا!».

بدأت الغيوم الرمادية الداكنة والكثيفة تحتشد في السماء. صار الضوء خافتًا، وسُمِعَ صوت حفيف أوراق الشجر على الأغصان وهَدَر سطح البركة بالأمواج مع اشتداد الريح.

«آمل أن يكونوا قد أخذوا المظلات!»، قالت السيدة العجوز، وهي تقف، وحذت كاترين وماتيلدا حذوها.

«مظلات! أشك في ذلك! الأطفال لا يفكرون في مثل هذه الأمور، أراهن أنهم لم يكونوا حتى قد أخذوا قبعاتهم! ماذا سنفعل؟ أتوقع هطول أمطار غزيرة في الطريق».

قالت كاترين بغيظ وقلق: «لا يمكننا أن نتركهم لمصيرهم. هل أنتِ متأكدة أنهم ذهبوا إلى الجوف الأبيض؟»

«متأكدة؟ حسنٌ، ليس تمامًا، لكنهم كانوا يتحدثون عن ذلك. انتظري، سأذهب وأخبر كلاس بأن يأخذ العربة المغطاة إلى الجوف الأبيض».

وانطلقت للتحدث إلى سائق العربة.

بدأت قطرات مطر متناثرة في الهطول. استيقظت الكلاب النائمة على العشب، وتمطعت، وسارت على مهلٍ إلى المنزل الواحد تلو الآخر. ذرعت مدام فان إرليفورت الأرضية بينما زاد توتر كاترين وماتيلدا وهما تنتظران كلاس ليشد الخيول إلى العربة.

أضاءت السماء المكفهرة بلمعة برق مفاجئة، أعقبها دمدمة رعدٍ عالية. لم يكد يخفتُ صوت الرعد حتى طَفِقت الغيوم في هطول وابل من المطر الغزير. سارع لاعبو البلياردو إلى الفارندا، حيث وقفوا جميعًا بالقرب من بعضهم محتمين بالسقيفة، يوحدهم القلق على الصغار وغير عابئين بقطرات المطر، التي تهب في اتجاههم. لمع البرق كثيرًا وصار ما أعقبه من قصف الرعد يَصُمُّ الآذان.

قالت كاترين بقلق: «لا أعتقد بأننا يجب أن نبقى هنا. لنذهب إلى الداخل. ياه، ابنتي كيتي المسكينة!»

كانت تروس مشحونة للغاية، ولامت نفسها لأنها سمحت للأطفال بالخروج، وفي حالتها العصبية ألقت نظرة سريعة على كاترين وماتيلدا، ثم على زوجها، حتى على والدتها، وأخيرًا على إتيان الذي اقترح الذهاب في إثرهم بالمظلات. المظلات! لا بد أن الصبي قد فقد عقله! لِمَ لَمْ يفكر أحد في أن يحذرها؟ لِمَ فسد كل شيء في الدقيقة، التي أدارت فيها ظهرها؟ كيف يمكنها أن تدير هذا البيت بشكل صحيح في ظل هذه الظروف؟ وفجأة استدارت إلى إيلينه:

«إيلينه، لا تقفي هناك بجوار الأعمدة، وإلا ستبتلّين تمامًا، كما أنه خطر مع لمعان البرق. يا إلهي، لا يمكن عمل أي شيء حيال هذا، لذلك لنذهب إلى الداخل! ماذا لو أصيبوا في حادث! لا أستطيع تحمل ذلك! أوه يا ماتيلدا، لِمَ لَمْ تحذريني؟ أنا لا أستطيع تحمل مسؤولية كل شيء، تعرفين!».

هشتهم جميعًا إلى حجرة الرسم، لأنه لم يكن هناك معنى من الوقوف والتعرض للبلل، ولن يؤدي ذلك إلا لجعل الانتظار يصعب احتماله أكثر، ورغم ذلك، ظلت تركض إلى الفارندا لترى ما إذا كان الصغار قادمين، بينما استمرت العواصف الرعدية بلا هوادة.

جلسوا في الداخل. لم يتكلموا إلا قليلاً، وكان الجو مشحونًا بالترقب المضطرب. تنفسوا الصعداء جميعًا عندما عادت أخيرًا العربة القديمة. كان الغطاء مُؤَمَّنًا من جميع الجوانب، لكن كان بالإمكان رؤية الأيدي الصغيرة، وهي تترك مصراعي باب العربة، وتطل وجوه صغيرة ذات عيون واسعة. قعقعت السيارة المتهالكة أمام البيت في طريقها إلى المدخل المغطى في الجزء الخلفي، وكان هناك اندفاع العام للترحيب بالركاب الشّعث المتسخين.

ظهروا واحدًا تلو الآخر: أولاً ماريان وهنريتا، ثم ڤيلي وجوستاف، وبعد ذلك ساعدوا أبناء فان رايسل الأربعة وميميه في الترجل من العربة. انطلقت كاترين بسرعة لكيتي، التي كانت تبكي. كانوا جميعًا مُبْتَلِّين تمامًا، وأحذيتهم وأيديهم مغطاة بالوحل وقبعاتهم المصنوعة من القش مشبعة بالماء، التي كان يَقْطُر منها. ساد الهرج والمرج لما اندفع الأطفال عبر الدهليز إلى حجرة الطعام الكبيرة وهم يصرخون بأعلى صوتهم، والكلاب الثلاثة تنبح بجانبهم.

استهزأت ماريان وهيتي وهما تضحكان على ڤيلي، الذي كان قد ترك أحد فردتيّ حذائه في الجوف الأبيض؛ وصرخت تينا ويوهان ومادلين معًا لما أخبروا ماتيلدا كيف أن نيكو كاد تقريبًا أن يُترك وحده لأنه ذهب بعيدًا للبحث عن مجرفته اللعبة، التي أضاعها في الرمال. إلا أن تروس أظهرت هِمَّتها باعتبارها سيدة المنزل لما رفع صوتها بنبرة آمرة وطَرَقَت المائدة بصوتٍ عالٍ إلى أن أُستعيد مظهر ما من مظاهر النظام. أُرسل الصغار إلى الطابق العلوي، حيث ركضت المربية فرانتسين ومربية أطفال تروس والمربية الإنجليزية من حجرة الى حجرة للبحث عن جوارب وصدريات جافة من خزانات الملابس بينما وزعت تروس مناشف الحمام. جُرِّد الصغار من ملابسهم المبللة، ولم يلتفت

أحدٌ للعاصفة الرعدية الثائرة بالخارج. ذهبت ماريان وهنريتا إلى حجرتهما، وأغلقتا الباب وراءهما من أجل بعض الخصوصية، لأن الكل كانوا يركضون هنا وهناك، ومن بينهم بابا والأخوال. قيل لڤيلي وجوستاف أن يتوليّا أمر نفسهما بنفسهما، وألقت تروس إليهما بمناشف وملابس داخلية جديدة، وأخبرتهما بأن يتأكدا من أنهما جففا أنفسهما بشكل صحيح، ولا ينسيا ظهرهما وصدرهما، وما بين أصابع قدميهما، بينما أحضرت لهما جوارب وأحذية. كانت كيتي ما زالت تبكي؛ إذ كان بالإمكان سماعها من حجرة أخرى، إلى جانب كاترين ومربية أطفالها، اللتين كانتا تتحدثان بالإنجليزية.

«أوه يا تينا، اخلعي ملابسك المبللة»، صاحت ماتيلدا، وهى تساعد يوهان بينما تولت ماما الاهتمام بنيكو واعتنت فريدريك بمادلين. غير أن تينا جلست على أحد الكراسي ورفضت التزحزح. عند ذلك فقط ظهرت إيلينه، وهى تحمل مجموعة كاملة من الملابس لطفلتها المفضلة.

قالت إيلينه في تسامح: «الآن، الآن يا عزيزتي تينا! ماما المسكينة تعمل على قدم وساق، لذلك لا ينبغي أن تتضايقي. أتسمحين لي بمساعدتكِ بدلاً منها؟ ما رأيكِ؟»

أومأت تينا برأسها، ومَطَّت شفتيها كأميرة صغيرة. انحنت إيلينه لتجلس على الأرض، وفكّت أزرار حذاء الطفلة، الذي كساه الوحل وجردتها من جواربها المبتلة تمامًا.

«محبوبتي الجميلة، أنتِ ترتجفين!»، صرخت في فزع، وفركت قدميّ وساقيّ الطفل الرطبتيْن بمنشفة خشنة حتى عادتا دافئتيْن وورديتيْن مرة أخرى. ملصت تينا أصابع قدميها في حِجْر إيلينه، شعرت بالسعادة ثانيةً. فكّت حزامها، وبدأت في فك أزرار بلوزتها.

«شاطرة! استمري، اخلعي ملابسكِ، وأعدكِ بأنني سأمشط شعركِ بعدها. ستحبين ذلك، أليس كذلك؟».

«هل ستمشطين شعري؟ هل ستصففينه كشعركِ؟».

«يوه لا يا محبوبتي، سأصنع لك ضفيرة، بالطريقة، التي تعملينها دائمًا».

«أوه أرجوكِ أرجوكِ يا إيلينه، صففي شعري، ممكن؟ أريد أن أبدو كسيدة حقيقية!»

«حسنٌ إذن، إذا عملتِ كما أقول. بسرعة يا تينا، لنبدأ في خلع ملابسكِ أولاً».

أوقفتها إيلينه على كرسي وشرعت في خلع ملابسها كما لو كانت دمية، بينما هَذَرت تينا عن الجوف الأبيض وكم كانوا مرعوبين من البرق. حَكَّت الجسم النحيل المرتعش حتى بُعثت فيه الحرارة وتورَّد تمامًا، وبعدها لَفَّت الفتاة الصغيرة ذراعيها حول عنق إيلينه وضغطت بكل قوتها. اُضطرت إيلينه لأن تضحك.

«لديكِ موهبة في رعاية الأطفال يا إيلينه! يبدو كما لو كنتِ تقومين بذلك طوال حياتكِ»، هتفت ماتيلدا بامتنان، وذلك لكونها ما زالت مشغولة مع يوهان. تَلَفَّتت مدام فان إرليفورت وفريدريك حولهما وابتسمتا لإيلينه. كان ڤيلي وجوستاف يغيظان هيتي التي زُوِّدَت أخيرًا بجوارب جافة، وهي تلبسها الآن في وسط الأرضية، التي تناثرت فوقها الأحذية والجوارب المبتلة والملابس الداخلية والمناشف المرمية.

شرعت إيلينه، التي شعرت بالرضا بوضوح على نجاحها في مساعدة تينا في ارتداء مجموعة جديدة من الملابس.

«كم تبدين أنيقة وأنتِ ترتدين ثوبكِ النظيف! انتظري، سأدغدغكِ، ممكن؟ هيا ارفعي هذه القدم، والآن ارفعي الأخرى، بحيث نُلبسكِ سروالكِ. عزيزتي، إذا ظللتِ تتلوّين هكذا وتلوحي بذراعيك فسوف تنكشين شعري. اربطي أزرارك، استمري، أعلم أنكِ تستطيعين القيام بذلك! أم أنكِ تظنين أنني كنتُ سأقوم بكل شيء لكِ؟ آه، أين فرشاة الشعر؟ انتظري، سأذهب وأحضر مشطًا!»

نادتها تينا: «وشريط شعري الأحمر أيضًا!»

انطلقت إيلينه مسرعة، توقفت مؤقتًا في طريقها لتربط فيونكة كبيرة في حزام ماريان.

بَرِمَت تينا ونادت إيلينه بصخبٍ لكي تأتي على عجل.

قالت إيلينه: «أنا هنا!»، وهي في طريقها للعودة، وبدأت تكوم شعر تينا على الجزء العلوي من رأسها كما تفعل السيدات، وهو ما أسعد الجميع. شعرت تينا بسعادة غامرة، لكنها استسلمت بوداعة لإنزال خصلات شعرها البنية الكثيفة لأسفل مرة أخرى وجَدْلِها في هيئة ضفائر.

«هذا أفضل! أنتِ جميلة كلوحة!»، قالت إيلينه، وهي تمشط الفرشة لأسفل فوق جبين الطفلة الصغيرة.

«الآن يا أطفال، انطلقوا!»، قالت تروس، بعدما استعادت ثقتها، واندفعوا جميعًا أسفل الدَّرَج.

«كانت إيلينه طيبة جدًا مع تينا»، قالت مدام فان إرليفورت لتروس بصوت خافت. «كان ينبغي عليكِ أن تشاهديهما معًا! يا له من مشهد بديع! أوه، لا أستطيع أن أخبركِ كم أشعر بالراحة لأنهم جميعًا عادوا إلى البيت مرة أخرى سالمين معافين!»

***

كان وقت النوم مبكرًا في دي هورسه؛ فبحلول الساعة العاشرة والنصف يصبح كل شيء ساكنًا. قضت إيلينه ساعة في الدردشة مع فريدريك في حجرة نومها، وسعدت للغاية بأن تحسَّ بالتعاطف المتزايد بينهما. كانت فريدي بالفعل تحت الأغطية وجلست إيلينه على جانب السرير بينما تبادلتا الأسرار حول جميع أنواع المواضيع، وخنقتا قهقهات الضحك، التي انطلقت بين الحين والآخر حتى لا تقطعا الصمت السائد في المنزل. وفي النهاية عادت إيلينه إلى حجرتها على رؤوس أصابعها، والآن باتت وحدها أخيرًا. أضاءت شمعتها

وبدأت ببطء في خلع ملابسها، تقوست شفتاها عن ابتسامة لا واعية سعيدة. توقفت للحظة، غارقة في التفكير بشعرها الذي تدلّى فضفاضًا على كتفيها العاريين. لم يكن ثمة شيء آخر تريده، لا شيء على الإطلاق: إذ كان لديها ببساطة كل شيء يمكنها أن تتمناه.

فتحت النافذة، وتطلعت إلى الخارج. كان المطر قد توقف وامتلأ الهواء بعبق أوراق الشجر الرطبة. كانت السماء صافية، خاليةً تمامًا من الغيوم الرمادية إلا من بعض الخطوط العالقة، وارتفع من خلالها هلالٌ براق. وبُسِطَت الحقول الواسعة النائية بلا صوتٍ في صمت؛ طاحونةٌ وحيدة ارتفعت عاليًا فوقها مروحة معتمة بلا حراك، تمَيَّز شكلها تمامًا مقابل لمعان سماء المساء الشاحب. لمعت قنوات المياه كشرائط من معدن، انبعث انتعاش مُعطَّر كأنه تنهيدة خفيفة صدرت عن الطبيعة، التي تقضي سِنَةً من النوم. اتكأت إيلينه على النافذة، وهي تعانق ذراعيها العاريتين. شعرت كما لو أن تنهيدة الانتعاش الرقيقة تلك قد أضفت حلاوة على جميع أفكارها بعبق الأزهار البرية، وأبعدت رائحة مزاجها السابق العفنة السقيمة. كان الأمر أشبه باستنشاق عطور المسك والجاوشير، التي تُشْعِر من يشمها بالانتشاء، وشعرت بأنها صغيرة جدًا، أصغر مما شعرت به من قبل، ويا‌ه!- كانت متأكدة من هذا- لم تقع أبدًا في الحب كما وقعت فيه الآن، أبدًا! حبيبها أوتو! ولما فكرت فيه لم تشعر بأي حاجة مطلقًا بأن تستحضر عنه صورة مثالية ما؛ فكرت فيه كما هو، متسمٌ بالرجولة والقوة في بساطته الودية، وبفكرة واحدة تسيطر على عقله هي التفكير فيها. كان حبه ثريًا جدًا، ومكتملاً جدًا، ويحيط بها من كل جانب جدًا. ورأت أن حبها يتزايد يومًا بعد يوم ... لا، لا يمكن أن يتزايد أكثر من ذلك، سيكون هذا من المستحيلات! لا أمنيات أخرى، لا مخاوف بشأن المستقبل؛ إذ سوف يتكشف من تلقاء نفسه، أفقٌ مشوبٌ بوهج ذهبي! لا شيء سوى سكون تلك البحيرة، التي تتهادى روحها فوقها، لا شيء سوى سلام تلك النشوة الزرقاء وحبها! لا شيء سوى تلك ... لم تستطع أن تتخيل ما الذي يمكن لإنسان أن يتمناه أكثر

من هذا.

فقط، كان هناك عيب واحد صغير للغاية في كل تلك المساحة الرحبة الصافية من الزرقة، مسحة من خوف أن التغيير قد يأتي بعد ذلك! لقد مرت فترة طويلة جدًا منذ توجهت بالصلاة آخر مرة، وكانت غير متأكدة من كيفية القيام بها، ما إذا كان عليها أن تقول الكلمات بصوت عالٍ أم تفكر فيها فقط. في الواقع، لم تعد تعلم ما إذا كانت تؤمن بالله، لم تعد تعرف ما الذي تؤمن به، لكنها الآن، في هذه اللحظة، تمنت كثيرًا أن تدعو لأن يظلَّ كل شيء كما هو عليه الآن، ألا يتغير أي شيء على الإطلاق- ياه، لأن تبقى تلك السعادة الرقيقة، ذلك الهدوء وراحة البال، تلك الزرقة معها إلى الأبد!

«لا عودة أبدًا مرة أخرى كما كنتُ من قبل، أرجوك يا رب، اجعل كل شيء يبقى كما هو عليه الآن! سأموت إذا تغير أي شيء!»، همست بصوت خفيض، وبينما كانت تشبك يديها في الصلاة، ارتعشت دمعة على رموشها، لكنها كانت دموع الفرح، وفي فرحها غرق ذلك الخوف الصغير للغاية كقطرة في المحيط.

٢٠

كان أغسطس حارًا بشكل خانق في لاهاي، رغم أن فترات المساء كانت منعشة بالتراس في شيفينينجن أو عند الخيمة في الغابة. اليوم مساء الأحد، وقررت بيتسي البقاء في البيت للتغيير. مَرَّ وقت طويل منذ جاءت مدام فان رات العجوز لزيارتها، وهكذا، وبدلا من الذهاب إلى شيفينينجن، التي تغدو أقل إثارة للاهتمام في أيام الأحد على أي حال، دعت حماتها للزيارة. سيتناولون الشاي في البيت الزجاجي الأخضر، حيث كانت الأبواب الزجاجية مفتوحة بالفعل، وأخذ هِنْك لفة حول الحديقة مع أمه، التي أعربت عن إعجابها بوروده الرائعة طويلة السيقان. جلست بيتسي وفنسنت وحدهما.

قالت: «وصلتني رسالة من إيلينه؛ ستعود مع عائلة فان إرليفورت الأربعاء المقبل. من الواضح أن عائلة هوارد سيمكثون لفترة أطول قليلاً في دي هورسه».

«امم؟ وافترض أنني عليّ أن أرحل عندما تعود إيلينه؟»، رد بصراحة عديمة الذوق. فوجئت بيتسي، لكنها ابتسمت ابتسامة لطيفة للغاية.

«هذا مستحيل! بالتأكيد لا. أنت تعلم أن بيتنا هو بيتك إلى أن تقرر إلى أين تريد أن تذهب. ألم يصلك أي شيء من صديقك هذا في نيويورك، ما اسمه مرة أخرى؟».

«لورانس سانت كلير. لا، لم تصلني أي أخبار منذ فترة طويلة من الوقت. إلا أنه بعد ذلك من الصعب التواصل مع الأصدقاء عبر مثل تلك المسافة الطويلة. لا أستطيع أن ألومه».

اتكأ إلى الخلف في كرسيه الخيزران بجو مَنْ يشعر قليلاً أنه مغبون الحق.

غير أنه في الحقيقة شعر بأنه على راحته كثيرًا، هدهدته مسرورًا الفخامة المحيطة به في إضاءة البيت الزجاجي الأخضر المعتمة. كانت الحديقة من ورائهما معتنى بها عناية جيدة، غنية بالأزهار، وبها جرّة رخامية للزينة على العشب. في تلك البيئة الباعثة على الهدوء، وفي وجود بيتسي في فستانها الصيفي الخفيف، والتي وقفت بأناقة أمام طقم الفضة اللامع بهدوء والخزف الياباني على طاولة الشاي، شعر بأنه في أمانٍ من مشاق الحياة. كان كل شيء مريحًا وهادئًا جدًا، بل ربما رتيبًا، لكن بالنسبة له كان مجددًا للنشاط. كان يعرف أن اليد العليا كانت له مع بيتسي، لكن لم تكن هناك حاجة أن يمارس سلطته ونفوذه إلى الآن. إلى جانب ذلك، شعر، ولا ريب، بالخمول. في الوقت الراهن، كانت الحياة سهلة، ولم يكن لديه ما يدعو للقلق.

«ماذا تقولين إذا كنتُ أريد البحث عن زوجة؟»، سأل فجأة، إذ ذكَّرته مشاهدة بيتسي بما يمكن أن توفره زيجة ثرية من مسرات.

«زوجة؟ آه، فكرة ممتازة! أتريدني أن أحاول أن أجد لك واحدة؟ ما نوع الزوجة الذي في بالك؟».

«ليس ضروريًا أن تكون جميلة، فقط أنيقة، لكن ليست مفرطة السذاجة والمثالية من فضلكِ! ولديها مالٌ بطبيعة الحال».

«بطبيعة الحال. أنت لا ترغب في أن تنجرف في علاقة عاطفية غير مناسبة، أليس كذلك؟ ما رأيك في فتيات إيخوف؟».

«هذا مستحيل! كل ما تفعلنه هو القهقهة! ولا مال لديهن كذلك، أليس كذلك؟».

«البعض يقول لديهن مال، والبعض الآخر يقول إنهن يعشن فوق حدود إمكاناتهن المالية. على أي حال، يمكنك أن تعرف. لكن هل أنت جاد يا فنسنت؟ أم أنك تقول مجرد كلام لتجاذب الحديث؟».

«لست جادًا في الواقع. أظن أنه سيكون من العقل الحكمة جدًا بالنسبة لي

أن أتزوج. ألا توافقينني؟».

نظرت بيتسي إليه بحدَّة، يملؤها الازدراء الكامل له. بعيونه الباهتة، وملامحه الواهنة، وطريقته المنهكة في الكلام، بدا لها كأي شيء إلا زوجًا مثاليًا لأي فتاة صغيرة.

«ليس تمامًا. يبدو لي أنك أناني أصيل. ولا يمكنني أن أتخيل زوجة تحصل على كثيرٍ من المصروف منك. أنت ضعيف- أعني روحك المعنوية، طبعًا».

شعرت بالأسف على كلماتها من فورها، وانزعجت من لامبالاتها. ارتجفت تقريبًا لما نظر إليها بابتسامته المبهمة تلك، وعيونه الشاحبة الأشبه بعيون الأفاعي تلك.

قال ببطء مشددًا على كل كلمة: «وأي زوجة تحتاج دائمًا للمصروف، ها؟ كما تفعلين أنتِ. تجدين المصروف من هِنْك، ويمكنك الاعتماد عليه في كل شيء، أليس كذلك؟ وأنه قوي بما فيه الكفاية- أعني بنيانه الجسدي طبعًا».

كل كلمة تلفظ بها بدت لبيتسي كأنها قيلت نكاية فيها، وكل كلمة وخزتها كإبرة، وبالرغم من طبيعتها المسيطرة لم تجرأ على الرد عليه، وأخفت فزعها وقلقها بضحكة صغيرة ودودة، كما لو كان الأمر مجرد مزاحٍ من جانبه. قلد ضحكتها بضحكته، التي لا تقل عنها خفة ووُدًا.

توقفا للحظة، وكلاهما مُدْرِك تمامًا للامتعاض الكامن وراء حديثهما المازح ظاهريًا. لقطع الصمت طفقت بيتسي تروي حكايات بائسة عن علاقاتها بحماتها، كيف أخطأت السيدة العجوز في الحكم عليها، وكيف يئست من تعايشهما بأي شكل من الأشكال. إلا أن انطباع اللامبالاة المطلقة، الذي تركه، وهو يستمع إليها كشف لها جليًا كم صارت تبغضه في أسابيع القرب الماضية هذه. لو أنها تستطيع أن تطرده فورًا! لكنها كانت تعرف أن ذلك سيكون مستحيلاً دون التعرض لوقوع مشهد رديء للغاية؛ بل إنه ببساطة لن يرحل، وسوف يتسكع إلى أبد الآبدين، بينما بقيت هى عاجزة عن الأخذ بزمام

الأمور بيديها. كانت الغلطة كلها غلطة هِنْك. إن كان زوجها أعطى فنسنت ذلك المبلغ الزهيد من المال، الذي كان يحتاجه لما وضعت برأسها مطلقًا أن تدعوه للإقامة معهم. احتقرت فنسنت، واحتقرت نفسها لأنها شعرت بتهديده؛ كانت غنية وسعيدة في النهاية، لذا ما الضرر، الذي يمكنه أن يسببه لها؟ لكنها كلما حاولت بقوة أكثر التخلص من خوفها، بات أكثر رسوخًا، مثل سمة ذهنية خاصة ومُنْهِكَة.

عاد هِنْك وأمه من نزهتهما، التي قاما بها على مهلٍ في الحديقة وجلسا في البيت الزجاجي بجوار أحد الأبواب الزجاجية المفتوحة. لم تتحدث السيدة العجوز منذ أبدت إعجابا بالورود، وغدت مستغرقة في التأمل. في منزل ابنها المؤثث أثاثًا فاخرًا شعرت الآن بدرجة من البرودة والفراغ، والتي رأت أنها أكثر إيقاعًا للكآبة على النَّفْس من فراغ مسكنها المهجور. وفجأة دار ببالها أنها افتقدت إيلينه- إيلينه التي تشع السحر والعذوبة أينما ذهبت. افتقدت الفتاة العزيزة، التي تختلف تمامًا عن أختها بيتسي، طيبة القلب ومتعاطفة للغاية، ولم تملك إلا أن تبدي رأيها معبرة عن حزنها وأساها:

«بيتكِ يبدو فارغًا مع سفر إيلي. كم سنفتقدها بما لا يُحتمل عندما تتزوج وتغادر البيت إلى الأبد. عزيزتي، عزيزتي إيلي».

لم تسمع ما قالته بيتسي، وفنسنت ردًا عليها، لم تسمع كلمات هِنْك المطمئنة كذلك. جلست، وقد أحنت رأسها، تحدق في فراغ في الأيدي المليئة بالعروق، التي شبكتها في حِجْرها. كم بدت الحياة كئيبة، لا شيء سوى وجع القلب والوداعات الحزينة والدموع، وعالم رمادي مأهول بالأشباح المأساوية.

انتابتها رجفة، وسألتها بيتسي إذا كانت تشعر بالبرد، عندها أغلق هِنْك الأبواب الزجاجية، وطلب إضاءة قنديل الغاز.

* * *

اتفقت بيتسي مع حماتها، رغم أنها لم تكن لتعبأ بالاعتراف بذلك، أن

البيت بات وحيدًا وكئيبًا في الآونة الأخيرة، ورغم وجود فنسنت هناك لتسليتها بمواهبه الاجتماعية المُفْتَرَضة. لم يكن إلا ثمة تغيير بسيط للغاية في الصيف، فكان دائما إما الخيمة أو شيڤينينجن، وكانت بدأت تشعر بالاختناق تمامًا من الملل في كل شيء، وعندما عادت إيلينه أخيرًا، متألقة في سعادتها، التي عثرت عليها مؤخرًا، بدا كما لو أن نسيمًا ريفيًا منعشًا هَبَّ عبر صالونات بيتسي الفاخرة، ومع ثرثرة إيلينه عن مباهج الحياة في دي هورسه، وعن تيودور وتروس والأطفال، وعن عائلة هوارد وأبناء فان رايسل الأربعة، أدركت بيتسي أن حماتها كانت على حق أن بيتها كان كئيبًا بدون إيلينه. بدأت بيتسي نفسها تساورها الهواجس حول رحيل أختها، ورَقَّت مشاعرها تجاهها إلى حد كبير، وغيرت رأيها أيضًا بشأن أوتو، الذي كانت تراه من قبل رسميًا ومهذبًا أكثر من أن يحوز على إعجابها، والآن وبعد أن عرفته بشكل أفضل، رأت أنه ظريف بما يكفي، وحثته على تناول العشاء معهم كثيرًا.

نظرًا لوجود إيلينه أصبح الحديث على مائدة العشاء مفعمًا بالحيوية مرة أخرى، مختلفًا كليةً عن الأحاديث المتكلفة، التي أقامتها هي وزوجها مع فنسنت أثناء تناول وجبات الطعام. شعرت بيتسي بالامتنان لهذا، وأبدت الود نحو إيلينه نتيجة لذلك، وانخرطت الأختان في مناقشات بلا نهاية حول جهاز عُرْس إيلينه، والذي لا بد أن تسرع في تجميعه لو كانا سيتزوجان في الخريف. قضيتا فترات بعد الظهيرة في التسوق أو التشاور مع الخياطات؛ في إحدى المرات رافقتا أوتو في رحلة استغرقت يومين إلى بروكسل، حيث أرادت إيلينه شراء فستان زفافها: مزخرف وإن كان بسيطًا، لا شيء فيه سوى الساتان الأبيض، لا زركشات دانتيل أو فيونكات.

في تلك الأثناء لم يكن لدى إيلينه، وسط كل هذا النشاط الصاخب، الكثير من الوقت للتفكير، فقط عندما يحين وقت النوم تجد لحظة من السلام مع النَّفْس. كانت السهرات تُقضى غالبًا في المنزل. إنه سبتمبر؛ وبدأ شيڤينينجن يفقد جاذبيته تدريجيًا، ومع قدوم أوتو على العشاء كثيرًا، بات يتأخر في البقاء

عندهم عمومًا دون أن يلاحظوا ذلك. كانت تجلس معه في الحديقة، أو في حجرة الانتظار البنفسجية، غارقة في هناءتها الهادئة، كما لو كانت لا تعرف أي شيء آخر ... كان كل شيء هادئًا ودالاً على الرضا للغاية لدرجة أنها كادت تتمنى المزيد من التنوع في مشاعرها ... لكن لا، لقد أحبت أوتو، كانت تلك العاطفة الوحيدة كافية بالنسبة لها ... فقط ذلك الإحساس بالطمأنينة، ذلك السديم الأزرق من السكون، مستمرًا إلى أبد الآبدين.

ومع تكيّفها مرة أخرى على الحياة في لاهاي وجدت أن حماسها الأوّل بدأ يتناقص حتى الآن تدريجًا عندما بدأت الحكايات، التي تود حكيها عن دي هورسه في النفاد؛ فالحيوية الريفية الصحية، التي اكتسبتها بدا أنها تتبخر الآن لدرجة أنه لم تعد لديها مناسبة للعب والمرح على الأرض مع الأطفال أو الاستلقاء في بساتين الصنوبر مع أوتو، أما الآن فهى تقضي وقتًا طويلاً للغاية جالسة في كرسي مريح بمسند، مبتسمة في سكينة، وهى تنتظر خطيبها ليأتي مرة أخرى، وكانت الساعات التي تفترق فيها عن أوتو تملؤها التسلية اللطيفة بصوت فنسنت الرقيق، وهو يتحدث عن أسفاره والمدن، التي زارها والناس الذين التقى بهم وفلسفته في الحياة. بعدما وجدت السعادة، رفضت بتعالٍ نظرته التشاؤمية، معللة بجدلٍ فاتن يعوزه المنطق جعل فنسنت يبتسم ويرفع كتفيه. قال إن ذلك كله جميل جدًا، لكنها ستكتشف بنفسها يومًا ما أن العيش بأسلوب حياة معين ليس سهلاً كما يبدو. ثمة شيء يؤدي إلى آخر؛ الظروف تتغير وتؤثر في بعضها بعشوائية تتراوح بين أتفه المصادفات وأكثرها كرمًا إلى المصائب الكارثية، والحياة، حسنٌ، الحياة عبارة عن سلسلة من الأقدار، التي تربط كل هذه المصادفات والحوادث الطارئة معًا، وليس هناك شيء تستطيع هى أو أي شخص آخر القيام به حيال ذلك.

«إذن أنت تعتقد أن كل شيء قدر محتوم، وأنني عندما أعتقد بأنني أفعل شيئًا بدافع من إرادتي الحرة، فأنا في الواقع أفعله بسبب- كيف يمكنني أن أصوغها؟»، سألت في شيء من الحيرة في وقت متأخر من بعد ظهيرة يوم ما

أثناء واحدة من محادثاتهما الثنائية الخاصة في حجرتها.

«أنتِ تظنين فقط إنها إرادتكِ الحرة، لكن إرادتكِ لا شيء سوى محصلة مئات الآلاف من المرات السابقة لوقوع الصدفة، كما تُسمى. نعم في الواقع، هذا ما أؤمن به».

«فنسنت، ما هذه القدرية! في تلك الحالة قد أبقى جالسة في هذا الكرسي المريح وانتظر ببساطة أن تحدث الأشياء».

«يمكنكِ أن تفعلي ما هو أسوأ. إلا أنني أؤكد لكِ أنكِ لو جلستِ مكانكِ، ولم تقومي أي شيء، فإن موقفك السلبي لن يكون نتيجة إرادتكِ الحرة، ولكن نتيجة كل أنواع الأحداث الصغيرة جدًا والتافهة، التي قد نسيتها تقريبًا أو حتى لم تلحظيها على الإطلاق».

فكرت مليًا في هذا، وابتسمت ابتسامة غامضة، ثم أومأت برأسها ببطء.

«غريب، لكن لديّ شعور بأنك قد تكون على حق. يمكن أن يكون ذلك صحيحًا على ما أظن».

استمتعت بهذه المحادثات، التي كانت تنتهي بوجه عام بالاتفاق معه. في كل مرة كانت تشعر بأن تعاطفها القديم معه استعر من جديد، وفي كل مرة كانت تتذكر والدها، الطريقة التي كان يتحدث بها إيماءاته، والتعبير على وجهه. رأت أن فنسنت مثير للاهتمام أكثر مما كان عليه، وفي يوم ما، وفي أحد أمزجتها الرومانسية، شعرت فجأة بأن حبها لأوتو قد لا يكون كافيًا في النهاية. لمعت الفكرة في ذهنها كالصاعقة، ولمدة جزء من الثانية ظنت أنها رأت شبحًا، لكن الشبح اختفى، وضحكت مرة أخرى. كم غريب أن تنتابك مثل تلك الخيالات العصبية الغريبة!

«إذن أنت تعتقد ...»،استأنفت حديثها، وهى لا تزال مرتبكة بعض الشيء.

ابتسم لها.

سأل: «ماذا؟».

: أنت تعتقد، على سبيل المثال، أنني إذا تزوجت أوتو فإن كل ما أفعله هو السير في طريق محدد سلفًا؟».

رَبَّت على يدها بلطف.

«فتاتي العزيزة، لِمَ تُقلقين رأسك الصغير الجميل بأشياء كهذه؟ أنتِ تحبين فان إرليفورت، وأنتِ سعيدة، ما الذي يمكن أن تتمنيه أكثر من ذلك؟ السعادة فراشة؛ عندما تصل إلى متناول يدكِ ليس من المفيد أن تحاولي الإمساك بها لكي تتمكني من دراسة تشريحها، فهي مخلوق غاية في الرقة والأثيرية، ولن ينتهي بكِ الأمر إلى أي شيء سوى قتلها».

تطلعت متعجبة. كم كان بارعًا في التعبير عن أفكاره بالكلمات، بأسلوب يُقال بسهولة ووضوح، دون تكلف شاعري، كما لو كان يقول شيئًا بسيطًا تمامًا! وكان على غير وعي بذلك تمامًا أيضًا، وهو ما أظهر كم كان مبدعًا بالفطرة، بعد ذلك رأت مما أثارَ ذعرها أنه صار شاحبًا كالأموات. نهض من مقعده، وقد أوشك على السقوط، بعينيه المُحَدِّقتين الجافتين والتعبير المخيف المائل إلى الأرجواني حول فمه الصغير المتدلي.

صرخت، وهي تقفز لتقف على قدميها، «يا الهي، فنسنت، ماذا بك؟».

قال وهو يلتقط أنفاسه: «لا شيء، فقط أحتاج بعض الهواء- هل يمكنكِ فتح النافذة، من فضلكِ-».

عرضت، وهي ترتجف قليلاً، «تريد أن آتيك بأي شيء؟ ماء؟».

رد متلعثمًا: «لا، لا- الهواء- أحتاج الهواء».

هرعت إلى النافذة، لكن يديها كانتا ترتعشان بشدة لدرجة أنها لم تتمكن من فتحها، ودقت للخادمة.

صاحت: «يا إلهي، يا إلهي!».

كان فنسنت قد سقط على الأريكة الفارسية مغشيًا عليه، وانزلق الآن من فوق الوسائد على الأرض إلا أن رأسه فقط ظل مسنودا على الجانب. كانت

جبهته غارقة في العرق، وكان تنفسه مختنقًا ويحدث صريرًا.

صرخت إيلينه في يأس: «يا إلهي!».

ركضت إلى بسطة الدَّرَج وصاحت بالأسفل:

«بيتسي! مينا! هِنْك! النجدة! إنه فنسنت- تعالوا بسرعة! أعتقد بأنه يموت!».

ركضت مرة أخرى، وجرت حبل سحب الجرس بشراسة.

اشتعلت الجلبة والهياج في أرجاء البيت، وبعد لحظة جاءت بيتسي، وهي تصعد الدَّرَج ركضًا تليها الخادمات الثلاث، وخيرارد الخادم وبِنْ الصغير. كان هِنْك بالخارج.

صاحت إيلينه: «إنه فنسنت! فنسنت! أنه يموت!».

كانت بيتسي مرعوبة، لكنها ظلت هادئة تمامًا، وعلى وجه السرعة أرسلت آنا المربية لإبعاد بِنْ، وأرسلت خيرارد ليأتي بالممارس العام المحلي، لأن راير لم يكن موجودًا، وبمساعدة من إيلينه ومينا رفعت فنسنت على الأريكة وأمرت جريت بأن تحضر بعض الخل.

زجرتها: «هيّا، بسرعة!».

رقد فنسنت بلا حراك وعيناه مغلقتان، والبقع المائلة إلى الأرجواني حول شفتيه لا تزال ظاهرة. فَكَّت بيتسي أزرار سترته وصدريته، وخلعت ربطة عنقه وياقته.

«ناوليني بعض ماء الكولونيا يا إيلينه. حاولي أن تساعديني، تعلمين أنني فاشلة في هذه الأمور!».

بدأت تربت على فوديّ فنسنت ومعصميه بمناديل، بعضها منقوع في الخل والآخر في ماء الكولونيا. سألت إيلينه عما حدث، وأوضحت إيلينه أنهما كانا جالسين يدردشان عندما وقف فجأة، وثم سقط على الأرض، تمامًا كهذا، ياه، كانت صدمة رهيبة!

سألت، وهي ترتعش، «هل تظنين أنه سيموت؟».

«بالطبع لا. لقد أُغمي عليه، هذا كل شيء. حدث ذلك من قبل كما تعرفين. عندما كنتِ في دي هورسه».

رددت إيلينه، مصدومة، «حدث ذلك من قبل؟».

لم ترد بيتسي، عند ذلك فقط فُتِحَ الباب بهدوء، ودخل أوتو.

سأل، «قالت لي جريت أن فنسنت أصيب بوعكة. أيمكنني أن أقدم أي مساعدة؟».

«لا، لا، يمكنني معالجة الأمر، لكن خذ إيلينه بعيدًا، فهي منزعجة جدًا.».

توسلت إيلينه: «أرجوكِ، دعيني أساعدكِ!».

«لا، لا أحبذ ذلك، سيأتي الطبيب إلى هنا قريبًا، على الأقل آمل ذلك، وبعدها سيكون كل شيء على ما يرام. اذهبي الآن!».

عرض أوتو التأكد ما إذا كان راير قد عاد في تلك الأثناء، لكن بيتسي قالت إنه لا داعي لذلك، لذا قاد إيلينه خارج الحجرة. كان قد قضى اليوم في المكتب، ورتب للذهاب في نزهة مع إيلينه بعد ذلك، لكنه الآن قادها إلى الصالون، حيث جلسا على الأريكة نفسها، وبدأت في البكاء.

قالت، وهي مقطوعة الأنفاس، «قالت بيتسي إن ذلك حدث من قبل، لكنني لم أرَ أي شيء كهذا في حياتي كلها. ظننت أنه كان يموت! كان للعمة فيره نفس التعبير حول فمها عندما ماتت».

ضمَّها لصدره، وقبَّل جبينها.

«خلاص يا حبيبتي، يجب أن تهدأي. أنا متأكد أنه سيكون على ما يرام. ما هذا، أنتِ ترتجفين!».

«ياه، أنا في حالة! أعصابي ... ياه يا أوتو!».

ربَّت على يدها برقة.

«خلاص، خلاص، يجب أن تحاولي وتهدأي».

«أشعر بالضيق بشكل رهيب ... لا أستطيع تحمل هذه الأمور».

شعرت بشيء أشبه بوخز الضمير، متساءلة ما إذا كان يمكن أن تكون هناك أي صلة بين الكلمات الأخيرة، التي قالتها لفنسنت ونوبة إغمائه. لكنها لم تستطع أن تذكر عما كان يدور حديثهما، لذا أسندت رأسها من التعب على كتف أوتو.

غمغمت، وهي لا تزال ترتجف، «شيء طفولي مني، أليس كذلك؟ لكنني لا أستطيع مقاومة حساسيتي المفرطة؛ أذكر ذات مرة رؤية كلب تدهسه عربة، وما زلتُ أصاب بقشعريرة كلما فكرت فيه!».

قال: «أنتِ مفرطة الحساسية قليلاً».

غمغمت، وهي تميل لتقترب منه أكثر، «آه نعم، أنا كثيرًا ... أشعر بكثير من... لا عليك، فقط احضني».

همس: «حبيبتي!».

تنهدت: «حبيبي أوتو، حبيبي الغالي جدًا أوتو. آه نعم، أنا حساسة للغاية. كيف ستتحملني لا أستطيع أن أتخيل. أنا دائما ... كثيرًا ... آه فنسنت المسكين، أشعر بالحزن من أجله، ألست كذلك؟».

«نعم أشعر بالحزن من أجله؛ فهو لا يبدو على ما يرام على الإطلاق».

استمرت تسند نفسها على كتفه لبعض الوقت، وهدأت تدريجيًا. هدأ بكاؤها، ولكن عينيها ظلت دامعة وحزينة، لأنها كانت تفكر في ذلك الجزء من الثانية عندما رأت الشبح، وترغب في تذكر شكله، والأنسب أن تبعده إلى الأبد. لا بد ألا يعود الشبح أبدًا مرة أخرى ليطاردها، فقد كان ذلك مزعجًا جدًا فوق طاقة الاحتمال!

***

بعد غداء متعجل، عقب زيارة الطبيب، قررت بيتسي إرسال ديرك بالعربة

الكوبيه ليأتي بالدكتور راير في النهاية، وعندما وصل الأخير ذهبت معه لرؤية فنسنت، الذي كان قد وُضِع في السرير في حجرته، ولأنها ليست المرة الأولى، التي يسقط فيها فنسنت مغشيًا عليه، كانت تعرف ما يجب القيام به، وهو اتباع إرشادات الدكتور راير، حرصت على أن تكون رأسه في مستوى أقل من بقية جسده عن طريق حشو الوسائد تحت ظهره. ببطء عاد فنسنت إلى وعيه مرة أخرى. فتح عينيه للحظة، وجرجر يده على غطاء السرير. خفَّض الدكتور راير الإضاءة في الحجرة وأوصى بالراحة الكاملة للمريض.

«ليس هذا خطرًا، أليس كذلك يا دكتور؟»، سألت بيتسي بالطابق السفلي في الصالون، حيث كانت إيلينه وأوتو وهِنْك ينتظرون.

«ليس فورًا، سيدتي العزيزة،»، أجاب راير، وهو يربط في عجالة أزرار معطفه الخريفي الأنيق. «لكنكِ تدركين، مرتان متتابعتان في مدة قصيرة نسبيًا ... هذا لا يبشر بالخير بالنسبة لحالة مستر فيره الصحية. لدي انطباع بأنه يعاني من الأنيميا؛ بنية جسد ضعيفة تمامًا، ضعيفة جدًا. ما يحتاج إليه هو الراحة والاسترخاء، كما ذكرت من قبل. هل رأيتِ عائلة فيريلاين؟ يبدون جميعًا بصحة جيدة، بما في ذلك الأطفال. يا لها من سيدة لطيفة. حسنٌ الآن، أوريڤوار. يسعدني استخدام سيارتكم مرة أخرى، شكرًا لكم. أوريڤوار، مستر فان رات، سآذن لنفسي بالانصراف».

آنا المربية ستسهر بجوار سرير فنسنت. غرق البيت في الصمت؛ آوى هِنْك إلى فراشه لأخذ قسط من الراحة وصعدت بيتسي إلى الطابق العلوي مع بِنْ لتضعه في السرير بنفسها بدلاً من المخاطرة بإحداث ضجة لو تركت هذه المهمة لمينا غريبة الأطوار، وظلَّ أوتو وإيلينه في حجرة الانتظار.

سألها، وهي تجلس مستقرة على وسادة عند قدميه، «هل تشعرين بتحسن؟».

أخذت نفسًا عميقًا وأومأت لطمأنته. في الواقع، شعرت بالهدوء والأمان التام، وهي جالسة تريح رأسها على ركبته، لم تكن لديها الرغبة في الخوض

في الأفكار المضطربة، التي ازدحم بها عقلها، وهي مرض فنسنت المفاجئ، والمحادثة التي دارت بينهما، والتي لم تستطع أن تتذكرها، والشفقة التي شعرت بها حيال ابن عمها هذا، والذي يذكرها كثيرًا جدًا بوالدها. لكن لا، قررت ألا تفكر في أيٍّ من هذه الأشياء، قررت أن تكون سعيدة، هنا والآن، بالقرب من حبيبها أوتو.

«دائمًا أشعر بأنني أفضل عندما أكون معك. أنت طيب جدًا معي».

«منذ فترة ذكرتِ أنكِ أحيانًا تصبحين متوترة جدًا دون سبب. وحزينة أيضًا على ما أعتقد. في هذه الحالة بالتأكيد كان هناك سبب طبعًا، لذا فمن الطبيعي تمامًا أن تشعري بالانزعاج، لكن أريدكِ أن تعديني بأن المرة القادمة، التي تشعرين فيها بالتوتر بلا سبب ستأتين مباشرة إليَّ».

«نعم، بالطبع».

«ستأتين إليَّ، وتقولين لي بالضبط ما الذي تشعرين به، وعليكِ أن تثقي بي لأنني أحبكِ وسوف أفعل دائمًا كل ما في وسعي لأجعلكِ تشعرين بأنك أفضل. وعد؟».

«حسنٌ، أعدك. لم يكن لي أبدًا أي شخص أتحدث إليه من قبل باستثناء هِنْك، والذي أعهد إليه بشيء ما من وقت لآخر، لكنني لا أظن أنه يفهمني، رغم أنه ودود للغاية. على الأقل لدي أنت الآن! ياه يا أوتو، ألا تعتقد بأن الحب الحقيقي لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر كله؟ أعني الحب الصادق الحقيقي، وليس مجرد إعجاب بشخص ما، والذي يحدث كثيرًا، أليس كذلك؟».

أجاب بابتسامة: «حسنٌ، ليس بالنسبة لي! على الأقل لم يعد ينطبق عليَّ».

«إذن تتفق معي. أنت تحبني كما ينبغي، ليس فقط بسبب شكلي أو أي شيء من هذا القبيل. في البداية لم أكن أفهم لماذا أحببتني، لكنني أفهم الآن: أنت تحبني لأن ... يا إلهي، لا أعرف كيف أقولها، لكنني أشعر بها في أعماقي: أنا أعني كل شيء بالنسبة لك، أليس كذلك؟ لكن عندما أعطيتني تلك المروحة

في الشتاء الماضي، المروحة البوتشي، كم كنت تحبني وقتذاك؟ هيًا أخبرني!».

استمع بكرم إلى ثرثرتها وزرع قُبْلة على قمة رأسها كردٍّ على سؤالها. آه نعم، كانت تعرف تمامًا أنه يمكنها الاعتماد عليه، ويمكنها أن تثق به تمامًا، وأنه سيسعدها مرة أخرى كلما شعرت بأقل قدرٍ من الإحباط. أخيرًا، ولما شعرت بأنها تزداد تعبًا بعد اضطرابات الساعات الماضية، صمتت، فقط تهمهم قليلاً من آنٍ لآخر ورأسها مسنود على ركبته، حتى غَفَت عندما حلَّ المساء. جلس ساكنًا جدًا، يحدق فيها، وللمرة الأولى منذ وقع في حبها شعر بوخزٍ من شيء كالشك في ذهنه، الشك في أن كل شيء سينتهي إلى ما كان يتصوره. غشيه إحساس بالأسى بينما استقرت عيناه على جسدها النائم، متأملاً في فكرة أنه مهما عظمت سعادة المرء، فهناك دائمًا قطرة من النكد في مكان ما، حتى وإن نضَحت فقط من تأملات المرء العميقة ومخاوفه الخاصة.

٢١

كان جورج دي ڤوده فان بيرج يدرس بجدٍّ من أجل امتحان نائب القنصلية عندما زارت إيميلي في يوم ما عائلة فرسترايتن. تحدثت حديثًا مطولاً مع والديّ لي لي على انفراد، مما أدى إلى توتر لي لي كثيرًا وشارفت على البكاء، لدرجة أن ماري وفريدريك بذلا مجهودًا في مواساتها. اعتذرت إيميلي ضاحكة عن زيارتها غير الرسمية، وأوضحت أن أباها المُسنّ لم يكن بصحة جيدة ولا يغامر بالخروج خارج البيت حاليًا، ولهذا قررت إدارة جميع شؤونه، وجاءت الآن بالنيابة عنه فيما يتصل بطلب ابنه الشريف تمامًا. لا بد أن تعترف أنها لم متفقة تمامًا مع مفاهيم جورج عن ضروريات الحياة المالية، وكان يمكنها أن تتخيل جيدًا أن والديّ لي لي قد يكون لديهما بعض التحفظات بشأن هذا الأمر، لكن من ناحية أخرى مستقبل جورج يبدو واعدًا بالتأكيد. إلى جانب ذلك، يبدو أن كلاهما عنيد وعازمان على دخول الحياة معًا بالرغم من كل شيء، لدرجة أنه لن يكون مجديًا بالمرة محاولة مناقشة الموضوع معهما! السؤال هو بحق، هل لدى عائلة فرسترايتن أي اعتراض شخصي عليه، أم إنهما سيسمحان للاثنين بالانتظار حتى يحين الوقت لأن يتزوجا ويعيشا معًا دون الوقوع في المخاطرة الكبيرة لأن يتضورا جوعًا؟ هل سيكون والدا لي لي قادرين، عندما يحين الوقت، أن يفترقا عن ابنتهما؟ وإذا لم يكونا معترضين على صداقة لي لي بجورج، ماذا عساها تكون أفضل طريقة للمضي قدمًا؟ خِطْبة كاملة أم مجرد اتحاد القلوب؟ من المؤسف أن جورج ولي لي جعلا أنفسهما ظاهريْن للعيان إلى حد ما، بحيث باتت مشاعرهما المتبادلة معلومة شائعة في لاهاي، لكنهما كانا صغيرين ومتهورين وسيصبحان بلا شك أكثر حكمة وتعقلاً بمرور الوقت. لذا فالسؤال هو ... وكررت إيميلي رسالتها بأسلوبها الودي المفعم

بالمرح، لكنها داخليًا تشعر بقدر بسيط من القلق فيما يتعلق بالرد.

تنهدت مدام فرسترايتن، وهزت رأسها بجو من التخوف، لكن زوجها، بما أراح قلب إيميلي، لم يبدِ أنه غير متعاطف مع كلماتها، ومع ذلك كان لديه اعتراضات: لي لي صغيرة جدًا، لا تزال طفلة بحق، وسيكون من الحكمة أكثر بالنسبة لها أن تنتظر فترة من الوقت، وذلك لإعطاء نفسها فرصة للتأكد تمامًا أنه شريك الزواج المثالي قبل اتخاذ أي التزام محدد. كان معجبًا كثيرًا بدي فوده، ويرى أنه شاب مجتهد ومحترم، إلا أنه خشي أن نظرة جورج لوضعه المالي غير واقعي، وأن تفاؤله مستوحى من المشاعر الرقيقة، التي يكنها لـــ لي لي، أما بالنسبة لدعاوى الشاب دي فوده في الرغبة عن الترف، فكان لدى الرجل العجوز بعض الشكوك. استمعت إيميلي بانتباه وبشيء من الارتباك، لأنها في داخلها كانت متفقة مع كافة اعتراضات مستر فرسترايتن لكنها، وقد اقتنعت بحماقة هذه الزيارة- على مضض، لكن من أجل خاطر جورج- كرهت أن تخيّب أمل أخيها الحبيب. الآن أملت أن تجعل الأمر يبدو كما لو أن اعتراضات مستر فرسترايتن كانت موجودة في ذهنه وحده، ووجدت نفسها تتحداها بقوة وحماس. كم من المزعج أن تُضطر لقول أشياء لا تعنيها! بل إنها ربما قد تؤذي جورج عن طريق الدفاع عن قضيته بمثل تلك الحماسة، لكن بعد ذلك الفتي غارق في حبها، ومن يدري، ربما يكون على حق في النهاية! لم تكن عرافة، وعلى أي حال هناك الكثير من البيوت، التي تعتمد في معيشتها على دخل متواضع مثل بيوت موظفي الحكومة أو المتوظفين بوظيفة الملازم أول. شعرت بالحيرة والحماقة، لكن لم تكن هناك فرصة للعودة للوراء الآن.

في الوقت، الذي كانت تقف فيه بجانب جورج، غدت داخليًا غاضبة منه لأنه وضعها في هذا الموقف. لِمَ لا يمكنها أن ترفض أبدًا أي شيء يطلبه منها؟ ولِمَ كان عليها أن تكون شريكة في دماره؟

لكنها كانت وفية لكلمتها، ودافعت عن قضيته بنجاح لدرجة أن مدام فرسترايتن ذهبت لتُحضر لي لي، التي انفجرت في البكاء وأمطرت إيميلي

بالقبلات. تقرر إنه لن تكون هناك خِطْبة رسمية، لأن المدام لم تكن تؤيد الخِطْبات الطويلة- التي تمتد أحيانًا لسنوات، خصوصًا بين أولئك ذوي الموارد المالية المتواضعة- وأكدت إيميلي لـ لي لي أن إقامة اتحاد قلوب بمباركة والديها حل وسط ممتاز في ظل الظروف. على أي حال، الموضوع أفضل بهذا الشكل، أليس كذلك، لأنهما إذا وجدا بالمزيد من التعارف أنهما غير مناسبيْن لبعضهما في النهاية، لن يكون هناك أي ضرر، ومن ناحية أخرى إذا ازدهرت صداقتهما بمرور الوقت، حسنٌ، فهذا أفضل وأفضل. ينبغي عليها أن تنظر إلى الجانب المشرق، لماذا، لقد ربحت انتصارًا كبيرًا على والديها الصارميْن، فما الذي تريده أكثر من ذلك؟ الزواج على الفور- الاستقبال في الغد وحفل مدني وزفاف الكنيسة في يوم أو يومين وبعدها الانطلاق إلى حجرة عُلية صغيرة جدًا لتعيشي سعيدة إلى الأبد؟ بالتأكيد لا.

ابتسمت لي لي من خلال دموعها وقَبَّلَت والديها. كانوا يعرفون الأفضل بالنسبة لها، ولن تسير هى ضد رغباتهم.

* * *

دُعى جورج بعد ظهر ذلك اليوم لتناول العشاء، قضوا بعده مساءً سبتمبريًا رائعًا في الحديقة. كان الوقت متأخرًا عندما استأذن جورج بالانصراف، متأخرًا أيضًا عندما آوت ماري ولي لي إلى حجرتيهما وخلعتا ملابسهما. استمعت ماري بصبرٍ حنون إلى ثرثرة لي لي المتحمسة عن مستقبلها مع جورج؛ إنها ستحب السفر كثيرًا، ووظيفة جورج في السلك الدبلوماسي يعني أنهما لن يفعلا إلا ذلك- لاحقًا طبعًا، لاحقًا بكثير؛ كان عقلها مضبوطًا تمامًا على ذلك، ذلك أن كل ما قاله لها ألا تتخيل الكثير من الأوهام. أراحت ظهرها ومطَّت نفسها بشكل مريح بين الملاءات الباردة، وطَوَت ذراعيها خلف لبدتها الشعثاء من الشعر الأشقر الشاحب، وابتسمت لخيالاتها الوردية.

آوت ماري إلى الفراش أيضًا، وللحظة ساد الهدوء في الحجرة المظلمة. بعدها سُمِعَ طرقٌ على الباب، والذي فُتِحَ تقريبًا على الفور. رُوِّعَت الفتيات

فجأة.

«صهٍ صهٍ، هذا أنا فقط»، همس صوت مكتوم، وشاهدا شخصًا قصيرًا ومحنيًا يرتدي ملابس النوم ويحمل شمعة مضاءة، «صهٍ، لا بأس. لقد جئتُ فجأة للدردشة».

كانت دين الطيبة العزيزة، الشخص، الذي تتفاءل به عائلة فرسترايتن، والتي كانت تمد يد المساعدة دائمًا عندما كانوا ينظّمون المسرحيات أو اللوحات المفعمة بالحيوية والنشاط. اقتربت الثرثارة العزيزة، تطأ الأرض برقة بقدميها، التي ترتدي الشبشب فيهما، بينما ألقى ضوء الشموع وهجًا أصفر على الوجه المتغضن تحت رداء النوم الأبيض.

صاحت ماري: «يا الله يا دين! لقد أرعبتني بشكل رهيب! تبدين كأنكِ شبح!».

«شش! الجميع في فراشهم، لكنني ظننت أنكِ ربما لا تزالين مستيقظة. هل تسمحين لي بالدخول؟».

«طبعًا يا دين! ادخلي!»، قالت لي لي بمرح: «ما لديكِ لتُخبرينا به؟».

جلست دين على جانب سرير لي لي.

قالت، وهي تهز إصبعها لـــ لي لي، «صديقتكِ العزيزة دين قد تكبر في السن خلال سنوات، لكن هذا لا يعني أنني لا أنتبه عندما يكون هناك شيء ما يجري على قدم وساق، ولهذا قلت لنفسي: حريٌّ بي أن أركز في صميم هذا الأمر. أيتها النذلة الصغيرة!».

قالت لي لي: «لا أعرف ماذا تقصدين».

«خلاص يا غالية، لا يمكنك خداع صديقتكِ العزيزة دين! أتعتقدين بأنني لم أكن أعرف لِمَ تظاهرتِ بالبكاء بعد ظهيرة ذلك اليوم، ولِمَ بقيت الآنسة إيميلي في البيت الزجاجي لكلّ هذا الوقت الطويل؟ أنا أقوم بحساباتي بناء على الشواهد الموجودة»، استطردت بغمزة من عينها الغائرة، «والمؤكد أنه

حضر الساعة الخامسة والنصف وبقي للعشاء مرة أخرى!».

احتجت لي لي: «دين، أنتِ لا تعرفين ما الذي تتحدثين عنه!».

«أنتِ مخطئة، صديقتكِ العزيزة دين تعرف ما تعرف جيدًا بما فيه الكفاية، وأنتِ أيضًا، تعرفين ما الذي تنوين عمله».

«ماذا إذن؟».

«حسنٌ يا صغيرتي، أنتِ محقة تمامًا. إنه شاب يُوثق به إنْ كان هناك مَنْ يمكن الوثوق به. ذو وجه غاية في الطيبة والحنان، مع ذلك الشارب الأشقر الصغير والأنيق. يبدو أنه مناسب تمامًا لكِ، وأنتِ التي يُصعب إرضاؤكِ! يبدو كلاهما زوجًا وزوجة وسيمي الطلعة، أليس كذلك يا آنسة ماري؟».

تثاءبت ماري من تحت غطائها: «إنهما خُلِقا لبعضهما البعض!».

سألت لي لي: «إذن فأنتِ معجبة به، أليس كذلك؟».

أجابت دين: «إنه شاب رقيق جدًا! دائمًا مهذب للغاية معي ومع بِتْ، وعندما أسمح له بالدخول دائمًا ما يقول كلامًا طيبًا. يسألني: «كيف حالكِ اليوم يا دين؟ أو شيئًا من هذا القبيل. لا يتعامل باستعلاء أبدًا، ولا ينسى أبدًا أن يمسح قدميه أيضًا».

انفجرت لي لي في الضحك.

سألت دين: «هل قلتُ شيئًا خاطئًا يا آنسة؟».

«لا على الإطلاق! وأنا سعيدة للغاية أنكِ تستحسنينه».

«أراهن أنكِ مثارة جدًا لدرجة تحول بينكِ وبين الخلود إلى النوم الآن. في أثناء النهار أنا دائمًا مشغولة جدًا، وهذا هو الوقت المناسب بالضبط لشيء من حديث القلب للقلب. وربما تعطيكِ صديقتكِ العزيزة دين بعض النصائح، إيه؟ حسنٌ، كنتُ زوجة أيضًا، وصدقيني يا صغيرتي، الزواج نعمة ونقمة. آه نعم، كل شيء يبدو كحديقة ورود في البداية، لكن بعد ذلك يأتي الصغار وتأتي الهموم معهم. كان لديّ ثلاثة، أعني ثلاثة أطفال، وكم كان كفاحًا أن أربيهم!

سببوا لي الحزن أيضًا، لأن أحد أولادي توفي عندما كان في الرابعة عشرة، وكان الآخر مشاغبًا قليلاً حتى اشترك في الجيش الاستعماري مثل آخرين كثيرين. لكن ابنتي فتاة صالحة، وهي فرحة بالنسبة لي. أتعلمين أنها تزوجت خياطًا وذهبت للعيش في روتردام؟».

«نعم يا دين، أعرف».

«إذن أخبريني، متى تعتقدين أنكِ ستتزوجين رجلكِ الشاب؟».

«امم، لا أعرف حتى الآن. لكن ليس لفترة طويلة، ولا ينبغي لكِ أن تَنِمِّي حول هذا الموضوع، أتسمعين؟».

«لا، بالطبع لا! لن أحلم بأن أقول أي شيء، لكن بِتْ لاحظت أيضًا أن شيئًا ما سيحدث. هل ترين أنكِ سوف تنتظرين لعام؟».

«يوه، سنة على الأقل، لكن اذهبي الآن يا دين، اذهبي إلى فراشكِ».

«نعم يا عزيزتي، لكن كما ترين، عندما يأتي الصغار- سيكونون ذوي شعر أشقر، لأن كلاكما أشقر- سأترك خدمة ماما وأبقى معكِ، تمام؟».

«كمربية؟ ولكن أنتِ عجوز جدًا على هذا!».

«أتصدقين ذلك! إلباسهم وتحميمهم- يمكنكِ بسهولة أن تتركي كل ذلك لي».

قالت ماري: «حيلك حيلك يا دين، أرى أنكِ صرتِ جريئة بعض الشيء».

«ما الجريء في ذلك؟ يا إلهي، الوقت منتصف الليل بالفعل! لا بد أن أنصرف. فقط هناك شيء آخر يا آنسة ماري: دوركِ قادم. لن تتخلفي عن أختك الصغيرة لفترة طويلة للغاية، أليس كذلك؟».

قالت ماري: «سأبذل قصارى جهدي يا دين!».

«حسنٌ، أحلام سعيدة إذن، وأنتِ أيضًا يا عزيزتي لي لي، أحلام سعيدة برجلكِ الشاب. وأخبريه بأن دين ترى دائمًا أنه وسيم جدًا، بذلك الشارب

الأشقر الصغير. هل يمكنكِ أن تقولي له أنني قلتُ ذلك؟».

شدَّت لي لي شدة قوية مازحة على كتفها.

قهقهت لي لي: «نعم يا دين، سأقول له، لكن لم تكوني بحاجة لأن تجذبيني هكذا، آيْ! ليلة سعيدة يا دين، نومًا هانئًا».

«تصبحان على خير إذن يا أحبائي! اصمتا الآن، لا تضحكا وإلا سوف توقظان والديكما ... صهٍ صهٍ! أنا ذاهبة».

غمزت دين لهما مرة أخرى، وخرجت على أطراف أصابعها من الحجرة في وهج شمعتها الأصفر.

«دين العجوز المضحكة!»، قالت لي لي بضحكة مكتومة أخيرة، وهى ترقد مرة أخرى على وسادتها، شبه نائمة بالفعل. ساد الصمت مرة أخرى، واستلقت ماري في سكون تام وعيناها مفتوحتان، تحدقان في السقف في الظلام.

٢٢

ظلَّ فنسنت يشعر بالضعف الشديد، وأمره الدكتور راير بالبقاء في البيت خلال الأسابيع القليلة المقبلة، ذلك أنه كان هناك احتمال بأن يُصاب بنوبة إغماء أخرى من أدنى استفزاز. اتبع هذه النصيحة باخلاص، وهو ما أثنى عليه الطبيب من أجله، مضيفًا أن مستر فيره لو لَمْ يصبح عاقلاً جدًا في الآونة الأخيرة فلن يعود بين الأحياء، كما أشاد بفنسنت لاتباعه نمط حياة أكثر صحة عن طريق عدم التدخين، والشرب قليلاً، وأخذ أكبر قسط ممكن من الراحة في الجو المريح ببيت ابنة عمه. كان قلقه الوحيد الآن هو افتقاد المريض للشهية.

قضى فنسنت أيامه في مخدع إيلينه، ذلك أن بيتسي لم تتمكن من توفير حجرة الجلوس له. كان يجلس مرتاحًا على الأريكة الفارسية، يلف نفسه بدفء في روب دي شامبر تركي واسع- تذكار من أيامه المترفة في سميرنا. بجلده الشاحب، وعيونه الكليلة الباهتة، التي تشبه الخزف الأزرق المبلد، وشعره البني الفاتح القصير، استلقى تحت شجرة إيلينه الآراليا، وتحمل أصابعه المصابة بالأنيميا كتابًا لم يقرأ فيه سطرًا. شَعَر كما لو أن القدرة على التفكير قد اختفت من دماغه، أنه قد غرق في حالة غير مبررة من الهمود أقرب إلى الإرهاق، الذي تسببه مهمة من المجهود البدني الشاق. لم تَجُلْ بخاطره من آنٍ لآخر إلا الأفكار الطفولية التافهة فقط، كعدد كبير جدًا من فقاعات الصابون سريعة الزوال، وكانت مُتعه وخيبات أمله تافهة كذلك؛ شعر بالرضا عندما أثنى الدكتور راير على تقدمه، وبالكثير من الأسف على نفسه عندما تأخرت إيلينه دقيقتين، وهي تأتي له بوجبة الإفطار. فيما عدا ذلك لم يشعر بأي شيء، اضطجع ببساطة وأجال عينيه حول حجرة إيلينه، مستوعبًا جميع اللوحات، وأصص النخيل، ووفرة الحليّ والزخارف الصغيرة.

في الصباح كانت إيلينه تبقى في صحبته، تقرأ له أو تغني لُمَعًا من الأغاني بمصاحبة البيانو، جملة هنا وورلاد هناك، والتي كان فنسنت يستمع إليها كأنها حلم، تائهًا في مشهد غريب مفعمًا بروائح عطرية غير مألوفة وظلال صامتة، تحوم كلها معًا كما لو أنها في مشكالٍ من ألوان وعطور. ظلَّ في صمت متأمل، وإيلينه أيضًا لم تتكلم كثيرًا، مغمورة بشعور رومانسي بالرضا. أثناء سهرها الليالي بجوار فراش العمة فيره خَبِرَت تلك العاطفة المُرْضِية نفسها، والتي تنبع من التفاني ونكران الذات في رعاية شخص بحاجة إليها. زاد افتتانها بفنسنت، شعرت بالشفقة من أجله، وتلذذت بفرصة أن تتعهد بالرعاية المريض الهزيل في روبه التركي وشبشبه التركي.

كانت فترات بعد الظهيرة تُقضى عادةً في المنزل حتى الساعة الرابعة، وهو الوقت الذي يلتقي فيه أوتو بها ليذهبا للتمشية. كلما وَبَّخها برقة لعدم عنايتها بصحتها بما فيه الكفاية، ولمضايقة نفسها فوق الطاقة بشأن مرض فنسنت، كانت تنظر إليه وعيناها مغرورقتان بالدموع من عدم التصديق- كيف بمقدوره ألا يشعر بأعمق درجات التعاطف مع فنسنت المسكين المنبوذ جدًا والبائس جدًا وبالغ الرقة؟ تسببت كل هذه الهموم بأن تفقد الاهتمام بمناقشة التفاصيل المتعددة لجهازها مع بيتسي، بل إنها عَلَّقت في يومٍ ما بنظرة بعيدة في عينيها، كم سيكون شنيعًا أن يُقام حفل الزفاف في نوفمبرٍ لو أن كانت حياة فنسنت ما زالت في خطر وقتذاك. رفعت بيتسي كتفيها في تجاهل وأتت بالمزيد من كتالوجات المفروشات المنزلية وعينات من القماش الدمشقي والدانتيل، لكن إيلينه، لما وجدت أن التركيز بات مستحيلاً، عادت مرة أخرى إلى فنسنت الذي- هكذا توهمت- نظر لها نظرة عتاب لما دخلت الحجرة. لم يَعُد الحديث، الذي تجاذباه قبل أن يقع مغشيًا عليه إليها إلا مؤخرًا فقط، ليطلق العنان لسيلٍ من المشاعر في روحها. تذكرت أنها سألته ما إذا كان زواجها من أوتو مصيرًا مقدرًا سلفًا، ولم تستطع أن تقاوم التفكير أنه قد ينهار يأسًا، وأن سبب مرضه ربما يكون أنه يخفي ولعًا سريًا بها. في نهاية الأمر، لم يكن أبدًا قد

قضى وقتًا كثيرًا في لاهاي من قبل، كادت المدة تقترب من عامٍ حتى الآن، بينما في السابق لم يبق لأطول من بضعة أسابيع في المرة الواحدة. فنسنت المسكين! على الأقل كانت عنده لتعتني به ... فقط، ألم تكن ثمة خطورة أن ما تقدمه له من إسعافات قد يؤجج نيران حبه، حبًا قُدِّر له ألا يكون متبادلاً، نظرًا لأنها لا يمكن أن تحب إلا حبيبها أوتو؟

تَمَنَّت لو كان لها شخص يمكن أن تثق به لتودعه أسرارها، لكن الموضوع كان معقدًا جدًا، ولم تستطع أن تفكر فيمن يمكن أن تلجأ إليه. لأوتو؟ شعرت أن ذلك لن يكون لائقًا تمامًا، ولم تكن هناك جدوى من إخبار بيتسي، لأن رد فعلها سيكون كما تفعل دائمًا- من خلال سؤالها من أين تأتي إيلينه بأفكارها العبثية. مدام فان رات إذن؟

نعم، كانت تلك فكرة جيدة، مدام فان رات قادرة على تقديم المشورة لها. ستذهب لتزورها في المنزل صباح يوم ما وحدها دون أوتو، لكن بمجرد وجودها هناك، رأت من العسير للغاية أن تُعَبِّر بالكلمات عن شكوكها بشأن مشاعر فنسنت حيالها لدرجة أنها غادرت مرة أخرى دون أي ذكر للموضوع، مُعَزِّية نفسها بالفكرة المحزنة أن فنسنت قد يموت قبل زواجها هي وأوتو، وفي هذه الحالة سيسير رعايتها الحانية به بشكل أو بآخر نحو جعل أيامه الأخيرة أحلى.

بمرور الوقت عليها نمت قناعتها أن فنسنت كان واقعًا في حبها سرًا، وشعرت بأنها مغمورة بالشفقة حيال مريضها المسكين. سعادتها الهادئة، التي كانت تظن أنها مُحَصَّنة تمامًا بدأت تنزلق من قبضتها كطائر بري يعزم على الهرب، وتملَّك كيانها هياج عصبي، وهو ما لم تجرؤ أن تذكره لأوتو. يبدو أن تفكيرها بفنسنت يثير ضبابًا كثيفًا بينها وبين أوتو، وأصابتها فكرة ازدياد سُمْك ذلك الضباب أكثر فأكثر برعشات أسفل عمودها الفقري. بعد قضاء نصف اليوم بجانب فنسنت، يعصف بها القلق، تشتاق لرؤية أوتو مرة أخرى، التي كانت تأمل تحت تأثيره المهدئ أن تستعيد رباطة جأشها. وصل بعد الساعة الرابعة

قليلاً؛ ذهبا للنزهة؛ بقي لتناول العشاء؛ قضى كلاهما الوقت معًا، بعدها، عندما غادر الساعة الحادية عشر والنصف وآوت هى إلى حجرة نومها، تصبح على وشك البكاء عندما تدرك أن صحبته لم يعد لديها نفس التأثير المهدئ، كما كان من قبل. بالعكس، بات هدوؤه ربما مثيرًا لغيظها بين الحين والآخر؛ واعتبرته علامة على اللامبالاة، والتي وجدتها كريهة بصورة متزايدة، خاصة عندما تقارنه بفنسنت الحساس، المنكوب بالكآبة والأسى. حتى طريقة أوتو العادية في الكلام، والتي قد اكتشفت فيها مؤخرًا فقط ثروة كبيرة من الحب، باتت تثير غيظها وضيقها الآن ... ألم يمر أبدًا بفورة من شعور حيال أي شيء ... أي شيء على الإطلاق؟ أيظل دائمًا هادئًا جدًا، متبلد الحس جدًا، معتدل المزاج جدًا إلى الأبد؟ ألم يعرف أبدًا عذاب المشاعر المتصارعة؟ ألا يوجد شيء يمكن أن يهزه ويخرجه عن سكونه الهادئ، والذي بدا لها تقريبًا كالخمول... آه نعم، كان طيبًا وودودًا لا بأس، لكن مشاعره لم يبدُ أنها كانت عميقة للغاية؛ ربما لم يدل هدوؤه على أي شيء سوى الأنانية، ربما كان ببساطة لا يشعر بمعاناة الآخرين! وفيما يتعلق بها، كان فنسنت تجسيدًا للمعاناة الإنسانية...

أفكار كهذه جعلت إيلينه تشعر بأنها تعيسة تمامًا. يا الله، ظهر أولئك الأشباح مرة أخرى ... ها هم هنا، أشرار وينظرون شزرًا، لا اختلاف بينهم وبين الشبح، الذي ظهر لها فجأة تمامًا أثناء حديثها مع فنسنت! لا، لن تسمح لهم بأن يتغلبوا عليها، فسوف تصرفهم بعيدًا! لكنهم ظلوا يعودون، واحدًا تلو الآخر، لإثباط روحها بالشكوك، ولملمت نفسها لمصارعتهم. أجبرت نفسها على أن تتذكر المشاعر الحلوة، التي قد عرفتها خلال تلك الأيام الأسطورية في دي هورسه لتعيش مرة أخرى تلك السعادة الرقيقة، ذلك السديم الأزرق من الانتشاء ... لكن السعادة والانتشاء اختفيا! وبعد ذلك، وفي ليلة من الليالي أثناء استلقائها في السرير، وهى تحدق بعينين مفتوحتين في الظلام الساكن، غير قادرة على النوم، واجهت الواقع القاسي بخسارتها، وانفجرت في بكاء ونشيج مؤلم وجامح، متشبثة بوسادتها كما لو كانت الوسادة سعادتها نفسها، كما لو

كانت الطائر، الذي يكافح للهروب من قبضتها. حركت رأسها من جانب إلى آخر ... لا، لا، لم تكن تريد هذا! تريد أن تكون سعيدة بالشكل، الذي كانت عليه، أرادت أن تحب أوتو الشكل الذي أحبته به حينذاك، في أيكة أشجار الصنوبر! يا الله، أكان من الممكن أنها لم تعد تحبه؟ لم يكن هذا يخطر على بال، هذا غير ممكن، إنها لن تسمح بذلك، سوف تستدعي كل الثبات والجَلَد في إرادتها لتستمر في حبه كما كانت من قبل، سوف تتشبث به كما تشبثت الآن بوسادتها، ولن ينجح شبحٌ شَبِق أبدًا لدقّ إسفين بينهما ليفرقهما ... ولما كانت تستمع إلى الصمت في المنزل، استطاعت أن تميّز صوت الساعة الكبيرة المعدني المُلِحّ يدق في المطبخ بالطابق السفلي، يدق ويدق، وتملكها خوف مميت ... الخوف من أن سعادتها لن تسمح لنفسها بأن تُضطر للعودة مرة أخرى إلى روحها، الخوف من أن هناك قوى خفية تدفعها إلى أسفل منحدر سحيق، بينما كان كل ما أردته يرتفع إلى أعلى وأعلى ... ثم استحال ألمها المبرح فورة غضب، غضبٌ لأنها كانت تهاجمها أفكار لا ترغب في التفكير فيها مطلقًا، ولأنها شعرت بأنها أضعف من أن تستدير وتحارب تلك القوى الخفية.

***

عندما استيقظت إيلينه صباح اليوم التالي شعرت بأنها هادئة نسبيًا. كانت مُتْعَبة، وأصابها صداع خفيف، إلا أن رعب الليلة الماضية تلاشى ليتحول إلى حلم مزعج لم يكن لديها الرغبة في تذكره، ناهيك عن التأمل فيه. لاحقًا، سوف تصبح نَفْسَها القديمة مرة أخرى، لن تسمح لنفسها أبدًا بالتفكير في مثل هذه الأفكار الكابوسية مرة أخرى، والتي لا تأتيها إلا لتُلْقِيَ بها في قاع حفرة لا قرار لها من البؤس، لأنها لم تستطع النوم. كان ذلك كل ما في الأمر- لم تكن على ما يُرام، كانت تعاني من صعوبة في النوم، كان ذلك دائمًا في أثناء تلك الليالي المؤرقة عندما يكون كل شيء هادئًا كالقبر تأتيها تلك الأفكار المفزعة لتعذبها. قررت استشارة الدكتور راير بشأن أرقها، ياه، كم شعرت بأنها أفضل كثيرًا بالفعل، لما رأت ضوء النهار الشاحب آتيًا من خلال شقٍ في الستائر. استيقظت

من سريرها مبكرًا، ولعبت قليلاً بمرح ونشاط مع بِنْ بالطابق السفلي، وأخذت لفنسنت قرص خبزه الصباحي ومشروب الشوكولاته الساخنة كالعادة- وهى مهمة لا تثق أبدًا بأن تعهدها إلى مينا- وجلست مع بيتسي ليمرّا سريعًا على الكتالوجات وعينات الأقمشة مرة أخرى. بحثت المزايا النسبية لمفارش ومناديل المائدة الناعمة، وأُفتتنت كثيرًا بطاقم أغطية وسائد مزخرفة بالحروف بأناقة وأسعاره معقولة جدًا في متجر اللوفر، وذَكَّرَت بيتسي أنه من الآن فصاعدًا عليها أن تحرص على ألا تصرف كثيرًا، لكن ياه، كم بدت مناشف الشاي تلك جذابة في الكتالوج الآخر!

في الوقت، الذي حافظت فيه على ثرثرتها المشرقة كان هناك، داخلها، رقعة من كآبة، كركام الطين الأسود في قاع بحيرة زرقاء رائقة بشكل جليّ، لكنها فعلت ما بوسعها لتجاهلها، وطوال مناقشتهما لم تلحظ بيتسي شيئًا غير عادي في تصرفاتها، ثم توجهت إيلينه إلى الطابق العلوي، وأخذت مظروفًا كبيرًا كان قد سُلِّمَ لفنسنت.

كان مرتديًا روبه الدي شامبر التركي كالمعتاد، مضطجعًا على الأريكة. إلا أن حالته كانت تتحسن، بل إن الدكتور راير قال إن بإمكانه القيام بتمشية قصيرة، لكن راحته صارت محببة إليه، ورَدَّ قائلاً إنه لا يشعر بَعْدُ أنه قادر على ذلك، عندما دخلت إيلينه أومأ رأسه بدماثة؛ راقه أنها مكرسة تمامًا للسهر على راحته، وأضفى شعوره بالامتنان على عينيه الكليلتين بريقًا ودودًا، فهمته إيلينه خطأً على أنه حب.

سلمته الرسالة، وسألته عن صحته.

«الشكر للرب؛ أتحسن على ما أظن»، أجاب بفتور، ثم جلس في وضع مستقيم ومَزَّق المظروف ليفتحه، وكانت إيلينه تريد الجلوس على البيانو.

سمعت فنسنت يهتف، بفرح تقريبًا، «آه، أخيرًا!».

رمقته بنظرة تساؤل. انزلقت صورة فوتوغرافية لشخصٍ من المظروف على

الأرض، وانحنت لإعادتها إليه.

قال فنسنت، وهو يجول بعينيه على محتواها، «إنها من نيويورك، رسالة من لورنس سانت كلير! لقد وجد شيئًا لي على ما يبدو. يبدو أن هناك وظيفة شاغرة في الشركة التجارية، التي ينتمي إليها».

ذُهِلَت إيلينه؛ تفحصت الصورة، والتي عانت من بعض التلف في البريد.

سألت: «حسنٌ، ما رأيك؟».

«بماذا؟».

«ماذا تظن أنك ستفعل؟».

قال: «سأسافر وقتما أشعر بأنني تحسنت»، وأضاف بحزن: ««ولكن ذلك لن يكون لفترة طويلة فترة من الوقت».

«السفر إلى أمريكا، تقصد؟».

«نعم، بالطبع».

«هل ستسعد بالسفر، بمجرد أن تشعر بتحسن؟».

«طبعًا. ليس هناك مبرر كبير للبقاء هنا، هناك، الآن أستطيع أن أحصل على عمل».

دون أن يلقي بالاً أو يكاد لما قاله، اتكأ بظهره على الوسائد الفارسية، وطفت وفرة من المشاهد الملونة الزاهية إلى ذهنه. تذكر حياته السابقة المتغيرة دائمًا، التي تعج بوجهات نظر وآفاق متغيرة باستمرار. التنوع هو الحياة نفسها، التنوع سيجعله أفضل، سيجعله شابًا مرة أخرى. تذكر صديقه، رجل جميل في الخِلْقة والخُلُق، والرجل الوحيد، الذي منحه الشعور بأن الحياة فيها أكثر من التعب والملل الدنيوي.

إلا أن إيلينه شعرت بأنها مملوءة بالشفقة على فنسنت.

لم يكن إلا طبيعيًا أنه سيرغب في مغادرة البلاد، ليكون بعيدًا تماماً بحلول

الوقت، الذي سيقام فيه زفافها، بحيث ينأى بنفسه عن عذاب حضوره. لا عجب أنه اقتنص الفرصة، حقًا ... من الواضح أنه يحبها، وهو ما جعله يُعاني!

كانت لا تزال تحمل الصورة في يديها.

سألته، وهي على وشك البكاء بسبب الألم، الذي ظنت أنه يمر به، «هل هذا سانت كلير؟».

«نعم»، أجاب، وهو يأخذها منها. «تصويرة رائعة! الصورة تبينه كما هو: منفتح، وشريف، ومليء بالحياة وروح الدعابة».

«هل هو داكن أو فاتح البشرة؟».

«شعره بني مصفر، وكذلك لحيته. جذاب، أليس كذلك؟».

«نعم، إنه وسيم. لكن يا فنسنت ...».

«ماذا؟».

«فنسنت، هل أنت متأكد؟ لماذا لا تفكر مليًا في الأمر؟ لا تزال ضعيفًا جدًا، ويمكن أن تنتكس. الأفضل أن تأخذ رأي راير أولاً».

تساءل مبتسمًا: «عزيزتي إيلي، أنا نفس الشخص، كما كنت دائمًا؛ لم تكن صحتي قوية أبدًا، وإلى جانب ذلك، من سوف يُعيلني إذا بقيت هنا- لستِ أنتِ، بالتأكيد؟».

بالنسبة لها بدت ابتسامته حزينة، ولامت نفسها لمحاولة إثنائه عن قراره. لا، كان على حق تمامًا في أن يسافر، لكن من ناحية أخرى، شيء ما قد يحدث، شيء من شأنه قلب كل شيء رأسًا على عقب، بحيث لن يكون بحاجة للمغادرة، أو على الأقل ليس بهذا الشكل. دار رأسها، لم تعد تعرف ما الذي تريده أن يفعله، وانقبضت من مواصلة التفكير في الفكرة، التي دخلت الآن إلى عقلها. سيكون الأمر شنيعًا جدًا. شنيعًا بما لا يُحتمل بالنسبة لأوتو، وشنيعًا بما لا يُحتمل بالنسبة لها أيضًا.

ظلَّ فنسنت في حالة معنوية جيدة بشكل ملحوظ طوال فترة بعد الظهيرة،

وعندما قام راير بالزيارة نصح المريض بألا يُعَرِّض نفسه للإثارة كثيرًا. أما بالنسبة لأمريكا- ربما يمكنه السفر في وقت لاحق، لكن في الوقت الراهن السفر خارج المناقشة. في هذه الفترة المؤقتة يمكن لمستر فيره أن يقوم بنزهة قصيرة أو الركوب في العربة لفترة وجيزة في البداية، مع الوضع في الاعتبار اعتدال الطقس تمامًا.

طلبت بيتسي فورًا العربة اللّندوية لتأتي الساعة الثانية والنصف، وانطلقوا ذاهبين: فنسنت وهى وإيلينه. في الضوء الزاهي بالخارج صُدِمَت إيلينه لما رأت كيف كانت بشرة فنسنت رمادية فوق الفولار الحريري الأبيض الملفوف حول عنقه، وكم بدا كليلاً وضعيفًا، وهو يرتدي قبعته اللامعة الربيعية الأنيقة ذات اللون البني المحمر الداكن. اتكأ متيبسًا على الوسائد، وظلَّ ساكنًا تمامًا، مُريحًا يديه اللتين يرتدي القفازات فيهما على مقبض عصاه الخيزران الفضي. شعر بدوار في رأسه، بل إنه مترنح قليلاً، ولولا أنه كان جالسًا لسقط مغشيًا عليه من تأثير الأكسجين، الذي ملأ رئتيه. شعر بحرقان في عينيه، لذا أغلقهما للحظة، بينما نبضت أذناه وظلَّت عجلات العربة تدور في دماغه، لكن أصبح معتادًا بالتدريج على الهواء البارد النقي وعلى المشاهد الواسعة، التي تتكشف أمام عينيه عند كل منعطف في الطريق، وصار تنفسه عميقًا ومنتظمًا. شعر بأنه انتعش قليلاً، وأن أعصابه استردت بعض القوة.

عملت إيلينه ما في وسعها للتحدث بشكل مرح، موجهة الحديث له ولبيتسي بالتناوب، وبعد عودتهم بعد ساعة أو نحوها، ساعدت فنسنت على الترجل من العربة وأخذته من ذراعه لتصحبه إلى الطابق العلوي إلى حجرة جلوسها. ساعدته على خلع معطفه، بعد ذلك ألقى بنفسه على الأريكة، منهكًا تمامًا من النزهة. طلب منها أن تتركه لوحده لبعض الوقت، لأنه كان يرغب في أخذ قيلولة.

أعطت بيتسي التعليمات للخدم أنها سوف تستقبل ضيوفًا، وفي الوقت المناسب وصل العديد من الزوار: مدام إيخوف ترافقها آنجه وليوني، مدام

هوفل والفتى هايدريخت. كان هِنْك قد ذهب إلى ناديه، إلا أن إيلينه انضمت إلى الصحبة في ضوء الصالون المُخَفَّف، وحاليًا ظهر أوتو أيضًا، وعندما دخل الحجرة لم تشعر إيلينه بحماس الدفء والرضا، الذي كان ظهوره يسببه عادةً، لكن بلامبالاة باردة كالجليد. يا الله، كيف يمكن لهذا أن يكون؟ كيف يمكن أن يتحول كل ذلك الدفء فجأة إلى جليد؟ لم تكن تعرف، لكن الأمر كان كذلك، وكانت عاجزة عن تغييره. أومأت له برأسها بلطف ومدت يدها، وشعرت بوخز الضمير، وهي تقوم بذلك، وتمسكت به بينما استمرت تخبر هايدريخت عن المغنية الرقيقة الجديدة بالأوبرا. لم تستطع تحمّل النظر إلى أوتو، كل ما استطاعت القيام به أن تمسك بيده وتواصل الثرثرة بكلام فارغ. بالكاد سمعت ما قاله هايدريخت ردًا عليها، لأن قلبها امتلأ عن آخره بالشفقة على أوتو ... كان واقفًا هناك بجانبها، يده في يدها، تمكنت من الشعور بنظرته الرقيقة العطوفة محدقة بها، وأنفاسه تنفش شعرها تقريبًا بينما مال على ظهر كرسيها؛ ها هو ذا، يشع عشقًا، بينما هي ... شعرت بأنها باردة كالثلج! لا، لا، هذا لا يمكن، لن تسمح بذلك، ستجبر نفسها ... أشفقت عليه كثيرًا ... فهو يحبها كثيرًا ...

«نيلي، صغيرتي العزيزة، ما الأمر؟»، غمغم بينما نهض هايدريخت والسيدات واقفات. كان بإمكانه أن يحس بضغط أصابعها العصبي على يده.

«أنا؟ بي؟ لا شيء، صداع خفيف هذا كل شيء»، قالت بتردد، وهي تواجهه للمرة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم. حدَّق في عينيها، وشعرت بالحاجة لإلقاء نفسها بين ذراعيه، بأن تحتضنه حضنًا قويًا جدًا وألا تتركه مرة أخرى ...

بدلاً من ذلك، ابتسمت وصافحت مدام إيخوف أولاً، ثم آنجه.

فكرت في يأس: «هل هناك شيء يمكن القيام به؟ هل زال تمامًا؟».

كان لديهما بضع دقائق وحدهما قبل العشاء.

سأل بلهفة: «نيلي، يا أعز الناس، هل أنتِ متأكدة أنك بخير؟ يدك باردة

جدًا».

«أشعر بأنني محمومة قليلاً. ذهبنا بالعربة بعد ظهيرة اليوم، في العربة اللّندوية المفتوحة مع فنسنت ... لا أستطيع أن أتخيل لِمَ أوصى راير بذلك. أعتقد بأن الجو كان باردًا، باردًا لدرجة التجمد».

«لنأمل أنكِ لم تصابي بأي شيء».

«لا، سوف تمر، أنا متأكدة».

ابتسمت له ابتسامة ضعيفة، وفجأة، وفي موجة من المعاناة اليائسة، ألقت بذراعيها حوله.

«كم جميل منك أن تكون مهتمًا للغاية بي»، همست، وانطلق صوتها. «أنت طيب جدًا ... أنا أحبك كثيرًا. أحبك جدًا، جدًا ...».

***

لم يكن فنسنت يشعر بَعْدُ بأنه معافى بما يكفي لأن ينضم إليهم لتناول الغداء ذلك اليوم. أخبرت بيتسي أوتو عن الرسالة، التي وصلت بأخبار من وظيفة لفنسنت في نيويورك.

«ومتى يفكر في السفر؟».

«بمجرد أن يتعافى مرة أخرى. الحمد لله أننا سوف نتخلص منه».

لم تستطع إيلينه أن تتمالك نفسها.

«يقول راير إن عليه ألا يفكر في السفر في الأسابيع القليلة القادمة!»، قالت بحدة، وهى تحملق غاضبة في بيتسي، «لكنكِ -».

«ماذا؟».

«لولا اللياقة لكنتِ ألقيتِ به في الشارع اليوم، وهو مريض كما هو!».

«إن استطعت، نعم، بالتأكيد سأفعل. واسمحي لي أن أقولها لكِ مرة واحدة فقط: أنا لن أسمح له أبدًا بالبقاء مرة أخرى. لم أرَ في حياتي شخصًا يقيم أكثر

من مدة ضيافته كهذا!».

صاحت إيلينه، وهى ترتعش غضبًا، «ولكن يا بيتسي، هو يموت من الناحية العملية!».

«لا تكوني سخيفة!».

صرخت: «سخيفة؟ ألا ترين كم يبدو عليلاً؟».

«يوه من فضلكِ يا إيلينه، كفى مماحكة بشأن فنسنت. فهو لا يستحق ذلك. أنتِ أصبحتِ ميلودرامية؛ توقفي عن إثارة مثل هذه الضجة».

«آه حاضر – لا تثيري ضجة – هذا ما تقولينه دائمًا عندما يبدي أي شخص أقل قدر من المشاعر! لكنكِ- ببساطة بلا قلب!».

غمغم أوتو: «إيلينه!».

دخل خيرارد، وهو يحمل طبق اللحوم. ساد صمت مؤلم.

«لقد نسيت مرق اللحم»، خيرارد، قاطعت بيتسي، وانسحب الخادم.

«أنتِ – حقًا، أنتِ ستدوسين على أي شخص يتصادف وجوده بأقل شكل في طريقكِ! لن تتحملي أدنى عناء لأجل أي إنسان آخر! أنتِ أنانية صريحة! لا تفكرين في أي أحد إلا نفسكِ، ولا حتى تفهمين أن كل الناس ليسوا في مثل لؤمكِ، و–».

«إيلينه!»، احتج أوتو، ملقيًا نظرة خاطفة على الباب مع دخول خيرارد بصينية المرق.

«يووه، توقف عن مناداتي بإيلينه، إيلينه! إلامَ يُوصلني هذا الرجل!».

انفجرت إيلينه، وتحولت إلى الفرنسية حتى لا يفهم الخادم. «لا يهمني ما الذي يظنه! بيتسي لن ترى ذلك الأمر، لكني أؤكد لكم أن فنسنت يحتضر. نام في حجرتي، شاحب اللون تمامًا كورقة بيضاء، ومنهك تمامًا بسبب تلك الرحلة الغبية بالعربة التي أوصى بها الدكتور راير؛ ولن أسمح لكما بأن تتهماه

بأنه أخرق أو أي شيء من هذا. لو لم يكن مريضًا جدًا فأنا متأكدة تمامًا أنه ما كان ليبقى أبدًا هنا كل هذا الوقت».

تحدثت بحماس، وعيونها تشتعل نارًا، واندفعت الكلمات من شفتيها بحدة متعالية وشائكة كالإبر الحادة.

كانت بيتسي تغلي غضبًا لأنها انتظرت من خيرارد أن ينصرف، لكنها لم تَقُلْ شيئًا. وخرجت من هِنْك تنهيدة غير إرادية.

قال أوتو: «نيلي يا حبيبتي، ليس لدي شيء ضد فنسنت، وليس لدي أي تعاطف خاص معه كذلك، لكنني لا أستطيع أن أقول إنني سأحزن عندما أراه يسافر، لأنه –».

قاطعته: «لستَ أنت أيضًا؟».

تابع قوله، وهو يقبض على يدها الباردة كالثلج، «هل لي أن أنهي كلامي؟ أعني أنني سأسعد أن أراه يسافر إذا استمر وجوده في هذا البيت في مضايقتكِ بالقدر، الذي أدى إليه اليوم. أنتِ لا تعرفين ما الذي تقولينه يا نيلي أو كيف بدوتِ».

استفزتها كلماته الهادئة.

«وأنت– أنت هادئ دائمًا، لا تنفعل مطلقًا بشأن أي شيء، أليس كذلك؟»، انفجرت، وهي تصرخ تقريبًا. هبَّت واقفة، ورمت منديلها على الطاولة، «هذا يدفعني إلى الجنون، كل ذلك الهدوء! يا ربي، يدفعني إلى الجنون! بيتسي تدفعني إلى الجنون بأنانيتها، وأنت بهدوئك، نعم، هدوئك! لا أستطيع تحمله أكثر من ذلك! أنت تخنقني!».

صاح أوتو: «إيلينه!».

هبَّ واقفًا بدوره، وأمسك بكلا معصميها وحَدَّق في عينيها. كانت تتوقع رد فعل مروع ودراماتيكي، أنه سيلقي بها على الأرض، أو يصفعها، لكن كل ما فعله أنه هزَّ رأسه ببطء من جانب إلى آخر، وبلهجة أسى عميق قال ببساطة:

«إيلينه، عيب عليكِ!».

قالت، وهي تستشيط غضبًا، «يا إلهي! أنا، أنا سأُجَنّ!»، ثم نزعت نفسها بعيدًا عن قبضته، وهي تنتفض بالبكاء، وهرعت للخروج من الحجرة، محطمة العديد من كؤوس النبيذ على الأرض أثناء خروجها.

***

همت بيتسي في الركض وراء إيلينه، لكن أوتو حجزها.

«أتوسل إليكِ، فقط دعيها وشأنها!».

قفز هِنْك أيضًا، وعندما دخل خيرارد مرة أخرى شعر ثلاثتهم بالحرج البالغ بسبب انقطاع عشائهم والكؤوس المكسورة.

قالت بيتسي، معتذرة تقريبًا، «ليس هناك داعٍ، لا داعٍ يا خيرارد، الأفضل أن تُزيل ما على المائدة الآن».

لم يكونوا يعرفون إلى أين ينظرون، حيث أن الخادم، رغم كل تواضعه الكريم، لا بد أن خطر بباله أنها كانت هناك مشاجرة.

في تلك الأثناء هرعت إيلينه إلى الطابق العلوي، واندفعت إلى مخدعها، أُجفلت لرؤية فنسنت، لأنها نسيت أنه كان هناك. نكصت ووقفت بالمدخل للحظة، في حيرة بشكل أو بآخر. كان فنسنت لا يزال غافيًا؛ واستقرت صينية الغداء دون أن تمسها يدٌ على الطاولة الجانبية بجوار الأريكة. منظره، وهو نائم منح إيلينه إحساسًا بالراحة الرومانسية القاسية لأنها هبّت للدفاع عنه، لأنها وقفت بجانبه ضد بيتسي، وضد أوتو ... ولمّا لم ترغب في إيقاظه إلى الآن، تسللت إلى حجرة نومها، أغلقت الباب وراءها بلا صوت، وألقت بنفسها على سريرها. توقف نحيبها فجأة، وما أثار ذعرها أنها وجدت نفسها غير قادرة على البكاء. هدأت عزلة حجرتها وهدوء أعصابها المحتدة، رغم أنها لم تستطع تذكر الكلمات، التي تفوهت بالضبط، عرفت بأنها قالت أبشع الأشياء، خاصة لأوتو. لماذا؟ لماذا انفجرت فيه هكذا؟ أكان ذلك بسبب فنسنت؟ بسبب تواضع

أوتو المستفز؟ لم تعد تعلم السبب؛ كان عقلها في اضطراب كامل، وألقت برأسها من جانب إلى آخر على وسادتها في محاولة للتخلص من ارتباكها. فكرت نعم، لا بد أن ذلك كان بسبب فنسنت، الذي ليس لديه أي أحد في العالم كله سواها وصديقه ذاك، الذي يعيش بعيدًا في نيويورك. شعرت بالأسف له، لكن بعد ذلك، ألم تشعر بالأسف لأوتو أكثر؟ أكانت تقصد بالفعل البوح بما يدور في عقلها بمثل هذه الحدة والعنف؟ ألم يكن ذلك بمحض إرادتها؟ نفس الإرادة التي حاولت إجبار نفسها بها على أن تستمر في حب أوتو، لأنها كانت تعلم أنها سوف تتسبب في تعاسته وتعاستها إن لم تفعل ذلك؟ هناك في دي هورسه- كم بدا ذلك منذ فترة طويلة! لم تشعر مطلقًا بأدنى اختلاف في رأيها في أوتو، والآن هذا! لقد أهانته في وجهه ... يا ربي، لماذا؟ ما الذي جعلها تفعل ذلك؟ هل سيعتبر فنسنت هذه مجرد نتيجة حتمية أخرى لسلسلة كاملة من الحتميات المترابطة الأخرى؟ لذلك ما الحياة إذن؟ وما الإنسان؟ دمية عاجزة يلعب القدر بخيوطها؟ كانت متأكدة أنها حاولت بكل قواها أن تتغير، لكنها كانت ببساطة أضعف من أن تواجه القدر، الذي سيطر على وجودها، والآن، الآن وصلت إلى إدراك أنه انتهى كل شيء! لقد خسرت، وليس لديها خيار سوى الاعتراف بالهزيمة.

ببطء بدأت في البكاء، وشعرت بالارتياح حينما شعرت بالدموع ترطب خديها؛ طَفِقَت تنتحب كما ينبغي أيضًا، رغم أنه لم يكن بصوت عالٍ للغاية... من الأفضل ألا تجعل فنسنت يلاحظ. هبط الظلام؛ آه، يمكنها أن تسمعه يتحرك هنا وهناك في الحجرة المجاورة، حيث كان جليًا أنه أضاء القنديل لأنها تمكنت من رؤية شريط من الضوء من تحت الباب، لكنها ظلَّت كما كانت، مستلقية بكسلٍ على سريرها، وهي تنتحب بصورة مثيرة للشفقة.

* * *

كان أوتو جالسًا في الصالون يحدق في الأرضية عندما دخل هِنْك.

ارتبك هِنْك حينما لاحظ بريقًا من دموع في عينيّ أوتو.

قال، وهو يضع يده على كتف أوتو، «أوه، فان إرليفورت!».

رفع أوتو رأسه.

«فان إرليفورت! هيا أيها الشاب العزيز، كن رجلا! أعلم أن الدخول في مشادة مع أختي ليس سهلاً على الإطلاق، لكنها ليست رديئة من الداخل! يجب ألا تعبأ بما قالته، أتسمعني؟ كانت غاضبة فقط من بيتسي لأنها معجبة بفنسنت إلى حد ما، وتصادف أنك تحملت وطأة غضبها. عليك بتجاهل الأمر، هذا سيكون أفضل عقاب بالنسبة لها».

لم يستجب أوتو وبقي مسترخيًا في مقعده، وأصابه الشك بالكرب الشديد لدرجة تعذر على مواساة هِنْك أن تسكنه. تذكر الوقت الذي أخبر فيه إيلينه بأن لديها عيبًا واحدًا، وهو افتقارها لمعرفتها بنفسها، وأن لديها كنوزًا مخفية ترقد داخلها والتي سوف يساعدها على إخراجها، لكنه الآن رأى بجلاء تام أنه لن يكون في وسعه القيام بذلك، وأن كل ما استطاع أن يثيره فيها هو استفزازها ... وأنه كان يدفعها إلى الجنون ... ويخنقها.

«يمكنها أن تكون صعبة المراس بصورة محيرة عندما تدخل في نوبة غضب»، استطرد هِنْك، وهو يستشيط غضبًا من داخله بينما ذرع الصالون محاولاً التفكير في أشياء مريحة ليقولها. «لكن عندما تكون مع شخص تحبه وتحترمه دائمًا ما ترى سببًا في نهاية المطاف، وبعد ذلك ... أقول، أيجب أن أذهب وأتحدث معها؟».

أجاب أوتو بصعوبة: «أعتقد بأنه ينبغي أن تترك وحدها. سوف تستعيد وعيها، إذا مُنِحَت بعض الوقت».

حاول أن يتخيل نفسه في مكانها ليخمن ما كان عليه شعورها في هذه اللحظة، لكنه وجد نفسه مذهولاً لدرجة أنه غير قادر على تتبع أي خيط لفكر منطقي. لم يسمعها مطلقًا تستخدم هذا النوع من اللغة من قبل، لم يعهد عليها مطلقًا الصياح أو الصراخ، لم يرَ مطلقًا وجهها ملويًا هكذا بمثل ذلك الغضب

البشع. ومع محاولاته، عجز عن استجماع منطقه بسبب الألم، الذي كان يعتصر قلبه.

لم يستطع هِنْك أن يتحمل رؤيته هكذا، محنيًا ويائسًا، وفجأة رأى نفسه مدفوعًا إلى اتخاذ رد فعل. كان يُكِنُّ احترامًا كبيرًا لأوتو، وكان خطأ لا يُغتفر من إيلينه أن تعامله بمثل هذا الازدراء؛ لا في الواقع، لن يسمح لها بأن تفلت من العقاب، وبقوة جديدة أسرع خارجًا من الصالون، وفي منتصف الطريق عند الدَّرَج التقى بيتسي، التي كانت في طريقه للنزول.

سأل: «أين إيلينه؟».

حملقت بيتسي في وجهه، وفاجأتها لهجته الحازمة.

قالت بشكل جاف: «لا أعرف».

واصل هِنْك صعود الدَّرَج، ودخل مخدع إيلينه. لما لم يجد أحدًا هناك، افترض أن فنسنت كان مُتْعَبًا بعد خروجه القصير خارج البيت، وأنه أوى إلى الفراش، ناسيًا الشجار، الذي جرى بالطابق السفلي. طَرَق هِنْك باب حجرة نوم إيلينه.

نادى: «إيلينه!».

لم يُجِبْ أحد، ودفع الباب ليفتحه. في الحجرة شبه المضاءة رأى إيلينه ملقاة على الأرض، قوامها النحيل يهتز ببكاء مخنوق، ووجهها مخبأ في يديها. توقف للحظة عند عتبة الباب، لكنها لم تتحرك.

قال بحزم، بلهجة آمرة تقريبًا، «انهضي يا إيلينه!».

عند سماعها لذلك اعتدلت بحركة عنيفة مفاجئة.

صرخت: «ماذا تريد؟ ماذا تفعل في حجرتي؟ اذهب!».

«انهضي».

«لا أنا لن أنهض! فقط اذهب، ممكن؟ اذهب، دعني وشأني!».

انحنى، يندفع الدم في وجهه من الانفعال، وأمسك بها بقسوة من معصميها بما جعلها تصيح من شدة الألم.

«اللعنة! انهضي!»، قال بحدة، وهو في قمة الغضب تقريبًا، وقبض على ذراعيها ليسحبها لتنهض بالقوة.

لما صُدمت لدرجة الخضوع بعدما سمعته يسب، ولونه المتغير ووجهه الأحمر وعينيه الوامضتين وصوته الأجش، سمحت له بأن يجعلها تنهض واقفة على قدميها.

«ماذا تريد؟»، سألت مرة أخرى، لكن بهدوء أكثر الآن، وبلمسة من استكبار.

«سأقول لك ما أريد. أريدكِ أن تذهبي فورًا- فورًا، أتسمعين- وتطلبي من فان إرليفورت أن يغفر لكِ. قد لا تتذكرين كل الأشياء، التي قلتها عندما فقدتِ صوابكِ، لكنكِ أسأتِ إليه إساءة عميقة، عميقة جدًا. اذهبي إلى الطابق السفلي حالاً!».

حدقت فيه فاغرة الفم، منكمشة من لهجته الآمرة وجسمه قوي البنية، الذي لاح لها بشكل مخيف، وهو يأخذها ناحية الباب.

«ستجدينه في الطابق السفلي في الصالون. اذهبي!».

«لا أنا لن أذهب!»، صرخت، وهي ترتجف لكنها لا تزال في جرأتها.

«إذا لم تذهبي سأجركِ إلى الطابق السفلي، وأجعلك تركعين على ركبتيكِ له! أنا أعني ذلك!»، قال بحدة في وجهها، وهو يشدد على كل مقطع من كلماته في تأكيد غاضب.

صاحت، وقد أذهلتها شدته وعنفه، «هِنْك!».

«حسنٌ إذن؟».

«نعم، نعم، سأذهب، سأذهب، ولكن- يا هِنْك! لا تتكلم معي هكذا! أرجوك لا! أنت تجعل الأمر أكثر سوءًا، والله يعلم أنني لستُ على ما يُرام بما فيه الكفاية بالفعل!».

«تلك غلطتكِ أنتِ، كل ذلك غلطتكِ أنتِ، وليس لديكِ أي حق في توجيه الاتهامات القاسية ضد الناس، خاصة ضد فان إرليفورت».

قالت، وهي منهارة في البكاء، «نعم، نعم، أنت على حق! سوف أذهب، لكن أرجوك يا هِنْك، أرجوك تعال معي!».

بعدما مالت عليه من أجل أن يدعمها، سمحت له بأن يقودها خارج مخدعها ونزولاً على الدَّرَج. ولدى دخولها الصالون أجفلت. كانت الحجرة فارغة إلا من أوتو، الذي كان يجلس مهمومًا على الأريكة ورأسه بين يديه. لمحت بيتسي في حجرة الرسم، وخيرارد وهو يُدخل صينية الشاي، لذا ظلَّت صامتة، في انتظار مغادرة الخادم. بعد ذلك، وتحت نظرات هِنْك المفروضة عليها، لم تعد تجرؤ على الاعتراض، ولم ترغب فيه عندما شاهدت يأس أوتو البادي عليه. جَثَت على ركبتيها أمامه، وحاولت أن تقول شيئًا، لكنها كانت تنتفض للغاية بالبكاء لدرجة أعجزتها عن الكلام- بكاء حقيقي نابع من القلب هذه المرة، مختلطًا بطوفان من الدموع. ضغطت جبهتها المرتجفة والساخنة على ركبتيه، وبحثت عن يديه في يأس أبكم.

ظلَّ صامتًا أيضًا، يحدق في عينيها.

أخيرًا نطقت الكلمات، بجهد كبير، بينما وقف هِنْك كالقاضي بجانبها:

«اغفر لي يا أوتو، اغفر لي اغفر لي».

أومأ برأسه ببطء، كما لو كان ندمها لم يواسِه بَعْدُ، لأنه كان يعلم بأن الأمور لن تكون أبدًا كما كان يتصورها يومًا ما، ومع ذلك مال إلى الأمام، قرَّبها إليه وقَبَّلَ جبينها.

«اغفر لي يا أوتو، أرجوك اغفر لي، قل لي أنك ستغفر لي!».

ثنى ذراعه برفق حول كتفيها المرتجفتين وجذبها إلى صدره، محاولاً إجبار عينيه لحقن الدموع. لأنه كان يعرف: كانت هذه هي النهاية.

استأذن بالانصراف بعد نصف ساعة، وهو في حالة معنوية منخفضة، رغم

أن هِنْك رَبَّت على ظهره عدة مرات، وحثه بلهجة مرحة على البقاء بعض الوقت، وصار كل شيء على ما يرام مرة أخرى. وَدَّع إيلينه بابتسامة متألمة. بعد ذلك طلبت إيلينه أيضًا العفو من بيتسي، كذلك في وجود هِنْك. لم يكن رد بيتسي سوى إيماءة قصيرة برأسها، لكن عينيها كانت تلمع بقدر من الكراهية الواضحة لدرجة أن إيلينه شعرت بالنفور وركضت خارج الحجرة. بعد ذلك، عندما أخبر هِنْك بيتسي كيف أنه أجبر إيلينه على رضاء فان إرليفورت، كانت النظرة في عينيها نظرة إعجاب. لم تفكر أبدًا أنه كان قادرًا على التصدي لها- لتتخيله وهو واقف في وجه إيلينه عندما تعتريها نوبة من نوبات غضبها!

***

مضت بضعة أسابيع، بدا خلالها أن الأمور تستقر كما كانت من قبل. بدأ فنسنت يشعر بأنه بصحة جيدة إلى حد معقول، وذهب في مشاوير بالعربة عدة مرات مع الأختين. لكن بيتسي التي غدت تضع في حسبانها فورة غضب إيلينه أكثر من ذي قبل، استمرت تأوي ضغينة غاضبة ضدها. كم كان ذلك مثاليًا: أبدي القليل من العطف وأول شيء تعرفينه بعدها أنكِ لم تعودي سيدة بيتكِ. ها هي ذي، مثقلة الحمل بابن عم عليل وكريه تسبب في كل أنواع الأحداث غير السارة، وأخت أصبحت لا تطاق أكثر يومًا بعد يوم! لقد تدمر الجو في منزلها الجميل تمامًا بسبب كلٍ منهما- لكنها تُقْسِم ليس لفترة أطول من ذلك. بمجرد أن تتزوج إيلينه فلن تسافر هي، بيتسي، فقط في عطلة مع هِنْك وبن، بل وستتخلص من فنسنت كذلك، مرة واحدة وإلى الأبد. لن يطأ بقدمه في بيتها أبدًا بعد ذلك! حتى لو سقط وهو يموت على عتبة بابها لن تسمح له بالدخول- نعم، كانت إيلينه على حق في هذا، عليها بأن تعطيها حقها!

شعرت إيلينه من جانبها بالندم العميق إزاء توبيخ أوتو لدرجة أنها استحضرت كل سحرها في محاولة لمصالحته، ولأن أوتو كان فقط على استعداد تام لأن يغفر لها بحيث يمكنه أن يستعيد الأمل مرة أخرى، لاقت جهودها بعض النجاح، لكن الشرخ، الذي ظهر في علاقتهما ثبت أن من المستحيل إصلاحه.

كان يدرك تمامًا أن الجميع يقولون أشياء أثناء غضبهم يندمون عليها فيما بعد، وأن إيلينه ببساطة فقدت أعصابها، فقط ... الكلمات الحقيقية، التي نطقت بها، الآن وبعد أن قلَّبَها في ذهنه، لم تكن الكلمات، التي كان يتوقعها منها. لو كانت تحبه كما كان يظن أنها تحبه- حتى بفرض وجود لمحة من أنانية؛ ليس من أجله بقدر ما كان من أجلها، والطمأنينة والسعادة، التي وجدتهما فيه- لم تكن لتتفوه بتلك الكلمات أبدًا، ومهما كانت ثائرة للغاية، سواء بالنيابة عن فنسنت أو لأي سبب آخر، كان عليها أن تعبر عن مشاعرها بشكل مختلف. رأى بوضوح أنها لم تعد حتى تحبه من أجلها، لأنها لم تعد ترى مزاجه الهادئ مهدئًا، بل على العكس، صارت تراه مستفزًا؛ ولا تعد تحبه لنفسه، ولم تكن: بل إنها أجبرت نفسها على أن تكون لطيفة معه بدافع الشفقة! انتفض كل كبريائه عند إدراكه لهذه الحقيقة، وللحظة فَكَّر في أن يواجهها بشفقتها في وجهها تمامًا كما واجهته بهدوئه في وجهه، لكنه لم يستطع. لم يستطع أن يفعل ذلك بها، لأنه كان يحبها كثيرًا جدًا، ولم يستطع أن يفعل ذلك بنفسه. تحمّل أسفها العميق في محاولة أخيرة لاستعادة جزء صغير من السعادة، التي كانت يومًا ما تثيرها فيه، غير أنه كان يعرف: لقد انتهى كل شيء.

انتهى كل شيء؛ استطاع أن يعرف من الأسلوب المبتعد قليلاً عندما كانت تُسَلِّم عليه عند زيارته، وبمجرد انتهاء حماس المصالحة، استطاع أن يعرف بالطريقة، التي سمحت له بها طبع قُبْلة على جبينها، من الخفة والسرعة، التي تنسحب فيها من حضنه، من فترات صمتها المفتقرة إلى الحيوية والنشاط، من كل شيء في سلوكها، وللمرة الأولى لاحظ كيف تنظر كثيرًا إلى فنسنت، وكيف أنها ما زالت تحت أمره، ونظره على الرغم من شفائه الكامل. كان شيئًا لم يرغب في التفكير فيه؛ لأن الفكرة كانت مثيرة للاشمئزاز أكثر مما يُحتمل.

كانت إيلينه من جانبها في جزع بالغ؛ لإنها كانت تعرف بأنها لن تستطيع أن تجبر نفسها على أن تستمر في حب أوتو، لكنها عانت من أهوال ضميرها القاتلة، كلما ألقى نظرته الحزينة عليها. شعرت بنوع من الهزيمة الكاملة. بعد

ظهيرة أحد الأيام بقيت بالطابق العلوي، وأخبرت مينا بأن تقول إنها ليست على ما يرام، ولن تستطيع النزول. سأل عما إذا كان بإمكانه رؤيتها في حجرتها، لكنها أرسلت رسالة بأنها متعبة وبحاجة للراحة. ببطء لكن بثقة بدأ قرار ما يتبلور في عقلها: كان عليها أن تفعل ذلك، إنها مدينة له بذلك ولنفسها. رفضت رؤيته في اليوم التالي أيضًا، رغم بذل هِنْك كل ما في وسعه لإقناعها، وهو ما ردَّت عليه بهزّ رأسها ببطء وعزم: لا تستطيع رؤيته لأنها مريضة. هل عليه أن يتصل بالدكتور راير؟ لا، لا داعي لذلك.

وظلت في حجرتها، بينما تناول أوتو العشاء بالطابق السفلي مع بيتسي وفنسنت وهِنْك، وغادر مبكرًا.

* * *

في ذلك المساء أمضت فترة طويلة مستلقية على أريكتها، تحدق في الظلام. لم تكن ترغب في رؤية فنسنت أيضًا. أخيرًا أضاءت قنديل الغاز بنفسها، وسحبت الستائر، وجلست على طاولة الكتابة. كان لا بد من القيام بذلك.

بهدوء بدأت في الكتابة، لتتوقف كثيرًا لتقرأ ما كتبته:

عزيزي أوتو!

اغفر لي أتوسل إليك، لكن ليس عندي أي بديل. اسأل نفسك ما إذا كنتُ أستطيع أن أُسعدك، وما إذا كنتُ سأكون عبئًا عليك. كان هناك وقت ظننتُ فيه أنني يمكنني أن أُسعدك، وسوف أتذكر ذلك طيلة حياتي، لأنها كانت أعظم سعادة عرفتها على الإطلاق. ولكن الآن -

تجمعت الدموع في عينيها، وهي تكتب، وفجأة، انفجرت في بكاء عنيف، ومزقت الورقة. كانت عاجزة عن التسبب في مثل هذه المعاناة له. يا الله، لا يمكنها أن تفعل ذلك! لكن ماذا بعد ذلك؟ تدع العلاقة تستمر بغض النظر

عن الألم، الذي تسببه لها، حتى يأتي ذلك الوقت، الذي يتسبب فيه نزاع مدمر آخر في التفريق بينهما بأي حال؟ لا، لا، في هذه الحالة من الأفضل أن يفترقا كأصدقاء الآن، وبرسالة وداع حب أخيرة! لكنها بالفعل جرحته جرحًا عميقًا، دون أن تتمنى ذلك؛ لم ترغب في أن تجرحه أكثر من ذلك، والآن- ياه لِمَ كان عليها أن تصارع مع مشاعرها هكذا، وحدها ومنبوذة تمامًا، لا أحد ترجع إليه، ودون أن تعرف حقًا ما الذي تريده أو حتى ما هو واجبها الأخلاقي؟ كانت ضعيفة للغاية، ببساطة لم تكن قادرة على مجابهة ذلك!

لكنها أخذت صفحة جديدة من الورق، وبدأت مرة أخرى:

عزيزي أوتو!

توالت السطور اللاحقة، التي كانت مطابقة تقريبًا للملحوظة، التي مزقتها بما يكفي من يُسْر. لكن كيف لها أن تواصل منذ توقفت؟ كيف أخبره؟ فجأة جاءت الكلمات، وانطلق قلمها على الورق، وأصحبت كتابتها خربشات غير مقروءة تقريبًا من جمل عاطفية ومفككة.

حقًا، قلبي ينكسر، وأنا أكتب لك الآن ... الآن لا بد لي أن أطلب منك ... ما إذا لم ... من الأفضل بالنسبة لنا أن نتوقف عن إحياء الآمال في بعضنا البعض ... آمال العثور على السعادة معًا. الاضطرار إلى أن أطلب هذا أمر قاسي جدًا، لأنه كان وقتًا جميلاً، عندما كنا ...

ظلت تكتب وتكتب، تائهة في تذكر تلك الأيام القاسية، صدرها يجيش بنحيب متقطع، وبدأ رأسها يصدعها بضراوة متصاعدة، كما لو كان هناك حزامًا ضيقًا من حديد ثُبِّتَ بإحكام حول دماغها والمطارق تقرع على فوديها.

وقت جميل، عندما كنا ... نحب بعضنا بعمق ... لا أستطيع أن أقول لك كم أعاني في كتابة هذا ... أكثر مما كنت أظن أنه قد يتحمله بشر، لكنني أعتقد بأنه

من واجبي، بل إنني سأتسبب لك في تعاسة أكبر إذا لم أكتب لك.

علينا أن ننسى بعضنا البعض؛ علينا ألا نفكر أبدًا في بعضنا البعض مرة أخرى ... وسيكون ذلك أفضل، لكلانا، لكن خصوصًا بالنسبة لك. ياه، إن كنت لا زلت قادرة على أن آمل في أن أصبح شخصًا أفضل، وأنني قد أستحقك يومًا ما، فسوف أمزق هذه الورقة تمزيقًا، لكن كل أملي ضاع.

إنني أدرك يا أعز أوتو، أنني أسبب لك الحزن بهذه الرسالة، ولكنني أتوسل إليك أن تغفر هذا الفعل الجارح الأخير، وأبعد التفكير فيّ عن عقلك. أنت طيب جدًا وحنون؛ وأنا واثقة أنه يومًا ما، عندما تكون قد نسيتني، أنك ستجد شخصًا ما، فتاة صغيرة ...

ألقت قلمها جانبًا، مكروبة، وتمايلت للأمام، ضغطت وجهها على المنديل المخضّل بالدموع المُلقى على الطاولة. جعل نحيبها الآن جسدها بأكمله ينتفض بينما كانت المطارق تقرع على فوديها، وبين عينيها، وعند قاعدة جمجمتها. قذفت برأسها من جانب إلى آخر، لكن الخفقان تفاقم بألف غرزة دبوس، لهذا قامت واستأنفت الكتابة، وتضرب رأسها بقبضة يدها الأخرى المشدودة بشكل متقطع، ولما كانت عاجزة عن أن تفلت من الرسالة الرسمية، التي ستضع ختمًا على فقدانها لأوتو، تخبطت أكثر، لتكرر مرارًا كم كانت سعيدة معه، وكم عانت لما فقدته، وأن من واجبها الأخلاقي أن تكتب له هذه الرسالة. ملأها مفهوم الواجب بإحساس رومانسي بالغاية، وانجرفت بعيدًا، تكتب الكلمة مرارًا وتكرارًا: الواجب، الواجب، الواجب ... شعرت أيضًا بأنه طالما أنها لا تزال تضع القلم على الورق فإنهما لا يزالان مرتبطان بشكل من الأشكال؛ ليس إلا عندما تكتب اسمها في النهاية سينتهي كل شيء، إلى الأبد

بعد ذلك ... لم تستطع أن تجبر نفسها على أن تخط توقيعها، وظلت تضيف العبارات لتأجيل اللحظة.

بعدها يومًا ما سوف تلتقي بشخص يستحقك، والتي سوف تحبك دون قيد أو شرط. أنا واثقة من ذلك. بعدها ستكون سعيدًا، وسوف تنساني. لكن آه، أرجوك لا تنساني تمامًا: فقط انسَ حبك لي، وفكر فيّ من حينٍ لآخر.

ترددت أصداء ذلك الالتماس الأخير في أعماق روحها.

فكر فيّ، دون غضب أو كراهية، واشعر بقليل من الشفقة على نيلي المسكينة التي ...

تنهدت: «لا أستطيع أن أفعل ذلك، لا أستطيع!»، وأمسكت بالورقة الملطخة بالدموع، وهي تفكر في تمزيقها، لكنها بدلاً من ذلك أخذت نفسًا عميقًا، وبسرعة كتبت بضع كلمات الختام. ثم جففت عينيها، وشرعت تنسخ رسالتها، أكثر هدوءًا إلى حد ما الآن لدرجة أنها لم تعد بحاجة لأن تفكر فيما عليها أن تقول.

كان كل ما تحتاجه بعد هذا طابع بريدي، ومُغَلَّف كتبت عليه العنوان:

سعادة السيد البارون

أ.فان إرليفورت تير هورسه،

لانجه فورهوت. لاهاي.

أعادت قراءة الرسالة لمرة أخيرة. اشتعل العذاب مرة أخرى لقسوته، وعندما وصلت إلى النهاية، وكان عليها فقط أن تدسه داخل المُغَلَّف، ترددت مرة أخرى. أكان هذا حقًا ما أرادت؟ أن تنهي علاقتها بأوتو؟ لا، لا، لم تكن مسألة إرادة أي شيء، بل كانت ما اُضطرت للقيام به؛ كان واجبها، واجبها الأخلاقي! لهذا طبعت قُبلة طويلة على رسالتها، وأغلقت المُغَلَّف.

يا الله، لِمَ يجب أن تعيش بينما يوجد مثل هذا الأسى؟

نهضت، وقفت لفترة تحدق في المغلف، كما لو كانت تريده أن يتلاشى، لكنه ظلَّ هناك، ملقىً بشكل مباشر على طاولة الكتابة باسم أوتو وعنوانه على الغلاف.

ألقت إيلينه نظرة سريعة في المرآة، تعرفت على نفسها بالكاد لما رأت طيف الشبح أمامها، الملامح الشاحبة، الملطخة بالدموع، ولبدة الشعر الشعثاء. ثم سحبت بثبات حبل الجرس مرتين، مبقية عينيها مثبتتين على الرسالة.

كان هناك طرق على الباب. دخل خيرارد.

«كم الساعة يا خيرارد؟».

دُهِشَت كم بدا صوتها كئيبًا وأجش.

«تقريبًا منتصف الليل، آنسة».

«هل لا يزال سيدك مستقيظًا؟».

«سيدي في حجرة دراسته؛ ميلدي ذهبت إلى الفراش، وكذلك مستر فنسنت».

«أيمكنك أن تأخذ هذه إلى البريد من أجلي؟».

«نعم، آنسة».

«أيمكنك أن تفعل ذلك فورًا؟».

«بالتأكيد، آنسة».

«هَاكَ الرسالة إذن، لكن أرسلها على الفور، ممكن؟ متى تذهب أول مجموعة بريد في صباح الغد؟».

«أعتقد في الساعة الثامنة صباحًا، آنسة».

«إليك خذها. انصرف الآن، تمام؟».

«على الفور، آنسة».

غادر خيرارد بالرسالة، تاركًا إيلينه خلفه في حالة ذهول. سمعت خيرارد يهبط الدَّرَج، وسمعت صوت ارتطام الباب الأمامي، وهو يُغلق، ثم غدا كل شيء ساكنًا في المنزل الكبير.

أصابها إحساس بالذعر البارد، كالمياه المثلجة تقطر شيئًا فشيئًا أسفل ظهرها.

في هذه اللحظة نفسها كان يسير خيرارد في طريقه بالشارع، الآن يدور حول أحد الأركان، الآن يقترب من صندوق البريد في شارع ناساولان ... تخيلت أنه بإمكانها أن تسمع الرسالة تسقط بصوت ارتطام ثقيل، كالغطاء على تابوت، كانت على وشك أن تسقط مغشيًا عليها من المشاهد الشنيعة، التي ألقت بثقلها عليها كالأشباح الشريرة. وفجأة، كما لو هَبَّت مستيقظة من كابوس، أدركت حتمية ما فعلته. شعرت بأن جسمها بأكمله بدأ يرتعش، كما لو كانت في حُمى. بحلول يوم غد، بل بحلول صباح الغد سوف يتسلم أوتو الرسالة ... رسالتها!

يا الله، لا يمكن أن يكون هذا! لا يجب أن يكون ذلك! كانت تلك سعادتها نفسها، التي ألقت بها بعيدًا بكلتا يديها، فقط لأنها وجدت هدوءها واسترخاءها الهائل مثيرًا للممل! سعادة حياتها، ضاعت بلا أمل في استعادتها!

شعرت بالجدران والسقف تضيق الخناق عليها، تسحقها لدرجة أنها لم تتمكن من التنفس إلا بصعوبة. مشت تترنح إلى الباب، ثم عبر بسطة الدَّرَج، ودخلت حجرة نوم بيتسي فجأة.

قالت، وهي تلتقط أنفاسها، كما لو كانت هناك يدٌ تقبض على حلقها، «يا إلهي، يا إلهي! بيتسي!».

كانت بيتسي في فراشها في الحجرة المظلمة، ليست مضاءة إلا بضوء ليليّ خافت؛ بدأت تستيقظ في رعب، تدور في ذهنها أفكار مشوهة عن كوارث كحريق أو جريمة قتل.

«من؟ ماذا؟ ما الذي يحدث؟ ما الأمر يا إيلينه؟».

«أنا – يا إلهي – أنا –».

«ما الأمر يا إيلينه؟».

«أنا– لقد كتبت لأوتو».

«ماذا؟».

«أرسلت له رسالة».

«رسالة؟».

«أنا– لقد أنهيتها. لقد فسخت خِطْبتنا. يا ربي، يا ربي!».

قفزت بيتسي من السرير، ووقفت ترتجف أمام إيلينه، التي كانت قد سقطت منهارة على الأرض، وهى تخبئ وجهها في شعرها الطويل الأشعث.

صاحت في رعب: «ماذا قلتِ؟».

أجهشت إيلينه بالبكاء فقط. فُتِحَت أبواب حجرة دراسة هِنْك وحجرة بِنْ للأطفال، وأتى هِنْك، الذي كان يقرأ ركضًا.

سأل بلهفة: «ما خطبكما؟».

قالت بيتسي، وصوتها يرتعش، «أغلق باب بِنْ، لو سمحت يا هِنْك وإلا سيستيقظ!».

أغلق هِنْك الباب.

ناحت بيتسي: «إيلينه كتبت لأوتو، لقد أنهت علاقتها به!».

وقف هِنْك في مكانه، مصدومًا، لم يقم بأي حركة ليساعد إيلينه على الوقوف على قدميها، لكنها رفعت وجهها المتورم، الملطخ بالدموع إليه، وهى تفرك يديها في هذيان بسبب ما تعانيه من عذاب، انفجرت تقول:

«نعم، هذا ما فعلته! يا إلهي! لقد كتبت له رسالة طويلة، وياه، إنها شنيعة، شيء شنيع هذا الذي فعلته! لكني مشوشة جدًا، لم أعد أعرف ما الذي أفعله، لا أعرف ما أريده أو ما لا أريده، لا أعرف إن كنتُ أحبه أم لا، أو إذا كنت أحب

شخصًا آخر. لا أعرف أي شيء على الإطلاق. ولا أستطيع حتى التفكير مع كل هذا القصف في رأسي! كتبت لأوتو لأنني اعتبرت ذلك واجبًا عليّ. لم أكن إلا أن أجعله تعيسًا. لكنه شيء شنيع ... ربما كنتُ مخطئة بالقيام بذلك، ربما كنت سأحبه في نهاية المطاف. أدعو الله أن ينتهي كل شيء، أتمنى أن أموت، لأنني لا أستطيع تحمل ذلك أكثر، فقط أستطيع تحمله ...».

خفت صوتها، ثم سقطت منهارة إلى الأمام بجبهتها تلامس السجاد، تحكها ببطء من جانب لآخر.

نظرت بيتسي إلى هِنْك سريعًا: ماذا سيفعل؟ وذابت الضغينة السرية، التي كانت تُكِنّها لأختها، وللحظة أصبحت تملؤها الشفقة. أصابها تأمل هِنْك الصامت في إيلينه بطعنة من انزعاج! كم كان زوجها غير فعال- ذهبت لإضاءة قنديل الغاز، وارتدت عباءتها الليلية بسرعة، وعند عودتها دُهِشَت لرؤية التغير في إيلينه، التي كانت جالسة الآن على كرسي، خاملة تماما، في موقف من اليأس المُخَدَّر، ويداها مطويتان على ركبتيها وعيناها محمرتي الحدقتين تحدقان في الفراغ أمامها.

قال هِنْك بصوت رتيب، وهو يفكر في أوتو، «إيلي! إيلي! كيف يمكن أن تفعلي مثل هذا!».

غمغمت بصوت ضعيف: «آه، رأسي سينفجر!».

سألت بيتسي: «هل تتألمين؟».

تأوهت إيلينه: «آه -».

نَحَّت بيتسي شعر إيلينه المتشابك بعيدًا، ومسحت جبينها وفوديها برفق بمنديل مبلل. جلس هِنْك. لم يكن يعرف ماذا يفعل وماذا يقول؛ في عين عقله ظلَّ يرى أوتو.

كانت الفكرة الوحيدة، التي مرت بخاطره: «كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟ كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟».

سألت بيتسي بلطف: «هل تشعرين أنكِ أفضل الآن؟».

أطلقت إيلينه ضحكة صغيرة ومستكبرة.

«أفضل؟ بالكاد. لكنه منعش، هذا المنديل المبلل».

«هل أحضر لكِ شيئًا تشربينه؟».

«لا، شكرًا لك».

لم تعد تجهش بالبكاء، لكن الدموع واصلت تدفقها. بعد ذلك، وبنظرة بعيدة في عينيها، بدأت تتكلم ببطء، تقريبًا بصوت غير مسموع:

«أوه، لا أدري ماذا أفعل، لا أدري ماذا تريد، وبعدها تفعل شيئًا كهذا حتى دون أن تريده ... أوتو المسكين، المسكين! والألم يا إلهي! أنا أفقد صوابي!».

قاطعتها بيتسي، وهي تلقي برأسها بخفة وسرعة، «يمكن أن يذهب هِنْك إلى فورهاوت صباح غدٍ مبكرًا ويعيد الرسالة».

«يمكنه أن يسأل ڤيليم على سبيل المثال أو الخادمة، ومن ثَمَّ لن تكون لدى أوتو حاجة لقراءتها، ولن ينتبه أي أحد لذلك. ما تقولين يا إيلينه؟».

حدقت إيلينه، وهي متبلدة الحس.

تمتمت، وهي تهزّ رأسها: «لا أعرف، لا أعرف!».

حثتها بيتسي: «هيّا، لا يزال بإمكانكِ تغيير رأيكِ!».

«لا، فقط أتركيه ... ما حدث قد حدث. لقد تدمر كل شيء على أي حال. ولا يمكننا أبدًا أن نعود إلى ما كنا عليه من قبل».

تنهد هِنْك؛ بدا أن كليهما، هو وبيتسي، فَهِمَا خطورة تصريح إيلينه، ولم يبذلا أي محاولات أخرى لإثنائها.

عرضت بيتسي: «لِمَ لا أساعدكِ في خلع ملابسكِ بحيث يمكنكِ الاستلقاء للنوم؟ هل تريدينني أن أبقى معكِ الليلة؟».

«نعم، من فضلكِ- حسنٌ، ربما لا؛ ليس هناك داعٍ لذلك».

«تعالي، دعيني آخذكِ إلى حجرتكِ إذن».

اصطحبت بيتسي أختها إلى حجرتها، كما لو كانت طفلة، وكطفلة أذعنت إيلينه لخلع ملابسها، وعلَّقَت ذراعيها الهزيليْن عند جانبيها.

«آه يا رأسي المسكين!»، تأوهت وهى تستلقي على وسائدها. وضعت بيتسي الأغطية، ثم أخذت قطعة قماش مبللة وبلطف بللت وجه أختها مرة أخرى.

«خلاص، خلاص. لا بد أن تحاولي أخذ قسط من النوم. لا يوجد شيء يمكننا القيام به في الوقت الراهن، لكن الأمور قد تصبح على ما يرام مرة أخرى، لا يمكنكِ أبدًا أن تعرفي. لا يزال هِنْك قادرًا على الذهاب كما تعلمين في الصباح».

هزت إيلينه رأسها.

«أتودين أن أبقى معكِ لفترة من الوقت؟».

لم ترد إيلينه بأي إجابة إلا التحديق في الفراغ. سحبت بيتسي ستارة السرير الحمراء بعض الشيء واستقرت جالسة على أحد الكراسي.

ساد الصمت، إلا من أنين إيلينه الخافت بين الحين والآخر. لمع قنديل الليل الأبيض على الطاولة كنجمة، ليصب وَمَضات متقطعة على خزانة الملابس المكسوة بالخشب، والمرآة الشيفال، والقنينات والجرار، التي تراصّت على منضدة الزينة المكشكشة بالموسلين، بينما خيّمت الظلال الداكنة على جميع أرجاء الحجرة. ارتجفت بيتسي، وهى ترتدي عباءتها؛ كانت تريد أن ترتب أفكارها بعض الشيء، لكنها لم تستطع، كانت قلقة للغاية بسبب الخِطْبة المفسوخة. مضت الساعات بطيئة، وفي المطبخ بالأسفل تحت حجرة النوم، سمعت بيتسي الساعة تدق الواحدة، ثم الواحدة والنصف. بعد انتظار طويل تلاشى الأنين على الجانب الآخر من الستارة الحمراء. وقفت بيتسي وتطلعت سريعًا في إيلينه، التي كانت مستلقية في سكون تام وعيناها مغلقتان، من الجليّ

أنها نائمة، وخرجت بيتسي على أطراف أصابعها من الحجرة.

وجدت هِنْك لا يزال جالسًا ورأسه بين يديه. لم يأوِ أي منهما إلى فراشه؛ جلسا وتحدثا همسًا، وحبسا أنفاسهما بين الحين والآخر، بينما كانا يصيخان السمع لأي صوت يأتي من حجرة إيلينه، ورغم أن كليهما كان لديه إحساس بنذير شر، إلا أن أيا منهما لم يغامر بالتعبير عن مخاوفهما الغامضة في هيئة كلمات.

«شش!»، همست بيتسي، لما ظنَّت أنها سمعت شيئًا. أصاخا آذانهما للاستماع. من حجرة إيلينه أتى صوت بائس ينتحب، نواح روحٍ في عذاب مبرح، عاطفي وعالي الصوت. ارتجفت بيتسي.

همست: «أنا خائفة جدًا»، غادر هِنْك الحجرة بهدوء قدر استطاعته واختلس النظر على البسطة غير المضاءة. كان الخدم جميعًا في فراشهم؛ وكان المنزل يغطّ في الظلام. دخل حجرة جلوس إيلينه، حيث كان قنديل الغاز لا يزال مضاءً، وغاص جالسًا في أحد الكراسي. كان بإمكانه أن يسمع إيلينه في الحجرة المجاورة، تجهش بالبكاء من قلبها. لم يسمعها أبدًا تبكي هكذا من قبل، بعويل أجش وعالٍ من الصراخ المكروب، ومع كل مرة تبكي فيها بنشيجها الصارخ يشعر بألمها يهدر في جمجمته.

بعد انتظار طويل أفضى البكاء إلى أنين متقطع خفيض الصوت؛ ثم بعدها توقف ذلك أيضًا. كان كل شيء هادئًا. تملك هِنْك الخوف في السكون المأساوي الذي يخيم عليه، ووقف شعره من الخوف، ودون أن يعرف ما الذي يفعله قام واقفًا على قدميه. عليه أن يتأكد، عليه أن يراها بأم عينيه. إلا أنه عند باب حجرة نوم إيلينه تردد، لمجرد جزء من الثانية، قبل أن يدفع الباب ليفتحه ويخطو إلى الداخل.

على السرير المنعكش، وفي وهج ستائر السرير الحمراء الداكنة، استلقت إيلينه، التوى فستان نومها حول أطرافها، وشعرها كتلة متشابكة. كانت

ألقت الأغطية، وبدا أنها نائمة، رغم أن رأسها ويديها كانتا ترتعشان؛ كانت هناك هالات سوداء تحت عينيها، وصَحِبت أنفاسها تشنجات متنفضة تشبه كثيرًا الصدمات الكهربائية، التي تمر خلال جسدها النحيل. ألقى هِنْك نظرة على الجسد النائم المُعَذَّب، وشفتاه ترتعشان من الفزع. برقة شديدة سحب الأغطية، ولما فعل ذلك شعر كم كانت باردة. وقف هناك للحظة، محدقًا في وجهها الملطخ بالدموع، ثم غادر فجأة، وأطفأ قنديل الغاز في مخدع إيلينه أثناء مروره.

٢٣

كان أوتو خرج بالفعل عندما أتى ڤيليم الخادم بالرسالة إلى حجرة الطعام. كانت فريدريك وأمها فقط حاضرتين، وذهبت ماتيلدا للنزهة مع الأطفال، بينما كان إتيان لا يزال في الفراش.

سألت مدام فان إرليفورت: «ما هذا؟».

أخذت فريدريك الرسالة.

قالت، وهي تتفقد العنوان: «إنها لأوتو يا ماما. يمكنكَ تركها على البوفيه يا ڤيليم- أو، لا، انتظر، دعني ألقي نظرة أخرى. أعتقد بأنه خط يد إيلينه. يا له من مُغَلَّف سميك أيضًا. غريب».

سألت المدام: «هل هي من إيلينه؟».

«أعتقد ذلك».

أعادت المُغَلَّف لڤيليم، الذي وضعه في صحن ياباني كبير على البوفيه، وانصرف بعد ذلك. تبادلت الأم وابنتها النظرات. كل منهما استطاعت أن تحس القلق في الأخرى، لكن كلتاهما لزم الصمت. عادت مدام فان إرليفورت إلى حكايات تدبير الشؤون المنزلية واستغرقت فريدريك في أعمال النسيج ذات الألوان الزاهية، التي كانت تشتغل عليها.

مرَّ بعض الوقت، ودقت الساعة العاشرة. جاءت ريكا الخادمة لمسح مائدة الإفطار، تاركة مكانًا واحدًا لإتيان، عندما دق جرس الباب. لم تلاحظ مدام فان إرليفورت تقريبًا، لأن هناك تجار يدقون جرس الباب كل صباح، لكن بالنسبة لفريدريك بدا الجرس نذير شؤم.

دخل ڤيليم.

«مستر فان رات وصل، ويود أن يتحدث إليكم. ماذا أقول له، مدام؟».

قالت فريدريك: «مستر پول؟».

«عفوًا، آنسة، إنه مستر فان رات من ناساوپلاين».

«أره الطريق إلى الداخل!».

شعرت مدام فان إرليفورت، الهادئة للغاية عمومًا، بالقلق. لاحظت مثل بناتها كم أصبح أوتو مغمومًا ومنكمشًا على نفسه في الآونة الأخيرة، وكم بدت إيلينه تتجنب زيارة منزلهم.

دخل هِنْك. قالت تحيته الفاترة وتعبيرات وجهه القلقة على نحو غير معهود الكثير. أشارت المدام لِهِنْك بالجلوس على أحد الكراسي، وهى تتطلع إليه في توقعٍ قلق.

سألت في عجالة: «ماذا يا فان رات! ما الأمر؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

«رأيت أن من الصواب أن أزوركم سيدتي العزيزة. لقد كتبت إيلينه لأوتو».

«نعم، أعرف».

«آه. وهل قرأ الرسالة؟».

«الرسالة؟ لا، ليس بعد. أتى بها ڤيليم منذ لحظة. يا إلهي يا فان رات، أتقصد أن تقول إن إيلينه قد ...؟».

بدا هِنْك غائبًا، يتلمس الكلمات. لقد أَلَّف خطبة كاملة في ذهنه في الطريق إلى هناك، لكنه رأى أنه لا يستطيع أن يتذكر كلمة واحدة تحت أنظار فريدريك وأمها المحدقة والمتخوفة، وعندما توسلتا إليه بأن يتكلم أصدر إيماءة عاجزة وانطلق يتكلم بلا تفكير:

«حسنٌ، نعم، أخشى أنها فعلت. هى تريد فسخ الخِطْبة، وكتبت له رسالة طويلة. لا أستطيع أن أخبركم كم أشعر بالأسف».

جلست مدام فان إرليفورت بكتفين محنيين، صامتة وترتجف؛ وصارت

فريدريك شاحبة كجثة.

«وإيلينه نفسها مستاءة جدًا، مكسورة القلب تمامًا في الواقع. لم يغمض جفنها الليلة الماضية أيضًا، وسمعناها تبكي لساعات».

بجمل مفككة خرجت منه بعد مجهود، حكى أحداث الليلة السابقة. لم يأتِ في محاولة لاعتراض الرسالة قبل أن تتوافر لأوتو فرصة لقراءتها، ذلك أن إيلينه كانت مُصرة أن ذلك لن يغير شيئًا، لقد جاء لأنه شعر بأنه مدفوع لأن يفعل شيئًا، للتعبير عن تعاطفه على الأقل، وليشاركهم حزنهم. اضطراره لأن يكون الشخص، الذي ينقل الخبر إليهم ضاعَف من بؤسه ومعاناته، ولم يستطع أو كاد أن يعبر عن أفكاره بالكلمات.

كانت مدام فان إرليفورت محطمة. لم تعد تسمع خطاب هِنْك المتوتر، فكل ما استطاعت أن تفكر فيه الآن كم سيكون أوتو مُدمَّرًا. حاولت تخيل رد فعل ابنها، ووجدت نفسها غير قادرة على تصوره، كما لو أن كل شيء قد يتغير بعد ذلك، كما لو أنها لم تنصت جيدًا. امتلأت عيون فريدريك بالدموع، واضطرب عقلها، واشتعلت الكراهية الكامنة في قلبها نارًا.

آه، كان يمكنها أن تقتل إيلينه، تقتلها! وبتعبير متجهم على مُحياها حوَّلت نظرها إلى أمها، التي خبأت وجهها في يديها، تنتحب بهدوء، بينما حدق هِنْك بحزن في المسافة البعيدة.

ظهرت أصوات الأطفال في الردهة. فُتِحَ الباب، واندفعت تينا ويوهان ومادلين ونيكو إلى الداخل، وماتيلدا في أعقابهم. وقف هِنْك مرتبكًا. عرفت ماتيلدا على الفور، لما رأت أمها تبكي وفريدريك تحملق في غضب عاجز، أن شيئًا ما على غير ما يرام بجد.

قالت مدام فان إرليفورت، وهي تنتحب، تدفع نيكو بجفاف جانبًا، «ليس الآن! خذوا الأطفال بعيدًا عن هنا!».

قادتهم ماتيلدا إلى الباب. همست: اذهبوا إلى الطابق العلوي الآن، إلى

المربية فرانتسين، واخفضوا أصواتكم!»، وغادروا وهم محبطون بعض الشيء، ونيكو الصغير يبكي بالدموع.

أغلقت ماتيلدا الباب، ونظرت إلى هِنْك في توقع قلق، لكن فريدريك كانت مَنْ شرح لها ما حدث بعينيها الوامضة ونبرة من فخر في صوتها.

شهقت ماتيلدا، وهي ترتجف: «يا إلهي!».

صاحت المدام: «كيف سنخبره؟ ياه، ماذا يمكننا أن نقول؟ كيف يمكن لإيلينه أن تفعل ذلك؟ كيف استطاعت أن تجرحه كهذا؟ وطوال ذلك الوقت كنت أظن ... يا إلهي!».

قَرَّبَت ماتيلدا منها، وخبأت وجهها الباكي في صدر ابنتها. كانت ماتيلدا معتادة على هذا: كان الجميع ينشدونها لمواساتهم فيما يُلمّ بهم من كرب، ولَفَّت ذراعها حول رقبة أمها وقَبَّلَتها.

«أوتو قوي يا ماما، سيتجاوز ذلك الأمر».

«كيف يمكنكِ أن تقولي ذلك؟ كل الموضوع غير متوقع تمامًا، آه، سيدمره، ابني المسكين، المسكين. آه، كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟ كيف استطاعت؟».

هبط شخص بخطوات قوية وعالية الدَّرج، خطوتان أو ثلاث معًا، وهو يصفِّر ويدندن أغنية طروب وصاخبة من أغاني الشارع. تدحرج إتيان الى الحجرة.

«صباح الخير جميعًا! صباح الخير ماما! حسنٌ مرحبًا يا صديقي العزيز، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ كيف حالك؟».

تلاشت ابتسامته المبتهجة المعهودة لدى رؤيته الرعب المرسوم على وجوههم جميعًا، وحدق بعينين واسعتين في أمه عندما صرخت بصوت مختنق:

«وأنت، يا حبيبي، ألا يمكنك أن تفهم؟ ألا يمكنك أن تفهم لِمَ فعلت إيلينه

هذا؟ كيف استطاعت أن تتوقف عن حب أوتو؟».

سأل بصراحة: «ماذا تعنين؟».

استغرق الأمر لحظة حتى يستقر المعني في عقله، ثم ركض إلى ماما العزيزة ذات الشعر الأشيب، التي انقلب الآن مزاجها المرح عادةً بعنف، وألقى بذراعيه حولها، وأمطرها بعبارات الحب الرقيقة الصبيانية. وخَطَر لماتيلدا أنه رغم أن أمها لجأت إليها طلبًا للمواساة، فإنها قد اكتسبتها من ابنها المدلل، ابنها إتيان.

* * *

في الوقت، الذي انتظروا فيه عودة أوتو في موعده لتناول القهوة، اتفقت أمه وأخواته فيما بينهم على تحيته بأهدأ ما يمكن، وذلك حفاظًا على مشاعره. تساءلت مدام فان إرليفورت بشأن تماسك ابنها الظاهر عندما أمسكته ماتيلدا من يديه، بجو من العزم الجاد، وسحبته إلى أحد المقاعد. كانت تتوقع رد فعل مختلفًا منه، شيئًا من فورة مُرَوَّعة من العاطفة العنيفة، وشكرت الرب أنه منح ابنها القوة لتحمل معاناته لما رأت تعبيرات وجهه تتغير من تعبيرات صريحة ولطيفة إلى قناع غامض، لا تظهر منه أية دلالة عاطفة سوى اهتزاز الشفتين.

قال أخيرًا: «تلك الرسالة- أين هى؟».

«أوتو-».

«أعطني الرسالة، من فضلك».

وقفت ماتيلدا وسلمته المغلف. توجه لمغادرة الحجرة، لكن ماتيلدا اعترضت طريقه؛ واحتضنته حضنًا سريعًا، هامسة في أذنه: «كن رجلاً يا أوتو! كن رجلاً!»، ثم قَبَّلته وتركته يذهب.

مالت مدام فان إرليفورت، التي لم تقل كلمة واحدة تقريبًا لأوتو وهى تبكي بالدموع على كتف إتيان. رَبَّت على ظهرها وقَبَّلها عدة مرات، بينما حدقت ماتيلدا دون أن تنطق بكلمة من النافذة والدموع في عينيها. جلست فريدريك في سكون تام وبمعزل عن الجميع؛ لم يكونوا بحاجة إليها، كان هذا كان واضحًا،

لأنه ماذا تعرف هى عن المعاناة؟ لم يكونوا حتى يعتقدون أنها تعرف معنى الكلمة!

نزلت تينا، تطلب الاهتمام. أرادت ماتيلدا أن تبعدها، لكن مدام فان إرليفورت قالت بتردد:

«دعيها تبقى يا تيلي. وادعي الآخرين أيضًا، لا بد أنهم جائعون. لكنني أخشى أنني لن آكل، فليست لدي أي شهية مطلقًا».

انسحبت من حضن إتيان، وما لبثت أن شغلت نفسها بالوجبة، تقطّع بيضة مسلوقة إلى شرائح لتينا، وتدهن خبز الطفلة بالزبد.

سألت تينا: «لماذا تبكين يا تيتة؟ هل أنتِ مريضة؟' هزت مدام فان إرليفورت رأسها مبتسمة بكآبة من خلال دموعها. أصابها الأسى بالتوتر، وشرعت يداها المرتعشتان اللتان تسعيان للانشغال في مساعدة الأطفال الثلاثة الآخرين، الذين انضموا إليهم منذ ذلك الحين على المائدة. حاربت فريدريك دموعها بينما تستطلع الصغار، وهم يستقرون جالسين لتناول الطعام، مكبوتين قليلاً بسبب عبوس الكبار وكآبتهم. هذه كانت الحياة: مهما كان هناك الكثير من المعاناة في العالم، فإن الجميع يستمرون فيما كانوا يفعلونه، يأكلون، ينامون، يضحكون، منغمسين تمامًا في ماديتهم الأنانية، ولا أحد يهتم!

كان أوتو يقصد قراءة الرسالة في خصوصية حجرته، لكنه بمروره بالصالون في طريقه جلس على إحدى الآرائك، وفتح المُغلف. بدأ قراءة الحزن والندم، الذي تدفق من إيلينه. لم تكن بحاجة لأن تؤكد له أنها كانت تعاني معاناة لا تطاق في كتابة ذلك، لأنه استطاع أن يقرأ عذابها في كل كلمة حتى في الوقت، الذي مزقت فيه تلك الكلمات روحه. أخبرته الرسالة، وإن لم يكن في عدد كبير من الكلمات، بأن أي جهد في المستقبل من جانبه لكي يجد السعادة في حبها- بافتراض أنه كان قادرًا على إذكاء ناره من جديد- سيكون بلا طائل؛ أخبرته بأن الصدع كان نهائيًا، وأنهما سينفصلان إلى الأبد لأنها تفتقر إلى القوة

للاستمرار في حبها والحفاظ عليه. غلبه اليأس. فقط لو كانت أقوى، فقط لو كانت أعطت نفسها المزيد من الوقت، لكان بالتأكيد في وسعه أن يسعدها، لسبب بسيط، وهو أن ثبات حبه كان سيعطي أعصابها فرصة لتهدأ وتستقر، وفي نهاية المطاف ستزدهر. بذلك الشكل رأى مستقبلهما يتكشف أمامه، لكن الآن ثبت أن كل شيء، وهم مفجع.

قرأ الرسالة مرة أخرى من البداية وحتى النهاية، كما لو أن عينيه ربما خدعته، إلا أنه صحيح: لقد فقدها، لقد ضاعت إلى الأبد! يجلس في إضاءة الصالون الكبير الباردة وبمراياه الكبيرة العالية وستائره المخملية الباهتة، شعر كأنه روح ضائعة في برية مقفرة. نظر حوله، دامع العينين، وارتجف، ثم أرجع ظهره مسترخيًا على الأريكة وغطى وجهه بيديه، لتصْدُر عنه شهقة بكاء حادة. شعر كما لو أن كل شيء يتكسر ويتهشم بداخله كحزمة من القصب الجاف، كما لو أن شهقة البكاء الواحدة تلك مزقت جسده كإعصار، مُخَلِّفة خرابًا كاملاً في أعقابها، وفي تلك اللحظة تمنى لو أنه مات.

أجهش بالبكاء بلا صوت وراء يديه، وتصاعدت مرارة قاتمة داخله. ما الذي فعله ليستحق هذا؟ هو الذي اكتشف ذات مرة ثراء عريضًا في نفسه؛ وهو الذي كان طموحه الوحيد تقاسم هذه الثروات، ليُضفي هبة الرضا المطمئن على المرأة التي يحبها؟ لقد رُفِضَ بازدراء، ورُدَّت هبته، ووجد نفسه الآن أفقر من أفقر رجل على وجه الأرض، مهزومًا ومجردًا من كل شيء إلا اليأس الأسود.

فُتِحَ الباب بهدوء. كانت ماتيلدا، التي لما لم تجده في حجرته، جاءت لتبحث عنه. دخلت الصالون بنظرة من تعاطف عميق وجلست على الأريكة بجانبه، وعندما حاولت سحب يديه من على وجهه أجفل بعنف وحدق في وجهها، مذعورًا.

سأل، وهو في غاية الاكتئاب، «لِمَ أتيتِ لي؟»، ولأنه لم يعد هناك شيء يُقال؛ شعر كما لو أنه قد مات.

«لماذا في رأيك؟ لِمَ أتيت لي تلك المرة، آه، لا بد أن ذلك كان منذ خمس سنوات الآن، وعندما كنت متضايقة جدًا واحتضنتني حضنًا قويًا؟ وتلك المرة الأخرى، بعدها بوقت قصير، تلك الليلة عندما ... أنا وزوجي عندما تركني زوجي؟ هيا أخبرني: لِمَ سعيت إليّ؟ هل سألتك السؤال الذي سألتني إياه للتو؟».

عندما رأت صدره يجيش بالعاطفة المكتومة، وضعت ذراعها حول عنقه، وجذبت رأسه إلى كتفها. في أعماق معاناته فكَّر فجأة في حزن أخته، الذي لم تتحدث عنه أبدًا، وشعر بدفء رغبتها في مواساته.

قال: «لِمَ تذكرين ذلك الأمر؟»، وهو يعلم نفورها من ذكر زوجها السابق.

«لأريك أنني أفهم ما الذي تشعر به، ولأذكرك بأنني ظللت على قيد الحياة، وأنني لا بد لي أن أظلّ كذلك لبعض الوقت أيضًا. لكن بصفة خاصة لأذكرك بأنك لست وحدك في أساك، ربما يمكن لذلك أن يواسيك قليلاً».

«آه»، أجهش بالبكاء، وهو يحتضنها؛ ثم أخرج الرسالة، ويده ترتعش.

قال بصوت أجش: «إليكِ! اقرئيها!».

بدأت في القراءة، وهي تمسد رأسه طيلة الوقت كما لو كانت تهدئ أحد أطفالها، حتى يمكنه أن يبكي دموعًا غزيرة دون أن يخجل من سلوكه غير الرجولي، وبينما كانت تقرأ، تأملت دوافع إيلينه.

سألت نفسها: «هل لديها أي فكرة عما تفعله؟ ماذا ستفعل لو رأت الحالة التي هو عليها؟ هل هو خبث من جانبها أن تعامله بمثل هذه القسوة؟ هل تستحق حتى أخي الحبيب؟ أم أنها مجرد مخلوقة تعيسة، مثل باقي النساء؟».

دخلت مدام فان إرليفورت مع فريدريك.

رفعت ماتيلدا ذقن أوتو.

انظر: «ها هي ماما»، قالتها ببساطة، كما لو لم ترغب في احتجازه الآن، وجاءت أمه لتواسيه، لكن لما رأى مظهر المعاناة المثيرة للشفقة على وجهها

العزيز، رأى أنه هو الذي عليه مواساتها.

صاح: ماما، ماما، من فضلكِ لا تبكي! إنها ليست نهاية العالم كما تعرفين!».

وقفت فريدريك متكئة على إطار الباب، وعقدت ساعديها أمام وجهها. لم يُعِرْها أحد أي اهتمام. كان مع ماتيلدا وماما كل الحق لمحاولة تهدئته، والواضح أنه لم يكن بحاجة إليها، لم تكن سوى طفلة فيما يتعلق به، ولن يكون لديها أي شيء ذا أهمية لتقوله له. عادت بذاكرتها إلى المحادثة، التي دارت بينهما حول إيلينه منذ كل تلك الشهور، التي مضت قبل الخِطْبة، لكن الآن ليس لديها أي شيء آخر لتقوله، لا شيء. ليس لكلماتها أي وزن، فهي لم تعانِ أبدًا، وليس لديها شعور، وهى مخلوقة من حجر.

«حجر! يعتقدون بأنني مخلوقة من الحجر!»، كررتها وهى تهمس، واستمرت تبكي وراء ذراعيها المعقودتين، لا عزاء لها لعدم قدرتها على مواساة أوتو.

لما شعرت بيدٍ على كتفها استدارت ملتفتة بنظرة تحدٍ لأنه أُسيئ الحكم عليها بشدة، لكنها لما رأت تعبير وجه أوتو المتألم، وعينيه المليئة بالدموع، وجبينه المغضن بعمق، وشفتيه المرتعشتين تحت الشارب الأشقر، ألقت بذراعيها عليه بسرعة كبيرة من الشفقة وأمطرت وجهه بالقبلات، لأنها لم تكن قد رأته يبكي من قبل.

٢٤

تجلى تعاطف بيتسي نحو إيلينه في هيئة قلق أخوي على حالتها الصحية، لكن لم يمضِ وقت طويل حتى عاد سخطها القديم بقوة مضاعفة. كم كان مزعجًا للغاية أن ترجع في كلمتها! ولماذا بحق السماء؟ لِمَ فعلت ذلك؟ إنها، بيتسي، لم تستطع في حياتها أن تفهم لِمَ غيَّرت إيلينه رأيها. مَنْ الذي ربما تفضل الزواج منه غير أوتو، رغم أنه ربما لا يرفل في الثراء؟ الآن خططها للمستقبل تدمرت! إذا لم تتزوج إيلينه، فإنها ستظل تعيش معهم إلى الأبد، وبالنسبة لفنسنت، فهو عالة على الآخرين إن كان هناك من هو كذلك! شعرت بالقرف والتعب منهما معًا، بالطريقة التي كانا دائمًا يفسدان بها الجو بسلوكهما الأناني.

مصدر آخر من مصادر انزعاج بيتسي كان كل ما يُقال عن أوتو وإيلينه أنهما فسخا خِطْبتهما. لم تكن لتعبأ كثيرًا بالقيل والقال، والتي كانت تعرف أنه ما يلبث أن يهدأ بما فيه الكفاية، لو أن إيلينه أعطتها الانطباع بأنها الآن فعلت ما أرادت، وأن الأمور ستعود قريبًا إلى وضعها الطبيعي، وأنها ستنفض عنها أخيرًا هذا الحزن السخيف على أوتو وتعود تدريجيًا لطبيعتها القديمة مرة أخرى، الأخت الصغرى، التي كان وجهها الجميل وأسلوبها الساحر رصيدًا مضافًا عندما تحيي الضيوف في أمسية ما. ياه، لو تعمل إيلينه معروفًا وتعود إلى صوابها، فسوف تكون أعظم أمنيات بيتسي أن تقيم معهم لأطول مدة تريدها، لكن حقيقة الأمر كانت أن إيلينه باتت دائمًا في مزاج كئيب- إما متجهمة وفي حالة ذهول أو مستثارة، تُكملها بنوبات صياح وصراخ شديدة. لم تعد إيلينه تخرج هذه الأيام، فقط ذلك المساء، عندما دعت بيتسي عددًا قليلاً من الضيوف على العشاء- فقط مدام إيخوف مع آنجه وليوني، ومارجريت فان لارن وخطيبها، والفتى هايدريخت- لزمت بالفعل حجرتها بحجة إصابتها بصداع شديد. بدأ

صبر بيتسي ينفد. لِمَ كان علي إيلينه أن تبدو شاحبة ومرهقة العينين، لِمَ لَمْ تهتم بأن تصفف شعرها بشكل سليم هذه الأيام؟ وتلك المحادثات الثنائية، التي لا نهاية لها مع فنسنت! صحيحٌ أن فنسنت ابن عمهما وشبه غير صالح لها في ذلك الأمر، لكن ثمة شيء غير لائق بشأن الطريقة، التي تتسلل بها معه إلى حجرة الانتظار البنفسجية، أو إلى مخدعها أو البيت الزجاجي. قررت أن تقول شيئًا المرة القادمة، التي تراهما فيها وهما يتشاركان الأسرار؛ لن يصلح هذا الموضوع ببساطة.

في حالتها الذهنية المُستفَزّة بات غضب بيتسي سريع الاستثارة، وبجانب توصيل وخزات من الرفض لإيلينه وفنسنت في كل فرصة، كانت تنفس عن غضبها على الخدم وعلى بِنْ وعلى زوجها. كانت تتنقل، وهى المستحيل إرضاؤها، حول المنزل متظاهرة بالدقة والاهتمام بالتفاصيل كربّات البيوت، تستشيط غضبًا بسبب قماشة لمسح الغبار تُركت ملقاة هنا أو هناك أو ذرة من زَغَب على السجاد، تحتج على ابنها الصغير عندما يجلس بهدوء مع ألعابه أو توبخ زوجها إذا أساء التصرف كوجود شيء مُلِحّ للقيام به في مكان ما في اللحظة، التي تفتح فيه فمها! في معظم الوقت كانت غير راضية عن نفسها، لأنها باتت سيئة المزاج للغاية. لكن لا شيء من كل ذلك كان ذنبها. كان كل شيء غلطة أختها وفنسنت.

في يوم من الأيام، قبل العشاء مباشرة، وصلت الأمور إلى ذروتها. كل ما قد حدث ليشعل غضبها أنها دخلت على فنسنت، وهو يرفع كأسًا إلى شفتيه في حجرة الطعام. لم يكن جرس العشاء قد دق بَعْدُ، وقد تناول بعض النبيذ من إناء الخمر، بعدما نسيت كل حذرها السابق فيما يتعلق بفنسنت، هاجمته لسلوكه البغيض. أين كانت أخلاقه؟ ألم يكن يعرف أنها تدير بيتًا محترمًا؟ في الواقع، كانت تقصد أن تطلب منه بعض الوقت ما إذا كانت لديه أي أخلاق على الإطلاق! بالتالي وقفا وجهًا لوجه، يحدق فيها فنسنت بضبط نفس بارد بينما هاجمته بيتسي بعنف، عندما دخل هِنْك وإيلينه. لم تقم إيلينه بأي تعليق،

رغبة منها في ألا تتحيز لأي من الطرفين، بينما حاول هِنْك تهدئة زوجته. جاءت جهوده بتأثير عكسي، وحوَّلت فورة غضبها عليه، متهمة إياه بأنه بلا فائدة، وغير ملتزم بواجباته كالمعتاد. لم يكن النبيذ ما اعترضت عليه- بإمكان فنسنت أن يشرب قدر ما يشاء إن كانت تهتم- ما حَرَقها أنه بدا أنه يظن أنه يعيش في فندق مجانًا، حيث يمكنه فقط البقاء طوال الفترة التي يراها مناسبة، ويتناول بنفسه أي شيء يخطر بباله. لم يكن من شأنه النزول إلى حجرة الطعام قبل أي أحد، وقبل أن يدق جرس العشاء، لقد كانت وقاحة صريحة، وهى لم تكن لتقبل بها!

احتفظ فنسنت بنواياه لنفسه، معترفًا بالهزيمة المؤقتة، لكنه عند انسحابه من الحجرة رمق بيتسي بنظرة ازدراء وبغضاء كأنه يريد أن يوقع الخوف في قلبها. تبخر انتصارها في مكانه لأنها سرعان ما استجمعت نفسها، لتعلن أنه قد حان الوقت لتقديم طعام العشاء، وأشارت إلى هِنْك وإيلينه لأخذ مقعديهما على المائدة. أخذ هِنْك نفسًا عميقًا، وفعل كما طُلِبَ منه؛ جلست إيلينه أيضًا، وشرعت تنشر منديلها بحركة متعمدة. لم تتكلم بيتسي ولا هِنْك كثيرًا بعد ذلك، ولزمت إيلينه صمتًا متواضعًا طوال الوجبة.

ذلك المساء حَضَّر فنسنت حقيبته استعدادًا لسفره إلى لندن. لم يبذل هِنْك سوى محاولات فاترة لإثنائه، لأنه كان يعرف أنه مع ابتعاد فنسنت كانت هناك فرصة أكبر لاستعادة شيء من الانسجام في المنزل. من المؤكد أنه شعر بالأسف لفنسنت، لكنه لم يستطع أن ينتظر حتى ترتاح بيتسي من هذا الابن عم المزعج، الذي كانت تتملقه أولاً، ثم تأتي بعد ذلك لتبغضه من أعماق قلبها.

في صباح اليوم التالي انخرط فنسنت في محادثة أخيرة مع إيلينه في مخدعها. سألت: «إذن فأنت سوف تسافر حقًا؟».

«طبعًا، صغيرتي العزيزة. تعلمين كما أعلم أنا أن بيتسي لا تطيقني».

«ماذا ستفعل في لندن؟».

«لدي أصدقاء هناك، لدي بعض الأمور المالية لأهتم بها قبل أن أسافر إلى

أمريكا».

«سوف تسافر إلى أمريكا بعد ذلك؟».

«تعرفين بأنني سأسافر إلى هناك: أنتِ أحضرتِ لي رسالة سانت كلير بنفسك، تذكرين».

«لم أكن أعرف أنك قررت ذلك بشكل مؤكد. أيها المسكين!».

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يشعر بالرضا لسماع القلق في صوتها.

«هل تشعرين بالأسف تجاهي؟».

«نعم، أشعر. وبعودتك إلى حياة الترحال، من يدري كم من الوقت سيمضي قبل أن أراك مرة أخرى؟ ربما مطلقًا!».

تنهدت.

رَدَّ بحسم: «أنا دائمًا في أسعد حالاتي عندما أرتحل من مكان لآخر».

تاقت لأن تسأله ما إذا كان يمكنها مرافقته في أسفاره، أن تنضم إليه في بحثه عن السعادة في البلدان والأجواء الأخرى، لكنها لم تستطع التفكير في كيفية صياغة سؤالها، لذلك انتظرت على أمل أنه سيطرح إمكانية ذلك بنفسه. كان يحبها في نهاية الأمر؛ لقد كان بسببها قراره بأن يسافر للخارج في المقام الأول، والآن لم يكن هناك شيء يمنعهما من أن يكونا معًا.

فكرت: «لا يجرؤ على السؤال! لا يجرؤ»، غير متأكدة إن كانت مسرورة أو مُحبَطة بسبب خجله.

رددت في تأمل: «في أسعد حالاتي عندما أرتحل من مكان لآخر! هذا جائز على ما أظن. أنت رجل، أنت حر في ترحالك ... لكنني فتاة، ولقد عشت في نفس المكان طوال حياتي ... هذا لا يعني أنه لا يسعدني. بأي شكل من الأشكال!».

نظر إليها نظرة متسائلة، وبعد توقف لفترة وجيزة سألها:

«ولِمَ أنت لستِ سعيدة؟».

غمغمت: «لِمَ أنا لستُ سعيدة؟ لا أعرف في الحقيقة».

انتظرت منه أن يهاجمها بإجابة، لكنه أخبرت نفسها في الوقت الراهن بأنه قد يظن أنه من غير المناسب أن يفعل ذلك الآن، على أساس أنها لم تفسخ خِطْبَتها على أوتو إلا مؤخرًا. لكنها كانت متأكدة أنها قد سمعت نغمة الحب في صوته الرقيق، ونظرت إليه بترقب. دخل شعاع من أشعة الشمس الحجرة عبر الستائر المتباعدة جزئيًا، ليضيء بوهج الجسد النحيل الجالس على الأريكة، وانقبضت لما رأت كم يشبه والدها إلى حد كبير. بدأت نبضات قلبها تتسارع، وشعرت بطفرة كبيرة من الحب لفنسنت، على أساس ذلك الشبه نفسه، وعلى أساس معاناته في ظل أعراف المجتمع وتقاليده ضيقة الأفق، وعلى أساس تصورها المثالي والرومانسي عنه.

رد على نظراتها بتعبير من التعاطف. لقد ألقت بفرصتها في السعادة في البحر، كما عُرِفَ عنه نفسه أنه قد قام بذلك في عدة مناسبات في الماضي، رغم أنه لم يكن أبدًا واعيًا تمامًا بها كما بدت الآن. للحظة مرَّ بباله أن يخبرها بنفس الشيء تقريبًا، لكنه بعد ذلك فكر في الأمر مرة أخرى؛ لم تكن لتستمع إليه بأية حال من الأحوال.

«فنسنت!»، تلجلجت لمدة طويلة، مشحونة وهى تنتظره ليصرح بشيء ما. «فنسنت، أرجوك- قد لا نرى بعضنا البعض مرة أخرى أبدًا. هل أنت متأكد أنه ليس لديك شيء لتقوله لي؟».

«ياه، لدي الكثير لأقوله لكِ عزيزتي إيلي. أولاً، أريد أن أشكركِ على تمريضي وتدليلي كأخت حقيقية، هنا في حجرتك الخاصة، في وقت من المعاناة المؤلمة بالنسبة لك».

«ما الذي يجعلك تعتقد بأنني كنتُ أعاني؟».

«لأنني أعرف شيئًا أو شيئين عن الطبيعة البشرية».

هزت رأسها في إنكار.

«لا أعتقد بأنني عانيت بحق. أقصد شخصيًا، فقط بالنيابة عن أوتو».

شعرت بوخز الذنب لتلك الكذبة، لكنها كانت من أجل فنسنت، فنسنت، الذي كان يحبها ويجب ألا يعرف عن وجع قلبها. تطلع في وجهها باهتمام، وتساءل لِمَ ينبغي أن تريد إخفاء الحقيقة عنه. لم يفهمها، إلا أنه بعد ذلك يصعب دائمًا سبر أغوار طرق عمل العقل الأنثوي، إن لم نَقُل أنه يكتنفها الغموض.

من جانبها لم تكن تفهمه. لم تجد تفسيرًا لعدم طلبه منها أن تكون له، الآن وبعد ألا شيء يقف في طريقهما، الآن وقد أوشك على السفر للخارج. ساعة أخرى وسوف يرحل! آه، لكن ربما ظن أنها متأخرة أكثر من اللازم. أخذت نفسًا عميقًا، وبإلحاح جديد في صوتها قالت:

«فنسنت، أريدك أن تعدني بشيء. إذا كان هناك أي شيء يمكنني أن أفعله من أجلك، إذا استطعت أن أساعدك بأي وسيلة، لا بد أن تكتب لي من نيويورك، وأنا لن أخذلك. أتعدني أنك ستكتب لي؟».

«أعدكِ. أنتِ طيبة جدًا».

«شيء آخر: أعلم أنك غالبًا ما تكون بحاجة إلى المال. إن استطعت المساعدة، لا بد أن تعرِّفني. فقط الآن، مثلاً، لديّ مئتين وخمسين جيلدر كادخار. هم لك، إن كنتَ بحاجة إلى أي أموال. هل أحضرهم لك؟».

نهضت، وتوجهت إلى طاولتها الخاصة بالكتابة، لكنه أمسك يدها في استعراض للعاطفة.

«إيلي، يا إيلي، لا- ربما لا أستطيع. كم لطيف للغاية منكِ، وأنا ممتن بعمق، لكنني لن أستطيع أن أسددها لكِ لفترة طويلة من الوقت».

«أرجوك لا تقل لا، أنا أود حقًا أن تأخذهم».

«لا أستطيع أن أخبركِ كم أُقَدِّر عَرْضَكِ، لكن لا، حقًا، لا أستطيع أن أقبل. لن يكون هذا من الصواب».

وقفت ساكنة تمامًا، وجهها خالٍ من أي لون. نعم! نعم، بالطبع كان يحبها! كيف يمكن أن يكون لديها أدنى شك؟ وإلا فلِمَ يرفض المال؟ الأمر هو لأنه يحبها فلن يدع دَيْنًا يدخل بينهما! لكن إذن لِمَ لَمْ يقل أي شيء؟

أخيرًا نهض واقفًا؛ من المتوقع أن تصل عربة الأجرة في غضون بضع دقائق.

قالت في تضرع: «ألا يمكنك أن تصلح الأمور مع بيتسي قبل أن تذهب؟ كم بغيضٌ أن ترحل في ظل هذه الظروف».

«سأذهب لها الآن، وسرعان ما سيعود كل شيء إلى نصابه مرة أخرى بما فيه الكفاية. لكن الآن لا بد أن أرحل. وداعًا، عزيزتي إيلي. الوداع، وشكرًا لكِ ألف مرة لكل ما قمتِ به من أجلي».

«وداعًا يا فنسنت، وداعًا».

ولما هَمَّ باحتضانها، ألقت بذراعيها حول عنقه وقَبَّلَته على وجنتيه كلتيهما.

قال لها: «اجعليني في بالكِ بين الحين والآخر، ممكن؟ أنتِ لكِ مكانة غالية جدًا لديّ، وليس لديّ الكثير من الناس الذين يحتلون مكانة غالية عندي كما تعرفين جيدًا. الوداع إذن يا إيلي، أوريڤوار».

وبينما كانت تقاوم دموعها، قَبَّلَتْه مرة أخرى، ولما ابتعدت استقرت على الأريكة، لتومئ برأسها إيماءة وداع أخيرة. رحل، مغلقًا الباب وراءه.

جلست تحدق في الباب حتى سمعت عربة أجرته تدمدم منطلقة. كانت في حيرة. كيف يمكنه أن يقَبِّلَها بذلك الهدوء والبرود في لحظة الحميمية الأخيرة تلك؟ تمنت كثيرًا أن تفهم مشاعره، وأيضًا أن تستكشف مشاعرها حتى يمكنها أن تعرف إن كانت بحق أحبت فنسنت، لكنها كانت متعبة وشعرت بأن رأسها ثقيل، وبتنهيدة مُنْهَكة عادت مرة أخرى للاستلقاء على الوسائد.

***

صَفَحَت بيتسي عن فنسنت في آخر لحظة. لدى معرفتها بأنه سيرحل أخيرًا تمكنت من احتمال تليين المعاملة معه، ولذلك أطلقت ملاحظات للتصالح

مفادها بأن وقتهما معًا لن يلبث أن يتقلص بأي حال لأنها تخطط للسفر إلى الخارج في الخريف. بمجرد رحيله عادت تدريجيًا إلى طبيعتها الأولى مرة أخرى، لم تعد تنفِّس عن غضبها كثيرًا في الخدم أو إيلينه أو هِنْك أو بِنْ، بل كانت تتحدث بصورة ودية مع أختها من آنٍ لآخر: لم تكن فكرة جيدة حقًا أن يعزل الإنسان نفسه عن العالم بالطريقة، التي كانت تفعلها، فهذا من شأنه أن يجعل أي إنسان وحيدًا وبائسًا، وإلى جانب ذلك، من شأنه أن يجذب الانتباه- قد يظن الناس أنها تشعر بالندم لفقدانها لفان إرليفورت! لا، سيكون أمرًا جيدًا لو أنها أظهرت وجهها للناس مرة كل فترة؛ لم تكن هناك حاجة لقبول كل دعوة إن لم تشعر بأنها مستعدة لها، لكن إرسال اعتذاراتها كل مرة سيعطي انطباعًا خاطئًا، كما حدث، أقامت مدام هوفل حفل عشاء في الأسبوع التالي؛ كانت أمسياتها حميمة نوعًا ما في العادة، ولم تكن هذه الدعوة استثناءً. إيميلي وجورج دي ڤوده سيكونان هناك، وكذلك پول- بعبارة أخرى، هل يجب أن تقبل بيتسي بالنيابة عن إيلينه؟

بدأت إيلينه نفسها تشعر بالرغبة في تغيير المشهد لأنها كانت واقعة في شَرَك أفكارها الانفرادية، والتي ظلت تدور وتدور في رأسها دون أن تصل بها إلى أي مكان. لذا اعترفت بأن بيتسي كانت على حق تمامًا: ستقبل دعوة مدام هوفل. سيكون هذا أول ظهور لها في صحبة آخرين منذ فسخ خِطْبَتها. صار حفل العشاء منذ بضعة أيام فصاعدًا مرساة لمشاعرها المتقلبة، تسلية مُرَحَّبًا بها عن إشارات بيتسي المستمرة إلى إقامة فنسنت المتعبة في منزلها. كم كانت نعمة التخلص من ابن عمهما الواهن، ذلك الذي لا يطاق! صحيح، أنها عبَّرت عن استيائها من خرق بسيط إلى حد للإتيكيت من جانبه، لكنه كان مخطئًا تمامًا في ذلك، ولم تندم ولو قليلاً لأنها وبخته، لأنها لو لم تفعل ذلك لكان لا يزال مقيمًا عندها! يا ربي، كم كان مزعجًا! لم تستطع أن تتخيل لِمَ فكرت يومًا ما أنه يمكن أن يكون صحبة لا بأس بها. ووجهه الطويل ذلك- تقريبًا كالزواحف، كريه تمامًا، فعلاً. آه حسنٌ، الشكر للرب أنه رحل الآن، وكانت سعيدة بأن تعفو

عما سلف.

في أثناء تناول وجبات الطعام كل يوم كانت بيتسي تواصل الدردشة في نفس الموضوع الطائش، تتلو نفس القائمة من الذم والاستخفاف. جلس هِنْك وإيلينه في صمت كئيب، تحت تأثير تخدير هذرها وثرثرتها. بقدر ما أرادت إيلينه أن تتكلم للدفاع عن فنسنت، شعرت بأنها مُثْبَطة الهمة للغاية، وببساطة تنفست الصعداء عندما انتهت بيتسي أخيرًا من التنفيس عن غيظها. عانت في صمت من أجل فنسنت الذي أحبها، وتصرَّف بقدر كبير من الاحترام.

جاء يوم العشاء. أولت إيلينه للمرة الأولى منذ أسابيع عناية كبيرة بمظهرها، لكن وبينما كانوا ينتظرون وصول العربة، وصفتها بيتسي بأنها مُبالِغَة في لبسها: يا له من فستان قاتم اللون، ورسمي جدًا، عجبًا، بدت كما لو كانت ذاهبة لحضور جنازة! لم تقل إيلينه شيئًا، فقط رفعت كتفيها في تجاهل. تطلعت في المرآة، التي تُعَلَّق عليها الملابس وشعرت باطمئنان: رأت أنها خلقت انطباعًا من الأناقة الهادئة بملامحها الشاحبة الحزينة وفستانها المفتوح من التول الأسود الرقيق.

كانوا آخر مَنْ وصل إلى بيت عائلة هوفل، وعندما دخلت إيلينه انتابها شعور بأن الجميع في الحجرة كانوا يراقبونها بنوع من الفضول الزائد. كانت المرة الأولى، التي شعرت فيها بعدم الارتياح لكونها في بؤرة الانتباه، إلا أنها كانت تعرف كل ضيوف العشاء معرفة وثيقة جدًا: إيميلي وجورج دي ڤوده، وفرانسواز أودندايك، وهايدريخت وپول. من ناحية أخرى، لم يرها أي أحدٍ منهم منذ أن فسخت خِطْبتها، لذلك لم يكن هناك شيء سوى أن تحاول وتتجاهل نظراتهم المحبة للاستطلاع. وعلى المائدة، جلست بين جورج وهايدريخت، شعرت بقليل من الرغبة في الكلام، وسعدت بمحادثة الأخير المدمدمة، والتي تظاهرت بالاستماع إليها، مبتسمة ابتسامة مبهمة ولا ترد بكلمة واحدة عليه. كان جورج أكثر هدوءًا من المعتاد، لكن على الجانب الآخر من المائدة دارت محادثة عالية الصوت ومازحة بين إيميلي وفرانسواز،

بينما قام بول، الذي كان جالسًا بينهما، بدور الحَكَم.

أصابت الضجة أمامها، وثرثرة هايدريخت المتواصلة بجوارها، والحركة بوجه عام حول مائدة العشاء رأس إيلينه بالدوار. الخدم الذين كانوا يقدمون كل صنفٍ من أصناف النبيذ كما مروا لملء كأسها مرة أخرى، وكميات الطعام الوفيرة، والمزاح والمرح الصاخب- كم كان كل ذلك مملاً جدًا. أخرجها بعنف ذكر اسم فنسنت من استغراقها الكئيب في الخيال؛ إذ كانت بيتسي تخبر صاحب الحفل بأن ابن عمها رحل، وأنه قد يسافر إلى أمريكا.

«أقول لك الحقيقة، لم أشعر بالأسف لرؤيته يرحل، فأنا لا أعبأ به حقًا؛ في الواقع أنا أرى أنه شخص كريه إلى حد ما. بالطبع، ونظرًا لأنه ابن عمنا، فلا يمكننا أن نتجاهله تمامًا، لكنه غريب الأطوار للغاية، ولم أستطع أن أقاوم الخوف من أنه قد يفعل شيئًا ليساومنا به».

لم تعد إيلينه تسمع ما كان يقوله هايدريخت؛ بل أصغت آذانها لصوت بيتسي الثرثار، والذي استطاعت أن تميزه بسهولة إلى حد ما وسط الهرج والمرج. إذن لم يكن يكفي بيتسي أن تنتقده بشدة وباستمرار في خصوصية منزلها، وإيلينه محاولة ببسالة الاحتفاظ بمشاعرها لنفسها، بل كانت في الواقع تنفِّس عن كراهيتها لفنسنت في حجرة الطعام هذه، بين الغرباء! كانت إيلينه تستمع في غضبٍ متصاعد.

«هناك شيء مخيف فيه- كالضفدع قليلاً، أو أحد الزواحف، ألا توافقني؟ منفر أيضًا، بعيونه الشاحبة المراوغة تلك».

لم تستطع إيلينه السيطرة على نفسها أكثر من ذلك. الشخص الذي كان أعز شخص بالنسبة لها في العالم كله، والذي يذكّرها كثيرًا بأبيها، كان يُحَطُّ من قدره في السهرات عن طريق أختها، بأشنع أشكال الابتذال، التي يمكن تخيلها! وكانت تجعل هوفل يضحك! احمرت عينا إيلينه في غضب، وانفجرت وهى ترتجف من الضيق، ورفعت صوتها بحيث يصل عبر قطعة الكريستال في وسط

المائدة إلى الجانب الآخر منها:

«بيتسي! أرجوكِ انتبهي لما تقولينه! أنتِ لستِ في بيتكِ، وأنصحكِ بأن تجدي شيئًا آخر لتسلية مستر هوفل به بدلاً من أن تقولي مثل هذه الأشياء البغيضة عن فنسنت!».

كان صوتها آمرًا للغاية لدرجة أن الكُلّ توقفوا عن الكلام في منتصف الحديث. ثبتت كل العيون على بيتسي وإيلينه إذ تحول المرح إلى إحراج ثقيل، وإيلينه التي كانت إثارة شجار على الملأ شيئًا بغيضًا لديها من قبل، جلست مستقيمة الظهر، تحملق في تحدٍ في بيتسي والباقين، ولا تعير أدنى اهتمام بأن سلوكها جاء منافيًا لأعراف الحفلات والسهرات المحترمة. كانت بيتسي، التي احمرَّ وجهها بسبب الغضب المتوتر، على وشك الرد بشيء قاطع، لكنها سيطرت على نفسها في الوقت المناسب تمامًا. استدارت إلى هوفل بدلاً من ذلك، وتحدثت متظاهرة بالهدوء:

«أعتذر يا مستر هوفل لهذا الانقطاع. فأختي تعاني من تعب في أعصابها في الآونة الأخيرة. لا تعبأ بها من فضلك».

بعدما كبحت غضبها بحنكة، سرعان ما بدأت تضحك مرة أخرى وتحدثت في موضوع أخفَّ ظلاً.

كانت صاحبة الحفل مصدومة إلى حد ما من الواقعة المحرجة على مائدة عشائها، لكن إيميلي دي ڤوده، التي تصرفت وفقًا لطبيعتها المتحمسة جاءت لإنقاذ الموقف بحنكة أكبر مما استطاعت بيتسي أن تستجمعها. التفتت إلى إيلينه، التي كانت لا تزال ترمق أختها بنظرات تهديد ووعيد، وخاطبتها مباشرة. كان نبرتها مسترضية في البداية، لكنها لم تلبث أن تحولت إلى روح الدعابة.

«آه حسنٌ يا إيلينه، شخصيًا لا أجده تقريبًا بغيضًا، كما يبدو لمعظم الناس، لكن لا بد أن تفهمي أن وجود شخص وبقاءه تحت سقف واحد لفترة طويلة، كما شهدت بيتسي، مسألة مختلفة تمامًا؛ لا بد أن تؤدي إلى قدر معين من

الاحتكاك. هذا أمر طبيعي: الرجال دائمًا يعطلوننا عن القيام بعملنا. أنا أعرف ما الذي أتحدث عنه، لأنه وجورج يعيش معنا في البيت- ياه، لن تصدقي كم الإزعاج والضجة، التي يسببها! دائمًا يعطل الأمور- عجبًا، الأمر كافٍ لدفع أي شخص إلى الجنون!».

«أنا؟»، همهم جورج، متصنعًا الغضب، أنا؟»، ودافع عن نفسه بقوة.

انطلقت نوبة من الضحك على هذا الشجار الكوميدي بين الأشقاء، واللذيْن كانا معروفيْن بأنهما مخلصان لبعضهما. حتى أنها رسمت ابتسامة عابرة على وجه إيلينه، وشعرت مدام هوفل بالكثير من الامتنان لإيميلي.

* * *

أمطرت بشدة طوال اليوم، والرياح القوية تجلد الأشجار، وتجعل الأغصان تتأوه إذ اكتست الأرض بالأغصان الصغيرة المكسورة وأوراق الخريف. لما حَلَّ المساء، ركبت بيتسي وإيلينه وهِنْك العربة إلى البيت في الساعة العاشرة والنصف، وثارت الرياح لتستحيل إلى عاصفة عاتية، مما جعل كافة مصابيح الشارع الزجاجية تجلجل في قواعدها وتقتلع قطع القرميد من أسقف البيوت. كانت بيتسي تنوي توبيخ إيلينه في الطريق، لكن كانت هناك ضوضاء كثيرة لدرجة باتت المحادثة معها تقريبًا ضربًا من المحال، والبرد القادم عبر ثغرة في الباب جعلها ترتجف.

خافت: «يا له من طقس عاصف! أتعتقد بأنه أمر خطير يا هِنْك؟ ألن تكون الخيول خائفة؟».

هز هِنْك رأسه. مثلها، استمع الى عويل الرياح وسمع الأمطار وهي تنقر على السطح. ظلت إيلينه صامتة أيضًا. وعندما اقتربوا من ناساوپلاين رحب بهم خيرارد، الذي فتح الباب الأمامي على مصراعيه حتى قبل أن يكون لدى هيرمان الوقت لدق الجرس، وركضت بيتسي وإيلينه إلى الداخل بينما أعطى هِنْك بعض التعليمات الأخيرة لديرك بشأن الخيول. صعدت إيلينه مباشرة الى

حجرتها.

«يا لها من ليلة عاصفة، سيدتي»، قالت مينا، وهى تساعد بيتسي في خلع ردائها، «المرء قد يظن أن نهاية العالم قد اقتربت! سجلي كلماتي، سوف يتحطم عدد كبير من الأشجار ويسقط أرضًا قبل الصباح. كنت أنا وجريت مرعوبتين جدًا. ياه، أنا سعيدة للغاية أنكِ عدتِ بأمان للبيت مرة أخرى!».

لم تُجِب بيتسي، وشرعت في صعود الدَّرَج بنية كاملة في مواجهة إيلينه، لكن العاصفة العاتية بالخارج بدت أنها جعلت غضبها يحيد جانبًا، تاركة إياه في شيء من الحيرة فيما عليها أن تقوله. تحولت أفكارها إلى احتمالية أن تكون النوافذ في البيت قد تُرِكَت مفتوحة، وأن تكون مداخن المدفئة اُقتلعت من فوق السطح.

نادت من بسطة الدَّرَج: «خيرارد! مينا!».

جاء كلاهما ركضًا.

«هل أنتما متأكدان أنكما أغلقتما كل شيء بشكل مضبوط؟».

«آه نعم سيدتي!».

«حسنٌ، أريدكما أن تتأكدا تمامًا أن جميع النوافذ مغلقة بشكل آمن. ماذا عن العُلِّية، مثلاً؟ اذهبا وتحققا، لا تعرفان أبدًا ما كان سيحدث».

بعدما أرسلت الخدم، استعادت بيتسي عقلها. نعم، ستواجه إيلينه في حجرتها. لا ينبغي لأختها أن تظن أنها يمكن أن تُفلت بهذه الوقاحة.

دخلت بيتسي مخدع إيلينه، حيث كان قنديل الغاز مضاءً. خشخشت الريح زجاج النوافذ ونفخت الستائر. كانت إيلينه تخلع عباءتها.

سألت بغطرسة: «ما هذا؟ أود أن أكون وحدي».

«هل يمكنني أن أذكِّركِ أنكِ في بيتي، وأنني أستطيع أن أدخل أي حجرة أريد؟ لدي شيء لأقوله لكِ».

«حسنٌ، استمتعي بها إذن، لأنني، كما قلتُ، أريد أن أكون وحدي».

«أريد! أريد!»، ما الذي يعطيكِ الحق في التحدث إليّ بتلك اللهجة؟ أنتِ هنا في بيتي، وليس من حقكِ أن تريدي أي شيء!»، قالت بيتسي، وهى تستشيط غضبًا، وتضرب الأرض بقدميها. «تتصرفين كأميرة صغيرة مدللة تفعل دائمًا ما يحلو لها! هل تظنين أنني سأسمح لكِ بأن تفلتي بوقاحتكِ معي على الملأ؟ أتظنين ذلك؟ كيف تجرؤين أن تقولي لي ما يجب أن أقول وما لا يجب؟ أستطيع أن أقول ما أشاء لهوفل! ولا أحتاج إلى أي تلقين منكِ، أتسمعين؟».

«أحذركِ يا بيتسي، أنه من الآن فصاعدًا، كلما سمعتكِ تتكلمين عن فنسنت بهذه الطريقة المشينة، حتى لو كان في بيتكِ، فسأضع حدًا لذلك».

«آه، إذن أنتِ تحذرينني الآن أليس كذلك؟ ليست لدي أي نية للسماح بأي شيء مهما كان من حساسيتكِ الغبية فيما يتعلق بفنسنت! الآن وقد رحل، كنتِ تظنين أنه سيكون بيننا بعض السلام مرة أخرى، لكن لا! هل كان هو الذي عَلَّمَكِ أنه من الصواب تمامًا مقاطعة الناس في وسط محادثة؟ لا يمكنني أن أعرف ما الذي دهاكِ! لا بد أنهم ظنوا أنكِ مجنونة. نعم، لا بد أن تكوني مجنونة، هذه هى الحجة الوحيدة، التي يمكنني أن أفكر فيها للتصرف بهذا الشكل! وتدعونني مبتذلة- ماذا تظنين أن هذا يوصلكِ إليه؟ أنتِ، التي تجرأتِ على-».

«أعرف، أعرف- أنا، التي تجرأتُ على مقاطعتك في حفل عشاء! نعم، تجرأتُ على القيام بذلك! لكنني أعدكِ بأنني سأتجرأ أكثر بكثير لو سمعت كلمة أخرى تُقال ضد فنسنت. تعتقدين بأنه خبيث، لكنكِ أنتِ الخبيثة- في البداية تدعينه للإقامة، ثم تصابين بنوبة غضب على شيء تافه، وتصرخين فيه كبائعة سمك حتى يرحل! أنتِ الشخص، الذي يوصف بالخبث!».

«احتفظي بشتائمكِ لنفسك، من فضلكِ».

احتدمت إيلينه: «وأنتِ احتفظي بملاحظاتكِ البذيئة عن فنسنت لنفسكِ في المستقبل! لن أسمع كلمة أخرى تُقال ضده، لقد تحملت هذا لمدة طويلة

بما يكفي من أجل السلام، لكن الآن لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك! أتفهمين؟».

«تقولين لا تستطيعين تحمل ذلك أكثر من ذلك؟ آه، إذن بسبب فنسنت لم تعودي تستطيعين تحمل أوتو أيضًا على ما أظن».

صرخت إيلينه: «أخرجي أوتو خارج هذا!».

«لا تقصدين أن تقولي إنكِ وقعت في هوى ذلك الحيوان الزاحف؟ ألذلك كنتِ تعاملين أوتو، كما لو كان مجرد أحد معجبيكِ، شخصًا تقضين معه علاقة مرحة قصيرة؟ تقولين إنكِ لن تتحملي انتقادي لفنسنت، لكنني أنا- أنا التي لن أتحمل أيًا من سلوكياتكِ الفاضحة! من تظنين نفسكِ؟ أولاً أنتِ غبية بما فيه الكفاية لفسخ خِطْبتكِ لمجرد نزوة محضة، ودون أدنى سبب، لذا الآن لدينا كل الألسنة، التي تلوك سيرتكِ بالقيل والقال، بعدها بدأتِ في عمل ضجة بشأن فنسنت هنا في بيتي كما لو كنتِ واقعة في غرامه، والأنكى من ذلك لديكِ الجرأة لإهانتي أمام الآخرين! لن أسمح بذلك، أتسمعين؟ وإذا كنتِ اكتسبتِ أخلاقكِ السيئة من كل تلك النقاشات الفلسفية الغبية مع فنسنت، إذن-».

كانت إيلينه في غاية ثورتها وغضبها. كانت أعصابها مشدودة إلى أقصى حد، يرتعش جسدها تحت توبيخ بيتسي القاسي. ما قالته بيتسي عنها وعن أوتو، خصوصًا بشأن تعاطفها مع فنسنت، والذي ظنت أنها أبقته خافيًا عن الكل، ملأها بالغضب العاجز. قبضت على معصميّ بيتسي، وقالت بحدة بين أسنانها، صاحت بقوة:

«اخرسي! توقفي، أقول لكِ! أتجرؤين على إعطائي محاضرة بشأن أوتو أو فنسنت حول هذه المسألة، وإلا سوف أصفعكِ. أنتِ كريهة. لقد تحملت قدر احتمالي من استفزازكِ! أنا أحذركِ!».

صاحت بيتسي، لكن إيلينه وقفت حيث كانت، تهز قبضتيها، «إيلينه، هل فقدتِ عقلكِ؟».

«نعم، أنتِ تدفعينني للجنون بكل استفزازكِ لي بشأن »بيتي، بيتي«! أدرك جيدًا أن الذي أعيش فيه هو بيتكِ، لكنني لم أطلب أبدًا المجيء إلى هنا، وأنتِ تواصلين اللعب على نغمة أنه بيتكِ كما لو كان ينبغي عليّ أن أشكركِ على استضافتك لي. أنا لا أعتمد عليكِ في أي شيء، وحتى لو كنتُ أعيش تحت سقف بيتكِ، هذا لا يعطيك أي رأي فيما يجب أن أفعله أو لا أفعله. أنا حرة، حرة في أن أفعل ما يحلو لي».

«لا لستِ حرة. أنتِ هنا في بيتي، ويجب أن تضبطي سلوكك وفقًا لذلك، وإذا لم تستطيعي، فالأمر إذن متروك لي لأحاول أن أفعل شيئًا حياله».

كانت بيتسي قد تركت الباب مفتوحًا عندما دخلت، وترددت أصداء صراخهما عبر البيت كله، حتى كادت تقريبًا أن تغطي على صوت خشخشة مصاريع النوافذ في العاصفة. ظهر هِنْك في المدخل، لكن لم يتمكن أحد من سماعه وسط الضجة.

صرخت إيلينه: «ليس لديكِ أي رأي تقولينه عن كيف ينبغي أن أتصرف أو ما لا ينبغي! أقول لكِ أنا حرة! لا حاجة بي لبيتكِ، وأقسم لكِ أنني لن أبقى هنا ثانية واحدة! أقسم بذلك! يمكنكِ أن تبتلعي بيتكِ الثمين!»، لم تكن تدري ما تقول، بعدما وصلت إلى ذروة فورة الغضب، ولم تكن واعية أيضًا لما كانت تفعله عندما التقطت عباءتها من على الأرض، وألقتها حول كتفيها. انطلقت مندفعة نحو الباب، لكن هِنْك وقف في طريقها.

بدأ ببطء ورزانة: «إيلينه!».

«دعوني، دعوني!»، انطلقت غاضبة كالنمرة الجريحة، دفعته بعيدًا بقوة لدرجة أنه ترنح من قوتها. حاول إيقافها مرة أخرى، لكنها كانت بالفعل خرجت من الباب، وهبطت الدَّرَج مسرعة.

ناداها أثناء ملاحقتها ملاحقة محمومة: «إيلينه! من أجل ربنا، إيلينه! أنتِ لا تعرفين ماذا تفعلين!»، لم تسمع نداءاته، لأنه لم تكن في ذهنها سوى فكرة

واحدة: الهرب من هذا البيت، الذي لم تكن مرغوبة فيه، ولم تَرَ عيناها خيرارد والخادمات، وهم يحدقون فيها في ذهول فارغ، بينما كانت تسرع بالمرور من الردهة، تركت الباب الداخلي الزجاجي مفتوحًا وبسرعة فتحت ترباس باب الشارع، وأدى هبوب تيار من الرياح إلى إغلاق الباب الداخلي بشدة، ومن وراءها سمعت الزجاج المُحَطَّم يسقط على الأرض.

* * *

ثم انغلق الباب الأمامي أيضًا بقوة وراء ظهرها، ووجدت نفسها في الشارع، تحت المطر الغزير وعاصفة الريح تهب لتفتح عباءتها وتمطر رذاذًا على وجهها ورقبتها. كان من المستحيل بالنسبة لها أن تصارع تلك القوة المستعرة، لذلك استسلمت وتركت نفسها لأن تدفعها العاصفة، وهى تجلد ظهرها، وكأنها مصّاص دماء عملاق بمخالب عريضة وحادة للغاية كالموسيّ. لم تشاهد أي أحد في الشارع، وبينما كانت تركض إلى الأمام وحدها تمامًا في الليل المثقل بالموت، وسط الأمطار، التي واصلت الهطول بلا هوادة، تتقاذفها الرياح العاتية، تملكها الذعر. شعرت كما لو كانت أُنتزعت من حياتها المألوفة وأُلقِي بها في كابوسٍ من الكوارث واليأس؛ كان المطر يدق على رأسها العارية وشعرت بالرعب من الظلام، الذي أحاط بها بالمحن والكوارث. كادت الرياح تمزق عباءتها عند كتفيها، مما أفقدها الحس من البرد في ثوبها التول الأسود المرفرف. خاض حذائها الجلدي الرقيق المتميز في الماء، وخلال البرك والوحل، والتصق شعرها الأشعث، الذي يقطر ماءً على خديها، وتحت عباءتها، التي كانت ترفرف شعرت برطوبة باردة كالجليد تنسلُّ أسفل رقبتها وكتفيها. لم تعد تعرف مكانها، لكنها برغم ذلك واصلت السير مُسرعة، تنتابها قشعريرة من الفزع من كل عود شجر مكسور يأتي متدحرجًا في طريقها، من كل دمدمة مخيفة لقرميد أسقف البيوت غير المثبت جيدًا، ولم تَرَ أي أحد، ولا نفسًا واحدة.

كانت بطيئة في العودة إلى الواقع: لقد هربت من بيت زوج أختها! أرادت

أن تقف ساكنة للحظة لتأمل هذا، لكن العاصفة الهادرة دفعتها إلى الأمام كما لو كانت ورقة من أوراق الخريف التي كانت تطير فوق رأسها، وتركت نفسها بأن تأخذها الريح إلى الأمام، محاولةً جمع شتات أفكارها أثناء سيرها، رغم شدة المحنة، التي أوقعت فيها نفسها، لم تشعر بأي ندم، بل على العكس، وهو ما أثار دهشتها، شعرت بخفقة من كبرياء لجسارتها وجرأتها. لم تتخيل أبدًا نفسها قادرة على الفرار هكذا، في منتصف الليل، دون حتى أن تعرف إلى أين ستذهب! لما شجعتها هذه المفاجأة أكثر، أجبرت نفسها على أن تُعْمِل عقلها في المسألة العاجلة، التي بين يديها الآن: لا يمكنها أن تهيم على وجهها طوال الليل، عليها أن تفكر في مكان تذهب إليه.

فجأة لاحظت أنها وصلت إلى شارع كوبس فان كاتنبورج. هرعت تدفعها الرياح قُدُمًا إلى الأمام على الممر الزلق الموحل، وهي تجفل من الأغصان، التي تتأوه فوق رأسها. صَدَر عن جذوع الأشجار صرير مشؤوم، وشعرت بالرعب من أن أحد هذه الجذوع سيسقط ويسحقها حتى يصرعها. كافحت في السير رغم ذلك، واستدعت كل قوة إرادتها لترتب أفكارها بعض الشيء. إلى أين لا بد لها أن تذهب من أجل محبة الله؟ شعرت بعيون كبيرة تحدق فيها بثبات في الظلام. إلى مَنْ تتوجه؟ إلى مدام فان رات العجوز؟ ياه، ربما كانت مفتونة بإيلينه يومًا ما، لكنها الآن لا بد أنها ستأخذ جانب ابنها وزوجة ابنها! إلى عائلة فرسترايتن إذن، الذين كانوا أقارب زوج أختها؟ شعرت بنفسها تغرق في هاوية موحلة من اليأس. لاح أوتو فجأة في ذهنها، وفكرت أنها سوف تستبدل باقي حياتها عن طيبِ خاطر فقط لكي تجعله يظهر بجانبها في هذه اللحظة، لكي تنجذب إلى حضنه، لكي تُأخَذ بعيدًا إلى مكان آمن مليء بالدفء والنور والحب. طفا اسمه إلى شفتيها كابتهال إلى الله، لكن صوتها غَطَّت عليه العاصفة. كانت غير قادرة على المشي خطوة أخرى، كانت مستعدة لأن تترك نفسها تسقط في الوحل عند قدميها وتستلقي هناك، تجلدها الرياح حتى تموت! لكن ذلك سيكون عملاً جبانًا، بينما وجدت الشجاعة في اتباع دافعها

للرحيل، ولذلك أجبرت نفسها على التركيز في السؤال عمن عساها أن تتوجه إليه في كربتها. لا إلى مدام فان رات- ولا إلى عائلة فرسترايتن كذلك- يا ربي، إلى أين عليها أن تذهب؟ فجأة، كصاعقة من البرق في تلك الليلة من العذاب والخوف، جاءتها الفكرة. چين! في خيالها رأت حجرة جلوس صديقة دراستها القديمة في المسكن الضيق فوق محل البقال. نعم، ذلك هو المكان، الذي ستذهب إليه! كان ملاذًا أخيرًا، لكنها لم تستطع أن تفكير في أي شيء أفضل، وإلى جانب ذلك، بدأت قوتها تخونها. لذلك استدارت لتواجه الرياح الشديدة، وصارعت بخطوات متعثرة لعبور الميدان عند ألكساندرفلد في اتجاه هوجو دي جروتسترات، وهي تمسك بياقة عباءتها بإحكام حول رقبتها، منقوعة عن آخرها في الماء وترتجف من البرد، وعلى الجانب الآخر من الأخضر لم تستطع إلا رؤية الجانب الخلفي من البيوت في ناساوپلاين. كانت لا تزال هناك أضواء في بضع نوافذ، لكنها كانت بعيدة للغاية بحيث يتعذر تمييز أيها كانت في بيت بيتسي- لم يعد بيتها- وانتابها وخز من الشوق والأسف عندما أدركت ما تركته وراءها. بشعور مُقْبِض حسبت كم سيستغرق منها أكثر لتصل إلى شقة عائلة فيريلاين. كانت منهكة، منهكة من المشاجرة مع بيتسي، من الأمطار الباردة كالجليد، التي تهطل وتضربها بلا هوادة على وجهها، من الريح التي تتقاذفها من جانب إلى آخر، من حذائها الجلدي المتميز والمخضل بالماء والوحل، والذي يوشك أن يُخلع منها في كل خطوة. شعرت بأنها كانت على وشك الموت من البؤس والوَحشة والمشقة.

لكنها سارت في طريقها بإصرار إلى الأمام ضد العاصفة حتى وصلت إلى شارع يافاسترات، حيث استدارت إلى اليمين نحو شارع فان ميردرفورت. هبت زوبعة كادت تفقدها توازنها، وجاء غصن شجرة مكسور يتطاير في الهواء، ليخبطها في كتفها ويخدش خَدَّها، عندئذٍ أطلقت صرخة. تملكها الخوف والألم واليأس المُطْلق، بينما جاهدت لتجعل ساقيها تسيران أسرع ... إلى بيت فيريلاين! إلى بيت فيريلاين! ولكن الرياح المستعرة كانت ضدها،

أجبرتها على أن تكافح في السير كل خطوة على الطريق.

«يا إلهي! ماذا فعلت؟»، تأوهت في ألم مبرح وعاجز. تحولت الشوارع، التي كانت مألوفة للغاية بالنهار إلى متاهة شيطانية من الظلام والصخب، والتي شعرت داخلها كما لو كانت روحًا تائهة، كالأشباح وعليها غضب الله، وعندما وجدت نفسها تمرُّ ببيت مدام فان رات العجوز استدعت كل ثباتها لكيلا تدق الجرس، وبذلك ستحظى بالدخول الفوري إلى الدفء والنور. لكن لا، كان الوقت متأخرًا جدًا بالليل، والمدام ستكون نائمة الآن، إلى جانب أنها لن تتقبل هروب إيلينه من ناساوپلاين. ومشت بتثاقل أمام الباب دون أن تتوقف، تدفعها الرياح إلى الأمام ومدفوعة كذلك بحماسها الوليد للوصول إلى عائلة فيريلاين، تضع قدمًا أمام أخرى بشكل محموم، وهي ترتدي حذائها المسائي المخضل بالوحل. انعطفت إلى شارع فان دي شبيخلسترات- كم عليها أن تتحمل المزيد من هذا العذاب؟ هناك، أخيرًا، وبعد طول انتظار، شارع هوجو دي جروتسترات!

وجدت نفسها، والمطر يلسع وجهها والرياح تعصف بعباءتها أشد من ذي قبل- شكرًا للسماء- تقف على عتبة بابهم. كان البيت في ظلام دامس، لكنها لم تتردد. كان هذا خلاصها الوحيد. أمسكت بحبل الجرس ودقته بكل ما أوتيت من قوة، بعنف، بحماس، ودقت مرة تلو الأخرى.

***

كم كان سيأخذ من الوقت! بدت كأنها دهر، لكنها أخيرًا سمعت شخصًا، وهو يهبط الدَّرَج بخطوات عالية، ثم صوت صرير الترباس، وهو يُسْحَب خلال الباب. انفتح الباب فُرجة ضيقة، وظهر وجهٌ ما.

صاحت، وهي تدفع الباب لتفتحه، وتسرع إلى الداخل، «من محبة الله! أنا إيلينه!».

انغلق الباب وراءها من تلقاء نفسه. وقفت في بئر الدَّرَج غير المضاء، وجهًا

لوجه مع فرانس فيريلاين، الذي صرخ باسمها في غير تصديق. ظهرت چين أعلى الدَّرَج، وهى تمسك قنديلاً. كان كل ما استطاعت إيلينه أن تفكر فيه في تلك اللحظة البشرى بالنور والدفء والراحة، واستجمعت آخر ما تبقى من طاقتها، صعدت تركض أعلى الدَّرَج.

«چين! چين! أتوسل إليكِ، ساعديني! أنا إيلينه! آه، أرجوكِ ساعديني!».

شهقت چين: «يا الهي، إيلينه!».

«ساعديني، أتوسل إليكِ! أنا- أنا هربت! آه أرجوكِ، ساعديني، وإلا سأموت!».

سقطت ككومة مبتلة عند قدميّ چين.

صاحت چين في فزع: «إيلينه! إيلينه!».

ظلَّت إيلينه، التي أجهشت بالبكاء بعنف متكومة على الأرض، حيث تكونت بِرَك حول حافة عباءةها. جاهدت چين لتجعلها تقف على قدميها.

«ياه يا إيلينه! ماذا فعلتِ؟ ما الذي حدث؟ أنتِ مبتلة تمامًا! ومتجمدة جدًا! يا الله!».

قادت إيلينه، التي استطاعت بالكاد أن تقف إلى حجرة دراسة فرانس الصغيرة، وخفضت ضوء القنديل. انهارت إيلينه على أحد الكراسي، والمياه الموحلة تنزّ من ملابسها.

قالت، وهى تنتحب: «لقد هربت! لقد هربت من ناساوپلاين! لم أعد قادرة على التحمل أكثر من ذلك- وجئت إلى هنا بسبب ... حسنٌ، لأنه ليس لدي أي مكان آخر أذهب إليه. آه، يا چين من فضلكِ، سوف تساعدينني، أليس كذلك؟».

غُمِرَت چين بإحساس بالشفقة.

«يمكنكِ أن تخبريني عن ذلك فيما بعد يا إيلينه. تعالي، دعينا نخلع عنكِ تلك الملابس المبللة، وإلا سوف تصابين بالزكام».

«آه نعم، من فضلكِ، ساعديني على خلعها. إليكِ عباءتي. يوه وحذائي! كم أنا في حالة مثير للاشمئزاز، كليّ مغطاة بالوحل! يا رب السماء، أتمنى لو أنني متّ!».

تراجعت على ظهر كرسيها، وهي تبكي.

قالت چين، وهي ترتعش: «فرانس، فقط ألقِ نظرة عليها. أتمنى ألا تمرض- لم تكن حتى ترتدي قبعة، وانظر ماذا ترتدي، مجرد ثوب مساء مهلهل!».

قال فرانس بصوت خافت: سأنزل وأضيء الموقد إذن، بينما تحضرين لها بعض الملابس الجافة». كان متأثرًا تأثرًا عميقًا لرؤيته إيلينه، وهي منهارة على كرسيهم ذي المسند، وشعرها الذي يقطر ماءً في خصلات على رقبتها وفكها الأبيض كالرخام، وثوبها الحريري الأسود الملتصق ببلل على جسدها الضعيف. خرج وهو سعيد لأنه سيفعل شيئًا.

بالخارج، كانت العاصفة مستعرة دون توقف.

***

في حجرة جلوس عائلة فيريلاين، كانت إيلينه المستلقية على الأريكة، التي نقلها فرانس ليقربها من الموقد المشتعل، ترتجف كأنها مصابة بالحمى تحت بطانية، ورغم ذلك، في تلك الحجرة المغمورة بالنور والدفء أحست بإحساس الامتنان بالسلامة، وأن ارتياحها لهروبها من قوى الظلام الشيطانية لم يعرف حدودًا، وهي ترتجف ساعدت نفسها على النهوض.

صاحت بصوت أجش لچين، التي كانت تُعِدُّ مشروبًا كحوليًا ساخنًا، «سامحيني! أرجوكِ، أرجوكِ، سامحيني على إزعاجك في منتصف الليل هكذا! أنا آسفة جدًا! لكن إلى أي مكان آخر يمكنني أن أذهب؟ كنتُ هناك في الشارع المظلم، في مهب الريح والمطر! لا أستطيع تحمل التفكير في هذا الموضوع! لقد كان فظيعًا، أفظع ليلة في حياتي! لكن يجب أن تفهمي، ببساطة اُضطرت إلى الرحيل ... لم أستطع البقاء هناك دقيقة أخرى! آه، بيتسي حقيرة

جدًا! كم أكرهها!».

«خلاص، خلاص يا إيلينه، عليك أن تحاولي أخذ قسط من الراحة الآن».

«لماذا أَصَرَّت على إدخال أوتو في الموضوع؟ ليس لديها أي حق في القيام ذلك! أنا أكرهها! أكرهها!».

قالت چين، وهى تشبك يديها في تضرع، «إيلينه! إيلينه!»، جَثَت على ركبتيها أمام الأريكة: «أتوسل إليكِ يا إيلينه، بحق السماء اهدأي! استلقي الآن. حقًا ينبغي أن تستريحي».

حدقت إيلينه للحظة، بعينين متوقدتين، ثم لفت ذراعيها حول رقبة چين.

«يجب أن تحاولي وتسترخي يا إيلينه. استلقي وأريحي نفسكِ، إذا كنتِ لا تستطعين النوم».

تحشرج حلق إيلينه بالبكاء الأجوف.

همست بصوت أجش: «أنتِ ملاك! لن أنسى أبدًا ما قمتِ به من أجلي، لن أنساه طالما أنا على قيد الحياة. لقد أنقذتِ حياتي! آه، كل ذلك الوحل الرهيب! أنتِ تحبينني يا چاني، أليس كذلك؟».

«نعم يا إيلينه، أحبكِ، ولكن يجب أن تأخذي بعض الراحة الآن».

«آه ... الراحة!».

اخترقت الكلمة روح چين. نطقتها إيلينه بصوت مليء باليأس، كما لو أنها تريد أن تقول إنها لن تشعر بالراحة أبدًا بعد ذلك، لكنها أراحت ظهرها على الوسائد ممتثلة لطلب چين، وشربت الخمر الساخنة، التي قدمتها چين.

تلعثمت: «شكرًا لكِ ... شكرًا لكِ».

لفَّتها چين في البطانية جيدًا، وجلست بجانبها. اهتزت ألواح النوافذ الزجاجية في أُطرها، تجلدها أغضان الأشجار بالخارج. دقت ساعة رفّ المستوقد الثالثة.

***

دقت الساعة الثالثة أيضًا في منزل فان رات عندما توقف فرانس فيريلاين بالعربة عند باب بيتهم الأمامي. كانت العاصفة مستعرة كوحش جريح في السماء فوق المدينة المُظلمة. قفز فرانس نازلاً من سيارة أجرة ودق الجرس. استطاع أن يرى أن الضوء كان لا يزال مضاءً في الردهة.

قال للسائق: «أخشى أنني ليس معي مالٌ، لذلك من فضلكِ تعال إلى بيتي في الصباح لتحصيل ما أنا مدينٌ لك به!».

فتح هِنْك الباب على الفور تقريبًا، كمن يبدو أنه يتوقع زيارة شخص ما، لكنه لما رأى فرانس يُسرع إلى الداخل، خطا خطوة إلى الخلف متعجبًا.

صاح: «عجبًا، أهذا أنت يا فيريلاين؟».

قال فرانس: «نعم، إنه أنا، لا تندهش. كل الأمور بخير، إيلينه في منزلنا».

خطا خطوة إلى الأمام، وسحق الزجاج المكسور المتناثر على الأرض.

صاح هِنْك: «في منزلك؟ آه، الحمد لله على ذلك! كنتُ قلقًا لحد المرض، لم أكن أعرف ماذا أفعل. لقد ارتحتُ الآن!».

«رجاء تفضل بالدخول يا فيريلاين»، نادت بيتسي من باب حجرة الطعام. شعرت الخادمات وخيرارد، الذين كانوا تسللوا الى المدخل لسماع ما كان يجري بالراحة كذلك، وانسحبوا إلى المطبخ ليتهامسوا فيما بينهم، وأرشد هِنْك فرانس للطريق إلى حجرة الطعام.

قال فرانس، وصوته يخفت بينما كان يحدق في هِنْك، «ليس هناك ما يدعو للقلق، مدام فان رات. حقًا، هذا هو الحل الأفضل في الوقت الراهن. كانت إيلينه غارقة عن آخرها، لكن چين رعتها حق الرعاية. لا يمكنكِ تخيل الخوف، الذي شعرنا به لسماع جرس الباب في مثل تلك الساعة المتأخرة، وبعدها العثور عليها على عتبة الباب، تقطر ماءً من البلل».

«ماذا حدث لك؟ خدك- إنه ينزف!».

«آه، ليس شيئًا خطيرًا، عندما ركضت إيلينه للخروج من البيت أردت

اللحاق بها، لكن الرياح أغلقت باب الردهة بشدة، محطمة الزجاج. انفجرت بعض الشظايا في وجهي وعيني، لذلك لم أستطع السعي وراءها على الفور، لكن بمجرد ما استطعت، ركضت أنا وخيرارد للخارج، نقصد سحبها إلى بيتها مرة أخرى إذا لزم الأمر، لكن الظلام كان حالكًا- إذ كانت كل قناديل الغاز انطفأت في العاصفة- وكانت قد اختفت عن الأنظار. لم أكن أعرف ما الذي يجب القيام به. في النهاية ذهبنا إلى مخفر الشرطة في شيلپكاده، وأرسلوا فرقة من خَفَر الليل للبحث عنها. كانت في حالة رهيبة عندما ذهبت- ظننت أنها قد تصيب نفسها، وفي هذا الطقس الجهنمي أي شيء يمكن أن يحدث. لا تزال عيني تؤلمني. أعتقد بأن من الأفضل أن أزور طبيب عيون في الغد».

تنهدت بيتسي، وسقطت على أحد الكراسي. قالت: «رهيب! كم هو مزعج للغاية كل هذا. لا بد أن إيلينه فقدت عقلها».

«وأنتِ مَنْ دفعها لذلك!»، قال هِنْك غاضبًا، وهو يضع يده على عينه التي تؤلمه.

«ياه، إذن الآن هو خطأي، أليس كذلك؟».

توسط فرانس: «فان رات، هناك بضعة أمور علينا أن نناقشها. لقد جئتُ إلى هنا دون تأخير لحظة طبعًا، لأنني اعتقدتُ أنك ستكون شديد الاضطراب من القلق».

«أيها الشاب العزيز، لا أستطيع أن أشكرك بما فيه الكفاية».

«لا بأس من ذلك. الموضوع هو أن إيلينه أعلنت بما لا يقبل الجدل أنها ليس لديها أي نية للعودة. وغنيٌّ عن القول إن أمرًا كهذا لا بد أن يتحدث عنه الناس. الناس سيأخذون في النميمة، وهى أكثر الأشياء بغضًا! القيل والقال فقط يجعل الأمور أسوأ. الخدم يعرفون ما حدث، على ما أظن؟».

رمقت بيتسي فرانس بنظرة استحسان لإثارة تلك النقطة.

قال هِنْك بفارغ الصبر: «حسنٌ، لا يمكننا عمل شيء حيال ذلك! الناس

دائمًا يمشون بالنميمة والقيل والقال».

«هذا صحيح، لكنني ما زلت أرى أنها ستكون فكرة جيدة لو أتيت إلى بيتنا في الصباح. انظر إن كان يمكنك إقناع إيلينه بالعودة إلى البيت- على الأقل لو كانت بصحة جيدة بما فيه الكفاية، لأنها بدت لي محمومة إلي حد ما عندما غادرت. أقترح عليك السماح لها بالحصول على بعض الراحة الآن، لكن تعال بأسرع ما يمكن في الصباح».

قال هِنْك: «وهو يبدو ذاهلاً، 'حسنٌ جدًا».

«أعتقد بأنها ربما كانت تهذى عندما غادرت البيت بحثًا عن سيارة أجرة، لكن يبدو أنها كانت مصممة جدًا. أعطتني مفاتيح بيتها، وظلَّت تقول إنها لن تعود أبدًا، كما طلبت مني أيضًا تسوية أمورها هنا»، قال، وهو ينظر شزرًا إلى بيتسي، «واتخاذ الترتيبات اللازمة لإرسال ملابسها إليها، لكنني أعتقد بأنها قالت كل هذا في حرارة الانفعال. في أي حال، آمل أن نصل إلى ترتيب ودي ما بحلول هذا الوقت غدًا».

قالت بيتسي في ضيق: «انظر إليّ هنا، سيد فيريلاين. آمل أن تدرك كم هذا الأمر يضايقني. يعلم الله أن هذه ليست المرة الأولى التي اختلفنا فيها أنا وإيلينه، لكن مَنْ الذي كان يتصور أنها سوف تقوم بعمل شيء سخيف إلى هذه الدرجة؟ وكما تقول: سيكون ذلك حديث لاهاي! لذا إذا نجحت في إقناعها بتغيير رأيها، سأكون ممتنة لك إلى الأبد. بيتنا مفتوح لها دائمًا. وبالنسبة لمفاتيحها، يمكنك أن تتركها هنا. نعم، أتوقع أن تصير الأمور إلى المسار الصحيح في نهاية المطاف. أنا سعيدة للغاية أنها ذهبتِ إليكم! لكن هل يمكنك أن تتخيل- في منتصف الليل، في تلك العاصفة؟ كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟ كيف على وجه الأرض استطاعت أن تفعل ذلك؟».

استأنف فرانس وهِنْك حديثهما، واقترح هِنْك أن يقضي الليلة عندهما، ذلك أن فرانس صَرَف سيارة الأجرة والعاصفة لم تهدأ. قاد خيرارد فرانس

لغرفة ملابس هِنْك ليريه طاقمًا من الملابس الجافة.

اقترحت بيتسي على زوجها عندما كانت وحدها معه مرة أخرى، «هِنْك، يمكنك أن تسأل فيريلاين بحصافة كم دفع لسيارة الأجرة تلك. لا بد أنها كلفته الكثير من الفلوس، وكان لطيفًا جدًا منه أن يأتي إلينا على الفور».

«تقولين بحصافة- أنتِ لا تعرفين معنى الكلمة!»، همهم هِنْك، وغادر الحجرة، تعتريه قشعريرة من الفزع لما فكر فيما سوف يقوله الناس.

***

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي أوصل هِنْك فرانس فيريلاين بالسيارة إلى طبيب العيون. كان هناك ضرر طفيف في أوردة إحدى العينين، وبعد إزالة شظية صغيرة من الزجاج شعر بالارتياح بدرجة كبيرة. إلا أن خده بدا به جرح عميق.

«أبدو كما لو كنتُ شاركتُ في حرب!»، قال مازحًا، وهو عابس الوجه في طريق عودتهما في سيارة الأجرة إلى هوجو دي جروتسترات»، وبالفعل، يا عزيزي فرانس، في هذه اللحظة يبدو بيتي كأنه ساحة معركة! وأنا، على سبيل المثال، نلتُ ما يكفي تمامًا من ذلك».

أبدى فيريلاين تعاطفه مع هِنْك، الذي اعتلى وجهه الصادق والطيب الآن تعبير يدل على الجزع الكامل.

من الجليّ أن هِنْك كان يخشى لقاءه مع إيلينه، لكن في هذا الحدث وُفِّرَت عليه المحنة. رفضت إيلينه رفضًا قاطعًا رؤيته، ومن الحجرة المجاورة استمع بشغف إليها، وهي تحتج مع فرانس. لماذا جلب فرانس هِنْك لرؤيتها، ولماذا أخذ مفاتيحها؟ ألم يكن هناك أحد يمكنها أن تثق به؟ ولا حتى فرانس؟

بدت إيلينه فظة وحادة، وبدا لهِنْك أنها لا بد وأنها لا تزال في هذيانها. استطاع أن يسمع چين، وهي تحاول تهدئتها، رغم أنه لم يتمكن من تمييز الكلمات، ثم نحيب إيلينه، وهي تكيل الاتهامات لنفسها وتعبر عن ندمها.

في الوقت الحالي عاد فرانس، ورفع كتفيه معتذرًا.

«لا تريد أن تراك. من الأفضل أن تستسلم لذلك في الوقت الراهن، لأنها يبدو أنها تعاني من حمى مرتفعة الحرارة. أتعتقد أن راير قد لا يزال في المنزل في هذه الساعة؟ ربما يمكنك أن تقود سيارتك إلى هناك وتطلب منه أن يأتي إلى هنا».

قال هِنْك في يأس: «حسنٌ جدًا، سأفعل ذلك».

أنَّت إيلينه بهدوء، وهي ترقد مستلقية على الأريكة، تنتفض أطرافها بلا هوادة تحت اللحاف الصوفيّ. وأخبرت چين الأطفال بأن يبتعدوا.

قالت: «أنتِ طيبة معي جدًا يا چاني! ولكن، كما ترين، لا يمكنني أن أقيم هنا وأضعكِ في الكثير من المتاعب! ليس لديكِ الكثير من المساحة لتوفيرها لي؛ كل ما سأفعله أنني سأشكل عبئًا عليكِ. سأذهب إلى فندق بعد ظهر اليوم».

جلست چين على حافة الأريكة، وأخذت يد إيلينه في يدها.

«إيلينه، من فضلكِ كوني عاقلة. لا تقلقي دماغك بأي شيء من هذا القبيل. أنتِ مريضة كما تعلمين. يمكنكِ الإقامة هنا بصراحة. أنا لا أقول أنكِ يجب أن تذهبي إلى منزل بيتسي، لكنني بالتأكيد لا أريدكِ أن تذهبي إلى فندق».

«نعم، لكن ماذا لو كنتُ مريضة- وليس أنني أرى أنني مريضة، لكن يبدو أنكِ تعتقدين ذلك. لو كنتُ مريضة فلن أكون قادرة على المغادرة مرة أخرى لبعض الوقت. و- و- آه، وأنا أعلم بأن ذلك غير ممكن تمامًا. عزيزتي، عزيزتي چاني، أرجوكِ اغفري لي قولي هذا، لكن ذلك سيكون فوق إمكانياتكِ، و-».

امتلأت عيون چين بالدموع.

«إذا كان ذلك ما يزعجكِ يا إيلينه، يمكنك الإقامة معنا والدفع نظير بقائكِ. أتوسل إليكِ فقط لا تذكرس كلمة الفندق مرة أخرى. لن أشعر بالحرج؛ بالفعل نحن نرحب بمشاركتكِ في النفقات إن كان هذا سيجعلكِ تشعرين بشكل أفضل. لكن أرجوكِ ابقي معنا».

أجفلت إيلينه، وهزت جدائل شعرها الأشعث، والتي حاولت چين عبثًا أن تزيحها بعيدًا عن وجهها. ثم ألقت بذراعيها حول چين واحتضنتها، وهو الأنسب لتستمتع بطوفان العاطفة.

بكت: «ياه، أنتِ مثل الملاك! اغفري لي، لم أقصد أن أؤذي مشاعركِ بأي شكل من الأشكال، لكن نعم، أود البقاء. أيمكنني؟ أنتِ طيبة جدًا، طيبة جدًا جدًا!».

***

بعد ظهر ذلك اليوم قامت مدام فان رات ومدام فرسترايتن بزيارة بيت عائلة فيريلاين، ووطنتا أنفسهما على إقناع إيلينه بالعودة إلى ناساوپلاين. جاءت بيتسي أيضًا، بعدما أقنعتها چين بأن تعتذر لأختها. إلا أن إيلينه رفضت رفضًا قاطعًا أن تقابلهن. في الحجرة المجاورة عقدت الزائرات أنفاسهن، وهن يستمعن إلى إيلينه، وهي تحتج لچين بعبارات لا لَبْس فيها أنها لن ترى أي أحد، كائنًا من كانوا. چين- نعم، سترى چين، لكن لا أحد غيرها!

سرعان ما انتشرت الأخبار بين أصدقائهم ومعارفهم بأن خلافا وقع بين إيلينه وعائلة فان رات، وأنها طلبت اللجوء، إن جاز التعبير، إلى بيت فيريلاين. حقيقة أنها تناولت العشاء مع آل هوفل في الليلة السابقة أثارت الكثير من حب الاستطلاع، واستشهد بكلام الفتى هايدريخت، الذي كان حاضرًا بالعشاء بقوله إنه كانت ثمة بعض الخلافات بين الأختين. كان يجلس بجانب إيلينه، ولم يشعر أبدًا بالملل من صحبتها كما شعر ذلك المساء؛ فلم تكد تنطق بكلمة واحدة. كانت تفاصيل الخصام غير واضحة؛ فقط- وهذا ما كان الجميع متقينًا منه- شوهدت إيلينه في سيارة أجرة في تلك الليلة العاصفة بصحبة حارس ليليّ، أو شاب؛ أحداث غريبة على أقل تقدير.

كانت إيلينه أظهرت ميلاً للانحراف من قبل، ناهيك عن عادتها بالتمشية وحدها كثيرًا في الغابة في الشتاء الماضي- وهو الشيء الذي لا تفعله سيدة

شابة محترمة- بعد ذلك كان هناك ذلك الشأن المؤسف مع فان إرليفورت، والآن هذه المغامرة الليلية مع شاب وحارس ليليّ! يا له من عارٍ أيضًا، لأنها كانت فتاة حلوة حقًا، جميلة جدًا أنيقة جدًا! لكن كان أفراد عائلة فيره دائمًا غريبي الأطوار قليلاً، أليس كذلك؟

تعذبت بيتسي على كل هذه النميمة، والتي استطاعت أن تشعر بها تنتشر على قدم وساق، ولم تكن تجرؤ أن تظهر وجهها في الأماكن العامة، بل لجأت فقط إلى صحبة فرسترايتن وإيميلي دي ڤوده.

٢٥

مرَّ شهرٌ منذ وصول إيلينه إلى بيت فيريلاين، ذلك أن چين رفضت أن تسمح لها بالذهاب حتى تسترد عافيتها تمامًا. كان تشخيص راير أن إيلينه أصيبت بنزلة برد شديدة، والتي إذا أُهملت، قد تُفْضي إلى الموت، ومَرَّضَتها چين بتدليل وحنان. كما حوَّلت حجرة دراسة فرانس الصغيرة إلى حجرة نوم لإيلينه، رغم احتجاجات الأخيرة أنه يمكنها بسهولة أن تذهب إلى أي فندق. أكد فرانس لها أيضًا أنه ليس بحاجة إلى الحجرة، لأن طبيبه الاختصاصي بأمستردام نصحه بأن يبذل جهدًا أقل في العمل، عندها عانقت چين بامتنان حماسي وظلَّت هناك، ونوبات سعالها العنيفة تتردد بشكل مؤلم في جميع أرجاء الشقة الصغيرة بالطابق العلوي.

بدأ سعالها يهدأ الآن، وخَفَّ الألم في صدرها، لكنها مع ذلك باتت نحيلة جدًا وغائرة العينين، تعلو ملامحها مسحة شحوب. اعتدلت في جِلْستها على الكرسي الواسع بالقرب من الموقد الصغير وتطلعت من النافذة، بفتور تتابع حركة الجزار وبائع الخضروات وبائع الحليب من باب إلى باب وتشاهد الخادمات وهن يعتنين بالتوصيل: هذه واحدة ممتلئة الجسم حمراء الشعر تقف على عتبة الباب هذه، وأخرى هزيلة تقف على عتبة باب أخرى، وعلى الثالثة سيدة المنزل شخصيًا، وهي ترتدي مئزرًا أسود وقبعة داكنة من الدانتيل.

نهضت في النهاية، وهي تسعل، وألقت نظرة سريعة، وهي ترتدي النظارة الصغيرة التي تتحدد بإطار أسود عادي، عادي ككل شيء آخر في بيت فيريلاين. كانت تتوقع زائرًا، شخصًا ما لم تره منذ فترة، وتفحصت انعكاس صورتها في تخوف، متسائلة عن نوع الانطباع، الذي سوف تُكَوِّنه. كانت بيتسي كتبت رسالة طويلة إلى عمهما دانيال فيره، الذي كان بمثابة وصيّ على إيلينه عندما

كانت لا تزال قاصرًا، ولمّا كان لا يزال عزبًا عندما توفيت العمة فيره العجوز، ولم تُطْرَح إمكانية انتقال إيلينه للعيش معه في محل إقامته ببروكسل وقتذاك، لكنه تزوج مؤخرًا. نادرًا ما زار لاهاي، وعندما تلقى رسالة بيتسي لتبلغه بأن إيلينه غادرت البيت في ناساوپلاين، وكان أول رد فعل له رافضًا: لِمَ ينبغي أن يكون هذا ذا أي أهمية بالنسبة له؟ لكنه لما فَكَّر ثانيةً، ردَّ على الرسالة، وكتب لإيلينه أيضًا، قائلاً إنه يود أن يراها. جاءت رسالته بمثابة مفاجأة طيبة جدًا، لأنها باتت قلقة على نحو متزايد عما عليها أن تفعله بمجرد أن تسترد عافيتها مرة أخرى، ورأت أنه قد يقدم المشورة لها. لذلك ردت بأكثر الأساليب ودًا، قائلة إنها ستكون سعيدة لاستقباله في الوقت الذى يناسبه، طالما أنه لا يتوقع منها الصلح مع بيتسي والعودة إلى بيت فان رات- لأنها لن تفعل ذلك تحت أي ظرف، لأنها تعلمت الدرس أنها وبيتسي لم ينسجما معًا ببساطة، ناهيك عمن يجب إلقاء اللوم عليها.

أبرق فيره على الفور تاريخ زيارته المرتقبة وساعتها، والآن إيلينه تنتظر وصوله، تتفقد بقلق ملامحها الهزيلة في المرآة، في خوفٍ أن قدرتها على أن تكسب قلب أي رجل بفتنتها الساحرة قد هجرتها. سحبت الستارة قليلاً لتضبط الضوء الساقط على وجهها. جاءت بعد الظهيرة، وأرشدت چين الزائر إلى حجرة إيلينه. كان طويل القامة ونحيفًا، بملامح واهنة إلى حد ما، التي كانت مميزة للغاية للأفراد في عائلة فيره، باستثناء بيتسي التي كان أشبه بوالدتها. رأت إيلينه أنه بدا متميزًا وعمليًا إلى حد معقول وهو مرتدي لمعطفه الفرو، وشعرت بقليل من الحرج لاستقبال عمها في هذه البيئة المتواضعة. نهضت وخَطَت إلى الأمام في هيئة كالملكات، بينما انسحبت چين، وأغلقت الباب وراءها.

قالت إيلينه برقة، غير متأكدة مما ينتظرها، «مرحبًا عمي! أنا سعيدة جدًا لرؤيتك، سعيدة جدًا حقًا».

مدت يدها، وأشارت له بالجلوس على أحد الكراسي. جلس، ونظر إليها باهتمام، ابتسم قليلاً، وأخيرًا هزَّ رأسه من جانب لآخر.

بدأ: «يا للعار، إيلينه! كم أحزنتني. يا لها من حالة كريهة التي أنتِ عليها يا ابنة عمي العزيزة».

سألت، وهي تخفي فضولها بجو من اللامبالاة، «أفترض أن بيتسي لديها الكثير لتقوله عني في رسالتها؟».

جاءت أخبار بيتسي كصاعقة من السماء. لم تكن لديّ أي فكرة أنكِ فقدتِ التعاطف تمامًا مع أختكِ. اعتقدتُ بأنكِ كنتِ سعيدة في بيت فان رات. في الربيع الماضي وصلتني رسالة سعيدة منكِ تقولين فيها إنك سوف تتزوجين فان إرليفورت، والآن قِيلَ لي إنكِ فسختِ خِطْبتكِ قبل بضعة أشهر، لكن لِمَ ينبغي أن يؤدي ذلك بكِ إلى الهروب على هذا النحو المؤسف فخارج عن قدرتي على الفهم. عزيزتي إيلينه، كيف سمحتِ لنفسك بأن تجرفكِ مشاعركِ على هذا النحو؟».

تكلم ببعض الحذر، معايرًا مزاجها، لأنه لم يرغب في استعدائها. أعطاه خبر هروبها الدرامي فكرة عنها أنها لا بد أن تكون مندفعة وحامية الطبع للغاية، وإنه لم يثق تمامًا بأسلوبها المهزوم، إذ فكر أنها قد تقفز فجأة، وتفعل شيئًا متهورًا، لكنها حافظت على رباطة جأشها وردَّت بنبرة ودية.

«عمي، حقيقة أنني هربت من بيتسي وهِنْك لا تعني أن كل ما أفعله غير مدروس وأحمق. صحيحٌ أنني كنتُ غاضبة جدًا من بيتسي، وبعد فوات الأوان شعرت بالآسف لأنني فقدت أعصابي، وأنا آسفة أنني لم أُدِرْ ظهري لها ببساطة ورتبت للخروج من بيتها في الصباح عندما تهدأ الأمور، لكنني أعتقد بأنك تتفق معي أن هناك لحظات في الحياة عندما- حسنٌ، عندما ينسى المرء فيها نفسه!».

«إذن هل فكرتِ في العودة؟».

أجابت، تكاد تقترب من الازدراء، «أعتقد بأنني أوضحت قراري تمامًا لك في رسالتي».

«لقد فعلتِ إذن، لكنني كنتُ آمل- ظننت أنكِ قد تعيدين النظر».

قالت بحزم: «أبدًا!».

«حسنٌ جدًا إذن، لسنا بحاجة للاستمرار في هذا الموضوع أكثر من ذلك. أنا آسف أنني ذكرته، لكن يبدو أنكِ مصممة تمامًا؛ وآمل أن تفكري مليًا في العواقب المترتبة على قراركِ».

قالت، وطفقت في السعال: «بالتأكيد!».

«في تلك الحالة لا بد من إيجاد بديل ما. أولاً يجب أن تتخلصي من هذا السعال المقرف طبعًا، لكن هل لديكِ أي خطط بعد ذلك؟».

استحال كبرياء إيلينه إلى قلق.

«حسنٌ، لقد فكرت كثيرًا، لكنني لم أقرر بَعْدُ، إلا أنني قد أجد مكانًا أعيش فيه وحدي. أستطيع القيام بذلك، وعلى أي حال أنا لست مبذرة. يمكنني استئجار خادمة لتعيش معي».

في خيالها رأت نفسها تعيش في شقة ضيقة بالطابق العلوي كهذه، وتجمعت الدموع في عينيها.

«هذا يبدو معقولاً. هنا في لاهاي؟».

«أفترض ذلك. لستُ متأكدة حتى الآن. أو بلدة صغيرة ما ربما».

«آه حسنٌ، يمكننا أن نترك حتى وقت لاحق. لأنني كما ترين، لدي اقتراحٌ لكِ».

أخذ يدها، وتطلع إليها من خلال عيونه الضيقة. ظنت أنه قد يدعوها للانضمام إليه في بروكسل، وتساءلت ما إذا كان عليها أن تقبل.

«أنا وعمتكِ إليزا نخطط للسفر إلى الخارج لبضعة أشهر. يضحكني أن أسميها عمتكِ، لأنه كما تعلمين إليزا أكبر منكِ بخمس سنوات فقط، ولذلك عندما تتعرفان على بعضكما سوف تدعوان بعضكما البعض بالاسم الأول. سنسافر أولاً إلى باريس، ثم إلى إسبانيا على الأرجح. ما كنتُ أرغب في اقتراحه عليكِ يا عزيزتي، أن ترافقينا الرحلة. تغيير المنظر من شأنه أن يكون

مفيدًا لكِ بعد كل ما مررتِ به. قد نبقى مسافرين طيلة فصل الشتاء، وربما لفترة أطول. إذا شعرتِ بالملل يمكنكِ دائمًا العودة إلى هولندا وابحثي لنفسك عن شقة، كما اقترحتِ من قبل. أنتِ لم تقابلي بَعْد زوجتي، لكنني أجرؤ على القول إنكِ ستجدينها متعاطفة: إنها خفيفة ومرحة، فرنسية حقيقية. كيف يبدو اقتراحي بالنسبة لك؟».

اتسعت عينا إيلينه. بالتأكيد، إنها بحاجة إلى تغيير منظر! تخيل السفر للخارج طيلة فصل الشتاء! شعرت بإحساس أشعة شمس متألقة تغمر ظلام روحها الكئيب. ياه، التنوع أخيرًا! والتنوع هو الحياة نفسها، كما كان فنسنت معتادًا على القول.

بدأت بإحساس: «ياه يا عمي، لا أعرف ماذا أفكر! أنا لستُ مرحة جدًا هذه الأيام، ولا أعتقد بأنني يمكن أن أكون رفيقة سفر ممتعة».

«فتاتي العزيزة، لا يمكنكِ أن تتنبئي بشيء. أن تجدي نفسكِ في بيئة مختلفة ولقاء أناس جدد غالبًا ما يؤثر على رفع المعنويات. التنوع هو الضرورة الأولى في الحياة».

أجفلت، ثم ابتسمت له ابتسامة دافئة. بدا بالضبط مثل فنسنت! شعرت بدفقة من الامتنان، كم كان لطيفًا للغاية منه أن يعرض عليها هذا العرض! وكم كان أسلوبه دمثًا! نعم، ستقبل- بكل سرور!

ختم كلامه ضاحكًا: «يمكنكِ أن تأتي وتقيمي معنا في بروكسل أولاً قبل أن نغادر. نحن نسافر كثيرًا جدًا، ونفعل ذلك على نحو مقتصد، دون أن نحرم أنفسنا من أي مُتَع وملذات- إننا نستطيع إلى حد ما التعامل في مواقف الحياة الصعبة- وبالنسبة لك، أنتِ متيسرة الحال، أليس كذلك؟ صيدٌ ممتاز، كما يقولون!».

«صيدٌ ممتاز؟ أنا؟ أنا لست غنية إلى ذلك الحد كما تعلم، ولم أعد مؤهلة تمامًا لأن أكون كذلك كما كنتُ أيضًا»، قالت بابتسامة ساخرة: «سأجلب

خادمة عجوز- عجوز».

تكلم بيقين مبتهج: أن رحلتهم سوف تعالجها من جميع تلك الأفكار الكئيبة، وبعدما أُخْبِرَت چين بالخطة استأذن بالانصراف، قائلاً إنه لا يزال عليه أن يزور بيت فان رات في ناساوپلاين.

بقيت إيلينه وحدها بينما قادته چين إلى الخارج. آلاف الأفكار تراقصت في ذهنها كعدد كبير للغاية من بتلات الورود، أشعة الشمس، فقاعات الصابون بلونِ قوس قزح. تطلعت من النافذة، لكن كلَّ ما استطاعت أن تراه نقيعًا من الغبار، الذي يرتفع من الطريق. سماء الخريف الرمادية جعلتها ترتجف، وتحولت بنظرها بعيدًا. لمَّا جالت بنظرها سريعًا في جميع أرجاء الحجرة صدمتها رؤية لوحة تقويم فرانس فيريلاين المعلقة على الحائط. كان التاريخ مطبوعًا عليها ببخط عريض: ١ نوفمبر.

كان ذلك هو الموعد نفسه، الذي اختارته هى وأوتو لزفافهما! حدقت في التقويم، في ذهول، ثم اجتاحتها موجة من العذاب اليائس المسعور، وألقت بنفسها على كرسيها ذي المسند، لتجهش بالبكاء في بؤس.

* * *

كانت عائلات إيخوف وهايدريخت وفان لارن جميعًا متلهفين للأخبار: إيلينه فيره ستسافر للخارج مع عمها دانيال فيره، الذي يعيش في بروكسل، والذي تزوج منذ عام واحد فقط. هِنْك وبيتسي وابنهما الصغير سيتركون لاهاي أيضًا لبعض الوقت: كان يُعتقد أنهم سيسافرون إلى مدينة الجزائر.

٢٦

مَرَّ ثمانية عشر شهرًا. كان بيت عائلة فرسترايتن في پرنسيسيخراخت زُيِّن على نحو بديع من أعلاه إلى أدناه، حيث زُيِّنَت الردهة وحجرة الطعام والصالونات والبيت الزجاجي ليشبه حدائق الشتاء المُورقة عن طريق أشجار النخيل المُنَظَّمة بطريقة فنية في زوايا الجدران، والتي شَكَّلَت أهرامات من الخضرة تحيط بها مجموعات حمراء وبيضاء من أزهار الأزالية. ذلك أنه كانت هناك عروس في البيت، وحان الوقت للاحتفال.

جرى الاستقبال على قدم وساق، حيث تزاحمت أعداد كبيرة من الأصدقاء والمعارف للمباركة والتعبير عن أمنياتهم الطيبة. في الصالون الرئيسي رُتِّبَت الكراسي المريحة في شكل نصف دائرة على كلا جانبيّ الأريكة، ومساند ظهرها موجهة إلى الخضرة لتعتم على رؤية نافذة الحديقة. وقف جورج دي ڤوده فان بيرج ولي لي فرسترايتن للمساعدة بجوار الأريكة، كأمير وأميرة يقضيان بين الناس. كانت العروس ذات العشرين عامًا، والتي ارتدت فستانًا أبيض من الحرير وزهرة برتقالية في شعرها، تشع فرحًا، ولم تتعب من تحية جميع مَنْ جاءوا لتهنئتها بالحلو من كلمات الشكر.

«شكرًا لكم! شكرًا لكم! وشكرًا جزيلاً لكم على حضوركم الكريم!».

قَدَّم العريس، الذي وضع وردة بيضاء في طية صديري بذلته آيات الشكر بالمثل، وهو يتوق من داخله بأن ينتهي الموكب إلا أنه كلل وجهه بالابتسامات. وقفت مدام فرسترايتن بجانب ابنتها بينما ترددت إيميلي دي ڤوده بلا توقف بالقرب من أخيها، وتختفي مرارًا لتقوم بهجمات وجيزة وسط الحشود عالية الطنين من المهنئين. كانت وصيفتا العروس هما ماري وفريدريك، ترتديان الوردي، وكان إشبينا العريس هما پول وإتيان، يرتديان بذلتيْن بأزهار في

عراويهما. أخذ الأخير لفّاتٍ لمرافقة الضيوف إلى البيت الزجاجي، حيث كانت تُعْرَض هدايا الزفاف على طاولة طويلة. احتلت هدية مستر دي فُوده العجوز، وهى سيرفيس شاي فضيّ وسط الطاولة، تحيط بها المزيد من العطايا من الفضيات وقطع الزجاج والصيني الفاخر من الأصدقاء والمعارف. من أبناء الخالة هِنْك پول فان رات، تلقيا طاقمًا جميلاً من أثاث حجرة الرسم المُنَجَّد بالساتان الأزرق اللامع، وقامت مكوناته المختلفة هناك لتحتل معظم المساحة. لم تكن الهدية المُقَدَّمة من والديّ العروس معروضة للناس لأنه ببساطة لم تكن هناك مساحة كافية: كانت طاقم حجرة نوم كامل، ذا نوعية جيدة لكنها ليست فاخرة بصورة مفرطة، والذي كان بالشكل، الذي ينبغي أن يكون عليه لعروسين شابين لا يزالان يُكَوِّنان أنفسهما، كما أوضحت إيميلي لمدام فان دير ستور وكاتو.

سألت مدام فان دير ستور، وعيناها مُثَبَّتتان على مغرفة تقديم وشوكة مشغولة بالعقيق، «سيذهبان للعيش في شارع آتيسترات، أليس كذلك؟».

«نعم، شقة صغيرة في آتيسترات، مناسبة تمامًا لاثنين شابين مثلهما. فقط تخيلي، مجرد أطفال! وسوف يتزوجان أيضًا! آه حسنٌ، أنهما يعرفان أفضل من أي أحد على ما أظن»، أجابت إيميلي بابتسامة حزينة، وابتسمت مدام فان دير ستور في المقابل. امتلأت كاتو إعجابًا بطاقم الساتان.

قالت: «هذه قدمها أخوك وزوجته، أليس كذلك يا مستر پول؟».

ردَّ پول متفاخرًا: «منيّ وتفضليها بفائق الاحترام!»، واستطرد، وهو يتفقدها بنظره في استحسان: «لكن كم كبرتِ وصرتِ كالسيدات يا كاتو! بشعرك المرفوع هكذا- مثيرة للإعجاب إلى أقصى حد!».

«حسنٌ، لِمَ لا أكون سيدة وأرفع شعري؟»، قالت كاتو بتعالٍ. شعرت بالغيظ بسبب عدم الكلفة، التي تحدث بها؛ إذ كانت تقريبًا في عامها السابع عشر الآن، وليس هناك أي سبب يجعله يخاطبها دائمًا باسمها الأول بينما لا

تعرف هي أبدًا بم تدعوه- مستر فان رات أم مستر پول أم ببساطة فان رات؟ في الواقع، كانت تراه بغيضًا تمامًا في الآونة الأخيرة، وبعدها هناك سلوكه السيئ، وتسكعه الدائم والتبذير في المال!

قال پول بابتسامة ساخرة: «ولكنكِ سيدة! كل بوصة فيكِ سيدة؛ هل تظنين أنني لم ألاحظ؟ أقول لكِ يا كاتو: «أتذكرينني لمّا كسوت تلك الفساتين عليكِ في تابلوه الحواس الخمس؟ منذ متى كان ذلك؟»».

احمرت كاتو خجلاً.

«ياه، كان ذلك منذ زمن بعيد. دعني أفكر- لا بد أن ذلك كان على الأقل من عامين ونصف العام منذ قدمنا التابلوهات. كنت مجرد طفلة وقتذاك. أؤكد لك أنني لن أسمح لكَ بأن تلبسني الفستان الآن!».

كيف يجرؤ على طرح ذلك الموضوع! بحركة من رأسها حَوَّلت نظرها بعيدًا، بينما ابتسم هو لسخطها. بعد ذلك، لما وقع نظره على فريدريك، توجه إلى صالون الرئيسي، حيث كانت أمه تستأذن بالانصراف.

أراد أن يعرف: «هل تستعد ماما للذهاب؟».

أجابت بحدة، دون أن تنظر في عينيه، «نعم، إنها متعبة قليلاً!».

لاحظ برودها تجاهه، وشعر بأنه جُرِحَ. يبدو أنهم جميعًا ضده هذه الأيام، أولاً كاتو، والآن فريدي أيضًا.

قال في ابتهاج مُصطنع: «آه، فريدي! أنتِ لستِ في مرح للغاية، أليس كذلك؟».

سألت دون تعبير: «لِمَ تقول ذلك؟».

«لم تقولي لي شيئًا لطيفًا بالمرة طوال اليوم. أنتِ لستِ غاضبة مني أليس كذلك؟».

«أنا؟ أوه لا، مطلقًا. لِمَ أكون غاضبة منكِ؟».

«أيمكنني أن أصالحكِ؟ لو أنني أعرف فقط ما الخطأ، الذي قمتُ به».

أتى إتيان نحوهما.

«أقول لكما أنتما الاثنين: رجاء تذكرا واجباتكما! سيدتان عجوزتان وصلتا للتو، لم يسبق لي أن رأيتهما من قبل؛ ولا يستطيعان أن يرفعا أعينهما عن هدايا الزفاف، أخشى أنهما قد يكونان خفيفا اليد أو شيء من هذا، لا يمكنكما أن تعرفا أبدًا. تعالا، ماري كانت أيضًا كانت تبحث عنكما في كل مكان!».

تبعاه إلى البيت الزجاجي، الذي كان يعج بالضيوف. انزعج پول من أن إتيان قطع عليه اللحظة مع فريدي؛ إذ كان ينوي منذ عدة أيام أن يتحدث إليها، لأن كل ما فعلته هو التجهم، وكان هذا يضغط على أعصابه.

دخل هِنْك وبيتسي حجرة الطعام، حيث قابلا والد العريس مستغرقًا في الحديث مع أوتو فان إرليفورت. يتميز مستر دي ڤوده العجوز بملامح ودودة وكليلة، وشعر أشيب خفيف؛ جلس بعصاه مسنودةً بين ركبتيه، وكونه ضعيف السمع، رأسه مُوَجَّهَة نحو مُحاوِره، الذي ظلَّ يطلب منه أن يكرر كلامه. لم يعد أوتو وعائلة فان رات يتزاورون هذه الأيام، لكنهم يجتمعون من آنٍ لآخر في بيت عائلة فرسترايتن أو في بيوت أصدقاء مشتركين آخرين، وظلوا على وفاق وديّ. لم يجدوا الكثير من الكلام ليقولوه لبعضهم البعض، وذلك لوقوع غشاوة من التعاسة بينهم. تحركت بيتسي وهِنْك بعدما باركا لمستر فرسترايتن، الذي كان يدردش مع ماتيلدا فان رايسل في حجرة المعيشة.

«حسنٌ إذن، وداعًا يا بيتسي، وداعًا يا هِنْك. شكرًا جزيلاً لكما! بالمناسبة، هل سمعتما ما أخبرتني به مدام فان رايسل للتو؟».

سألت بيتسي: «لا، ماذا أخبرتك يا عمي؟».

«أن صديقتكِ القديمة چين، زوجة فيريلاين، مريضة بشكل حرج».

«چين؟ هل هى مريضة؟».

قالت ماتيلدا بهدوء: «رسالة وصلت أمس، من فيريلاين في بانجيل».

سألت بيتسي: «أين بانجيل؟».

«في مقاطعة باسوروان. كانت چين وضعت طفلاً آخر عندما كتب الرسالة، وكانت حياتها في خطر على ما يبدو».

«حقًا؟ يا إلهي، الفتاة المسكينة! لم نكن على اتصال في الآونة الأخيرة، لكنني كنتُ دائمًا أحبها كثيرًا، و ...».

كان على طرف لسان بيتسي أن تضيف: «ونحن مدينون لها بفضلٍ كبير»، لأن إيلينه جالت بخاطرها. إلا أن كل ما قالته هو:

«من فضلكِ يا ماتيلدا، إذا سمعتِ أي أخبار أخرى، سوف تخبرينني، ممكن؟ سأكون في غاية الامتنان لكِ».

قالت ماتيلدا: «نعم سأخبركِ»، وذهبت بيتسي مع هِنْك للبحث عن العروس والعريس. تحولت أفكار ماتيلدا إلى چين، صديقتها التعيسة، التي لحقت زوجها إلى جزر الهند الشرقية منذ ستة أشهر، والتي قد لا تراها مرة أخرى أبدًا».

اقترب هِنْك وبيتسي من جورج ولي لي.

هتفت لي لي: «آه، بيتسي وهِنْك! كم أفسدتمانا بدلالكما! لقد كانت مفاجأة رائعة أيضًا! هدية جميلة حقًا!».

عانقت كلاً منهما لتشكرهما على طاقم الساتان الأزرق.

قال جورج بعد التعبير عن شكره: «لنأمل أنها لن تبدو فخمة زيادة عن الحد!».

صاحت لي لي: «هراء! الرجال مخلوقات جاحدة، أليس كذلك يا بيتسي؟ لكنني ممتنة للغاية؛ أنا سعيدة بها، سعادة غامرة حقًا!».

ضحكت إيميلي ضحكة مكتومة، وهي تلقي نظرة خاطفة على بيتسي: «إنها سعيدة كطفلة صغيرة ببيت دمية جديد!».

في الوقت نفسه، في البيت الزجاجي، كانت ماري وإتيان يختبران راحة

طاقم الساتان الأزرق وامتلاءه. كانت ماري في حالة من المرح والبهجة بشكل ملحوظ في الآونة الأخيرة، بل ربما في أوج سعادتها. تقافزا هنا وهناك، وقهقها بمرح، دون أي اعتبار على الإطلاق لصرير الزنبرك.

حسنٌ، كان هنالك كلُّ ما يدعو إلى الخفة والمرح، حتى لو كان ذلك حفل زفاف أختها، وليس حفل زفافها. بمجرد رحيل لي لي سيكون هناك وقت كافٍ للكآبة، لأنها ستشعر بالوحدة بدونها، لكن ماري لا تعتزم بأن تسمح لهذا الاحتمال بأن يُفسد عليها الاستمتاع بهذا اليوم السعيد.

تجولت ماتيلدا وأوتو في البيت الزجاجي للفرجة على هدايا الزفاف، وأشارت ماري على الفور إلى كل هدية بدورها، معلنة عن الشخص الذي أهداها.

سألت أوتو: «لِمَ لا تأتي للرقص غدًا؟ سيكون لطيفًا لو أتيت».

ابتسم وهزَّ رأسه.

«لا جدوى من الإصرار. اغفري لي رفضي للدعوة، لكن قراري نهائي. أيام الرقص قد وَلَّت».

«لقد صرت منعزلاً بحق!».

«أنا أتقدم في العمر».

«هراء! ألم يعد يُسَلِّيك أن تري الناس يُسَلُّون أنفسهم؟».

«نعم يُسَلِّيني، بين الحين والآخر، لكن بوجه عام أُفَضِّل البقاء في المنزل».

كان لهجته حزينة، وتخلت هي عن بذل المزيد من الجهد لإقناعه. ولتغيير الموضوع، أشارت إلى سلة كبيرة من الأزهار عندما لوحت بيدها.

«فقط انظر إلى هذه الورود الجميلة! تفتحت مبكرًا للغاية عن موسمها أيضًا. أحب جدًا عندما تتفتح كل الأزهار. يبدو كما لو أننا مقبلون على صيف رائع».

قال بفتور: «نعم، ولدينا ربيع رائع أيضًا».

انزعجت إلى حد ما من نبرة صوته، بالرغم من الشفقة، التي شعرت بها تجاه حزنه الهادئ، وصمتت. لا بد أنه كان يفكر في ربيعٍ سابق، وصيفٍ سابق ...

***

ما لبث «اتحاد القلوب» بين جورج ولي لي، والذي استأذنت إيميلي عائلة فرسترايتن بإقامته بالنيابة عن أخيها قبل ثمانية عشر شهرًا، أن تطور بسرعة لتغدو علاقة مصاهرة أقوى، لأنه رغم محافظة جورج على وعده في توخي الحذر المطلوب في الكلام عن هذا الأمر، فقد باتت علاقتهما أمرًا معروفًا في لاهاي. كان والدا لي لي في مأزق بعض الشيء، ذلك بسبب تبرم ابنتهما إزاء القيود، التي فرضاها على تعاملاتها مع حبيبها، وبدء إيميلي في ممارسة الضغط عليهما أيضًا. فاتحت مدام فرسترايتن أختها دورا، مدام فان رات، على أمل أن تمدها ببعض الدعم المعنوي، لكنها لم تتلقاه. لِمَ لا ترتبون لخِطْبة رسمية، اقترحت مدام فان رات بصوتها الحزين الناعم، عندئذٍ كل الأمور سوف تُحَلُّ بالتأكيد. كانت لي لي في قمة سعادتها عندما سمعت بمشورة خالتها المسنة، وأطلقت عليها أعز وأحلى خالة في العالم كله.

وهكذا حدث أنه بمجرد أن اجتاز جورج اختبار نائب القنصل، أُعْلِنَت الخِطْبة رسميًا. كان جورج قد سافر إلى باريس وهامبورج في جولات خاصة بالعمل، ولدى عودته اجتمعت كلٌّ من إيميلي ولي لي لإقناع والديها بأن الوقت حان للتفكير في الخطوة التالية، وبعد الكثير من المداولات تقرر أنه شريطة أن يكون جورج، الذي يعمل الآن بوزارة الشؤون الخارجية، حريصًا في إنفاق المال على حد زعمه، وشريطة أن تصبح لي لي أكثر عقلانية قليلاً- لأنها لم تكن بأي حال من الأحوال عاقلة بما فيه الكفاية وفقًا لأمها- فإنهما قد يرحبان بفكرة الزواج مع مساهمة مالية صغيرة من عائلة فرسترايتن. كان من المقرر أن تقام الليلة الكبيرة في ٢٠ مايو. كرست مدام فرسترايتن وإيميلي وماري أنفسهن لتجميع جهاز لي لي، ولم يكن أحد أكثر سعادة في لاهاي من جورج ولي لي، واللذين أصرت إيميلي أن تطلق عليهما «العاشقين في الغابة»، وهو ما

أضحك ماري كثيرًا.

غدت ماري مرحة ونشيطة جدًا في الآونة الأخيرة لدرجة أن فريدريك نست تمامًا كم كانت أختها عصبية ومتقلبة المزاج فقط منذ فترة قصيرة، وتغلق على نفسها في حجرتها لساعات، ظاهريًا للعمل على كتاب رحلتها. في الوقت الراهن تذرع البيت صعودًا وهبوطًا تتدفق منها الضحكات، وتلقي بالنكات على لي ويان وتمسك دين من كتفها للفّها. بدت ملامحها العادية إلى حد ما متوهجة بنضارة جديدة، ولمعت عيناها العسليتان، وجميع من في مجموعتها لاحظوا التغيير- بدت ماري جميلة بما لا يدع مجالاً للشك هذه الأيام!

عَكَس الإشعاع المنبثق من ملامحها الأمل الجديد، الذي كان نوره يبزغ في قلبها. في هذه الأيام، عندما وقفت بجوار نافذة حجرتها تطل على الشارع، الذي يتلألأ بندى الصباح في أشعة شمس مايو المعتدلة، وعلى الغابة وراءه، يلفُّها عدد لا يُحصى من أطياف الأخضر النابض بالحياة، لم يعد قلبها يتألم- بل بات يغني.

صارت الآن حرة في التفكير في أوتو، لم يكن هناك شيء يمنعها من الاعتراف لنفسها بأنها أحبته، وبدا لها أن بالشفقة التي شعرت بها تجاهه جعلتها تحبه بقوة أكثر من ذي قبل، عندما كانت تحت عذاب الغيرة السرية من الخطيبة، التي ألقت به جانبًا بقسوة شديدة، كما لو كان شيئًا لا قيمة له.

يبدو أنه لا يزال يندب خسارته، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك أي أمل، وارتفع الأمل في قلبها ليشعَّ في وجهها، مضفيًا الجمال على ابتسامتها.

***

في ذلك المساء عندما انتهى الاستقبال، كان مستر فرسترايتن وزوجته أنهكهما التعب. استبدلا ملابسهما الرسمية بأخرى أكثر راحة، انسحب مستر فرسترايتن إلى حجرة دراسته، بينما صعدت زوجته إلى الطابق العلوي لأخذ قسطٍ من الراحة، التي كانت في أشد الحاجة إليها، ولي لي التي كانت مرهقة

للغاية من الوقوف على قدميها لساعات لتعبر عن شكرها الجزيل للجميع على هداياهم وتمنيات الطيبة، ألقت بنفسها على كرسيها المفضل ذي المسند والغطاء المزخرف القديم، واتكأت إلى الوراء، وأغلقت عينيها جزئيًا.

قالت ماري: «لي لي، لِمَ لا تصعدين للطابق العلوي وتستلقي لبعض الوقت».

«أوه لا شكرًا، لا أشعر بالانزعاج. أنا مُتْعَبة جدًا، متعبة كما ينبغي أن يكون التعب».

بدا جورج قلقًا. جلس بجانب عروسه، وأمسك يدها في يده، وتحدث إليها همسًا في الضوء الخافت. وبقيت فريدريك وپول وإتيان للعشاء، مثلما فعل جورج، لكن إتيان الآن استأذن بالانصراف لأن لديه ارتباطًا سابقًا للقاء بعض الأصدقاء.

سأل: «هل ستأتي يا پول؟».

رفع پول رأسه، وقَلَّبَ السؤال في رأسه، ثم تمطع.

«لا شكرًا، لا أشعر برغبة في ذلك».

«لكنهم ينتظرونك!».

«حسنٌ، لست في مزاج جيد. يمكنك أن تعذرني».

غادر إتيان، ساخطًا إلى حد ما. كانت ماري تدندن لنفسها، وهي تتجول على مهلٍ حول الصالونات مع فريدريك، وترتب باقات وسلال الأزهار المختلفة وتغمس أصابعها في وعاءٍ من الماء لتنفض قطرات الماء على الأزهار المتفتحة. كانت ماري الوحيدة التي لا تزال ترتدي ملابس الحفل، لكنها الآن انطلقت أيضًا لتستبدل فستانها الوردي بشيء أبسط، لأن الجو أصبح مثيرًا للملل للغاية على أي حال، حيث تدلي لي لي رأسها على كتف جورج وپول مستلقٍ متمددًا على أحد الكراسي ذات المسند فارجًا ساقيه عن آخرهما.

قالت ماري: «فريدي، لو تكرمتِ ضعي تلك السلة الكبيرة على الطاولة

الجانبية في البيت الزجاجي، ممكن؟ إذ إنها ستقف في طريق الراقصين غدًا. سأصعد إلى الطابق العلوي الآن».

قالت فريدريك: «حاضر».

غادرت ماري الحجرة، وذهبت فريدريك لرفع سلة الأزهار، عندها قام بول.

عرض عليها: «تحتاجين بعض المساعدة؟».

«نعم، يمكنك أن تضع هذه على الطاولة الجانبية هناك. شكرًا لك».

أخذت وعاء الماء وتبعت بول إلى البيت الزجاجي، والذي نُقِلَت منه جميع هدايا الزفاف فيما عدا طاقم الساتان الأزرق. الآن وُقد طْفِئَت الأنوار صار المكان يشبه تعريشة مظلمة مظللة بأوراق وأغصان الشجر. وقف بول واضعًا يديه في جيوبه ليشاهد فريدريك، وهى ترش الأزهار بالماء.

بدأ: «فريدي، هناك شيء أريد أن أسألكِ عنه».

«أوه؟ ماذا؟».

«يبدو أنكِ قد بدأتِ تنفرين مني في الآونة الأخيرة. هل يمكن أن تخبريني لماذا؟».

«أنفر منك؟ لا على الإطلاق. كل ما هنالك أنني لا أشعر بأنني معجبة بك بصفة خاصة حاليًا».

«ولِمَ لا، هل لي أن أسأل؟».

أجابت: «سوف تعرف إذا كَلَّفْت نفسك في التفكير فيه». ابتعدت ومعها وعاء الماء، لكنه أمسك بكلا معصميها.

«لا تنزعجي هكذا، أنزلي ذلك الوعاء وأجيبيني بشكل مضبوط».

أجلسها بقوة معتدلة على أحد الكراسي، ولما أخذ الوعاء منها انتزعت يديها من قبضته، لكنها شعرت بانتصار لحظي بسبب النظرة المتوسلة على

وجهه، ولم تبذل أي جهد للوقوف مرة أخرى.

«الآن هل يمكن أن تخبريني ماذا لديكِ ضدي؟».

أثارها الإلحاح في نبرة صوته وأربكها.

بدأت: «أنت تعرف نقطة ضعفي الأساسية يا پول! تعلم أنني لست ماهرة في التظاهر. صحيحٌ أنني منزعجة قليلاً منك، وعلى ما يبدو أنني لا يسعني إخفاؤه. أنا آسفة لذلك، لكنني أؤكد لك أنني لا أفعل ذلك عن قصد مطلقًا. وسوف أحاول أكثر أن أخفي مشاعري إذن، ممكن؟».

«لست في حاجة إلى أن تكوني حادة للغاية يا فريدي. لِمَ لا تخبريني فحسب ما الذي يضايقكِ؟».

«عزيزي پول، ماذا عساي أن أقول؟ قد أبدأ في تأنيبك، وأنا ليس لي الحق في تأنيبك على أي شيء على الإطلاق».

«وماذا لو أعطيتكِ الحق؟ أُفَضِّل سماع تأنيبكِ أكثر من كل ذلك الازدراء والتعليقات اللاذعة، التي أحصل عليها مؤخرًا».

سألته، وهي تلطف معه: «هل أنت متأكد أنك تريد محاضرة مني؟».

«أوه نعم، من فضلكِ، أود ذلك».

«أترى؟ أنت تمزح بالفعل. سوف أسعد تمامًا بالمزاح، لكن دعنا إذن نتحدث عن شيء آخر، ولنعد إلى الداخل».

«لا، لا، ليس بعد، هذا هو المكان المثالي للقيام بمحادثة خاصة، وأنا جاد تمامًا، بصراحة».

حدقت النظر في عينيه، لكن كان المكان مظلمًا للغاية في ظل سعف النخيل الداكن بدرجة لم تمكِّنها من تمييز تعبيرهما. في الآونة الأخيرة كانت قد لاحظت شيئًا من السخرية يتسلل إلى صوته، وهو ما جعلها تشعر بعدم الارتياح، بل بإمكانها سماعه حتى الآن، لما دعاها إلى أن تبوح بما في داخلها.

«حسنٌ، أنت راضٍ عن نفسك إلى حد ما أليس كذلك؟ تتحدث عن كل شيء بعدم جدية وفوقية هذه الأيام».

«آه، الآن فهمتُ بعض الشيء. عدم جدية وفوقية- لا، لم أكن أدري أنني أتحدث بتلك الطريقة. لكن لِمَ لا يجب أن أكون راضيًا؟».

«لِمَ لا في الواقع؟ أنت تعيش حياة مفيدة جدًا، أليس كذلك؟».

«أوه، يمكنني أن أفهم ما الذي ترمين إليه. تقصدين أنني لم أعد أعمل في مكتب هوفل. في الواقع، أنا أخطط لتأسيس نفسي كمحامٍ».

«نعم أعرف، على الأقل، هكذا سمعت».

«حسنٌ إذن، ألا يريح ذلك عقلك؟».

«يريح عقلي؟ هذا هراء يا پول، ليست هناك حاجة لذلك. حسنٌ من فضلك دعنا نتحدث عن شيء آخر. حاشاي أن أدفعك إلى النجاح فيما تقوم به من عمل. بصراحة، لستُ مهتمة بما تفعله، أو إذا كنت لا تفعل شيئًا على الإطلاق. هلا أرجأنا الجلسة إلى الصالون؟».

«يوه من فضلكِ يا فريدي، لا تكوني فظة للغاية معي. جورج ولي لي في الصالون، يتغازلان، كما يحدث، ولن نفعل شيئًا سوى أن نزعجهما إذا ذهبنا إلى هناك، لكن وبالرغم من ذلك، أتمنى أن يصبح كلانا صديقين مرة أخرى».

«لم أكن أعرف أننا كنا أعداء».

«لسنا أعداء، لكنني لا أستطيع أن أقول شيئًا دون أن تفهميه بطريقة خاطئة، وحقيقة أنني لا أعمل في الوقت الراهن لا يمكن أن تكون فقط السبب في فتوركِ الشديد تجاهي. هيا أخبريني بالسر، ماذا هناك أيضًا؟».

شعرت بالحرج إلى حد ما، لكنها حاولت ألا تظهره.

قالت: «كما قلتُ لك من قبل: ما يزعجني أحيانًا عدم جديتك، ونبرتك الاستعلائية. يمكنك أن تبدو متغطرسًا بفظاعة، كما تعلم. مثل ذلك عندما كنتَ تتحدث عن جورج ولي لي».

«تقصدين لأنني رأيت أنه من العبث- ولا زالت أرى- أنهما يريدان أن يعيشا معًا في حين أنهما فقيران كفئران الكنيسة؟ هما أحرار تمامًا فيما يريدان أن يعملاه، طبعًا، لكن لِمَ يجب أن يصبح قولُ ما أراه غطرسة؟».

«لأنه ليس كل الناس مليونيرات يا پول».

تطلع في وجهها باهتمام.

«لا أعرف ماذا تقصدين».

ردت بحسم وضحكة قصيرة: «ليس من الصعب أن تفهم، بالتأكيد!».

«أنتِ لا تقولين أنني متغطرس بشأن عدم إفلاسي شخصيًا، أليس كذلك؟».

«حسنٌ، نعم، إلى حدٍ ما».

«هيا خلاص، لا تكوني سخيفة!».

«حسنٌ، يبدو أنك تلقي بأموالك يمينًا ويسارًا. ظني أن لديك دائرة من الأصدقاء يستغلون مواردك، كما أنك تقيم حفلات المجون والعربدة معهم في البيت أيضًا، مما يجعل من المستحيل بالنسبة لأمك المسكينة أن تنام بأي شكل من الأشكال».

«من قال لكِ ذلك؟».

«يبدو أنك نسيت أن لديّ أخًا في نفس مجموعتك، وأن أمك تحتاج أحيانًا للفضفضة عما تشعر به من ضيق».

«أمم، أنا أخطط للانتقال على أي حال. سوف أبحث عن مكانٍ لوحدي. من الصعب أن تكون شابًا، ومضطرًا للتكيف مع ما يُسمى بالبيت المحافظ على النظام. في الواقع، رأيت شقة تبدو مناسبة، لذا لن تُضطر ماما لأن تبقى مستيقظة بسبب حفلاتي الماجنة على الإطلاق».

«شقة؟ حسنٌ، لو كنتُ مكانك لأخذتُ فندقًا بأكمله بالكثير من الغرف لكلّ أصدقائك المفلسين».

«أتمنى لو تتوقفين عن العزف على نغمة أصدقائي المفلسين! من تقصدين على أي حال؟ هايدريخت ليس مفلسًا، ولا أودندايك!».

«هذان هما الشابان اللطيفان فقط في شلّتك».

«لم تلتقي بالآخرين، يا فريدريك».

«لا، الشكر لله أنني لم ألتقِ بهم!».

«إذن ماذا تعرفين عنهم؟ كيف يمكنكِ الحكم عليهم إذا كنتِ حتى لا تعرفينهم؟».

«ما أعرفه أنهم طفيليات، فقط يسعون وراء أموالك».

«آه، أهذا ما تعتقدين؟ أتوقع أن إتيان تصادف أن ذَكَر أن هناك شخصًا ما اعتدت مساعدته بين الحين والآخر. كان ينبغي على إتيان ألا يحكي حكايات عن أصدقائه. من الطبيعي جدًا بين الشباب أن يقرضوا بعضهم البعض مبالغ صغيرة من المال عندما يحتاجون إليها. إنه لا يعرف عما يتحدث».

«إذا كنت تقول كذلك. دعنا نترك هذا الموضوع إذن، ممكن؟».

كانت هناك أصوات في الصالون، وأضيء قنديل الغاز. نهضت فريدريك.

سأل پول، وهو ينهض بالمثل: «نحن لم نصل إلى صلحٍ إذن؟»،

أجابت فريدريك: «لم نكن في حرب يا پول، قلتَ إنك تريد التحدث معي، وقد تحدثنا. لو كنتُ أسأت إليك بأي شكل، أرجوك فقط انسَ أنه دارت بيننا هذه المحادثة أساسًا. كما قلت، ليس لي الحق في لومك، ولم أكن لأقول أي شيء لو لم تطلب مني. أنت كبير في العمر بما يكفي لاتخاذ قراراتك الخاصة. ما الذي يمكن أن أعرفه عن أي شيء، على أي حال؟ لست بحاجة إلى أي نصيحة من فتاة صغيرة بكل تأكيد».

دخلت إلى الصالون، حيث انضمت مدام فرسترايتن وماري إلى جورج ولي لي. عندئذٍ جاءت دين بصينية الشاي، وسألت لي لي فريدريك عما أخرها في المجيء.

أجابت فريدي: «أنا وپول كنا في البيت الزجاجي في انتظار وقت الشاي. كنت مشتاقة للغاية لشرب كوب».

إلا أن پول استأذن بالانصراف. قال إنه سيبحث عن إتيان وأصدقائه في نهاية المطاف، بشيء من التحدي في صوته.

«نراكم في الغد إذن. وداعًا، جميعكم! وداعًا يا فريدي!».

أجابت فريدي ببرود، بالكاد لمست أصابعها يده الممدودة لها، «وداعًا يا پول، وآمل أن تستمتع. إلى اللقاء».

* * *

سار پول، الذي لم يشعر بأنه راضٍ عن نفسه تمامًا بطول پرنسيسيخراخت. حاول جاهدًا أن ينفض عن نفسه شعوره بعدم الارتياح، في البداية دون نجاح، لأنه ألقى بغلالة كئيبة على سلوكه المبتهج عادةً، وكلما كافح ليحرر نفسه من حواجزه المعرقلة بات يشعر أنه أكثر حصارًا. لم يكن هناك أي سبب يدعو إلى أن ينزعج هكذا من رفض فريدريك: بعد كل شيء، إنها مجرد فتاة تصادف أنها سمعت بعض النميمة حول ما يعمله مع أصدقائه، والتي انساقت تمامًا وراءها، حيث تخيلته يعيش حياة من الانحلال العاطفي، تشمل من بينها أنهارًا من الشمبانيا، وأمطارًا من العملات الذهبية والنساء اللاتي يدعونه إلى أحضانهن. ما الذي يصل إليه نقد فريدريك حقًا؟ أنه لم يكن في الوقت الحالي يعمل بأجر؟ ما الخطأ في الاستمتاع بالحياة إذا كان قادرًا على تحمل نفقاتها؟ وما فائدة البحث عن وظيفة ليس بحاجة إليها والتي، إذا أخذها، تعني حرمان شاب فقير ما من فرصة كسب لقمة عيشه؟ ذلك سيكون من الظلم نوعًا ما، أليس كذلك؟ هو من جانبه سيكون سعيدًا بالعمل في محيط ملائم، لكن الوظائف المثيرة للاهتمام قليلة ومتباعدة، وهكذا ينبغي على فريدريك أن تشيد بحق بإيثاره بدلاً من أن تعطيه محاضرة عن سلوكه السيئ. أما بالنسبة لأصدقائه المفلسين المزعومين، ذكرت فريدريك، ومعها الحق أن الناس ليسوا كلهم

مليونيرات، لذا لا يمكنها أن تتوقع منه أن يصاحب ذوي الثراء فحسب! ما الخطأ في مساعدة المرء لأصدقائه عندما يكونون في ضائقة، إذا كان كل ما سيتكلفه زيارة لصرافه؟ لكن كم كان إتيان ثرثارًا عندما يتعلق الأمر بمسائل لا يناقشها المرء مع السيدات أو الأقارب! إنه بحاجة ماسة لتوبيخه على طيشه، هذا الحقير الشاب! لم تعرف فريدريك إلا القليل أن إتيان نفسه لم يكن أفضل حالاً: لأنه طالما طلب منه مبالغ صغيرة من المال، وأحيانًا مبالغ كبيرة فعلاً أيضًا.

بعدما نصب كتفيه ورفع ذقنه، واصل السير في طريقه في الغسق الذي يزداد ظلامًا. تلألأ في عينيه بريق خالٍ من الهموم. فكر في نفسه يا له من عبء أن تكون غنيًا، وهو يضحك ضحكة مكتومة في سره. كم كانت سيئة للغاية الطريقة التي كان فيها المرء تحت ضغط هؤلاء، الذين ينفقون المال بحرية وأولئك الذين يشدون الحزام بإحكام على كيس أموالهم. ومع ذلك، الثراء يؤدي إلى تحقيق شعبية معينة، خاصة بين السيدات اللاتي لديهن بنات في سن الزواج مثل مدام إيخوف، التي بدت مصممة على ترتيب اقترانه بآنجه أو ليوني، ومدام أودندايك التي تدعوه مرة واحدة على الأقل في الأسبوع، وثم تركته وحده مع فرانسواز لساعاتٍ طويلة، والآن وقد كبرت كاتو بدأت فان دير ستور بالمثل في التودد إليه. الكثير جدًا من الأمهات لديهن الكثير جدًا من البنات لترتيب زواجهن- رآهن كطابور يمر أمامه في مخيلته، موكبٌ من ربات البيوت جميعهن مكللات بالابتسامات، يعرضن أمامه بناتهن المحمرات خجلاً بما يكفي كما لو كان أحد الباشاوات، الذي يفكر في تأسيس حريمه. لم يبق أمامه سوى أن يمد يده وسوف يجد عشر بنات جميلات ساعيات وراء الثروة تتشبثن بكل إصبع. ياه، عبء أن تكون غنيًا!

عَرَّج على كورته فورهوت، شعر بأنه أفضل بكثير بالرؤية المسلية لربات البيوت الحريصات وهن يتنافسن فيما بينهن لتمجيد بضاعتهن. لن يأخذ أيًا من ذلك، بطبيعة الحال؛ لأن ليس لديه النية بَعْدُ في التخلي عن حريته لفترة طويلة.

لكن لنفترض أنه كان فقيرًا، كم من تلك الأشياء الشابة الجميلة ستظل تريده؟ فكر أن فرانسواز سوف تظل تريده، لأنها كانت دائمًا تضع عينيها عليه كما لو كانت متيّمة به بالفعل، ثم هناك آنجه وليوني بقوامهما الصغير والأنيق، واللتين ظلتا تحومان حوله تريدان أن تلعبا لعبة المسّاكة: لو أنه ذهب وراءهما لأُغْشِيَ عليهما بالتأكيد بين أحضانه، ثم هناك كاتو، الأصغر بينهن جميعًا والوحيدة، التي تتعالى عليه.

بينما كان من ثَمَّ يستعرض كل مفاتنهن بسخرية الولهان، اتجهت أفكاره لفريدريك، التي بدت له كأميرة وحيدة تحلق عاليًا فوق صفوف الجواري. لم يشعر بأي سخرية معها، ولا كانت تصاحبها ربة بيت تعرضها للبيع. وقفت وحدها، تنظر إليه بثقة هادئة بالنفس؛ لم تكن لتسقط بين أحضانه أو ركع عند قدميه كالأخريات. شعر بالاحترام لأجلها.

قال متأملاً، وهو يمر أمام المسرح، ثم توجه إلى هوتسترات، 'على الأقل لم أتركها تشعر بالبرد، أو أنها لم تشعر بأنها منزعجة مني. لا مشكل عندي تمامًا لما قالت إنها لا يعنيها ما أفعله أو لا أفعله، سواء كنت أعيش بهذه الطريقة أو تلك، لكن إن كان في الواقع لا فرق عندها إذن لِمَ كانت باردة جدًا تجاهي؟ لِمَ اهتمت بأني تخبرني بما تراه؟ آه حسنٌ، نحن نعرف بعضنا البعض منذ وقت طويل، لذا افترض أنه من غير المُستغرَب أن تهتم. ومن الواضح أنها تسمع كمًا كبيرًا من الأشياء الرديئة عني من ماما وخالتي وأبناء الخالة. إنها فتاة حلوة وعاقلة، وأنا معجب بها كثيرًا جدًا في الواقع».

شعر بالفخر تقريبًا أن مثل هذه الفتاة الحلوة والعاقلة أخذت على عاتقها التعبير عن انتقادها له، وتطلع إلى تكرار حديثهما الثنائي تحت سعف النخيل المتدلي في البيت الزجاجي.

«طبعًا، هي صغيرة جدًا، ولذلك لا تعرف أي شيء عن العالم بعيدًا عما تقرأ في الروايات، الأرجح الروايات السيئة في ذلك، لكن ما قالته عن تلك الطفيليات، التي تسعى وراء أموالي كان ذكيًا إلى حد ما. لا بد أنها قرأت ذلك

في موضع ما! بدت تمامًا كأستاذة جامعية! الآنسة الصغيرة، التي تعرف كل شيء ... أعتقد بأنني سوف أطلق عليها اسم «الأستاذة» من الآن فصاعدا».

بدأ يضحك داخليًا مرة أخرى، لكن بالرغم من كل ما دغدغ مشاعره مما اعتبره اعتداد فريدريك بنفسها، ظلَّت في مخيلته على صورتها المثالية، بمعزلٍ عن الفتيات الأخريات اللاتي كانت أمهاتهن الحريصات تدفعهن إلى أحضانه.

ولما دنا من نادي ڤيته، حيث سينضم إلى أصدقائه، لم يسعه إلا التفكير مرة أخرى، بلذة سرية، ياه، يا له من عبء أن تكون غنيًا!

* * *

كان الحفل الراقص في منزل عائلة فرستڕايتن في مساء اليوم التالي مفعمًا بالحيوية جدًا، ولأن الدعوة وُجِّهَت فقط للأصدقاء والمعارف، كان في الجو الألفة المريحة، التي تميز تجمعًا عائليًا، بالرغم من الديكورات الفخمة والملابس الرسمية، التي كان الناس يرتدونها: فساتين سهرة خفيفة للسيدات وربطة عنق بيضاء وبذلات للرجال. معظم الضيوف كانوا يعرفون بعضهم البعض معرفة وثيقة تمامًا، ولذا انخرط كلٌ من الشباب والكبار في الدردشة الخفيفة المرحة والقفشات الرائعة الدالة على سرعة البديهة.

وصول پول متأخرًا يعني أنه جاء متأخر جدًا عن رقصة البولونيز والبولكا، وعندما حيى العروس بانحناءة صغيرة متيبسة، ردت بتوبيخه.

«أيها الرجل الشقي، تظل بعيدًا عن حفلتي كل هذه الفترة الطويلة! آمل أن تُعاقب على خطاياك، أيها الصبي المزعج!».

اعتذر بعينيه الضاحكتين وفمه الساخر، شَمَّ باقتها البيضاء الرائعة الملفوفة في رقاقتها من الدانتيل، وطوى قبعته الأوبرا تحت ذراعه وسحب أصابعه من قفازاته الرمادية بلون اللؤلؤ. رأى أنها بدت أثيرية تقريبًا، وهي تسبح فيما ترتديه من التول الأبيض والأزهار البرتقالية، بملامحها الشاحبة الدقيقة وشفاهها المبوزة كطفل مُدَلَّل.

قالت، وهى تنهض واقفة على قدميها، «آمل أن تؤخذ كل فتاة عزباء للرقصة القادمة، بحيث تُترك وحدك تمامًا!».

همس في أذنها، مقلدًا صوتها العالي، «آه، يا لكِ من عروس صارمة! أتراهنين أنني لن أُترك وحدي، وأنني سأظل أرقص طول المساء؟».

قالت، وهى تشير بإصبعها في وجهه، «لا، لن أراهن! أعرفك - سوف تمارس شقاوتك كالمعتاد! أحذرك أنه من الأحسن لك أن تكون مؤدبًا هذا المساء!».

عندئذٍ فقط رصد پول كاتو فان دير ستور تقف بظهرها لبعض أزهار الأزالية، وهى تتحدث مع شاب نحيل وطويل القامة لم يكن يعرفه، ومن خلال الحجرة أومأ رأسه لها إيماءة مبتهجة ومتساهلة، كما لو كانت طفلة صغيرة، والتي لم يكن ردها الوحيد عليها سوى نظرة قاسية. الوقحة الصغيرة! وصمم ألا يطلب منها الرقص طول المساء؛ بل إنه قد يتجاهلها تمامًا، فقط ليلقنها درسًا.

كان في مزاج الدعابة السخيفة، وأضاءت عيناه على فريدريك وماري، كلتاهما ترتديان التول الوردي.

هتفت ماري: «بجد! كم تبدو كإشبين لطيف! أنا مندهشة كيف حتى تجرؤ أن ترينا وجهك في هذه الساعة المتأخرة. ألا تشعر بالخجل؟».

تجاهل توبيخ ماري، والتفت إلى فريدي. كانت قد وعدته بالعديد من الرقصات، لذا ذَكَّرها، وتساءل عن الڤالس المقبل.

قالت فريدي: «بالطبع! ظننت أنك نسيتني تمامًا».

من البيت الزجاجي جاءت أنغام الافتتاحية لمقطوعة» دعوة لرقص الڤالس».

سأل: «وسوف نواصل مناقشة الليلة الماضية الفلسفية ونحن نرقص، ممكن يا فريدي؟».

«أوه لا، لا أريد المزيد من الفلسفة أرجوك! أريد فقط أن أرقص وأمتع

نفسي».

بدت سعيدة، بل مبتهجة ربما، وابتسمت له ببهجة كبيرة لدرجة أن قلبه بدأ يدق بسرعة. الشكر لله لا ازدراء ومعاملة باردة بعد اليوم. كم بدت جميلة هذا المساء، بوجهها المتوهج بالانعكاس بلون الوردي لمكياجها الوردي، وعيناها تتألقان بالمرح! ياه، بالتأكيد كانت أجمل من كل الأخريات، حتى أجمل من العروس الشابة الشاحبة في وسط الحجرة. شعر بالحاجة إلى أن يضمها بين ذراعيه، لكنه حدق في عينيها بدلاً من ذلك.

«آمل أنكِ قد احتفظت برقصة البولكا قبل الاستراحة لي، أليس كذلك؟ والڤالس بعد العشاء؟ ورقصة الكوتيلون أيضًا؟».

أجابت، وهي محمرة خجلاً: «نعم، لقد احتفظت بكلٍ منها لك. ليس لأنك تستحق ذلك بأي شكل من الأشكال، لكنني أوفي بوعدي دائمًا. كما ترى، كل رقصاتي الأخرى أُخذت بالفعل».

أظهرت له بطاقة الرقص الخاصة بها. ابتسم ابتسامة عريضة وهو يَخُطُّ بسرعة حرف پ كبير في كلٍ من الفراغات المتبقية.

كان الڤالس بدأ بالفعل، وما إن لفَّ ذراعه حول خصر فريدريك حتى وقع نظره على كاتو، وهي تراقص الشاب النحيف طويل القامة. أومأ لها إيماءة استعلائية أخرى، مشيرًا إلى ارتياحه الكبير لاحمرار وجنتيها، وهي تحملق فيه ساخطة من فوق كتف فارسها الطويل الهزيل. بعد ذلك لم يعد يفكر فيها، بل في فريدي فحسب.

لم يستطع أن يتذكر أنه استمتع بڤالس قدر استمتاعه به الآن، وفريدي تحلق بين ذراعيه أثناء انسيابهما وسط الراقصين الآخرين. لم يستطع مقاومة أن يدنيها منه ليضمها برفق إلى صدره، وانزلقت عيناه الضاحكتان من رقبتها إلى كتفيها الجميلتين المتماسكتين. القماش الوردي الخفيف والدائري بفستانها جعله يشعر بالدوار للغاية، ولما أمال رأسه تقريبًا على كتفها، ثبت بصره على

خصلات الشعر الحريرية، التي تكورت على مؤخر رقبتها. لقد اختفت الآنسة الصغيرة، التي تعرف كل شيء بلا أثر، وكذلك الأستاذة الجامعية الصغيرة؛ لم يكن هناك سوى فريدي الآن، ترقص كأنها حُلم.

فكر في نفسه، هذه هى الحياة، رقصة ڤالس حلوة وطويلة تدور وتدور في إيقاع ناعم وساحر، تدور وتدور، الرأس الصغير الجميل على كتفه، المخلوقة الأنيقة بين ذراعيه، الدوامة الوردية من الطيات، التي تُصْدِر حفيفًا كنسيم رياح من بتلات الورد، خصلات الشعر الحريرية، الانحناء اللطيف لكتفها الأبيض كالزنبق، تدور وتدور ...

«پول، لست بحاجة لأن تحتضنني بقوة هكذا، أنا لن أهرب بعيدًا كما تعلم!»، همست وهى تبتسم. حدق نظره في عينيها المشرقتين، لكن دون أن يخفف قوة حضنه، وأسلمت نفسها لحضنه في جمالٍ رائع. لاذا بالصمت.

عندما توقفت الموسيقى شعر كأنه استيقظ من حلم رائع.

«ياه، يا فريدي، ألا يمكننا أن نظل نرقص الڤالس معًا إلى الأبد، حتى آخر يوم في حياتنا؟».

ابتسمت وهمست برَدٍّ لم يسمعه، لأنه في مخيلته أنهم سينطلقان من جديد، ليرقصا الڤالس.

* * *

بالنسبة لراقصي الڤالس كان پول على نفس الجانب مثل العروس وفريدريك وماري وكاتو وجورج وإتيان ويان الصغير، وفي كل مرة تلمس يده يد كاتو كان يضغط على أصابعها قليلاً. كان يغيظها طول المساء بنظراته المُخْتَلَسة الساخرة، وبدأت كاتو الآن تنظر إليه شزرًا. لم يستطع أن يفكر لِمَ كان يشعر بأنه مولع بالمزاح والهزل هذا المساء، لكنه ببساطة لم يستطع أن يقاوم عمل مقالب في الجميع. بدأ الآن يلعب دور الغندور الذي تحيط به عصبة من الفتيات، ويلقي على كل واحدة منهن بدورها تعليقات غير لائقة، والتي لا يستطعن معها

سوى القهقهة. تظاهر بتجاهل فرانسواز أودندايك عندما طرحت بعض الأسئلة الكوميدية، ثم استدار فجأة ليحدق في عينيها، كشَّر بوجهه تكشيرة هازلة تدل على التشكك.

قالت، وهي تمد نفسها لتلمس الجاردينيا في عروة بذلته، «أقول لك يا پول، كم تغيرت! أنت مجنون جدًا هذه الأيام! ما الذي دهاك؟».

رد بحسمٍ بنبرة منخفضة، وهو يرف رموشه مغازلاً: «يمكنكِ أن تخمني؟».

«أنا؟ لا، كيف يمكنني ذلك؟».

توسل إليها: «هل لي أن أخبركِ بالسبب في وقت لاحق؟ أتسمحين لي؟».

«أوه نعم، أرجوك!».

قال بسرعة: «حسنٌ إذن، انضمي إليّ لنصف محادثة ورقصة أثناء الرقصة الشعبية الاسكتلندية».

«ماذا تقصد بنصف محادثة ورقصة؟».

«من هنا أعلن الرقصة الاسكتلندية الأولى لمحادثة ورقصة مع اثنتين من البنات، لكنني لا يجوز لي التحدث مع إحداهما، ثم مع الأخرى، لكن مع كلتيهما في الوقت نفسه. أول شريكة لي هي ليوني إيخوف، لذلك لو كنتِ أنتِ الثانية، أعدكِ بأنني سأخبركِ بسبب جنوني. ما رأيكِ؟».

حدقت فيه للحظة، غير متأكدة إذا كان عليها أن تشعر بالإهانة أم لا.

أجابت، وهي تصطنع الغضب: «إذا كان هذا كل ما لديك لتقدمه، إذن لا شكرًا!».

«كما تشائين!»، اختتم كلامه، ورمقها بنظرة تهكمية لدرجة أنها أدارت ظهرها له.

كانت الفتيات الأخريات لا زلن يتحدثن بسرعة وحيوية دون توقف.

«صغيراتي العزيزات، أخشى أنكن قد جعلتنني أصمًا تمامًا!»، قالها بوقار

متكلف، ودفعهن بعيدًا عن طريقه أثناء سيره إلى حجرة الرسم. حان الوقت للهو والمزاح مع الأمهات اللاتي يجلسن في صفٍ واحد يبدين إعجابهن ببناتهن، لكن أوقفته بيتسي التي كانت تتحدث إلى إيميلي.

قالت بيتسي، وهى تلمس كُمَّه: «مرحبًا بالذبابة المزعجة! إلى أين تطير لتمرح الآن؟».

«إلى زهرات الجدار، التي لا تجد من يراقصها»، رد عليها هامسًا: «وماذا عنكِ- لا ترقصين؟ خذي بالك، هذه ليست دعوة؛ أنا فقط أبدي اهتمامي».

على الفور قَبِلَت التحدي، هاجمته بعنف بتوبيخ على وقاحته، ومن ثَمَّ انطلقا في تبادل مرح للكلام مما جعل عينيّ إيميلي تدمع من الضحك. كانت بيتسي تبتسم في ابتهاج؛ إذ كانت منبهرة للغاية بالتحول المذهل، الذي مر به: لقد صار جذابًا وحيويًا جدًا، لا عجب أنه غدا فاتنًا لجميع النساء! لقد استغرق وقتًا طويلاً لينفض عن نفسه خموله القديم، وبدأ ينشط نفسه في السن، التي كان أقرانه فيها هدأوا واستقروا بالفعل، لكن كان ثمة شيء ما به، مسحة من دون جوان بشعره الأسمر المصفر وعينيه الجريئتين الزرقاوتين المائلتين إلى الرمادي، وهو شيء من شأنه أن يلعب على أوتار قلب أي فتاة. كانت تشاهد پول يشق طريقه نحو ربات البيوت في حجرة الرسم. انحنى لمدام إيخوف ومدام فان دير ستور، وجلس جنبًا إلى جنب على الأريكة.

بعد تبادل قصير لعبارات المجاملة، استفسرت مدام إيخوف:

«ألن ترقص هذه الليلة يا فان رات؟ أستطيع أن أسمع الموسيقى تبدأ مرة أخرى».

بعدما رد أنه غير مهتم بالمازوركا، طلب پول من السيدتين إفساح المكان له على الأريكة، وحشر نفسه بينهما بعدم اكتراث ملحوظ بالشكليات. استمع بجوٍ من الاهتمام المنتشي لأسئلتهما وأجاب عليها بطيب خاطر، وهو يلعب بقبعته الأوبرا طول الوقت. لا، لقد ترك الرسم تمامًا- كانت رائحة الزيوت

كريهة جدًا- بل إنه حتى ألقى بحامل قماشة الرسم في العُلّية. ترك الموسيقى أيضًا، منذ لم تعد إيلينه فيره موجودة لغناء الثنائيات معه. ابتسم بلطف، وهو يبرم طرفيّ شاربه الأشقر السميك عندما أعلنت مدام إيخوف أنه من العار أن يدع مواهبه تضيع، ألم يتذكر كيف كانت تسقط كاتو مغشيًا عليها كلما سمعته يغني؟

قطعت مدام فان دير ستور الحديث: «على ذِكْر إيلينه، ألا تعرفان متى ستتمكن من العودة؟ ألا تزال مسافرة؟».

«تعرفون أنها سافرت إلى إسبانيا مع عمها وعمتها، أليس كذلك؟ لقد مكثت معهما فترة طويلة في بروكسل بعد ذلك، وبعدها سافر ثلاثتهم إلى نيس، كما قضت بعض الوقت أيضًا مع أقارب عمتها، في بيت ريفي ضخم في مكان ما بالقرب من بوردو، والله يعلم الأماكن الأخرى التي ذهبت إليها».

كان پول قد بدأ يجد المحادثة مملة، لأنه كان غير مهتم بشكل ملحوظ بإيلينه في الوقت الراهن. ولمَّا لم تكن لديه رغبة في سماع مدام إيخوف، وهي تنبش في العلاقة المؤسفة، نهض فجأة واستأذن بالانصراف. التفت إلى صف ربات البيوت، وحييّ كل واحدة منهن باللطف والتأدب الواجب، متلذذًا بصورة كبيرة بحرصهن على التحدث معه. آه، كانت هناك مدام أودندايك، التي بدت تعتقد أن عليه التفكير في التقدم لطلب يد فرانسواز في هذا المساء نفسه، لأنه كانت هناك لمسة من الحماة في الطريقة، التي أراحت يدها على ذراعه بها، والتي استجاب لها بإمطارها بوابلٍ من المجاملات الصغيرة المهذبة عن ابنتها، ويا، كم ابتلعتها جميعًا! قال إن فرانسواز ذكرت له إنها تحب ركوب الخيل؛ وربما قد تشتري لها أمها حصانًا؟ يا لها من صورة جميلة، وهي تركب على السرج من الجانب! وبينما ينتظر ردها، تخيل أنه يستطيع أن يقرأ أفكارها: دعه يعطي فرانسواز حصانًا إن كان هذا ما تريده، ونفسه في نفس الصفقة! لكنه لم تكن لديه النية للقيام بأي شيء من هذا القبيل.

* * *

ذهب بعيدًا، وأثناء مروره سمع العم فرسترايتن وهِنْك يناقشان احتمال عودة إيلينه إلى لاهاي في الصيف. تذكر أنه سمع شيئًا عن خطط إيلينه للإقامة مع أمه. حسنٌ، هذا من شأنه أن يكون لطيفًا جدًا، وجود مثل هذه الفتاة الجميلة في البيت ... كم عمرها الآن؟ خمسة وعشرون، في تقديري- صغيرة بما يكفي على أي حال لأن تكون صحبة لا بأس بها، وصمم أن يرى إن كان يمكنه أن يجعلها تقع في حبه، فقط لمجرد المتعة.

عند عودته إلى الصالون، وجد العروس والعريس ومحيطهما مُحاطين بحشود الناس. أثار ظهوره ضجة، وعندما ركضت العديد من الفتيات تجاهه لتوبيخه على التنصل من واجباته كإشبين، دافع عن نفسه دفاعًا كوميديًا.

قهقهت ليوني: «كم بات پول مضحكًا هذه الأيام!».

ابتسم ابتسامة استعلائية، وتطلع مرورًا بها إلى فريدريك، التي كانت تتحدث إلى جورج بينما كانا ينتظران بدء الموسيقى.

«هيا، لدي الكثير لأقوله لكِ!»، قال لليوني، وهو يشعر بوخز الأسف على المسافة بينه وبين فريدريك، «لكن تذكري، من المفترض أننا سنتحدث، ولن نرقص».

«يوه، أرجوك يا پول، فقط لفة صغيرة؟».

ولكن بعد تلك اللفة الأولى قاد شريكته الشابة بإصرار خلال الحشد إلى مقعد طويل في الخلفية يظلله سعف النخيل المتدلي.

«ليوني، الآن كوني طيبة وقولي شيئًا لطيفًا!».

رَدَّت بغنج: «لكنني اعتقدت أنه كان لديك الكثير لتقوله لي!».

كان على وشك الرد عندما وقع نظره على فرانسواز قادمة نحوهما، تُلَوِّح بيديها بينما شقت طريقها بحذرٍ عبر تيار الراقصين.

سألت: «أهناك أي متسعٍ لي على الأريكة؟ أنتَ دعوتني لأكون شريكتك في المحادثة، أَتَذْكُر؟».

«آه! إذن لقد قررتِ الموافقة في نهاية الأمر، لأنكِ ببساطة لم تجدي شريك رقص على ما أظن. حسنٌ، الآن حان دوري لأن أرفض- انصرفي! امشي من هنا!».

«لا يا پول، ارحمني! دعني أجلس هنا معك، كان من الصعب بما يكفي الوصول إلى هنا وسط التدافع، أرجوك لا تطردني!».

كان رحيمًا وانتقل إلى منتصف الأريكة بحيث تتمكن فرانسواز من الجلوس على الجانب الآخر منه، مما جعله شبه مغمورٍ بتنوراتهن التر لاتان المنتفخة.

قال بفخامة كأنه لورد: «والآن لنستمتع قليلاً مع العرض الكبير!».

اتكأ الثلاثة إلى الوراء ليشاهدوا البذلات السوداء والتنورات المنتفخة تتمايل أمامهم. اقترض پول مروحة فرانسواز ليضيع الوقت بها، واتأد للوراء كأنه سلطان ليستمتع بما يجري أمامه من أحداث بين رفاقه المرحين.

«آه، انظروا فريدي! إنها راقصة ممتازة!»، هتفت فرانسواز لمَّا برز جورج وفريدي إلى مستوى النظر، وصفق الثلاثة بأيديهم بقوة لدرجة جعلت المقعد الطويل يهتز على أرجله.

صاح پول، وهو يتقافز صعودًا وهبوطًا، ليجعد فساتينهن، «جنون، جنون محض!».

قالت فرانسواز: «آه، حدثني عن الجنون! لذلك أخبرني يا پول، لِمَ صرت مجنونًا جدًا هذه الأيام؟ كنت ستخبرني، أتَذْكُر؟».

انفجر قائلاً في حماس: «لأنني مجنون بكِ! نعم، مجنون بكِ، فرانسواز! أنا أموت عشقًا فيكِ! اسمحي لي بأن أُقَبِّلَكِ!».

ارتدت فرانسواز في رعب مصطنع، الأمر، الذي جعل ليوني تنفجر في الضحك.

***

توقفت الموسيقى للاستراحة؛ كان ذلك الوقت المناسب لإدخال الطاولات

الخشبية ذات الأرجل المزدوجة، والتي أُدخرت من قبل لتسهل تحول جناح الاستقبال سريعًا إلى مطعم أنيق.

تفرق الضيوف في القاعة والبيت الزجاجي، الذي غادره عازف البيانو، ليشكلوا مجموعات صغيرة وسط الكثير من المزاح والتصفيق من المشجعين، وبدا كما لو أن غبارًا ذهبيًا سحريًا هبط على الجمع بأكمله، ليجعل كل نظرة، وكل ابتسامة، وكل جلجلة من الضحك تتوهج بالنشوة المُعْدِية.

دَنَت مدام فرسترايتن من العروس الشابة وهمست في أذنها: ألستِ مُتْعَبة؟ أكدت لي لي لها أنها لم تكن مُتْعَبة. رجعت للوراء في كرسيها الخيزران وشمت الياسمين الذابل في باقتها، مبتهجة لرؤية كل هذا الاحتفال والضحك- وكل ذلك على شرفها، ببساطة لأنها كانت تتزوج حبيبها جورج! شعرت تمامًا كأنها الملكة الصغيرة، التي تبرز أمام الجماهير، التي تهتف وتهلل، خصوصًا وأن صوت پول العالي قد شَدَّ الجميع إلى البيت الزجاجي. تزاحم الجميع لسماع ما الذي كان يقوله للعروس والعريس، وعندما انتهى من كلامه دعا مازحًا ليوني وفرانسواز ليأتيا ويجلسا على حِجْره، واحدة على كل ركبة.

لم تجد اتهامات ماري بأن سلوكه يزداد سوءًا يوما بعد يوم آذانًا صاغية: فقد قفز بالفعل واقفًا، بعدما وقعت عيناه على كاتو فان دير ستور الصغيرة تحدق النظر حول باب البيت الزجاجي. آه، عليه الآن أن يبدي الندم لمجرد التغيير.

«هل أنتِ متضايقة جدًا مني يا كاتو لأنني مزحتُ معكِ؟».

قالت، لكن شفتها المرتعشة خانتها: لا، لم ألاحظ حتى».

قَدَّم لها اعتذاراته الصادقة، حرك عينيه يمينًا ويسارًا وتوسل إليها بأن تحجز رقص له.

ردت كاتو عليه بحسم بنبرة منتصرة، وهى تُظْهِر بطاقة رقصها، «لم يتبقَ لدي أي رقصات!».

«لكنني يجب أن أرقص معكِ! أنا مُصِرّ! دعيني أرى: هايدريخت،

هايدريخت- رقصتان مع هايدريخت! لكن هذا ليس عدلاً! لِمَ لا تذهبين لتخبريه أنكِ تريدين أن ترقصي معي؟».

«لكنني لا أجرؤ!».

«لن يعضكِ كما تعرفين! أرجوكِ يا كاتو، تعاليّ معي، أريد تلك الرقصة!».

سحبها للبحث عن هايدريخت وجعلها تتراجع عن وعدها بالرقصة الشعبية الاسكتلندية المقبلة.

كانت كاتو منزعجة إلى حد ما من نفسها لأنها سمحت له بأن يفرض رأيه، إلا أنه من المستحيل أن يُرْفَض أي شيء لپول.

همس في تضرع: «تمام إذن، أراكِ لاحقًا، وأنتِ لم تعودي غاضبة مني، أليس كذلك، يا أغلى كاتو؟».

قالت في سخرية، وهي ممتنة داخليًا لجهوده في مصالحتها، «أنا لستُ أغلى كاتو بالنسبة لك بأي شكل!».

***

جلس على الطاولة الطويلة في المنتصف العروس والعريس ومرافقوهما، بينما جلست على الطاولات الأصغر مجموعات مكونة من أربعة أفراد. كان پول عالي المزاج، لأنه لم يرقص رقصة البولكا مع فريدريك فحسب بل لأنه وجد نفسه أيضًا جالسًا بجانبها على الطاولة، وتَقَبَّل بقدر عالٍ بدرجة ملحوظة من الكياسة عتاب ماري بشأن جرأته مع كل الفتيات. تورد وجه إتيان من شرب الشمبانيا، وصار عاطفيًا، متباكيًا على عدم جدوى الرقص وسلىّ نفسه بأن الحياة قصيرة جدًا وحزينة!

بعد العشاء رقص پول الڤالس مرة أخرى مع فريدي، وبدا له إن رقصة الڤالس الثانية هذه كانت أحلى من الأولى، تأثير العديد من أنخاب الشمبانيا الفوارة ضاعَف منه لفة التول الوردي المُسْكِرة، وما بينهما كان كله فقاعات ومرح وحيوية. لكنه كان لديه شعورٌ بأنه لا يمكن أن يكون بالفعل واقعًا في

حبها، لأنه رغم أنها كانت بالتأكيد الأجمل من بينهن جميعًا، وجال بخاطره أن الفتيات الأخريات جذابات إلى حد ما أيضًا، وبعدها، عندما قاد هو وإتيان رقصة الكوتيلون، تفوق على نفسه في اختراع حركات جديدة تمامًا في الرقص لهن جميعًا ليحذين حذوها.

مع اقتراب الحفل من نهايته تزاحمت عليه الفتيات اللاتي تقافزن حوله لتحديه بأن يركض وراءهن للإمساك بهن، وفي وسط الرقصة الأخيرة ارتجل لعبة المطادرة، والتي انتهت بآنجه وفرانسواز باصطدامهما في إصيص لأزهار الأزالية وقول إيميلي دي فوده إن الحفل قد انحدر ليصبح مسابقة حقيقية في الشرب والعربدة.

صاحوا جميعًا: «لا، إنه خطأ پول، خطأ پول!».

أُدخلت الأغطية إلى حجرة الطعام، وبدأ الضيوف في المغادرة. كانت الساعة الثالثة صباحًا.

قال پول، وهو يساعدها في ارتداء عباءتها، «لقد كنتِ ألطف بكثير هذا المساء عن يوم أمس يا فريدي».

ابتسمت ابتسامة حالمة، وتساءلت ما إذا كانت قد قالت أي شيء كان عليها ألا تقوله، لكنها لم تستطع أن تتذكر أي شيء غير ملائم.

انطلق پول نحو البيت مع عدة شبان آخرين. رفع ياقته، ودس يديه في جيوبه، وعاد إلى الوراء في تفكيره وكيف كان حظه هذا المساء. حسنٌ، لم يكن ثمة شكٌ في ذهنه- كنّ جميعًا مفتونات به، كل واحدة منهن!

***

أقيم حفل زفاف الكنيسة في صباح يوم الخميس التالي. اتفق الجميع أن لي لي بدت كعروس شابة جميلة، وهي تدخل الكنيسة تمسك بذراع زوجها المستقبلي الشاب، بيضاء وشقراء برقة يغشاها بياض وشاحها، وما يتجرجر وراءها من ذيل طويل وثقيل من القماش الأبيض المموج وغلاميها بِنْ فان رات ونيكو فان رايسل.

وراءهما أتى مستر دي ڤوده ومدام فرسترايتن، ثم مستر فرسترايتن وإيميلي، إلى جانب المنظِّمين والمنظِّمات ووصيفات العروس والشهود وأفراد الأسرة الآخرين في الخلفية. وفي الساعة الواحدة غادرت العربات إلى پرنسيسيخراخت لتناول إفطار الزفاف، وهو الحدث الأخير في الاحتفالات، والذي تُقرِع فيه أنخاب المهنئين وتُذْرَف الدموع، خصوصًا دموع مدام فرسترايتن، وكذلك لي لي وماري. بحلول الساعة السابعة لم يتبقَ سوى تجمع صغير من المقربين في حجرة الرسم. انسحب العروسان الجدد اللذان سيقضيان أسبوعين في باريس، مبكرًا، لكن ليس قبل أن تهمس ماري تأكيدات دامعة لــلي لي أن عش حبهما في آتيهسترات سيُرَتَّب على أكمل وجه عند عودتهما.

بقيت مدام فان رات العجوز وإيميلي، هِنْك وبيتسي، فريدريك وأوتو وپول لفترة من الوقت ليكونوا في صحبة عائلة فرسترايتن. بُذِلَت محاولات لكي يظل الحديث مفعمًا بالحيوية، إلا أن سحابة من الحزن بدا أنها خيمت على حجرة الرسم، مختلطة بالعطور الذاوية من الباقات وسلال الأزهار. شعر مستر فرسترايتن بالتوتر، ضايقته كل تلك الأزهار والخضرة وداخليًا كان متأثرًا أكثر مما اهتم بالتصريح به، يُرَبِّت بين الحين والآخر على كتف زوجته بينما يطبع قبلة سريعة على جبينها. قالت إيميلي لقد حان الوقت لأن تذهب، وعانقته عناق الوداع، وهمست إنها تأمل أنه لم يكن متضايقًا منها بسبب ثبات موقفها باسم حب أخيها الشاب لابنته ... وعندما استأذن أوتو بالانصراف أيضًا، تأثرت ماري كثيرًا للحزن في صوته لدرجة أنها قاومت دموعها، وهربت إلى الطابق العلوي للحجرة التي كانت تتقاسمها مع لي لي منذ أطول مدة يمكنها أن تتذكرها، والتي ستكون من الآن فصاعدًا لها وحدها.

كان أول شيء التقت به عيناها فستان زفاف لي لي ملقى على السرير المهجور، بذيله الأبيض الطويل متدليًا من الجانب ونازلاً مجرجرًا على السجادة؛ وشاحها وزهرتها البرتقالية مطروحة في كومة مجعدة على أحد الكراسي، وكل فردة من فردتيّ الحذاء الساتان الأبيض الرقيق مرمية على

بعد مسافة ما من الأخرى. جلست على جانب سرير لي لي تذرف الدموع، وأمكست بيدها جزءًا أصدر حفيفًا من ذيل الفستان المتموج. ذكرها ذلك بالكفن. انتابها شعور بالكآبة والعزلة المطلقة- رحلت لي لي، شعرت تقريبًا كما لو كانت ماتت ودُفِنَت. ثم فُتِحَ الباب ودخلت دين.

«خلاص، خلاص يا عزيزتي، لا تضايقي نفسكِ! تعرفين أنها ستعود مرة أخرى قريبًا، وأنها لن تعيش بعيدًا. يمكنكِ أن تريها كل يوم إذا شئتِ. يا ربي يا ربي! كم بدت جميلة وهي ترتدي فستان زفافها الأبيض! يا لهما من زوجين جميلين أيضًا»، قالت دين بصلابة في صوتها. عبرت إلى النافذة وجذبت الستارة الشبكية وفتحتها للسماح لأشعة شمس بعد الظهيرة بالدخول إلى الحجرة.

«آه نعم، هكذا تسير الأمور، هكذا تسير الأمور. تربين أطفالك طول تلك السنين، وبعد ذلك يرحلون إلى جزر الهند الشرقية أو يتزوجون، ويتركونكِ وحيدة وبائسة تمامًا. أتخيلكِ تبكين! هل تعتقدين حقًا أنكِ ستظلين في هذا البيت لبقية حياتك؟ سوف ترين، سوف تجدين زوجًا أيضًا، وعندما يحين الوقت المناسب سوف تتزوجين، هكذا تسير الأمور دائمًا، سجّلي كلامي!».

ابتسمت ماري من خلال دموعها: «ياه، ما الذي يمكنكِ أن تعرفيه عن هذا يا دين! قد أصبح سيدة عجوز إن كنتِ تهتمين!».

«طفلتي العزيزة، لا بد أنكِ تمزحين! لا، ذلك لن يناسبكِ أبدًا. سيأتي دوركِ بعد ذلك، سجّلي كلامي!».

اُضطرت ماري لأن تضحك. بدت الشمس المائلة في الحجرة كشعاع من الأمل وتوقع حدوث شيء ما في المستقبل، وجعلت القماش المتموج المجعد من فستان الزفاف يتلألأ في الضوء اللامع. لم يكن ذلك كفنًا، بل فستانًا للاحتفال، أبيض كنُدَف الثلج، يُلبس ليشير إلى أروع مناسبة! شعرت بدفعة من تفاؤل، ورجعت ظهرها إلى الوراء في جلستها، لتستسلم لبشرى إشراق شمس الربيع الحلوة إلى أن يُزهر كل شيء ويتفتح داخل روحها.

٢٧

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما استيقظ پول من النوم. كان خارجًا مع أصدقائه الليلة الماضية، ولم يعد إلى البيت حتى الفجر. أخذ حمامًا باردًا وارتدي ملابسه على مهل، لذا كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عندما نزل إلى حجرة الطعام، حيث كان إفطاره في انتظاره. كان يشعر بالجوع، وتلذذ بطعم الدجاج هلاميّ القوام وزجاجة من نبيذ هوخهايمر. لكنه أخذ أولاً بيضتيْن نيئتيْن من خزانة المطبخ، وظلَّ يصفر، وقلَّبَهما في كأس من الكونياك. لم يعجبه الطعم، لكن تجرع الشراب على أي حال لخواصه المنعشة والمنشطة، وبعد ذلك أخذ مقعده على المائدة وتناول شريحة من الدجاج البارد الطري في الحساء الذهبي الباهت اللون. لم يكن في عجلة من أمره على الإطلاق، وتمنى أن يستمتع بكل لقمة.

كان يومًا غائمًا في مطلع يونيو، ولا يزال قارس البرودة فعلاً. أبرز الضوء الكئيب القادم خلال النافذة سعة الحجرة المتآكلة. شعر پول بقليل من عدم الارتياح بسبب الستائر باهتة ذات الطراز القديم، وأغطية الكراسي الرثة والبُسُط القديمة من ديڤينت. كان قد حاول في عدة مناسبات إقناع أمه بتجديد طلاء بيتها، لكن دون جدوى. لذا استسلم للموقف، لأنه أدرك أن مدام فان رات في سنها لن تشعر بالراحة مع طراز أكثر حداثة، وأن كل قطعة أبلاها الزمن في بيتها كان تعج بالذكريات وترتبط في ذهنها بأشياء غالية عندها، وتتمنى أن تحيط نفسها بها لبقية أيام حياتها.

بينما كان يتذوق دجاجه ونبيذ الهوخهايمر أخذت أفكاره منحىً فلسفيًا. فكر أن الحياة ليست رديئة للغاية على الإطلاق، ولم يستطع أن يتخيل لِمَ كان دائمًا ما يشعر بغير ذلك. قفزت أيام دراسته إلى ذهنه، أساسًا كوقت لتمرد

الشباب، لكن كان هناك أيضًا العم فرسترايتن، الذي كان يحيط به في الخلفية، ليحثه على أن يدخل امتحانًا تلو الآخر. كل تلك الامتحانات- كان يبدو كما لو أنه لا نهاية لها! من ناحية أخرى، كان الأمر أيضًا أن عمه كان يراقبه بصرامة. لأنه ما الذي كان سيحققه بخلاف ذلك؟ لو أنه تُرِكَ ليفعل ما يحلو له، حرًا في أن يعمل ما يشاء كما هو حاله اليوم، ربما كان لا يزال طالبًا! بعد التخرج مرَّ بتلك الفترة من الطموح الفني، وكم كانت خيبة أمل ليكتشف أنه لم يتمتع بالموهبة الكافية لا في الرسم ولا الموسيقى! حسنٌ، لقد تجاوز ذلك كله؛ فلم يعد يرسم، ولم يعد يغني، وشكرًا للرب، لم يعد يعاني اليأس لافتقاره المثير للشفقة للعبقرية الخلاقة. الآن هدفه الوحيد أن يستمتع بالحياة في حد ذاتها، وأن يعيش حياة مريحة خالية من الهموم، وأن ينغمس في رغبته في التبذير- هذه الرغبة، التي كان يرضيها باستمتاع- والمؤكد أنه وجد نفسه أكثر طاقة ونشاطًا وفي حالة معنوية أفضل عما كان عليها من قبل، سواء كطالب أو كفنان مُلْهِم. منحه سعيه وراء رغباته المادية والإبيقورية إحساسًا بالصحة والعافية الحماسية، في الواقع، كان يشعر أحيانًا كما لو كان ثورًا شابًا يمرح في أحد المروج المنقوعة في الشمس في ذروة الصيف! كذلك تأمل في تحوله مما عُرِفَ أن بيتسي تطلق عليه «البدين الفارع» إلى الشاب الأنيق المحبّ للمرح والمتمرد، الذي صار عليه اليوم، لكن تأملاته لم تتعمق؛ كان فقط يترك أفكاره تتجول رغبة في شريك محادثة على مائدة إفطاره.

بعدما أكل ملء بطنه، أشعل سيجارًا ونظر بكسلٍ حوله. من خلال النافذة لمح الخالة فرسترايتن وماري وهما يعبران؛ وبعد لحظة دق جرس الباب. ولأنه عرف كم لينتيه بطيئة في الوصول للباب بسبب كبر سنها، أجاب الباب بنفسه.

«آه، يوم سعيد يا خالتي، يوم سعيد يا ماري».

استفسرت مدام فرسترايتن: «صباح الخير عليك يا پول، هل مامتك بالداخل؟».

«أتوقع ذلك يا خالتي، لكن لأكون صادقًا معكِ أنا لم أرها. لقد استيقظت

متأخرًا كما ترين».

صعدوا إلى الطابق العلوي معًا ووجدوا مدام فان رات في حجرتها المضاءة إضاءة خافتة في الجزء الخلفي منها؛ كانت تجلس بجوار النافذة ويداها مطويتان على حِجْرها، وتحدق النظر في الحديقة. كان كتاب لجوستاف درو بعنوان **الحزن والابتسامات** ملقىً مفتوحًا على الطاولة بجانبها. وقامت للترحيب بزوارها؛ وتبادلوا القبلات، وبعدها طبع پول أيضًا قُبْلة على خد أمه، وعندما جلسوا جميعًا سألت مدام فان رات عن لي لي وجورج.

قالت مدام فرسترايتن: «إنهما على خير ما يُرام. من الواضح أنهما التقيا بإيلينه بالصدفة في بيت بعض الأقارب الفرنسيين لزوجة فيره. يبدو أنهما استمتعا بباريس كثيرًا، رغم أن لي لي ذكرت في رسالتها أنها لا تستطيع أن تنتظر جتى ينتقلا إلى بيتهما الجديد».

لوى پول شفتيه متهكمًا تحت شاربه، ورفع كتفيه في تجاهل لم يلاحظه أحد تقريبًا.

ابتسمت مدام فان رات: «يا لهما من صغار أعزاء! أعتقد بأن مسكنهما الصغير جاهز تقريبًا، أليس كذلك؟».

أجابت ماري: «تقريبًا يا خالتي. أذهب إلى هناك كل يوم، ولا لت أجد أشياء بحاجة إلى العناية بها. في الواقع، تصادف مقابلتي لإيميلي هناك بضع مرات أيضًا- فهي لديها مفتاح احتياطي كما تعلمين».

قال پول: «كم هذا مؤثر! الأخوات الحنونات!».

ردت ماري بحسم وتعالٍ: «ليس هناك شيء مؤثر أو حنون في الموضوع. تصادف أننا نراه أمرًا لطيفًا وطيبًا أن نرتب بيت دميتنا، كما نسميه. لكنك لن تفهم مثل هذه المتع البسيطة، أليس كذلك؟ بالمناسبة، قلتَ إنك استيقظت متأخرًا- في أي وقت كان ذلك إذن؟».

«آه، أنتِ تتابعينني، أليس كذلك؟».

«أخبرني إذن، كم كانت الساعة؟ أم أن الأمر محرج للغاية لدرجة أنك لا تستطيع أن تخبرني؟».

أجاب مازحًا، ومرة أخرى التقط اسم إيلينه تذكره السيدات.

قالت مدام فرسترايتن: «أوه، لقد وجدوا إيلينه مرحة وفاتنة جدًا- حسنٌ، تمامًا بالشكل الذي كنا نراها عليه دائمًا، أليس كذلك؟».

«كانا يتناولان العشاء مع هؤلاء الفرنسيين على ما يبدو. تقول لي لي إن إيلينه تحولت إلى امرأة باريسية بحق، أليس كذلك يا ماري؟».

ابتسمت ماري ابتسامة باهتة. تصورت إيلينه، وفي خيالها رأت أوتو بجانبها.

ذكرت مدام فان رات: «نعم، إيلينه ذكرت جورج ولي لي في رسالتها لي أيضًا».

صاح پول: «ما هذا؟ هل تلقيتِ رسالة من إيلينه يا ماما؟ لم تذكري كلمة واحدة عن ذلك لي!».

«ابني العزيز، لم أرك منذ عشاء مساء أمس. ونعم، تلقيت هذا الصباح رسالة حلوة جدًا. لقد سَعِدتُ جدًا عندما طلبتُ منها أن تأتي وتعيش معي. المسكينة، أخبرتني بأنها تشعر بأنها وحيدة وسط كل أولئك الغرباء، رغم أنهم لطفاء معها. قالت إنها مرتاحة لأنها يمكنها أن تستقر أخيرًا».

قال پول: «إذن فهى ستأتي لتعيش هنا معنا؟ خسارة أنني سأنتقل لتوي من البيت!».

قالت ماري: «كنتِ دائمًا معجبة جدًا بإيلينه، أليس كذلك يا خالتي؟ يا لها من فكرة ممتازة أن تدعيها للإقامة معكِ».

تنهدت مدام فان رات: «نعم يا عزيزتي، أوافقكِ. وأعتقد بأنه سيكون للأفضل. إلى جانب ذلك، فكرة أن أحصل على صحبة سيدة ما لا تروق لي على الاطلاق، وأن تكون لديّ فتاة لطيفة وحنونة مثل إيلينه، والتي هى جزء من العائلة في النهاية لتكون صحبتي مسألة مختلفة تمامًا. أنا سعيدة للغاية أنك

توافقينني لأنني أعترف بأنني كان عندي بعض المخاوف في البداية».

قالت مدام فرسترايتن: «يبدو أن بيتسي أخذت موقفًا إيجابيًا من الأمر كذلك، على الأقل هكذا سمعت».

«هذا لا يدهشني. إيلينه لا تحلم بالعودة للعيش في منزلهم، وبعودتها للعيش هنا لن تكون بيتسي قلقة بشأن أي حديث عن وجود خلافات بينها وبين أختها».

قال پول: «وهو يفرك يديه»، حل مرضٍ لجميع الأطراف. كل شيء على ما يُرام إذن، وهو بالضبط ما أحبه».

مدام فان رات، التي صدمتها نبرة ابنها الهزلية، رمقته بنظرة حادة. عندئذٍ فقط طرق شخص ما الباب، وجاءت لينتيه العجوز لتعلن أن العربة في الانتظار.

نهض پول.

«ممنونٌ كثيرًا، يا هيلين الجميلة! خالتي العزيزة، هل تتفضلين بالانضمام إليّ في نزهة بالعربة؟ إنه يوم رائع».

رفضت خالته عرضه، ذلك أنه كان لديها بعض الزيارات، التي تود القيام بها.

اقترحت ماري: «يمكنك أن تنزلني عند شارع آتيهسترات، إن لم يكن لديك مانع. هناك شيء أود القيام به هناك على أي حال».

أعلن أنه على استعداد لتوصيل ابنة خالته الحبيبة للقطب الشمالي إذا لزم الأمر، وغادرا البيت معًا.

هزت مدام فان رات رأسها.

قالت وهي تتنهد: «پول هذا! لا أعرف ما الذي دهاه مؤخرًا!».

لكن مدام فرسترايتن انضوت للدفاع عنه.

«لا عليكِ يا دورا، فهو ليس ولدًا سيئًا من داخله. إنه مجرد شاب مع مال ينفقه ... ماذا تتوقعين؟».

«هِنْك لم يكن كذلك على الإطلاق. هذه طريقة صادمة للحياة هكذا! بداية، لا يستيقظ من النوم قبل الحادية عشر، ثم يذهب لركوب الخيل أو ركوب حنطوره، بعدها ينطلق ذاهبًا إلى ناديه. عادةً ما يتناول العشاء في البيت، نشكر السماء! أما بالنسبة للمساء- حسنٌ، الله يعلم ما الذي يفعله وهو مستيقظ».

«لكنه يبدو بصحة جيدة بما فيه الكفاية».

«لحسن الحظ أنه قوي البنية، وحتى الآن لم تعانِ صحته على ما يبدو من الساعات السخيفة، التي يقضيها، لكن وكما قلتُ من قبل، إنها طريقة صادمة للحياة. لقد كان أقل تمردًا عندما كان طالبًا عما هو عليه هذه الأيام. لا فعلاً، هِنْك لم يكن على الإطلاق هكذا عندما كان في عمر پول!».

واصلت الحديث على نفس المنوال لبعض الوقت، تعقد المقارنات بين ابنها الأكبر، المفضل لديها، والذي تعتقد بأنه عاقل وصلب، وپول الذي اتهمته بأنه غير مسؤول وأناني. ذلك ما كان عليه حاله، أناني، لم تكن هناك كلمة أخرى لوصفه، لا يعبأ بأي شكل من الأشكال بطلبات أمه، ولم يكن يمثل أي صحبة تُذْكَر لها، ويعامل بيتها إلى حد كبير كأنه فندق! لم يكن يفكر في أمه العجوز، كان يعيش لنفسه فقط، لمتعته الخاصة.

لم تستطع مدام فرسترايتن أن تفكر في شيء تقوله سوى أن پول ولد طيب من الداخل وأن هذه لم تكن إلا مجرد مرحلة يمر بها. رغم عجزها عن التعبير عن مشاعرها بالكلمات، شعرت بإحساس حاد بالأسف بسبب قسوة قوانين الطبيعة، والتي أصبحت الأجيال من خلالها في غربة حتمية بمجرد أن يكبر الأطفال حتى ويبدأوا حياتهم الخاصة، ويدخلوا عوالم جديدة من الوعي العقلي والمادي، الذي يُستبعد منه الكبار. لا تدل فجوة عدم الإدراك والفهم، التي تفصل الأبوين عن أبنائهما الكبار على عدم وجود الحب من كلا الجانبين، لكنها ببساطة نتيجة لذلك القانون الأوحد المصيري، الذي يُملي الاغتراب في النهاية. لا يعني هذا أن كل روابط الحب بين الأقرباء الكثير قُطِعَت فجأة، بل تُحَلُّ وتُفَكَّك وتَنْسِل على التوالي، حتى يأتي عليها الوقت، الذي تصبح فيه

فاترة وغير ذات أهمية. لقد أصبحت على دراية مؤلمة بهذا عندما بدأت لي لي تتضايق منها على أساس حبها لجورج، وقد تذكرته مرة أخرى الآن، ذلك أنه لم يَفُتْها أن سلوك ماري قد تغير مؤخرًا، والذي سيتحول إلى اغتراب مشئوم آخر، فراق آخر، وبعدها هناك يان، الذي سيأتي دوره بعد بضع سنوات من الآن. لا يجب إلقاء اللوم على أحدٍ أيضًا؛ لا الأبوين اللذين باتا مجرد ضحية لحبهما الأبوي، ولا الأطفال الذين بمجرد أن يصبحوا آباء وأمهات، سيتعين عليهم تحمل نفس دور الضحية والشهيد بدورهم.

* * *

كان الطقس باردًا وشعرت ماري بالرياح على وجهها، حيث جلست على المقصورة العالية بجانب پول، الذي كان يمسك باللجام.

سأل پول: «لِمَ تداومين على الذهاب لذلك البيت؟ يبدو أنكِ لا تشبعين منه، أليس كذلك؟».

اُضطرت لأن تضحك لأنه خَمَّن الحقيقة. صار العش الدافئ الصغير جاهزًا تمامًا، وفي انتظار استقبال الحبيبيْن، لكنها لم تستطع أن تنتظر حتى تقضي بعض الوقت هناك، كما لو كان لعبة جديدة تمامًا.

سارا بسرعة بطول بانكاپلاين نحو آتيهسترات، وكانت ماري تعطي التوجيهات لپول.

«هل تحملين دائمًا مفتاح منزلهما في جيبكِ؟ ماذا ستفعلين عندما تعيدنه إليهما؟»، قال يغيظها ممازحًا، وهو يفرمل العربة ليوقفها. قفز السائس من الخلف لمساعدة ماري في النزول.

أجابت وهي تضحك: «سأدق الجرس على أمل أن يدعوني أدخل! لكن لِمَ لا تأتي لمدة قصيرة يا پول؟ عندها يمكنك أن ترى هديتك الخاصة بزفافهما في مكانها اللائق بها».

رد قائلاً: «لا، شكرًا، أستطيع أن أتخيل تمامًا كيف يبدو الوضع!».

«استمتعي!».

«شكرًا على التوصيل ...».

دَسَّت مفتاحها في القفل، توقفت للحظة لتشاهد عربة پول الأنيقة سهلة القيادة، وهي تنطلق بعيدًا بسائسها ضئيل الحجم والنحيف في الخلف.

لما خَطَت إلى الداخل، سمعت شخصًا ما يغني بالطابق العلوي. فكرت، «عزيزتي إيميلي»، وابتسمت لنفسها، لكنها لم تصعد الدَّرَج على الفور؛ بل اندفعت إلى الصالون لإلقاء نظرة سريعة على طاقم الأثاث الجميل، الأزرق والبراق بجِدّته في الضوء الخافت من خلال ستائر الدانتيل الكريمية، ولمع سيرفيس الشاي الفضيّ تحت مفرشه التول على إحدى الطاولات الجانبية، كما زُيِّن رف الموقد أيضًا تزيينًا جميلاً بالمزهريات على كل جانب من جانبيّ تمثال فني لرأس مهرج بالتراكوتا، والذي انعكس في المرآة. كانت الجدران فقط لا تزال عارية قليلاً، وكذلك جدران حجرة الطعام، التي أُثِّثَت تأثيثًا بسيطًا جدًا بمائدة طعام مستديرة وكراسي وخزانة أطباق متواضعة من خشب الجوز ومقعد طويل بنيّ اللون.

فكرت ماري: «كل شيء يبدو جديدًا جدًا. ليس دافئًا للغاية حتى الآن- لكن ذلك سيأتي، كلٌ في وقته المناسب».

كان كل شيء براقًا جدًا بالفعل. كان المطبخ المنطقة الأكثر بريقًا في البيت كله، من القدور والطاسات الجديدة تمامًا إلى سلسلة من الأنوار المضيئة، التي ستُضاء فيما بعدُ للمرة الأولى. صحيحٌ أنه لا توجد حياةٌ في المكان بعدُ، لكن في النهاية كانت الأرضية لامعة جدًا. صعدت ماري إلى الطابق العلوي. كانت إيميلي لا تزال تغني، ولم تندهش على الاطلاق لرؤية ماري التي كانت مشغولة في حجرة دراسة جورج لترتيب أغراض تذكارية لا تعدُّ ولا تُحصى في أيام صباه في بيت والديه.

قالت ماري: «ياه، كم بدأ البيت يصبح دافئًا هنا! تلك الحليّ الصغيرة

صنعت كل الفرق. لا يزال الطابق السفلي عاريًا بعض الشيء على ما اعتقد».

فتحت الباب على حجرة جانبية حُوِّلَت إلى مخدع صغير وزخرفي للي لي.

قالت ماري مندفعة: «الآن أليس ذلك جميلاً للغاية؟».

ردت إيميلي: «نعم، أليس كذلك؟، فقط فكري: جورج الصغير يجلس على مكتبه هناك بينما تجلس ميلدي في مخدعها لتستغرق في أحلام اليقظة».

قالت ماري: «أحلام اليقظة؟ ميلدي ستكون منهمكة جدًا في إدارة شئون بيتها! ياه، أستطيع أن أرى لي لي، وهي هائجة تمامًا لتعطي التعليمات لخادمتها الجديدة! كيف يمكنها أن تدبر أمورها؟».

جلجلت كلتاهما بالضحك، وبمزاج طيب عالٍ انطلقتا لنقل كتب جورج من صناديقها وترتيبها على أرفف خزانة الكتب الطويلة العتيقة، وهي أثر آخر من آثار دراسته في نورداينده. كانت روح ماري المعنوية مرتفعة لدرجة أنها ظلت تنزلق إلى المزاح البائس، والذي أعاق تقدمهما في العمل بشدة.

ضحكت إيميلي ضحكة مكتومة: «خلاص، خلاص يا ماري. اهدئي مرة أخرى! لن ننجز أي شيء بهذا المعدل. ألا يمكنكِ التوقف عن الضحك؟ تبدين سعيدة جدًا- هل هناك سبب معين؟».

أجفلت ماري واحمرت خجلاً.

قالت: «سعيدة؟ ماذا تعنين؟ لا، لا يوجد سبب معين، لكن كل مرة آتي هنا أصاب بنوبة من الضحك والقهقهة، لا أستطيع أن أتخيل لماذا»، وانفجرت في نوبة جديدة من الضحك. «فقط انظري إلينا، نقدم عش الزوجين لهما! هل تعتقدين أنهما سيفعلان نفس الشيء لنا؟».

كانتا لا تزالان تضحكان، ألقت كلتاهما نظرة تفقدية سريعة على حجرة النوم، والتي كانتا لا تزالان تريان أنها تفتقر إلى الدفء. كان هناك نفس اللمعان الرسمي، الذي لم تتمسه يدٌ للجِدَّة أينما وجهتا نظريهما، وعندما فتحت إحدى خزانات الملابس أدى منظر الأرفف المُرتبة بعناية أكوام صغيرة وجامدة من

ملاءات الأسرَّة بأشرطة وردية وزرقاء إلى المزيد من البهجة.

قفزت ماري على السرير، الذي لم يُرَتَّب بعدُ.

قالت إيميلي: «لا أرجوكِ يا ماري، أخبريني لماذا أنتِ في مثل هذا المزاج المرح! هل تخفين عني شيئًا؟».

«ما الذي يجعلكِ تعتقدين أن لديّ سرًا؟ لكن بجد يا إيميلي، أتمنى أن تخبريني لِمَ لَمْ تتزوجي أبدًا. أقصد أنه لا بد أن تَقَدَّم شخص ما في وقت من الأوقات؟».

«نعم، تَقَدَّم لي ضابط في سلاح الفرسان. كان ضخمًا وقويًا، ولديه عينان معبرتان، وبعد ذلك، في يوم من الأيام- يوه، لا أيتها الفتاة الشقية، توقفي عن الضحك عليّ، أتسمعين؟»، قالت محتجة، عندئذٍ قفزت ماري واقفة، وأوقفت إيميلي على قدميها ورقصت رقصة ڤالس معها على الأرضية اللامعة للغاية.

٢٨

جلست إيلينه وحدها في مقصورة السيدات، تسند رأسها إلى الخلف على الحشوة المخملية الحمراء. استمعت باهتمام للعجلات، وهي تدق بقوة على القضبان، معتقدة أن بإمكانها أن تميّز إيقاع ڤالس ٣/ ٤ المتوتر في الصوت المعدني القاسي الرتيب، وبين الحين والآخر كانت تدعك النافذة المغطاة بالبخار بمنديل جيبها لتتطلع إلى الخارج، حيث كانت ظلال الغسق الرمادية تتزايد. شاهدت عبابًا دوارًا من الضباب يرتفع فوق المروج واللمعان الأصفر الباهت للمزارع المتناثرة عن بُعْد بينما شق القطار طريقه قُدُمًا إلى لاهاي. لاهاي! كانت مسافرة بعيدًا لفترة طويلة لدرجة أن المدينة بدت عزيزة عليها الآن، مكانٌ حيث قد لا تزال تجد شيئًا من بيت.

لمدة الأشهر الثمانية عشر الماضية كانت في الخارج، إما مسافرة، وتعيش في فنادق محاطة بالغرباء أو مقيمة في بيت عمها في بروكسل، لم يكن لديها أبدًا مكان يمكنها أن تسميه مكانها. أدت حياتها المتنوعة إلى مرور الوقت بسرعة كبيرة، كان ذهنها مشغولاً على الدوام بالتجول في المدن الجديدة ولقاء أناس جدد، لكنها في الآونة الأخيرة بدأت تتعب من ذلك التنوع الذي لا ينتهي. كانت الآن تتوق للسلام والهدوء، لفترة طويلة ومملة من الراحة الكاملة، لا تزعجها الأحلام ولا الحزن من أي نوع.

شيء من بيت! هل ستجد مثل هذا البيت مع مدام فان رات العجوز العزيزة، تلك السيدة المكلومة، شيباء الشعر، التي أحبتها لكنها لا تعرفها كما صارت عليه الآن: إنسانة مهزومة وحزينة، ضَجِرة بحياتها الشابة. لأنه من الآن فصاعدًا ذلك ما ستصير عليه، حزينة ومهزومة وضجرة؛ لن تعود لتجهد نفسها لتكون مفعمة بالحيوية والمرح في جميع الأوقات، الطريقة التي اُضطرت لاتباعها بين

الغرباء، الطريقة التي رآها جورج ولي لي فقط منذ بضعة أيام. أطلقت عليها لي لي الباريسية الحقيقية - تخيل أن لي لي خُدِعَت بمظهرها المُحَنك من الخارج! امم حسنٌ، شعرت بأنها أضعف من أن تنخرط في التمثيل من أي نوع لآن. شيء ما قد انكسر في روحها، والآن بات كل شيء آخر ينهار ببطء وبثبات من حولها. كم غدا كل شيء ملخبطًا ...

صَفَر القطار صفيرًا حادًا، وتضاعفت الأضواء واهنة الوميض خلال الضباب. في بضع دقائق ستكون في لاهاي. اعتدلت في جِلْسَتها ببطء في مقعدها، وضبطت قبعتها ووشاحها، ووضعت كتابها وزجاجة عطرها في حقيبة سفرها الجلدية وانتظرت، متوترة ومستقيمة الظهر. بدت هزيلة وشاحبة نوعًا ما وهي ترتدي معطف سفرها الرمادي، تحدق أمامها بعيون فارغة بينما اندفع القطار إلى المحطة وفرمل بصخب لكي يتوقف.

دق قلبها أسرع، وشعرت بالدموع تزداد في عينيها. صاح كمسري القطار» لاهاي! لاهاي!»، ومن خلال الزجاج المغطى بالبخار رأت الحشود المتزاحمة على الرصيف، يكسوها وهج قناديل الغاز المُوحش.

سُحِبَ باب العربة بقوة ليُفْتَح من الخارج؛ نهضت واقفة، تُمْسِك حقيبتها في يدها وطُوِيَت العديد من المظلات الصغيرة في سجادة سفرها باليد الأخرى. تمعنت بنظرها في تيار الركاب النازلين من القطار عن أي إشارة من پول، الذي قيل لها أن تتوقع قدومه، وذُهِلَت لرؤية طيف لشخص مألوف آخر قادمًا في اتجاهها.

صاحت: «ما هذا، هِنْك!».

بينما كان يساعدها للنزول على الرصيف سقطت تقريبًا بين ذراعيه، في حين أخذ منها پول، الذي وصل في وقت لاحق حقائب يدها.

«إيلي، طفلتي العزيزة! يا أعز إيلي!»، قال هِنْك بصلابة في صوته، وقَبَّلَها بلطف، وهي تتكئ عليه، وهي تبكي. بالكاد سمعت تحية پول، فقط سلمته

تذكرة حقائبها بحيث يعتني بصناديق ملابسها. أفلت منها صوت نشيج بالبكاء، لكن هِنْك ظلَّ يدردش معها رغم ذلك، وتأبط ذراعها، وقادها إلى باب الخروج من المحطة، حيث كانت عربته تنتظر. استجابت بوداعة، تدور برأسها أفكار غير محددة ومشاعر حنين، كانت مسرورة بيده القوية، التي ساعدتها على الوصول إلى مقعدها. ميزت العربة اللّندوية، التي كانت تركبها في أحيان كثيرة، لكنها لاحظت أن السائس كان مختلفًا؛ في الأيام الخوالي لا بد أن يكون هيرمان.

قال هِنْك، وهو يجلس بجانبها: «سيكون پول هنا قريبًا، بعدها سنذهب».

لم تُجِب، لكنها اتكأت إلى الوراء، وغطت وجهها بيديها لإخفاء تأثرها.

قالت بعد توقف: «لم أكن أتوقع أن أراك يا هِنْك! كم لطيف جدًا منك! لطيف جدًا جدًا!».

ضغط يدها، وتطلع برأسه من الباب المفتوح للبحث عن پول، الذي كان قد وصل لتوه مع الأمتعة.

صاح پول، وهو يقفز داخل العربة، «كله تمام! حسنٌ يا إيلي، كم يسرني أن نراكِ مرة أخرى! لا بد أن أقول متعة كبيرة».

أغلق السائس الباب وانطلقت العربة. لم يقل پول شيئًا؛ وكذلك إيلينه وهِنْك، ومع قنديل من قناديل الغاز، التي مروا بها لمح پول نظرة سريعة أخرى لإيلينه، وهي تميل إلى الوراء في مقعدها ويداها على وجهها، بلا حركة إلا من صدرها، الذي يرتفع وينخفض أثناء تنفسها.

* * *

كانت الساعة العاشرة عندما اقتربوا من البيت في شارع فان ميردرفورت. دق السائس الجرس؛ فُتِحَ الباب؛ ثم ترجلوا من العربة. في الردهة وقفت مدام فان رات، تهتز من التأثر بينما اندفعت إيلينه للأمام وألقت بذراعيها عليها.

أجهشت بالبكاء: «عزيزتي، عزيزتي مدام! كم أنا سعيدة لرؤياكِ! إذن هل ستأخذينني؟ هل ترغبين في أن أقيم معكِ؟».

جذبت مدام فان رات، التي كانت تبكي كطفلة إيلينه إلى حجرة الطعام المضاءة إضاءة زاهية، حيث نُشِرَت المائدة لتناول العشاء.

هتفت إيلينه: «ياه، لا أستطيع أن أخبركِ كم أنا ممتنة! يا لكِ من ملاك! أنا مسرورة جدًا لوجودي هنا معكِ».

أمسكتا بعضهما بقوة وعيناهما مغرورقة بالدموع أثناء انتقالهما إلى الأريكة، حيث جلستا جنبًا الى جنب. وضعت السيدة العجوز ذراعها بحنان حول خصر إيلينه. كم مَرَّ من الوقت منذ رأيتا بعضهما آخر مرة! كم افتقدتها بمرارة! وكيف وُفِّقَت إيلينه في تلك الأثناء؟ أكانت بخير؟

بكت إيلينه، وهي تُقَبِّلها مرارًا: «أوه نعم، بالتأكيد! أنا على خير ما يُرام!».

فَكَّت مدام فان رات وشاح إيلينه، وساعدتها على خلع قبعتها ومعطفها، وأفزعها رؤية الكتفين الضعيفين والخدين الهزيلين والتعبير البائس في العينين.

قالت، وهي تلتقط أنفاسها، وغير قادرة على تمالك نفسها، «طفلتي العزيزة! طفلتي العزيزة! كم تغيرتِ! انظري كيف أصبحتِ!».

احتضنتها إيلينه بحماس، مخبئة وجهها المتورد داخل حضن السيدة العجوز.

«لا، أنا على خير ما يُرام تمامًا، فقط شاحبة قليلاً، ربما ومُتْعَبة بعد رحلتي. مجرد وجودي معكِ سيجعلني أبدو نضرة كزهرة الأقحوان في وقت قصير جدًا، وسوف ترين!».

ابتسمت من خلال دموعها وقَبَّلَتها مرارًا وتكرارًا، الآن على الخد، الآن على ظهر يديها المجعدتين. سرعان ما انضم إليهما هِنْك وپول، اللذيْن صُدِما أيضًا لرؤية كم غدت إيلينه نحيفة، لكن دون إبداء أي تعليق على شكلها.

بعد فترة اقترحت السيدة العجوز، التي لم تستطع أن تُنْزِل عينيها عن إيلينه، أنها قد ترغب في غسل يديها ووجهها في حجرتها.

اعترضت إيلينه: «لا، ليس بعد! لا أشعر بأنني مغبرة على الإطلاق، لذا لا

تعبأي بذلك، لكن آه، ها هو ذا هِنْك! هِنْك الطيب، اللطيف!».

أشارت له بالجلوس على الأريكة، التي كانت تجلس عليها مع أمه، وقربته منها وأحاطت وجهه بيديها الصغيرتين.

همست في أذنه: «أنت لست متضايقًا مني، أليس كذلك يا هِنْك؟».

كتم مشاعره.

قالت متلعثمًا: «لم أكن أبدًا متضايقًا منك».

قَبَّلَته وأطلقته، وأخذت نفسًا عميقًا، وألقت نظرة على مهلٍ على الحجرة. لقد وجدت شيئًا من بيت.

جلسوا جميعًا على المائدة. لم تكن إيلينه جائعة: تطلعت بالكاد إلى حسائها، وتجنبت طبق اللحم وأكلت فقط بعض شرائح من البط مصحوبة ببضع ورقات الخس، لكنها رغم ذلك كانت عطشانة، ومتلهفة لأن يملأ پول كاسها مرة أخرى. أضفى النبيذ والإثارة حمرة وردية على خديها الشاحبين، وعندما تساءلت السيدة العجوز بصوت عالٍ لِمَ لَمْ ير عمها دانيال من المناسب أن يرافقها إلى لاهاي، ردت بضحكة عصبية عالية. لا، لم يكن هناك داعٍ لذلك، لم يكن من العسير عليها أن تقوم بالرحلة من بروكسل إلى لاهاي وحدها؛ إلى جانب ذلك، لقد عرض عمها عليها مرافقتها، لكنها لم تكن ترغب في ذلك- كانت قد اعتادت على السفر لدرجة أنها شعرت بارتياح كامل! السفر، ليس ثمة شيء صعب فيه: تحزمين حقيبة سفركِ، تتعرفين على رحلات السفر وما شابه، وتنطلقين للحاق بقطارك. ياه، لو أن المدام العزيزة شعرت بأنها تميل للقيام برحلة معها، فإن إيلينه سوف تريها كيف أنها أصبحت مسافرة خبيرة!

استمرت في الثرثرة، وهي تمسك بكأس النبيذ في تلك الأثناء ولا تتوقف إلا لرفعه إلى شفتيها لترشف رشفة أخرى. تحدثت عن إليزا، زوجة عمها الشابة، التي كانت رائعة، مليئة بالحيوية والمرح، ومشغولة بعمل شيء ما دائمًا، تفكر دائمًا في أشياء مسلية ليقوما بها. بدا أنها والعم دانيال يختلفان حول كل

شيء عمليًا- ياه، كم يتشاجران حول أشياء تافهة!- لكنهما يتشاجران بطريقة مضحكة لدرجة يصبح الأمر معه مسلي جدًا بحق. كان أقارب إليزا في باريس لطفاء جدًا أيضًا، ولديها أيضًا عم وزوجة عم في بوردو، واللذين كانا مبهجين إلى حد كبير جدًا جدًا. كان اسمهما دي لوين ويملكان بيتًا ريفيًا ضخمًا، حيث دعيت هى، أي إيلينه، لحضور مهرجان العنب؛ يا له من منظر رعوي جميل، والذي ذَكَّرها بشيء قرأته في رواية، رواية لجورج ساند على ما تظن؛ ألم تكن جورج ساند مَنْ كتبت رواية لا بيتيت؟ حسنٌ إذن! وإسبانيا، آه، كانت مفتونة بإسبانيا، خصوصًا الجنوب بكل تلك الآثار الأندلسية، كقصر الحمراء في غرناطة - لقد كان بديعًا! لكنها رفضت الذهاب لإحدى مباريات مصارعة الثيران، والتي رأت إليزا أنه سخيف منها، لكنها لا تستطيع تحمل فكرة تلك الثيران المسكينة، التي تغرق في برك من الدماء، كان الأمر ببساطة بشعًا جدًا.

ضحك پول، قائلاً إنه يوافقها بشأن الثيران المثيرة للشفقة، وضحكت أيضًا، وهى تشرع في الدخول موضوع آخر. مرة أخرى توسلت إليها مدام فان رات لكي تأكل المزيد، نظرًا بالكاد لمست طعامها.

«لا، بحق، سيدتي العزيزة؛ شكرًا لكِ لكن لا، لكنني أنا عطشانة إلى حد ما، هل لي أن أتناول كأسًا آخر؟».

«عزيزتي، هل أنتِ متأكدة أنكِ تشربين كثيرًا إلى حد ما؟».

«أوه لا، الشرب يساعدني على النوم، كما تعلمين- وإلا فسوف أسهر طول الليل، وهو شيء ممل للغاية. قرطبة مدينة جميلة أيضًا، والمسجد هناك فخم للغاية»، وانطلقت مرة أخرى، تتحدث عن تيار منفعل آخر من الذكريات المبهجة لجولاتها. لم تستطع أن تتصور لِمَ لَمْ يسافر پول أكثر؛ لو أنها كانت رجلاً، خاصة شابًا صغيرًا لديه موارد مالية مثله، لكانت لا تزال تسافر من مكان إلى آخر إلى الآن؛ لسافرت هنا وهناك، على المحيط الهادئ العظيم مثلاً، من نيويورك وصولاً إلى سان فرانسيسكو، ثم عبر المحيط الهادئ إلى اليابان- بعيدًا جدًا عبر أرجاء العالم على متن سفينة! كم سيكون ذلك مبهرًا! لكن السفر

في عربة قطار مبهر أيضًا؛ ولن تمانع في أن تعيش في إحداها!

هزت السيدة العجوز رأسها، وابتسمت في تسامح لحماس إيلينه.

صاحت إيلينه في نشوة وابتهاج: «ولكن قدومي للعيش هنا معكِ أفضل شيء على الإطلاق! ياه، يا لكِ من إنسانة حبوبة، يا لكِ من ملاك!».

بعد العشاء حثت مدام فان رات إيلينه على الراحة لبعض الوقت في حجرتها. قالت إيلينه إنها ستفعل، لكنها تراجعت، وطلبت منها أن تبقى في صحبتها. قال پول إن لديه موعدًا وهِنْك أيضًا، وقف ليستأذن بالانصراف.

همس بقلق: «هل يمكن لبيتسي أن تأتي لتراكِ غدًا؟»، ابتسمت ابتسامة باهتة وضغطت على يده.

قالت: «بكل ممنونية! أعطها قُبْلة مني، ممكن؟ وكيف بِنْ الصغير؟ هل كبر كثيرًا؟».

«نعم في الواقع، إنه صبيٌ كبير الآن. سوف ترينه غدًا بلا شك. الوداع الآن إذن يا إيلي. نومًا هانئًا».

«تصبح على خير يا هِنْك. أراك غدًا».

عندما ذهب هِنْك عرضت أمه أن تريها حجرتها.

قالت وهما تصعدان الدَّرَج: «أخشى أنني لن أستطيع أن أعطيكِ حجرة جلوس خاصة بكِ في الوقت الحالي يا عزيزتي إيلي. ليس قبل أن يترك پول البيت، هذا ما في الأمر».

«إلى أين يخطط للذهاب؟».

«يريد أن يعيش بشكل مستقل، وأفترض أن ذلك أفضل بالنسبة لشاب، لكن حجرة نومكِ كبيرة جدًا؛ ربما تتذكرينها- الحجرة المجاورة لحجرتي».

«نعم أتذكر. يا لها من حجرة جميلة!».

كانت لينتيه أضاءت القناديل وفُتِحَت الأبواب المؤدية إلى الشرفة للسماح

بهواء الصيف البارد بالدخول. بدأت إيلينه تسعل عندما دخلت.

«الجو بدأ يبرد قليلاً»، قالت المدام، وتحركت لإغلاق الأبواب.

ألقت إيلينه نظرة سريعة حولها في دهشة عميقة، واغرورقت عيناها بالدموع. صاحت: «يا إلهي! ما الذي فعلتم؟».

وجدت أينما تطلّعت أشياء تذكرها بحجرتها في ناساوپلاين. نفس منضدة زينتها مع المرآة، طاولة كتابتها، أريكتها، مرآة الحائط الڤينيسية، وهناك في إسراف لذيذ وقفت تماثيلها الصغيرة وغيرها من الحليّ. الشيء الوحيد، الذي كان جديدًا هو هيكل السرير الواسع، الذي عُلِّقَت فوقه ستائر زرقاء داكنة كأنها ظُلَّة تبرز من الجدار.

سألت السيدة فان رات: «هل توافقين؟ ظننتُ أنكِ ستفضلِّين أشيائك الخاصة أكثر من أي شيء آخر، لكن صغيرتي العزيزة، لِمَ تبكين؟».

عانقتها إيلينه، بكت على كتفها وقَبَّلَتها مرارًا وتكرارًا. أجلستها مدام فان رات على الأريكة بجانبها، وآوت إيلينه إلى حضنها كطفلة تنشد الراحة من أمها.

قالت وهي منهكة: «ياه، أخيرًا، سأستطيع الحصول على بعض الراحة! لأنني مُتْعَبَة جدًا، مُتْعَبة جدًا جدًا».

«هل أتركَكِ وحدكِ إذن بحيث تأخذين إغفاءة؟».

«لا، لا، من فضلكِ لا تتركيني. لستُ مُتْعَبَة من قضاء خمس ساعات على متن قطار، أنا مُتْعَبَة فقط ... مُتْعَبَة من كل شيء، وخلودي للنوم الآن لن يفيدني بشيء، لكنني أشعر بأنني أفضل بكثير فعلاً، مجرد الجلوس هنا بالقرب منكِ، لأنني أعلم أنكِ تهتمين بي. كما ترين، هذا ما كنتُ أفتقده بشكل رهيب عندما كنتُ مسافرة، مع كل أولئك الغرباء كصحبة ولا أحد لأتكئ عليه ويريحني بكلمة طيبة. الناس كانوا ودودين ومُراعين لمشاعري، لكنهم باردون في الوقت نفسه. عمي دانيال شبيه بذلك أيضًا: ظريف ومراعٍ للمشاعر إلى حد الشهامة،

لكنه بارد نوعًا ما. انسجمت بصورة جيدة للغاية مع إليزا، التي كانت مرحة جدًا، لذلك ضحكنا ومزحنا كثيرًا، لكنها من النوع البارد من الأشخاص أيضًا، بل حتى متشائمة في سخرية، وكنتُ هكذا، في أفضل سلوكياتي ومكللة دائمة بالابتسامات، لأنه لا أحد يحب ضيفًا بوجه متجهم، أليس كذلك؟ إلى جانب ذلك، أي مكان آخر يمكنني الذهاب إليه؟».

«بإمكانكِ أن تأتي إليّ يا صغيرتي؛ كنتُ سأكتب لكِ قبل ذلك لو كنت عرفتُ مشاعركِ. اعتقدتُ بأنكِ كنتِ سعيدة هناك».

ضحكت إيلينه ضحكة جوفاء: «سعيدة! سعيدة كحصان يقف على ساقيه الخلفيتين، ولا بد من جلده بالسوط ليمشي! أسرع، أسرع!».

طعنت ضحكتها قلب السيدة العجوز. تأثرت بشدة لدرجة أعجزتها عن الكلام، لمعت عيناها الغائمتان بدموع جديدة، ولم تملك سوى أن تحتضن إيلينه لتقربها إلى صدرها.

همست إيلينه: «نعم، احضنيني بقوة. الآن أستطيع الاسترخاء ... ياله، كم تمثلين الراحة والعون بالنسبة لي، كأنكِ ماما حبيبتي ملكي تمامًا».

ظلتا هكذا للحظة طويلة، لم تتكلما إلا قليلاً جدًا، إلى أن قالت مدام فان رات إن إيلينه يجب أن تحاول الحصول على قسطٍ من النوم.

«إذا أردتِ أي شيء، فقط نادي عليّ؛ سأكون بالحجرة المجاورة. أريدكِ أن تشعري تمامًا بأنكِ في بيتكِ هنا، لذا من فضلكِ لا تتعاملي بتحفظ شديد. هذا من شأنه أن يؤلمني. لذا لو كان هناك أي شيء تحتاجينه، فسوف تخبريني به، ممكن؟».

وعدت إيلينه بأنها ستفعل، وغادرت مدام فان رات الحجرة، لكن إيلينه كانت لا تزال تشعر بأنها متململة للغاية بدرجة تمنعها من الخلود للنوم. جالت بعينيها حول الحجرة، وأينما وقع بصرها كانت تتعرف إلى مزهرياتها ولوحاتها وصورها الفوتوغرافية.

«كم من اللطيف جدًا منها»، تمتمت في سرها، وابتسمت في شجن، وبدا أن الإثارة العصبية في روحها انحسرت لتستحيل شعورًا مريحًا بالارتياح والخير والسعادة، لأنها شعرت بالأمان وسط الآثار القديمة لحياتها السابقة. نهضت من على الأريكة لتتجول حولها، لتتوقف قليلاً لتمرَّ بإصبعها على تماثيلها العزيزة من التراكوتا والفخار، وتلمس صورة فوتوغرافية هنا وحلية هناك. أيقظ كلّ شيء محبب لديها طائفة من الذكريات والتداعيات في ذهنها، بعضها كالأزهار المعطرة، وبعضها الآخر كشرارات مؤلمة وحارقة، وفجأة جال بخاطرها أن الوقت، الذي قضته بالخارج لم يمر بسرعة على الإطلاق، وأنه مر عامٌ كامل ونصف العام، وأن المرة الأخيرة، التي وقعت فيها عيناها على أي من هذه الأشياء كان في تلك الليلة الرهيبة عندما هربت وطلبت اللجوء إلى بيت چين فيريلاين.

لكنها واصلت فحص حجرتها الجديدة، ووقعت عيناها بسرعة على العلبة اليابانية، التي كانت مدام فان رات وضعتها على طاولة كتاباتها. حاولت تلقائيًا رفع الغطاء، لكنها وجدته مُقْفَلاً. وبجانبه طُرِحَت مجموعة مفاتيحها القديمة، نفس مجموعة المفاتيح الصغيرة على حلقة فضية كانت قد عَهِدَت بها إلى فرانس فيريلاين منذ فترة طويلة، ورفعتها عن مكانها، واختارت المفتاح، الذي ينتمي إلى العلبة اليابانية وفتحته. كانت العلبة مليئة بالرسائل التي تغيّر لونها مع مرور الزمن. وكان من بينها رسائل من العمة فيره، والتي أرسلت إليها عندما كانت في المدرسة الداخلية، ومن زميلات الدراسة القدامى. عَزَمَت على تمزيق الرسائل الأخيرة لأنها لم تعد تهتم بالتدفقات العاطفية لتلميذات المدرسة، التي كانت نسيت وجودهن، بقدر ما نسين ولا شك وجودها. وجدت أيضًا مجموعة من الرسائل المكتوبة بيد والدها الحبيب، الذي كان رجلاً رائعًا؛ تلك الرسائل قَبَّلَتْها احترامًا وتبجيلاً، كما لو كانت رسائل مقدسة، وأثناء نبشها بسرعة وسط الأوراق، انزلقت قطعة صغيرة بيضاوية الشكل من الورق المقوى وسقطت على الأرض. انحنت لاستعادتها، وصار لونها شاحبًا كالموتى.

كانت ميدالية عليها صورة بورتريه لأوتو.

ماذا كانت تفعل هناك بين رسائلها؟ ثم تذكرت: كانت تجربة طباعية قديمة لبورتريه كان قد طلب أن يُرْسَم له يومًا ما كهدية لها. البورتريه نفسه، والذي كانت تحتفظ به معها دائمًا خلال خِطْبَتها، أعادته إلى أوتو إلى جانب الهدايا الأخرى، التي كان أعطاها إياها- بما فيها مروحة البوتشي- في لفتة أخيرة وقاسية القلب للرفض.

وبينما كانت تئن بهدوء أثناء بكائها، ضغطت على البورتريه بشفتيها. التجربة الطباعية القديمة، والتي لم تفكر بها أبدًا مرة أخرى بعدما ضاعت بين مراسلاتها القديمة، صارت الآن أحب إليها من أي شيء آخر في العالم، وأخذت على نفسها عهدًا بألا تفترق عنها، ليس حتى يوم مماتها! كانت كل ما تبقى من سعادتها العظيمة، السعادة التي تسللت من بين أصابعها كطائر أسير عازمٍ على الهروب، ولم يترك لها أي شيء سوى ريشة شاردة!

«أوتو! أوه، أوتو!»، قالت متلعثمة، وهي تُغْرِق البطاقة البيضاوية بالدموع والقبلات.

***

جلست مدام فان رات لفترة من الوقت في الحجرة المجاورة، حجرة نومها الخاصة، تهز رأسها من جانب إلى آخر، واغرورقت عيناها بالدموع، بينما كانت تتأمل في محنة إيلينه.

كيف كان ممكنًا أن تعرف هي تلك السعادة الدائمة مع زوجها، بينما كانت إيلي العزيزة المسكينة محرومة منها بهذا الشكل؟ ولأنها كانت صاحبة روحٍ تقية، وورع طفولي نابعٍ من قلب بسيط، فقد كانت شاكرة لهذا الخير الذي استقبلته، وطوت يديها المجعدتين لتتلو صلاة لحبيبتها التعيسة إيلينه.

***

في صباح اليوم التالي، عندما كانت إيلينه انتهت من ارتداء ملابسها، فتحت

الأبواب الزجاجية المؤدية إلى الشرفة ورأت مدام فان رات بين شجيرات الورد، تمسك مقص التقليم لتستخدمه. هرعت إيلينه إلى الطابق السفلي للانضمام إليها في الحديقة.

قالت بصوت عذب: «استيقظتُ متأخرة للغاية، أليس كذلك؟ أرجو ألا أكون أخّرتكِ عن إفطاركِ». قَبَّلَتْها السيدة العجوز، وأخبرتها أن بإمكانها أن تستيقظ في أي وقت تشاء، وأنها انتظرت بوجبة الإفطار.

«أستطيع أن أستنتج بأن لديكِ كل نية لتدليلي! يا ربي، وأخشى عندئذٍ أن أصبح عبئًا عليكِ في نهاية المطاف. يااه، كم تبدو الحديقة بديعة الجمال! هل تسمحين لي بقطف بعض الأزهار؟».

ابتسمت مدام فان رات لتخبرها بموافقتها، وسلمتها مقصًا وسارت في إِثْر إيلينه، وهي تمشي على مهلٍ بطول أحواض الأزهار، تتقدم على أطراف أصابعها بجوار الشجيرات الطويلة لتقريب الأزهار نحوها، وتقرض أغصانًا مزهرة من أزهار الليلك ذات اللون الأرجواني الداكن والأبيض الكريمي والأبنوس الصفراء الزاهية والخَمَان الأبيض كالثلج، بينما تدحرجت قطرات الندى اللامعة كقطع الماس البراقة على أصابعها. تفكرت أنه من المؤسف أن الياسمين لم يُزْهِر بَعْد.

«هل لديكِ مزهرية؟ عندها سأصنع لكِ باقة أزهار كبيرة ولطيفة، لكنني أحتاج إلى المزيد من أزهار الليلك المتفتحة، الليلك فوق كل شيء ...».

دار المقص خلال شجيرة كبيرة، المختارة من بينها جميعًا، وهَوَت السيقان ذات الرؤوس الأرجوانية على العشب الندي. جمعتها وذهبت بها إلى البيت، حيث كانت مضيفتها تُعِدُّ بالفعل الشوكولاته الساخنة. شرعت إيلينه في تنسيق الأزهار في مزهرية كبيرة على الخزانة.

«الأزهار تصنع المعجزات لتجعل أي حجرة أكثر بهجة وإشراقًا، ألا توافقينني؟»، تساءلت، ورجعت بضع خطوات إلى الوراء لتتأمل أثر باقتها

المختلطة.

وبختها مدام فان رات بلطف لأنها تركت الشوكولاته تبرد، وجلست إيلينه بعدما زفرت تنهيدة. في مساء اليوم السابق كانت السيدة العجوز قد دُهِشَت كم بدت إيلينه متململة، تلتقط الأشياء وتطرحها مرة أخرى، تعدل أماكنها دائمًا تعديلاً طفيفًا جدًا، تلقي نظرات في السر على النافذة أو الباب أو السقف فيما بدا كأنه خوف من خطرٍ ما، تنفض رأسها بشدة، تقرع بأصابعها على الطاولة؛ كل هذا بالتناوب مع نوبات مفاجئة من الخمول واللامبالاة، عندما تسقط في أحد الكراسي وتتكئ إلى الخلف بجوٍ من الإرهاق التام.

هذا الصباح أيضًا، ظهرت على إيلينه علامات التوتر العصبي، لكنها كانت على الأقل تشرب كوبها من الشوكولاته الساخنة ذات الرائحة الفوّاحة.

«ماذا ستأكلين على الإفطار يا صغيرتي؟ بيضة مسلوقة برشت وشريحة من الخبز؟».

ابتسمت إيلينه بلهفة.

«ياه، هل ينبغي عليّ سيدتي العزيزة؟ أُفَضّل ألا آكل، لأكن صادقة. لكن الشوكولاته لذيذة بالرغم من ذلك».

«إيلي، حبيبتي، يجب أن تتناولي بعض طعام الفطور. لم تأكلي شيئًا تقريبًا ليلة أمس! كلي بيضة مسلوقة إذن؛ فقط لأجل خاطري».

وافقت إيلينه وقَطَّعَت المدام بيضتها إلى شرائح كما لو كانت تدلل طفلة.

تابعت: «ينبغي فعلاً أن تأكلي أكثر، عزيزتي إيلي. أنتِ نحيفة كثيرًا الآن. بحق، تبدين تقريبًا كأنكِ تتضورين جوعًا! لا بد أن تكتسبي بعض الوزن. الكثير من الحليب والبيض واللحوم من شأنها أن تفيدكِ».

ابتسمت إيلينه فقط، ونظرت إلى البيض بقليلٍ من النفور، والذي لم تستطع إخفاءه. بعد بضع لقيمات دفعت البيضة بعيدًا.

«أرجوكِ لا تتضايقي مني، ولكن بصراحة، لا أستطيع أن آكل أكثر من ذلك،

فهي تجعلني أشعر بالغثيان قليلاً».

بدت مغلوبة على أمرها لدرجة أن السيدة العجوز تخلت عن بذل المزيد من المحاولات لجعلها تأكل. في النهاية أكلت قطعة بقسماط واحدة، فقط لترضي مضيفتها: أصرت على أن ذلك كافٍ تمامًا، وعلى أي حال لم تكن معتادة على تناول الإفطار في وقت مبكر كهذا.

«ماذا عن پول؟ ألا يزال نائمًا؟».

«نعم».

انتقلت مدام فان رات للقول إن پول يفطر دائمًا لوحده، أو بالأحرى، يُسْقِط وجبة الإفطار تمامًا في أغلب الأيام، مكتفيًا بفنجان من القهوة؛ في الواقع، لم يسبب لها إلا القليل للغاية من المتاعب، لكنه كذلك لم يمنحها الكثير من المتعة أيضًا.

قالت إيلينه بحنان: «البنات أسهل بكثير في الانسجام معهن عن الأولاد، أليس كذلك؟ حسنٌ، يمكنك أن تدّعي أن لديكِ ابنة تقيم معكِ بالبيت! آه، أتذكرين أنكِ اقترحتِ- كان ذلك منذ شهور عديدة- أن بإمكاني أن آتي وأعيش معكِ، وأنا قلت إنكِ تحبينني فقط لأنكِ لم تَرَيّ إلا القليل جدًا مني، لكنكِ سوف تجدين وجودي مزعجًا إذا رأيتني كل يوم. أتذكرين؟».

ابتسمت السيدة العجوز ابتسامة غامضة، وعادت بذاكرتها إلى الوراء، ولكن الذاكرة خانتها.

«آه، أعرف بالضبط متى كان ذلك! كنّا في ناساوپلاين، في حجرة الانتظار البنفسجية. من كان يظن أنني سأطلب أبدًا مأوى لديكِ؟ لكني أعدكِ بأنني سأبذل قصارى جهدي ألا أكون مصدر إزعاج».

لعبت بعصبية بحلية متدلية من سلسلة ساعتها: دلاية من المينا السوداء مرصعة باللؤلؤ الصغير جدًا لم تكن قد ارتدتها لسنوات. كانت هدية من والدها في عيد ميلادها العاشر، وعندما تُوفي أخذت على نفسها عهدًا بألا ترتديها مرة

أخرى، لكنها غيرت رأيها هذا الصباح. تمسك الدلاية الآن بقصاصة البطاقة، التي كانت قد وجدتها بين رسائلها.

بدأت بصوت مرتجف، وأخذت يد مدام فان رات، «سيدتي العزيزة، هناك شيء أود أن أسألكِ عنه، إن جاز لي السؤال. إنه عن أوتو فان إرليفورت- هل رأيته على الإطلاق في الآونة الأخيرة، أو سمعتِ عنه؟».

تطلعت مدام فان رات في إيلينه باهتمام، في محاولة لقراءة ما يدور في ذهنها، لكنها لم تستطع أن تستنتج شيئًا من نظراتها السريعة المحمومة ويديها المرتعشتين.

«لِمَ تسألين يا إيلي؟».

كانت هذه المرة الأولى، التي يمر فيها اسم أوتو بينهما منذ أن فسخت إيلينه خِطْبَتها.

«آه، كنتُ أود فقط أن أعرف إذا كان متأثرًا كثيرًا، وإذا ما كان سعيدًا الآن. ألم تريه مطلقًا؟».

«رأيته عدة مرات في بيت زوج أختي».

«وكيف كان حاله؟».

«تقريبًا نفس الشيء، ظاهريًا؛ صار أكبر في السن قليلاً ربما، لكن ليس بالقدر الذي تلاحظينه. هو بالتأكيد هادئ نوعًا ما، لكنه كذلك لم يكن أبدًا مندفعًا جدًا، أليس كذلك؟».

همست إيلينه، وهى مترعة بالذكريات: «لا، لم يكن».

«إنه ليس في لاهاي في الوقت الراهن. أعتقد بأنه سافر لدى هورسه».

فكرت إيلينه هل ربما يتجنبني؟ بعد ذلك، ورغبة منها في ألا تعطي الانطباع بأن اهتمامها بشأن أوتو كان بأي شكل من الأشكال اهتمامًا شخصيًا، قالت بهدوء:

«إذن أفترض بأنه قد تجاوز الأمر. كل ما أريده له أن يكون سعيدًا؛ فهو يستحق ذلك- يا له من رجل طيب».

لم تقل السيدة العجوز شيئًا وقاومت إيلينه رغبتها في البكاء. ها هي ذي، تجهد نفسها مرة أخرى لإخفاء مشاعرها الحقيقية، حتى أمام مدام فان رات العزيزة، العزيزة! الحياة مليئة جدًا بالزيف والأوهام! كانت دائمًا شخصًا يُمَثِّل، على نفسه فضلاً عن التمثيل على الآخرين، ولا تزال تمثل- لا يمكنها أن تفعل غير ذلك، لقد صارت هذه عادة متأصلة فيها جدًا.

قالت مدام فان رات، وهي تستشعر عاطفة إيلينه، «والآن أود أن أُريكِ شيئًا آمل أن يَسُرَّكِ. تعاليّ معي».

قادتها إلى الصالون، الذي لم تكن إيلينه قد دخلته بَعْد، وفتحت الباب.

«تذكرين أَنْ كان عندي ذلك البيانو القديم المُكَسَّر إلى حد ما؟ البيانو، الذي كان پول يستخدمه ليدق عليه للتدريب على الغناء؟ حسنٌ، انظري ما لديّ الآن!».

دخلتا، ورأت إيلينه بيانو بيخشتاين جديد تمامًا، وكانت نوتاتها الموسيقية المُجَلَّدة بجلد أحمر وحروف مطلية بالذهب موضوعة فوقه.

«سوف يناسب صوتك كثيرًا للغاية، وصوته رائع جدًا وواضح».

بدأت شفتا إيلينه ترتعشان.

تأتأت: «ولكن مدام! لا، كان لا ينبغي عليكِ! كان لا ينبغي عليكِ! لأنني- لأنني لم أعد أغني، كما ترين».

صاحت المدام: «ماذا؟ ولِمَ لا؟».

تنهدت إيلينه بعمق، وغاصت جالسة في أحد الكراسي.

«ليس مسموحًا لي!»، انتحبت تقريبًا، ذلك أن الآلة الجديدة كانت تذكيرًا قاسيًا بالصوت الجميل، الذي كانت تتمتع به يومًا ما. «الأطباء الذين استشرتهم في باريس منعوني منه. الموضوع هو أن سعالي يسوء إلى حد ما خلال فصل

الشتاء؛ ولا يختفي إلا في فصل الصيف. في فصليّ الشتاء الماضيين كنت أسعل طول الوقت، وكنت دائمًا أشعر بالألم، هنا في صدري، لكنني أكون على ما يُرام تمامًا في فصل الصيف!».

قالت المدام بقلق: «طفلتي العزيزة! آمل أنكِ كنتِ تعتنين بنفسكِ عناية جيدة حينما كنتِ بالخارج».

«آه نعم، أرجعني آل دي لوين لبعض إخصائيي الرئة في باريس، والذين استمعوا إلى صدري بالسماعات وفحصوني فحصًا شاملاً لدرجة أنني ببساطة لا أستطيع تحمله أكثر من ذلك! هذا إلى جانب خضوعي لعلاج منتظم على يد اثنين من الأطباء، لكنني بعد فترة من الوقت نلتُ ما يكفي منهما: لم يجعلاني أشعر بتحسن، على أي حال، لكنهما ظلاّ فقط يخبراني بأنني لا بد أن أعيش في مناخ أكثر دفئًا، لكنني لا أستطيع الذهاب والعيش بمفردي تمامًا في الجزائر أو يعلم الله أين؛ على أي حال، اُضطر عمي دانيال للعودة إلى بروكسل. لذلك كما ترين»، أنهت كلامها بضحكة مكبوتة عصبية: «أنا إنسانة مُدَمَّرة تمامًا، من الخارج ومن الداخل على السواء!».

امتلأت عينا السيدة العجوز بالدموع، وضغطت إيلينه نحو حضنها.

«لكن العيب على الآلة الموسيقية الجميلة!»، قالت إيلينه، وهى تُخْرِج نفسها من الموقف. جلست على البيانو. كم كان صوته رائعًا، قوي جدًا وفخمًا!

تحركت أصابعها بنعومة ومهارة فوق المفاتيح، ولعبت سلسلة من المقامات بدت، وكأنها ترثي فقدان صوتها في الغناء. راقبتها مدام فان رات في حزن؛ تعلقت بالوهم أن إيلينه سوف تغني مع ابنها پول، وأن پول قد يخضع للجو البهيج الشجيّ ويقرر البقاء بالبيت لمساء واحد، لكن كلَّ ما سمعته كان تتابع آربيجيو عالٍ يجهش بالبكاء، وقطرات ندى باكية لاهتزاز نغمي، والدموع الكبيرة المتدفقة للمقاطع الموسيقية المؤلمة.

«عليّ أن أتدرب على لعب البيانو. لم أكن أبدًا عازفة بيانو عظيمة، لكني

سأبذل قصارى جهدي! لأنكِ لا بد أن تستمعي إلى الموسيقى، سيدتي العزيزة، أعدكِ! يا له من آلة جميلة هذا البيانو!».

وفاضت الأنغام الجميلة تخرج في تدفقٍ للأسى والحزن.

***

على شرف إيلينه، أكد پول أنه سيأتي إلى البيت لتناول القهوة في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا. في فترة ما بعد الظهيرة جاءت ماري ووالداها للزيارة، وفي أعقابهم جاءت إيميلي دي ڤوده. استقبلتهم إيلينه بحرارة، وأظهرت سعادتها برؤيتهم مرة أخرى. أخبرتهم عن لقائها بجورج ولي لي والانطباع السار، الذي تركه الزوجان الشابان على الجميع، بما فيهم عائلة دي لوين ومولانجيه وأقارب العمة إليزا الآخرين. كان من اللطيف من جورج ولي لي زيارتها بعد وصولهما بوقت قصير جدًا؛ لقد قَدَّرَت ذلك كثيرًا.

شعرت ماري بشعور غريب حينما رأت إيلينه مرة أخرى، تقريبًا كما لو كانت تخشى أن تجد إيلينه أنها تغيرت أيضًا، لكن لا يبدو أن إيلينه لاحظت أي شيء، واستمرت في الدردشة حول رحلاتها، والمدن التي زارتها، والناس الذين قابلتهم، وهكذا وهكذا في هجمة من الاستفاضة العصبية. كانت نفس العصبية، التي تنتابها هذه الأيام كلما كانت في صحبة الآخرين، بغض النظر مهما كان التجمع صغيرًا وحميميًا، وظلت أصابعها تتحرك باستمرار، الآن تكوّم منديلها في هيئة كرة مشدودة، بعدها تعبث بتوتر بحافة أحد مفارش المائدة أو تنتزع الشراشيب على كرسيها لتجعلها تتأرجح يمينًا ويسارًا. خمولها الأنيق القديم واتزانها الوقور اختفى.

كانت الساعة تقترب من الرابعة عندما فُتِحَ باب الصالون وظهرت بيتسي، وهي تقود بِنْ من يده. قفزت إيلينه لتقف وركضت نحوها لإخفاء هواجسها الخاصة بإظهار الحماس والإثارة. احتضنت أختها بحنان مفرط، ولحسن الحظ استطاعت بيتسي الاستجابة بنفس القدر من الحماس. بعدها انحنت

إيلينه لأسفل لتُمْطِر بِنْ بالقبلات. كان كبير الحجم بالنسبة لطفل في الخامسة من عمره، قصير وبدين، وكانت في عينيه تلك النظرة الفارغة الناعسة لطفل متخلف. إلا أنه يبدو أنه تذكر شيئًا سارًا، لأن شفتاه فُرِجَتا عن ابتسامة سعيدة وألقى بذراعيه البدينيْن حول رقبة إيلينه لتقبيلها بدوره.

يبدو أنه لم تكن لدى أي من الأختين أي ميل لتبادل الأسرار، لأن بيتسي غادرت في نفس الوقت، الذي غادر فيه آل فرسترايتن وإيميلي، ولم تضغط إيلينه عليها لتبقى. كلٌّ منهما كانت على وعي بالمسافة، التي تطورت بينهما، وأن أُخُوَّتَهما شيء سوف تحترمانه من الآن فصاعدًا لأجل المظاهر أكثر منه بدافع الحب. لقد افترقتا لمدة عام ونصف، الآن وقد اجتمعتا مرة أخرى شعرت، كما لو أصبحتا غريبتيْن عن بعضهما البعض، تتبادلان كلمات الاهتمام المهذبة بينما كان قلبهما باردًا وغير مبالٍ.

شعرت إيلينه بالتعب إلى حدٍ ما عندما رحل الزوار، واستقرت المرأتان جالستيْن في الكراسي ذات المسند بجوار الأبواب الزجاجية المؤدية إلى الشرفة، بينهما قام مقعد منخفض بلا ظهرٍ ولا ذراعين مغطى بالمخمل يحمل سلة من شغل الكروشيه وبعض الكتب والمجلات المُصَوَّرة. ابتسمت ابتسامة باهتة للسيدة العجوز، ثم اتكأت إلى الوراء وأغلقت عينيها، يهدهدها الجو المريح والدافئ بصورة ممتعة.

أخذت مدام فان رات شغل الكروشيه الخاص بها، وبدأت تشتغل بالإبرة بحيوية غير معتادة، لأنها شعرت بقوة وحيوية جديدة تَدُبُّ في أطرافها العجوزة المتيبسة، وفجأة خطر ببالها أنها قد لا يزال لديها هدف في الحياة. ذلك الهدف سيكون إلهام الحَمَل المسكين ببعض الحيوية والأمل، بحيث قد تجد بَعْدُ نوع السعادة، التي عرفتها بنفسها في شبابها. امتلأ قلبها بالتعاطف السخي، ولمع في عيونها العجوزة بريق، وهي تنظر باهتمام لإيلينه، مهزولة وشاحبة، مسترخية في الكرسي ذي المسند بجانبها.

بدأت بهدوء: «إيلينه، يجب أن أتكلم معكِ، على محمل الجد».

فتحت إيلينه عينيها بنظرة تساؤل.

«ذكرتِ هذا الصباح أنكِ خضعت للعلاج في باريس. هل تمانعين لو أرسلت مذكرة لراير وطلبت منه زيارتنا في يوم من هذه الأيام؟ ليس لأنه طبيبي، لكنني أعلم أنكِ كنتِ معتادة على زيارته بين الحين والآخر».

أجفلت إيلينه.

صاحت بانفعال، وقالت بلهجة آمرة تقريبًا: «أوه لا، لا أريد أطباء لي! كلهم في غاية الملل، ولن يستطيع أي منهم علاجي على أي حال. أفترض أن سعالي هو ما تفكرين فيه؟».

«ليس فقط سعالكِ. في رأيي أنتِ لا تبدين بصحة جيدة على الإطلاق، في الواقع أظن أنكِ لابد أنكِ تعانين من مرض ما، رغم أنني لست قادرة على أن أقول أي مرض هو».

ضحكت إيلينه بصوت عالٍ.

«يا ماما العزيزة، كم تبالغين! الآن، وأنني لم أَعُدْ أسعل كثيرًا أشعر أنني بصحة جيدة تمامًا بصراحة! من اللطيف جدًا منكِ أن تقلقي عليّ هكذا، لكن حقًا-».

قالت السيدة العجوز بنبرة مُلاطِفَة: «إذن لن أكتب لراير؟».

إيلينه، وخوفًا من أنها تجاوزت الحد كثيرًا عندما ضحكت باستخفاف كبير، ابتسمت ابتسامة من أكثر ابتساماتها سحرًا.

همست بتملق: «يمكنكِ أن تفعلي ما يحلو لكِ!».

«إذا كان ذلك يرضيكِ، سابتلع كلّ ما سيعطونني إياه ويمكنهم أن يكشفوا عليّ بالسماعة، ويفحصوني بالمطرقة كما يشاؤون. لا أعتقد بأن ذلك سيفيد بأي شيء، لكن إن كانت هذه رغبتكِ، سامتثل لأمركِ. لذلك أرسلي مذكرة إلى راير إذن؛ حاشاي أن أمنعكِ من عمل أي شيء، أي شيء على الإطلاق».

شعرت فان رات مدام بالامتنان، للحظة، وإلى حد ما بالاطمئنان.

٢٩

كانت فاين، الخادمة العمومية عكرة الوجه، التي رتبت مدام فرسترايتن قدومها للي لي، مشغولة في حجرة الطعام في آتيهسترات، تنشر مفرشًا جديدًا على مائدة الطعام المستديرة، كانت إيميلي تتكلم، وهى تتجول في الصالون لتضيء القناديل، ودندنت ماري وهى تنسق الأزهار في مختلف المزهريات. ظلت الأبواب الفرنسية مفتوحة في الغسق الرمادي بلون اللؤلؤ.

\الإطلاق! هذا ما يفعلونه في المطاعم!».

صاحت إيميلي، وهى تقبض على معصميها: «كيف تجرؤين! كيف تجرؤين على لمس إبداعي!».

أعقب ذلك عدة مناوشات مصطنعة، عندما نزعت إيميلي سدادات زجاجات النبيذ، أعلنت ماري أنه من العيب ألا يستخدموا آنية الخمر المصنوعة من الزجاج المزخرف.

ردت إيميلي: «فكرة ممتازة! إنها بالطابق العلوي، في حجرة جورج. بسرعة، اذهبي وأحضريها».

عادت ماري، وهى تحمل زوجًا من الأباريق الكريستالية الأنيقة، عليها ملصقات في هيئة سلسلة فضية، والتي يُصَبُّ فيها النبيذ.

قالت ماري بإعجاب: «انظري كم تبدو أنيقة! والآن للأزهار- دعينا نضع مزهريتيْن على المائدة، واحدة لرب المنزل والأخرى لربة المنزل».

«مزهرية واحدة للأزهار كافية جدًا».

«لا، لا! اثنتان تبدوان ألطف بكثير!».

وبعد الكثير من الجدل طيب القلب رضيتا أخيرًا بترتيب المائدة المُفَصَّل،

وعندها أعلنت إيميلي أنها ستصعد للطابق العلوي. وسوف تنضم ماري إليها لاحقًا؛ لأنها أرادت أولاً أن تضع اللمسات الأخيرة على تنسيقها للأزهار في كل مكان آخر بالبيت.

بالطابق العلوي وجدت إيميلي جميع الأبواب مفتوحة على مصراعيها، وقناديل الغاز مشتعلة في كل حجرة. أضحت حجرة النوم بالسرير المُرَتَّب ترتيبًا منمقًا وتشكيلة أدوات التجميل المرصوصة على حوض غسيل اليدين ومنضدة الزينة مليئة بالحياة بالفعل، وغدًا، وغدًا سيمتلئ المكان كله بالحب المفعم بالشباب! ترددت على الحجرات من أجل إلقاء نظرة تفحصية أخيرة، لتعدل موضع كرسي هنا، أو تفرد سجادة حريرية صغيرة هناك. كان كل شيء مرتبًا بشكل مثالي، من حجرة النوم إلى حجرة الدراسة الصغيرة، حيث كانت خزانة الكتب مليئة بشكل منظم بكتب مُغلَّفة بالجلد، والمخدع حيث قامت الكراسي حول الطاولة المنخفضة، كما لو أخليت من الجالسين عليها منذ دقيقتين فقط. جاءت ماري تركض بينما تصعد الدَّرَج واقتحمت الحجرة، وهي تصيح: «إيميلي، الساعة العاشرة تقريبًا! لا بد أن نذهب!».

«لم تصل سيارة الأجرة الخاصة بنا بعدُ».

«متى طلبتِ منها أن تأتي؟».

«الساعة العاشرة. لا تتوتري، لن يصلوا إلى هنا إلا بعد العاشرة - أعرف، لأنني فحصت جدول قطارات السكك الحديدية. ياه، كم أتمنى ألا يرياني عند وصولهما!».

«هل نذهب ونختبئ؟».

«لا، بالطبع لا!».

«هل تخشين أن تري شيئًا لا ينبغي لكِ رؤيته؟».

تقابلت عيناهما وتبادلتا الابتسامات الخبيثة عندما جال بخاطرهما فكرة جورج ولي لي وهما منغمسان في السعادة واللذة لدى دخولهما مسكنهما الأسطوري.

صاحت إيميلي: «انتظري! لديّ فكرة! أهناك أي أزهار تبقت؟».

«نعم، بضع زهرات بسيقان قصيرة، والتي لم أستطع أن أدخلها في مزهرياتي. لِمَ تسألين؟».

«يمكننا أن نستخدمها كنوع من الحلقة حول مصباح الليل. ياه، هذا سيبدو رائعًا جدًا! بسرعة، اركضي وأحضريها، ممكن؟».

في أثناء الوقت، الذي عادت فيه ماري بما تبقى من أزهار كانت إيميلي أضاءت مصباح الليل، وشرعتا ترتبان وتعيدان ترتيب الأزهار في إثارة متزايدة، بحيث كان من الصعب أن تصلا إلى أفضل شكلٍ يُرضي كلتاهما.

ذكرتها إيميلي معاتبة: «لا بد أن نسرع. الساعة الآن العاشرة تقريبًا».

اقتربت سيارة أجرة بالخارج، وبعد لحظة دق الجرس.

«لا بد أنها سيارة الأجرة الخاصة بنا! تعاليّ الآن يا ماري، أسرعي! دعينا نطفئ المصباح الرئيسي، عندها سيبدو مصباح الليل أكثر سحرًا! اتركي الأزهار كما هي! أسرعي!».

أطفأت إيميلي قنديل الغاز وجذبت ماري بالقوة إلى بَسْطة الدَّرَج. بعدها شعرتا بالخطر عندما سمعتا قعقعة العجلات على حصى الطريق بالخارج، بينما كانت سيارة أخرى تقترب، أعقبها تبادل للصياح بين السائقَيْن.

صرخت إيميلي: «يا ربي! هذا بالضبط ما كنتُ أخشاه- لقد تأخرنا كثيرًا».

دق جرس الباب، وحدقتا في بعضها البعض في رعب.

صاحت ماري: «سوف يريان سيارة أجرتنا! ماذا علينا أن نفعل؟».

«قولي لفاين أن تنتظر قبل أن تفتح الباب! لا، فات الأوان لذلك!».

قالت ماري: «إذن علينا أن نختبئ».

«لا، لا، يا ماري، هذا عبث».

صاحت ماري، وهى تركض إلى مخدع لي لي، «حسنٌ، إذن سأذهب

وأختبئ حتى لو لم تفعلي ذلك!».

لم تستطع إيميلي أن تفكر فيم عليها أن تفعل، لذلك ركضت خلفها. أغلقتا الباب وراءهما، وأطفأتا الغاز واختبأتا خلف الستائر.

هناك جثمتا مرتعدتيْن، تخنقان ضحكاتهما، كتلميذتيْن شقيتيْن بالمدرسة، بينما بذلت إيميلي ما في وسعها لئلا تسبب انتفاخًا أو نتوءًا في الستائر. سمعتا فاين، وهي تفتح الباب الأمامي. وسمعتا سائق العربة وهو يُحْضِر الحقائب. وسمعتا أيضًا صوتيّ جورج ولي لي.

«مرحبا فاين! هناك سيارة أجرة تنتظر بالخارج- أتعرفين لِمِنْ تكون؟».

لم يتمكنا من تمييز رد فاين، لأنها كانت تتحدث بصوت رصين ومنخفض.

نادى جورج ولي لي من الطابق السفلي: «إيميلي! ماري!».

همست إيميلي: «شش! ولا كلمة!».

همست ماري محتجة: «كم يبدو أن فاين سوف تُسَلِّمُنا!» نُودِيَ على اسميهما مرة أخرى، وبعد ذلك، أصاختا سمعهما لتسمعا صوت لي لي السعيد، وهي تنتقل من الصالون إلى حجرة الطعام.

«ياه! جورج، تعال إلى هنا! انظر كم هو تنسيق جميل للمائدة! وكل تلك الأزهار الرائعة!».

بعد لحظة توقف يُفترض في أثنائها أن جورج ولي لي تبادلا السعادة والإثارة، سمعتا اسميهما يُنادى عليهما مرة أخرى.

حبست إيميلي وماري أنفاسهما.

«انتظري! أعرف، دعيني أذهب وأبحث عنهما!»، سمعتا جورج يقول بصوتٍ عالٍ، أعقبه صوته وصوت عروسه الشابة يصعدان الدَّرَج ركضًا.

همست إيميلي: «أوه يا ماري! إنهما قادمان!».

اندفع جورج ولي لي إلى حجرة النوم، وبعد ذلك لم يُسمع شيء سوى

همسات مكتومة، وضحكة خافتة وصوت قُبْلة. لم تستطع ماري أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك وأفلتت منها ضحكة عالية.

هتفت لي لي: «سمعت أحدًا ما يضحك! لا بد أنهما تختبئان في مكان ما. أين أنتما يا ماري وإيميلي، يمكنكما أن تخرجا الآن!».

لكن إيميلي وماري ظلتا صامتتيْن كالفئران، تستمعان إلى وقع أقدام جورج ولي لي وهما يفتشان حجرة الدراسة وحجرة تغيير الملابس الصغيرة قبل دخول المخدع. أضاء جورج الغاز، وعلى الفور رأى انتفاخًا وراء الستائر.

«انظري! لي لي، انظري هناك!».

ابتهجت لي لي: «لقد وجدناكما! آه، يا لكما من فتاتيْن مجنونتيْن!».

أزيحت الستائر جانبًا بقوة لتكشف إيميلي وماري، محمرتيّ الوجه ويملؤهما الضحك. تبادلوا التحيات الصاخبة، وكان الجميع يتحدثون في وقتٍ واحد.

٣٠

كانت مدام فان رات كتبت للدكتور راير، ورد عليها بزيارة إيلينه. حيّا كلٌّ منهما الآخر بدفء، وتجاذبا أطراف الحديث الخفيف حول مختلف الموضوعات. ترك راير الأمر عند ذلك أثناء تلك الزيارة الأولى، لأنه كان واضحًا له منذ البداية أن إيلينه كانت مُحْجِمة عن التعامل معه بصفته طبيبًا. لم تكن مدام فان رات، التي كانت حاضرة في ذلك اللقاء، معجبة ولا مؤيدة للطبيب الشاب الأنيق، الذي يتحدث بقدر كبير من السهولة عن إسبانيا وباريس بدلاً من معالجة الموضوع الحساس المطروح. بعد زيارة راير مرة أخرى بعد يومين، رحبت به ترحيبًا باردًا إلى حد ما. لكنها سرعان ما لاحظت النظرات الثاقبة، التي وجهها لإيلينه، حينما لم يكن يختلس حول الحجرة نظرات عابرة، وتحسن رأيها فيه: من الواضح أنه كان يرغب في الحفاظ على مشاعر إيلينه. وتقديرًا منها للياقته ودماثته، تركتهما وحدهما لفترة من الوقت. عندما ذهب راير ذكرت إيلينه أنه فحصها فحصًا شاملاً، ورغم أن السيدة العجوز دُهِشَت عند سماعها عن قدرات الدكتور الشاب من الإقناع، فقد شعرت بالسعادة الغامرة لوضع ثقتها في خبرته، وفي زيارته الثالثة تكلم معها على انفراد بعد رؤية إيلينه. وجدته صريحًا وصادقًا وثابتًا في آرائه؛ قال دون مواربة إنه لا يريد أن يضللها، وأنه رأى أن لزامًا عليه أن يخبرها بالحقيقة. لقد اكتشف جراثيم السُّل الرئوي عند إيلينه، وهى نتيجة إهمال نزلة برد شديدة ظنّت خطأً أنها قد تعافت منها. من جانبه سوف يبذل كل جهوده لمكافحة تلك الجراثيم، لكنه فيما وراء ذلك أدرك في حالة إيلينه الذهنية علامات ما أسماه بـ «مصير عائلة فيره». كان والدها الراحل متوترًا للغاية أيضًا، وكذلك ابن عمها فنسنت. في حالة إيلينه كانت انفعالات عصبية مزعجة، والتي كانت متشابكة كأوتار آلة

موسيقية مقطوعة. لم يفترض أنه يبالغ في حدود علمه، ورأى أنه ليس في وسعه أن يجعل عقلها يستعيد كامل انسجامه، بقدر عجزه عن إبطال الأضرار الناجمة عن المعاملة القاسية لزهرة رقيقة. كانت مدام فان رات نفسها أكثر استعداداً بكثير لأن تُسبغ الرعاية على أي زهرة، كانت في وضعٍ يؤهلها لأن تشرف على العلاج نفسه، الذي كانت إيلينه في أشد الحاجة إليه في حالتها الراهنة: بيئة تساعد على الراحة مع الكثير من الدفء والرعاية الحانية، لكن ما أن يأتي الشتاء، قد يكون مطلوبًا لها مناخ أكثر اعتدالاً من مناخ هولندا.

لم يذكر قطرات الكينين، التي كان قد وصفها لإيلينه.

امتلأت عينا مدام فان رات بالدموع، وهى تستمع إلى حُكْم الدكتور، وضغطت على يده بتعاطف دافئ لما استأذن بالانصراف، ولكنها شعرت بوطأة ثقل المهمة، التي عَهِد بها إليها على كتفيها الهزيلين، ذلك أن كل ما كانت تتمناه أن تكرس نفسها تمامًا لإيلينه. كانت تخشى أن راير بالغ في تقدير القوة المُعالِجة لحبها للفتاة المسكينة، وتشككت في أنها لكي تسترد صحتها تمامًا لا بد لنوع آخر من الحب أن يدخل حياتها.

إلا أن إيلينه بدأت تهدأ، وبدأت تتطلع لزيارات راير.

مرت الأيام في راحة مهدئة للأعصاب. كانت إيلينه محجمة عن المغامرة بالخروج من البيت، رغم توصية راير بأن تذهب للتمشية، ويفضل أن تكون في آخر النهار لتُحَسِّن فرصها في النوم جيدًا بالليل، لكنها كانت ميالة أكثر للجلوس بالخارج في الفراندة مع مدام فان رات لمساء ما، جالسة بارتياح في مُملد مجدول واسع بكوب من الشاي، وتتطلع عاليًا إلى السماء، التي تزداد ظلامًا والنجوم تبزغ فيها نجمًا تلو الآخر كأزهار الأقحوان في أحد المروج. تكلمت قلِيلاً، لأن السيدة العجوز دائمًا ما تنتقدها بلطف شديد عندما تتمادى ولا تستطيع التوقف عن الكلام؛ كانت ممتنة لمثل هذا التصحيح الرقيق، والتزمت الصمت للحظات طويلة، تحدق في النجوم. كان پول ينضم إليهما بين الحين والآخر في الفراندة لتناول الشاي. قد يجلس على الدرابزين ويشير

إلى بضع تشكيلات من النجوم بتلويحة عابرة بيده- الدب الأكبر وذات الكرسي والقيثارة- واعدًا إياها بأنه سيشرح لها على كرة القبة السماوية الخاصة به وقتًا ما. بعد ذلك، وعندما ذهب، تريح رأسها إلى الوراء، وتبحث عن أنماط النجوم مرة أخرى من جديد، لأنه بدا لها أنها كانت تلمع برقة في روحها.

***

جاء شهر يوليو؛ وخضعت حرارة النهار لساعات الشفق الطويلة، وتذكرت أمسية مماثلة في دي هورسه، منذ بضع سنوات. جلستا بالفراندة لفترة طويلة، إلى أن أعلنت مدام فان رات أنها مُتْعَبَة وتريد الخلود إلى الفراش. آوت إيلينه أيضًا إلى حجرتها. أغلقت النوافذ وخلعت ملابسها واستلقت على ظَهرها. نشر مصباح الليل وهجًا خافتًا وسط الظلال، التي تلوح في الأفق، وتلألأت الستائر على النوافذ الفرنسية في ضوء القمر الساطع. أغلقت إيلينه عينيها وحاولت أن تنام.

إلا أنها بدلاً من الاستغراق في النوم، شعرت بأنها متوترة ويقظة تمامًا. كان ذهنها مشغولاً بخليط من الأفكار والتداعيات غير المنطقية- ففي لحظة كانت في إسبانيا، وفي التالية في بروكسل تمزح مع إليزا أو تحتضن بيتسي، التي أقبلت نحوها تقود بِنْ من يده، يرنّ في أذنيها لحن كانت قد سمعت أحدًا يغنيه في مدريد؛ كانت في حديقة تطل على أطلال أندلسية وبساتين موالح؛ كانت تتناول العشاء في بيت عائلة مولانجيه، تركب عربة وقت الغسق في محيط بيت دي لوين الريفي الضخم، تتشاور مع أطبائها في باريس، ترتد نفورًا من المتسول الذي كان ينظر إليها نظرات خبيثة، وأصابها بقدر كبير من الذعر في نيس- مشهدٌ تلو الآخر مع تغير الشخصيات والأماكن باستمرار.

تفصد العرق من وجهها ورقبتها وألقت بملاءة السرير بعيدًا. أكثر الأصوات انخفاضًا لَعِبَ بأعصابها، التي بدأت تَصِرُّ صريرًا، وفجأة صدمها صوت ساعتها، وهي تدق من بعيد، والذي بدا صوتًا عاليًا يصم الآذان، رغم أنها لم تدرِ به كليًا قبل ذلك بلحظة. سمعت خزانة الملابس، وبدأت في الصرير، ثم ما بدا كأنه

ظفرٌ يخدش ورق الحائط، وفجأة، جاءت من الخارج صيحة رهيبة من شخص مخنوق، وحبست أنفاسها في رعب- لكن لا، كان مجرد ديك يصيح من بعيد.

تقلبت، وهي تتنهد، فتحت عينيها، وأبعدت شعرها المبلل عن جبينها. تطلعت لأعلى لترى انعكاس الستارة المضيئة كالشبح في مرآة الحائط. ثمَّ استرعى انتباهها شبشبها، على الأرض أسفل سريرها، وتخيلت كم كانت ستشعر بالذعر لو ظهرت يدٌ فجأة من تحت هيكل السرير لتختطفه بسرعة، وفي الظلال، التي تلوح في الأفق، والتي لم يبددها مصباح الليل، بدأت وحوش سوداء في التجوال، لذلك أغلقت عينيها مرة أخرى.

لكن لا يزال النوم يجافيها؛ وبالرغم من انغلاق بصرها كمصراع العدسة، شعرت بأنها أكثر يقظة من أي وقت آخر. زاد صوت صرير خزانة الملابس ارتفاعًا، وكذلك الخدش على ورق الحائط، وفي أي لحظة الآن تتوقع سماع شبشبها، وهو يُخْتَطَف بعيدًا منها. تصببت في العرق عندما فتحت عينيها مرة أخرى ورأت تنورتها الداخلية البيضاء مُعَلَّقة على أحد الكراسي - لقد كانت كفنًا!

لم تتحرك، لم تجرؤ حتى أن تشيح بنظرها بعيدًا، حدقت وهي تفتح عينيها عن آخرهما من الرعب في الجثة، وهي متيقنة أنها رأتها تتحرك.

بعد ذلك، في الصمت العميق، الذي ملأ البيت، سمعت صوت حكّ المفتاح وهو يجد القفل بالباب الأمامي، لتجتاحها موجة من الارتياح. كان بول، الذي عاد إلى البيت ليأوي إلى الفراش، وتابعت كل حركاته، وهو يزحف صاعدًا الدَّرَج، ويمشي على أطراف أصابعه على البَسْطة ليدخل حجرته. بعدها بلحظات قليلة سمعته يضع حذاءه الطويل في الممر ويغلق بابه. بعدها، كل شيء بات ساكنًا.

معرفة إيلينه بأن بول بالقرب منها أعادتها مرة أخرى إلى أرض الواقع، ورأت أن الجثة لم تكن سوى تنورتها الداخلية. نهضت، وأخذت مصباح

الليل، وانحنت لأسفل لتنظر تحت سريرها- لم تكن ثمة أي يدٍ تُرى، لكن بعدها، وهي في طريقها لأن تضع المصباح على الطاولة، بدأت الظلال ترتفع مرة أخرى إلى جانب تجوالٍ لحيوانات مفترسة، وركضت لتعود مرة أخرى إلى السرير، ترتجف من الخوف وهي تجذب إليها الملاءة الرطبة والمكومة. كانت الفكرة التالية في اليد تحت السرير.

مهما حاولت بقوة أن توقف دوران ذهنها بحيث قد تتمكن من النوم، ظلت مستيقظة، يملؤها شعور كئيب ومبهم بالتشاؤم. مدام فان رات قد تموت فجأة، إذن ماذا بعد ذلك؟ استحضرت كل أنواع المشاهد غير المنطقية والمشوشة، التي تُصَوِّر ظروف رحيلها: مرض طويل كالمرض، الذي عانت منه العمة فيره، يكتمل بنوبات مزاج حادة سوف تتحملها إيلينه بصبر مُطْلَق، أو نوبة قلبية مفاجئة، أو حادث مميت ككارثة حادث قطارات سكك حديدية. أو شيء ما ربما أكثر دراماتيكية: هناك رجل، على سبيل المثال، رجل برغبة حقودة في الانتقام، كان يجرُّ السيدة العجوز على الأرض من شعرها الأشيب، ويطعنها بسكين مطبخ حتى تسقط، وهي تموت في بركة من الدماء، إلى أن انهارت إيلينه وأجهشت بالبكاء بسبب رعبها المُتَوَهَّم.

كم سينكبها الأسى والحزن، وكم ستحتضن الجثة الهامدة بقوة، وكم ستصرخ عندما يجرونها بعيدًا بالقوة! في برهة قصيرة، استحالت المأساة إلى مشهد رقيق مليء بالحب والسعادة: مصالحة بينها وبين أوتو، الذي أتى نحوها، واحتضنها إلى صدره وقَبَّلَها. وذراعاهما ملفوفان حول بعضهما البعض، تجولا وسط بساتين الريف الإسباني، فقط لتقوم بدفعه بعيدًا فجأة ليسقط عند قدميها، وهو غارقٌ في طوفان من الدموع. رفعته إليها مرة أخرى، وكانا يقفان على قمة جسر يتأرجح عاليًا بارتفاع السماء فوق شلال ماء هادر، صَمَّ آذانهما الضجيج، ثم احتضنها بين ذراعيه، وبعدما أنهكهما الأسى وهدير الماء في آذانهما، قفزا معًا في الماء العميق.

بالخارج، صاح الديك مرة أخرى، وجلست إيلينه بحركة مفاجئة. لو لم

تكن نائمة، فهل كانت تحلم؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ يمكنها أن تُقْسِم أنه لم يغمض لها جفن. نهضت من السرير، لاهثة ومبللة بالعرق. كان حلقها جافًا من الظمأ، وبعد ترطيب وجهها بمنشفة مبللة ابتلعت كوبًا من الماء، تلاه كوب آخر وثالث في تعاقب سريع. ارتجفت، رغم كتمة الحجرة الدافئة، وارتدت روب صوفيًا رماديًا، ثم رفعت حافة ستارة النافذة ونظرت إلى الخارج، حيث بدأ الليل يَخِفُّ لونه. كانت الساعة الثالثة والنصف؛ وصاح الديك مرة أخرى، وهذه المرة رُدَّ على صياحه بأكثر من صياح آخر.

خَلَد خيالها المحموم للراحة مع البزوغ الرمادي للفجر، وتحولت بعيدًا عن النافذة. ملأها منظر السرير المجعد، الذي قضت عليه ساعات طويلة للغاية من التقلب والحركة بالنفور، لذلك استقلت على الأريكة الفارسية بدلاً منه. من هناك لم تستطع أن ترى سوى قمم أشجار القسطل المورقة بالخارج، وركزت انتباهها على أوراق الشجر، التي كدرت نظامها الرياح.

في الداخل، طقطق مصباح الليل، اضطرب ضوؤه، ثم انطفأ، تاركًا الدخان ينبعث من الفتيل.

غَلَب إيلينه النعاس لتنام، منهكة العقل والجسم، بينما لعب ضوء النهار المتزايد على ملامحها الشاحبة، التي تشبه الشمع.

***

لم يكن مُقررًا أن يزورها راير في ذلك الصباح، لكن إيلينه أرسلت له استدعاءات عاجلة وجاء على الفور. توسلت إليه تقريبًا ليعطيها شيئًا يجعلها تنام، وأخبرها بأنها سوف تصاب بالتأكيد بالجنون إذا تكررت تجربة ليالي الأرق الماضية الرهيبة. أجاب راير أن بإمكانه بالطبع أن يصف لها دواءً يساعد على النوم، لكن حالتها ستكون أفضل بكثير إذا حاولت استعادة نمط النوم العادي دون اللجوء إلى الطرق الاصطناعية. يجب عليها أن تمارس الرياضة وتذهب للتمشية. تنهدت إيلينه ورفعت كتفيها في تجاهل متبرم. كانت بالكاد

لديها القوة للنهوض من السرير هذا الصباح، وحتى الآن لا تستطيع سوى أن تجرَّ نفسها بصعوبة من كرسي إلى آخر! تمارس الرياضة- في هذا الطقس الحار؟ كانت ببساطة غير مستعدة لذلك، لذا ظلَّت بالبيت، لتشعر بالانتعاش قليلاً في هواء المساء المنعش، في كرسيها المملد المجدول الكبير بالفراندة. لاحظتها مدام فان رات بعيون قلقة.

حلَّ المساء، لينضم إليهما پول مرة أخرى لتناول الشاي، فيما أصبحت عادته. ذَكَّره نظره باهتمام لإيلينه من موقع جلوسه على الدرابزين بحفل الرقص في حفل زفاف لي لي، عندما جاءته فكرة أن يضع إيلينه في رأسه، فقط من أجل التسلية. ورغم أنها لم تكن نضرة وموردة الوجه كما كانت، وأكثر نحافة بكثير، فكانت تترك لديه انطباعًا بالأناقة الأثيرية؛ في الواقع، وجدها جميلة إلى حد ما بعينيها الغائرتيْن الداكنتيْن وفمها الصغير الحزين، لكنه صرف نظره عن أي فكرة للفت انتباهها بنبرات الكلام المعسول والرياء، لأنه رأى أن روحها مكسورة. تذَكَّر كم كانت لامعة مبهرة، وكم كانت مغناجة ومرحة، والضحك، الذي يلمع من شفتيها كاللؤلؤ، وملأته الذكرى بإحساس عميق بالشفقة تجاهها. قالت إن حياتها في خراب، ورأى أن الأمر قد يكون كذلك تمامًا.

سأل، وكان ثمة شيء ما في صوته، دفء معين، ذَكَّرها ذلك بهِنْك، «كيف تشعرين يا إيلينه؟ أفضل من بعد الظهيرة اليوم؟».

أومأت برأسها في وهن، وأشار إلى النجوم التي بدأت تلمع في الغسق، وسأل إذا كانت تود أن ترى كرة القبة السماوية الخاصة به؛ ولم تكن هناك مناسبة جيدة أكثر من هذه، خاصة أنه أنزلها من العلّية في صباح ذلك اليوم نفسه. لم يكن لديها استعداد لعلم الفلك، لكنها لم ترغب أن تحبطه، لذلك انطلق ليحضر الكرة. جلس بجانبها، وجلست مستقيمة استعدادًا للدرس. راقبت مدام فان رات پول، وهو يستخدم إبرتها الكروشيه، التي استغلها للإشارة إلى تشكيلات النجوم، وبعدها حاولت إيلينه بلطف تحديد الأشكال المقابلة في السماء، وتبتسم بينما ترفع إصبعها لتتبع الخطوط الوهمية من نجم إلى آخر.

لاحظت أم پول عذوبة ابتسامة إيلينه، وانبهرت بالمثل بنبرة ابنها الدمثة، التي لم يكن فيها أثر للسخرية والتعالي المرح، اللذين كان كَلِفًا بهما كثيرًا. اعتراها إحساس مبهم بالتفاؤل: بالتأكيد، كان هناك وقتٌ عندما كانت تتمنى أن ترى إيلينه زوجة لابنها هِنْك، لكنها لم تستطع مقاومة التفكير في أن قدرًا من الحنان تسلل لحديث إيلينه المتبادل مع پول مؤخرًا. حتى الآن كانت تستجيب بشيء من الحيوية بينما يواصل پول درسه الأوليّ في الفلك، موضحًا لها كيفما اتفق أنه بما أنها كانت تطالع النجوم على الكرة الفلكية بينما تنظر لأعلى لتطالعها في السماء، ينبغي عليها أن تحاول وتتخيل نفسها في مركز الكرة.

ذلك المساء بقي پول في البيت حتى هَمَّت السيدتان لتأويا إلى فراشهما في الساعة الحادية عشرة. وعندما استأذن بالانصراف، أمسكت أمه بيده وقَبَّلته على جبينه، بدلاً من تومئ برأسها لتوديعه بشكل روتيني كما تفعل عادةً.

٣١

شعرت فريدريك بأنها منزعجة للغاية من نفسها. كانت قد اكتشفت أن پول عاد لإقراض المال لإتيان مرة أخرى، وعندما وجدت نفسها وحدها معه عنفته بشدة. يوه، لِمَ لا تستطيع مقاومة التدخل في شؤونهما؟ ما فعلاه ليس من شأنها فعلاً. بالنسبة لإتيان كان الوضع مختلفًا: كان لا يزال صبيًا، وبصفتها أخته الأكبر فلها كل الحق في توبيخه عندما يصدر عنه سلوك سيئ. لا بد أن پول من جهة أخرى سئم وتعب منها، ناهيك عن إلقاء المواعظ عليه وصبّ جام غضبها عليه كلما أغضبها سلوكه. لأن ذلك كان ما فعلته، مرارًا وتكرارًا. لِمَ لَمْ تطلب منه ببساطة ألا يقرض إتيان أي أموال في المستقبل، لِمَ تعقد الأمور بتجاهله ومعاملته بنفور أولاً؟ لم يكن هناك أي داعٍ لأي من ذلك!

جلست مع والدتها وماتيلدا في البيت الزجاجي بعد الغداء لتشاهد إرنستين ويو وهما مشغولَيْن في الحديقة مع خرطوم السقيّ المطاطي الطويل. صوَّبا الفوهة النحاسية ليصنعا رشاشًا من الماء لينزل على أزهار الورد والريسيدا ورِعْيُ الحَمام ورقيب الشمس والجيرانيوم والبيجونيا، مما جعل براعم الأزهار تهتز وترتد مرة أخرى وسط الرذاذ والعشب يلمع بقطرات الماء الصغيرة.

تبخترت مادلين ونيكو مشيًا مع هيكتور على الممر المفروش بالحصى وراءهما، وهما يصرخان ويتحركان بسرعة بعيدًا كلما تمايل الخرطوم في اتجاههما.

قالت ماتيلدا مُحَذِّرة: «كوني حذرة الآن يا تينا! لا تتركي الأطفال للبلل! ولا تفرطوا كثيرًا في سقي الأزهار! اسقوها بلطف!».

فكرت فريدريك، نعم، لا بد أن يجد پول أنها لا تُطاق، ووضعت كتابها

جانبًا لتشاهد هياج الصغار وحماقاتهم. من السخيف منها تمامًا أن تلقي عليه المواعظ، لكن تلك المرة عندما انتقدته لكسله وغروره والاحتفاظ بالنوع الخطأ من الأصدقاء كانت ربما أكثر سخفًا. ما زاد الأمر سوءًا إقامة حفلٍ راقص في اليوم التالي مباشرة، والذي استهواها فيه تمامًا حسه الفكاهي، الذي لا يمكن كبته. لقد استمتعت بشيء من البهجة والمرح، وأحبت الرقص، وكانت سعيدة أنه طلب أن يراقصها، لكن عندما انتهى الحفل، شعرت بأنها غير راضية تمامًا عن نفسها. ليس أنها يمكن أن تفكر في أي شيء خطأ ارتكبته، لكن لا تزال غير راضية.

صاحت ماتيلدا بصوتٍ عالٍ: «مادلين، توقفي عن إغاظة هيكتور! سوف يعضكِ إن لَمْ تكوني حذرة».

وجدت فريدريك أن من الصعب أن تركز في أفكارها مع طقطقة الرذاذ السريعة على أوراق الراوند العريضة، وصياح الأطفال في إثارة ونباح هيكتور الحاد المستمر، لكنها ظلت تتساءل ما الذي فعلته بنفسها لكي تشعر أنها غير راضية بهذا الشكل.

كانت لديها فكرة غامضة، لكنها أحجمت عن التفكير فيها مليًا. جرحها سلوك پول المغازل مع كل تلك الفتيات؛ كان يفعل كل ما تطلبه منه كل واحدة منهن، لكنه لم يقصد كلمة مما قاله. هل خُدِعْن بمجاملاته؟ أكانت مجرد متعة بريئة، أم كان بها ثمة مسحة من خبث؟ لكنه لم يكن مهرجًا، ولم تكن تراه حتى تافهًا، فعلاً؛ كان فقط يتصرف كأنه أكثر أهمية من حقيقته لأنه كان وسيمًا ومعه مال، لكنه كان سليم الطوية؛ ولا يفكر في إيذاء ذبابة. إلى جانب ذلك، ما الذي يهمها في ذلك؟ ما الذي يهمها إذا غازل آنجه وليوني، ناهيك عن تلك الفرانسواز الحمقاء! لِمَ تهتم وتتضايق لذلك الشأن أكثر مما تهتم وتتضايق بشأن سلوك أي شاب آخر في دائرتها الاجتماعية؟ هل لأنه صديق للعائلة؟ هل لأنه كان ابن خالة ماري ولي لي؟ بالتأكيد لا.

استفزها أنها لم تجرؤ على مواجهة الأشياء، التي تثير روحها بنفس الصدق

كما تفعل عندما تنظر في المرآة.

ومع ذلك، لم تستطع مقاومة أن تلاحظ أنه كان مختلفًا معها عن الفتيات الأخريات، في الأسلوب والنبرة على السواء، وشعرت بالفخر لذلك. من الوضوح أنه يُكِنُّ المزيد من الاحترام لها. أم أنه مجرد معرفته بأنها لن تُعْجَب بتملقه؟ أيمكن أن يكون معجبًا في رهبة منها بعض الشيء، لمجرد أنها تعنفه من آنٍ لآخر؟ لا، سوف تكرهه إن كان معجبًا بها في رهبة! لو كان ذلك صحيحًا فلن تجرؤ على الدخول في حديث ثنائي خاص آخر معه؛ وفي أسوأ الأحوال، فإنها سوف تصبح مثل كل الفتيات الأخريات وتلعب دور الفتاة المدللة. لكن لا، لن تستطيع أبدًا أن تفعل ذلك! إلى جانب ذلك، ما الفرق الذي يمكن أن يصنعه ذلك لو كان پول معجبًا بها في رهبة؟

دارت كل تلك الأسئلة في رأسها مرات ومرات، كما لو كانت محبوسة في متاهة دون جدوى. لكنه من داخلها، كانت لديها فكرة ما أين قد يكون المخرج، لكنها لم تكن مستعدة لأن تعترف بذلك لنفسها.

سألت ماتيلدا: «فريدي هل تتفضلين بمساعدتي في حزم الحقائب؟ إذن سأبدأ بوضع الأطفال في فراشهم».

وعدت فريدي بتقديم المساعدة. لفَّ الصغار خرطوم الحديقة بالكثير من الضجة، وبعدها انضمت ماتيلدا إلى الآنسة فرانتسين ليهشوا الأربعة الصغار الصاخبين ليصعدوا إلى الطابق العلوي. في الصباح سيغادر الفريق كله إلى دي هورسه. كانت فكرة أن الأفضل لهم قضاء أشهر الصيف في الريف فكرة تيودور فان إرليفورت؛ لأن الحياة كانت أقل تكلفة في البيت الريفي، وصار من الصعب بصورة متزايدة على أمه أن تحافظ على المعايير المتوقعة منها في البيت الكبير في فورهوت. بل إنها فكرت في الانتقال بشكل دائم إلى دي هورسه، لكنها وصلت إلى نتيجة مفادها أن تركها لبيتها الحبيب في لاهاي سيكون تضحية أكبر من أن تقوم بها. كما كان الوضع الحالي، فإنها ستحاول تمديد إقامتها في دي هورسه، ربما حتى نوفمبر، وتطلعت إلى إقامة سعيدة في

الريف في حضن أسرة تيودور الصغيرة العزيزة.

كانت ماتيلدا سعيدة بالذهاب إلى دي هورسه أيضًا، ووافقت على إخراج تينا ويو من المدرسة قبل العطلة الصيفية ببضعة أشهر: سوف تعتني بدروسهما بنفسها، كما كانت تفعل من زمان، وسُرَّت كثيرًا في سرها لهذا الاحتمال. شعرت فريدي بأنها أقل حماسا لمغادرة لاهاي، وزادت حيرتها وارتباكها حيال ذلك من استيائها. لكنها كانت ظاهريًا نفس الشيء كما كانت دائمًا، مبتهجة وعلى علاقة وُدّ بالجميع في البيت إلا بإتيان، الذي عاملته ببرود إلى حد ما مبكرًا في ذلك اليوم، ليس فقط بسبب ذلك الموضوع الخاص باقتراض المال من پول بل أيضًا لأنه ظلَّ يشكو ويتذمر بسبب سفرهم جميعًا. قال إنه يفكر في أخذ حجرة في مكان ما في تلك الأثناء، في ليدن أو لاهاي؛ لكنه لم يقرر بَعْد.

كان أوتو يزور دي هورسه بانتظام في الآونة الأخيرة، وكان يتحدث مطولاً مع تيودور، ذلك أنه كان يفكر في تولي وظيفة في الأقاليم ومغادرة لاهاي إلى الأبد. في الواقع كان هناك شيء ما أمامه بالفعل: إذ بفضل صديق قديم لوالده، أصبحت لديه فرصة جيدة لتعيينه وكيلاً للعقارات الملكية في خيلدرلند.

رغم أن مدام فان إرليفورت حذرته مرارًا وتكرارًا من مخاطر أن يصبح منعزلاً، فقد صار ساخطًا على لاهاي لدرجة أنه لم يعد قادرًا على أن يجد أي تسلية هناك. كان قانطًا جزعًا جدًا هذه الأيام، ولم يكن يرغب في أي شيء سوى أن يُترك وحده في مسكنه الخاص، بحيث لا يزعج أحدًا بحضوره المتجهم. بدا بالنسبة لها مثبط الهمة ومكسورًا، يرزح تحت نير خسارته، التي لا تُعَوَّض. ليس أنه لم يشكو أبدًا، أو ينحدر إلى التململ أو الغلظة، التي تحطّ من الكبرياء؛ وفي هذا الشأن كان يشبه ماتيلدا.

غَلَب مدام فان إرليفورت النعاس في السكون، الذي ساد الآن وقد خَلَد الأطفال إلى فراشهم. غادرت فريدريك الحجرة أيضًا، بمجرد أن نزل إتيان ركضًا على الدَّرَج.

سألها: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

أجابت: «قلتُ إنني سوف أساعد ماتيلدا في حزم الحقائب».

صاح في دهشة: «امم، لكنني أنا مَنْ عليكِ أن تساعديه! ماتيلدا عندها بالفعل المربية، التي ستساعدتها، ولا صبر لديّ لطيّ كل ملابسي بشكل مضبوط».

«هل استأجرت حجرة إذن؟ هنا أم في ليدن؟».

«أقول لكِ الحقيقة، لم أستأجر أي حجرة. أنا سأذهب إلى دي هورسه معكم، حيث سأستطيع المذاكرة لامتحاناتي النهائية هناك في سلام وهدوء. لا فائدة من التواجد في ليدن في العطلة بأي حال، وإذا مكثت هنا لن أستطيع إنجاز أي شيء. ويجب عليّ، كما ترين»، قال، وقد انخفض صوته إلى الهمس: «لا يمكنني التسكع جيدًا هنا، أليس كذلك؟ ناهيك عن ماما، التي تقول إننا لا نستطيع تغطية النفقات وتيودور، الذي يخبرنا بأنه ينبغي علينا أن نقتصد».

نظرت إليه بثبات، بينما كان يقف أمامها في انتظار شيء مشكوك فيه.

قالت: «حسنٌ إذن. سأساعدك».

سألها بابتسامة مشرقة، وهو يشعر بالارتياح لنبرتها الخدومة، «تعالي وألقي نظرة على حجرتي إذن، ممكن؟».

صعدا إلى حجرته بالطابق العلوي. كانت حقيبته مفتوحة على آخرها، وكذلك خزانة الملابس.

«هل يمكنني إلقاء كل الأغراض، التي أريد أن آخذها على سريري، بحيث يمكنكِ أن تضعيها في الحقيبة».

«تمام جدًا».

قال بصوت متملق كطفل مُدلَّل: «وأنتِ لم تعودي غاضبة مني، على أساس ذلك القرض؟».

«لا، لكن عليك أن تسدد المبلغ لپول عندما تراه الليلة. يمكنني مساعدتك

إن شئت، لأن لديّ بعض المال الزائد على الحاجة».

«ليس لديكِ أي شيء ضد پول، أليس كذلك؟».

قالت: «أوه لا، مطلقًا! ومع ذلك، من الأفضل ألا تكون مديونًا»، ولكن يا فريدي! إنه أعز أصدقائي! ولا أخشى أن تكون مدينًا له ببعض المال».

«في الواقع. إنه طيب جدًا، لكن من العقل والحكمة أن تسدد له المبلغ، ألا توافقني؟».

وافقها، ومرة أخرى شعرت بالضيق من نفسها. ها هي ذي، تتدخل في شؤون الآخرين مرة أخرى! سوف يبدأ كل منهما أن يكرهها إن لم تأخذ حذرها، لكن إتيان لم يكرهها أبدًا، بل بالعكس، كان يعشقها لحزمها للحقيبة من أجله.

«إليكِ هنا: القمصان والياقات والجوارب. حسنٌ، يمكنكِ أن تجدي الباقي بنفسكِ. سأذهب وأبحث عن پول- على الأقل، لو دفعتِ لي المبلغ».

كانت مستعدة لهذا، ووضعت يدها في جيبها لتسليمه المبلغ المطلوب.

«شكرًا لكِ. سوف نغادر في الصباح الباكر على ما أظن. آه نعم، هل يمكنكِ أن تخبري ڤيليم بأن يوقظني قبلها بوقت مناسب؟ الوداع الآن».

بينما كان يستعد للذهاب، أخذت رأسه بين يديها وقَبَّلَته.

أنهت كلامها بلطف: «أنا سعيدة حقًا بأنك ستأتي إلى دي هورسه معنا. ستشعر ماما بسعادة غامرة، وكذلك تيودور، خصوصًا عندما يسمع بنواياك الجادة في الدراسة».

سُرَّ بأنهما تصالحا، وبعد لحظة سمعته يصفر، وهو يركض نزولاً على الدَّرَج.

* * *

في مساء اليوم التالي قاد تيودور فان إرليفورت وكلاس السائق العربة إلى محطة السكة الحديد في إلتسن لتوصيل فريق الزوار، وفي الساعة التاسعة تقريبًا

سارت العربة المغطاة القديمة تدمدم فوق الطريق الذي تصطف أشجار البلوط على جانبيه إلى دي هورسه. جاءت ماريان، التي عادت من فصلها الدراسي الأخير بالمدرسة الداخلية ركضًا لتقابلهم، مع إدميه وطفليّ فان سترالنبورج في أعقابهما. لعب الصغار في مرح كالجراء الصغيرة، في محاولة لمواكبة ما يجري في العربة وسط صرخات 'مرحبًا جران! مرحبًا العمة تيلي! مرحبًا العمة فريدي! مرحبًا العم إتيان!»، في تجاهل كامل لجهود ماريان المحمومة للسيطرة عليهم.

بين أعمدة الفرندة وقفت تروس بجانب سوزان وزوجها أرنولد فان سترالنبورج. بعد مسيرة صاخبة وطويلة حول البِرْكة، اقتربت العربة بجوار المدخل لتخلي ركابها من كلّ الجوانب. لبضع لحظات ساد الهرج والمرج وسط معترك اللقاء السعيد، والأطفال يعانقون ويقَبّلون كلُّ من تقع عليه أعينهم وكلاب تيودور الصيد الكبيرة تنبح وتصيب أصغر الأطفال بالإثارة البالغة.

كانت مدام فان إرليفورت آخر من ترجل من العربة، وعلى الفور اندفع نحوها أحفادها المليئين بالحماس والمرح، والذين شقوا طريقهم بصعوبة من خلال ساقيّ خالهما الطويلتين من زقله ليلقوا بأذرعتهم القصيرة حولها.

تركت تروس وماتيلدا وسوزان الأطفال يلعبون لبعض الوقت، لكن قبل فوات الأوان جاءت الآنسة فرانتسين واثنتين من المربيات الأخريات للبحث عنهم. قُدَّمَت لهم السندويشات، ثم أُرسلوا فجأة وبقوة إلى الفراش. ذهبت ماتيلدا وراءهم لتتأكد من أنهم جميعًا مستقرون في نومهم بشكل جيد.

لم يكونوا رأوا بعضهم البعض طول الشتاء، وامتلأ الجو بالأسئلة لمعرفة آخر أخبار الجميع. ألقت مدام فان إرليفورت نظرة حولها، كما لو كانت تفتقد شخصًا ما.

سألت في لهفة: «أين هيتي؟ وأين الأولاد؟».

أجابت تروس، وهي تبتسم على خيبة أمل حماتها: «لا تزال في المدرسة،

ماما العزيزة، العطلة لم تبدأ بعد».

«هيتي على خير ما يُرام في بون؛ وتكتب رسائل طويلة لنا في هولندا. كان كور في بوينس آيرس مؤخرًا مع سفينته».

«رحلت آنسة فورمانز، أليس كذلك؟».

«نعم رحلت؛ ودعتنا الرفيقة القديمة العزيزة والدموع في عيونها، لكن لم تعد هناك حاجة إليها، لم نعد نتحمل تكلفة الإبقاء عليها من أجل العِشْرة القديمة، بل أكثر شفقة بها. تيودور لديه ما يكفي من المتاعب مع المستأجرين كما هي الحال الآن».

ولمّا تناهى ذلك إلى سمعه، أكد تيودور لهم أن ليس لديه سبب للشكوى، خاصة وأن أهله الأعزاء وصلوا. عجبًا يا فريدي! تبدين على ما يُرام بشكل ملحوظ! أجمل كل عام عما قبله! انظري يا تروس، كم هي شابة جميلة! ألا تحبين أن يكون لديكِ أخت هكذا؟».

وضع يديه على خصرها، وعرضها لزوجته، التي ردت بابتسامة دافئة.

«وما أخبار قلبك؟ آمل أن كل شيء تمام؟»، همس في أذنها: ««ألا يوجد بَعْد أحدٌ يجعله ينبض أسرع – دوم، دوم، دوم؟».

جلجلت ضحكة فريدي عاليًا كجرس.

«أوه لا، لا أحد إلى الآن! لا تقلق، لن يحدث لفترة من الوقت».

«لذلك طفّشتِ كل خطابكِ، أليس كذلك؟».

ضحكت ضحكة مكتومة: «آه نعم، أحافظ على مسافة بيني وبينهم. مسافة طويلة! لم أجد الشخص، الذي أهتم به، لا أحد على الإطلاق».

رد عليها بحسم: «لاااا، أيتها الآنسة الصغيرة ذات الردود الحادة! سوف تروعينهم ليهربوا منكِ إن لم تأخذي حذركِ».

لم تضحك بمرح هكذا من قبل. كم كانت رائعة وجميلة عندما تضحك!

ذكرته بالربة ديانا، ديانا شابة وساخرة، رشيقة وقوية برأسها الأبيّ الذي تُرجعه إلى الوراء في تحدٍ، وهي ترمقه بعينين مشرقتين ومليئتين بالتحدي، ورغم أسلوبها الهزلي كان في جمالها لمسة من أمانة وصدق، كرامة معينة تخبره بأنها ليست مغناجا، بل إنها تمتلك شعورًا بالكبرياء.

استطرد: «آه، إذن هذا هو شعوركِ! حسنٌ، لا أستطيع أن أقول أنني أشعر بالأسف. هذا يؤكد فقط أن لديك إحساسًا بالتربية والتهذيب».

تطلع في وجهها مرة أخرى، شاعرًا بالامتنان لأنه رأى فيها فتاة من عائلة فان إرليفورت بحق.

اندفعت المدام قائلة: «وما رأيك في إتيان؟ لقد أتى ليذاكر من أجل امتحاناته!».

قال تيودور: «وهو ينحني بشدة، إنها حقا مفاجأة سارة للغاية!».

بدأت فريدريك تضحك مرة أخرى.

«ياه، يا له من شخص مضحك!»، قالت لفان سترالنبورج: «لك أن تتخيل يا أرنولد، لقد نسي تقريبًا أن يأخذ مواد دراسته! ظهر بكومة كبيرة من الكتب في آخر لحظة، لذلك دُسَّت رسالة قانونية ما أو كتاب تاريخ في كل حقيبة من حقائبنا تقريبًا!».

قال إتيان مدافعًا: «لا تتوقعي مني أن أفكر في كل شيء».

قال أرنولد متهكمًا، وضيَّق عينيه: «لا، بالطبع لا! لديك الكثير جدًا من الأمور في ذهنك بالفعل، أليس كذلك؟ لديك كل تلك المراسلات للعناية بها، وكل تلك المؤتمرات والاستشارات!».

كان معتادًا على أن يغيظ شقيق زوجته الشاب كلما سنحت الفرصة، وكان إتيان سريعًا في التقاط الطُّعْم، والذي يُسْفِر غالبًا عن أدوار من المزاح الهزلي أعقبتها مباريات سِجال مصطنعة.

صاحت سوزان: «الآن يا أرنولد، لا تبدأ الشجار مع إتيان! قولي لهما أن

يتوقفا يا ماما، وإلا سوف يمسكان في خناق بعضهما البعض مرة أخرى!».

ضحكت ماريان ضحكة مكتومة: «العم أرنولد وإتيان دائمًا يمسكان في خناق بعضهما البعض!».

إلا أن أرنولد أعلن أن السرور المحض، الذي جلبه هذا الاجتماع العائلي قد قوَّض تمامًا روحه القتالية، وبحركة مسرحية مبالغ فيها، فَرَد ذراعيه الطويلتين للترحيب بإتيان. تمايلا بينما هما متعانقان من جانب إلى آخر للحظة طويلة إلى أن دفع إتيان رأس أرنولد، دون سابق إنذار وتقريبًا في الوجه مباشرة، بقوة لأسفل ووثب على جسده المحنيّ، كما لو كان ذلك مقصودًا، ودون كلمة واحدة أو أدنى تردد، شرع أرنولد في الوثوب على إتيان والعكس بالعكس، في سلسلة من القفزات كقفزات الضفادع مما أثار المرح الصاخب حولهما.

«عندما لا يمسكان في خناق بعضهما البعض يصبحان تمامًا مثل المهرجين!»، هتفت ماريان: «تمامًا مثل المهرجين!».

***

اقتسمت فريدريك وماريان، واللتان تناديان بعضهما بالاسم الأول، رغم أنهما عمة وابنة أخيها حجرة واسعة، مرتفعة السقف، ويوجد بها هيكل سرير ضخم وقديم الطراز من خشب البلوط بمظلة ذات لون بنيّ داكن. كانت الأبواب مصنوعة بالمثل من خشب البلوط، وكذلك الكساء الخشبي؛ كان السقف مزخرفًا بميدالية كبيرة لا يزال تمييز صور الحوريات وآلهة الحب اللاهية فيها تمييزًا باهتًا أمرًا ممكنًا.

قالت ماريان، وهما يستعدان للخلود إلى النوم، «أنا سعيدة جدًا أننا نتقاسم الحجرة. ياه، لا أستطيع تحمل النوم وحدي هنا! سأكون مرعوبة، أليس كذلك؟».

أجابت فريدي: «لا أتوقع ذلك؛ لستُ الشخص، الذي يشعر بالخوف بهذه السهولة».

قالت ماريان: «أعتقد بأن هذه الحجرة رومانتيكية بشكل بغيض، فكل شيء يبدو عتيقًا. من السهل أن تتخيلي نفسك تعيشين في العصور الوسطى، بكل هذه الكسوة الخشبية الداكنة على الجدران والدروع على الأبواب».

ارتدت فريدريك ثوب نومها، وتسللت إلى السرير ذي الأعمدة الأربعة.

ضحكت: «إنه كبير بما يكفي لأغوص فيه! لم أنم هنا من قبل».

رفعت ماريان، التي كانت لا تزال تتردد بقدميها العاريتين ستارة النافذة للحظة لتسمح لشعاع من ضوء القمر بالدخول إلى الحجرة.

«انظري يا فريدي، كم غريب ومخيف! ألا أبدو كشبحٍ في هذا الضوء؟».

«يوه يا ماريان، توقفي عن الضجة، ممكن؟ لِمَ لا تأوين للفراش، بعدها يمكننا أن نثرثر ثرثرة لطيفة».

أنزلت ماريان الستارة، وخلعت ملابسها على عجلٍ واستقرت بارتياحٍ بجانب فريدي.

«يا إلهي! هذا السرير عملاق! ياه، ربما أموت لو أُضطررت للنوم فيه لوحدي. ألا تظنين أنه مخيف؟ ولا حتى قليلاً؟».

«بالطبع لا. إنه خيالك، هذا كل شيء».

«نعم، أنا دائمًا أتخيل وجود أشياء كرؤية أشباح أو تواجدي في منزل مسكون أو أشياء أخرى كمقابلة فارس يرتدي دروعًا براقة، لكن أنتِ مختلفة، هادئة ومتزنة تمامًا، لذا لا أفترض أنكِ تخترعين كل أنواع القصص لنفسكِ كما أفعل أنا».

«قصص؟ لا، لا. أي نوع من القصص؟».

«يوه، روايات بأكملها في بعض الأحيان، ثم أتخيل أنني فتاة نبيلة، وأن الأولاد سائسو خيولي والصغار غلماني، وبعدها أقع في غرام أحد الفرسان، الذي يريدني أن أهرب معه لأن أبي قاسٍ جدًا ومتعطش للدماء، ولن يقبل به كزوج لابنته».

«يا لها من صور مُجامِلة لأبيكِ!»، قهقهت فريدريك، «وماذا عن فارسكِ، هل هو أسمر أم أشقر؟».

«هذا يعتمد على مزاجي. أقول لكِ فريدي، هل سبق أن وقعتِ في الحب؟».

«بالطبع لا».

«حقًا لا؟ لقد وقعت في الحب عشرات المرات إلى الآن، لكنه لا يدوم لمدة طويلة جدًا معي، فقط ثلاثة أو أربعة أسابيع على الأكثر. في بون، مثلاً، كان عندي مدرس رسم كنت أعشقه، وبعدها كان هناك شاب- كان لديه شعر أشقر وعيون زرقاء- والذي اعتاد أن يأتي لي بالحلوى خلسة».

تلا ذلك سرد مفصل بمعجبي ماريان.

«ولكن قولي لي يا ماريان، كم عمركِ الآن؟ سبعة عشر؟ ثمانية عشر؟».

«أنا ثمانية عشر بالفعل!».

ضحكت فريدريك: «يا ربي! ورأسكِ لا يزال مليئًا بالأشباح ومدرسي الرسم! أنتِ طائشة كإتيان، الذي لا يبدو أنه يكبر أيضًا».

شعرت ماريان بالاستياء من هذا، وبدأت تهز فريدي، التي لم يزد شيء إلا ضحكها.

«وماذا عنكِ؟ لم يسبق لكِ حتى الوقوع في الحب! كم يبدو ذلك رشيدًا؟».

ضحكت فريدي: «لقد حان الوقت لنخلد للنوم يا ماريان. أتمنى لكِ أحلامًا سعيدة بشخص معين أزرق العينين إذن!».

ما لبثت ماريان أن جنحت إلى النوم، ليلمس رأسها كتف فريدي.

ظلَّت فريدي مستيقظة لفترة طويلة؛ وابتسمت لأي مدى بدت ماريان طفولية، رغم كونها تبلغ ثمانية عشر عامًا! هي نفسها كانت ثلاثة وعشرين- فرقٌ كبير بينها وبين ماريان- وكل ذلك الاستغراق الرومانسي في الخيال حول الفرسان، الذين يرتدون الدروع والفتيات النبيلات كان جزءًا من الماضي فيما

يتعلق بها، لكن ما نوع من الأفكار، التي تدور في رأسها في الوقت الحالي؟ كانت غالبًا ترى نفسها في صورة سيئة، كان هذا صحيحًا، لكن فيمن تفكر غيره؟ هناك شخص واحد كانت تفكر فيه كثيرًا إلى حد ما، شخص تمنت لو كان مختلفًا في بعض النواحي، رغم أنها لم تكن متأكدة بشأن أي من تلك النواحي. لذلك لِمَ تفكر فيه في الأساس، إذا لم يكن هو كما تريده أن يكون؟».

همست لنفسها: «إنه غريب ومتميز جدًا، في غاية الغرابة والتميز. لِمَ يظل التفكير فيه خارجٌ عن إرادتي. ليس الأمر كأنني أريد أن أفكر فيه، فقط لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير فيه».

شعرت بإغراء الانجراف نحو شيء من أحلام اليقظة اللذيذة، ولكنها كبحت نفسها، مستشعرة أمارات الكبرياء في قلبها. قال تيودور إن لديها إحساسًا بتقدير الذات؛ لديها تربية! الشخص الذي ظلَّت تفكر فيه لا يستحق اهتمامها الصادق. لم يكن- كانت قادرة على أن ترى ذلك بوضوح الآن- جادًا، وإلى جانب ذلك، كان أنانيًا، هذا النوع من الأشخاص، الذي يجعل نفسه معروفًا لدى الجميع.

لمست كلمات تيودور وترًا حساسًا، لأنه كانت في شخصيتها سمة لم تكن على وعي بها من قبل، وهي الإحساس بالكبرياء، ليس مجرد الفخر بأصلها الرفيع ولقب عائلتها، لكنه فخرٌ فطري موروث عن أجداد نبلاء، تردد في كل عصب في كيانها. نعم في الواقع، كانت فخورة، لكن ذلك لا يعني القول إنها كانت راضية عن نفسها، بل العكس من ذلك! لا، العكس من ذلك!

ظلت مستيقظة لساعات تحدق في الحوريات وآلهة الحب الباهتة على السقف وماريان بجانبها مستغرقة في النوم، تتنفس بهدوء وبانتظام كطفلة. لمراتٍ لا تُعَدّ ولا تُحْصى سألت نفسها السؤال بلا إجابة: لِمَ تواصل التفكير في پول؟

* * *

شهد صباح اليوم التالي وصول أوتو، الذي كان مقررًا له قضاء أسبوع في

دي هورسه قبل توليه منصبه الجديد كوكيل للعقارات الملكية. كان تعيينه في ضواحي إلتسن، وبالتالي سوف يعيش قريبًا إلى حد ما، الأمر الذي عزّى مدام فان إرليفورت، التي شعرت بأن القُرْب المكاني لبيت دي هورسه السعيد قد يساعده على أن يَنْفُضَ عنه أحزانه.

كان تيودور بالخارج طول النهار ليأخذ أرنولد فان سترالنبورج في جولة بالأراضي، وكانت تروس مشغولة في البيت بينما كان الأطفال يلعبون في الحديقة وحجرة الصالة الرياضية تحت إشراف المربيات. انضم أوتو للسيدات- فان مدام إرليفورت وماتيلدا وسوزان وفريدريك وماريان- في فرندة من الفرندات الفسيحة ذات التعريشة.

سأل: «كيف حال إتيان؟».

ابتسمت مدام فان إرليفورت في ابتهاج.

قالت فريدي: «نهض مبكرًا. صنع ضجة هائلة، وهو يعيد ترتيب الأثاث في حجرته عندما وصل، ليرتب لنفسه حجرة دراسة مناسبة، وهو يعمل على استخدامها على نحو جيد كما ترى».

نهضت ماريان.

أرادت سوزان أن تعرف: «إلى أين أنتِ ذاهبة يا ماريان؟».

قالت: «أنا ذاهبة إلى بقعتي الصغيرة المفضلة في الجزء الخلفي من الحديقة! ياه يا فريدي، المكان رائع جدًا هناك، مليء بزنابق الوادي. لِمَ لا تأتين معي؟ عندئذٍ أستطيع أن أخبرك بكل شيء عن الكتاب الذي أقرؤه، وهو صلاة لكارمن سيلڤا- ياه، أنه رائع!».

غادرت ماريان مع فريدريك بصحبة بعضهما، بعدها خرج أوتو وسوزان للنزهة معًا. لم يريا بعضهما البعض لفترة طويلة، لأن أوتو كان قد ذهب للإقامة مع أقاربه في لندن في الصيف الماضي بدلا من القدوم إلى دي هورسه. وجدته سوزان متغيرًا: بدى أكبر سنًا، ووجهه يشبه قناع حداد هادئ، والذي كشفت فيه

أثرًا للمرارة.

أخذت ذراعه، ودون أن يتكلما تجولا في الطريق، الذي تصطف أشجار البلوط على جانبيه، تظللهما من شمس يوليو الحارقة أوراق الشجر الكثيفة. نشرت نباتات السرخس العملاقة أوراقها المروحية بطول قنوات المياه، التي تتلألأ بأكملها بظلالٍ كألوان المعادن، وزيَّنت بيوت العناكب الرقيقة الشجيرات كخيوط من الزجاج الفضيّ، كما لمحا سريعًا بين الحين والآخر عبر فراغ بين الأشجار تمثالاً أبلته العوامل الجوية على قاعدة، تمثال للربة فلورا أو بومونا مخمليّ الملمس بالطحالب. انتشر نبات صِريمة الجِدي البري حلو الرائحة بطول الأفق، ويلقي ببراعمه المتشابكة في كلّ اتجاه، بينما رفع بقدونس البقرة رؤوسه الممتلئة ذات الزبد الأبيض. سار أوتو وسوزان على مهل. رأيا أمامهما عن بعد هيئة شخصين صغيرين يرتديان ملابس ذات ألوان فاتحة غارقان في الخضرة: فريدريك وماريان، متجهتان إلى زنابق الوادي، ومن ورائهما سمعا دوي الضحك من الأطفال الذين يلعبون ويمرحون على كومة من الرمال في ظلّ البيت الكبير.

قالت سوزان أخيرًا: «كم جميل المكان هنا! أنا سعيدة للغاية أن تيودور يترك للطبيعة حريتها في الحديقة العامة، حتى لو كان ذلك فقط من أجل الاقتصاد. تبدو كأنها غابة! أستطيع أن أتذكر عندما كنت صغيرة كان لدى بابا فوجٌ كامل من البستانية، وكانت الحديقة العامة تبدو دائمًا مرتبة كحديقة، بالبرجولات والمزهريات والتماثيل. والآن كل شيء ينهار- وتحطمت بعض التماثيل أيضًا. ياه، أتذكر تلك المرة، التي تسلقت فيها فوق تمثال تلك الحورية هناك؟ لقد كسرت ذراعها، أتذكر؟».

قال أوتو: «نعم أذكر».

«كان بابا غاضبًا للغاية! أرسلك إلى حجرتك ووضع لك الخبز والماء كعقاب لمدة ثلاثة أيام كاملة، أتذكر؟».

قال أوتو وهو يبتسم: «نعم أذكر».

«وأنت رفضت أن تطلب العفو من بابا للرد عليه عندما وبخك، بعد ذلك أصرت ماما أن عليك الاعتذار بأي حال. أتذكر؟».

ضغط على ذراعها بلطف ردًا عليها، متأثرًا لدرجة البكاء تقريبًا. استدعت ذكرى ذلك الصيف في صباه سلسلة كاملة من الذكريات مع صيف آخر، والذي كان يتمشى فيه في نفس هذه الحديقة العامة ليس مع سوزان، لكن مع ...

قالت سوزان فجأة: «أقول لك يا أوتو! ألا تشعر بالحنين للاهاي، وأنت تعيش وحدك في إلتسن؟».

صاح بإحساس: «أوه لا! مطلقًا! ليس لدي الرغبة للعيش في لاهاي».

اختلست النظر إليه، وأجفلت من انفعاله.

أضاف قائلاً: «الحياة في الريف تجذبني، كما أتطلع إلى وظيفتي الجديدة».

سألت بهدوء: «هل هناك أي سبب معين لرغبتك في مغادرة لاهاي؟».

«سبب معين؟ لا، لا شيء مطلقًا».

جلس على أحد مقاعد الحديقة العامة، لكنها بقيت واقفة، تقطف دون وعي أغصان شجيرة صَريمة الجَدي المزهرة المتدلية بينما تحاول أن تجد الكلمات لتواصل حديثها.

تلعثمت: «أوه، أوتو، ليس ذلك بسبب- بسبب -؟».

تطلع إلى الأمام مباشرة للحظة، ثم أجاب بصوت بطيء وفاتر: «عزيزتي سوزان، ما الذي تفكرين فيه؟ أنني أريد مغادرة لاهاي بسبب إيلينه؟».

«نعم»، قالتها على استحياء. جلست بجانبه، وبدأت تنسيق الأزهار في هيئة باقة.

«أختي العزيزة»، استأنف كلامه، وبدا كأنه يسرد ردًا تدرب على إلقائه من قبل، «ما الذي أعطاكِ تلك الفكرة؟ هل تعتقدين حقًا أن رجلاً سيقضي

بقية حياته ينعى فتاة تراجعت في كلمتها؟ بالطبع شعرت بالأسف في البداية، وكنت حزينًا أيضًا، لكني أؤكد لكِ أن كل شيء انتهى الآن. لقد انتهى الأمر معها تمامًا... ما إن يتوقف المرء عن رؤية الشخص الآخر، يتوقف تدريجيًا عن التفكير فيهم، وبمرور الوقت ننسى. القلب المكسور لم يقتل أحدًا في الحياة الواقعية، وإلى جانب ذلك، قلب الرجل لا يُكْسَر بسهولة كما قد تعتقدين: لدى الرجال عمل لا بد من القيام به، وتجارة ليهتموا بها، وتمضي الحياة ببساطة، لتترك لهم القليل من الوقت للتفكير في خسائرهم، حتى وإن رغبوا في ذلك. الأمر مختلف مع النساء على ما أظن؛ اللاتي يستسلمن لمشاعرهن بسهولة أكبر، أليس كذلك؟».

نهض واقفًا كأنه في حلم، وتبعته.

قالت بقليل من اقتناع: «نعم، أعتقد بأنهم كذلك».

واصل كلامه بنفس النغمة الفاترة: «نحن ننسى، وذلك يحدث بسهولة، وبمرور الوقت، نلتقي بإنسانة أخرى، إنسانة يمكننا أن نحبها، والتي سوف تسعدنا. يحدث ذلك طول الوقت. تلك هي الحياة».

قالت: «نعم، أعتقد بأنها كذلك»، وتذكر شيئًا كانت إيلينه قد قالته في رسالتها: «بعد ذلك ستجد الفتاة التي تستحقك، والتي سوف تسعدك».

«لذلك لا يذهب تفكيركِ إلى أنني متعلق بالحب الرومانسي!»، أنهى كلامه بابتسامة متوترة. «لستُ يائسًا إلى ذلك الحد كما تعلمين».

لاذ بالصمت، بعدما أحزنه رده. كان مثل ماتيلدا، لديه من الكبرياء ما يمنعه من مشاركة حزنه وأساه مع أي شخص، مُفَضّلاً الحفاظ على شيء من الهدوء والاتزان الخارجي المتواضع. لم تجعله يلاحظ أنها لم تنخدع بادعائه، وتمشيا لفترة من الوقت، لم يتكلما خلالها إلا قليلاً، وفجأة سمعا صوت ثرثرة مفعمة بالحيوية من بعيدٍ بعض الشيء. كانت ماريان، مستلقية في استرخاء بين زنابق الوادي، وتحكي قصة رواية صلاة لفريدريك.

«إنها قصة ميلودرامية إلى حد ما، لكنها جميلة جدًا ومؤثرة جدًا! كما ترين، كان راؤول يقوم بالكفارة عن أمه، التي ارتكبت الكثير من الذنوب والخطايا على ما يبدو، رغم أنني لا أستطيع أن أتصور أن بإمكانها أن تعمل أي عمل شرير بحق. دخل الكهنوت وعاقب نفسه. لم يغمض لي جفن بعدما قرأت الجزء الخاص به وهو يبارك زواج راسيللو وإيديتا. كانت إيديتا رقيقة القلب للغاية وفاتنة، وكان راؤول يحبها دائمًا. إلا أن برتالدا كانت عاطفية بصورة لا يصدقها عقل، ياه، بصورة مبالغ فيها! على أي حال، وكما قلت لكِ، وضعت برتالدا السم على رقاقة البسكوت، وهكذا، عندما أعطي راؤول إيديتا رقاقة البسكوت انهارت، وبدلاً من تكرار وعود الزواج، صاحت عاليًا «راؤول!» وماتت. حزينة، أليس كذلك؟ لم أستطع التوقف عن البكاء! قامت برتالدا بالكفارة أيضًا؛ لتدخل الدير، أحد الأديرة تحت الأرض لا تدخله أشعة الشمس أبدًا، ويشيب شعر راؤول بين عشية وضحاها».

مضى أوتو وسوزان اللذان كانا يختبئان وراء بعض الأشجار للاستماع في الخفاء في طريقهما مجددًا.

«انظري إلى شَعْري يا سوزان!»، قال أوتو بالابتسامة المتوترة نفسها: «لم يَشِبْ بين عشية وضحاها! لستُ أشبه راؤول في أي شيء كما ترين!».

لم تقل شيئًا، حاولت أن تبتسم بينما تتعلق بذراعه، وتؤرجح باقة أزهار صَريمة الجَدي بيدها الحرة، ولإنهاء الصمت دندنت لحنًا.

***

في دي هورسه سارت الحياة بوتيرة مطردة وبطيئة. كان أوتو قد رحل لإلتسن، بينما كان إتيان دؤوبًا للغاية، حيث ينطلق مباشرة بعد الإفطار للدراسة في حجرته بالطابق العلوي، ويختفي مرة أخرى بعد الغداء لمزيد من العمل، وفي المساء ينضم إلى بقية الصحبة من أجل بعض التسلية، كالقفز كالضفدع على فان سترالنبورج وكيل اللكمات الوهمية له، لكن عندما يأوي الجميع إلى

الفراش يعود إلى مكتبه ليدرس لبضع ساعات أكثر. صار لديه هوسٌ حقيقي بكتبه في رأي مدام فان إرليفورت، ولا يبدو أنه يرتدع بأي نظرات قلقة أو شكاوى بشأن امتقاع لونه منها أو من أي شخص آخر.

في يوم ما تلقى إتيان رسالة من پول، تخبره بأنه يخطط لزيارة دي هورسه في المستقبل القريب، وبعد ذلك سيتوجه إلى ألمانيا أو إيطاليا في جولة سياحية موسعة. رد تيودور متهكمًا على هذا الخبر، خوفًا من أن پول سيُغري إتيان بعيدًا عن كتبه، بل ومحاولة إقناعه بمرافقته في رحلاته. إلا أن مدام فان إرليفورت كانت مسرورة جدًا، لأنها اعتقدت بأن وجود پول سيعود على إتيان بالخير الكثير- فالصبي كان يدرس في غاية الجِدّ، كل تلك الدراسة المتحمسة من شأنها أن تمرضه.

ابتسمت فريدريك ابتسامة زاهية عندما سمعت بزيارة پول المرتقبة، لكنها لم تقل شيئًا، وابتسمت نفس الابتسامة الزاهية عندما تفحصت انعكاس صورتها الوردية في المرآة صباح وصوله. بعينيها البنيتيْن اللامعتيْن كالأحجار الكريمة الداكنة، وشعرها الكستنائي الكثيف الملتف كالحرير حول رقبتها البيضاء كالحليب، لم تستطع مقاومة التفكير في كم بدت جميلة، وهي ترتدي فستانها القطني الوردي البسيط، رشيقة وقوية، تبتسم بتلك الطريقة الملكية السخية. نعم في الواقع، كانت مبتهجة جدًا!

أكان ذلك بسبب الشمس، التي أضاءت عينيها والوهج بلون الخوخ على خديها؟ أم كان لأن الشخص، الذي لا تستطيع التوقف عن التفكير فيه كان على وشك الوصول؟ وبينما تفقدت مظهرها، تائهة في تخمين السبب، نسيت شعورها بالكبرياء، نسيت كل شيء عن رغبتها في أن يكون پول مختلفًا في أمور معينة؛ وجدت نفسها تنجرف فوق موجة من العاطفة، التي عجزت عن مقاومتها، وشعرت بسعادة غامرة لضعفها أمام فوران العاطفة الجليل، الذي يغزو روحها.

وصل، وعندما صافحته تملكها إحساس بأنها لم تره من قبل. كم كان

طويلاً، وكم كان وسيمًا، بعينيه المرحتين بلونهما الرمادي المائل إلى الزرقة، وشاربه الكث وأسنانه البيضاء! كم كانت ضحكته معدية وحماسية وحافلة، وساحرًا للغاية! ردَّت على ضحكته بضحكتها، وتبادلت معه بعض كلمات المزاح والمداعبة، وأدهشتها طريقته نحوها: لم تكن بأي شكلٍ الطريقة التي كان يضحك بها ويمزح مع فرانسواز أو آنجه أو ليوني أو مع أيٍ من الفتيات الأخريات في ذلك الأمر. كانت ثمة حميمية رقيقة في نظرته، كما كانت في نبرة صوته، والتي قد اختفى منها كلّ أثرٍ للتشاؤم الساخر أو الجرأة الوقحة.

أكان هواء الريف هو ما جعله يبدو جذابًا جدًا، نضر الوجه وصادقًا جدًا؟ كان تيودور مسرورًا على أي حال لرؤية پول في مثل هذه الحالة الجيدة، وعلى الفور ضغط عليه للإقامة معهم لبضعة أيام، بشرط ألا يَصْرِف إتيان كثيرًا عن كتبه. تعهد پول رسميًا وقَبِلَ الدعوة بامتنان، وعندما اجتمعوا جميعًا في الفراندة للاستمتاع بنبيذ مايو الخفيف، لم تستطع فريدريك أن تمنع نفسها من ملاحظة مدى لفته لانتباه الجميع. لا، لم يكن حتى نصف مغرور وتافه كما كانت تظن، وهى- حسنٌ، قد وجدته جذابًا جدًا، على أقل تقدير.

كان مساءً صافيًا ومرصعًا بالنجوم، ودعاهم القارب في البحيرة. أخذ پول وأرنولد فان سترالنبورج المجاذيف، كما مازحت ماريان وإتيان بعضهما، ودندنت فريدي، التي كانت تُمسك بالدفة أغنية سَرَت بهدوء فوق الماء في الغسق البنفسجي، وفجأة انطلق پول يغني جزءًا انتزعه من الثنائي، الذي كان يغنيه مع إيلينه.

آه، تعالي، فالليل جميل!

تعالي، فالسماء زرقاء!

ابتهجت فريدي لسماعه يغني. كان المشهد في غاية البساطة ومألوفًا بصورة مبهجة للغاية: أغنية پول، والبحيرة، التي كانا ينجرفان فوقها، والفراندة المضاءة وبها ماما وماتيلدا وسوزان وتيودور يجلسون معًا، وتجمع الأشجار الخضراء الداكنة، التي تلوح في الأفق والنجوم المتلألئة فوقهم. كم كان غريبًا أنها لم

تدرك أبدًا كم كان كل ذلك شاعريًا! واختتم پول أغنيته الشبيهة بأغاني قوارب البندقية في مقام C عالي ورقيق لمدة طويلة بصوتٍ عالي الطبقة، وتخيلت أنها سمعت العنادب في الهواء المعطر بالياسمين، كاهتزاز فضيّ في قلبها.

***

تساءلت كيف انسجم مع ماريان. لماريان وجه جميل وعينان معبرتان وسلوك جريء به قليلٌ من دلال، لكنه لم يبدِ أي ميل لمغازلتها، وهو ما أدهش فريدريك وأرضاها على حد سواء.

إلا أنها منذ ذلك اليوم الأول استعادت نفسها. اعتقدت بأنها صارت متسامحة للغاية؛ لقد رأته بالطريقة، التي كانت تود أن تراه عليها، والتي ربما كانت الطريقة، التي تصادف أنه كان عليها مؤقتًا بسبب شيء من صدفة غير عادية، لكن هل نسيت إذن ما كان عليه حاله في لاهاي، وهو يحاول إرضاء جميع تلك الفتيات، وغير مراعٍ لأمه، ويتسكع مع أولئك الأصدقاء المزعومين الذين لم يكونوا سوى متطفلينٍ؟ بأي لمسة سحرية استطاع أن يكفَّ عن كونه تافهًا ومغرورًا وأنانيًا وضعيفًا؟

أيّا كان الحال، وابتعد عن كل الفتيات، وبعيدًا عن أمه وعن أصدقائه، فقد ترك انطباعًا أفضل بلا ريب. وأخذت على نفسها عهدًا بألا تعبّر عن أي انتقاد قد يكون لديها، لئلا ينفر منها نفورًا دائمًا، ولن يكون من الصعب عليها الالتزام بالعهد، لأن پول يجعل الأمور سهلة بشكل ملحوظ: في الوقت الحالي لم يعطها سببًا لانتقادات من أي نوع.

أمطرت السماء لعدة أيام، وكان الصباح صافيًا، مع إشراق السماء المغسول جيدًا. أسرج كلاس حصانيّ الركوب، كان أحدهما فرسًا أسمر مائلاً للحمرة، وكان للآخر، المزود بسرج جانبي غُرّة أسفل جبهته. كان پول يتفقد معدات الخيول عندما طلعت فريدي من الشرفة ببطانة ملابس ركوبها فوق ذراعها وقبعة صغيرة بوشاح أبيض على رأسها. زرَّرَت قفازاتها وابتسمت.

قال پول، وقد حوّل وجهه نحوها: «كله تمام!».

وضع يده تحت رِجْل فريدي لتمتطي حصانها ذي الغُرّة، وبمجرد جلوسها، مالت إلى الأمام لتربّت على رقبته اللامعة. امتطى پول الحصان الأسمر المائل للحمرة وسارا معًا على مهلٍ تحت مراقبة كلاس، الذي رآهما زوجًا وسيم المظهر، كلاهما سليم الصحة وقوي، مشرق العينين ورديّ الخدين. لاحظ أن فريدي جلست مستقيمة الظهر تمامًا على السرج الجانبي، ونظر إلى رفيقها باعتباره شابًا ضخم الجسم. كان يؤيد الرجال ذوي الجسم الضخم.

ركب پول وفريدي الخيل إلى واجهة البيت الكبير، وهما يدردشان في سعادة.

نادى صوت من أعلى: «أهلاً هناك! إلى أين أنتما ذاهبان؟».

لما نظرا لأعلى، شاهدا إتيان يميل من نافذته بالطابق العلوي، لا يبدو مهندمًا إلى حد ما وهو يرتدي قميصه بلا معطف وشعره أشعث، الأمر، الذي أضحك فريدي.

سألهما إتيان، بلمحة من حسد في نبرته، «حسنٌ، أنتما الاثنان! إلى أين أنتما ذاهبان؟».

«لم نقرر بعد!».

«لِمَ ليست ماريان معكما؟»

«قالت ماريان إنها سوف تسعد جدًا لقراءة رواية كارمن سيلڤا صلاة من جديد! ألا تثق بنا؟».

«حسنٌ، نعم، لكن أكان يجب عليكما أن تمرّا تحت نافذتي؟ ألم يكن من الممكن أن تتخذا طريقًا آخر؟».

صاح پول بلا رحمة: «أنت آخر شخص كنا نفكر فيه!».

غمغم إتيان: «لست مندهشًا! أنتما لا تفكران في أي أحد إلا أنفسكما، تخرجان في ركوبة لطيفة، بينما أنا محبوس في البيت مع كتبي. حسنٌ، حظًا

سيئًا لكلٍّ منكما، أيتها المخلوقات بلا قلب!».

«ميرسى كتير، يا أخي المحب للخير!»، هتفت فريدي، وهى تلوح بسوطها في اتجاهه. «خذ هذه ونأمل أن تكون أكثر تعاطفًا نحونا عندما نعود. أوريڤوار!».

«استمتع بكتبك! أوريڤوار!»، ردَّ پول، وبذلك ابتعدا بحصانهما على مهل، في الطريق الطويل، الذي تصطف أشجار البلوط على جانبيه، ولدى وصولهما إلى ممر الريف الضيق، حيث لَفَّت أشعة الشمس المتوهجة الشوفان والشعير باللون الذهبي على الجانبين، حملا حصانيهما على الركض.

اقترحت فريدي: «لِمَ لا نذهب إلى الجوف الأبيض؟ يمكننا أن نسلك الطريق الطويل، ونتجول ركوبًا خلال غابة الصنوبر».

قال پول: «نعم، لنفعل ذلك».

شدّا لجام حصانيهما لمّا اقتربا من المزرعة ومبانيها، والتي وقفت في ظلّ بعض أشجار الكستناء. قفزت كلاب المُزارع لما تعرفت عليهما وركضت نحو أطراف سلاسلهما لتنبح بحماس، عندها خرجت زوجة المزارع عند الباب للتلويح لهما، ثم دخلا الغابة وراءها، وأراحهما استبدال أشعة الشمس الحارقة بالظلّ الأخضر الداكن البارد، حيث بدا صوت حوافر الخيول مكتومًا فوق سجادة إبر أشجار الصنوبر.

كانت هذه المرة الأولى منذ وصول پول إلى دي هورسه، التي وجدت فيها فريدي نفسها وحدها معه، شعرت بتوتر غريب، كما لو كانت هذه هى المرة الأولى أساسًا، إلا أنها كثيرًا ما ذهبت للركوب معه في فصول صيف سابقة، وكانت هناك أيضًا الكثير من المناسبات في الماضي عندما كانا وحدهما معًا، يتحدثان في خصوصية تامة. فلِمَ لا تكاد تجرؤ على النظر إليه، كما لو كانت خائفة مما قد يكشفه مظهره؟

استجمعت شجاعتها، ونظرت في عينيه بينما كانا يتجاذبان أطراف

الحديث. لن تسمح لنفسها بأن تسيطر عليها انفعالات عاطفية؛ سوف تبين له أنها نفس الفتاة، التي كان عليها دائمًا، إنسانة ليس لديها هواجس حول البوح بما يدور في عقلها. لن تقول أي شيء ضده إذا استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لكنها أيضًا لن تجفل عن نظرته الرمادية المائلة للزرقة- سيكون ذلك كثيرًا جدًا!

لمع بريق تحدٍ في عينيها عندما جالت برأسها تلك الفكرة، لكن ماذا كان هنالك لتتحداه؟ لم يكن متهكمًا ولا وقحًا، ولم يكن متفاخرًا بأهميته أيضًا، بل كان بالفعل يتحدث بتسامح ملحوظ عن كل أنواع الناس، الذين عرفت أنه يستخف بهم في مناسبات سابقة.

قال: «خذي مثلاً جورج ولي لي»، وأدهشتها نبرة صوته الودودة وهو ينطق هذين الاسمين. «من الظريف جدًا رؤيتهما معًا! إنهما مستغرقان تمامًا في بعضهما البعض لدرجة أنهما لا يبصران أي شيء مما يدور في العالم. يعتقدان بأن كل شيء يدور حولهما! وليس الأمر أنهما متعجرفان، بل هما مجرد ساذجان! حاولي أن تخبريهما بأنهما ليسا الوحيديْن في العالم، اللذين يحبان بعضهما بجنون ليهزّا رأسيهما من عدم التصديق. إنهما آدم وحواء من جديد- كل شيء يبدأ منهما».

ابتسمت فريدريك، تأثرت لطرافة كلامه.

استطرد پول: «أعتقد بأنهما مبهجان جدًا معًا، لكن عليكِ أن تعترفي بأنهما سطحيان إلى حد ما، عندما نواجه الحقيقة بصراحة. كلاهما لا يملك الكثير من العمق بحق. نعم، جورج شاب عاقل وطيب، لكن بغض النظر عن ذلك».

قالت في تأمل: «طيب وعاقل! حسنٌ، هذه بداية بأي حال».

«نعم هى كذلك، لكني لا أعتقد بأن جورج وجد نفسه من قبل يواجه أي نوع من أنواع الصراع النفسي. إلى الآن حياته مسار سلس، وهو ما سيكون الحال دائمًا بالنسبة له».

سألت غير جادة: «حسنٌ، ماذا عنك؟ هل واجهت صراعات نفسية؟».

أجاب: «أكثر من جورج! كنت أظن أنني فنان، لكنني اكتشفت بعدها أنني لم أكن فنانًا. واستلزم الأمر صراعًا كبيرًا لكي تعترف لنفسك بأنك أخطأت ذلك النوع من الخطأ، ألا ترين؟».

«نعم أرى، وأتصور أنه لا بد أن أخذ منك الكثير من الطاقة أيضًا».

بدا تعليقها ساخرًا شيئًا ما، وأسفت على الفور لذلك. لِمَ تُلْمِح إلى فشله في تحقيق طموحه الفني إذا كان يفتقر إلى العبقرية بأي حال؟ لكن يبدو أنه لم يسمع.

استطرد: «أتعرفين ما الذي أجده غريبًا جدًا؟ أن جورج ولي لي عرفا أنهما خُلِقا لبعضهما البعض تقريبًا منذ اللحظة، التي التقيا فيها للمرة الأولى، وبعدها هناك كل أولئك الآخرين الذين يعرفون بعضهم منذ سنين ولا يفكرون في ذلك مطلقًا، إلى أن يأتي يوم ما يستيقظون فيه، وبعدها- يرون النور-».

كان يمكنها أن تشعر بقلبها ينبض والدم يرتفاع إلى وجنتيها. ظلت محنية رأسها لإخفاء احمرار لونها، تظاهرت بالتركيز العميق، وهى تملّس على ثنايا ملابس ركوبها بسوطها.

سألها: «ألا توافقينني؟».

تلعثمت: «أنا- أنا لا أعرف. لم أفكر أبدًا في ذلك حقًا».

لم يتحدثا للحظة.

تمتمت بعد فترة طويلة، وهى ترمش بعينيها، «كم الجو حار هنا تحت الأشجار! بالكاد أستطيع التنفس! لنأخذ هذه الاستدارة، ممكن؟ سوف تعيدنا مرة أخرى إلى الطريق، ثم بوسعنا أن نعدو بالخيول عدوًا لطيفًا إلى الجوف الأبيض».

شعرت بشعور غريب جًدا- هى، التي لم تعانِ أبدًا من الحرارة، يغالبها إحساس بالدوار؛ شعرت بالاختناق بسبب بودي رداء ركوبها الضيق، وبدأت يداها التي تُمسك باللجام ترتجف. انحرفت بنظرها الكليل إلى الممر الضيق

المكسو بالعشب ونخست حصانها. سمعت صيحة تحذير من پول، وقبل أن تعرف سقطت قبعتها من فوق رأسها وانجذب شعرها بعنف، مما سبب ألمًا شديدًا في فروة رأسها.

صاحت عاليًا: «آآي»، وهي توقف حصانها، الذي توقف مرتعشًا.

لم تلاحظ فرع شجرة الصنوبر الممتد عبر الممر؛ خُدِشَ جبينها والآن اشتبك شعرها بغصن الشجرة. مالت إلى الوراء لتجنب جذبه أكثر من ذلك.

بكت في أنين: «آه! آه!».

ركب پول بجانبها، وأخذ لجامها، وربَّت على كلا الحصانين أعلى كاهلهما.

قال في أسف: «حاولت أن أحذركِ بشأن تلك الشجرة! هنا، اتكئي على كتفي، وأنا سوف أفك شعرك».

طرح سوطه جانبًا، وخلع قفازاته وشرع بعناية في تحرير خصلات شعرها البنية الداكنة المتشابكة، وهو ينثر دبابيس شعرها في تلك الأثناء.

سأل: «هل تؤلمكِ؟».

«نعم»، وهي تئن: «آآي، آآي!».

«أهذا أفضل؟».

«نعم- آه، نعم- هذا أفضل».

حاول أن يكون ماهرًا قدر المستطاع، وأنستها رقة حركاته الألم. وعندما انتهى أخيرًا ظلَّت متكئة على كتفه، وحصاناهما يرتعشان جنبًا إلى جنب. سحرتها ابتسامته، والتي ذكرتها بإلهٍ شاب جميل للغاية. أغلقت عينيها، وتلاشى كل شيء ...

فجأة صارت واعية بأنفاسه قرب وجهها، ثم شعرت بضغط شفتيه الساخن على شفتيها. جلست مستقيمة وحدقت فيه بعينين تومضان كالبرق، كما لو أنها

تعرضت لصدمة كهربائية.

صاحت: «پول!».

كانت في حيرة فيما ينبغي أن تقول أو تفعل. ظلَّ ينظر إلى عينيها، بنصف خجل ونصف تضرع، لا يزال يبتسم تلك الابتسامة الفاتنة. بعدها، ودون سابق إنذار، ترجلت من فوق حصانها واستعادت قبعتها وارتدتها بعجلة على شعرها المنكوش والتقطت سوطها واستدارت على السرج، وشبَّ حصانها عاليًا وانطلق مسرعًا في الممر الضيق، تحت أغصان الصنوبر المتدلية.

اندفعت قُدُمًا دون أن تنظر وراءها مرة واحدة، يملؤها الغضب العاجز، كما لو أن قُبْلَته لدغتها كلدغ النحل. ولما استدارت إلى الطريق الريفي، نخست حصانها ليركض أسرع، وظلَّت تعدو مندفعة وسط حقولٍ بلون الذهب المصقول، يطير شعرها ووشاحها الأبيض وراء ظهرها، وترفرف تنورتها بعنف، لدرجة توقف عمال المزرعة مؤقتًا عن عملهم للتحديق فيها. تمالكت نفسها تدريجيًا؛ وأضحت يداها ثابتتيْن مرة أخرى، وأبطأت الحصان ليركض الخبب، وهي تقطع غابة البلوط. ترجلت عند الجوف الرملي، وربطت الحصان في شجيرة زان، وبعدما رفعت بطانة ردائها بيد واحدة، شقت طريقها لأسفل المنحدر. تحركت الرمال تحت وطأة قدمها، لتُشَكِّل موجات صغيرة أدت إلى تعرية جذور الأشجار فوق طبقة من التراب المحمر. توقفت عند أعمق نقطة وبقيت في سكون تام للحظة، وعيناها مغلقتان. بعدئذٍ تنهدت، وألقت بقبعتها بعيدًا واستقرت على الأرض الظليلة الباردة. دفنت وجهها في ذراعيها، وبدأت تبكي في هدوء.

لقد صدمتها قُبلة پول، كانت منزعجة من نفسها لأنها هربت بدلاً من تعنيفه على وقاحته. بطبيعة الحال، لم تكن هذه المرة الأولى، التي يطاردها فيها في مرح ويسرق قُبْلة، لكنهما كانا مجرد أطفال وقتذاك- حسنٌ، كانت طفلة بأي حال. كانت هذه المرة مختلفة؛ كان ثمة إلحاح دافئ في قُبْلَته، إحساسٌ كان جديدًا عليها، ومخيفًا أيضًا. لماذا، لماذا فعل ذلك؟ لقد قَلَبَت تلك القُبْلة كل

شيء رأسًا على عقب، وألقت ما كانت تعتقد بأنها صداقة وليدة ولطيفة في حيرة وارتباك تام.

وسط كربها المخضب بالدموع لم تسمع صوت الحوافر المكتوم الخافت يتردد في الرمال أثناء انطلاق پول بالحصان إلى حافة الجوف الأبيض حيث ترجّل. وبعدما ربط حصانه مع حصانها، شق طريقه نزولاً إلى حيث تستلقي ونادي اسمها بلطف.

نهضت وحدقت فيه من خلال دموعها. كان راكعًا أمامها بتعبير فتّان ومغرم للغاية في عينيه لدرجة أنها شعرت بأن غضبها بدأ يتراجع.

سألها بلطف: «لِمَ اندفعتِ تركضين بعيدًا هكذا؟ هل أغضبتكِ؟ أكان ذلك خطأ كبيرًا مني؟».

صرخت: «نعم كان بالتأكيد!»، تكذب نبرتها الحازمة رعشة اللذة التي شعرت بها عندما تتذكر شفتيّ پول، التي تصيب بالدُّوار. «لم أُعْطِك الإذن أبدًا بتقبيلي! أبدًا!».

انتظرت رده. كان سيذكّرها ولا شك بتلك القبلات المرحة في فصول الصيف الماضية، والتي لم يُعْطَ الإذن لها أيضًا، لكنه لم يقل شيئًا. أيمكن أن يعني ذلك أن القُبْلة كانت مختلفة بالنسبة له أيضًا؟ أخفت وجهها بين ذراعيها مرة أخرى.

«ماذا لو طلبت إذنكِ يا فريدي؟ ماذا لو طلبت إذنكِ الآن، لأنني أردت ذلك منذ وقت طويل؟ أخبريني، أيكون ذلك خطأ كبيرًا مني؟».

همست بصوتٍ غير مسموع تقريبًا: «لا أعرف ماذا تقصد».

«ألا تفهمين ما أقوله؟ أنا أحبكِ، وأسألكِ عما إذا كنتِ تحبينني بما يكفي لتكوني زوجتي!».

بوجهٍ محمرٍ خجلاً، وشفاه مرتعشة، شعرت بقلبها يذوب في نشوة خفية لفكرة الارتماء في أحضانه والاستسلام له دون قيد أو شرط، لكن في اللحظة

التالية رفع كبرياؤها، الذي لا يُقهر رأسه النبيل، ليمزق العصابة عن عينيها، وفي لحظة رأته كما كانت تراه في لاهاي: أناني وتافه ومغرور.

«أنت لا تعني ذلك يا پول!»، أجابت بضبط نفس بارد كالثلج، وشرعت بهدوء في لفّ خصلات شعرها المتهدلة في هيئة شنيون.

ردد عبارتها، ورمقها بنظرة فاحصة ومتألمة، «أنا لا أعني ذلك؟».

قالت: «قد تعتقد أنك تعني ما تقول»، وبعد ذلك، استطردت باقتناع أكبر: «لكنك مخطئ، أنت تتخيل فقط أن لديك مشاعر تجاهي- ليس لذلك أي علاقة بالحب. سوف تشعر بنفس الشيء بالضبط تجاه إنسانة أخرى غدًا، تجاه ليوني إيخوف، مثلاً، أو فرانسواز أودندايك والله أعلم تجاه مَنْ أيضًا في اليوم التالي. لو لم أكن أرتدي ملابس ركوبي- والتي أجرؤ على القول إنها ملائمة جدًا لي- لم دخل في رأسك أن تطلب مني شيئًا سخيفًا كهذا».

لم يسمعها أبدًا تتحدث بمثل هذه النبرة الحادة والمتهكمة. للحظة لم يكن متأكدًا مما عليه أن يرد به، لكن سخطه غَلَب عليه: «هل فكرتِ من قبل يا فريدي أن الأشياء، التي تقولينها قد تكون جارحة؟».

أجابت، وهي تجاهد لإبقاء مشاعرها الحنونة بعيدًا، «أنا آسفة إذا كان الأمر كذلك يا پول، لكن ليس لدي أي شك في أنك تستطيع أن تفهم لِمَ شعرت بالإساءة من تلك القُبْلة، التي أعطيتني إياها».

«أقصد أن أطلب منكِ أن تتزوجيني قبل أن أُقَبِّلَك يا فريدي! إذن هذه هي الإجابة الوحيدة التي أحصل عليها؟».

توقفت، تغالب دموعها.

«هذا كل ما لدي لأقوله يا پول. صدقني، أنا أعرفك ربما أفضل مما تعرف نفسك. أنت لا تحبني بالطريقة التي أتمنى أن يحبني بها الرجل الذي سأتزوجه. أعرف أنك معجب بي. بل وقد تعتقد أنك وقعت في غرامي، لكنك تحب نفسك أكثر من أن تهتم كثيرًا بأي شخص آخر».

قال بمرارة، وزَمَّ شفتيه تحت الشارب الأشقر، «كم تعرفينني جيدًا!».

قالت، وهي تمد يدها في تردد: «لكن لنظلَّ أصدقاء! لن نكون سعداء معًا، ويومًا سوف تشكرني على عدم موافقتي على- على عرضك للزواج».

لكنه لم يأخذ اليد الممدودة نحوه، وسحبت يدها.

«آه نعم، كم تعرفينني جيدًا!»، كررها في تشاؤم ساخر. «لم أكن أدري أن شخصيتي كانت موضع دراستك، في الواقع، لم أكن أدري أنني قد أُعَدُّ مستحقًا لهذا الاهتمام الجاد».

«لا يحتاج الأمر إلى الكثير من الدراسة لسبر غورك، كما تعلم!»، قالت بنبرة صوت عالية تقترب من الفظاظة. «على كل حال، بالنسبة لإنسانة مثلي، والتي شهدت الطريقة، التي تتصرف بها مع البنات في شلتنا، من المستحيل أن آخذ أي تصريح بالحب من جانبك على الإطلاق على محمل الجد».

'هل تعتقدين حقًا أنني كنت أغازل كل أولئك الفتيات؟ كنت أتمنى لو كان بمقدوركِ معرفة الفرق بين المرح البريء والنية الجادة. على أي حال، لم أكن أعلم أن من الخطيئة أن أكون ظريفًا ومرحًا».

«ذلك النوع من المرح والظُرْف ينبغي أن يكون تحت سيطرتك يا پول، وأود أن أُذَكِّرك بأن بعض الناس أكثر تأثرًا من غيرهم فيما يتعلق بالمجاملات غير الحكيمة».

ها هي ذي، تعظ مرة أخرى؛ وكرهت نفسها لذلك، لكن وخزة الغيرة دفعتها بأن تبوح بما في عقلها.

قال بضحكة متكلفة: «هل تتهمينني بأنني محطم القلوب؟ صدقيني يا فريدي، أنتِ مخطئة. تلك الفتيات لَسْنَ ساذجات كما تعلمين؛ بل قادرات تمامًا على التمييز بيني وأنا جاد أو فقط أمرح وألهو. يبدو أنكِ لستِ قادرة على التمييز. وأستطيع أن أؤكد لكِ أنه لو كانت نواياي تجاه أي منهن جادة بأي شكل من الأشكال، لكان سلوكي مختلفًا تمامًا».

كان في صوته حدة غير ودودة، مما أخافها تقريبًا، والتزمت الصمت.

تابع في لهجة ألطف: «لكنكِ قلتِ لتوكِ أنكِ لن تستطيعي أن تأخذيني على محمل الجد عندما قلت أنني أحبكِ. لذلك أخبريني بصراحة يا فريدي، ماذا عليّ أن أفعل لأجعلكِ تصدقينني؟».

كانت مرتبكة إلى حد كبير، وهو ما لم يَفُت انتباهه.

حثها: «هيا يا فريدي، من فضلكِ أخبريني!».

قالت وهي تستعيد نفسها: «إذا صدقتك يا پول، فسوف أشعر بالكثير من الأسف من أجلك. كما هو الحال، أعتقد بأنك لن تأخذ وقتًا لتجاوز إحباطاتك، ولذلك أود حقًا أن نظلَّ أصدقاء. ليست هناك حاجة لأيّ منا لأن يعاني من مشاعر سلبية ببساطة لأن فكرة التقدم لي سيطرت عليك وأنا لم آخذك على محمل الجد. وأنا لست ساذجة أيضًا، كما تعلم».

لم يقل شيئًا، وقد قهره ازدراؤها، غاضبٌ داخليًا لطريقتها الرافضة. وببطء نهض واقفًا.

قال بهدوء: «حسنٌ جدًا إذن. فليكن».

أخذ سوطه ونَفَضَ الرمال عن ساقيّ بنطلون ركوبه المخملي، ثم نظر في ساعته.

سألها، وكأن شيئًا لم يحدث: «آه، الساعة الثانية عشرة ظهرًا تقريبًا. ينبغي علينا أن نعود، ألا تظنين ذلك؟».

أجابت: «نعم، ينبغي علينا أن نعود».

نهضت واقفة أيضًا، ارتدت قبعتها وضبطت وشاحها، ثم نشرت بطانتها وعدلتها فوق ذراعها قبل صعود المنحدر الرملي.

عرض عليها ببرود: «ممكن تأخذي ذراعي؟».

قالت: «لا شكرًا، أنا تمام».

في القمة فكّ الخيول وبصمت ساعدها في الركوب.

قالت: «ميرسي».

انطلقا راكبين جنبًا إلى جنب، لكنه ما لبث أن نخس حصانه ليسير أسرع، بحيث صار أمامها، وفي نهاية الغابة أخذا الممر الريفي، حيث سرَّع وتيرة سيره أكثر. لحقته على بُعْدِ مسافة ما في شمس الظهيرة الحارقة، وعيناها مثبتتان على ظهره، وعقلها يملؤه القلق والفزع. اعتراها إحساس كئيب بعدم الرضا، وخشيت أنها ربما أخطأت في رد فعلها كما فعلت، خشيت أن انتصار كبريائها العائلي واحترامها لذاتها ربما قد تحقق بثمنٍ غالٍ جدًا.

عندما وصل پول لبوابة دي هورسه الحديدية أوقف حصانه وانتظرها لتلحق به، وبعد ذلك ركبا جنبًا إلى جنب في الممر إلى البيت الكبير، وفي الإسطبلات وراءهما وجدا كلاس وصبي الإسطبل ينظفان عجلات العربة المغطاة القديمة.

ترجل پول وفريدي. سيتم تقديم القهوة حاليًا، وأسرعت فريدي إلى الداخل لتغيّر ملابس ركوبها. في الردهة مرت سريعًا بإتيان الذي كان يبدو أكثر تهذيبًا الآن، وهو يرتدي سترة ومُصَفَّف الشعر.

«آه، ها أنتِ هنا! عدتِ أخيرًا! ينبغي عليكِ أن تخجلي من نفسك- تخرجين للركوب هكذا بدوني».

التفتت إليه فجأة بانفعال.

انفجرت فيه: «وآمل ألا تتمنى لي حظًا سيئًا مرة أخرى، حتى على سبيل المزاح! لقد كدتُ تقريبًا أجرح وجهي بسبب أحد الأغصان المتدلية- لقد نجوتُ بمقدار عرض شعرة! انظر إلى هذا الخدش على جبيني! إياك أن تقول شيئًا كهذا مرة أخرى، أتسمع؟ أنا أؤمن بالخرافات أكثر مما تظن!».

* * *

أعلن پول أنه سيغادر صباح اليوم التالي للانضمام إلى صديقه أودندايك، شقيق فرانسواز، في كولونيا، ومن هناك سوف يسافر الشباب معًا عبر سويسرا

إلى إيطاليا. أثناء العشاء لم يتغير كالمعتاد، يتحدث في شتى المواضيع بنبرة تهكمية وتعبير متغطرس يحوم تحت الشارب الأشقر. كانت فريدريك مكبوتة جدًا؛ كان يُفترض بوجه عام أنها كانت لا تزال تعاني من آثار ما بعد الحادث مع غصن الشجرة عند كانت خارجة للركوب.

لكن لم يكن من السهل تمامًا عليهما إخفاء ما دار بينهما لو لا أن بعد ظهيرة ذلك اليوم نفسه شهد عودة الشابين ڤيلي وجوستاف الصاخبة إلى البيت. كان الولدان البالغان أربعة عشر وخمسة عشر عامًا في سعادة غامرة للعودة إلى البيت من المدرسة الداخلية لقضاء العطلة الصيفية، وفي وسط تواثبهما ومرحهما الصاخب مع الأطفال لم يلحظ أحد أن پول وفريدريك كانا يتجنبان بعضهما.

في ذلك المساء، وفي السرير الكبير، كانت فريدريك ممتنة لثرثرة ماريان عن الروايات التي تقرؤها، لأن حديثها غير المترابط حول التداعيات النفسية والفلسفية في روايتيّ آدم بيد ورومولا وقى فريدريك من التفكير في أفكارها الخاصة. في صباح اليوم التالي، عندما استأذن پول بالانصراف، مدت له يدها لتصافحه، ليضغط عليها لفترة قصيرة. لم تمر بينهما كلمة واحدة. وعندما ذهب شعرت بالحزن والاضطراب، وتاقت لأن تفضفض عما في نفسها، لكن إلى مَنْ تتوجه؟ ليس لماريان، لأنها لم تكن سوى طفلة، وليس لماما كذلك، لأنها تتضايق دائمًا لرؤية أيّ من أبنائها يعاني. لأختها الأكبر إذن؟

ذهبت تبحث عن ماتيلدا ووجدتها في حجرة الجلوس مع أبنائها الأربعة، وهم على وشك أن يبدأوا دروسهم اليومية. كانت الكتب المدرسية والكراريس متناثرة على الطاولة، وكان نيكو يخربش بجلبة على لوح كتابته.

قالت فريدي: «يوه، لقد أزعجتك! أنا آسفة جدًا! لقد نسيت تمامًا درسكِ. أردت فقط الدردشة، هذا كل شيء». أرادت أن تنسحب، لكنها بدت محبطة للغاية لدرجة أن ماتيلدا تفقدتها.

سألت: «عن ماذا؟».

ترددت فريدريك، وهي تختلس النظر إلى الأطفال.

قالت: «سأعود في وقت لاحق، ممكن؟».

لكن ماتيلدا أخبرت الأطفال أن بإمكانهم أن يأخذوا ساعة استراحة، ليخرجوا مندفعين بسعادة خارج الحجرة وأسفل الدَّرَج. بدأت فريدريك في البكاء، وقربتها ماتيلدا إلى الأريكة.

قالت فريدي بين تنشجاتها بالبكاء: «كان عليّ ببساطة أن آتي وأخبركِ. صباح أمس تقدم پول لي للزواج، وأنا رفضته!».

فوجئت ماتيلدا. كان پول وفريدي يعرفان بعضهما منذ فترة طويلة؛ وكانا أصدقاء بطبيعة الحال، لكنها لم تتصور أبدًا أن الوئام والصداقة بينهما سوف يثمر عن حبٍ من أي من الطرفين، ناهيك عن جانبه هو.

استطردت فريدي: «أخشى أنني كنتُ قاسية جدًا معه. جرحت مشاعره بدون قصد. غريبٌ كيف يمكن للمرء أن ينساق وراء قول أشياء ليس لديه نية لقولها على الإطلاق! أعني أنه لم تكن هناك حاجة للقسوة. لِمَ لَمْ أخبره ببساطة بأنني لم أحبه بما يكفي لأن أتزوجه، بدلاً من أن أخبره بأنه من المستحيل لي أن أصدقه عندما أخبرني بأنه يحبني».

سألت ماتيلدا، وهو تحيط خصر فريدي بذراعها، «هل كنتِ ترغبين لو استطعتِ أن تصدقيه إذن؟».

كانت ماتيلدا تسألها السؤال نفسه تقريبًا مثل پول! لكن فريدي لم تستطع أن تحمل نفسها على الإفصاح عن مشاعرها الحقيقية، حتى لأختها، وترددت.

قالت في خجل: «حسنٌ، لا! لا، لم أرغب؛ كلُّ ما هنالك أنني بعد ذلك ندمت أنني كنتُ متهورة جدًّ، لكنني لم أندم على ذلك وقتذاك، فلِمَ يجب أن أندم عليه الآن؟ كم من الصعب عندما يكون هناك شيء تعرفين أن عليكِ القيام به، لكنكِ لا تعرفين كيف تقومين به. لا أظن أنني شعرت بأنني غير متأكدة من نفسي بهذا الشكل من قبل».

«أعرف ماذا تعنين»، همست ماتيلدا مشجعة إياها، لأنها استطاعت أن تميز أن فريدريك لم تخبرها بالحقيقة كاملة، «القرارات يمكن أن تدمي القلب للغاية. أحيانًا تتخذين قرارًا دون تفكير، لتمر السعادة في لمح البصر، وتندمي عليها بعد ذلك، وأحيانًا تفكرين في جميع الجوانب بعناية مسبقًا، فقط لتكتشفي بعد فترة أن مشاعركِ تغيرت، الأمر الذي لا يؤدي بكِ إلى أي شيء أيضًا، وأحيانًا لا تكونين ببساطة شجاعة بما يكفي لكي تلتزمي في علاقة بشكل أو بآخر».

اختفى صوت ماتيلدا تدريجيًا، حينما انجرفت أفكارها نحو إيلينه ثم نحو فريدي التي، بحسب تخمينها، لم تجرؤ على اتخاذ قرار من اختيارها، والتي بدا رفضها للالتزام في علاقة نابعًا من التردد أكثر من اللامبالاة.

صاحت فريدي: «نعم، هذا صحيح تمامًا! لم أكن شجاعة بما فيه الكفاية، لم تكن لديّ الشجاعة! لماذا؟ لأنني كنتُ غبية بما يكفي لأصوّر نفسي في صورة مثالية، بسبب احترام الذات البائس، كما يسميه تيودور. آه نعم، أعلم: بول لديه عيوبه، وهي عيوب كبيرة جدًا في الواقع، لكنني أحبه بكل عيوبه، ربما أحبه بسبب أنانيته، لأنه ليس نموذجًا للعبقرية والفضيلة، لكنه رجل من لحم ودم، بكل الحسنات والسيئات! من أظنُّ نفسي لأضع نفسي فوقه، وأظن أنه لا يستحقني؟ كما لو بإمكاني الادعاء بأنني نموذج للعبقرية والفضيلة! أنا، بكبريائي الأخرق المثير للسخرية! تربيتي! آه نعم، لديّ تربية على ما يُرام!».

انفجرت في البكاء، وألقت بذراعيها حول أختها. سيطر على ماتيلدا التعاطف مع فريدي- فريدي التي كانت تتواضع من أجل الرجل، الذي تحب! لكن تواضعها جاء بعد فوات الأوان. كان عليها أن تتواضع من قبل، لو كانت ما تسعى وراءه هي السعادة.

***

في الأسبوع التالي عادت هيتي من مدرستها الداخلية في بون لقضاء العطلة مع عائلتها في دي هورسه. رحلت عائلة فان سترالنبورج إلى زفله،

وحلَّت محلهم عائلة هوارد، الذين وصلوا من لندن. رغم صخب الوافدين والمغادرين، ورغم تعاطف ماتيلدا، شعرت فريدريك بالوحدة. اقترحت دعوة ماري فرسترايتن للإقامة معهم، وسَعِدَ تيودور وزوجته بصنع هذا الجميل، وذلك لأنه كانت هناك الكثير من الحجرات في البيت الكبير.

ذهبت فريدريك لإحضار صديقتها من المحطة في العربة قديمة الطراز التي تجرها الدواب، وأمسكت باللجام بنفسها، وفي أثناء العودة إلى البيت دردشت الفتاتان كثيرًا، ورغم وجودهما وحدهما - إذ تركت فريدي صبي الاسطبل بالبيت- فإنها لم تشعر بأنها مستعدة للكشف عما في سريرتها.

سألت ماري: «ماذا عن پول؟ هل كان مسليًا؟».

قالت فريدي: «يوه، ذلك الحديث يمكن أن ينتظر؛ سوف أخبركِ عنه فيما بعد».

كانت ثمة نبرة قلق غريبة في صوتها؛ نظرت ماري إليها للحظة متعجبة، ثم غيَّرت الموضوع بسرعة لتفاصيل حقائبها العملية، والتي تركتها في المحطة لكي تُحضرها عربة يدوية فيما بعد. وعندما توقفا عند مدخل البيت جاء جميع الأطفال ركضًا للترحيب بماري ترحيبًا مبهجًا. في تلك الليلة تكرمت ماريان بإعطاء مكانها في حجرة النوم الكبيرة لماري، وعندئذٍ أفضت فريدي أخيرًا بسرها لصديقتها.

استقرتا جالستيْن بعدما ارتديتا ثوبيّ نومهما الأبيضان على مقعد النافذة العريض، الذي يطل على الحجرة الشبيهة بالكهف، والتي كانت مضاءةً بمصباحِ ليلٍ واحد. بدأت فريدريك في البكاء، وهى تغطي وجهها بيديها، والتي حاولت ماري بلطف أن تبعدهما عن وجهها.

«لكن يا فريدي، لو كنتِ تحبينه بكل ثقة فإن الأمور يمكن وضعها في نصابها الصحيح، فكل ما يريده هو أن تحبيه. سوف أكتب له رسالة».

اعتدلت فريدريك في جِلْسَتها.

قالت بحزم، وسط دموعها: «لا يا ماري. لن أسمح لكِ أبدًا بأن تفعلي ذلك. لقد رفضته، ولا يمكنني أن أرجع في كلمتي وألح عليه بالمطالب الآن. أنا لا أبكي لأنني فقدته، أنا فقط مستاءة لأنني كنت فظة معه بلا داعٍ، لأنني عاملته بتعالٍ، ولم آخذه على محمل الجد. لذلك لو شعر بأنه مجروحٌ، فهذا خطأي. واحترمته للطريقة، التي احتفظ بها بكرامته معي بعد ذلك، والذي لا يبين سوى أن إحساسه باحترام الذات ليس أقل قوة من كبريائي السخيف. لديه تربية أيضا، بقدر ما لديّ».

هتفت ماري: «وهذا يجعلكما تنطحان رأسيكما كزوج من الماعز الحَرون، فقط لأن كليكما لديه تربية. يجب أن أقول أن هذا قمة العقل! لا يا فريدي، لنكن صادقين، لِمَ لا تعترفين بأنكِ أخطأتِ في الحكم على شخصيته، عندئذٍ يمكنك وضع الأمور في نصابها الصحيح. ماذا لديكِ ضده على أي حال؟ أنانيته؟ كل الرجال أنانيون، فكيف تتوقعين منه أن يكون مختلفًا! حاولي أن تكوني عاقلة، وتقبلي الأمور كما هي. أنا لا أشير إلى إخوتكِ، وانتبهي: «أوتو في خانة وحده، وبجانب ذلك:، استطردت، خافضة صوتها تقريبًا لدرجة الهمس، «بجانب ذلك، لقد مرَّ أوتو بالكثير، أما بالنسبة لإتيان، فلا يزال صبيًا، لطيف وطيب، لكنه ليس إلا صبيًا رغم ذلك. لذا لا جدوى من مقارنة پول بهما؛ فقط فكّري في پول كشخص تصادف أن لديه مالا ويريد ببساطة أن يستمتع بالحياة. لا أقول إن لدى پول شخصية قوية، وإنه مستقل في أحكامه وأفعاله، بل بالعكس تمامًا في الحقيقة. أنا أقول إنه ضعيف شيئًا ما».

أجابت فريدي بخشونة: «لا يمكن أبدًا أن أحب رجلاً ضعيفًا».

وضعت ماري ذراعها حول كتف فريدي.

قالت: «يا عزيزتي فريدي، بعد كل شيء قلته لي، لا تتوقعي مني أن أصدق أنكِ لا تحبينه. قد يكون ضعيفًا، قد يكون أنانيًا، قد يكون أي شيء تحت الشمس، لكن من الواضح تمامًا أنكِ تحبينه».

قالت فريدي بابتسامة حزينة: «نعم. أظن أنني أحبه. أنتِ على حق. لقد اعترفت بالفعل لماتيلدا بأنني أحبه، وبعيوبه وكل شيء. لم أقل لكِ من قبل لأنكِ هببت للدفاع عنه، وكان ذلك مصدر ارتياح كبير لسماعكِ تدافعين عنه».

«حسنٌ، اسمحي لي بأن أكتب له رسالة إذن».

قالت فريدي: «لا! يجب أن تعديني أنكِ لن تكتبي له. أبدًا. لا أريد منكِ إساءة استخدام ثقتي. لقد كنتُ حمقاء جدًا، لقد ألقيت بفرصتي في السعادة بعيدًا، وسأعاني بسبب ذلك، وهذا ما ينبغي أن يكون».

اقترب الصيف من نهايته دون أن يلتقي پول وفريدي مرة أخرى. عادت عائلة هوارد إلى لندن، وعادت هيتي والأولاد إلى مدارسهم الداخلية الخاصة بكل منهم، ورحلت ماري أيضًا. وما لبث أن تلقت فريدي رسالة من ماري في لاهاي، بأخبار عن پول: لقد ارتبط بمجموعة من الفنانين في روما، وكان قد استأجر استوديو هناك ليرسم فيه.

لكن، وعندما رجعت عائلة فان إرليفورت إلى لاهاي في أكتوبر، سمعت فريدريك أن پول لم يعد يرسم في إيطاليا. قيل إنه قد اتخذ مقرًا للإقامة في بلدة بوديخرافن، حيث كان قد وجد وظيفة في الإدارة المحلية بالبلدة، وإنه كان يخطط ليصبح رئيس بلدية.

٣٢

كان الدكتور راير حث إيلينه مرة أخرى على أن تشغل نفسها بشيء ما لتسليتها عن الشجن، الذي كانت تعانيه من الصباح حتى الليل. عَزَت إيلينه خمولها لطقس الصيف الحار، والذي رأته مُرْهِقًا. الآن، وبدأت أوراق الشجر في التساقط ونسائم الخريف العليلة تُنْعِش وجهها، بدا لها أنها تستطيع التنفس بحرية أكبر، وأعلنت عزمها على أن تجد شيئًا ما تفعله في وقتها. ظَلَّت مدام فان رات تراقب إيلينه بقلق، لأن سعالها الخشن والمتواصل عاد إلى جانب التحسن في مزاجها. في هذه الأثناء كانت قد بدأت تولي المزيد من الرعاية على مظهرها مرة أخرى، وشرعت تتدرب بنشاط على بيانو البخشتاين الجديد. لكن الموسيقى وحدها لم تُرْضِها، وتطلعت إلى مجال أوسع لتبحث عن شيء تفعله.

رغم أنها أهملت معارفها في الآونة الأخيرة، كانت لا تزال تراهم من آنٍ لآخر في صالونات بيتسي. في إحدى هذه المناسبات وافقت- بدافع من الملل المحض- أن تصحب الآنسة إيخوف المبجلة، وهي عمة عزباء كبيرة السن لآنجه وليوني، إلى قداس في الكنيسة الفرنسية الصغيرة يوم الأحد القادم. لم تزر المكان منذ سنوات، وفي يوم السبت شعرت بنفور شديد من الذهاب لدرجة أنها كانت على وشك إرسال رسالة اعتذار قصيرة للسيدة المبجلة نفسها. إلا أن مدام فان رات لن تسمح بذلك، ولذا رضخت إيلينه. كان هناك قسٌ جديد، ذو عينين معبرتين كبيرتين وداكنتين ويدين أرستقراطيتين شاحبتين. عادت إيلينه إلى البيت، وكلها حماس، لديها الكثير من الأخبار عن الوعظة الرائعة، وكيف أنها ركزت مع كل كلمة من كلمات القس. كان أسفها الوحيد أن الكنائس البروتستانتية كانت مملة جدًا من الداخل، وأداء الغناء كان ضعيفًا جدًا، ياه،

لو أنها فقط كانت من الروم الكاثوليك، لكانت روحها تطير عاليًا فوق أجنحة ترانيم محلقة في السماء مثل آفي ماريا أو جلوريا إن إكسيلسِس، لاستطاعت أن تنسى نفسها في رونق المذبح والسر المقدس الروحاني الباطني، لكانت وقعت مغشيًا عليها في نشوة الورع المتكلِّف، الذي تنشره سحائب البخور.

لكنها لم تكن من الروم الكاثوليك، لذا كان عليها أن تَقْنَع بكنيستها الفرنسية الصغيرة، وتذهب إلى هناك عدة مرات في صحبة عمة بنات إيخوف العزباء. لم يَمُرَّ وقت طويل حتى كانت تحضر كل أحد، تومئ برأسها برزانة عند رؤية معارفها بنظرة ساحرة ورقيقة في عينيها وارتسم ملمحٌ حزين على شفتيها المغلقتين، وانتشر الحديث عن ورع إيلينه فيره الجديد المثير للدهشة بسرعة في لاهاي.

كانت الآنسة إيخوف في إحدى لجان الجمعيات النسائية العديدة المكرسة للأعمال الخيرية، ولم تبذل مجهودًا كبيرًا من جانبها لإقناع إيلينه كي تنضم إلى جمعيتين خيريتين من هذه الجمعيات. بل إنها عُيِّنَت- بإيعازٍ من الآنسة إيخوف- في المجلس الذي يشرف على دور الحضانة لأطفال فقراء المُعْدَمين، وهو الأمر الذي جعلها مشغولة لأيام ثابتة. قضت أسبوعًا كاملاً تعمل بجد لتنظيم معرض فاخر، لكن لم تصل إلى حد المشاركة في بيع المنتجات في اليوم نفسه، وكثيرًا ما أقنعت السيدة المبجلة إيلينه بمرافقتها في زياراتها للفقراء.

في البداية شعرت برضا معين في أنشطتها الإنسانية الأخلاقية، لكن قبل أن ينقضي الشهر وجدت نفسها تشعر بالملل من أسلوب القس الرسمي المتكرر؛ كانت تستطيع التنبؤ باللحظة نفسها، التي سيرفع فيها عينيه إلى السماء في أحد الترانيم، والإيماءة نفسها، التي ستقوم بها يده الشاحبة لمنح البركة. شدَّ الغناء أعصاب عن آخرها، لأن الأصوات كانت خشنة وغير مدربة، وبدأت تشعر بالاستفزاز بدرجة متزايدة لبساطة داخل الكنيسة ذي الجدران البيضاء بمناضدها المخصصة للقراءة ومقاعدها الخشبية الطويلة. بدأت تساورها

الشكوك والهواجس حول جماعة المُصَلِّين، حيث كانت تشتبه في نفاقهم، ربما كان القس منافقًا أيضًا، وكذلك الشمامسة المغرورون والمتغطرسون؛ ويمكن قول نفس الشيء عن الآنسة إيخوف، الجالسة بجانبها- ولم تكن إيلينه بعينيها الساحرتين وملامحها المتزنة بأفضل حالاً.

كانت سمعت من الآنسة إيخوف عن كل أنواع الخلافات والمنافسات التافهة القائمة بين السيدات اللاتي يسيطرن على مختلف المؤسسات، الأمر الذي جعلها تتساءل عن الخير، الذي يُعْلِنَّ أنهن يفعلنه. أصبحت فكرة الأعمال الخيرية برمتها بغيضة بالنسبة لها؛ ووجدت نفسها عاجزة عن تصديق إخلاص أي من السيدات من معارفها اللاتي تعرفت عليهن مؤخرًا، ليس حتى أولئك اللاتي صِرْن صديقات لها؛ كلهن كنَّ مخادعات ويعملن لخدمة مصالحهن الذاتية، كل واحدة منهن؛ كان لديهن جميعًا دوافع خفية، ولا يفكرن إلا في أنفسهن تحت ستار مساعدة الآخرين. لم تستطع أن تتبين ما هى تلك الدوافع بالضبط، لكنها كانت متأكدة أن جميعهن لديهن تلك الدوافع.

ملأتها الزيارات إلى الفقراء بصحبة العمة العزباء الكبيرة بالنفور والاشمئزاز. خنقتها مساكنهم المزدحمة، وغير المفتوحة للتهوية، البؤس والحرمان، وشعرت بأنها سوف تختنق لحد الموت لو اُضطرت لقضاء يوم واحد في مثل هذه الظروف الضيقة والقذرة، ولما فقدت ثقتها في السيدات ذوات الإحسان، فقدت ثقتها الآن بالفقراء أنفسهم. كانت قرأت في مكان ما أنه كان هناك أشخاص في لندن تظاهروا بأنهم شحاذون، بينما كانوا يملكون سرًا مبالغ طائلة من المال، والتي كانوا ينفقونها في الولائم العامرة، التي تُراق فيها الشمبانيا المُترعة والنساء الحسناوات. جميع الفقراء المُعدمين، التي وَزَّعَت هى والآنسة إيخوف زكاة العشور عليهم كان لديهم في الواقع كنوز من المجوهرات والذهب مخبأة داخل فُرُشِهم المثيرة للاشمئزاز، ولم يعد يُشَكِّل فرقًا سواء كان رد فعلهم الامتنان الذليل أو الفظاظة الخرساء؛ كان ذلك زيفًا، مثل كل شيء آخر ذى صلة بهم.

في الوقت، الذي ظلَّت فيه عضوة في مختلف الجمعيات الخيرية واستمرارها في إعطاء الآنسة إيخوف المال المخصص لهذه الأرملة المريضة أو ذلك الشحاذ الأعمى، الذي يعزف الموسيقى، توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة؛ كما توقفت أيضًا عن زيارة الفقراء الكريهين واستقالت من وظيفتها في مجلس الإشراف على دور الحضانة.

جاء الشتاء، ليحبس سعال إيلينه داخل البيت. جرجرت نفسها من يوم خالٍ من الأحداث لليوم، الذي يليه في كسلٍ رتيب، ولم يكن معها أي صحبة سوى مدام فان رات، ولعدد لا يُحصى من المرات سألت إيلينه نفسها ما الهدف، الذي يمكن أن يكون لحياتها إذا لم تكن سعيدة.

بعد تحررها من خيبات أمل وأوهام العمل الإنساني والدين، لم تَعُد تثق بأي أحد، حينما نظرت حولها، لم تستطع أن تصدق أن جورج وليلي يحبان بعضهما بحق بعدما تزوَّجا؛ بالطبع خاب أملهما في بعضها البعض، وتظاهرا فقط بأنهما سعيدان. لم تصدق أن بيتسي سعيدة أيضًا، رغم أنها ثرية، لأنه كيف يمكنها أن تحب هِنْك؟ كيف يمكنها ألا تتوق إلى المزيد من العاطفة؟ ولم تصدق إيلينه أيضًا أن أوتو كان يحبها يومًا ما بحق؛ كيف أمكنه ذلك وشخصيته كانت مختلفة تمامًا عن شخصيتها؟ وصلت مشاعر عدم الثقة لدرجة أنها حتى شكت أن حب مدام فان رات لها كان حبًا صادقًا. كانت المدام تأمل أن تجد فيها رفيقة مقبولة لسيدة، هذا كل ما في الأمر، وكان من الواضح أن إيلينه لم ترق إلى مستوى توقعاتها. أم هِنْك منافقة، مثل كل الآخرين.

في وقت ما قد تُلْقِي مثل تلك المشاعر المريرة بإيلينه في غياهب اليأس الأسود، لكن بطبيعة الحال باتت روحها متبلدة للغاية لدرجة أنها لم تعد تتأثر بها. لم تعد تبالي؛ ما الفرق الذي يمثله لها أن الحياة لم تكن إلا كذبة كبيرة؟ كانت كذلك، ولا يمكن عمل أي شيء حيال ذلك، على الأقل من جانبها، لذلك ربما قد تكذب أيضًا مثل كل الآخرين.

بالأحرى، سوف تكذب كملاذٍ أخير، عندما تضطرها الظروف على إبداء

شيء من المشاعر، دلالة ما على «الحياة». بالنسبة للباقي فسوف تغمر نفسها في سبات العزلة.

كانت تلك هي أفكارها، وأجبرت شبابها على أن يرزح تحت نير اللامبالاة والخمول. أدى انجرافها بإرادتها وبنفسها إلى اللامبالاة إلى أن يهجرها أسلوبها الساحر القديم، وتضاءل التعاطف الذي أثارته بين رفاقها لأنها أضحت متجهمة وصعبة المَعْشر بصورة متزايدة.

تظل في الفراش للقسم الأكبر من الصباح، ورغم عدم موافقة مدام فان رات، فقد سمحت لإفطار إيلينه أن يُقَدَّم إليها في حجرتها، ذلك أن هذه كانت الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها جعلها تأكل أي شيء على الإطلاق.

حتى مع ذلك، غالبًا ما تترك إيلينه الإفطار دون أن تمسه. وعندما تنهض أخيرًا لا ترتدي ملابسها على الفور، بل ترتدي روب وتستلقي على أريكتها أو على أحد الكراسي، لتحدق في الفراغ من النافذة. لا تنزل إلى الطابق السفلي إلا بحلول الظهيرة، خاضعة للتراخي، الذي بدا أنه يجري في عروقها كسائل فاتر يؤدي إلى الوهن. كان راير يزورهم بانتظام، وأصر على أن تخرج وتتحمل المطر أو الرياح أو الثلوج، لكن ورغم أنها تاقت سرًا لبعض الهواء الطلق، فإنها إما بقيت محبوسة في البيت، أو تعود للبيت بعد خمس دقائق. حركتها الوحيدة هي أن تتسكع من مقعدها بجوار النافذة إلى أحد الكراسي بجوار الفرن، تسعل وترتجف، بأصابع باردة كالجليد، وعينين لامعتين، وشفتين مزمومتين بإحكام.

فقدت مدام فان رات كل أملٍ في قدرتها على استعادة قدر ما من الحيوية عند إيلينه. كان الأمر كما لو أنها خشيت أن المهمة، التي أوكلها راير إليها، والتي تمنت من كل قلبها أن تنفذها، قد ثبت أنها تجاوز قدراتها. تضاءلت آمالها، واستسلمت للضباب الرمادي لشجنها الخاص. مرت الساعات، التي تجلس فيها السيدة العجوز والفتاة الشابة معًا في نفس الحجرة دون أن تتبادلا كلمة واحدة، كلٌ منهما غارقة في خيال وهمي يائس.

* * *

كانت إيلينه تدرك أن بهذا التعايش الفاتر لن يدوم. كان هناك شيء ما بخصوص مدام فان رات بخصوص بيتها، شيء ما لم تستطع أن تحدده، يثير حفيظتها. وجدت نفسها عاجزة عن التحكم في سخطها في بعض الأحيان، وقد تنفجر بتعليق فظ أو غير لطيف، غالبًا دون سبب على الإطلاق، ولا ترد السيدة العجوز بأي إجابة سوى نظرة جريحة وخاطفة، والتي تملأ إيلينه على الفور بالندم. أحيانًا لا تستطيع أن تحمل نفسها على الاعتذار، وتكاد لا تفتح فمها لبقية اليوم. في أحيانٍ أخرى يغلب عليها الإحساس بالذنب لدرجة أنها تجثو على ركبتيها وتخبئ وجهها في حِجْر السيدة العجوز، تبكي وتتوسل أن تغفر لها، أَسِفَت أنها عندما تدخل في أحد أمزجتها السوداء، فإنها لا تعرف من أين تأتي أو كيف تسيطر عليها ... ياه، يبدو الأمر كما لو كانت ممسوسة بالشياطين، كما لو لم لديها إرادة خاصة!

انفجرت مدام فان رات في دموعها أيضا، وقَبَّلَتها، لكن في اليوم التالي تُلْقِي نفس الشياطين بثقلها على إيلينه لسحق إرادتها.

فكرت إيلينه أنه لا بد من عمل شيء ما. كتبت رسالة طويلة لعمها دانيال وإليزا، والتي عَرَّت روحها أكثر مما جَرأت أن تفعل من قبل. أخبرتهما بأنها تشعر بأنها بائسة تمامًا في لاهاي، وأنها سوف تموت من الكآبة لو بقيت لفترة أطول مع مدام فان رات، على الرغم من اللطف الكبير، الذي تعاملها به الأخيرة، وأنها تتوق بشدة لتغيير الجو. جاء عمه دانيال إلى لاهاي وأعلن لإيلينه في حضور السيدة العجوز، لكن دون أن يذكر الرسالة أنه وزوجته يفتقدانها، ويتساءل ما إذا كانت سوف تزورهما زيارة أخرى.

كانت إيلينه مترددة، لكن مدام فان رات حثتها بنبرة حزينة على قبول دعوة عمها الكريمة، وأن الأمر مُرَتَّب هناك، وبعدها سوف تصحبه إلى بروكسل بعد يومين.

عندما ذهب دانيال فيره، استلقت مدام فان رات مسترخية في كرسيها، ورأسها الأشيب يسقط على صدرها، ودمرتها جسامة خيبة أملها تمامًا. بعد

يومين سوف ترحل إيلينه! ستكون تلك هي النهاية! كانت تأمل رغم ضعفها أن تجعل نفسها مفيدة، كانت تأمل في أن تبث قليلاً من القوة والنشاط في الحياة الفاترة للإنسانة الشابة العزيزة، لكنها لم تستطع مقاومة رؤية أنها كانت مهزومة: كانت إيلينه تشعر بالملل في بيتها، وتاقت إيلينه للتغيير! كيف يمكنها، وهي امرأة عجوز، أن تحقق مثل هذا الافتراض!

لما رأت إيلينه حزن السيدة العجوز الصامت، غلب عليها اليأس، اليأس من أنانيتها. لم تفكر أدنى تفكير في مدام فان رات عندما كتبت تلك الرسالة إلى عمها دانيال؛ لم تكن تفكر إلا في نفسها فقط، والآن ها هي تتسبب في كربٍ عظيم للسيدة العجوز، رغم أنها نفسها كانت مقتنعة بأن استبدال لاهاي ببروكسل لن يُغَيِّر أي شيء فعلاً، أقل ما هنالك تخليصها من الإرهاق، الذي أصاب جسدها وروحها على مدى العامين الماضيين.

اغرورقت عيناها بالدموع: «عزيزتي ماما! هل أنتِ حزينة جدًا لأنني سأرحل؟ لا أستطيع أن أفكر أنكِ تمنيتِ أن تبقيني معكِ، أنا، المخلوقة الغاضبة غير الممتنة!».

نزلت على كرسي منخفض عند قدميّ السيدة العجوز وقَبَّلَت يديها.

تداعت مدام فان رات، وهي تمسح برفق جبين إيلينه، «حزينة؟ نعم، إنه يحزنني يا إيلي! لكن هذا سيكون للأفضل. حاشاي أن أتمنى أن ترحلي، حتى لو لم تكوني دائمًا طيبة المزاج معي كما كنتِ من قبل. ياه، لو أنني فقط أستطيع أن أثق أنكِ ستجدين السعادة هنا في النهاية، عندئذٍ لن أطلب منكِ أن تذهبي. لكن بطبيعة الحال، أقول لكِ: اذهبي يا طفلتي المسكينة، ومعكِ بركتي، وعودي وقتما تشائين».

بدأت إيلينه تجهش بالبكاء.

«أعرف أن الخطأ كله خطئي! إنتِ إنسانة عزيزة، وكنتِ لطيفة للغاية معي، ولم أسمعكِ تنطقين بكلمة واحدة ضدي. دللتني كأنني من لحمكِ ودمكِ،

وفي المقابل أستشيط غضبًا وأقول أشياء بشعة! ياه، يا لي من مخلوقة بائسة! كم تمنيت أن أكون مختلفة! كان هناك وقت عندما لم أكن أحب شيئًا أكثر من تدليلكِ لي، لكن الآن... الآن لا فرق! ليس الموضوع أنني لا أحبكِ، لأنني أحبكِ، أحبكِ أكثر من أي شخص آخر في العالم، لكن كما ترين، لم يعد هناك شيء يهمني، لا شيء، لا شيء!».

«عيب يا إيلينه، عيب! لا يجب أن تقولي مثل هذه الأشياء!»،

امم، أعرف أنني بشعة! لكن هل ألام على ذلك؟ ألا ترين أنني أتمنى أن أكون طيبة وصالحة وسعيدة؟ لكنني لا أستطيع أن أغير نفسي، هذا مستحيل! قلتِ لي إنني يجب أن أصلي، قلتِ إنها سوف تجعلني أشعر بتحسن. حسنٌ، ذهبت إلى الكنيسة، لكنني لم أتحسن ... ولا يمكنني أن أصلي بشكل صحيح كما تفعلين أيضًا! لقد صليتُ من أجل شيء ما ذات مرة، منذ فترة طويلة، لكن صلاتي لم يُستَجَب لها.

تذكرت تلك الليلة في دي هورسه، عندما صَلَّت لله أن تظل سعادتها، هناءتها الرقيقة التي وجدتها مع أوتو معها إلى الأبد.

«سأخبركِ بما صليتُ من أجله!»، تابعت بصوت أجش، تسعل أثناء وقوفها على قدميها وبدأت تذرع الحجرة دون هدف، وتفرك يديها النحيلتين، كما لو كانتا باردتين كالجليد. «كنتُ سعيدة جدًا وقتذاك، أسعد مما تصورتُ أنني يمكن أن أشعر به. كان وقتًا رائعًا، هادئًا جدًا ومطمئنًا جدًا؛ الجميع كانوا طيبين ولطفاء معي. لم أستطع أن أتخيل ما الذي فعلته لأستحق مثل هذه السعادة العظيمة، وبعدئذٍ ... بعدئذٍ فجأة بدأت أخشى أن الأمور قد تتغير. كان ذلك عندما صليت لله أن يجعل تلك السعادة الرائعة تدوم إلى الأبد. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا- عندما كنت خائفة وصليت لله- منذ تلك اللحظة فصاعدًا بدأت الأمور تتغير، ببطء شديد، لكن بثبات. أستطيع أن أرى ذلك بوضوح الآن! لم يكن ينبغي عليّ أن أشعر بالخوف، لم يكن ينبغي عليّ أن أصلي! ألا ترين؟ لهذا السبب لا يمكنني أن أصليّ ولن أصليّ مرة أخرى».

ألقت بنفسها على الأريكة في طوفان عصبي من الدموع، لكنها قفزت مرة أخرى فورًا بنظرة مُطارَدَة ووحشية. حوَّلت عيناها في هذا وذاك الاتجاه، وكانت أصابعها في حركة مستمرة، تلمس مزهرية هنا أو سلة أزهار هناك، تعبث بإطار ستارة النافذة، وتتابع أشكالاً كالأرابيسك على الأطر المغطاة بالبخار، ولما استعادت نفسها فجأة، وجدت أنها لا تستطيع أن تتذكر ما كانت قالته للتو.

قالت بتشكك لمدام فان رات، التي تابعتها نظراتها الحزينة في كل لحظة، «لا أعتقد بأنكِ تفهمينني، أليس كذلك؟».

«نعم، يا عزيزي، أعتقد بأنني أفهمكِ»، تمتمت، يغلب عليها الحزن والأسى لفرصة إيلينه المفقودة في السعادة.

نظرت إيلينه محدقة. للحظة شعرت بالندم العميق على اعترافها الذي لم تتذكر إلا أجزاء منه، لكن التعاطف الذي يشع من عينيّ المدام طمأنها.

سألت، وهي تغوص على كرسي القدمين مرة أخرى، «إذن أنتِ تفهمين ما أعنيه؟ تفهمين لِمَ لا أستطيع أن أكون سعيدة مرة أخرى؟».

لم تُجِبْ مدام فان رات؛ وضعت ذراعها والدموع في عينيها حول عنق إيلينه وقَبَّلَتها. بقيتا هكذا للحظة، في صمت.

«هل ستسامحينني، ولو قليلاً، على ترككِ؟».

«لا، لِمَ لا يمكنكِ أن تقيمي معي؟».

«أنا عبء عليكِ؛ صحبتكِ لا يمكن أن تكون إلا صحبة محببة. ليس بيدي أي شيء يمكن أن أفعله من أجلكِ، تمامًا كما أنه ليس بيدكِ شيء يمكنكِ أن تفعليه من أجلي!».

كانت هذه هي الحقيقة. ليس في وسع المدام أن تفعل شيئًا من أجلها، ولا أحد في وسعه أن يفعل شيئًا من أجلها كذلك.

لم تجدا أي كلمات أخرى لتقولاها لبعضهما. كانت كلتاهما تدرك إدراكًا مؤلمًا عجزها عن تخفيف الحِمْل عن كيان الأخرى عن طريق المواساة

المتبادلة، لكن المدام التي ضغطت إيلينه وهي تضمها إلى صدرها، لم تكن مقتنعة بأنها ستجد أي مواساة في صحبة العم دانيال وإليزا أيضًا.

جنَّ الليل، ومع انطفاء النار تقريبًا بات الجو باردًا جدًا في الحجرة، وتلوح الظلال الداكنة والغامضة في أركان الجدران وبين قطع الأثاث. كانت مدام فان رات ترتجف، لكنها لم تنهض لتقترب من النار أو تدق الجرس للخادمة، لأن إيلينه كانت تريح رأسها فوق حِجْرها. لقد نامت، وبعينيها المغلقتين بدا للسيدة العجوز، لولا صعود نَفَسها وهبوطه، لظنت أن الفتاة قد ماتت، كان ظل ملامحها الهزيلة شاحبة وأشبه بالشمع كثيرًا.

واصلت إيلينه النوم، وانخفضت درجة الحرارة في الحجرة أكثر. ألقت مدام فان رات نظرة على الموقد: لا يوجد أي أثر يُرى للنار، وبحركة بطيئة خلعت الشال الصوفيّ، الذي ترتديه دائمًا حول كتفيها، وبعناية بسطته على إيلينه.

٣٣

سكن دانيال فيره وزوجته الشابة، إليزا مولانجيه، شقة فسيحة في طريق لويز. كانت حجرة الاستقبال واسعة، بخمس نوافذ تطل على الشارع؛ في هيئة نصف صالون ونصف حجرة رسم، ولم يُصَمَّم ديكور المساحة وفقًا لأي طراز معين، لكن ببهرجة فنية نوعًا ما، ورغم أن الأثاث والزينات بدت كأنها أُنتقت من هنا وهناك من مُختلف المزادات، فإنها تشكل معًا تشكيلة جذابة من الظلال خافتة الصوت والخطوط الباعثة على السرور. كانت الجدران مبطنة بالجلد المُذْهَب بنعومة، ومن السقف المُزَيَّن على الطراز الأندلسي بألوان الأزرق الخفيف والأحمر الباهت والذهبي الغائم تتدلى ثريا متعددة الأفرع من الزجاج الفينيسيّ الملون. اشتعلت نار قوية في المدفأة الفاخرة قديمة الطراز بحاشيتها المنحوتة بترف من خشب البلوط، وأينما تحول بصرك تجد هناك أُصص النخيل، وتحف من تركيا والصين، وتحف فنية من الخزف العتيق، كلها موجودة في وفرة فنية.

شَكَّلَت نافذة الواجهة البارزة المركزية، والأوسع من غيرها، نوعًا من شرفة داخلية، حيث كانت إليزا وإيلينه غالبًا ما تجلسان فيها معًا. كان أسبوع قد مضى منذ وصولها، ووجدت إيلينه نفسها متحمسة لصحبة عمها وزوجته المفعمة بالشباب. أشبع الإسراف الهائل في حجرة الاستقبال، التي تشبه المتحف تقريبًا مداركها الجمالية بينما تنضح بجو من الدفء والبهجة، وبدا لها ترف صالون بيتسي الحديث المليء بالأشياء المُذْهَبة والأقمشة الفخمة والساتان عاديًا، وعديم الذوق الآن، مقارنة بوفرة محيطها العشوائية إلى حد ما، والمتربة قليلاً، لكنها تبعث على الدفء والراحة.

في الصباح، وفي نافذة الواجهة البارزة جلست العمة إليزا، ترتدي روب

صينيًا من الحرير الرمادي بشراشيب حمراء، ترسم على طاولة تتناثر فوقها الألوان وفُرَش الرسم. جلست إيلينه بجوار النار الكبيرة بكتاب على حِجْرها، تحوم ابتسامة لاواعية حول شفتيها الشاحبتين بينما تسللت نظراتها خلسة لتدور متفحصة الحجرة.

«أحب الطريقة، التي زينت بها شقتك!»، قالت بالفرنسية لإليزا التي كانت تدندن بهدوء، وهي تشطف فرشاتها، «يمكنكِ الجلوس هنا بهدوء بجوار النار وتستحضري أمتع الأفكار الخيالية وأبهجها، لأن كل شيء هنا يولد فكرة يمكنكِ أن تضفي التفاصيل عليها، وإذا نظرتِ في أنحاء الحجرة، ستشعرين كما لو كنتِ مسافرة».

لعقت إليزا طرف فرشاتها وضحكت.

نهضت فجأة وقالت: «كم لديكِ من أفكار غريبة يا إيلينه!»، حَلَّت كتلة شعرها المجدولة بإحكام، والذي صار منكوشًا تمامًا، وهزته، ولفته في هيئة عُقْدة فضفاضة. «لقد قضيتُ عمليًا كل وقتي في هذه الحجرة على مدى السنوات الثلاث الماضية، ولم يمنحني أيٌّ من أشيائي الشعور بأنني مسافرة! لكن كلكم لديكم مثل هذه الأفكار الغريبة! أنتِ ودانيال وفنسنت أيضًا. إنه أمر مسلٍ جدًا؛ وأظل أفاجئ! غريب جدًا، ومبدع جدًا كما تعلمين. هل أختكِ بيتسي هكذا أيضًا؟».

ابتسمت إيلينه لها متعجبة.

رددت في تأمل: «بيتسي؟ لا، لا أعتقد ذلك. لدى بيتسي طبيعة عملية جدًا، وحازمة جدًا. بيتسي تشبه ماما، ولا تشبه عائلة فيره مطلقًا».

ابتسمت إليزا بمرح.

«هل يمكنني أن أقول لكِ ما أرى؟ أقول لكِ إنكم غريبو الأطوار بعض الشيء، غريبو الأطوار بعض الشيء، كل واحد منكم! صدقيني، هذا صحيح!»، قالت هذا بطريقة ودودة ومازحة حتى إن إيلينه لم تشعر بالإساءة، «لكن تعرفين،

أنا أفضل نفحة من غرابة. لا أطيق الاعتياد. الناس العاديون- يع! لذا كما ترين، لهذا السبب أنا أعشقكِ: أنتِ لست عادية في شيء، ومثيرة للاهتمام ومبدعة!».

قالت إيلينه، وهى تتصنع الضحك: «حقا؟ حسنٌ، أؤكد لكِ أنني ممكن أن أدفع نصف عمري لأحصل على ميزة ألا أكون مبدعة أو مثيرة للاهتمام، لكن عادية بدلاً من ذلك، عادية بقدر المستطاع».

«فتاتي العزيزة! يا له من امتياز عبثي هذا الذي تطمحين إليه! الطريقة التي أرى بها الأمر هى أنه لا ينبغي أن نطمح إلى أي شيء، بل ينبغي علينا نأخذ الحياة، كما يأتي، وأن نرضى بنصيبنا. هذا هو سر السعادة! (قالتها بالفرنسية) أنتِ مبدعة يا إيلينه، لذلك عليكِ أن تكوني راضية عن شخصيتكِ المثيرة للاهتمام، لكن ها أنتِ ذي، تريدين أن تكوني مختلفة- تريدين أن تكوني عادية، ولا أقل من ذلك! عيب عليك!».

جلست بجانب إيلينه، ومدت يديها نحو النار.

«سأقول لكِ شيئًا آخر يا إيلينه، شيئًا دائمًا ما حيرني بشأنكِ. أنتِ فتاة جميلة جدًا، ولديكِ ما يكفي من المال لتفعلي بالضبط ما يحلو لكِ، لكنكِ لا تستمتعين بالحياة. دائمًا تحلمين، فتاتي العزيزة، لكن الأحلام ليست كالحياة، أليس كذلك؟ لو كنت مكانكِ قبل أن أتزوج، لكنتُ حَرِصتُ على أن أستمتع بالحياة إلى أقصى حد، لكنني لم أكن أملك بنسًا واحدًا باسمي، كنتُ فتاة عادية المظهر- وما أزال كما كنتُ. وقع دانيال في حبي على أي حال، وأنا قَبِلْت به. بالطبع قَبِلْت! لو كنتُ جميلة مثلكِ، ولو كان لدي القليل من المال لكنتُ حرصت على تسلية نفسي- لكن ذلك كان سيكون بدون دانيال كما ترين. مع مَنْ غيره؟ حسنٌ، لا أستطيع أن أعرف في هذه المرحلة، لكنني أعرف أنني كنت سأعيش الكثير من المرح! بالنسبة لكِ- لكن يا للشفقة! (بالفرنسية)- أنتِ تشعرين بالملل ببساطة، تشعرين بالملل حتى الموت لو سألتني. يا للعار والشنار! باختصار، أنتِ لغز بالنسبة لي، وهذا بالضبط ما أحبه فيكِ.

ابتسمت إيلينه ابتسامة حزينة، ولاذت بالصمت.

«آه حسنٌ، أنا لا أعرف تاريخكِ الشخصي، كل ما أعرفه أنكِ تركت بيت أختكِ في منتصف الليل أثناء عاصفة. ليس كل أحد يمكن أن يفعل ذلك، كما ترين، وهذا ما يروق لي. هذا مثير للفضول على أقل تقدير. أجرؤ على القول إن لديكِ قصة مثيرة ما لترويها، لكن مَنْ إذن ليس لديه قصة يحكيها؟ قصة رومانسية ربما؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أشفق عليكِ، لأن من الواضح أنكِ ارتكبتِ غلطة حمقاء ما».

توقفت قليلاً انتظارًا لردّ ما من إيلينه، لكن لم ترد بشيء.

«لا تسيئي فهمي»، واصلت الثرثرة، متلذذة بالمناسبة لتدلي بآرائها. «أعتقد بأن الحب شيء رائع، وهو أكثر الأشياء متعة، لكنني أعتقد أيضًا بأنه يجب أن يظل ممتعًا. بمجرد أن يصبح الحب الرومانسي مصدرًا لوجع القلب لا يصبح جديرًا بالجري وراءه في رأيي، ولا أعتقد بأن هناك شيئًا اسمه الحب، الذي يستحوذ على كل شيء، كشعلة اللهب الكبيرة، التي لن تسمح بوجود شعلات لهب صغيرة بجوارها. هذا محال عندما تفكرين فيه. خذيني كمثال. لقد عشت دائمًا هنا في بروكسل. تصادف أن دانيال كان يعيش هنا أيضًا، وهكذا التقينا. وقعنا في غرام بعضنا البعض كما يقولون، وتزوجنا. كل شيء تمام، لكن ماذا لو كنت أعيش في لابلاند، ودانيال يعيش في القطب الجنوبي؟ فقط فكري في الموضوع. لم نكن ليرى كل منا الآخر أبدًا، ولكان كلٌّ منا التقى بشخص آخر- أنا بشخص من الإسكيمو، ودانيال بأحد من القطب الجنوبي. ألهذا منطق، لا؟ الحب يحدث ببساطة، والناس يمكن أن يقعوا في الحب مئات المرات. ماذا يا إيلينه، لقد صرتِ هادئة تمامًا. هل أصيبكِ بالممل، أليس كذلك؟».

ضحكت إيلينه: «بالعكس! أحبكِ عندما تكونين في واحدة من حالاتكِ المزاجية الثرثارة!».

غمزت إليزا بعينيها في سعادة.

«حسنٌ، أنا ثرثارة نوعًا ما، أليس كذلك؟ لكنني أعني ما قلته عنكِ أنكِ لا تستمتعين بالحياة بما فيه الكفاية. يمكنكِ وضع ذلك في الاعتبار يا عزيزتي؛ أنتِ لا تزالين صغيرة بما يكفي لتغير سلوككِ.

كانت إيلينه على يقين من أنه ليس بمقدورها عمل أي شيء لتغيير سلوكها. لم تكن ببساطة مستعدة لذلك- تركت نفسها تنجرف أسفل منحدر سحيق أكثر فأكثر إلى أن استطاعت رؤية الهاوية مفتوحة تحتها، وحتى وقتذاك لم تستجمع قوتها لتعاود الصعود.

«أتعرفين ما الذي أراها نقطة ضعفكِ يا إيلينه؟ أنتِ مفرطة الحساسية. مفرطة العاطفة تمامًا. ما تحتاجينه في صراع الحياة جرعة لا بأس بها من اللامبالاة. كما ترين، ليس لديكِ الكثير من الخيارات: لقد تصادف وجودنا بين الأحياء، ولا بد أن نعيش حياتنا بأفضل شيء في وسعنا، وبذلك قد نجعل الأمور مقبولة بالنسبة لنا قدر المستطاع. بالنسبة لكِ، فلديكِ الوسيلة للقيام بذلك. ليس لديكِ أي مسؤوليات، ولا أشخاص تعولينهم، باستطاعتكِ أن تفعلي بالضبط كما يحلو لكِ. المشكلة هى أنكِ تفكرين كثيرًا، والتفكير الكثير يسبب الاكتئاب. أنا؟ أنا لا أفكر. فقط تأتيني أفكار فجائية، أفكار صغيرة تخطر ببالي؛ لكنني لا أفكر، وأشكر الله على ذلك، ربما أكون أتفلسف الآن، لكنني لا أفكر».

سَلَّت هذه الدردشة الخفيفة إيلينه؛ حتى إنها فكرت إن إليزا قد تكون محقة تمامًا في تبني مثل هذا الأسلوب غير المهتم، لكن إيلينه نفسها كانت مختلفة: لم تكن هناك أي طريقة يمكن بها أن تنفض عنها الشجن، الذي يبدو أنه قد تسلل إلى نخاع وجودها نفسه، وكانت واثقة من أن حياتها سوف تنتهي دون أن تستمتع بالحياة- أو على الأقل ليس بالطريقة، التي قصدتها إليزا، ولم ترغب في هكذا استمتاع أيضًا، لأنها عرفت سعادة من طبقة أعلى- سعادة أن تكون معه، مع أوتو.

* * *

اعتقدت إليزا بأنها كسولة، لكنها هى نفسها تجد متعة في عدم القيام بأي شيء. استسلمت بكل قلبها لخمولها الواهن. كانت تمكث في البيت معظم الأيام، متحججة بسعالها، رغم أن في الواقع كل ما تريد القيام به هو أن تخبئ نفسها بين الوسائد التركية في الكرسي الكبير ذي المسند بجوار النار وتُمْضِيَ الساعات في أحلام اليقظة. بذلت جهدًا لتكون مثل إليزا ولا تفكر، وإلى حد ما نجحت في هذه المحاولة. فقط، بدأت تحس بشعور انتظار شيء ما، تنتظر وتنتظر.

رغم أنها قلما خرجت، فقد رأت عددًا كبيرًا من الناس. كان عم دانيال دائمًا يأتي بالأصدقاء إلى البيت، تصحبهم زوجاتهم أحيانًا، وغالبًا ما يبقون لتناول العشاء. لم تكن الدائرة الاجتماعية، التي وجدت إيلينه نفسها فيها جديدة تمامًا عليها، لأنها التقت بعدد من أعضاء تلك الدائرة عندما أقامت لأول مرة في بروكسل، لكنها لم تشعر بارتياح كامل معهم؛ كانوا غير تقليديين بطرق سحرتها وصدمتها على حد سواء. في لاهاي كانت تتحرك دائمًا في دوائر مقتصرة على طبقتها، حيث كان لدى الجميع، رغم التباين في ثرواتهم الشخصية، نفس وجهات النظر فيما يتعلق بالأخلاق والعادات والتقاليد، وحيث كان الجميع يمارسون نفس قواعد الإتيكيت ويتبادلون نفس عبارات المجاملات عندما يزورون بيوت بعضهم. لا يبدو أن مثل هذه القواعد تنطبق على بروكسل، فالناس يعبرون بحرية عن أكثر الآراء غرابة، حول موضوعات لم يسمع أحد بها في صالون بيتسي أو إيخوف. وجدت معارفها المتحررين الجدد مثيرين للرهبة والخوف إلى حد ما، لكن غريبين بصورة مثيرة للاهتمام في الوقت نفسه.

كانت بالفعل مجموعة متعددة الأطياف من الأصدقاء، الذين جمعهم عم دانيال حوله. في مساء ما دعا أحد الكونتات على العشاء، والذي دخل، مما أثار استغراب إيلينه كثيرًا، وهو يرتدي ملابس سهرة بقميص رسمي مرصع بالألماس، والذي بدا ولا شك أسوأ ما يمكن أن يُرتدى، إلى جانب خواتم

كبيرة الحجم إلى حد ما ومرصعة الأحجار الكريمة في أصابعه؛ وكان وسيمًا بصورة باهتة نوعًا ما، بخصلة من الشعر الأسود تهبط على جبينه، وكان يكتب الشعر؛ وقدم لإيلينه ديوانًا لأشعاره وكتيبًا يحتوي على طبعات من عروض كتب تطري على أعماله. كان يُقال إنه ثري، وكانت إليزا تعتقد بأنه ظريف سريع الفكاهة. إلا أن إيلينه شعرت بوخز من نفور عندما صافحها بيده. في مساء آخر ستلتقي بممثل، مما أقلق إيلينه بشأن إمكانية ظهور فابريس مرة أخرى يومًا ما، أو ستلتقي بصائغ مجوهرات معروف ترافقه سيدة شقراء شديدة البدانة تضع كثيرًا من أحمر الشفاه وترتدي فستانًا مخمليًا أحمر اللون، لكن من وقت لآخر كانت عائلة مولانجيه ودي لوين يأتون لبوردو، وكانت إيلينه تشعر بقدر كبير من الارتياح لأنها كانت ترى فيهم قدرًا من الاحترام والتميز.

لكن كان زوار طريق لويز باستثناء هاتين العائلتين يتصرفون بدرجة ملحوظة من عدم الرسمية، فهم إما يحضرون على العشاء دون الإعلان عن مجيئهم أو يصلون الساعة الحادية عشر ليلاً عندما تكون إيلينه تستعد للنوم، ويظلون حتى الساعات المبكرة من الصباح يشربون الشمبانيا ويدخنون. سوف تدخن إيلينه معهم وتضحك بصوت عالٍ جدًا، وسوف يسترخي العم دانيال على أحد الكراسي، يبتسم في ضجر إلى حد ما، غالبًا كان عند إيلينه الانطباع بأن كل هؤلاء الأغراب كانوا مفيدين له بشكل ما. لم تفهم أبدًا كيف كان يحصل على المال، لأنه بدا أنه لا يقوم بأي عمل، لكنها طردت الفكرة من رأسها لأنها كانت مصممة على عدم التفكير على الإطلاق كإليزا، وبمرور الوقت وجدت قدرًا من الرضا في حفلات الأنس والسمر هذه، فهي مختلفة جدًا عن تلك، التي كانت معتادة عليها في صالونات لاهاي.

* * *

قبل كل شيء، أحبت إيلينه التحدث مع طبيب العم دانيال، وهو رجل غير معروف العمر ومهذب بشكل ملحوظ في أخلاقه وحديثه على السواء، والذي بدا دائمًا أنه يراقبها عن كثب. وضعها اهتمامه بها في البداية في حالة حذر

وترقب، كما لو كان قد يكتشف شيئًا داخلها لم تكن هي نفسها على دراية به، سر ما من شأنه أن يَصِمَها بالخزي، إلا أنها انجذبت إلى نظراته الثابتة والودية كأنها تُجْذَب إلى مغناطيس، ولم يمضِ وقت طويل حتى بادرت وطلبت منه عندما أصابتها إحدى نوبات صداعها أن يثبت يده الممدودة الباردة فوق جبينها للحظة. المرة الأولى التي قام فيها بذلك كانت بمبادرة منه، وشعرت إيلينه على الفور، كما لو أن تيارًا منشطًا ومنعشًا سرى عبر دماغها. منذ ذلك الحين أضحت مدمنة، إن جاز التعبير، لانبعاثات تلك اليد التي بدا، حتى دون أن تمسها، أنها قادرة على هبوب نسيم بارد خلال جمجمتها المحمومة.

كانت إيلينه أخبرته عن الصعوبات، التي تواجهها عند النوم بالليل، وأخبرها بأنه يود أن يحاول حثها على النوم من خلال قوة إرادته المجردة، لكنها توسلت إليه ألا يفعل: ليس لديها إلا القليل من قوة إرادتها، وتخشى أن تفقدها تمامًا لو استطاع ممارسة مثل هذا التأثير القوي عليها عن بُعْد. عند ذلك أمدها بجرعة منومة من المورفين، والتي كانت مكلفة للغاية، وكان قد خلطها بنفسه؛ وعَدَّ القطرات التي ستأخذها في كوب من الماء. في تلك الليلة رقدت لتنام في جو من الرضا الهانئ؛ شعرت بأن جسدها صار منعدم الوزن، ونهضت من سريرها، وسائدها وملاءاتها، وللحظة وجدت نفسها تطفو فوق تيارات من الهواء الأزرق الذي يدور برفق.

ثم غرقت في سبات عميق، لم تستيقظ منه حتى وقت متأخر من الصباح. أعربت عن شديد ثنائها على طبيب العم دانيال لأنه نجح فيما فشل راير فيه دائمًا– على الأقل عرف كيف يجعلها تنام.

* * *

استمرت الحياة على نفس الوتيرة تقريبًا، وإيلينه تكيف نفسها على مزاج اللحظة. كانت لا تزال تعاني من سعال شديد، لكنها شعرت مع ذلك بالرضا نسبيًا. يبدو أن إليزا، رغم كونها متكلمة قهرية، تحبها بما فيه الكفاية، والعم دانيال، أقل ما يُقال عنه إنه الأكثر شهامة، كان لا يقل تعاطفًا نحوها، لكن أحيانًا

كان يتولد لديها شعور بأنهما يتصنعان في سلوكهما، بنفس الطريقة، التي يتصنع فيها الجميع في لاهاي، لكنها لم تكن ترغب في تحليل هذا الشك، مفضلة أن تترك عقلها يغفو في سبات غير مقيد بشيء.

في أحد الأيام وصل مُغَلَّف من فنسنت فيره في نيويورك؛ وكان موجهًا الى العم دانيال، الذي تلقاه في مفاجأة إلى حد ما، لأنهما لم يكونا معتادين أن يكتبا لبعضهما البعض، لكن إيلينه التي لم تسمع أي أخبار عن ابن عمها لفترة من الوقت، شعرت بالكثير من الإثارة والتوتر عندما ذُكِر اسمه على غير المتوقع، ولم تستطع أن تنتظر لتسمع ماذا سيقول عمها عن الرسالة، ولن تتفاجئ إذا كان فنسنت يطلب المال.

لكن إيلينه كانت مخطئة في هذه. لم يكن يطلب المال، ولم يكن في حاجة إلى رسالة تقديم أو أي خدمة أخرى. أراد فنسنت ببساطة أن يعرفوا أنه وصديقه لورانس سانت كلير يخططان لرحلة إلى أوروبا، وأنهما سيتوقفان في بروكسل. سيسافران بالبحر إلى ليفربول، ومنها يسافران إلى لندن وباريس قبل وصولهما إلى بروكسل. في الوقت الذي تلقى العم دانيال فيه هذا الخبر كانا بالفعل في منتصف طريقهما عبر المحيط الأطلسي.

أعادت رسالة فنسنت لإيلينه نشاطها إلى حد ما من خمولها النفسي. تذكرت كيف كان فنسنت الشاحب والمريض يرقد على أريكتها مرتديًا روب دي شامبر التركي، وكيف أنها مرضته إلى أن استرد صحته. كانت فكرتها التالية عن أوتو، وتلمَّست في توتر دلاية المينا السوداء بسلسلة ساعتها. هل توهمت أن فنسنت كان واقعًا في غرامها، وهي كذلك؟ ألا تزال أي من تلك المشاعر باقية في قلبها؟ لا، كانت تلك المشاعر بعيدة جدًا، جدًا، كالطيور، التي اختفت عن الأنظار.

ناقش العم وإليزا زيارة فنسنت الوشيكة لفترة وجيزة، وبعد ذلك لم يقولا أي شيء آخر عن الموضوع، لكن إيلينه رغم أنها ظلَّت صامتة، فكرت كثيرًا فيه، وفي صديقه الأمريكي. تذكرت أنها شاهدت صورة سانت كلير الفوتوغرافية

عندما سقطت من رسالته إلى فنسنت؛ كان في نفس اليوم، الذي فقدت فيه أعصابها مع أوتو أثناء العشاء، وتذكرت أنها سألت فنسنت ما إذا كان شعر صديقه أشقر أم داكنًا، لكنها لم تتذكر بِمَ أجاب، ولم تستطع أن تتذكر شكل ملامح سانت كلير. كانت متلهفة جدًا لرؤيتهما معًا.

* * *

بعد بضعة أسابيع وصلت رسالة ثانية من فنسنت؛ هذه المرة أُرسلت من باريس، وبعد بضعة أيام وصل الصديقان؛ كان ذلك في وقت متأخر بعد الظهر، وبقيا للعشاء. عرضت العم وإليزا استضافتهما من باب المجاملة، لكن سانت كلير رفض بأدب: فقد كانا بالفعل حجزا في فندق أوتيل دي فلاندر.

لم يتغير فنسنت مثقال ذرة، سواء في المظهر أو السلوك. عندما كان هو وإيلينه يقفان جنبًا إلى جنب يتحدثان، وقع بصرها على انعكاس صورتهما في مرآة الحائط، وفجأة لاحظت أن كبرت في العمر. كان نفس الشاب الأنيق، كما حاله قبل عامين، وبجوار بشرتها الشاحبة ووجنتيها الغائرين بدا متمتعًا بالصحة أكثر مما رأته من قبل. وقفت ترتدي فستانًا من الدانتيل الأسود- لم تعد ترتدي شيئًا آخر هذه الأيام- بكتفيها النحيلين وعينيها الباهتتين تحدق في أنقاض تألقها المفعم بالشباب السابق ... مُدَمَّرة من الداخل والخارج.

ترك لورانس سانت كلير انطباعًا إيجابيًا جدًا مباشرة على السيدتين كلتيهما. كانت إيلينه تخيلته إلى حد ما كأمريكي أن يكون فظًا وجلفًا بعض الشيء- بل ربما يبصق ويسبّ أو يطالب بشرب الويسكي- وفوجئت مفاجأة سارة بأسلوبه الجذاب والمريح. كان طويل القامة وقوي البنية، بلحية كاملة شقراء داكنة، وفي عينيه الصافيتيْن لمع شيء من كبرياء، لكنه كان كبرياء دون أي أثر لغطرسة يدل على الشخصية وقوة الإرادة. خلق أسلوبه البارع وجو استقلاليته الثقة في إيلينه، ورغم أن فنسنت لم يخبرها بالكثير عن سانت كلير، فقد شعرت على الفور تقريبًا بأنها تعرفه منذ فترة طويلة. أعجبتها ابتسامته الصريحة ونظراته المعتدلة لكنها نافذة، وعندما نظرت سريعًا حول مائدة العشاء أدهشتها الاستقامة الهادئة

والكاملة، التي تَنْضَح منه، والتي بدت لها كياسة عمها ولغو إليزا التافه، وكذلك الشجن الغامض، الذي تشترك فيه مع فنسنت بالمقارنة بها، زائفًا وباعثًا على السأم.

بعد العشاء أخذوا القهوة في حجرة الاستقبال. شعرت إيلينه بارتياح في صحبة سانت كلير، وتمنت ألا يأتي زوار آخرون ليزعجوهم، لكن لم تكن لديها رغم ذلك فرصة كبيرة للتحدث معه، لأن إليزا أمطرته بوابل من الأسئلة حول نيويورك وفيلادلفيا وسانت لويس، فأجاب بالفرنسية، متحدثًا ببطء، وبلكنة غريبة وجدتها إيلينه ساحرة نوعًا ما.

شَبَك فنسنت يديه وحدق فيها باهتمام؛ كان ممتنًا لما فعلته من أجله في لاهاي، والآن شعر بوخز من الشفقة عليها.

قال، وهما يجلسان في البلكونة: «لقد افتقدتكِ يا إيلي! لكنكِ حقًا يجب أن تزيدي قليلاً من الوزن، كما تعلمين!».

أطلقت ضحكة خفيفة ووكزت بعصبية بطرف حذائها البساط الأبيض الصوفيّ.

قالت: «أنا على خير ما يُرام! في الواقع، بدأت أشعر بأنني بصحة جيدة إلى حد ما في الآونة الأخيرة. أفضل من ذي قبل، على أي حال، وأنا سعيدة جدًا لرؤياك مرة أخرى، سعيدة جدًا. أنت تعلم أنني كنتُ دائمًا معجبة بك».

مدت يدها بلفتة كريمة؛ ضغط على يدها واقترب بكرسيه قليلاً.

سألها: «وما رأيكِ في لورانس؟ هل يروق لكِ؟».

«نعم، يبدو لطيفًا جدًا».

«إنه الرجل الوحيد مِنْ بين مَنْ عرفت جميعًا، الذي يلتزم بوعوده. أنا لا أثق بأحد، ولا شخص كما ترين؛ ولا حتى أنتِ، ولا نفسي، لكنني أثق به ... ألا تجدين لكنته الفرنسية مضحكة إلى حد ما؟».

ردت إيلينه: «إنه يتحدث الفرنسية بشكل جيد للغاية!».

واصل فنسنت كلامه بحميمية: «ياه، لا يمكنكِ أن تتخيلي كم هو مخلصٌ لأصدقائه! لو أخبرتكِ بكل الأشياء التي فعلها من أجلي لن تصدقينني. بصراحة، كان كرمه تجاهي عظيمًا، بل محرجًا تقريبًا، كما سنح الموقف، كما ترين أُصِبْتُ بالمرض الشديد في نيويورك، مرضًا شديدًا في الواقع- كانت حياتي في خطر. في ذلك الوقت وُظِّفْتُ في نفس الشركة، التي كان سانت كلير يستثمر أمواله فيها. أخذني إلى بيته وتولاني بالرعاية بما يقرب من قدر الرعاية الحانية، التي أبديتها لي في لاهاي. لا أعرف ما الذي فعلته لاستحق صداقته، ولن أستطيع رد الجميل بأي شكل، لكنني لا أعتقد بأن هناك شيئا لن أقوم به من أجله، وإن كانت هناك أي ذرة من خيرٍ فيّ، فإن الفضل يرجع لتأثيره. في أثناء مرضي رتَّب لبديل مؤقت لوظيفتي- كنت نائب المدير في قسم الحسابات- كي لا أكون دون دخل بمجرد أن أتعافى، لكن بعد ذلك بفترة رأى فكرة السفر في جولة سياحية؛ إذ إنه لا يعرف الكثير عن أوروبا، وكان يشعر بالقلق إزاء بذلي جهدًا كبيرًا في العمل. باختصار، دعاني لمرافقته في رحلاته. رفضت في البداية لأنني كنت مدينًا له بالفضل بالفعل، لكنه أصر، وفي النهاية وافقت. أراد أن يسافر إلى أماكن بعيدة حتى بطرسبرج وموسكو هذا الشتاء، وقضاء الصيف المقبل يتجول في جنوب أوروبا. حسنٌ، كما تعلمين، لقد نلت نصيبًا معقولاً من السفر، لذا يسرني أن أقدم خدماتي كمرشد، لكنني لم أسافر أبدًا بمثل هذا الأسلوب من قبل! أقمنا في أفخر الفنادق، ولم تُدَّخر أية نفقات. لا شيء إلا الأفضل، ألا تعلمين!».

توقف قليلاً، وقد تعب من كلامه همسًا لفترة طويلة.

همست إيلينه: «هل يُكِنُّ لك الكثير من التعاطف؟ كم هذا رائع! بالطبع أنا لا أعرفه، لكن يبدو لي إن مزاجه ليس كمزاجك في شيء يا فنسنت».

«لا، ليسا كبعضهما؛ أنتِ محقة تمامًا، ربما هذا هو السبب أنني أروق له. على أي حال، هو يقول دائمًا أنني أفضل مما قد يظن الجميع، وأنا منهم، وهو ما أجد فيه المواساة تمامًا، ألا ترين ذلك؟».

«ربما يراكِ مثيرًا للاهتمام، كما تراني إليزا!»، قالت إيلينه وهى تضحك استخفافًا رغمًا عنها، ولما رأت سانت كلير قادمًا نحوهما، شعرت بوخز الضمير- كيف يمكنها أن تقارن الصدق الفخور المنبعث من شخصه ببرود إليزا التافه!

في هذه الأثناء شغلت إليزا نفسها بالخمور، وسألت فنسنت إنْ كان يفضِّل كيرش أو كوراشاو، أم أنه يرغب في كأس من الكونياك؟ ذهب فنسنت للجلوس معها، ومع العم دانيال بجوار النار، بينما جلس سانت كلير في البلكونة بجانب إيلينه.

«آه، إذن أنتِ ابنة العم العزيزة، التي أخبرني فنسنت كثيرًا عنها! ابنة العم، التي اعتنت به حق العناية»، قال مبتسما، وهو يضع يديه في جيوبه ويثبّت نظراته الصريحة على إيلينه.

كانت إيلينه على وشك أن تخبره أنه أيضًا أثبت جدارته في ذلك القسم، لكنها كبحت اندفاعها، لأنها فكرت أنه قد يكون من غير الملائم أنْ تفصح عن مقدار ما أخبرها فنسنت عن صداقتهما.

«نعم، أنا ابنة العم، التي اعتنت به!»، أجابت بالفرنسية. كانت إنجليزيتها جيدة، لكنها رأت فرنسيته ساحرة لدرجة أنها لم تعرض أن تتحدث معه بلغته الأم.

«كان ذلك في لاهاي، أليس كذلك؟».

«نعم كان هناك؛ كان مقيمًا في بيت زوج أختي».

«وأنتِ كنتِ تعيشين هناك أيضًا في ذلك الوقت، أليس كذلك؟».

بدا هذا شيئًا من فضول من جانبه، لكنه تحدث بنبرة اهتمام صادق لدرجة أنها لم تشعر بالاستياء.

أجابت: «نعم، هل أخبرك فنسنت بذلك؟».

«نعم أخبرني. فنسنت يتحدث عنكِ كثيرًا».

بدا كما لو كان يعرف الكثير عنها. لقد كتبت لفنسنت بعد هروبها من منزل بيتسي وهِنْك، لذا فالأرجح أنه يعلم ذلك أيضًا.

استطرد: «وهل سافرتِ كثيرًا؟».

«آه نعم، مع عمي وزوجة عمي. كثيرًا. أفترض أنك تنوي السفر على نطاق واسع؟».

«إلى أماكن بعيدة حتى روسيا هذا الشتاء المقبل».

لم يتحدث أي منهما للحظة. بدا لإيلينه أن كليهما لديهما الكثير ليقولاه لبعضهما، لكنهما لا يعرفان مِنْ أين يبدآن. شعرت بالفعل أنها تعرفه منذ فترة طويلة، والآن اتضح أنها لم تكن غريبة بالنسبة له على حدٍ سواء.

سألته: «هل تهتم كثيرًا بفنسنت؟».

«كثيرًا جدًا. أشعر بكثير من الأسف من أجله. لو كانت صحته أقوى، لكان بالتأكيد قد ترك بصمته على العالم. إنه يمتلك الطاقة وروح العمل الدؤوب، وكذلك رؤية واسعة للحياة. لكن ضعفه الجسدي يمنعه من التركيز على شيء واحد وإنجاحه. معظم الناس لديهم فكرة خاطئة عن فنسنت. يعتقدون بأنه كسول ومتقلب المزاج وأناني، ويرفضون أن يروا أنه ببساطة مريض. لا أستطيع أن أتخيل أن أي إنسان آخر سيكون قادرًا، رغم معاناته من مثل تلك الصحة المعتلة، على أن يشارك الكثير من موهبته وذكائه مع بقية البشر».

كانت دائمًا تُكِنُّ تعاطفًا كبيرًا لفنسنت، لكنها لم يسبق أن رأته في هذا الضوء من قبل.

قالت بعد وقفة قصيرة: «نعم، أعتقد بأنك على حق! لكن ألا تعتقد أن الرحلة في ذهنك ستكون متعبة للغاية بالنسبة لفنسنت؟ طول هذا الطريق إلى روسيا، في الشتاء؟».

«أوه لا. سيكون للمناخ البارد تأثير منشط عليه، ولن يكون مضطرًا لأن يجهد نفسه، ولا أريده حتى أن يرافقني في كل رحلة في ذهني، لكن السفر

بالقطار لا يُشَكِّل أي مشكلة- كل ما يتطلبه منه ارتداء معطفه الفرو والجلوس في إحدى عربات السكك الحديدية».

أصابتها كلماته بالريبة، كما ارتابت من حديثها مع فنسنت، أن سانت كلير يهتم اهتمامًا مبالغًا فيه براحة صديقه وصحته.

لم تستطع أن تقاوم أن تهتف قائلة: «أعتقد بأنك طيب القلب جدًا!».

رمقها بنظرة حيرة.

سألها، وهو يضحك: «ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟».

قالت، وهي تبتسم وتورد لونها قليلاً: «لا أعرف! إنه مجرد انطباع لديّ، لكنني قد أكون مخطئة، بالطبع».

أومأ بيده بحركة غامضة. كانت لمحة من تدلل تسللت إلى صوتها في الآخر، وهي ما أسفت عليها.

استأنفت كلامها: «فقط الآن كنت تتحدث عن الطاقة وروح العمل الدؤوب، وقلت إن كان شخص ما مريضًا، فإن ذلك الشخص يستحق أن يُغفر له عدم حيويته وعمله الدؤوب».

«طبعًا. ماذا تقصدين؟».

كانت ثمة صلابة هدف غير مترددة في أسلوبه، مما أربكها وأثارها. في أثناء أحاديثها الثنائية مع فنسنت في الأيام الخوالي، كانت أفكارهما الفلسفية غير المترابطة تتمايل في هذا الاتجاه أو ذاك بلا هدف، تشبه إلى حد ما دوائر الدخان، التي تنتشر في الهواء، وأخذتها محض مباشرة سؤال سانت كلير على حين غِرَّة.

أجابت بتردد: «أقصد ألن تكون ميالاً أكثر لتعذر عدم وجود الطاقة والنشاط في شخص ما عانى من حزن بالغ أكثر مما تعذره في شخص كفنسنت، مشكلته الوحيدة أن صحته مُعتلة؟».

ثبَّت نظره عليها.

«نعم سأكون ميالاً لذلك- شريطة أن يحاول أن يكون نشطًا، وفشل أثناء المحاولة، وليس غير ذلك، ليس إذا استسلم لقوة الظروف المحضة دون صراع، كما لو كانت مصيره المُقَدَّر سلفًا. هناك موقف جبري؛ وفنسنت ليس غريبًا عنه أيضًا، وليس هناك شيء أكثر هدمًا من ذلك النوع من الجبرية. سوف تتحول الحياة إلى موت معنوي إذا قعدنا جميعًا وأيدينا في حجورنا ونفكر: ما سيكون سيكون».

كانت إيلينه مندهشة ومشوشة.

هل كانت تمتلك الطاقة؟ هل استسلمت لقوة الظروف؟ لم يكن لديها جواب. شعرت بأنها صغيرة في حضوره القوي، ولم تستطع أن تركز في أفكارها.

«لكن ماذا لو كانت معاناة ذلك الشخص سببها الندم على شيء فعله في الماضي؟»، همست في تضرع تقريبًا، وعينين مليئتين بالدموع، تلعب بإصبعها بعصبية بالدلاية السوداء وتحفر طرف حذائها في البساط المصنوع من جلد الغنم. لانت ملامحه لتعبر عن الشفقة.

همس بتأكيد متسامح: «في هذه الحالة- آه نعم، يستحق أن يُسامح!».

لكن التساهل في نبرته أحرجها؛ فجأة شعرت بأنها أفشت سرها، أنها فتحت قلبها بطريقة لم تكن مناسبة، وأنها ينبغي عليها أن تتمتع بالقوة لتحتفظ بسرها.

***

لم يكن سانت كلير متأكد إلى متى سيمكث في بروكسل، لأنه كان يرغب في القيام برحلات قصيرة من هناك إلى ميشلين وأنتويرب وبروج وجنت.

وجدته العمة إليزا محبوبًا جدًا في الواقع، لكنها استاءت من نيته للتجوال في البلدان الشمالية أثناء الشتاء. كانت مؤيدة للسفر، لكن ليس للمعاناة من درجات الحرارة المتجمدة. ضحك سانت كلير، قائلاً إنه لا هو ولا فنست يعبئون بالبرد.

صحبه فنسنت في بعض رحلاته بعيدًا عن المدينة، رغم أنه لم يصبحه فيها جميعًا، وفي أثناء غيابهما دار الكثير من الكلام عنهما بين الأصدقاء غريبي الأطوار، الذين يزورون طريق لويز في الساعة الحادية عشر مساءً. عَلَّق الكونت إنه ربما قابل سانت كلير منذ بضعة سنوات؛ ويبدو إنه نوع من المحتالين، وأن على عائلة فيره التعامل معه بحذر. رفع العم دانيال كتفيه تجاهلاً لسماع هذا، لكن إيلينه رمقت الكونت بنظرة إزدراء قاتلة، وما لبثت أن آوت إلى فراشها في حجرة نومها بعد ذلك، حيث كانت لا تزال قادرة على سماع الصيحات عالية الصوت للسيدة الشقراء التي ترتدي الفستان المخملي الأحمر وصرخات إليزا، وهى تضحك.

حَال الاحتفال الصاخب في حجرة الاستقبال بينها وبين النوم، على الرغم من القطرات التي أخذتها، لكن بالرغم من تيقظها وتفاقم الضجيج، شعرت بالهدوء بشكل مثير للدهشة. كان التفكير في سانت كلير مطمئنًا بالنسبة لها، ربما مهدئًا أكثر من الشراب البارد، الذي وصفه لها الطبيب، ربما كان هناك شئ أقرب إلى الحياة من النفاق في نهاية الأمر، ربما كان هناك شيء اسمه الصداقة والإخلاص الحقيقي، باختصار: الحقيقة.

ظَلَّ سانت كلير وفنسنت بعيدًا لمدة أسبوع، وفي تلك الأثناء افتقدتهما إيلينه كثيرًا. وصلا في اليوم السابق على ليلة رأس السنة، ودَعَتْهُما إليزا على حفل السهرة، الذي ستقيمه في المساء التالي، والتي وعدت بأن يكون فاخرًا جدًا.

* * *

في حوالي الساعة التاسعة والنصف من المساء التالي بدأت المجموعة متباينة الألوان من الضيوف فى الوصول، ورحب بهم العم دانيال وإليزا ترحيبًا حارًا.

كان الكونت والممثل وصانع المجوهرات وقرينته متوردة الوجه أول

الواصلين، بعد ذلك رأت إيلينه عرضًا غريبًا من طابور الضيوف يمرون بالمُضيف والمُضيفة، الرجال بمسحة من ثراء حديث أو بإسراف بوهيمي، والسيدات بألماس كبير الحجم وبطانات متدلية وراء فساتينهن.

لم تشعر بالألفة في هذه البيئة، لكنها تسَلَّت بكل أولئك الاشخاص المتميزين يتحركون فى حجرة الاستقبال المؤثثة أثاثًا مسرفًا بالتحف الفنية. تلألأ ضوء الشموع، الذي نشرته الثريا الڤينيسية بصورة غريبة على مجموعات الأنتيكات المصنوعة من البرونز والخزف والقماش. كان الضيوف غير عاديين تمامًا بشكل أو بآخر، بما يتماشى مع بُغْض إليزا المعلن للمألوف والمعتاد.

ظلَّت إيلينه إلى حد ما بعيدة، تحوم على مقربة من العم والعمة، وسعدت عندما وقع بصرها على سانت كلير وفنسنت وهما يدخلان الحجرة. كان كلاهما يرتدي ملابس السهرة، ووجدتهما زوجًا من الأصدقاء المتميزين فى المظهر بشكل ملحوظ.

لكنهما وبمجرد أن أظهرا نفسهما لمضيفيهما، يبدو أنهما لم يلحظا إيلينه وسط الزحام، وشعرت بأنها تائهة إلى حد ما. كانت تحت رحمة سيدة عجوز ضئيلة الحجم وتضع زهرتيْن حمراوتيْن في شعرها ووجهها بنيّ ومجعد كخشب الجوز، والتي ظلت تتكلم دون توقف عن كل الرسامين والنحاتين الجديرين بالاهتمام من معارفها، وعن كيف أنها ناصرت قضيتهم باعتبارها راعية للفنون.

سألت، وهى تضيق عينيها: «سيكون حفل سهرة فنية الليلة، أليس كذلك؟».

أجابت إيلينه في حرج متزايد: «نعم أظن ذلك».

«وأنتِ تغنين، أليس كذلك؟».

«أوه لا، لم أعد أغني، لقد منعني طبيبي من ذلك».

«أفترض أنكِ كنتِ ستصعدين على المسرح بدلاً من ذلك؟».

«أوه لا، لا أعتقد ذلك ...».

تقدم الكثير من الرجال نحوها وانحنوا تحية للسيدة العجوز، بعدها قدمتهم جميعًا لإيلينه، مؤلفون موسيقيون، وعازفون، وممثلون، ورسامون، موهوبون لكنهم فنانون غير مفهومين لأى أحد، والذين، ولا شك، لن يمر وقت طويل حتى تصبح أسماؤهم على كل لسان.

عندما كانت إيلينه محاطة بالعبقريات غير المفهومة شعرت بالدوار، وشعرت بالكثير من الارتياح عندما رأت سانت كلير يشق طريقه نحوها.

قال بهدوء: «ياله من حصار! لم أستطع أن أشق طريقي عبر الزحام».

تجهمت إيلينه.

«دعنا نتحرك إلى الجانب قليلاً، هناك مساحة أكبر هناك!»، قالت متلعثمة، وهى تهرب برشاقة من العباقرة. تنفست الصعداء، وهى تستريح على بوف، تربت بعصبية على الزخارف الخرزية الذهبية المصقولة في بوديها المفتوح من الساتان الأسود.

قالت في نفور خفيف: «يا ربي كنت أشعر بالكثير من الملل بالفعل، لكن أخبرني كيف كانت الأحوال في جنت وبروج؟».

ظل واقفًا بجانبها، وأخبرها قليلاً عن رحلته، بينما دار الحشد حولهما ودار الخدم يقدمون النبيذ والشربات والكيك.

قال سانت كلير بعدما قطع حكايته: «بالمناسبة، هل تعرفين ما وسائل الترفيه والتسلية، التي ستُعرض هذا المساء؟ توجهت كل العيون على إليزا، التي كانت تروح وتجيء أمام الكونت في تضرع ظاهر.

ورَدَّ الكونت باستعراض للرفض المتواضع.

قالت إليزا في تملق: «لا، لا يمكن أن تخذلني! أتوسل إليك!».

ضحكت إيلينه، وهى تقول: «أتوقع أنها طلبت منه أن يلقي بعض الشعر، لكنه خجول للغاية!».

كانت على حق. ألقت إيلينه نظرة انتصار على السيدات بجوارها عندما

رجع الكونت أخيرًا عن قراره. اتخذ وضعًا خطابيًا وأجلى حنجرته. سوف يُلقي قصيدة ملحمية تحكي عن غزو بيزارو للمكسيك ومونتيزوما والأزتك.

خفتت الأصوات إلى همسات خافتة، وفي السكون الذي أعقب ذلك انطلق الكونت في موجة تلو موجة من شعر إسكندر الهادر كالرعد، بكثير من حروف «الراء» الرنانة. ومن الناحية البعيدة من الحجرة أرسل فنسنت إيماءة شقية برأسه لإيلينه، وارتفع صوت الكونت إلى الصياح.

بادرت السيدة العجوز ذات الزهرتين الحمراوتين، والتي عاودت الظهور بجانب إيلينه، «رفيع المستوى، ألا توافقينني؟».

أومأت إيلينه لها برأسها دلالة على الموافقة.

إلا أن الجمهور لم يكن موافقًا بالإجماع على تقديره؛ هنا وهناك تبودلت النظرات والتنهدات اليائسة، وعلا صوت الهمس أكثر.

همست إيلينه، وهى تبتسم لسانت كلير: «الصبر والاستسلام!».

رد على ابتسامتها بابتسامة، ولما كان يقف بالقرب منها جدًا، رأت أن القصيدة الطويلة لم تبدو مملة على الإطلاق.

عندما خَفَتَ صوت المقطع الأخير بقصيدة الكونت ليصمت أخيرًا، اندفع الجمهور للحركة. كان هناك ضحك ومزاح مرة أخرى، واصطفت العديد من السيدات فى صف مستقيم لتهنئة الكونت على أدائه.

سأل سانت كلير بضحكة خفيفة: «ألا يمكننا أن نلوذ بأي مكان قبل أن تبدأ التسلية القادمة؟».

قالت إيلينه: «سنكون على حريتنا أكثر فى البيت الزجاجي».

بشيء من الصعوبة شقا طريقهما خلال الزحام إلى الحديقة الشتوية الصغيرة. كانت خالية إلا من زوجٍ من الرجال المسنين، اللذين جلسا على طاولة تحمل تشكيلة من كؤوس النّبيذ الفارغة، وشابٍ في محادثة محتدمة مع سيدة شابة ظلت تخبط ركبتها بمروحتها. فاح عطر مثير للحواس مثل نفس

الفواكه الاستوائية تحت أصص النخيل وشجيرات الفانيلا وأزهار الأوركيد، ومن خلال النوافذ شاهدا عاصفة ثلجية بيضاء مثل الدوامة بالليل.

لم يكادا يجلسان حتى سمعا عزفًا على أوتار البيانو في حجرة الاستقبال. كان الممثل، الذي كان زائرا معتادًا يمتلك صوتًا رخيمًا، وكان سيغني بعض الثنائيات الغنائية مع صديقة زوجة صانع المجوهرات الشقراء، والتي ارتدت فستانًا فاخرًا أزرق اللون من أجل المناسبة. استطاع سانت كلير وإيلينه رؤيتهما، وانعكست صورتهما على المرايا، التي تزين الحديقة الشتوية؛ اتخذا موقعهما بجوار البيانو بينما جلس العازف المصاحب- وهو أحد المؤلفين الموسيقيين غير المعروفين- للعزف.

انفجرت إيلينه: «لم تكن لدي أي فكرة أنها تغني! مفاجأه لطيفة (بالفرنسية)! لكن استمر فيما كنت تقوله».

بدأت حمرة ترتعش على وجنتيها، واستعادت ظلاً من جمالها وسحرها السابق. استمعت إليه باهتمام بالغ، ترفع كأسها من الشمابانيا إلى شفتيها من آنٍ لآخر لتشرب رشفة، ومن حجرة الإستقبال سَرَت صيحات السوبرانو العالية التي تتنافس مع زحف الباس الخفيض في تنافر نغمات غنائي.

تدريجيًا، امتلأت الحديقة الشتوية بصخب الضيوف، الذين كانوا يضحكون ويدردشون في ارتياح للهروب من الأغنية الثنائية.

سار فنسنت أيضًا على مهلٍ للداخل، ولما وقع بصره على سانت كلير وإيلينه شق طريقه نحوهما.

سأل باللغة الفرنسية: «هل تمانعان أن أنضم إليكما؟».

قالت إيلينه: «بكل ممنونية!».

شعروا بأنهم إلى حد ما منعزلون عن باقي الحشد، كما لو كانو يحضرون حفلاً عامًا ما؛ لم يكونوا يعرفون أحدًا، وكانوا يتفرجون على المشهد من حولهم في سخرية هادئة. تمددت مجموعة الرجليْن المسنيْن من كؤوس النبيذ الفارغة

بشكل كبير، وتحت إحدى سعفات شجرة موز متدلية يمكن رؤية الشاب، وهو يزلق ذراعه حول خصر صاحبته، ومن ركنٍ آخر جاء صوت زجاج مكسور، عندئذٍ بدأ أحد الضيوف المثيرين للضجة، والذي عرفه فنسنت أنه شخص يقول إنه أمير روسي، في المزاح ومداعبة لاعبتيّ سيرك. لم يستطع فنسنت أن يتخيل كيف تمكنوا من أن يقدموا أنفسهم للعم دانيال.

ضحكت إيلينه: «آه، لا بد أنهم تسللوا من الباب الخلفي! أنا متأكدة أن إليزا لا تعرف إنهم هنا!».

* * *

أخذت وسائل التسلية مسارها في جناح الاستقبال بالمزيد من الأغاني والشعر الجاد والمونولوجات الكوميدية، لكن انتباه الجمهور إلى المؤدين بات فاترًا بمرور المساء ببطء، وعلا صوت الهرج والمرج. بدأ الأمير الروسي يطارد لاعبات السيرك في أنحاء الحديقة الشتوية، محاولاً تقبيلهما، والرجلان المسنان اللذان كانا مخمورين إلى حد ما بدآ جدلاً عنيفًا.

انسلَّ العاشقان الشابان خارجًا.

قال سانت كلير لإيلينه: «أعتقد بأنني لا بد أن أنصحكِ بأن تبقي قريبة قليلاً من عملكِ وعمتكِ؛ يبدو أن الصحبة هنا قد صارت مختلفة إلى حد ما». كان فنسنت قد تركهما. وقفت إيلينه، وهي تشعر بشيء من القلق والحذر؛ وتبعها سانت كلير، لكن في الصالون وجدا إليزا وسط تجمع شديد الضوضاء، كانت الشمانيا أريقت، والعديد من السيدات يدخنَّ السجائر.

قاد سانت كلير إيلينه إلى البلكونة. لمعت نظرة صارمة وعابسة في عينيه الفخورتين، وارتجفت شفتاه للحظه عندما شاهد إليزا وصديقاتها.

«كيف تصادف أنكِ تقيمين هنا؟»، سألها فجأة، بنبرة استهجان خفي: «كيف يمكن أنني لا بد أن أقابلكِ هنا؟».

نظرت إليه في دهشة.

ردَّت عليه ببرود: «لا أعرف ما الذي تعنيه».

«أنا أسألكِ ما الذي أتى بكِ إلى هنا في المقام الأول. لم أكن لأظن أن هذا النوع من الصحبة منسجم معكِ؟ أليس كذلك؟».

بدأت ترى مقصده، وصُدِمَت لجرأته.

رددت ببطء: «ليس منسجمًا معي؟ هذا النوع من الصحبة؟ هل يمكنني أن أذكّرك بأنني في بيت عمي وعمتي؟».

«أعرف ذلك، لكن يبدو لي أن الصحبة، التي يحتفظ بها عمكِ وعمتكِ لا ترقى لمعاييركِ. أفترض أنكِ هنا بموافقة مَن أقاربكِ الآخرين؟».

بدأت تنتفض، حَدَجته بأكثر نظرة استعلاء استطاعت أن تنظر بها إليه.

«مستر سانت كلير! لا أستطيع أن أفهم كيف تشعر بحقك في أن تُخْضِعَني لاختبار. أعتقد بأنني حرة في أن أفعل ما أشاء، وكبيرة بما يكفي لأن أختار أصدقائي دون موافقة مسبقة من أي أحد على الإطلاق، ليس» من أقاربي الآخرين»، وليس منك أيضًا».

كانت نبرتها حادة كالإبرة. أرادت أن تمضي بعيدًا. أمسك بيدها، لكنها أفلتتها منه.

«ابقي للحظة أتوسل إليكِ. سامحيني إن جرحت مشاعركِ: لم تكن تلك نيتي، لكنني لا أستطيع أن أقاوم الاهتمام بكِ. لقد سمعت كثيرًا جدًا عنكِ من فنسنت. عرفتكِ قبل أن يقع بصري عليكِ. كنت أفكر فيكِ، كيف يمكن أن أصيغها، كأخت مجهولة، تمامًا مثلما أفكر في فنسنت كأخ، وها أنت ذي، تختلطين بأناس-».

انفجرت ببرود كالثلج: «شكراً لك جزيلاً على نواياك الطيبة، لكن هل يمكنك أن تجد وسيلة أكثر ملاءمة للتعبير عن اهتمامك الأخوي في المستقبل. تقول إنك عرفتني قبل أن تقابلني. هذا جائز، (بالفرنسية)، أنا عرفتك منذ أسبوع، وهذه ليست مدة طويلة بما يكفي لأن تجرؤ على التحدث إليّ كما لو

كنت أحتاج توجيهًا. أنا ممتنة كثيرًا لاهتمامك، لكنني لستُ بحاجة إليه».

أومأ بإشارة تدل على نفاد الصبر، وأمسك بها مرة أخرى. كانت لا تزال ترتجف من الغيظ، لكنها وقفت في مكانها.

قال بدفء: «أوه أرجوكِ لا تغضبي مني! ربما كنتُ صريحًا أكثر من اللازم، لكن ماذا عنكِ- هل ترين الصحبة الحالية مناسبة؟».

«لا أرى سببًا لا يجعل معارف عمي وعمتي معارفي أنا أيضًا. أيًا كانت الحالة، هذا ليس من شأنك».

«لم لا تسمحين لي بأن أهتم بكِ؟».

«لأنها جرأة منك».

سألها وهو يمد يده: «أليس هناك عذر لمثل هذه الجرأة، إن كانت نابعة من إحساس بالصداقة الحقيقية؟».

قالت ببرود، متجاهلة يده: «آه، بالتأكيد! لكن من فضلك وفِّر عليّ جرأتك ومشاعرك الودودة أكثر من اللازم في المستقبل. الكثير من الاهتمام الزائد عن اللزوم قد يكون مرهقًا».

غادرت، وانطلقت مسرعة من البلكونة. راقبها سانت كلير، الذي صار لوحده الآن، وهي تختلط بالحشد، يحتك كتفاها بلاعبتيّ السيرك والأمير الروسي، وبالسيدة الشقراء، وبالرجليْن المسنييْن الثمليْن، وبالكونت الشاعر.

* * *

انتهى الحفل أخيرًا، وتأملت إيلينه في عزلة حجرتها مشاعرها المجروحة. كانت الساعة الخامسة صباحًا، وشعرت بأنها منهكة لدرجة تمنعها من خلع ملابسها.

لم تكن جرأته هى التي أثارت غيظها، لكن مرَّ وقت طويل منذ أن استطاعت أن تنسى أحزانها، حتى ولو مؤقتًا. في ذلك المساء كانت بدأت بالفعل في أن تستمتع قليلاً، كما في الأيام الخوالي، لكنه ذهب وأفسد متعتها البريئة

بملاحظاته عن الصحبة كونها غير مناسبة، كما لو كانت لا تعرف ذلك! بل كان تحديدًا لأنها تعرف، ولأنها من أعماقها لا يمكن إلا أن توافقه، لدرجة أنها شعرت بأنها جُرِحَت. لِمَ لَمْ يستطع أن يمنحها أمسية التسلية الوجيزة تلك؟ لِمَ كان عليه أن يذكر «أقاربها الآخرين»؟ ما شأن بيتسي وهِنْك إذا انسجمت مع بعض معارف عمها غير التقليديين؟ لكنها لم تنسجم مع أي أحد؛ الأشخاص الوحيدون الذين تبادلت معهم أكثر من بضع كلمات كانوا فنسنت وهو. لقد استمتعت بالرغم من الصحبة، ألم يستطع أن يرى ذلك؟

كانت لا تزال ترتدي فستانها الساتان الأسود عندما ألقت بنفسها على أحد الآرائك لتفكر، كلما تأملت في الإهانة، التي عانت منها أضحت أضعف، لكن قبل أن تملص منها تمامًا أوقفت نفسها. نعم، رأت في تصميم متجهم أنها جُرِحَت. مجروحة جدًا في الواقع.

من ناحية أخرى، هل كان الأمر فعلاً خطيرًا لهذه الدرجة؟ لقد أثار اعتراضات بالنيابة عنها على الشلة غير التقليدية، التي وجدت نفسها بينهم، معتبرًا إياهم مجموعة سيئة السمعة. لقد عبَّر عن استيائه بصراحة قاسية مؤلمة، وما زالت تستطيع أن تسمعه يقول: «كيف يمكن أنكِ أتيتِ إلى هنا؟ هل أنتِ هنا بموافقة من أقاربكِ الآخرين؟».

بعبارة أخرى، كان مهتمًا بصالحها: مهتم بشكل حقيقي وصادق، وتملكها الشوق لتطلب غفرانه، ولتسأله بما ينصحها بأن تفعل. يا لها من سعادة وهناء أن تسير وراءه ببساطة، لأن تستسلم كامل الاستسلام ... كم هذا مريح ... وكم هو لذيذ.

في الظهيرة، وبعد إغفاءة وجيزة، دخلت حجرة الاستقبال شاحبة جدًا وبهالات سوداء تحت عينيها. كانت إليزا تجادل الخادمة والخادم في صخب لترتيب آثار عربدة المساء السابق. وصرحت بأنها مسرورة جدًا بحفل سهرتها.

قالت: «سنة جديدة سعيدة يا إيلينه! لا يمكنكِ أن تتخيلي عدد الكؤوس،

التي كُسِرت ليلة أمس! أشكر الله أنها كانت مستأجرة فقط. إذا كنتِ تريدين تناول بعض طعام الإفطار، فستجدينه في حجرة الطعام (بالفرنسية). اذهبي الآن، وإلا سوف تتعطلين هنا، إنْ كنتِ لا تمانعين أن أقول ذلك. لكنها كانت ليلة ممتعة ليلة أمس، أليس كذلك؟».

ذهبت إيلينه إلى حجرة الطعام. تناولت لقيمات من قطعة توست وبقيت لفترة من الوقت، على أمل أن يظهر سانت كلير. لكن لا هو ولا فنسنت ظهرا ذلك اليوم. ولا في اليوم التالي أيضًا، ولا اليوم، الذي يليه كذلك. لو جرأت إيلينه لأرسلت له رسالة قصيرة.

قبل أن يصل الأسبوع إلى نهايته تلقت رسالة من مدام فان رات، بأخبار عن پول، الذي كانت تراه من آنٍ لآخر رغم أنه ذهب للعيش في بوديخرافن؛ كان يبدو غير سعيد بشأن شيء ما، لكن أمه لا تعلم ما هو. شعرت بالأسف للقول إنها وابنها بديا أنهما أصبحا غريبين نوعًا ما، وأعربت عن شكها فيما إذا كانت أمًا حنونة بما يكفي معه عندما كان طفلاً.

قالت إيلينه لنفسها: «هى، ليست حنونة بما يكفي؟ لم أعرف أحدًا أبدًا كان حنونًا هكذا... معي، على أي حال».

واصلت القراءة، وعلمت بأن لي لي تنتظر مولودًا، وأن موعد ولادتها في مارس، لكن في نهاية الرسالة تلقت صدمة. چين فيريلاين توفيت في بانجيل. امتلأت عينا إيلينه بالدموع.

«يا إلهي! يا إلهي!»، كررت ببطء، وهزَّ بكاء عصبي جسدها. صديقتها المسكينة ماتت! ياه، كم رعتها چين بحنان عندما كانت مريضة بالتهاب الشعب الهوائية في تلك الشقة الصغيرة الضيقة بالطابق العلوي! كم كانت طيبة ومريحة دائمًا، وكم كانت مخلصة لزوجها وأولادها! والآن توفيت ... ماذا أعطتها الحياة؟ لا شيء، لا، لا شيء! كان لمدام فان رات أحزانها الخاصة، وكذلك پول. ستحصل لي لي على نصيبها من الحزن وخيبة الأمل أيضًا بعدما

تصبح أمًا. ما هى الحياة إلا أحد أشكال البؤس الكبير ...

«چين ماتت! چين ماتت!»، هسهس صوت في أذنيها، وفي عقلها. كان لديها الكثير لتشكر چين عليه، ولن تراها مرة أخرى، لأن چين ماتت! يا الله، لقد ماتت!

ألقت بنفسها مرة أخرى على كرسيها، وخبأت وجهها في يديها، ولما سمعت وقع أقدام في حجرة الانتظار تطلعت لأعلى، وقبل أن يكون لديها وقتٌ لتستجمع نفسها، ظهر خيال ما في المدخل. كان سانت كلير. حدقت فيه بلا تعبير من خلال دموعها.

قال بهدوء، لما رأى أنها كانت تبكي: «آمل أن تسامحيني على إزعاجكِ. قالت الخادمة إنكِ بالبيت ومستعدة لاستقبال الضيوف. هل تفضلين أن أجيء في الغد؟».

قامت، ومسحت عينيها وابتسمت ابتسامة حزينة.

قالت: «هل ترغب في الذهاب حقًا؟ أنت لا تزعجني؛ بالعكس، أنا سعيدة لرؤيتك. تفضل بالجلوس. هل فنسنت بخير؟».

«شكرًا لكِ، إنه على ما يُرام!»، قال، وفي نبرته استطاعت إيلينه أن تسمع المودة، التي يُكِنُّها لفنسنت، «لقد كنا في ليبج وڤيرڤييه لزيارة بعض المصانع».

«أكان ذلك السبب الوحيد أنني لم أركما منذ حفل السهرة؟».

تطلع فيها للحظة.

قال: «نعم. ذلك هو السبب الوحيد».

«إذن لم تكن غاضبًا مني؟».

«مطلقًا. أنا الذي كنتُ مُخطئًا. لم يكن ينبغي أن أتحدث إليكِ على ذلك النحو. لقد كنتِ على حق».

قالت: «لا أعتقد بأنني كنت على حق. كنت وقحة معك، وأنا آسفة. هل

ستسامحني؟ أم هل سترفض أن تمد لي يدك، تمامًا كما رفضتُ أنا أن أمد يدي؟».

مدت يدها، ومد يده بسرعة.

أجاب: «أنا أسامحكِ بكل سرور! وأنا مقدرٌ لرغبتكِ في الاعتراف بكونكِ مخطئة قليلاً».

«إذن هل ستواصل الاهتمام بي؟ وهل ستصدقني عندما أقول إن صداقتك وقلقك ليسا مُرْهِقَيْن مطلقًا بالنسبة لي، بعكس ما قلتُ من قبل؟ أيمكنني أن أعتمد على ذلك؟».

«بالتأكيد يمكنكِ».

«شكرًا لك. شكرًا جزيلاً. لم أكن مخطئة عندما قلتُ إنك طيب القلب. أنت أكثر من طيب، أنت نبيل».

ضحك ضحكة قصيرة.

قال: «كم تبدين رسمية! رزينة جدًا!».

احتجت: «لا! لست رزينة، ولم أكن رسمية أيضًا. أرجوك لا تقل ذلك. أنا أعني ما قلته. لا أستطيع أن أخبرك كم سررتُ أنك جئتَ لرؤيتي، وأنك لستَ غاضبًا مني، خاصة الآن. كنتُ مكسورة القلب جدًا.».

«كنتِ تبكين، أليس كذلك؟».

ارتعشت الدموع فوق رموشها.

«تلقيت للتو أخبارًا محزنة جدًا: صديقة عزيزة من صديقاتي توفيت. كانت ضعيفة ورقيقة جدًا، ومع ذلك كانت مطلوبة للغاية؛ لا يمكن أن أتخيل ماذا سيصير حال زوجها وأطفالها المساكين، لكن ما الذي يمكن فعله؟ الناس الذين يعيشون حياة مفيدة يموتون، والناس أمثالي الذين يشكلون عبئًا على الجميع، بما في ذلك على أنفسهم، يظلون على قيد الحياة».

«لِمَ تقولين ذلك؟ هل أنتِ متأكدة أنه لا يوجد أحد يحتاج إليكِ ويحبكِ؟ وأليس هناك من تحبينه؟».

ابتسمت ابتسامة سخرية.

واصل كلامه: «لأنه لا بد أن يكون هناك أناس يهتمون بكِ».

«ماذا يمكنني أن أقول؟ لقد توفي كلٌّ من والديّ، وأختي- حسنٌ، أتوقع أن فنسنت أخبرك عنها. هل تعلم أنني هربت من منزل زوج أختي؟».

«نعم».

«ومنذ ذلك الحين، وأنا أنجرف من مكان إلى آخر. دائمًا وسط الغرباء. الآن استضافني عمي وزوجته للإقامة معهما، لكن بشكل ما هما غريبان أيضًا. في لاهاي عشتُ مع أم زوج أختي المسنة لفترة؛ كانت طيبة للغاية معي، وكنت مخلصة لها، لكنني أخجل أن أقول إنني لم أكن أبدًا طيبة معها».

قال: «أشعر بكِ كثيرًا! وأود إنْ كان هناك شيء يمكن القيام به للمساعدة. هل فكرتِ بأن تجدي شيئًا تشغلين نفسكِ به؟ هل تشعرين بالملل إلى حد ما؟ ألا يمكن أن يكون ذلك السبب في تعاستكِ؟».

«كنتُ أبحث عن أشياء أعملها في لاهاي، وسافرت بقدر لا بأس به، لكنني لا أزال أشعر بأنني تعيسة. كل شيء خطأي أنا، كما ترى. لقد ألقيتُ بفرصتي في السعادة بعيدًا».

بدأت في البكاء، وأمسكت رأسها بين يديها.

قال متضرعًا: «أخبريني، أهناك أي شيء يمكنني القيام به؟».

«لا شيء، شكرًا لك. حالي أصعب مِنْ أن أطلب المساعدة ... من أي شخص».

«ولكن إغراق نفسك في الأفكار التعيسة لدرجة الانعزال عن كل شيء آخر ليس أمرًا جيدًا على الإطلاق. أنا أنصح بشدة بعكسه. أنتِ بحاجة لأن تكوني شجاعة، لكي تنهضي بنفسك عن معاناتكِ. كل الناس يعانون في وقت ما. هيا،

عِديني أنكِ من الآن فصاعدًا أنكِ ستحاولين أن تكوني شجاعة».

أجهشت بالبكاء: «لكنني لستُ شجاعة، أنا ضعيفة! أنا مكسورة ومُدَمَّرة».

بدت عاجزة ومضطربة للغاية لدرجة أنه لم يعرف ماذا يقول لها. فاض قلبه بالشفقة، شفقة اختلطت باليأس من العثور على وسيلة لمساعدتها. إلا أن أمنيته الوحيدة كانت فقط محاولة مواساتها، مهما يكن.

صاح في حزم: «لا! أنتِ لستِ مكسورة. تلك مجرد عبارة يستخدمها الناس. أنتِ صغيرة، وحياتك كلها أمامكِ. قاطعي ماضيكِ، أخرجيه من ذهنكِ».

قالت وهي تبكي: «ولكن كيف؟ كيف يمكن لي أن أفعل ذلك؟».

كان يدرك أنه، أيضًا، استخدم نفس هذه العبارة. كان يدرك أيضًا أن النفس البشرية يمكن أن تغدو مشوهة بشكل دائم بسبب المعاناة والكرب، الذي عانت منه في الماضي.

قال: «قلبي معكِ! أشعر بالكثير من الشفقة عليكِ، أكثر مما شعرت به إزاء أي شخص آخر من قبل».

صرخت في انفعال: «ذلك هو الشيء الوحيد، الذي يمكنك القيام به من أجلي! أعطني شفقتك! فإنها سوف تفيدني! ألم تقل أنك تعرفني قبل أن تقابلني، وأنني مثل أخت مجهولة بالنسبة لك؟».

نهض واقفًا، ووضع يديه على كتفيها الواهنيْن وثبت نظره عليها.

قال بحرارة، لدرجة أنها يمكن أن تموت، وهي تشعر بعميق الامتنان، «بالتأكيد! والآن وقد قابلتكِ بالشكل المضبوط، فإنني سأفعل كل ما في وسعي لمساعدتكِ. لا بد أن تخبريني كل شيء عن نفسك. أنا سأجعلكِ شجاعة، وسوف ترين».

رَبَّت على الكتف، كما يحدث بين الرفاق. كان قلبها محمومًا بالندم: عجبًا، لِمَ لَمْ تلتقِ به قبل ذلك؟ كم كان رائعًا أن تتواضع أمامه وتطلب الغفران!

***

انقضى أسبوع، لم يرَ خلاله العم فيره وزوجته فنسنت ولا سانت كلير لأنهما كانا مسافريْن في هولندا. كان هناك حديث عن حفل تنكري سوف يستضيفه الكونت. لن يحضر العم دانيال مرتديًا زيًا مزخرفًا متعدد الألوان، لكن إليزا سوف ترتدي كراقصة شرقية، وكانت إيلينه التي هجرها خيالها تفكر في ارتداء نفس الشيء.

عندما وصلت الدعوة فكرت إيلينه في سانت كلير. ماذا سيقول إذا قَبِلَت؟ لكن لم يكن لديها الرغبة في قضاء المساء بالبيت وحدها، لذا طردت الفكرة من ذهنها وركزت على زيّها.

عاد الصديقان في اليوم السابق على الحفل. ظنت إيلينه أنها رأت ومضة من قلق في عينيّ سانت كلير عندما سمع بالحدث، لكنه لم يبدِ أي تعليق. في مساء اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة والنصف زار هو وفنسنت طريق لويز. كان كلاهما دُعِيَ للمشاركة في الحفل؛ قَبِلَ فنسنت الدعوة، لكن سانت كلير لم يقبلها. كان يود رؤية إيلينه، لكن قيل له إنها بدأت للتو في وضع مكياجها، وعندما كرر سانت كلير طلبه بشيء من الاستعجال، أرسلت إيلينه له رسالة شفهية أنها سوف تراه بعد قليل وطلبت منه أن ينتظر.

كانت حجرة الاستقبال مهجورة، لأن العم دانيال وإليزا كانا يستعدان أيضًا. جلس فنسنت، الذي كان يرتدي ملابس السهرة على الأريكة وتناول صحيفة لانديبوندونس للمرور سريعًا على الأخبار.

وقف سانت كلير في البلكونة ويداه مدسوستان في جيوبه، يحدق خارج النافذة في الثلج اللامع لمعانًا داكنًا كئيبًا تحت مصابيح الشوارع. دخل الخادم بالشاي للرجال.

عَلَّق فنسنت بالإنجليزية، وهو يُقَلِّب الشاي ببطء، «لا بد لي أن أقول إنني معجب بشجاعتك يا لورانس! هل أنت متأكد أنها سوف تتقبل الأمر كله بروح ودية؟».

أجابَ سانت كلير بحزم، ورفض تناول الشاي المُقَدَّم له، «ليس أمامي خيار. هذه هي الطريقة الوحيدة».

عندما ذهب الخادم لاذا بالصمت لبعض الوقت حتى دخلت إيلينه. أخفى مسحوق الوجه الوردي شحوب جلدها؛ كان شعرها مُزينًا بالفعل من أجل الحفل بسلاسل من القطع المعدنية المتلألئة، والتي تهدلت في ثلاثة مستويات على جبينها. لم تشرع في ارتداء زيها أبعد من ذلك، ولفَّت نفسها في روب أبيض خفيف في شيء من عجالة. نهض فنسنت واقفًا، واعتذرت عن الحالة، التي كانت فيها، لكنها ومع ذلك، بدت مغرية.

قالت بهدوء لسانت كلير، وهي تمد يدها: «أعتقد بأنك كنت تريد التحدث معي على وجه السرعة؟ لذا أرجو أن تعذرني لأنني لم انتهي بَعْدُ من ارتداء ملابسي. تفضل بالجلوس».

جلسا، بينما ذهب فنسنت إلى الحديقة الشتوية مع صحيفته. نظر سانت كلير باهتمام إلى إيلينه.

سألت: «ما الذي تريد أن تقوله لي؟».

«أولاً وقبل كل شيء، لا بد أن أعتذر عن إزعاجكِ بهذه الوقاحة الشديدة خلال تحضيراتكِ للحفل».

«لا لا عليك؛ لديّ متسع من الوقت».

«أنا ممتن للغاية أنكِ جئتِ على الفور. أرجو أن تفهمي أنني لم أكن لأتدخل لو لم يكن هناك سببٌ وجيه. لديّ طلب أريد أن أطلبه منكِ».

«طلب عاجل؟».

«في الواقع، طلب عاجل، وأنا أجازف بأن أجعلكِ تغضبين مني جدًا عندما أخبركِ به؛ وأنكِ سوف تُجْرَحين وسوف تقولين لي بألا أتدخل فيما لا يعنيني».

بدأ يتضح لها تدريجيًا وبشكل غامض ماذا سيكون طلبه.

قالت ببساطة: «هيا إذن، قل لي ما هو!».

«قلتِ إنني قد أهتم بكِ كأخ من شأنه الاهتمام بأخته. أهذا صحيح أم أنني مخطئ؟».

«لا، هذا صحيح تمامًا».

«حسنٌ، لو كنتِ أختي لكنتُ طلبت منكِ أن تعملي معي معروفًا كبيرًا بعدم الذهاب إلى ذلك الحفل الليلة».

لم تُجِب.

«لو كنتِ أختي، لأخبرتكِ بأنني قمت أنا وفنسنت ببعض الاستفسارات حول قائمة الضيوف في الحفل، وأنني واثق أن نسبة كبيرة من الضيوف أسوأ سمعة من بعض الناس الذين يعدهم عمكِ وزوجته بين أصدقائهما. لو كنتِ أختي لما عبَّرت عما بداخلي بأكثر صراحة من ذلك، لكن آمل أن تتفهمي قلقي، الآن وقد صار لديكِ فكرة ما عن نوع الناس الذين دعوا للحفل».

خفضت عينيها.

«وبالتالي، وفي مجازفة بالتدخل في شأنٍ لا يعنيني، وفي مجازفة أن يشعر عمكِ وزوجته بالاستياء من التدخل في شؤونكِ، وفي مجازفة أنكِ نفسكِ، وغفرتِ لي ذات مرة بالفعل تصرفًا طائشًا، سوف تغضبين مني جدًا، أطلب منكِ مرة أخرى: من فضلكِ لا تذهبي إلى الحفل. أنتِ لا تنتمين هناك».

كانت لا تزال صامتة، تلوي حزام روبها حول إصبعها.

سألها: «هل أنتِ غاضبة جدًا؟».

أجابت بهدوء شديد بعدما توقفت لبرهة: «لا، لستُ غاضبة. سأفعل كما تطلب. لن أذهب».

صاح في فرح: «هل تعنين ذلك؟».

قالت: «أعني ذلك. لن أذهب. أنا ممتنة جدًا لك لإجراء استفسارات حول نوع الناس الذين سيكونون هناك. لأخبرك بالحقيقة، كان لدي شعور بأنك قد لا توافق، لكنني خِفْتُ من الاضطرار للبقاء في البيت وحدي تمامًا. أجد ذلك

مثيرًا للاكتئاب جدًا».

ردد مبتسمًا: «لديكِ شعور بأنني قد لا أوافق؟».

أجابت: «نعم! أنت صديق كريم معي؛ وأكره أن أفعل أي شيء ضد رغباتك. بالنسبة لليلة- رغباتك أوامر».

همس، وهو يضغط على يدها: «شكرًا لكِ! أقدر ذلك كثيرًا».

«أوه، وأنت كذلك!»، قالت بابتسامة زاهية، رغم أن انقيادها راعها إلى حد ما. «هل تدرك أن ترتيب كل هذه القطع المعدنية في شعري استغرق مني ساعة تقريبًا؟ كل ذلك من أجل لا شيء!».

قال بجدية: «أنا جاد- أقدر ذلك كثيرًا، فعلاً!».

دخل العم دانيال.

«بونسوار سانت كلير. ألن تأتي معنا، أليس كذلك؟ لكن يا إيلينه! ألا ينبغي أن تكون انتهيتِ من ارتداء ملابسكِ؟».

ضاع رد إيلينه المتلعثم وسط صيحات إليزا، التي كانت توجه اللوم للخادم في الحجرة المجاورة، وفي لحظة اندفعت إليزا إلى الداخل، متألقة في ثوب جزائري فضفاض، وغطاء الرأس من القطع المعدنية، وحذاء أندلسي رقيق في قدميها.

«بونسوار سانت كلير! يا لها من خسارة أنك لن تنضم إلينا! يا إلهي يا إيلينه، انظري إلى شكلكِ!».

ظهر فنسنت من الحديقة الشتوية.

واصلت إليزا كلامها: «الساعة تقريبًا التاسعة والنصف ولم تنتهِ إلا من شعركِ فقط! ماذا دهاكِ؟».

قال سانت كلير لأن إيلينه كانت مرتبكة لدرجة منعتها من الكلام: «لا أعتقد بأن ابنة أخيكِ سوف ترافقكم، سيدتي العزيزة. سمعنا أنا وفنسنت أن الحفل

الساهر سيكون مختلطًا إلى حد ما هذا المساء- وبالتالي نصحتُ الآنسة فيره بالبقاء في البيت بدلاً من تعريض نفسها للقاءات غير مرغوب فيها. أرجو ألا تمانعا. بالطبع أعرف بأنها ستكون في أيدٍ أمينة مع عمها ومعكِ كأوصياء عليها، لكنني لم أستطع مقاومة الشعور بأن التواجد وسط مثل هذه الصحبة سيكون أقل ملاءمة لفتاة شابة من ملائمته لسيدة متزوجة- حتى ولو سيدة فاتنة مثلكِ! هل أخطأت كثيرًا؟».

تساءلت إليزا ما إذا كان عليها أن تشعر بالاستياء أم لا، ذلك أن نبرته، وإن كانت حازمة، كانت ودودة بما يكفي. رفع دانيال فيره كتفيه في تجاهل.

رددت إليزا: «أخطأت؟ حسنُ، لن أعرف. طبعًا إيلينه يمكنها أن تفعل ما تشاء. إذا كانت لا تود الذهاب، ليكن (بالفرنسية)، عندئذٍ يمكننا أن نتظاهر بأنها مصابة بالصداع. الأمر يسير كتقبيل إبهامك، لكنكِ سوف تصابين بالملل المريع يا إيلينه».

قالت إيلينه: «لا، بالفعل أنا أفضل البقاء بالبيت. هذا كل ما في الأمر، إذا كنتِ لا تمانعين».

«لا أبدًا يا عزيزتي. بحريتكِ حبيبتي (بالفرنسية)، كما يقولون».

دخل الخادم بمعاطف الفرو، وأعلن أن العربة كانت في الانتظار، وكان يمسك بعباءة إيلينه.

قال سانت كلير: «إذا لم يكن لدى عمكِ وزوجته أي اعتراض، أود أن أكون في صحبتكِ لبعض الوقت».

لم يكن لديهم اعتراض، وشعرت إيلينه بأنها مشوشة بشكل أو بآخر.

قالت بابتسامة خجولة عندما غادر العم دانيال وإليزا وفنسنت، «وداعاً، استمتعوا!».

«عبث»، قال العم دانيال متذمرًا عندما جلسوا في العربة، «عبث ألا يريدها أن تذهب الى الحفل، ولكنه يرى أن من الصواب تمامًا أن يبقي معها ويكون

بصحبتها. أفترض أن ذلك لا بد أن يكون سلوكًا أمريكيًا! أعني، أيهما أكثر إحراجًا- أن تأتي إلى الحفل معنا أم تقضي المساء وحدها مع شاب؟ عبث!».

فنسنت، الذي رأى أن الدفاع عن صديقه سيحط من كرامته لم يبد أي تعليق. بالكثير من اللغط أقنعت إليزا زوجها بأن يلوذ بالصمت، قائلة إنه لن يفيد أن يتكلم بالسوء عن ابنة أخ تعيش تحت سقف بيته، أو عن صديق يرونه بشكل منتظم.

«أتكلم بالسوء؟ على الإطلاق!»، قال العم دانيال في غضب: «إنه أمريكي! وأفترض أن يسير على نمط الحياة الأمريكي».

* * *

كانت إيلينه لا تزال متوترة.

«لا أعتقد بأن عمي كان مسرورًا أنني اتبعت نصيحتك»، قالت عندما كانا وحدهما: «لا يبدو أنه وافق على- على مكوثك هنا».

تطلع سانت كلير إليها في دهشة هادئة.

«إذن لِمَ لَمْ يقل هذا؟' سألها إن كان لديها أي اعتراض، 'وأنتِ؟ هل كنتِ تودين لو أنني غادرت؟».

«لا سأكون ممتنة كثيرًا لو بقيتَ لبعض الوقت».

«بكل سرور. لأن لدي طلب آخر لأطلبه منكِ، رغم أنه أقل أهمية».

«ما هو؟».

«أيمكنني أن آخذ واحدة من تلك القطع المعدنية، التي تعبتِ كثيرًا لتنسيقها في شعركِ؟».

ابتسمت إيلينه؛ وبعناية فكَّت خيط القطع المعدنية من رأسها وانتزعت قطعة منها وقدمتها له.

قال وهو يربطها بسلسلة ساعته: «شكراً لكِ!».

كانت إيلينه مسرورة، شعرت بأنها مسرورة جدًا، بل ربما سعيدة، لكنها شعرت بالخجل نوعًا ما، وتساءلت أيهما كانت ستراه بيتسي الشر الأعظم: الذهاب إلى الحفل تحت وصاية عمها وزوجته أم قضاء المساء بلا وصاية مع سانت كلير- وهي ترتدي روبها من بين كل ملابسها. فكرت أنه سيكون الأخير، لكن بدا أنه يعتبر الأمر بسيطًا وطبيعيًا جدًا لدرجة أنها لم تجرؤ حتى على أن تستأذن لتذهب وتغير ملابسها.

«والآن دعينا ندردش دردشة لطيفة!»، قال وهو يستقر جالسًا على كرسي تركي زي مسند بينما ظلت هي جالسة على الأريكة، تلعب بإصبعها في خجل بخيط القطع المعدنية. «لِمَ لا تخبريني عن نفسكِ، عن طفولتكِ أو عن رحلاتكِ ربما؟».

قالت إنها لا تدري ما الذي تخبره به، لذلك سألها أسئلة أجابت عليها بسرور وثقة متزايدة. أخبرته عن عمتها فيره، وعن مدى استمتاعها بقراءة روايات ويدا، وفوق ذلك كله عن أبيها ولوحات الكنفاه الكبيرة، التي لم يكملها أبدًا. أخبرته عن غنائها، وعن بيتسي وهِنْك، مضيفة أنها كانت تفكر بشكل مختلف تمامًا وقتذاك، وأنها كانت تبدو مختلفة تمامًا أيضًا.

«ماذا تقصدين بكلمة وقتذاك؟».

«أقصد قبل مرضي، وقبل أن أقوم برحلاتي مع عمي وزوجته. قبل ... قبل خِطْبتي».

«وكيف كنتِ تبدين وقتذاك؟».

«أكثر صحة بكثير ... وأكثر نضارة».

«تقصدين: أكثر جمالاً؟».

قدرته على قراءة أفكارها أضحكتها، وكذلك أنه لم يبذل أقل جهد ليكون شهمًا. اقترح أنه مهتم برؤية بعض صورها الفوتوغرافية من تلك الأيام، ولما كانت تبحث عن واحد من الألبومات الموضوعة على كونسول، خطر ببالها

أنها قد تأذن له بأن يناديها باسمها الأول، لكنها في اللحظة التالية نسيت نيتها.

تصفح خلال الألبوم، والذي كان يحتوي على الكثير من البورتريهات الجميلة لها: بشريط في شعرها، وهى ترتدي عقداً من اللؤلؤ، والكثير من الصور، وهى ترتدي فستاناً مفتوح الصدر.

سألته في رد فعل لصمته: «حسنٌ، ما رأيك؟».

قال بلا اكتراث: «جميلة جداً، ولكن تلك الابتسامة ... مدللة جدًا وعذبة جدًا ... نوع مصطنع من العذوبة. منفرة إلى حد ما. هل أنتِ دائماً تبدين هكذا، أم أنكِ كنتِ تفعلين ذلك من أجل التصوير؟».

شعرت بالغيظ.

قالت بنبرة اتهام: «يا إلهي، لم أكن أعرف أنك قد تكون فظاً هكذا؟».

«هل كنتُ فظًا؟ إنْ كان الأمر كذلك، أستميحكِ عذرًا. إنها صور بورتريهات لكِ في نهاية الأمر. لقد اختلط عليّ الأمر. من الصعب عليّ أن أتعرف عليكِ فيها. لكن لأكن صادقًا تمامًا، كنتُ سأشعر بالنفور لو كنتُ قد رأيتكِ تنظرين هكذا. جميلة لكن منفرة. تبدين أنحف الآن، ضعيفة إلى حد ما، لكن ثمة شيء جذاب جدًا في تعبيرات وجهكِ، في حين أن البورتريهات ليست سوى أوضاع فيها دلال. أنا أفضلكِ كما أنتِ الآن».

أغلق الألبوم، ووضعه جانبًا.

استأنف: «وأنتِ؟ هل تفضلين الشكل، الذي كنتِ عليه وقتذاك؟ هل تفتقدين حياتكِ القديمة؟».

تنهدت: «أوه لا، لم أكن سعيدة وقتذاك أيضًا».

«لكن من الآن فصاعدًا سوف تبذلين قصارى جهدكِ لتكوني سعيدة، أليس كذلك؟».

ضحكت برقة ورفعت كتفيها في تجاهل.

همست بشكل حالم، بالإنجليزية: «السعادة لا يمكن فرضها».

صاح قائلاً: «لم أكن أعلم أنكِ تتحدثين الإنجليزية!».

أجابت بالفرنسية، مستيقظة من حلمها: «أنا؟».

«نعم، أنتِ!».

«أنا؟ أتحدث الإنجليزية؟».

«ليس الآن؛ قبل لحظة».

«هل كنتُ أتحدث الإنجليزية؟ لم أكن أدرك-».

«لِمَ لَمْ تتحدثي بالإنجليزية معي من قبل؟».

«لا أعرف».

«نعم تعرفين».

«لا، حقًا، لا أعرف».

«بالطبع تعرفين، هيا أخبريني لماذا».

ضحكت ضحكة خفيفة ومرحة.

«بسبب الطريقة، التي تتكلم الفرنسية بها! لكنتك ساحرة».

«إذن كنتِ تضحكين عليّ من وراء ظهري كل هذا الوقت؟».

«لا، بحق لم أفعل!».

«إذن بأي لغة يمكن أن نتكلم بها من الآن فصاعدًا؟ الإنجليزية أم الفرنسية؟».

«الفرنسية، وإلا ستظن فقط أنني كنت أضحك بأي حال».

«ليس هناك منطق مطلقًا فيما تقولينه».

«أعتقد ذلك، لكنني أريد أن نستمر في الحديث بالفرنسية».

«انظري؟ لستِ ضعيفة كما كنتِ تظنين. أصبحتِ أكثر شجاعة بالفعل».

«أنا؟».

«هذه هي المرة الأولى، التي أسمعكِ تقولين فيها أريد. هذه بداية جيدة. خذي كلامي: أولاً عليك ممارسة إرادتكِ على مسألة صغيرة ما، وسرعان ما ستصبح أكثر حزمًا. بمجرد أن تصبح إرادتكِ حازمة وقوية، سوف تصبحين شجاعة. عديني أنكِ ستحاولين رعاية إرادتكِ الصغيرة تلك، فكري فيها كنبتة صغيرة في صوبة زجاجية بحاجة إلى الكثير من الرعاية».

ظلت تبتسم بعذوبة.

«قد أصبحُ عنيدة جدًا تحت تأثيرك».

«حسنٌ، لا آمل في ذلك، لكنني سأبتهج لو أصبحتِ شجاعة قليلاً تحت تأثيري».

«سأفعل قصارى جهدي».

«وسأعمل على أن تلتزمي بوعدكِ. الآن لا بد أن أذهب. الساعة الحادية عشرة تقريبًا».

أرادت أن تهتف: «ماذا قبل الآن؟»، لكنها كبحت انفعالها.

«الآن قولي لي بصراحة، ألا تظنين أنكِ أفضل بكثير عندما تذهبين إلى الفراش مبكرًا وتنامين جيدًا بدلاً من الاستيقاظ حتى الساعة السادسة صباحًا والرقص مع الرجال الغرباء والاختلاط بمجموعة متنوعة أكثر غرابة من السيدات؟».

«أنت محق تمامًا. أنا ممتنة جدًا لك».

«وأنا ممتن لكِ كذلك، من أجل القطعة المعدنية، التي أعطيتني إياها».

أحست أن امتنانه امتد إلى أبعد من القطعة المعدنية.

«والآن لا بد لي أن أنصرف. طابت ليلتكِ يا إيلينه».

تأثرت عندما سمعته يناديها باسمها الأول؛ ضربت على وتر جديد من الألفة والدفء.

همست: «طابت ليلتك يا لورانس».

مدت يدها النحيلة. أمسكها للحظة، حدق في عينيها، ثم تركها.

«الوداع!»، قالها بإيماءة قلبية أخيرة، ورحل.

بقيت واقفة لفترة، غارقة في التفكير، ثم أمرت الخادم بإطفاء النور في حجرة الاستقبال، وآوت إلى حجرة نومها. أخذت خيط القطع المعدنية من شعرها ووضعتها على منضدة الزينة. انتشرت الأقمشة المتلألئة بزيها الشرقي على أحد الكراسي، وشبشبها الأندلسي على الأرض بجانبه.

بينما كانت ترتدي ملابس النوم استطاعت سماع صوته يتحدث بلكنته الخفيفة تلك. وضعت مجوهراتها في أماكنها في تروٍ. وقعت عيناها على ساعتها، ومن هناك على الدلاية السوداء المعلقة بالسلسلة. فتحت الدلاية وحدقت فيها للحظة طويلة، والدموع تملأ عينيها.

ثم طبعت قبلة ناعمة على الرسم، الذي تحتوي عليه، كما لو كانت تُقَبِّل شخصًا قد توفي للتو. انتابها دافع مؤقت بفصل الدلاية عن السلسلة والاحتفاظ بها داخل أحد الأدراج الصغيرة في صندوق مجوهراتها، حيث كانت تحتفظ بمختلف الحلي الصغيرة، التي لم تعد ترتديها، لكنها لم تفعل ذلك.

صعدت إلى السرير. لم تَنَم. كما لم تأخذ أي قطرات. في الساعة الخامسة والنصف سمعت العم دانيال وإليزا يعودان للبيت، يتنهدان من الإرهاق، لكن ساعات يقظتها لم تكدرها أفكار قاتمة من أي نوع؛ بالفعل شعرت بأنها تغتسل في وهج وردي هادئ من الاسترخاء.

غفت نحو الصباح، وعندما استيقظت شعرت بأنها أقل كسلاً من المعتاد.

***

لم تَرَ إيلينه إليزا مرة أخرى حتى موعد الغداء في اليوم التالي. كان العم دانيال سافر بالفعل في مهمة من مهماته العديدة، التي لم يُكشف عن طبيعتها بشكل كامل، لذا ظلت مهنته لغزًا بالنسبة إيلينه. سألت إليزا عما إذا كانت

تسلَّت في الحفل.

«أوه، نعم، إلى حد كبير»، ردت إليزا بوُدّ: «هرج ومرج إلى حد ما. ربما كان شيئًا حسنًا أنكِ لم تذهبي. كنتِ ستصابين بالتوتر العصبي. شعر الشاعر العزيز بالأسف لذلك (بالفرنسية). هل بقي سانت كلير لمدة طويلة؟».

«إلى الحادية عشرة».

«آه حسنٌ، أنا شخصيًا لا مانع عندي لأن ينصحكِ بالبقاء في البيت، لكن دانيال رأى أن من الغريب بعض الشيء أنكِ اقتنعتِ بسهولة. إلا أنه قد تجاوز ذلك الآن! أنتِ حرة كما تشائين فيما يتعلق بنا، وأنتِ تعرفين ذلك».

لم تقل إيلينه شيئًا.

«ولكن عليك أن تعترفي»، واصلت إليزا بضحكة مكتومة: «أن الأمر كان غريبًا بعض الشيء. يجعلكِ تفكرين، أليس كذلك؟».

سألت إيلينه في حذر: «حسنٌ، ما الذي يجعلكِ تفكرين فيه؟».

«فتاتي العزيزة، هذا أمر خاص. لن أخبركِ به. كما تعلمين أنا لا أنخرط في التفكير الكثير، لكن الآن لديّ بعض الأفكار. لا تقلقي: أنا مؤيدة لها تمامًا، لو كان ما أشك به صحيحا».

أحست إيلينه أنه كانت هناك إشارة ضمنية لشيء لم تكن على وعي به هى نفسها.

التزمت الصمت، فيما استقرت إليزا، التي كانت لا تزال مرهقة من الحفل على أريكة، ومعها كتاب، وما لبثت أن غالبها النعاس. ذهبت إيلينه إلى البلكونة وجلست لتفكر. كانت قد فكرت قليلاً خلال الأيام القليلة الماضية، والتي مرت في ضباب من الخضوع الراضي، لكن الآن جاءت كلمات إليزا لتؤثر على وعيها. غريب بعض الشيء ... جعلها ذلك تفكر .... صحيحٌ أن سانت كلير كان لا بد أن يكون جريئًا للغاية لأن يطلب منها عدم الذهاب للحفل جاء غريبًا إلى حد ما، على أقل تقدير، ولم يكن أقل غرابة منها أنها وافقت! ما جال

بخاطرها بسبب ذلك لم تجرؤ هى على أن تشكّله في ذهنها، رغم أن إغراء القيام بذلك كان لايُقاوم، لكنها عرفت أن لا شيء يمكنها أن تخرج به من ذلك، وأن ذلك لن يحدث أبدًا ... ياه، لِمَ لَمْ تقابله من قبل؟ كم هو قاسٍ القدر!

بدأت تساورها الهواجس حول سلوكها تجاهه، ربما كان ينبغي عليها أن تصده، أن تخبره ألا يتدخل في شئونها، لكن أيضًا لم يكن هناك أي داعٍ لأن تعتذر له في ذلك اليوم على برودها، فعلاً. لكن من جهة أخرى، كم كان شعورها ببساطة، وهى تمتثل لإرادته رائعًا! كان قويًا وموفرًا للحماية للغاية، مطمئنًا بعمق بالنسبة لها. لم يدخل في عقلها أبدًا أنه قد يقع في غرامها، هذه المخلوقة المكسورة المعتلة صحيًا. ستكون حماقة منه أن يفعل ذلك ... لكن ربما فات الأوان الآن لمحاولة منعه.

***

عندما زارهم مرة أخرى بعد بضعة أيام، وجدها وحدها في حجرة الاستقبال. كان الجو باردًا، وكانت إيلينه نادرًا ما تخرج مع عمها وزوجته بسبب سعالها. كانت جالسة في الكرسي التركي بجوار النار، بينما دفعت رياحٌ عاصفة بالخارج بنُدَفِ الثلوج لأن تدور في دوامات على أطر النوافذ.

قال وهو يأخذ مقعده: «كنت متأكدًا أنني سأجدكِ فى البيت لذلك أتيت؛ هل خرج عمكِ وزوجته؟».

«نعم خرجا؛ لا أعلم إلى أين- مزاد ما على ما أظن، لشراء التحف والأنتيكات».

كانت تقصد أن تحافظ على شيء من التحفظ في إجابتها، لكن صحبته كانت مُرَحَّبًا بها للغاية بالنسبة لها لدرجة أنها وجدت من المحال أن تفعل ذلك، ورغمًا عنها قالت:

«من الجميل أن نراك ثانية».

ابتسم ابتسامة وجيزة وأدلى ببعض التعليقات على شراء التحف مع الإشارة

بوجه خاص إلى القطع الخزفية المتناثرة فى أرجاء الحجرة، ثم قال: «سوف أترككِ قريبًا لمدة طويلة. سوف نسافر عبر كولونيا إلى برلين، ومن هناك تنطلق قدمًا».

شعرت بأن حَلْقها يضيق.

سألته تلقائيًا: «متى تغادران؟».

«خلال بضعة أيام».

«هل ستذهبان حتى بطرسبرج، إلى موسكو؟».

«نعم».

«هل تجذبك روسيا؟».

رد بلا وعي إلى حد ما بجمل متقطعة وقصيرة.

وهى تستمع إليه كان عليها أن تغالب دموعها، وجاءت كلماته إليها مبهمة عندما سمعته يقول، كما لو كان يقاطع نفسه.

«لكن هناك شيء أردت أن أطلبه منكِ. أردت أن أطلب منكِ أن تفكري فيّ من آنٍ لآخر أثناء غيابي».

قالت وهى ترتجف: «طبعًا سوف أفكر فيك! لقد كنت طيبًا جدًا معي، ولطيفًا جدًا- وسوف أتذكرك دائمًا بكل سرور».

قال برقة: «شكرًا لكِ، أجد من المُحزن أن أودع أحد معارفي الجدد بسرعة، والذين ارتبطت بهم بعلاقة تعاطف».

«نعم، لكن الحياة مليئة بخيبات الأمل، أليس كذلك».

«أعرف ما الذي ستقولينه»، واصل كلامه، متبعًا خيط أفكاره: «ستقولين إنني أستطيع الإقامة في بروكسل قدر ما أشاء، لأنني أسافر من أجل المتعة، ويمكنني أن أغيّر خططي إذا أردت. بالفعل، قد أفضل الإقامة في بروكسل».

بدأت ترتجف كلها، لكنها تداركت نفسها في الوقت المناسب لتهمس

قائلة:

«لِمَ عليك أن تغير خططك؟ لِمَ لا ترى ما تستطيع أن تراه من العالم؟».

قال بهدوء، وهو يثبت نظراته النافذة عليها: «لأنني أحبكِ، ولأنني أخشى أن أفارقكِ. أود أن أظل معكِ إلى الأبد، لأرعاكِ وأحميكِ، لكني أشعر بقشعريرة عندما أفكر أنني سأتركِكِ، كما لو أن شيئًا قد يحدث لكِ عندما أغيب».

«لكن ذلك مستحيل!».

رد بحسم: «لماذا مستحيل؟ لماذا من المستحيل أن أكون معكِ إلى الأبد، أو بالأحرى بالنسبة لكِ أن تكوني معي للأبد؟ أخبريني يا إيلينه، لماذا؟».

ردت وهي تبكي: «لأنه لا يمكن أن يكون بهذا الشكل».

«نعم يمكن! يمكن إذا كنتِ تحبينني. يمكنكِ أن تأتي معي وسوف أعتني بكِ؛ ستكونين زوجتي».

بكت: «وأنا سوف أتعسك!».

«لا، لا. بالعكس، سأفعل كل ما في وسعي لأسعدكِ، وأنا على يقين أنني سأنجح. أنصتي إليّ. لقد اهتمت بكِ حتى قبل أن نلتقي بسبب ما أخبرني به فنسنت عنكِ. المرة الأولى، التي رأيتكِ فيها شعرت بالأسف تجاهكِ، لأنه كان واضحًا جدًا بالنسبة لي أنكِ قد عانيتِ من حزن رهيب. حاولت أن أفكر في طريقة ما لإسعادكِ، لكنني لم أجد طريقة. فقط أثناء حديثنا معًا رأيت أنكِ بدأت تبدين أكثر بهجة قليلاً. قد يكون ذلك من نسج خيالي، لكن ذلك كان انطباعي. تخيلت أيضًا، ربما بدافع من الغرور، أنني قد يكون لي يدٌ في رفع معنوياتكِ قليلاً. شاهدتكِ وأنتِ تتحدثين مع أناس آخرين، لكن معهم بدوتِ باردة ومتحفظة، بينما بدوتِ معي سعيدة جدًا للكلام؛ بل إنكِ صرتِ تخبرينني بأسراركِ. عند ذلك شعرت بشوق كبير لأن أكرس حياتي بأكملها لكِ، لأنني فكرت إنني لو استطعت عمل ذلك، فإنها قد تستطيع أن تنفض عنها نظرتها القاتمة للحياة، وتصبح سعيدة مرة أخرى. عزيزتي إيلي، أنتِ لا تزالين صغيرة

جدًا، وتظنين أن الوقت فات على أن تتغير الأمور. لا تفكري بهذه الطريقة مرة أخرى؛ ضعي ثقتك فيّ، عندئذٍ يمكننا أن ننطلق سويًا لنكتشف ما إذا كانت الحياة كئيبة ومحزنة كما تعتقدين أم لا. أخبريني يا إيلي، هل ستفعلين؟ هل ستدعينني أريكِ أن أمامكِ حياة جديدة كاملة فى انتظارك؟».

أجهشت بالبكاء في هدوء، ورفعت عيناها المليئتين بالدموع إلى عينيه، وأمسك بيدها في تضرع تقريبًا.

بكت: «آه، لِمَ يجب أن تطلب مني ذلك؟ لِمَ يجب أن تطلب مني؟ لِمَ يجب أن أجرحك؟ ليس أنت أيضًا! لكنه مستحيل، لا يمكن أن يحدث، أبدًا».

«لم لا؟».

رددت: «لِمَ لا؟ لأنه، رغم أنني شابة، أنا مكسورة تمامًا. لِمَ لا تصدقني؟ لأن كل شيء فيّ مُحَطَّم، لأن روحي في خراب».

«إيلينه، ليس هناك داعٍ لمثل هذه الكلمات الكبيرة. اهدأي».

«أنا لا أستخدم كلمات كبيرة، وأنا هادئة تمامًا. أنا أتكلم بمنطق، ياه، بمنطق ميؤوس منه!»، قالت وهي تبكي، ووقفت لمواجهته. أمسك يديها في يديه. «أنا أعرف ما أقول، وأنا لا أستطيع تحمل ذلك! أنصت إليّ يا لورانس. أنت تعرف أنني كنت مخطوبة، وعلى وشك الزواج، أليس كذلك؟».

«نعم. أنتِ فسختها».

«نعم فعلت. فسختها، لكنني كنتُ أحبه. حتى عندما كنتُ أكتب تلك الرسالة الأخيرة لأخبره فيها أن الموضوع انتهى، كنتُ أحبه. هل تدرك كم هذا بشع؟».

كان جوابه فقط نظرة حيرة.

«أنت لا تفهم، أليس كذلك؟»، انفجرت، تهتز يداها في قبضته: «ليس لديك أي فكرة كيف تشعر عندما تكون مرأة تمزق قلبها أفظع الشكوك! لا أعرف حتى ما الذي أشعر به أحيانًا، أو ما أريده، أو حتى ما أفكر فيه! كما ترى، هناك

جزء مني غير متطور وغير مكتمل. دائما يعصف بي الشك، ولستُ أبدًا على يقين من أي شيء. أحببته- آه، أرجوك سامحني أنني أخبرك بهذا الآن، لكنني أحببته كثيرًا جدًا، وكان هو طيبًا جدًا، وكان على استعداد أن يضحي بحياته من أجلي! ثم في يوم ما بدأتُ أتساءل عما إذا كنت حقًا أحبه. أنا حتى ظننت أنني أحب شخصًا آخر لبعض الوقت، بينما لم أكن أحب أحدًا سواه. أعلم ذلك الآن، لكنني اكتشفت بعد فوات الأوان، وربما دمرت حياته!».

«لِمَ تعتقدين ذلك يا إيلينه؟».

«أنا فقط أعرف ذلك. عندما كنتُ في لاهاي أفهمني الناس أنه تجاوز خيبة الأمل، لكنني لم أصدقهم أبدًا! الآن لقد فات الأوان، أصبح كل شيء واضحًا لي، الآن فقط أدركت كم كان يحبني، وأنه لم ينساني؛ وإذا سمعت أنه تزوج بأخرى في تلك الأثناء، سوف أظل غير مصدقة أنه نسيني تمامًا. أعلم أنه لا يزال يفكر فيّ كثيرًا، تمامًا بنفس القدر الذي لا أزال أفكر فيه».

سألها في فتور: «هل لا زلتِ تحبينه؟».

«ليس بالشكل الذي كنتُ أحبه به من قبل. لم يعد الأمر كذلك يا لورانس. أعتقد بأن ما أشعر به الآن هو الشفقة أكثر من أي شيء آخر، لكنني أفكر فيه كثيرًا. لديّ صورة بورتريه له هنا».

فتحت الدلاية، وأخرجتها له ليرى صورة أوتو. حدق فيها.

سألها بهدوء: «هل تحتفظين بها معكِ دائمًا؟».

قالت في همس يكاد يكون مسموعًا: «نعم، أفعل. دائمًا. إنها شيء مقدس بالنسبة لي، ولهذا السبب يا لورانس- آه، لهذا السبب لا يمكن أن يكون! تفكيري فيه سيكون حاجزًا دائمًا بيننا. كان من الممكن أن أكون سعيدة معك، لولا تلك الفكرة، التي تطاردني، لكنني لا يمكن أبدًا أن أكون سعيدة بينما أعرف أنه حزين، أوه، لا، لا يمكنني أبدًا أن أفعل ذلك!».

عندما عجز عن الرد سقطت على الأرض، تنتفض وهي تجهش بالبكاء،

وضغطت جبهتها على ركبتيه.

«آه سامحني يا لورانس، سامحني! لم أفكر أبدًا أنك يمكن أن تحبني! أشعر بأنني مريضة جدًا، أسعل دائمًا، أضعف من أن أفعل أي شيء! ظننت أنني صرتُ قبيحة، وأن أي رجل لن يرغب فيّ أبدًا! وإلا لما أظهرتُ لك أنني أهتم بك! كنتَ تتحدث عنا كأخ وأخت! لِمَ تتحدث بشكل مختلف الآن؟ والآن قد سببت لك الألم، لكن ليس لديّ أي خيار. سيكون خبيثًا مني أن أصبح زوجتك بينما لديّ هذا يثقل ضميري».

أوقفها بلطف على قدميها وقربها نحوه.

قال: «إيلينه! قلتِ لي ذات مرة أنكِ ألقيتِ بسعادتكِ بعيدًا. لم أسألكِ ماذا قصدتِ من ذلك، لكني أسألكِ الآن. هل تقصدين الرسالة التي كتبتها لأوتو؟».

بكت: «نعم!».

«أنت ألقيتِ سعادتكِ بعيدًا بكتابة تلك الرسالة، أليس كذلك؟ هل أنتِ متأكدة تمامًا أنكِ لا تلقينها بعيدًا مرة أخرى إذا تمسكتِ بالجواب الذي أعطيتني إياه؟ أو ألا يمكنني أبدًا أن أسعدكِ؟ فقط أوتو؟».

«آه يا لورانس!»، همست بانفعال، خَطَت خطوة أقرب: «لو أنني فقط التقيت بك عندما كنتُ أصغر، قبل أن تحدث كل تلك الأمور، لما استطعت أن أحب أبدًا أي شخص آخر غيرك، لكنه لم يحدث. إنه قدري».

«أوه، لا تتحدثي عن القدر. القدر مجرد كلمة. جميع الناس يشكلون أقدارهم. أنتِ أضعف من أن تملكي زمام نفسكِ. دعيني أكون قدركِ».

بكت، وهي تقذف رأسها من جانب إلى آخر فوق صدره، «مستحيل! لا أستطيع، لكن مستحيل!».

أجاب: «لا يا إيلينه، ليس مستحيلاً! تقولين إنكِ لم تكوني لتحبي أحدًا سواي لو أنكِ التقيتِ بي من قبل، لكن لو كنا قد التقينا من قبل، ربما لم يكن لكِ نفس التأثير عليّ؛ على أي حال، كل ذلك مجرد تكهنات، وبجانب هذا

الموضوع. الموضوع هو أنني أحبكِ؛ أحبكِ بالشكل، الذي أنتِ عليه الآن. قلتِ إنكِ مريضة، لكنني أعلم أنكِ سوف تتعافين. يمكنني أن أشعر بذلك».

قالت، وهي تبكي: «لا يمكنك أن تتأكد من ذلك!».

«ذلك صحيح، لكنكِ لا يمكنكِ أن تتأكدي أنكِ دمرتِ سعادة أوتو. يمكنكِ أن ترى ذلك، أليس كذلك؟ أنتِ لا تعرفين على وجه اليقين».

«آه، لكنني أعرف! يمكنني أن أشعر بذلك!».

قال في إصرار: «لكنكِ لا تعرفين على وجه اليقين، وتقولين لي عندما طلبت منكِ أن تكوني زوجتي إنه مستحيل، غير مطروح للنقاش. ألستِ قاسية نوعًا ما؟».

بكت: «لا، أرجوك لا تقل ذلك!».

«قلتِ بنفسك قبل لحظة أنكِ تتشككين دائمًا، لستِ أبدًا على يقين من أي شيء. إذن ما الذي يجعلكِ متأكدة لهذه الدرجة أنكِ لا يمكن أن تتزوجيني؟ كيف عرفتِ أنكِ لن تندمي على قراركِ عندما أرحل، عندما يفوت الأوان؟».

قالت وهي تئن: «آه، كيف يمكنك أن تجعلني أعاني هكذا؟ أنت تعذبني-».

رفع وجهها إليه.

«سأتوقف عن تعذيبكِ يا إيلينه. هناك شيء واحد آخر فقط. أرجوكِ لا ترفضيني رفضًا صريحًا. فقد تتغير مشاعركِ. على الأقل اسمحي لي بالأمل. سوف نغادر أنا وفنسنت بعد يوم غد. خمسة أشهر من الآن لن تريني مرة أخرى. سوف أطلب من فنسنت أن يكتب لكِ من آنٍ لآخر، بحيث تعرفين دائمًا كيف تصلين إليّ. كلمة واحدة منكِ وسأعود على الفور. لستِ بحاجة إلى أن تعديني بشيء، فقط لا ترفضيني الآن. اسمحي لي بالأمل، وحاولي أن يكون لديكِ أمل. أيمكنكِ أن تفعلي ذلك من أجلي؟ أم أنني أطلب الكثير؟».

همست: «لا، أوه لا، ليس أكثر من اللازم. سوف أعطيك ردي بعد خمسة أشهر من الآن».

قال: «تمام. هذا كل ما أطلبه، والآن سأنتظر هنا لحين عودة عملكِ وزوجته، حتى أستأذنهما بالانصراف. سيأتي فنسنت غدًا، وبما أننا وحدنا الآن، اسمحي لي بأن أغتنم هذه الفرصة لأقول لكِ وداعًا؟».

لم تجب، لكنه ثبت نظره عليها حتى أخذها بين ذراعيه وقبَّلها.

همس، وهو يبتسم: «خمسة أشهر من الآن؟».

رجعت للوراء للحظة، نظرت إليه باهتمام، ثم ألقت بذراعيها حول عنقه وطبعت قبلة رقيقة وطويلة على جبينه.

رددت: «خمسة أشهر من الآن».

٣٤

في بداية الشتاء بدا لفريدريك أن روحها، التي شعرت سابقًا بأنها خفيفة وحرة كطائر كان ترزح تحت عبء ثقيل كالرصاص. بدا لها أنها ارتكبت جريمة خفية ما، كأنها قد قتلت پول، إن جاز التعبير، وأن ماتيلدا وماري كانتا الإنسانتيْن الوحيدتيْن في العالم اللتين تعلمان بها. صارت قليلة الكلام ومنعزلة، وحوَّل ندمها الوميض الداكن في عينيها إلى وهج معبر رقيق.

لم تَرَ پول منذ أن انتقل إلى بوديخرافن، وكان نادرًا جدًا ما يزور لاهاي هذه الأيام. هل غادر بسببها؟ أم كان طموحه لأن يصبح رئيس بلدية مجرد نزوة أخرى، لا تختلف كثيرًا عن جهوده السابقة لأن يمتهن الغناء أو الرسم أو فترة عمله القصيرة بمكتب هوفل للمحاماة؟ ألا يفكر فيها على الإطلاق؟ أم أنه نسى كل شيء عن ذلك الصباح المشمس في دي هورسه عندما قَبَّلَها، وطلب منها أن تكون زوجته؟ ولنفترض إنه ما زال يفكر فيها، أيفكر فيها في ندم أم بلامبالاة؟

لم تستطع الإجابة على هذه الأسئلة، التي عذبتها في اللحظة، التي وجدت نفسها فيها وحدها.

أخيرًا استسلمت لفكرة أنها لن يمكنها رؤية پول مرة أخرى، لذلك شعرت بصدمة نوعًا ما عندما لمحته في الشارع يومًا ما قادمًا في اتجاهها. دق قلبها بقوة، وهرب الدم من وجنتيها، ولو أنها اُضطرت للكلام لوجدت من المستحيل أن تنطق بحرف. عندما اقترب منها رفع قبعته لتحيتها، وهو ما ردت عليه بإيماءة موجزة برأسها، ومرّا ببعضهما بلا كلام. مضت في طريقها بركبتيْن مرتجفتيْن، وتساءلت ما إذا كان لاحظ ذعرها، بعد ظهر ذلك اليوم، عندما دق الجرس في پرنسيسيخراخت، وفتحت بِتْ الباب، بدأت بسؤال:

«هل هناك زوار آخرون؟».

«نعم يا آنسة، أعني مدام فان رات الصغيرة ومعها ولدها الصغير، وكذلك السيدات من عائلة إيخوف».

«لا أحد آخر؟».

«لا، لا أحد آخر، يا آنسة».

ترددت فريدريك للحظة، ربما قد يصل پول، لكنه من الممكن أيضًا أنه قام بالزيارة في وقت سابق بالفعل. على كل حال، يمكنها أن تقول إنها مضغوطة في الوقت وتغادر بسرعة؛ كل ما هنالك أنها كانت تتمنى كثيرًا رؤية ماري لبعض الوقت.

دخلت فريدريك. العجائز كنّ في البيت الزجاجي مع بيتسي؛ وكانت ماري في حجرة الرسم مع آنجه وليوني؛ جلس بِنْ بهدوء على حِجْر آنجه بينما كان يجري تقديم الشاي. ذهبت فريدريك بعد تحية والديّ ماري للجلوس مع الفتيات. فجأة سمعت بيتسي بالصدفة في البيت الزجاجي المجاور:

«پول في المدينة كما تعلمون. لقد أخذ القهوة معنا اليوم».

لفَّ بِنْ فوق حِجْر طنط، وكرر ببطء بصوت المبهم:

«العم پول- العم پول أخذ القهوة معنا».

همست آنجه في نعومة، وأدهشها قليلاً سهولة انقياد الطفل: «هل أخذها الآن؟ وهل أحببت ذلك، أيها الصغير المكلبظ؟».

تطرق الحديث إلى پول، وسألت بنات إيخوف عن مدى نجاحه واستمراره في بوديخرافن، وهل سيستغرق الأمر فترة طويلة قبل أن يُعَيَّن رئيس بلدية. رأين أن من الغريب جدًا أن پول يريد أن يصبح رئيس بلدية- بالتأكيد هو ليس صارمًا بما يكفي.

سألت فريدريك في لامبالاة ظاهرة، لكن ماري فهمت كم كانت مهتمة: «هل كان هنا؟».

أجابت: «لا، لكنه قد يأتي للزيارة دون موعد في وقت لاحق».

غشى عقل فريدريك غبش الرؤية: هل كانت تريد أن تراه يصل على غير توقع، أم أنها لم تكن تريد حقًا أن تراه أساسًا؟ لقد جاءت لأنها كانت تريد أن ترى ماري، وها هى الآن مع ماري، لكنها لم تستطع أن تبوح بما في قلبها في وجود بنات إيخوف. آه حسنٌ، ربما كان هذا أمرًا حسنًا.

ماذا هناك يمكن أن يقال، على أي حال؟ لم يكن للكلمات أي فائدة.

قَبِلَت عرض بيتسي بأن توصلها في طريقها إلى منزلها، وفي العربة بكت تقريبًا عندما تذكرت تلك المقابلة الأولى العابرة مع پول بعد عدة أشهر من الصمت.

* * *

وبعد بضعة أيام، عندما ظنَّت فريدريك أن پول عاد بالفعل إلى بوديخرافن، قابلته بالصدفة مرة أخرى. كانت قد قررت لمجرد أن عَنَّت لها الفكرة زيارة عائلة فرسترايتن، ولما وقعت عيناها عليه في الصالون، شعرت بالدم يتلاشى من وجنتيها تمامًا كما في المرة الأولى، لكن الوقت كان متأخرًا بعد الظهيرة، وكان الضوء خافتًا، لذلك لم يلاحظ أحد. كان جورج ولي لي هناك أيضًا، وبعد تحية الجميع مدت فريدريك يدها إلى پول، الذي نهض واقفًا عند دخولها. ترددت بين دعوته پول أو مستر فان رات، لكن ليس لأكثر من لحظة، مدركة أن صيغة المخاطبة الأخيرة قد تلفت الانتباه بلا مبرر. رد بكل بساطة:

«مرحبًا يا فريدي».

كانت لي لي تشكو لمدام فرسترايتن عن الجزار وبائع الحليب لديها، حتى اقتحمت ماري الحديث فجأة قائلة إنها صارت مملة بصورة مروعة بتبرمها المستمر حول تدبير شيءون بيتها. ردَّت لي لي أنها لا تتبرم على الإطلاق، كل ما هنالك أنها لن تتساهل بأن يعاملها التجار باستخفاف. كان پول يتحدث مع العم فرسترايتن، لكنه الآن تحول إلى فريدريك، مخاطبًا إياها بنبرة صوت

طبيعية ومرتاحة للغاية لدرجة أنها فوجئت تمامًا.

«لقد مرَّ وقت طويل منذ التقينا يا فريدي! كيف حالكِ؟ وعائلتكِ؟».

«أوه، على خير ما يُرام شكرًا لك».

«في المرة القادمة، التي سآتي فيها سأقوم بزيارة أمكِ. رجاء أوصلي لها تحياتي الحارة، ممكن؟ وماتيلدا أيضًا طبعًا. هل ما زال إتيان يدرس بجد واجتهاد؟».

«نعم، إنه دؤوب للغاية هذه الأيام».

ضحك پول.

«ولد مسكين. يسرني أن أسمع أنه يواجه ذلك بشكل جيد جدًا. هل تخرجين كثيرًا هذا الشتاء؟ كيف الموسم معكِ؟».

«لقد بدأ لتوه فقط بالفعل. سوف تقيم عائلة إيخوف حفلهم السنوي في فبراير- في فندق أوتيل ديزاند هذه المرة».

«نعم، أعرف. آنجه طلبت مني أن أحضر لأجل ذلك».

أحبطتها تفاهة تصريحاته، والتي شعرت بأنها مضطرة للردّ عليها بالمثل بينما كان قلبها يستعر بالعاطفة. هل نسي حقًا؟

بدا أنه نسى، لأنه واصل الحديث على نفس المنوال، ليسأل عن الأوبرا وحفلات ديليجنتيا الموسيقية، عرس مارجريت فان لارن وهكذا دواليك، ورغم أن ماري كانت تقول كلمة أو اثنتين كثيرًا، أصابت كل تلك الأسئلة غير المهمة فريدريك كالسهام، التي تستهدفها وحدها دون غيرها. إلا أنها استجمعت كل قوتها واستعادت إحساسها القديم بالكبرياء، ونجحت في التحدث إليه بالمرح والخفة الملائمة. تذكرت ما قالته له صباح ذلك اليوم في دي هورسه: إنه لم يكن هناك أي داع للمشاعر السلبية لمجرد أنه تقدم لخِطْبَتها، وأنها لم تأخذه بمحمل الجد، وإنها ليست ساذجة كغيرها من الفتيات.

آه، تعلم أنها وجهت ضربة إلى كبريائه بصدها المتعالي لخطواته للتقرب

منها، لكن مهما بدا ودودًا ومرتاحًا الآن، في واقع الأمر كان يغلي من الغيظ منها.

***

في ذلك المساء بعد العشاء، ألقى پول نفسه على كرسي مريح.

سألته أمه في هدوء: «متى ستعود إلى بوديخرافن؟».

«صباح الغد».

«هل ستبيت الليلة؟».

«نعم، أعتقد ذلك».

«كن على راحتك لتُشْعِل سيجارًا ياعزيزي، لا أمانع إذا أردت التدخين. هل ترغب في بعض القهوة؟».

«إذا لم يسبب ذلك لكِ الكثير من التعب».

نودى علي لينتيه لتقديم القهوة، وجلست المدام في كرسيها المفضل ذي المسند لتستمتع بلحظة الاسترخاء بعد تناول الطعام. أغلقت عينيها وغرقت في التفكير. كم كان باعثًا على السرور أن يكون پول جالسًا في الحجرة، ومعه كأس الكونياك وسيجاره، رغم أنه من الخسارة أنه وهي يبدوان أنهما ابتعدا عن بعضهما مؤخرًا. بدا أنهما أصبحا غريبيْن. فتشت في ضميرها عن أدلة لتفسر المسافة، التي صارت بينهما، لكنها لم تجد شيئًا، رغم أنه صحيح أنها كانت تغدق حبها وحنانها على هِنْك عندما كان فتىً صغيرًا ، وصحيحٌ أيضًا أن پول أقلقها في بعض الأحيان بسبب طبيعته المتراخية والمتقلبة. شعرت بدافع غزيزي كبير من الشفقة على ابنها الأصغر، والذي خمنت أنه يعاني نوعًا ما من الحزن فوق استيعابها، لكنها كلما أشفقت عليه، بدا أنه يزداد بُعدًا بالنسبة لها.

من خلال عينين نصف مغلقتين اختلست نظرة على پول الذي كان يحدق في السقف وينفث دوائر من الدخان في تأمل ظاهر. أجفل عندما خاطبته برقة:

«أخبرني ياپول، هل أنت متأكد أنك على ما يُرام؟ أنت لست مريضًا، أليس

كذلك؟».

نهض وابتسم.

سألها: «ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟ لا أبدو مريضًا، أليس كذلك؟ في الواقع الجميع يقول لي إنني قد ازداد وزني».

رمقها بنظرة فاحصة: فيم كانت تفكر؟ تأثر بقلقها، لأنه كان باعثًا على الراحة بالنسبة له، رغم عدم جدواه.

ردت مدام فان رات في تفاؤل: «قد يكون ما تقوله صحيحًا، لكن يجب أن تعترف أنك تغيرت. هل أنا على حق في التفكير أن هناك شيء ما يضايقك؟».

«شيء ما يضايقني؟ بالطبع لا!».

«هل عملك مخيب للأمل؟ ألا تجد أنه ممل إلى حد ما العيش في قرية؟».

«حسنٌ، إنها ليست قمة الترفيه والتسلية، بالطبع. لكن لا يهمني، لاهاي تصبح مملة أيضًا بعد فترة».

«إذن أنت متأكد أنك بخير إذن؟».

«يوه يا أمي، توقفي عن القلق! ليس هناك أي شيء بي. أنا بصحة جيدة جدًا».

«سعيدة لسماع ذلك يا ابني العزيز».

كتمت تنهيدة، وأسندت ظهرها في كرسيها وأغلقت عينيها.

كانت الفجوة بينهما في أوسع نطاقاتها. مَرَّ الوقت، وظنَّ پول أنها نائمة، وعند صوت عَبْرة مخنوقة تطلَّع ليراها تبكي في هدوء، ووجهها مخبأ في يديها.

صاح: «عزيزتي ماما، ما خطبكِ؟».

همست: «لا شيء، لا شيء».

نهض من كرسيه ذي المسند، وذهب ليجلس بجوار أمه.

«أخبريني لِمَ تبكين؟ إنها غلطتي، أليس كذلك؟».

الرقة غير المعتادة في نبرة صوته جعلتها تذوب في أساها.

«لا يا ابني، إنها ليست غلطتك، لكن الأمر محزن جدًا- «.

«ماذا؟».

«الطريقة، التي يغلق بها الشباب على أنفسهم بحيث لا تستطيع الوصول إليهم. كانت إيلينه نفس الشيء، وقد سبب لي ذلك كربًا كبيرًا، والآن جاء دورك- ابني! لأنني أستطيع أن أحس أنك تخبئ شيئًا ما عني، شيئًا يسبب لك الحزن».

«أؤكد لكِ-».

«لا تؤكد لي أن الأمر ليس كذلك؛ ليس هناك داعٍ لمراعاة مشاعري. أنا أعرف يا بني صدقني، أعرف. كنت أعرف منذ شهور، وأردت كثيرًا أن أطلب منك أن تخبرني بسرك، لكني خشيت أن تخبرني أن الأمر لا يخصني، وأنا لا أطلب منك أن تخبرني بسرك الآن أيضًا، أنا أبكي فقط لأن الأمر كله يحزنني، كما أنني لا ألومك على ما أصبحت عليه؛ كلكم أنتم الشباب نفس الشيء، ترفضون أن تضعوا ثقتكم في كباركم، لكن وكما تعرف، يمكنك أن تستفيد كثيرًا عندما تشارك متاعبك مع شخص يحبك، ومن يمكنه أن يحبك أكثر من أمك؟ لكن لا، كل ما تفعله أنك تضع لسانك داخل فمك. الناس لا يفكرون إلا في أنفسهم هذه الأيام، في أفراحهم وأحزانهم الخاصة. آه حسنٌ، أفترض أن الموضوع لا يمكن عمل أي شيء حياله، لكنه يحزنني، يحزنني كثيراً».

بكت بلا صوت، أحناها ذلك الحكم القاسي، والذي يصبح الآباء من خلاله مغتربين عن أولادهم. ظلَّ ابنها بشفاه مرتعشة والدموع في عينيه صامتًا.

«ترى ابنكِ يزرح تحت عبء مريع بمرور الشهور، لكن قلبه مغلق أمامكِ؛ ليس أمامكِ شيء تفعلينه لأنه ليس لديكِ ما تقدمينه. يبدو أن الجميع يفكرون أنه كلما تكلموا أقل كان ذلك أفضل».

أفلتت منه تنهيدة إشفاق على أمه، ودفن وجهه في يديه. وضعت ذراعها

بلطف حول عنقه، وكسر قلبها أن تشعر بابنها الطويل، والقوى يبكي في حضنها. طبعت شفتيها على رأسه ذات الشعر الكثيف البني المحمر.

«أنا لا أؤنبك على أى شيء يا ابني الحبيب، خلاص، خلاص، لا تبكي».

همس وهو يحتضنها: «ألا تفهمين أن بعض الأمور مؤلمة إلى الحد، الذي لا يمكن التحدث عنها؟ أن الأقل إيلامًا الاحتفاظ بها لنفسك؟».

«لبعض الوقت، نعم، لكن ألا تظن أنك ستشعر بأنك أفضل بكثير لو شاركت حزنك مع شخص ما؟».

قال متلعثمًا: «لا أعرف، حقًا لا أعرف».

لم يقل شيئًا، لكنه ظل في أحضانها، متلذذًا بالمواساة الحلوة التي يمنحها الحب الأمومي. انتظر، على أمل أن تحثه مرة أخرى على أن يخبرها بسره. لكنها لم تفعل، ولكي يكسر الصمت بدأ يتحدث برضاه وإرادته.

«لا أستطيع أن أتخيل كيف عرفتِ. كنت أظن أنني كنت أتظاهر بشكل جيد جدًا، أنني كما أنا، ولم أتغير قط. لم أرد حتى أن أفكر في الموضوع كذلك، لأنني لم أُطِقْ المدى، الذي أثر به الموضوع عليّ، كما لو أنني لا أستطيع العيش بدون تلك المخلوقة!».

حكى لأمه كيف أنه تَقَدَّم لفريدريك، وكيف أنها رفضته بطريقة محتقرة ومهينة للغاية، اعترف بأنه شعر لبعض الوقت بأن معنوياته منخفضة نتيجة لذلك، لكنه لن يلبث أن يتجاوزه: لقد كان ذلك غاية في العبث.

سألت مدام فان رات: «ألم تعد تحبها؟».

لما سمعته يقول «تلك المخلوقة»، أول ما خطر ببالها كانت إيلينه، وعندما اكتشفت أنه يقصد فريدي، لم تستطع أن تقاوم شعورها بشيء من الراحة.

رد عليها، وهو يهز رأسه بقوة: «لا، لا أحبها! أوه لا، لم أعد أحبها».

رفعت ذقنه بيدها، وحدقت في عينيه للحظة طويلة.

سألته مؤنبة، وهى تتشكك في إنكاره: «لِمَ أنت مختلف كثيرًا عن الطريقة، التي كنت عليها من قبل؟ لِمَ أصبحت هادئًا للغاية مؤخرًا، وكتومًا جدًا؟ لكنني لن أسألك أكثر من ذلك، يابني؛ لست بحاجة إلى أن تخبرني أكثر مما تريد. فقط أرجوك لا تخدعني يا پول، أفضل أن تقول شيئًا أكثر من ذلك».

قال متلعثمًا: «ياه، أنتِ عزيزة جدًا. لقد منحني إخباري إياكِ قوة مفيدة، رغم أن الموضوع محرج إلى حد ما».

استطردت، وهى تعبث في شعرها بأصابعها: «إذا لم تعد تحبها، إذن لم يُجْرَح إلا كبرياؤك يا پول، وهذا شيء يمكنك أن تضعه وراء ظهرك بسهولة، لكنني لا أزال أرى من الصعب أن أصدق أنك توقفت عن الاهتمام بفريدي. لكن كما قلت، يا ولدي العزيز، لا أريد أن أتطفل، ولا أتمنى أن أؤلمك. أريد فقط أن أشكرك لأنك وثقت بي بما يكفي لأن تشاركني متاعبك أخيرًا، والآن أخبرني، أنت تعتقد أن أمك العجوز تحبك، أليس كذلك؟».

أوما برأسه، حاضنًا إياها أقوى، وعلى الفور لاحظت إلى أي مدى يشبه والده في اللوحة بالحجم الطبيعي على الحائط- أكثر شبهًا من هِنْك- وانتابها إحساس بالعجب من دفعة الحب، الذي لم تستطع التغلب عليه، والذي شعرت به نحو ابنها الصغير وقت انكسار قلبه.

***

انتهت نوبات مرح ماري. لم تعد تنهار في نوبات من الضحك السعيد، الذي لا يُقاوم كما كانت تفعل كثيرًا عندما كانت هي وإيميلي دى ڤوده تقضيان وقتهما في مرح وهما تضفيان اللمسات الأخيرة على مسكن جورج ولي لي الجديد . لقد صارت مستسلمة لخيبة الأمل، التي تعاني منها، ورأت حياتها تمتد أمامها كضباب كئيب رمادي رتيب، خاصة أن أخوها يان غادر البيت ليلتحق بالأكاديمية العسكرية في بريدا، وصار البيت كئيبًا بشكل مفجع. تاقت لبعض الحركة والحيوية، وغبطت فريدريك على صحبة أطفال فان رايسل

المفعمة بالحيوية والنشاط، والذين ملأوا بيت مدام فان إرليفورت الرَّحب بالكثير من المرح.

لم يزر أوتو لاهاي أبدًا. لم تره منذ أغسطس، عندما كانت مقيمة في دي هورسه، واحتفظت بذكرى المناسبات القليلة التي وجدت نفسها فيها وحدها معه، عندما كانا يتحدثان ويتمشيان في الحديقة العامة. ليس لأن محادثاتهما كانت بأى شكل من الأشكال حميمة أو مهمة، لكن بالنسبة لها كانت كواحاتٍ صغيرة وحلوة في صحراء خيبة أملها.

لم تقطع أي أزمة انفعالية مزاج تسليمها الخاضع إلا مرة واحدة فقط أثناء شهور الشتاء الأولى تلك، وكان ذلك بسبب تعليق من فريدريك، التي صرحت فجأة، وهى تتكلم عن مدى إحساس أوتو بالوحدة في قرية إلتسن:

«آه ياماري، يمكنكِ أن تكوني زوجة صالحة لأوتو! على الأقل سوف تقدرينه».

«أنا؟»، ردت على استحياء، محاولة أن تبتسم، وبعدما ذهبت فريدريك سقطت في طوفان من الدموع المريرة، لكن بعد ساعة عاد كل شيء كما كان عليه من قبل: يغشاها ضباب رمادي من خيبة الأمل، التي وَطَّنَت نفسها عليها كالمعتاد.

في أحد الايام، دُهِشَت ماري لتلقيها زيارة من مدام فان رات. قالت ماري إنها آسفة أن طانط دورا لم تختر لحظة أكثر ملاءمة للزيارة، لأن والدها ذهب لزيارة لي لي، وكانت أمها خرجت للتسوق، لكن طانط أكدت لها أنها ستسعد لو دردشت مع ماري بدلاً من ذلك، وهبطت جالسة على أحد الكراسي ذات المسند. لم تكن كثيرة الكلام عادة، لكنها انطلقت هذه المرة تتحدث في كل أنواع الموضوعات، حتى إنها استفسرت عن الحفل، الذي أقامته بنات إيخوف. ذكرت رسالة من إيلينه، وكم كان أمرًا جيدًا أن پول كان ناجحًا في بوديخرافن، وأنه بدا مستقرًا جدًا في عزمه على مواصلة مساره الوظيفي، الذى

اختاره. كانت ماري سعيدة لسماعها تتحدث بطريقة إيجابية للغاية عن ابنها، وذلك أنها إلى ذلك الحين كانت تعرف أنها فقط مستاءة من سلوك پول. رأت أيضًا أنه لطيف جدًا من طنط دورا أن تقول عند رحيلها:

«بالمناسبة كيف فريدي؟ لم أرها منذ فترة طوية. يمكنكِ أن تخبريها بالنيابة عني إنني بدأت أفكر أنها نسيتني تمامًا- فهي لم تزرني منذ شهور! أخبريها بأنها فتاة شريرة، ممكن؟».

ردت ماري بابتسامه مرحة: «حاضر يا طانط، سوف أخبرها».

غادرت مدام فان رات، تاركة ماري تتساءل ما إذا كانت طنط دورا لديها أي فكرة عما قد حدث بين پول وفريدي.

***

عندما سمعت فريدريك من ماري أن مدام فان رات كانت تتوقع منها أن تزورها، شعرت بمشاعر متناقضة. كانت تتجنب البيت في شارع فان ميردرفورت بإحساس من الحكمة المختلطة بالندم والحرج، ولكن الآن وقد دُعِيَت، رأت أنه من الأرجح أن أم پول ليس لديها علم بتقدم ابنها للزواج. إلى جانب ذلك، أوضح پول جيدًا أنه أراد أن يدع الماضي يمضي يوّلي، ولذلك ولما رأت أنه من قلة الأدب أن تهمل السيدة العجوز العزيزة أكثر من ذلك، قررت أن تقوم بزيارتها.

لكن قلبها دق من الخوف، وهى تدق الجرس. هاهى ذي، تزور مدام فان رات كمجرد واحدة من المعارف، لكن لو كانت الأمور مختلفة، فربما قد تأتي كزوجة ابنها.

رحبت مدام فان رات بفريدريك ترحيبًا حارًا. كانت متلهفة لمعرفة أحوال زائرتها الشابة، ونظرت إليها باهتمام، وهى ترد على شتى الأسئلة سليمة الطوية. رجعت أفكارها إلى الوقت، الذي كانت ترى فيه پول مع إيلينه عندما فكرت في شيء أشبه بتوقع متفائل، والآن لم تستطع أن تقاوم عقد مقارنة بين أناقة

إيلينه الباهتة ونضارة فريدريك المتوردة، والتي لا يشوبها سوى أقل مسحة من شجن، لكن بالرغم من جمال الفتاة، شعرت أم پول بوخزة من ضيق بالنيابة عن ابنها. فريدريك كانت مفعمة بالحيوية والصحة وكانت تجعل ابنها المسكين يعاني في صمت. لم تظن أنها تملك موهبة في الدبلوماسية، ولم يكن لديها فكرة واضحة عن دوافعها النهائية، كل ماكانت تعرفه أنها تمنت من كل قلبها أن تعمق معرفتها بفريدريك. كانت تأمل أن تكتسب بعض البصيرة بشأن ما تشعر به الفتاة، وهي تدردش مع أم الخطيب، الذي رفضته، لكن الوقت لم يَحِنْ بَعْدُ لسبر أغوار شخصية فريدريك، ولا بد من عدم تجاوز قواعد المجتمع المهذب. من ناحية أخرى، لم تستطع أن تقاوم التفكير في كم كانت الفتاه محبوبة، وصريحة ومثيرة للإعجاب وعاقلة، وليس بها أي من أجواء إيلينه الواعية بذاتها! لا، من غير المعقول أن فريدي يمكن أن تلعب عن قصد بمشاعر پول ...

ببساطة لم تكن تحبه بالقدر الكافي أو ... ربما قد تكون هناك أسباب أخرى، والتي فَضَّلَت ألا تُعَوِّل عليها في الوقت الراهن.

قالت مدام فان رات عندما استأذنت فريدي بالانصراف، «حسنٌ يا عزيزتي، على الأقل لقد صالحتني الآن، لكنك لن تجعليني أرسل لكِ دعوات مرة أخرى، ممكن؟ أنا وحدي تمامًا هنا، وأحب أن أرى وجهًا شابًا من وقت لآخر».

قبلتها فريدريك لوداعها، ووعدتها بأن تزورها مرة أخرى في القريب العاجل.

في الأيام التالية قامت مدام فان رات بعملها بابتسامة عارفة قليلاً على شفتيها ونظرة يقظة في عينيها. التقطت خلال ضباب مزاجها السلبي المعتاد بصيصًا لأملٍ جديد في حياتها. ذلك الهدف لن يكون سهل المنال، وليس قريبًا بأي حال من الأحوال. كانت تعرف إنها كانت مفرطة في التفاؤل عندما وثقت في حكم الدكتور راير عندما رأي أن لديها القدرة على المساهمة في استرداد إيلينه لصحتها، وخشيت من أنها قد تخاطر بالوقوع في خيبة أمل أكبر خاصة، وأن سعادة ابنها صارت على المحك، لكن لأن لها روحًا تقية، فقد صَلَّت لله

أن يهديها سواء السبيل.

في المرة التالية، التي قضى فيها پول بضعة أيام في لاهاي لم تنطق أمه بكلمة واحدة له بشأن فريدريك، ولا عن المحادثة، التي دارت بينهما، وعندما تلقيت زيارة ثانية من فريدريك ذكرت أنها كم استمتعت بوجود شخص يقرأ لها. كانت إيلينه معتادة أن تقرأ لها أحيانًا في الماضي، لكنها كانت تشعر بالسأم بسرعة كبيرة. في الآونة الأخيرة أبدت ماري الكثير من اللطف لأن تقوم بهذا الجميل من أجلها في عدة مناسبات. لِمَ لَمْ تنضم فريدريك إليهما لمساء واحد؟ وعدت فريدريك بالقيام بذلك، مع بعض الشكوك، لأنه كلما صارت المدام أكثر ودًا، شعرت هى بالحرج أكثر، لأن السيدة العجوز لم تبدِ أي إيحاء أن پول أخبرها عن تقدمه للزواج، ولو كانت عرفت، فإنها بالتأكيد لن تكون منفتحة القلب للغاية في طريقتها تجاهها، لكن فريدريك تركت نفسها تقتنع، وأصبحت زائرة منتظمة لشارع فان ميردرفورت. لم تلتقِ أبدًا بپول هناك، لأنها لم تكن تزورها عندما تعلم أنه عاد إلى المدينة؛ وكذلك المدام التي أبقت تعميق صداقتها بفريدريك سرًا عن ابنها لم تطلب رؤيتها في تلك المرات.

في إحدى الليالي العاصفة، عندما كانت المدام فان رات تتوقع زيارة من ماري وفريدريك، جاءت الأخيرة وحدها، لأن ماري شعرت بوعكة. عرضت فريدريك أن تأخذ مكان ماري كقارئة، واستقرت المرأتان جالستين في الصالون الواسع، حيث نشرت قناديل الغاز ذات المظلات الحمراء وهجًا ورديًا وصَفَرت غلاية الشاي، وفوق إحدى الطاولات المنخفضة وُضِعَ المجلد الثاني من رواية تولستوي الحرب والسلام.

لكن هذه المرة سيظل الكتاب مغلقًا، لأن المدام كان لديها مزاج أكثر للمحادثة. لم تتحدث عن أي شيء سوى پول: كيف غدا جادًا، وكيف أنه كان دائمًا ولدًا طيبًا من الداخل. لقد ارتكب أمورًا حمقاء وشقية في شبابه، لكنه أصبح الآن شابًا ممتازًا وعاقلاً. كان يمكن أن يكون الموضوع مختلفًا جدًا- في النهاية، بالنسبة لشاب امتلاكه للثروة ليس شيئًا جيدًا دائمًا. آه، إنها مسرورة

جدًا لما صار عليه حاله؛ وفريدي كانت دائمًا معجبة به جدًا، أليس كذلك؟

«حسنٌ، كنتِ دائمًا معجبة به، أليس كذلك؟»، كررت مدام فان رات في مشاعر، وبعدها تلعثمت فريدي وردت ردًا غير مفهوم.

تمكنت فريدي من قول: «أوه نعم، في الواقع!».

«بما أن الحديث عن پول»، تابعت المدام بنبرة من يخفي سرًا: «هناك شيء كنتُ أريد أن أسألكِ عنه يا فريدي. لا تمانعين، أليس كذلك؟».

وضعت يدها على ذراع الفتاة، وشعرت به يرتجف. شعرت فريدريك بأنها وقعت في مصيدة: نسجت السيدة العجوز شبكة من التعاطف والألفة حولها، والتي لا تستطع أن تُخَلِّصَ نفسها منها.

تلعثمت، وهى تخشى السؤال: «بالطبع لا! اسألي عما شئتِ».

«أريد أن أسألكِ إن كان وقع، تحت أي ظرف، أي أمور غير سارة بينكِ وبين پول. ما جعلني أتساءل أنه يبدو يتصرف بغرابة إلى حد ما في كل مرة يتصادف أن يذكر شخص ما اسمكِ. أستطيع أن أدرك أن هناك شيئا ما يؤزمه، ولأنني أعلم بأنه قد يكون وقحًا للغاية أحيانًا، اعتقدتُ بأنه ربما أساء إليكِ بطريقة أو بأخرى، وآمل ألا يكون الموضوع كذلك. أليس كذلك؟».

«أوه لا، مطلقًا، أؤكد لكِ».

«هيا يا عزيزتي، يمكنكِ أن تخبريني سركِ، كما تعرفين. پول ليس دائمًا في قمة أخلاقه المهذبة، في الواقع يؤسفني أنه محب للمقالب نوعًا ما، وعندما أرى الطريقة، التي يغيظ بها فرانسواز فان أودندايك وبنات إيخوف لا يسعني إلا الدهشة أنهن لا يبالين على الإطلاق، أو بالأحرى، كنتُ معتادة على أن أراه يتغزل في البنات، لكنه صار أكثر عقلانية بكثير في الآونة الأخيرة. لذلك كما ترين، يمكنني أن أتصور جيدًا أنك انزعجتِ منه لسببٍ أو لآخر، وهو منكِ في المقابل. الآن إذا سمحتِ أخبريني فقط ما هو ذلك السبب ...».

بكت، وهى تغالب دموعها، «ولكن يا سيدتي العزيزة، أؤكد لكِ، لم يحدث

شيء! لم يكن هناك أي شيء، أي شيء أبدًا!».

رمقتها أم پول بنظرة مرتابة.

«يا عزيزتي، يا لكِ من كذابة! عيب عليكِ! ألا ترين أنكِ إذا لم تقولي لي الحقيقة سأقلق فقط، بما يسمح لكل الأشياء أن تدخل رأسي- الأمور غير المحببة أيضًا! لكن يا عزيزتي، أنتِ تبكين، أليس كذلك؟».

كان ذلك المساء عذابًا لفريدريك منذ لحظة وصولها، وذلك بسبب تلميحات مدام فان رات المستمرة عن العلاقة المتوترة بينها وبين پول، ولم تستطع أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك.

انفجرت، وهي تبكي بنبرة اتهام: «لِمَ لا تصدقينني؟».

قالت مدام فان رات، وهي تحتضن فريدريك بذراعيها: «لأنه لو لم يحدث شيء، فلن يوجد داعٍ لكِ أن تكوني متضايقة، أليس كذلك؟ سامحيني إذا تسببتُ في الألم لكِ، لكن ماذا كنتِ تتوقعين مني أن أفكر فيه يا فريدي؟ ماذا عليّ أن أفكر فيه بشأن استيائكِ الشديد؟».

انتحبت فريدي: «لا شيء! لا تفكري في أي شيء! ليس هناك شيء في هذا الموضوع!».

قربتها مدام فان رات أكثر، وهمست: «الآن استمعي لي يا فريدي، استمعي لي! هل تحبين پول؟».

مخلوعة في نشيجها، حاولت فريدي تخليص نفسها، لكن السيدة العجوز شددت حضنها.

«لا تذهبي يا فريدي، فقط ابقي بالقرب مني للحظة وأجيبي على سؤالي: هل تحبين پول؟ هل تحبينه كثيرًا جدًا؟».

«لماذا تسألينني عن ذلك؟ لماذا تريدينني أن أخبركِ؟».

«لأنني أعتقد أنه يحبكِ».

«لا، لا، إنه غير مهتم بي، إنه لا يحبني، لم يعد يحبني».

«لكنه أحبكِ يومًا ما، وقد يحبكِ مرة أخرى! يوه، قولي لي الحقيقة يا عزيزتي- قولي لي ما حدث بينكما. حسنٌ، إذا لم تقولي لي، أيمكن أن أخمن؟ حاول پول التقرب إليكِ، ثم عبث بعاطفتك، ثم أهملكِ. أليس ذلك ما حدث؟».

صاحت فريدريك عاليًا: «لا، لا! لا شيء من هذا القبيل بصراحة! كان كل شيء غلطتي! كيف يمكن أن تفكري في مثل هذا الشيء عن ابنكِ!».

«هل كانت حقًا غلطتكِ؟ حسنٌ إذن، هل طلب منكِ الزواج منه؟ وهل قلتِ لا؟ أنا أخمن فقط، لأنني طبعًا لا أعرف أي شيء، لكن لا تخبريني بأكاذيب يا عزيزتي، فقط قولي لي الحقيقة».

شعرت فريدريك بأنها منهكة للغاية بسبب هذا الإصرار على إبداء المزيد من المعارضة، واعترفت بالهزيمة بإيماءة يائسة برأسها، وبعد ذلك خبأت وجهها المتوهج بالحمرة في كتف مدام فان رات.

«لماذا رفضته؟».

«أعتقد بأنه كان كبريائي ... لقد تغلب عليّ».

«ألا تعتقدين أن ابني صالح بما يكفي؟».

«لا، لا، لم يكن كبرياء بالفعل؛ بل كان أشبه بالغيرة، على ما أعتقد. كان فاتنًا جدًا بالنسبة لكل الفتيات الأخريات ... أوه، لست حتى متأكدة لماذا رفضته».

«وهل أنتِ نادمة على ذلك، يا ابنتي؟».

ارتدت فريدريك في فزع.

صاحت: «لكن لا يجب أن تذكري كلمة واحدة عن هذا له! ولا كلمة واحدة! آه أرجوكِ، عديني بألا تقولي أي شيء! تقولين إنكِ تظنين أنه لا يزال يحبني، لكنني أعرف يقينًا بأن هذا لا يمكن أن يكون الحال، وسوف أموت من الخزي والعار لو أصبح لديه أي فكرة أنني ... آه، هل تعدينني أنكِ لن تقولي

أي شيء؟».

«بالطبع أعدكِ يا ابنتي، لكن ليس هناك داعٍ لكل هذه الكدر الآن، أليس كذلك؟ أخشى أنني أحزنتكِ، وهو ما آسفُ عليه حقًا، لكن حقًا، ألا تعتقدين بأنكِ تصرفتِ بحماقة إلى حد ما؟ الآن استمعي لي. حاولي النظر إلى الجانب المشرق. شخصيًا، لن أندهش أبدًا إذا كان پول لا يزال يحبكِ؛ بعبارة أخرى، أي شيء يمكن أن يحدث».

«لكنني كنتُ بشعة معه! إنه يكرهني!».

«هراء، يا عزيزتي! خلاص، خلاص، يجب أن تتوقفي عن البكاء يا فريدي، لكن الآن حان دوري لأطلب منكِ وعدًا الآن: أيمكنكِ أن تحاولي أن تصدقي أن پول لا يزال يحبكِ؟ أيمكنكِ أن تحاولي من أجلي؟».

حدقت فريدي من خلال دموعها.

قالت في فتور: «أتمنى لو أستطيع، لكن ... لن يكون ذلك صوابًا!».

ابتسامة المدام العارفة لم تترك وجهها أبدًا؛ قَبَّلَت فريدريك ومسحت بلطف الدموع عن وجنتها.

عندما ذهبت فريدريك، لم تأوِ مدام فان رات إلى الفراش على الفور، كما اعتادت أن تفعل، لكنها ظلت مستيقظة لفترة طويلة بعدها، تتأمل في رضا جهودها لإغراء فريدريك بالقبول. لم تتخيل نفسها أبدًا قادرة على مثل هذا العمل الدبلوماسي الفذ!

* * *

والآن عرفت: فريدي تحب ولدها، ولا يزال سبب رفضها له غير واضح، لكن يبدو أن دوافعها للقيام بذلك لم تعد واضحة لفريدي نفسها أيضًا. لقد طلبها للزواج، كان ذلك جليًا جدًا. في اليوم التالي أرسلت مدام فان رات رسالة قصيرة لابنها تطلب منه فيها أن يأتي لزيارتها دون تأخير، لأنها ترغب في سماع رأيه حول أمور مالية معينة. امتثل پول في سرعة ودهشة. أمور مالية؟ كان هِنْك

دائمًا هو من تستشيره بشأن موارد الأسرة المالية، وإلى جانب ذلك، ماذا يعرف هو عن المال؟ صرحت له بأن ذلك بالضبط السبب، الذي استدعته من أجله: لقد حان الوقت لأن يتعلم كيفية إدارة شؤونه المالية. رفع كتفيه قائلاً إنه واثق أن أخاه أفضل بكثير في مثل هذه الأمور منه، عندئذٍ انطلقت تتلو له عريضة طويلة ومعقدة لإقناعه بضرورة الاعتماد على نفسه، وفي نهايتها علقت كما لو كان الأمر خبط عشواء:

«جاءت فريدي لرؤيتي مساء أمس. يا لها من فتاة فاتنة. ياللعار ...».

«فريدي؟ لم أكن أعلم أنكِ وهي تريان بعضكما».

«أوه نعم، في كثير من الأحيان».

«في كثير من الأحيان؟ اعتقدت ...».

«ماذا يا ولدي العزيز؟ فريدي غالبًا ما تأتي لقضاء المساء مع ماري؛ إنهما تقرآن لي، كما ترى. ألم تكن تعرف؟».

«لا لم أكن أعرف».

«غريب؛ اعتقدتُ بأنك تعرف. نتحدث عنك أحيانًا».

«عني؟ هل تتحدث عني؟».

«حسنٌ، ليس طوال الوقت، لكن كلما أذكرك ترد في غاية اللطف والعذوبة. بالطبع هي لا تعرف بأنك أخبرتني بكل شيء يا ولدي العزيز. لذا فهي لا تدري بأنني أعرف ما دار بينكما».

«لكن من المثير للدهشة نوعًا ما أنها تأتي لزيارتكِ».

«مطلقًا. لا أحد يعرف عن ذلك بأي حال».

«لا يزال يبدو الأمر غريبًا نوعًا ما بالنسبة لي. أعني، أنها يمكن أن تحمل نفسها لتأتي إلى هنا، وأيضًا أنكِ جلستِ وتحدثتِ معها، وتبادلتما عبارات المجاملات، وكأن شيئًا لم يحدث».

«في الواقع يا عزيزي پول. صحيحٌ أنني كنت مغتاظة منها في البداية، لكنني صرت معجبة بها جدًا منذ ذلك الحين. في الواقع، أعتقد جازمة بأنها تحبك. پول، وذلك لأن هذا ما أؤمن به، أو بالأحرى لأنني أعلم علم اليقين أنني لم أعد أُكِنُّ أي مشاعر سلبية تجاهها».

تلعثم: «يوه يا ماما! كيف يمكنكِ أن تكوني على يقين من ذلك؟».

«لا أستطيع أن أشرح، لكن كل شيء يخبرني بأن الأمر كذلك. أشياء صغيرة تقولها ... كلمة هنا، وكلمة هناك ...».

كان مشدوهًا للغاية من الآفاق الوردية، التي تكشفت في مخيلته لدرجة منعته من الرد، وواصلت أمه نصيحتها:

«من الواضح تمامًا أنها تحبك. لا يزال ممكنًا لكليكما أن تجدا السعادة معًا. في المرة القادمة، التي تراها فيها، حاول ألا تتصرف كما لو كنت غير مهتم، كما لو أنك رميت بكل شيء وراء ظهرك. لا بد لك أن تعرفها بشكل أفضل قليلاً».

«ألا تظنين أنني أعرفها بما فيه الكفاية؟».

«لا يا پول، أنت لا تعرفها. أؤكد لك، وليساعدني الله، إنها تحبك!».

تلعثم: «لكنها لا يمكن! مستحيل! يوه يا ماما، مستحيل».

فكرت السيدة العجوز، وهي تهم بالنهوض. أخذته في أحضانها مرة أخرى: «وذلك ما قالته أيضا!».

همست: «ولكنها تحبك! إنها تحبك، يا عزيزي، يا ولدي العزيز!»، اعترضت ملامحها ابتسامة براقة، مما جعلها تبدو أصغر من سنها بعشر سنوات.

* * *

فكرت أنه من الأفضل أن تتركهما لفترة من الوقت، الآن وقد غرست في عقلهما فكرة وجود سوء فهم يمكن تصحيحه، وانتظرت الفرصة الملائمة.

ظلَّ پول يؤخر عودته إلى بوديخرافن. في اليوم الذي أعقب محادثته مع أمه

زار عائلة فرسترايتن. وصل في الساعة الرابعة، وهى ساعة يجتمع فيها عادة أفراد الأسرة معًا وكانت هناك أكبر فرصة لأن تزورهم فريدي دون موعد. خاب أمله كثيرًا عندما لم تظهر لدرجة أنه لم يقاوم سؤال ماري بنبرة منخفضة ومُلِحّة:

«ألن تأتي فريدي بعد ظهر اليوم؟».

أجفلت من السؤال: «لا أعرف يا پول. لماذا تسأل؟».

همس تقريبًا: «مَرَّ وقت طويل منذ رأيتها».

احمرت ماري خجلاً؛ كانت تود لو تستطيع أن تخبره كم كانت فريدي تشعر بالأسف إزاء تحول الأمور في الصيف الماضي، لكنها لم تجرؤ خوفًا من أن تُعَقِّد دون قصد خيط العاطفة الحساس بينهما. الأمر متروكٌ لهما كي يجدا حلاً، لكن متى سيفعلان ذلك؟ فكرت ماري، ربما لن يفعلا شيئًا على الإطلاق.

لم يَرَ پول فريدي بعد ظهر ذلك اليوم. أثناء العشاء سأل أمه:

«ماذا تقولين لو قمت بزيارة عائلة فان إرليفورت هذا المساء؟».

أجابت: «أنا متأكدة أنهم سيرحبون بذلك».

«كيف يمكنكِ أن تكوني على يقين من ذلك؟».

«آه، مجرد كلمة هنا وكلمة هناك. هذا يكفيني لأنظر إلى الجانب المشرق، على أي حال. سترى يا پول».

ردها لم يوضح الأمور، لكنه كان مطمئنًا بالنسبة له. بعد العشاء صار متوترًا، وبدأ يذرع الحجرة غارقًا في الفكر.

«اجلس يا پول، ولا تدع قهوتك تبرد».

«في أي وقت في رأيكِ يُفَضَّل أن أذهب فيه إلى مدام فان إرليفورت؟».

«ليس قبل الساعة الثامنة يا عزيزي. بين الثامنة والثامنة والنصف».

«كنت معتادًا على الزيارة في أي وقت، بشكل غير رسمي تمامًا!».

«ولذلك بالضبط ينبغي عليك أن تتجنب أي إيحاء بزيارة عادية».

تنهد. قرر في تلك الحالة أنه سيشرب كأسًا من الكونياك أولاً، متسائلاً ما الذي يمكن أن تكون فريدي قد قالته لأمه. أخذ كتابًا وتظاهر بالقراءة. تظاهرت المدام بالنعاس، لكنها في الواقع لم تكن أقل توترًا من پول.

دقت الساعة السابعة والنصف، وطرح كتابه جانبًا.

قال: «الجو مكتوم هنا؛ أنا بحاجة لبعض الهواء. أعتقد بأنني سأذهب للتمشية أولاً. سأذهب».

ابتسمت، وقالت بهدوء: «حظًا سعيدًا يا عزيزي».

* * *

في ذلك المساء انطلقت عائلة فرسترايتن بمرافقة جورج ولي لي في طريقهم إلى فورهوت؛ وأُرسلت برقية إلى إتيان في ليدن تدعوه للعودة إلى البيت، وطلبت مدام فان إرليفورت من هِنْك وبيتسي أن يأتيا أيضًا.

بالنسبة للأخيرين كانت هذه هي المرة الأولى منذ القطيعة بين إيلينه وأوتو، التي يزورا فيها دار فان إرليفورت، ومع ذلك، اختفت كل مشاعر العداء. عَلَت الروح الاحتفالية، وذلك أن أخبار خِطْبة پول وفريدي أتت بمثابة مفاجأة كاملة ومُرَحَّبًا بها جدًا.

عندما عادت مدام فان رات إلى البيت ذلك المساء، منهكة من الانفعال، شعرت بأنها مُتْعَبة جدًا لدرجة أنها لم تستطع تغيير ملابسها للنوم، وغاصت في كرسيها المريح للجلوس لفترة من الوقت، ويداها المليئة بالعروق مطوية فوق حِجْرها، وذقنها غارق على صدرها، يملؤها العجب للمحصلة الناجحة لخططها الغريزية. لأنها بكل كآبتها وتراخيها كان لها يدٌ في ذلك! لكن أيضًا كانت سعادة ابنها على المحك، وقد منحتها تقواها القوة.

٣٥

لم يُبْدِ العم دانيال والعمة إليزا أي دهشة من أي نوع عندما أعلنت إيلينه بعد بضعة أيام من رحيل سانت كلير وفنسنت نيتها العودة إلى لاهاي. كانا يعرفان أنها متقلبة المزاج بطبيعتها، فهي تريد هذا أولاً، وبعد ذلك ذاك، ولا تشعر بالرضا أبدًا، لكن لم تكن هذه نزوة. كانت الفكرة تتطور في ذهنها منذ ذلك المساء عندما سألها سانت كلير بصراحة وفظاظة شديدة: «كيف أتيتِ إلى هنا؟»، وشعرت كما لو أن ستارة أزيحت جانبًا، لتكشف لها في وضوح مفجع أنها لا تنتمي بحق إلى شقة عمها ببروكسل، بل وأقل من ذلك لا تنتمي للشلة، التي اختلط عمها وزوجته بهم. كان نابعًا من مشاعرها لسانت كلير- الاحترام والصداقة بل وربما الحب- أنها قررت مغادرة بروكسل.

كتبت لهِنْك، وطلبت منه استئجار حجرتين لها في بنسيون النساء، وإلا في أحد الفنادق الراقية الجديدة. تلقت ردًا سريعًا منه، وكذلك رسائل قصيرة من بيتسي ومدام فان رات العجوز، كلتاهما تحتج أنها لا ينبغي أن تأخذ حجرات إلا في بيتها معهم بدلاً من ذلك. كتبت بيتسي قائلة إنه حان الوقت لتغفر وتنسى ما مَرَّ بينهما، وتوسلت إلى إيلينه ألا تكون غريبة الأطوار هكذا لتذهب وتعيش لوحدها في الوقت، الذي توجد مساحة كبيرة لها في ناساوپلاين، ووجهت مدام فان رات العجوز دعوة عاجلة وحنونة مماثلة، لكن إيلينه رفضت عرضهما معبرة عن وافر الشكر والامتنان، ولم يكن ثمة ما يثنيها عن سعيها.

ولذلك رفع هِنْك كتفيه بائسًا وذهب مع بيتسي لاختيار شقة لطيفة من حجرتيْن في بنسيون واسع في بيزاودنهاوت. عندئذٍ عادت إيلينه إلى لاهاي.

تذكرت كم كانت مُتْعَبَة من كل رحلاتها عندما وصلت إلى لاهاي في الصيف الماضي، لكي تقيم مع مدام فان رات العجوز. قارنت الإعياء، الذي

شعرت به وقتذاك بالإنهاك، الذي تشعر به في الوقت الراهن، والذي يبدو أنه سلبها حتى القدرة على ذرف الدموع. من أجل سانت كلير استجمعت آخر ما تبقى من قوتها لترشد نفسها إلى الطريق، التي كانت فيها يومًا ما: جذابة وفاتنة، إن لم تكن متألقة. الآن وقد ذهب سانت كلير، أدركت أنها برغم أنها حاولت أن تكون صريحة وغير ماكرة معه، فقد وجدت نفسها تُمَثِّل مرة أخرى، لتجنب أن تدعه يراها منكسرة الروح تمامًا- بل على شفا الموت. الآن ولم يعد ضروريًا أن تجهد نفسها إلى الذروة كانت على وشك الانهيار، وبجانب ذلك، استنزف الاضطراب العاطفي لذلك الاعتراف الأخير مشاعرها لدرجة أنها تأكدت أنها لن تسترد عافيتها مرة أخرى، عقليًا أو جسديًا.

كان سعالها سيئًا للغاية، وطلبت العلاج من الدكتور راير مرة أخرى، لكنها لم تذكر قطرات المورفين، التي وصفها لها طبيبها في بروكسل، لأنها كانت على دراية برفض راير السابق لتوزيدها بدواء منوم. كان فبراير شديدة البرودة، وبقيت في حجراتها.

لما نهضت من سريرها في الصباح غلب عليها نفس شعور انعدام الهدف، كما كان الحال عندما كانت تقيم مع مدام فان رات، إذ تُفَضِّل بدلاً من ارتداء ملابسها أن تضع روبها حولها، وتسترخي على إحدى الآرائك، متلذذة بالشعور المريح بألا شيء مطلوب منها، وأنه لا يوجد أي سبب على وجه الأرض يجعلها ترتدي ملابس غير ملابس النوم، وأنه لا يوجد شيء يمنعها من أن تظلَّ كما كانت، وهي تلبس شبشبها، وشعرها غير مصفف، لأطول فترة تشاء. لقد وجدها مختلف الزوار هكذا، لا ترتدي إلا ملابس النوم، مهوشة الشعر، وتحدق في الفراغ من النافذة، بما فيهم مدام فان رات وبيتسي ومدام فرسترايتن وماري ولي لي. لم تكن تقرأ، لم تكن تفعل أي شيء على الإطلاق، وتمر الساعات، التي تصل فيها حتى أفكارها إلى طريق مسدود. أحيانًا ترمي نفسها فجأة على الأرض وترقد هناك لتضغط وجهها على السجاد وعيناها مغلقتان بشدة، حتى تسمع طرقًا على الباب- الخادمة تأتي لها بصينية الغداء- يجعلها تنهض على

قدميها بسرعة في رعب مفاجئ. بالكاد تلمس طعامها، وترتسم ابتسامة صغيرة متجهمة، نصف ساخرة ونصف مخبولة، نفسها على ملامحها.

كان كل مساء يُلْحِق ساعاتٍ من الألم المبرح بإيلينه. يصاب عقلها بنوبة من الهياج، كما لو أنها صُدِمَت صدمة كهربائية خوفًا من ليلة مؤرقة. غمر عقلها وهج مثير للدوار، وامتلأت أذناها بهمهمة متواصلة. دارت عاصفة عارمة من الذكريات كالدوامة وتصاعدت الرؤى أمامها. أجفلت في خوف من ظلٍّ يلوح على الحائط أو لمعان أحد الدبابيس على الأرض، لكن أخذت قطراتها، وتدثرت أخيرًا بعباءة النوم الثقيلة.

* * *

للحظات طويلة تقف تحدق في المرآة في جمالها الباهت. تظهر الدموع في عينيها اللتين بدا أن بريقهما انطفأ إلى الأبد، وانجرف عقلها إلى ماضيها. ملأها الحنين إلى تلك الأيام السابقة، بعدما غاب عنها ما الذي كانت تعنيه، لأنها كانت تجد صعوبة متزايدة في التفكير تفكيرًا واضحًا. كان الأمر كما لو أن ثمة حدودًا معينة لما يمكن أن تفكر فيه والتي لا تجرؤ على تخطيها. إلا أن بلادة قواها العقلية قللت شجنها الذي كان سيبلغ حد الأزمة الخطيرة لو كانت عقلها رائقًا. بدلاً من ذلك، الآن صارت تمضي الساعة تلو الساعة يعذبها الشك فيما يمكنها أن تفعله بجسدها عديم الفائدة وحياتها عديمة الفائدة، تجرجر نفسها من نوبة سعال قوية إلى أخرى في سجن حجرتها. ذرفت دموعًا مريرة على رغباتها، التي لم تتحقق واستلقت تتلوى على الأرض، ذراعاها ممدودتان نحو عاشق وهمي، ذلك أنها في كلٍ من أحلامها وتداعيات ذهنها اليومية بدأت تخلط أوتو بسانت كلير، تنسب دون وعي كلمات وأفكار أحدهما للآخر، بحيث لم تعد تعلم أي من الاثنين كانت تحبه حقًا أو لا تزال تحبه. وعندما حاولت خلال نوبات الالتباس هذه أن تجاهد من أجل حل، وجدت نفسها في مواجهة تلك الحدود المقيدة للأفكار مرة أخرى، واحتدت للغاية بسبب عجزها لدرجة أنها ضربت رأسها بعنف بقبضة يدها، كما لو كانت تحاول

ضبط دماغها المشاكس بالقوة.

«ماذا دهاني؟»، سألت نفسها في حالة من اليأس: «لِمَ لا أتذكر شيئًا عن مئات الأشياء، التي حدثت، سوى تلك التي أعرف أنها حدثت؟ آه، البلادة في رأسي! أُفَضِّل أن أعاني الألم الرهيب بدلاً من أن أعاني هذه البلادة! لابد أنني أصبتُ بالجنون ...».

سَرَت قشعريرة أسفل عمودها الفقري كأفعى باردة. لنفترض أنه قد أَلَمَّ بها الجنون، ماذا سيفعلون بها؟ الأمر أسوأ من أن تفكر فيه، لكن حتى بعد أن جاهدت لإبعاد شبح الجنون المحدق بها، تولد لديها إحساس بتخطي خط ممنوع. لأنه لو كان هذا ما كانت تفعله فلا بد إذن أنها قد ... فقدت عقلها!

في مثل هذه اللحظات تعمد إلى تغطية عينيها وأذنيها بيديها لحجب كل الرؤية والصوت، كما لو أن أول انطباع قد تتلقاه الآن سيدفع بها إلى حافة الجنون. أصابها الهلع الشديد من حدوث ذلك لدرجة أنها لم تنطق بكلمة واحدة لراير عن التشوش في عقلها.

في أثناء فترات خمولها الطويلة باتت مُسْتَعْبَدة بالتخيلات والأوهام الغريبة، والتي غالبًا ما تصل إلى نزعة غريبة من النشوة، التي تفيق منها فجأة مصدومة، وهى مستلقية على أريكتها، تلعب بعصبية بالشراشيب في الوسائد أو تلوي خصلة من شعرها الطويل المنكوش، استغرقت في تأمل الخيالات المسرحية، التي احتفظت بها باعتزاز في الأيام الخوالي لأغانيها الثنائية مع پول، وعندما ظنت أنها كانت تحب فابريس. بعدها أضحت ممثلة، وكانت على خشبة المسرح، واستطاعت أن ترى الجمهور، وابتسمت وانحنت، وأُمْطِرَت بالأزهار...

نهضت واقفة على قدميها في ذهول، وبدأت تدندن ريسيتاتيف ما أو بضع عبارات من آريا إيطالية وهى تدور حول الحجرة، وهى تلقي يديها في يأس، تحاول الوصول في تضرع إلى عاشق هارب، تجثو على ركبتيها وتتوسل طالبة

الرحمة حتى كأنها جُرْجِرَت بالقوة بعيدًا ... ظهرت أدوار متنوعة في عقلها: مارجريت، جولييت، لوسي، إيزابيل، ميراي، لتصبح هى في انجراف الإثارة كل هؤلاء البطلات، تُمَثِّل أكثر لحظاتهن تراجيدية في تتابع سريع، فقط لتستيقظ فجأة من هذيانها لتجد نفسها وحيدة في حجرتها، تقوم بايماءات غريبة.

بعدما استردت وعيها مرة أخرى، فكرت:

«يا الله! أهذا صحيح؟ هل سأُجَنُّ؟».

غاصت على الأريكة مرة أخرى وظلت ساكنة تمامًا، اتسعت عيناها من الخوف، كما لو أن كارثة رهيبة ما كانت على وشك الوقوع، كما لو أن الوجوه في اللوحات والمطبوعات على الجدران دَبَّت فيها الحياة فجأة، تتهكم عليها وتكشر لها كالعفاريت.

بعد هذا اليوم سوف تقرر في خوف هادئ أن تسيطر على نفسها. في صباح اليوم التالي، عند استيقاظها من سباتها الثقيل المفتعل، نهضت على الفور من سريرها وارتدت ملابسها بعناية، وبعد ذلك خرجت لشراء بعض الحاجيات، وأخذت القهوة مع هِنْك وبيتسي أو قامت بزيارة إما لعائلة فرسترايتن أو لمدام فان رات. قالت إنها كانت وحيدة، ودعاها الناس للعشاء بين الحين والآخر بدافع الشفقة. في مثل هذه المناسبات كان المساء يمر بمرح تمامًا، لتعود إلى حجرتها بعد ذلك سعيدة بأنها وصلت إلى نهاية يوم آخر، لكنها سيغشى عليها تقريبًا من الإنهاك بسبب حركتها وحيوتها غير المعتادة، وتألقها المصطنع، وضحكتها الصاخبة غير الطبيعية، ناهيك عن سعالها الذي لا ينتهي، وسوف تعاني بشكل كبير بالليل: لم يكن للقطرات أي تأثير؛ لتظل مستيقظة تمامًا، تمامًا، فريسة لأكثر الأوهام جموحًا، التي يستحضرها عقلها المريض، وهى تستعيد ذكريات أنشطة اليوم المُجْهِدَة.

كانت موضوع الكثير من الكلام، وكثيرًا ما عَلَّقَت بيتسي في عبوس قلق أنها تخشى أن إيلينه مريضة؛ فهى تتصرف بشكل شديد الغرابة هذه الأيام، ولم يكن

راير راضٍ بأي شكل من الأشكال أيضًا. كان الجميع يشعرون بالأسف حيالها: إيلينه المسكينة، المكسينة التي اعتادت أن تكون أنيقة ومغرية جدًا ومرحة جدًا! الآن تبدو كشبح لنَفْسِها السابقة في المناسبات النادرة، التي شوهدت فيها تخرج إلى الشارع بمشيتها العصبية وغير مستقرة، وتضغط أنبوبها من الفراء على شفتيها، وكان ثمة شيء خجول تقريبًا في الطريقة، التي كانت تميل رأسها بها لدى تحية أفراد عائلة فان لارن وهايدريخت وأودندايك. لا حقًا، لم تكن على ما يُرام على الإطلاق؛ كان ذلك جليًا للجميع ليرونه.

* * *

كانت تمطر: مطر مارس القوي البارد، وكانت بيتسي بالبيت، تجلس في حجرة الانتظار البنفسجية بجوار البيت الزجاجي وكرسيها ذي المسند مدفوعٌ نحو الضوء لكي تتمكن من قراءة كتابها، صياد أيسلندا لپيير لوتي، لكن القصة أشعرتها بالملل: لم تستطع أن تتخيل الصيادين عاطفيين جدًا هكذا. من وراء أصص النخيل بالبيت الزجاجي استطاعت أن تتخلل الحديقة بنظرها، حيث لمعت الأشجار العارية لمعانًا صارخًا في هطول الامطار. جلس بِنْ على الأرض بجوار أمه، ورأسه متدلٍ على تنورتها، وعيناه مثبتتان على غصنٍ بلا أوراق من شجرة دردار يتقاذف بجنون في مهب الريح والمطر. زَفَر تنهيدة.

سألت بيتسي: «ما خطبك يا بِنْ، أهناك شيء ما على غير ما يُرام؟».

قال بصوته المدغم، وهو يتطلع إليها في تعجب: «لا يا ماما».

«إذن لماذا تتنهد يا حبيبي؟».

«لا أعرف يا ماما».

نظرت إليه باهتمام للحظة، ثم وضعت كتابها جانبًا.

«تعال هنا يا بِنْ».

«أين يا ماما؟».

«هنا على ركبتي».

تسلق إلى حضنها مبتسمًا. خفت نبرة صوتها، والتي كانت حادة سابقًا، وهي تخاطب طفلها الوحيد، في الآونة الأخيرة.

سألت بحنان: «هل تحب أمك؟».

«نعم».

«أعطني حضنًا إذن».

ألقى ذراعيه القصيرتين حول رقبتها.

«والآن أعطني قبلة».

قَبَّلَها، وهو يبتسم مبتهجًا في بلاهة.

سألت بيتسي: «ماما ليست وحشة أبدًا، أليس كذلك؟».

«لا».

«هل تحب الجلوس على حِجْر ماما؟».

«نعم».

اقترب منها الصبي ذي السبعة أعوام الأضخم من حجمه الطبيعي من صدرها ليحتضنها.

«قل لي يا بِنْ، أهناك أي شيء ترغب فيه؟ هل يمكن لماما أن تعطيك شيئًا لطيفًا؟».

«لا، شكرًا لكِ».

«ولا حتى عربة، على سبيل المثال، بحصان بوني، بوني مناسب؟ بحيث يعلمك هيرمان القيادة».

قال بصراحة: «لا ، شكرًا لك».

فقدت صبرها، وكانت على وشك توبيخه لكونه أحمق جدًا، لكنها كبحت نفسها في الوقت المناسب. أدنته منها وقبلته.

استطردت، وهي تبكي بالدموع تقريبًا: «حسنٌ، لو هناك أي شيء آخر تريد

الحصول عليه، يجب أن تخبرني، أتسمعني؟ سوف تخبرني، أليس كذلك يا بِنْ؟ ماذا تقول أيها الرجل الصغير؟ هل تعدني بأنك ستخبر ماما؟».

رد بنبرة رضا في منتهى السعادة: «نعم».

وأغلقت عينيها، واعترتها قشعريرة لفكرة أن لديها ابنًا معتوهًا. ما الذي فعلته لتستحق مثل هذا العقاب؟

كانت جالسة هناك تمسك بطفلها على حِجْرها لبعض الوقت، عندما سمعت شخصًا يقترب عبر الصالون. كانت إيلينه.

«حسنٌ مرحبًا يا إيلي».

«مرحبًا يا بيتسي، مرحبًا يا بِنْ».

«إذن خرجتِ على الرغم من المطر؟».

«أخذت سيارة أجرة؛ لم أستطع البقاء في البيت للحظة أكثر من ذلك. هذا الطقس يجعلني كئيبة جدًا، وفكرت ... فكرت أنني سوف أصاب بالجنون من الملل. يا إلهي!».

بصيحة مخنوقة سقطت جالسة على أحد الكراسي وخلعت وشاحها القصير، كما لو كانت بحاجة إلى الهواء.

«فقط تخيلي: نفس الجدران الأربعة بحجرتكِ يومًا وراء يوم، وحدكِ تمامًا، ولا شيء يسلّيكِ- بالتأكيد سيدفع ذلك بأي أحد للجنون؟ على أي حال، لم أعد أطيقها بعد اليوم، لو استمر الوضع أكثر من ذلك سأُجَنُّ ...».

«إيلينه خذي حذرك: الولد يستمع إليكِ»، (قالتها بالفرنسية).

تبجحت في غلظة: «آه هو ... هو لا يفهم، ولا أعتقد بأنه سيفهم أبدًا! تعال إلى هنا يا بِنْ، واستمع إليّ. هل يمكن أن أخبرك بما تفعله عندما تكبر؟ لا تفكر أبدًا في أي شيء يا حبيبي! لا تفكر على الإطلاق! فقط كُلْ واشرب وامرح قدر ماتستطيع، وبعدها ... لا بد أن تتزوج! لكن لا تبدأ في التفكير مهما حصل!».

انفجرت بيتسي، مهتمة وقلقة على ابنها أكثر من أختها: «إيلينه، أنتِ مجنونة! انتبهي إلى ما تقولينه!».

ضحكت إيلينه عاليًا؛ الصرخة، الحافة المجنونة بصوتها أرعبت بِنْ، الذي كان يحدق فيها بعينين متسعتين، فاغرًا فاه، لكنها واصلت الضحك.

«لا، ليست لديه أي فكرة، أليس كذلك، أيها المخلوق الصغير! لا، أنت لا تعرف ما الذي تهذي طانط عنه، أليس كذلك؟ لكنه شعور جميل جدًا أن تتبجح وتهذي بالكلام لمرة! أتمنى أن أقوم بشيء صادم، شيء مجنون جدًا، لكنني لا أستطيع التفكير في أي شيء. صِرْتُ مملة هذه الأيام لدرجة أنني لا أستطيع حتى أن أفكر على الإطلاق. لو كانت إليزا هنا، كانت ستعرف ما الذي تفعله. هل تعرف ماذا فعلت إليزا وأنا ذات مرة، في تلك المرة الأولى، التي كنت أقيم فيها في بروكسل؟ لم أجرؤ على أن أخبر أحدًا من قبل، لكنني الآن لا يهمني، أستطيع أن أقول ما أشاء. فقط تخيل، ذات مساء خرجنا، فقط نحن الاثنتين للتمشية؛ كنا نشعر بالمغامرة، كما تعلم. إياك أن تنطق بكلمة واحدة عن هذا لأي أحد. بعد ذلك قابلنا رجلَيْن، رجلين لطيفين جدًا، واللذين لم نلتقِ بهما من قبل، وذهبنا للركوب معهما ... في عربة لندوية مفتوحة، وبعدها ... ذهبنا إلى مقهى».

تتخللت كل كلامها ضحكات صارخة وعصبية، وفي النهاية ظلت تضحك بصوره هستيرية، ودموع الهياج تتدفق على ملامحها الملتوية.

لم تكن ولا كلمة من كلامها حقيقية، لكن بالنسبة لها كانت كلها حقيقية.

«فقط تخيل! كنا في مقهى! مقهى! وبعد ذلك- «.

قالت بيتسي في هدوء: «إيلينه أرجوكِ! توقفي عن تكوني في منتهى السخف!».

«أوه، تظنين أن الأمر صادم بطريقة مريعة، أليس كذلك؟ يمكنكِ أن تريحي عقلكِ. لم يكن الموضوع بذلك السوء».

أطلقت ضحكة مصطنعة وجامحة أخرى، ثم انفجرت تجهش بالبكاء.

«أوه، ذلك الراير البائس! لدي هذا الألم المستمر هنا في رأسي، وهو حتى لا يبالي، كل ما يهذز حوله هو السعال. أعلم بأنني أسعل، لست في حاجة لأن يخبرني. يا ربي! وذلك البنسيون شنيع للغاية».

«إذن لِمَ لا تعودين للعيش معنا؟».

ضحكت إيلينه ضحكة جوفاء: «سنمسك في رقاب بعضنا مرة أخرى بعد الثلاثة أيام الأولى! الآن وقد أصبحنا لا نرى بعضنا كثيرًا أجد أننا يبدو أننا منسجمتان أفضل إلى حد ما من ذي قبل».

«بصراحة، سأبذل قصارى جهدي لأجعلكِ تشعرين بأنكِ في بيتكِ!»، اعترفت بيتسي، شعرت بقلق متزايد بشأن حالة إيلينه العصبية. «يمكننا أن نتولاكِ بالرعاية بشكل ملائم! سوف أكيّف نفسي وفقًا لرغباتكِ».

«لكنني لن أكيّف نفسي وفقًا لرغباتكِ! لا، شكرًا جزيلاً لكِ! الحرية قبل كل شيء. أنتِ تتحدثين بمثل هذا الهُراء، وسوف نبدأ المشاحنات في أسرع وقت ممكن- أعني، فقط انظري إلينا، إننا نتشاحن بالفعل».

«لِمَ تقولين ذلك؟ أنا لا أتشاحن بأي شكل من الأشكال. كل ما أريده أن تعودي إلينا في أقرب وقت ممكن- ويُفَضَّل هذه الليلة».

«بيتسي، إذا لم تسكتي عن ذلك سأغادر الآن ولن أعود أبدًا. ليس لدي الرغبة في العيش في بيتكِ، أتسمعين؟ لن أعيش معكِ، وهذا قرار نهائي».

همهمت قليلاً.

طلبت بيتسي: «هل مكثتِ لتناول العشاء على الأقل؟».

«نعم من فضلكِ! لكنني منهكة، لذا لن أتكلم كثيرًا. ما هي خططكِ في وقت لاحق لهذا المساء؟».

«سنذهب إلى عائلة أودندايك. ألم تُوَجّه لكِ دعوة؟».

«لا، لقد توقفت عن الخروج».

«لماذا؟».

«أُفٍ لعائلة أودندايك! آه يا رأسي المسكين! أنا نصف ميتة ... هل لديكِ مانع إذا ذهبت ورقدت لفترة من الوقت؟».

«رجاء اذهبي».

«إذن سأذهب إلى حجرة هِنْك؛ ثمة أريكة مريحة هناك».

«لكن النار ليست موقدة».

«أوه، لا يهم».

***

صعدت الطابق العلوي إلى حجرة جلوس هِنْك. كان هِنْك بالخارج. خلعت معطفها وقبعتها، ثم أخذت سيجارًا من صندوق سيجار، قضمت رأسه وأشعلته، لكن الطعم المُرّ جعلها تشعر بالقرف وأطفأته. رقدت على الأريكة. استقرت عيناها الهائمتان على رفٍ للسلاح، تذكارات من سيوف وخناجر ومسدسات. ماذا لو أرادت أن تقتل نفسها، كيف لها أن تفعل ذلك؟ خنجر ينغرس في قلبها؟ رصاصة في فمها؟ أوه لا، لا، لن تكون عندها الشجاعة أبدًا، وعلى أي حال فهى لن تعرف كيف تتعامل مع خنجر أو مسدس. ربما قد تجرح نفسها فقط، تشوه نفسها، و ... تظل على قيد الحياة. إلى جانب ذلك، الموت ربما أسوأ من الحياة. الموت شيء لم تجرؤ أبدًا على التفكير فيه، فهو شيء ما بلا حدود، رحب وفارغ بشكل لا يُوصف. هل ستجد حياة بعد الموت، هل ستجد ربًا؟ تذكرت رؤية مناظر حلوة من أراضٍ لازوردية مغمورة في وهج مضيء، وملائكة تغني وترفرف بأجنحة فضية، وبعيدًا في البُعد الغائم يقوم عرشٌ من سُحُب يتربع عليه كائنٌ أثيري ذا جاذبية مَلَكية. جاءها المشهد مرة أخرى الآن، وشعرت بأنها تُحْمل عاليًا فوق نغمات رقيقة لأغنية من السماء، لكنها بعد ذلك جاءها شعور بالهبوط إلى الأرض بسرعة مذهلة مع دوران

الحجرة حولها، حتى وقعت عيناها على رف السلاح مرة أخرى. لا، لا، ليس مسدسًا، وليس خنجرًا! وليس سُمًا أيضًا، لأنها ستصبح زرقاء وخضراء وسيجدونها بملامح وجه ملتوية ومتورمة وسيشعر الجميع بالفزع من قبحها. ماذا لو غَرِقَت؟ إذن ستصبح قبيحة أيضًا، سيغدو كل جسدها منتفخًا بحلول الوقت، الذي ينتشلونها فيه من البحيرة، لكن من المفترض أن يكون الغرق ميتة لطيفة؛ ترى الماء يحيط برأسكِ في دوامة فائقة الجمال من الألوان الرائعة وبعدئذٍ يغلب عليكِ النعاس لتنامي، لتغرقي أعمق وأعمق في نعومة ملساء متماوجة، في الموت ستكونين مثل أوفيليا، التي تزينها زنابق الماء والغاب، لكنها لا يمكنها أن تفكر في أي بحيرة بزنابق ونباتات الغاب في لاهاي، هناك فقط قنوات مياه خضراء ذات رائحة كريهة ... أوه لا، ليس ذلك! البحيرة في الغابة إذن؟ أو البحر في شيڤينينجن؟ لا، لا، ستكون مرعوبة للغاية، وعلى أي حال كانت ضعيفة للغاية؛ لن تكون لديها حتى القوة الآن لأن تهرب في منتصف الليل أثناء العاصفة، كما فعلت منذ فترة طويلة، وحدها تمامًا، تجاهد ضد الرياح والأمطار العارمة، ووصلت إلى استنتاج بأنها لن تجد أبدًا الشجاعة لشنق نفسها أو لخنق نفسها؛ الحقيقة هي أنها كانت أجبن من أن تقتل نفسها أساسًا. بدأت ترتجف كما لو كانت محمومة، وروعتها أفكارها بدرجة كبيرة.

لِمَ يجب أن تكون هكذا؟ لِمَ لم يمكنها أن تكون سعيدة مع أوتو؟ لماذا لَمْ تلتقِ بسانت كلير عندما كان عمرها ثمانية عشر عامًا؟ ماذا فعلت لتستحق هذا البؤس؟ من الذي تسببت في ضرره من قبل؟ ألم تقم برعاية العمة فيرهه حق الرعاية في مرضها الأخير، ألم تضحى بحظها السعيد من أجل فنسنت؟ ياه، لو أنها فقط تستطيع أن تكون سعيدة، إذن لاقتسمتها مع الجميع من حولها. أخبرها سانت كلير- أم كان ذلك أوتو؟- ذات مرة أن هناك كنوزًا تكمن في روحها. حسنٌ، كانت ستشارك تلك الكنوز، كانت ستغدق جواهر فرحها أينما ذهبت، لكنها لم تأتِ كي تشاركها مع الآخرين، لقد سحقها مجرد ثقل وجودها، والآن باتت مُتْعَبَة جدًا من الصراع لدرجة أن أمنيتها الوحيدة أنه لا بد له أن ينتهي. ياه،

لو أنها ماتت ...

كان المطر توقف؛ وحلَّ الظلام. رقدت مُخَدَّرة، مُنْهَكة من تأملاتها الكئيبة، وعقلها فارغ، وأخيرًا غلبها النعاس. أيقظها وقع أقدام ثقيلة في المدخل، وقبل أن تستيقظ تمامًا، دخل هِنْك.

«أختي العزيزة! ماذا تفعلين هنا في الظلام؟ أوف، كم الجو بارد هنا!».

«بارد»؟، رددت بنظرة المصاب بالدوار كمن يمشون أثناء النوم: «نعم، هو كذلك، أستطيع أن أشعر به الآن- أنا أرتجف. لا بد أنني كنتُ نائمة».

«لِمَ لا تأتين معي إلى الطابق السفلي؟ سوف يُقَدَّم العشاء قريبًا. قالت بيتسي إنكِ ستبقين، أهذا صحيح؟».

«نعم. آه، هِنْك، كيف هو شنيع أنني غلبني النوم».

«شنيع؟ لماذا؟».

بكت، ودفنت رأسها في كتفه: «الآن لن يغمض لي جفن الليلة!».

سأل بهدوء: «لِمَ لا تعودين للعيش معنا يا إيلي؟ سيكون ذلك أفضل بكثير من جميع النواحي».

«لا، لا، لا أريد ذلك».

«لِمَ لا؟».

«لن يجدي يا هِنْك. أنا على يقين من ذلك. من اللطيف جدًا منكما أن تطلبا مني، لكنها لن تجدي ببساطة. تنتابني هذه النوبات المزاجية المفاجئة عندما أشعر بأنني أريد أن أصفع بيتسي، مثلاً، خصوصًا عندما تكون لطيفة معي. أنا كدت تقريبًا أضربها بعد ظهر اليوم».

تنهد بتعبير يأس على ملامحه. صارت لغزًا بالنسبة له أكثر من أي وقت مضى.

«دعينا ننزل»، قال وهما يهبطان الدَّرَج معًا مالت بشدة على ذراعه، وهي

ترتجف من البرد، الذي كان الآن بحق قد أصابها.

* * *

وصل فصل الشتاء من نهايته، وظلت حالة إيلينه دون تغيير. في مايو، ورغم أن الطقس كان شتويًا فقط الأسبوع الماضي، فقد اندلع موسم الصيف بدرجات حرارة مرتفعة. استلقت إيلينه على أريكتها، تغتالها الحرارة.

اقترح راير: «ألا تعتقدين بأنه سيكون مفيدًا لكِ قضاء بعض الوقت في الريف هذا الصيف؟ لا أقصد السفر من مكان إلى آخر، فهذا من شأنه أن يكون مُتْعِبًا بما يفوق احتمالكِ. أفكر على غرار عطلة في منتجع ظليل ومنعش، مكان حيث يمكنكِ أن تجدي بيئة من الرعاية».

فكرت في دي هورسه. ياه ، لو أنها كانت قد تزوجت أوتو! إذن لكانت حصلت على كل الظل المنعش والرعاية المحبة التي تحتاجها!

أجابت بفتور: «لا أعرف إلى أين أذهب».

«قد أكون قادرًا على مساعدتكِ هناك. أعرف بعض الناس في خيلدرلند، زوج وزوجة لطيفان جدًا يديران بيتًا ريفيًا صغيرًا وبجوار غابة رائعة من أشجار الصنوبر».

صاحت إيلينه بانفعال: «لا أشجار صنوبر، لأجل السماء!».

«هواء الريف سوف يناسبكِ».

«لا شيء يناسبني. أتمنى أن تتوقف عن مضايقتي، دكتور راير».

«هل تنامين جيدًا في الآونة الأخيرة؟».

«أوه نعم، بشكل جيد للغاية».

كان هذا غير صحيح؛ إذ لم تنم مطلقًا بالليل، فقط غَفَت من وقت لآخر أثناء النهار. لم تعد القطرات تجعلها تنام، بل تتركها في حالة دائمة من الانتشاء الغائم، شبه وعي مجنون يتأرجح بين تراخٍ شديد وخوف مميت، في أثنائه تأتيها

نوبات أنها أصبحت ممثلة تئن وتتلوى في عذاب مبرح على الأرض.

نظر راير إليها باهتمام.

«آنسة فيره، لو سمحتِ قولي لي الحقيقة. هل كنتِ تأخذين أي أدوية أخرى بجانب تلك، التي وصفتها لكِ؟».

«لماذا تسأل؟».

«أود إجابة صادقة يا آنسة فيره».

«بالطبع لم آخذ! كيف يمكنك أن تفكر أنني يمكن أن أفعل شيئًا كهذا! لا أجرؤ! لا، لا، كن مطمئنًا تمامًا بشأن ذلك».

غادر راير، وفي عربته نسي دفتر ملاحظاته للحظة بينما كان يفكر في محنة آنسة فيره، ثم زفر تنهيدة إحباط.

لم يكد يذهب حتى نهضت إيلينه واقفة؛ كانت حجرتها حارة وخانقة بما لا يطاق، رغم أن باب البلكونة كان مفتوحًا. لم تكن تلبس سوى روب رمادي خفيف ملفوف بلامبالاة حول جسدها الهزيل. وقفت أمام المرآة، وغمست يدها في شعرها الفضفاض. لقد صار خفيفًا جدًا، وضحكت وهي تلوي خصلة بين أصابعها، ثم ألقت بنفسها على الأرض.

فكرت في نفسها، **أنا أرفض أن أراه مرة أخرى! ذلك الراير! فقط يجعلني أشعر بأنني أسوأ. أنا لا أطيقه. سأكتب، وأقول له إنه مرفوت.**

لكنها كانت تعرف بأنها ليس لديها الشجاعة للقيام بذلك، وبقيت منحنية لأسفل، تتابع الأنماط الزهرية على السجادة بإصبعها. بدأت تهمهم لنفسها.

ألقت الشمس المشرقة من خلال باب البلكونة المفتوح بمستطيل ذهبي على الأرض، يتراقص فوقه عدد لا يُحصى من جزيئات الغبار. الوهج أزعج إيلينه، وانسحبت.

«الشمس!»، همست بصوت غير مسموع، بعينين مصقولتين ومحدقتين بشكل غريب: «كم أكره الشمس! أريد المطر والريح، المطر البارد والرياح

الباردة، أريد أن أشعر بالمطر يتقطر إلى أسفل تقويرة فستاني التول الأسود».

فجأة سارعت بالوقوف على قدميها وضمت يديها بقوة إلى صدرها، كما لو كانت تمسك بطرفيّ عباءة لمنع الريح من خلعها من على كتفيها.

نَاحَت في هذيانها: «چين، چين. اسمحي لي بالدخول، أتوسل إليكِ. لقد هربت من البيت، لأن بيتسي كانت بشعة معي كما ترين، وأثناء العشاء في بيت هوفل هذا المساء قالت كل أنواع الأشياء البغيضة عن فنسنت. وأنتِ تعرفين كم أحب فنسنت. لقد كان بسبب أنني فسخت خِطْبَتي، خِطْبَتي لسانت كلير. أوه، كان يشعرني بالملل لدرجة البكاء بالدموع بسبب هدوئه. كان هادئًا للغاية، هادئًا إلى الأبد. كان ذلك يدفعني للجنون! لكن حقًا يا هِنْك، سأذهب إلى لورانس واطلب منه أن يصَفْح عني، فقط لا تضربني يا هِنْك. أوه يا لورانس، أتوسل إليك، أنا أحبك كثيرًا، لا تغضب مني، لورانس- لورانس! انظر لو كنتُ لا أحبك! انظر، لدي صورتك هنا! أبقيها معي دائمًا».

جَثَت على ركبتيها بجانب الأريكة ورفعت وجهها، كما لو أنها رأت شخصًا ما، ثم أجفلت بعنف ونهضت مترنحة على قدميها.

فكرت، وهى تتمالك نفسها: «يا الله، ها هى تأتيني مرة أخرى!».

شعرت كما لو كانت ثمة حرب دائرة داخل دماغها، حيث تخوض قواها العقلية معركة خاسرة ضد الجنون الذي يهاجمها بعنف. بحثت عن كتاب كان ملقىً على الطاولة، وفتحته لتجبر نفسها على أن تعود لرشدها وتقرأ. كان النوتة الموسيقية لإشادة سمورة التي كانت اشترتها منذ فترة طويلة، أثناء غرامها بفابريس.

لم تجرؤ على التطلع لأعلى، خوفًا من أن جنونها سيأخذ شكلاً قبيحًا بشعًا أمام عينيها. لم تجرؤ على الحركة، بسبب رعبها على نفسها، وفي عقلها التائه لن يأتي الخلاص إلا إذا استطاعت أن تتلاشى من جسدها، إن جاز التعبير، إلى ضوء الشمس الذي يغمر الآن حجرتها بأكملها، يترقرق فوق الستائر الساتان

ويغمر الخزف الياباني الرقيق والزخارف النحاسية المصقولة في وهج ذهبي.

بهدوء بدأت في الغناء، دون التفكير فيم تغني، بصوت أجش وخشن وسعال لا نهاية له، لكن كان هناك من يطرق الباب.

سألت بقلق: «من هناك؟».

صاح صوت: «أنا يا آنسة. أحضرتُ لكِ غداءك».

«شكرًا لكِ يا صوفي، لكنني لا أشعر بأي شهية. الدكتور راير قال إنني لا يجب أن آكل أكثر من اللازم».

«هل لي أن آخذه بعيدًا إذن يا آنسة؟».

«نعم، خذيه بعيدًا».

«سوف ترنين الجرس إذا أردتِ أي شيء، ممكن؟».

«نعم، نعم».

سمعت قعقعة الصحون والكؤوس على الصينية والخادمة تهبط الدَّرَج، وحاولت أن تركز ذهنها على نوتة شيماء الموسيقية. نهضت، رفعت رأسها عاليًا واتخذت وضعًا ملكيًا بيدها، وهى تنطلق في الغناء، فقط لتنهار في نوبة من نوبات السعال.

كان هناك طرق آخر على الباب.

صاحت إيلينه، مضطربة إلى حد كبير: «يوه، مَنْ الطارق الآن؟».

كان صوتًا مختلفًا، ودودًا ومهذبًا: «هل لي أن أدخل للحظة، آنسة فيره؟».

فكرت إيلينه بجدية للحظة، ثم أغلقت نوتة الأغاني وغاصت جالسة على الأريكة. استلقت على الوسائد وأغلقت عينيها قليلاً.

أجابت بلطف: «نعم تفضلي».

فُتِحَ الباب ودخلت مالكة البنسيون، وهى سيدة ممتلئة الجسم ترتدي ملابس سوداء بالكامل، إلى الحجرة.

قالت في كياسة ودودة: «جئت فجأة فقط لأطمئن على أحوالك. ألستِ على ما يُرام؟».

تأوهت إيلينه، وهى تغلق عينيها: «لا، لستُ على ما يُرام! أشعر بوهن شديد».

في الواقع كانت تشعر بطاقة عصبية ومهووسة كاملة، والتي مالت للتعبير عنها عن طريق الغناء، لكن صارت عادةً لديها أن تقول إنها تشعر بالوهن عندما يسألها الناس عن صحتها.

«ألن تأكلي لقمة؟».

بدأت إيلينه: «الدكتور راير قال-».

هزت مالكة البنسيون رأسها.

«عزيزتي الآنسة فيره، عيب عليك أن تحاولي تضليلي. لقد سمعت للتو من الدكتور راير أنه من المفيد لكِ تناول فنجان من المرق الساخن».

«أخشى أن يصيبني المرق الساخن بالغثيان».

«ولكنكِ يجب أن تأكلي شيئًا يا آنسة فيره».

«أؤكد لكِ، أنني أشعر بعدم ارتياح لدرجة تمنعني من الأكل الآن».

«حسنٌ، في وقت لاحق إذن. أتسمحين لي بإعداد وجبة صحية لك؟ ماذا تحبين أن تأكلي؟».

«أعدي ما تشائين. أفترض أن شهيتي قد ترجع لي، لكن في نفس الوقت هل تُسدين لي معروفًا وتخبري أي زوار، بما فيهم أختي، بأنني لا أستطيع استقبالهم؟ أشعر بأنني مكتئبة جدًا بعد ظهر اليوم. لا أستطيع أن أقول لك كم أنا مكتئبة».

«هل هناك أي شيء تحتاجينه؟ أي شيء يمكنني القيام به لكِ؟».

«أنتِ لطيفة جدًا، لكن في الحقيقة، لستُ في حاجة لأي شيء. إلا ربما

بعض الثلج، وبالمناسبة. أنا عطشانة إلى حد ما».

«إبريق ماء مثلج؟».

«كنت أُفَضِّل لوحًا من الثلج».

«هل تعانين من حمى؟».

«لا، لكني أحب إحساس ذوبان كتلة من الثلج في فمي، ورجاء تذكري ما قلته– أنا لستُ موجودة بالبيت بالنسبة للزوار بعد ظهر اليوم».

«بالتأكيد. سوف أرسل بعض الثلج في الحال، لكن أتمانعين إذا أنزلت الستائر، إذا أمكن؟ فكري في أثاثي الزهيد، يا آنسة فيره!».

أنزلت مالكة البنسيون الستائر وغادرت. انتصبت إيلينه قائمة، ابتسمت وطقطقت لسانها في انتظار الثلج المُبَرِّد، وأخذت نوتة الأغاني مرة أخرى، وصورت نفسها كشيماء.

وقفت ممشوقة القامة، كأنها ملكة تقف على شفا جرف، تشير إلى الوادي الهائم تحت قدميها. تخيلت أنها سمعت ردًا من بن سعيد، بقيت لحظة مشدوهة تمامًا، ثم استأنفت تجسيدها لشيماء، تهمهم الآن أكثر منها تغني، لكن بُحَّ صوتها لدرجة أنها اُضطرت إلى أن تجلي حلقها، الأمر الذي جعلها تسعل عدة مرات، وما لبثت أن تسعل بعنف لدرجة أنها وضعت النوتة جانبًا وجلست ويداها تضغطان على حنجرتها المتقلصة.

فكرت: «ماذا دهاني؟ أنا أقول كلامًا غير مفهوم! أريد أن أقول كلامًا مفهومًا!».

لكن الاضطراب في عقلها استمر كموجة وراء أخرى من الذكريات المشوشة، التي اجتاحتها لتغرق منطقها. تحركت عيناها بشكل سريع ومفاجئ بشكل محموم حولها.

«أريد أن أقول كلامًا مفهومًا!»، ظلت تقول لنفسها، وأضحى هذا الهدف عجلة تدور في رأسها: «أريد أن أقول كلامًا مفهومًا!».

شعرت بأن رأسها ثقيل، وهمدت إثارتها المسرحية لتغدو سباتًا عقليًا كانت تخشاه كثيرًا. في مثل لحظات الكآبة هذه كانت رغبتها الوحيدة هى رؤية سانت كلير. لو أنه فقط كان معها! لعرف ما لا بد من القيام به، لطمأنها وجعلها ترى المنطق مرة أخرى. لمعت كلمات وداعهما في بروكسل فجأة في عقلها. قال خمسة أشهر من الآن. كان ذلك في يناير، والآن شهر مارس. قال إن الأمر لن يحتاج سوى كلمة واحدة فقط منها وسوف يهرع عائدًا إلى جوارها. كانت الفكرة مغرية لدرجة أنها قررت أن تكتب له رسالة قصيرة- تعرف أين ترسلها بفضل مراسلاتها مع فنسنت- ياه، فقط بضع كلمات، تكفي لأن تجعله يرجع! انفتح أفق مهدئ أمام عينيها، وللحظة شعرت بأنها هادئة جدًا، بل وسعيدة، لكن ذلك الهدوء نفسه مكنها من استرداد نفسها، وتبخر وهمها. هزت رأسها من جانب إلى آخر: أحبها سانت كلير بدافع الشفقة، الرغبة في مداواة معاناة مخلوقة ما، وحتى لو كان قادرًا فعلاً على أن يمنحها قدرًا من السعادة، لم تكن تملك أي حق في تقييد حياته بحياتها الذاوية. كانت فكرتها التالية عن أوتو. لذلك عرفت أنه لن تجدي أبدًا. أبدًا.

بالرغم من إنزال الستائر، كانت الحرارة في الحجرة في ارتفاع. طرقت صوفي الخادمة على الباب.

«لقد جلبتِ لك بعض الثلج يا آنسة!».

دخلت تحمل صينية من الثلج. بمجرد أن ذهبت وضعت إيلينه كِسْرة في فمها، ثم أخذت عدة كسرات أخرى وفركتها على جبينها حتى ترشحت القطرات الجليدية الكبيرة بين أصابعها.

* * *

أحضرت صوفي لها وجبتها في الساعة الخامسة والنصف، ووضعت الطاولة المستديرة الصغيرة بعناية كبيرة، لكن إيلينه لم تفعل سوى أنها التقطت لقيمات من الأطباق المختلفة، وسعدت عندما جاءت صوفي لأخذها من على

الطاولة. كان الطقس حارًا جدًا؛ وقلبت رائحة الطعام معدتها.

ألقت نظرة سريعة على بطاقات الزيارة، التي أحضرتها صوفي معها مع صينيتها: بطاقة من مدام فرسترايتن وأخرى من لي لي.

قالت صوفي، وغادرت: «مدام فان رات العجوز جاءت أيضًا بعد ظهر اليوم يا آنسة!».

كانت إيلينه وحدها؛ وزحف المساء أكثر. غرقت الشمس على مهل وراء الأفق، ولم يستغرق فترة طويلة حتى حلّ الظلام، لذلك رفعت الستائر مرة أخرى، ثم أخذت من خزانتها قارورة صغيرة وبعناية عَدَّت قطراتها في كوب من الماء. شربت ببطء. آه، لو أنها يمكن أن تُشْعِرها ببعض الراحة هذه المرة! لا يبدو أنها فعالة كما كانت عليه من قبل.

لما كانت مرهقة من يومها الطويل من الكسل، فريسة لتشتت عقلها المضطرب، قررت أن تنام مبكرًا بالليل. لن تضيء قنديل الغاز؛ سوف تجلس في الغسق لوقت أطول قليلاً وبعدها تحاول الحصول على قسط من النوم.

لكن رأسها بدأ يرغي ويزبد بإصرار لا يلين. نَسَّمَ هواء المساء البارد على الحجرة، لكنها شعرت بالاختناق. تركت الروب الرمادي ينزلق عن كتفيها. كان ذراعاها نحيلين، وصدرها أجوف تقريبًا، وتفقدت بابتسامة حزينة جسدها المهزول. مررت أصابعها خلال شعرها الطويل والخفيف، ولأن الضوء كان يخفت، لأنها قلقت في جزع ألا تنام بالرغم من القطرات، وبسبب امتقاع لونها الشاحب بجانب ثوب نومها الدانتيل، ولأنها خافت من الظلال، التي تزداد كثافة، صعد الجنون فيها مرة أخرى.

آه پرفيدو، سپرجيورو!

بدأت تهمهم، ورفعت ذراعها في إيماءة جامحة كأنها تتهم أحدًا. كانت هذه آريا بيتهوفن، التي كانت تُذَكِّر فنسنت برائحة رِعْيُ الحَمام ... ثم، التوت ملامحها بالأسى والانتقام، اندفعت تغني، تصبّ جام غضبها على العاشق

الخائن، أمرته أن يختفي من أمام عينيها، تستحضر غضب الآلهة لمعاقبته إلى نهاية أَجَلِه. وبحركة مفاجئة جذبت الملاءة من فوق سريرها، وأدنت القماش الأبيض الطويل عليها، بحيث صار يشبه روبًا من الرخام في الغسق الرمادي.

أوه لا! توقفي، يا آلهة الانتقام!

غَنَّت بصوت أجش، توقفت مرارًا لتسعل. تغيرت تعبيرات وجهها لأنها كانت تتوسل الآن إلى الآلهة أن ترحمه- ورغم قسوة خيانته، فإن ثبات حبها وإخلاصها لم يتغير، ولن تسعى للانتقام؛ فمن أجله عاشت ومن أجله تتمنى أن تموت. ببطء ترنمت بالأداجيو، ببطء جدًا، بينما انتفخت طيات ثوبها البيضاء وتمايلت على إيماءات ذراعيها المتضرعة. واصلت الغناء، حتى أفلتت صرخة تدمى القلب من حلقها، وفي ذلك العويل الأخير أضحت فجأة ممثلة، بريمادونا في فن الأوبرا الرفيع. كان عشيقها قد هرب، ورأت نفسها تتجه بنظرها إلى الجوقة المحيطة بها في شفقة:

لو كنت في قلق كبيـــ .... يـــير

غنت، بكت تقريبًا، بمقطوعات كادنزا تقطر بالأسى والحزن، وفي عويلها المُعَذَّب ارتفع صوتها إلى حد الصراخ:

لستُ أنني أستحق الإشفاق

أجفلت بعنف، إذ أفزعها صوت الصياح الصارخ الشديد في صوتها الخَرِب، ثم ألقت بالملاءة البيضاء بعيدًا، وغاصت على أحد الكراسي، وهي ترتجف. أسمعها أحد؟ ألقت نظرة سريعة من خلال باب بلكونتها المفتوح على الشارع بالأسفل. لا، لم يكن هناك سوى عدد قليل من المشاة في الظلام المتزايد، ولم يتطلع أي أحد إلى أعلى. ماذا عمن بالداخل؟ أسمعوا؟ آه حسنٌ، لو كان كذلك، فليس باليد حيلة، لكنها تعهدت أن تصبح أكثر رُشدًا من الآن فصاعدا.

كانت تجهش بالبكاء، لكنها كانت تضحك أيضًا- على نفسها، لأنها كانت سخيفة لدرجة أنها انجرفت هكذا! لا عجب أنها لم تشعر بأقل قدر من النعاس!

رقدت على السرير غير المرتب وظلت مغلقة عينيها بقوة. لكن النوم لم يأتِ.

ناحت: «عزيزي يا رب، عزيزي يا رب، دعني أنام، أتوسل إليك، دعني أنام!».

بكت بمرارة، بلا توقف، ثم لمعت فكرة فجأة في رأسها. ماذا لو أخذت بضعة قطرات زيادة عن الجرعة المقررة من قِبَل ذلك الطبيب في بروكسل؟ لن يكون هناك أي ضرر في ذلك، أليس كذلك؟ لم يكن ذلك محتملاً، بالنظر إلى أنه يبدو أن الجرعة العادية لم تفعل أي شيء هذه الأيام. كم عدد القطرات الزيادة، التي يمكن أن تأخذها دون أن يشكل ذلك ضررًا؟

نفس المقدار مرة أخرى؟ لا، من الواضح أن هذا سيكون أكثر من اللازم. الله يعلم ما قد يحدث. نصف المقدار إذن؟ ثلاث قطرات أخرى؟ لا، لا، لم تجرؤ: لقد حذرها الطبيب تحذيرات جادة حول الأخطار، ومع ذلك، كان الأمر مغريًا ... ونهضت من السرير.

التقطت قارورتها لتعد القطرات.

واحد ... اثنين ... ثلاثة، أربعة، خمسة. اندلقت آخر قطرتين، وهي تعدل القارورة. خمسة ... هل سيكون ذلك أكثر من اللازم؟ ترددت للحظة. هذه القطرات الخمس ستكون كافية لجعلها تنام، كانت متيقنة من ذلك.

ترددت مرة أخرى. فجأة، حزمت رأيها: نعم، سوف تنام. وشربت جرعتها.

***

استلقت على الأرض، على مقربة من باب البلكونة المفتوح.

لما كانت تتصبب عرقًا من الخوف، شعرت بنفسها تنزلق إلى إحساس بالخِدْر؛ لكن كم كان إحساسًا غريبًا هذه المرة ... كم كان مختلفًا عن الخِدْر، الذي أضحت مُعتادة عليه.

فكرت: «يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! أيمكن أن أكون قد أخذت ... أكثر من اللازم؟».

لا، لا، سيكون ذلك شنيعًا فوق الاحتمال! كان الموت شديد السواد، شديد الفراغ، لا يُوصف تمامًا! ولكن، ماذا لو أخذت أكثر من اللازم؟ فجأة تلاشى خوفها، ولفّها إحساس بالطمأنينة المطلقة. إذا كان هذا ما فعلته، فليكن.

وبدأت تضحك ضحكات مكبوتة مخنوقة وعصبية، بينما ألقى الخِدْر بثقله عليها، كما لو كانت كفوفًا عملاقة ثقيلة. حاولت درء الكفوف بأن تضربها بيدها، وباتت أصابعها متشابكة في السلسلة، التي ترتديها حول رقبتها. أوه، صورته، صورة أوتو!

أحقًا أخذت أكثر من اللازم؟ هل ...؟ ارتجفت. هل سيأتون ليطرقوا بابها في الصباح، فلا يجدون مجيبًا؟ هل سيعودون لاحقًا مرة أخرى، ويدخلون عليها، وهي ملقاة على الأرض هكذا؟

فكرة مرعبة! امتدت أصابعها المبللة بالعرق، تبحث عن الدلاية. لا ينبغي أن يجدوا تلك الصورة على صدرها!

نهضت لتصبح في وضع الجلوس ورفعت البطاقة البيضاوية الصغيرة بطاقة من غلافها. لا تستطيع أن تراها، لأن الظلام حلَّ في حجرتها، وكان بصرها مغبشًا بالفعل؛ ولم يكن هناك ما يبدد الظلام سوى وهج مصباح الشارع الأصفر بجوار المدخل، لكنها تخيلتها بشكل زاهٍ، وعبثت بقصاصة البطاقة، وضغطتها على شفتيها مراتٍ ومرات.

«آه يا أوتو!»، تلعثمت، وصار كلامها مدغمًا: «لقد كنتَ أنتَ فقط، حبيبي أوتو، ليس فنسنت، وليس سانت كلير، أنتَ فقط ... أنتَ ... أوتو ... يا إلهي!».

كانت مُوَزَّعة بين الخوف من الموت والرضوخ له، ثم وفي وسط شغف قبلاتها، أخذت البطاقة في فمها. نعم، يمكنها أن تبتلعها، ذلك أنه لم تعد لديها القوة لتمزيقها أو تدميرها بأي وسيلة أخرى! انتحبت بقشعريرة انتفض لها جسدها، وبدأت تمضغ التجربة الطباعية القديمة لصورة أوتو.

* * *

ما زالت دموعها تنهمر، لكنها لم تعد تجهش بالبكاء. انحسرت المرارة، وبكت كطفلة، بأنين متذمر طفولي رقيق ونواح محتج حزين. كانت تطلق بين الحين والآخر ضحكة قصيرة ومجنونة، وأخيرًا هدأت، وجلست على الأرض بجوار باب البلكونة المفتوح وساعداها مطويان أمام وجهها.

لم تقم بأي حركة، تسَمَّرت في مكانها بسبب الحالة التي كانت فيها، بما يكمن داخلها. شعرت بإحساس بحرٍ هائج داخلها، بحر مظلم يغمر أفكارها كالطوفان، يغرقها؛ أرادت دفع البحر بعيدًا، لكن قوته كانت أكبر من أن تدفعها، وتمايلت مترنحة وسقطت، يَصُمُّ آذانها الهدير الكليل في أذنيها وفي رأسها.

«الله! الله! يا الله!»، ناحت في صوت مخنوق يزداد خفوتًا باليأس العاجز.

ثم غاب وعيها شيئًا فشيئًا، قطرة قطرة، ليغالبها نوم الموت.

* * *

انطفأ مصباح الشارع، وتحولت الحجرة الفسيحة إلى سرداب مظلم، ضريح من سواد يرقد فيه جسد بلا حياة، أبيض كالشبح.

صار هواء الليل باردًا، وببطء بزغ لون شحوب الفجر الرمادي كاللؤلؤ.

* * *

أرسل هِنْك فان رات على الفور لدانيال فيره في بروكسل يبلغه بوفاة إيلينه. ردَّ كلٌّ من العم دانيال وإليزا عليه، في تعاطف كامل مع المسكينة إيلينه. أبلغه دانيال أيضًا بأن فنسنت عاد من روسيا منذ بضعة أيام، يرافقه الصديق الأمريكي، الذي التقت به إيلينه في بروكسل، وأنهما سيسافران إلى لاهاي لحضور الجنازة.

٣٦

مَرَّ أكثر من عام منذ وفاة إيلينه. بالنسبة لعائلة فان إرليفورت حدثت تغييرات مهمة وجوهرية. مدام فان إرليفورت أقنعها ابنها تيودور بأن تبيع البيت في فورهاوت، بيت العائلة الحبيب، الذي وُلِدَ فيه كل أبنائها، وانتقلت إلى دي هورسه مع ماتيلدا والأحفاد الأربعة. تزوج پول وفريدريك وعاشا في بلدة هايبيك الصغيرة، حيث عُيِّن فيها پول رئيسًا للبلدية. حصل إتيان على شهادته، ودار حديث عن أنه سيبدأ حياته الوظيفية في جزر الهند الشرقية، لكن أمه لم تتحمل فكرة أن تفترق عن أصغر أولادها، وفي النهاية أسس نفسه كمحامٍ في لاهاي، رغم أن مدام فان إرليفورت حزنت في البداية لفقدان بيتها في لاهاي، فإنها سرعان ما وطنت نفسها على دفء وراحة دائرة عائلة ابنها الأكبر، والتي عادت هنريتيا، وقبلها ماريان إليها من آخر فصل دراسي لها في المدرسة الداخلية، بينما كان الأولاد يأتون للبيت من آنٍ لآخر. كان أبناء فان رايسل الأربعة- صارت تينا أحد عشر عامًا- على ما يرام مع ميميه في هواء الريف الصحي.

توسل پول إلى أمه كي تحذو حذو مدام فان إرليفورت وتبيع بيتها، وتأتي لتعيش معه ومع فريدريك في هايبيك، لكن دون جدوى، وعدته مدام فان رات بأنها ستأتي لزيارته كثيرًا، لكنها لم ترغب أن تقيم في بيتهما خشية أن يلقى مللها وتعبها من الحياة، والذي تعمق منذ وفاة حبيبتها إيلينه بغلالة سوداء على سعادتهما الجديدة والمتفائلة.

حماس پول لخِطْبته وزواجه، الذي أعقبه أخرجها من نفسها لفتره من الوقت، والآن وقد حصل ابنهما على ما يريده وما كان يحتاجه أكثر من أي شي آخر، بدأت تغرق تدريجيًا مرة أخرى في شبه الحياة لجزعها الفاتر.

خَفَتَ صوت بيت عائلة فرسترايتن، وغالبًا ما كانت ماري تذرف دموعًا مريرة. كان لديها الكثير من الحب المحبوس بداخلها، وكله سوف يذهب سدى؛ شعرت كأنها ستذبل كزهرة مُهْمَلة. كانت لي لي مشغولة للغاية ببيتها ورعاية صغيريها ذوي الشعر الأشقر لدرجة حالت بينها وبين الاهتمام بها، ولكنها لم تَلُمْ أختها على عدم إدراكها لمدى شعورها بالتعاسة. إلى جانب ذلك، ما الفرق الذي سيصنعه، حتى لو كانت لي لي قد عرفت؛ كيف يمكن لهذا أن يشعرها بالطمأنينة؟

دعا پول وفريدي ماري لقضاء أشهر الصيف معهما، وشعرت بأنها أفضل هناك أكثر من البيت، رغم الحب والحنان، الذي تشعر به نحو بابا وماما. على الأقل مع پول وفريدي يمكنها أن تضحك وتمزح بين الحين والآخر، خاصة عندما يحكون عن ذكرياتهم عن كل المرح، الذي استمتعوا به، وهم ينظمون تلك التابلوهات الزاهية في الأيام الخوالي. تخيلوا أنها لقنت پول درسًا عن كسله! وهل يتذكر هو وفريدي أن لي لي لم تكن تطيق دي ڤوده وقتذاك؟ حسنٌ، قالت لي لي إن ذلك لم يكن صحيحًا؛ بل ادعت بأنها كانت دائمًا تعشقه، وتغضب كثيرًا كلما ألمح أي أحد إلى أن ذلك لم يكن الحال!

كانت الڤيلا، التي اتخذها پول وفريدي سكنًا لهما فاخرة للغاية. كان بتلك الڤيلا، التي بناها رئيس بلدية هايبيك السابق لمحة استعمارية، بشرفتها ذات الأعمدة البيضاء بالواجهة وفراندة ملحقة بالبيت أشبه بيت زجاجي كبير في الخلف. أثث پول بيته الجديد بالكثير من الترف، والذي رأت فريدريك أنه مبالغ فيه إلى حد ما، ونظرًا لأنهما كانا يعيشان في منطقة خلفية منعزلة لم يستقبلا أي أحد سوى قس الكنيسة المحلية، لكنها لم تعارض ذوق زوجها الشاب المسرف، والذي رأت فيه انعكاسًا لطموحه الفني، الذي لم يتحقق، كانت سعيدة بأن تراه بالشكل، الذي كان عليه الآن، بقلب دافئ نحو المجتمع وراضٍ عن منصبه.

كان أوتو يأتي للزيارة من إلتسن بين الحين والآخر لقضاء بضعة أيام مع أخته

وزوجها، وفي القليل من المناسبات كانت زيارته تتصادف مع زيارة ماري. كان لدى فريدريك إحساس بأن ماري كانت مكبوتة قليلاً في وجود أوتو، وذكرها ذلك بشيء من عدم الارتياح بسبب تعليق ما صرحت به لها منذ عدة سنوات.

كانت قد قالت: «آه يا ماري، يمكنكِ أن تكوني زوجة صالحة لأوتو!»، وكان بإمكانها أن تسمع إجابة ماري المتلعثمة:

«من، أنا؟».

الآن تساءلت إذا كانت قد تسببت في إيلام ماري بهذه الكلمات، لكنها وَاسَت نفسها بفكرة أن انطباعها قد يكون خاطئًا تمامًا، وأنها فقط تخيلت أن ماري قد تكون مصطنعة في سلوكها.

بالنسبة لأوتو مَرَّ العام في اكتئاب ثقيل ونكد. بعد وفاة إيلينه كانت هناك شائعات غير سارة؛ كان معروفًا أنها كانت مريضة بالطبع، لكن مفاجأة موتها أدت إلى الكثير من التكهنات، التي تهامس بها الناس حول سببه. لم يمر هذا على أوتو مرور الكرام، والذي انخرط في حزن وأسى مجدد على فقدانه لإيلينه. بدا مكلومًا وعجوزًا تقريبًا، وعندما حاولت فريدريك أن تسري عنه، وهى تخبره بأنه لن ينفعه أن يغمر نفسه تمامًا في كآبته، احتج بلطف بنفس الكلمات، التي قالها ذات مرة ليطمئن سوزان في دي هورسه: قلب الرجل لا ينكسر بسهوله كما تظنين، الرجال لديهم عمل يقومون به، وبيزنس يعتنون به، ولا يفكرون كثيرًا في الحب المفقود لسائر حياتهم.

وقتذاك، في دى هورسه، لم يكن يعني ما قاله، لكن في الآونة الأخيرة بدا له أنه قد يكون هناك قدر من الحقيقة في تلك الكلمات في نهاية الأمر. بدا الثقل في قلبه أقل وطأة مما كان عليه من قبل؛ كان أقرب إلى وجع دائم من جرح وأسى قديم. كان يشعر بوخز الضمير كلما شعر بارتفاع معنوياته، وتعهد بأن يكرس نفسه تمامًا لحزنه وأساه ولذكرى إيلينه، لكنه لم يحسب حساب حقيقة أن الزمن، الذي يقسو ويحنو في آنٍ واحد، يشفي الجراح، وأن الجرح، الذي

صار يقدّره سيضحي أخيرًا ليس أكثر من ندبة.

* * *

والآن، في منتصف الصيف، وهو يتمشى في حديقة پول وفريدي مع ماري بجانبه، شعر بالسعادة رغمًا عن نفسه. طلب منها أن تتزوجه، الأمر الذي أربكها في البداية ونتيجة لذلك جعلها تبكي، مما جعله يتوسل إليها ألا ترفضه ببساطة لأنه أعطى قلبه من قبل لامرأة أخرى. لقد صار يحبها بعمق، أحبها لبساطتها الصادقة وطبيعتها الحنونة الحلوة، والتي وجد فيها سلواه – آه، لن ينكر أن حبه لها كان حبًا أنانيًا محضًا، لكنها لن تحتقره من أجل ذلك، لأنه عانى كثيرًا من أجل ذلك الحب الآخر. بالنسبة لماري، لم تكن لديها رغبة في أن ترفضه. كان قلبها مملوءًا عن آخره بإشفاق لا حدود له؛ لم تكن دموعها من أجل نفسها، بل كانت دموع الفرح لأنه جاء لها أخيرًا، وليست دموع الإحباط لذكره للماضي، كانت له وحده، للمعاناة التي مر بها.

لذلك وافقت، دامعة العينين، وطبعت قبلة خفيفة على جبهته، لم يكن يعلم أنها كانت تحبه دائمًا، لم يكن يعلم بأنها أيضًا عانت كثيرًا أثناء علاقته العاطفية بإيلينه. كان لا يزال أمامه أن يدرك عمق حبها له، ذلك أنه رأى فقط عمق شفقتها، لكن ذلك وحده كان أشبه ببلسم مهدئ لروحه.

من خلال الشجيرات المنتشرة الكثيفة أضاءت الڤيلا إضاءة خافتة، وجلس بين الأعمدة في الشرفة، في الضوء، الذي سطع من الداخل تجمعٌ مفعم بالحيوية، لأن پول وفريدي دعيا عددًا أكبر من الأصدقاء إلى مسكنهما: جورج ولي لي بطفليهما الصغيرين، وإتيان الصاخب والمفعم بالشباب أكثر من أى وقت مضى.

عاد أوتو وماري ببطء، يمشيان على مهلٍ على جانب أحواض الأزهار. حولهما من كل جانب شجيرات الورود المتفتحة عن آخرها، والتي نشرت نضارة المساء برائحتها العطريه المتقدة الفواحة. أمامهما من بعيد في الشرفة،

بدا أن إتيان يغيظ مازحا لي لي المسكينة، لأنهما استطاعا سماع صيحات سخطها، والتي أعقبتها جلجلة الضحك من الآخرين.

تخلفت ماري في السير، كما لو كانت تشعر بالخجل من الفرح الذي تصاعد داخلها؛ ثم انحنت كي تهز سيقان ورود متفتحة عن آخرها وتراقب بتلاتها، وهي تهبط على الأرض.

همست: «تعال، لنذهب ونفاجئهم بأخبارنا الحلوة».

وبينما قادها من يدها شعر بأنه يستطيع أن يتنفس مرة أخرى؛ شعر بإحساس جديد بالطاقة، بل بالميلاد من جديد، لأن مرور الوقت المُواسي لم يمحو أساه فحسب، بل بدا أنه قد أشعل من جديد رغبته في الحياة.

خاتمة

پول بايندينج

تقريبًا في منتصف رواية إيلينه فيره نجد بطلتها المسماة الراوية باسمها في حالة من السعادة الواعية. إيلينه، التي كانت حتى ذلك الوقت متمحورة حول متع المجتمع الراقي في لاهاي تقيم في دي هورسه في خيلدرلاند، البيت الريفي للعائلة، التي وافقت أن ترتبط بها بالزواج. كلما رأت من خطيبها أوتو فان إرليفورت، صارت تُقَدِّر شخصيته الطيبة والفاضلة. وجدت نفسها وهى شديدة التوتر، والتى تشعر كثيرًا بعدم الرضا بطمأنينة ورضا عميق في الاستسلام لإيقاعات الصيف الريفي البطيئة. ساعدتها تلك على الانسجام مع عائلة فان إرليفورت الكبيرة كثيرًا لدرجة أنهم صاروا معجبين بها إعجابًا واضحًا- حتى أخت أوتو فريدريك، التي لم تكن أبدًا تهتم بها. كانت إيلينه على دراية كاملة بأنها تغيرت بدرجة كبيرة:

> وخلال لحظات التأمل المنعزل في خصالها الفردية الجديدة، تصاعدت الدموع في عينيها امتنانًا لكل ما لقيته من طيبة قلب، وكانت أمنيتها الوحيدة ألا يمرَّ الوقت، بل أن يتوقف مكانه، بحيث يستمر الحاضر إلى الأبد. أكثر من ذلك لم تكن تريد شيئًا، وانبعث من كيانها شعور بالراحة اللانهائية والهدوء الأزرق الهانئ.

إلا أن الله الذي توجهت له بالدعاء والصلاة من أجل هذا السكون أو الركود لم يستجب دعائها، لأن الزمن بطبيعته نفسها لا يمكن أن يقف ساكنًا، ورغم أننا نجد أفكار إيلينه مؤثرة بل ومتعاطفه هنا، يمكننا أيضًا أن ندرك فيها علامات الضعف المميت، الذي سيدمرها. آمالها غير واقعية، والخوف يلعب دورًا كبيرًا جدًا فيها؛ لتصل بالفعل تلك الآمال لدرجة رغبة محمومة في أن تطرح من الحياة أي شيء مُلِحّ أو مؤلم، كما أنها أيضًا متمحورة حول الذات؛ في هذا الصدد اختلفت «ذات إيلينه الجديدة»، اختلافًا طفيفًا، إن كان ذلك كذلك، عن ذاتها السابقة. هل كان لخطيبها دوره الذي يستحقه في أمنياتها هذه الخاصة بالمستقبل بأن تُلْغى؟

عندما عادت إيلينه من دي هورسه إلى بيت أختها وزوجها في لاهاي، وجدت ابن عمها الأكبر منها سنًا، فنسنت، يقيم هناك إقامة مؤقتة. عاش فنسنت حياة صاخبة، والتي أثرت عليها سلبيًا جسديًا وماليًا على حد سواء (فهو يتسول المال دائمًا). كانت أخت إيلينه بيتسي- العملية والتقليدية وغير الحساسة- تبغضه، لكنه مارس إغراءً غريب الأطوار على إيلينه، لا سيما أن أيام خيلدرلاند قد ولت، وأن ملل حياتها المألوف جدًا في لاهاي أحاط بها من جديد. ذَكَّر فنسنت إيلينه بالأب، الذي أحبته كثيرًا وبجلته، فنان فاشل لم يستطع أبدًا أن يجد الطاقة لإكمال لوحة من لوحاته الكنفاه الطموحة. بالفعل، ولاشتغاله بمشروعات تجارية مثيرة للريبة والشك، يمكن أن يطلق على فنسنت نفسه، بمجموعة مقتنياته المختلفة، فنانًا فاشلاً، وهذا ما يرى نفسه عليه. رجل يختلف عن أوتو فان إرليفورت أكثر من هذا الفرد البائس والغريب، لكنه جذاب إلى حد ما، لا يمكن تخيله، وفي الواقع نحن القراء نعرف أن أوتو، بخلاف الشباب الأكثر إعجابًا وانبهارًا بالآخرين في دائرته الاجتماعية، يحتقره فعلاً، لكن إيلينه، مما استفز أختها كثيرًا، انخرطت في محادثات فلسفية كسولة وطويلة معه:

«إذن أنت تعتقد بأن كل شيء قدر محتوم، وأنني عندما

أعتقد بأنني أفعل شيئًا بدافع من إرادتي الحرة فأنا في الواقع أفعله بسبب ...؟».

«أنتِ تظنين فقط إنها إرادتكِ الحرة، لكن إرادتكِ لا شيء سوى محصلة مئات الآلاف من المرات السابقة لوقوع الصدفة كما تُسمى. نعم في الواقع، هذا ما أؤمن به».

[. . .]

«أنت تعتقد، على سبيل المثال، بأنني إذا تزوجت أوتو فإن كل ما أفعله هو السير في طريق محدد سلفًا؟».

لكن ما هي إلا ثوانٍ بعدما سألته عن ذلك حتى سقط فنسنت، الذي كان في حالة سيئة على أي حال، مغشيًا عليه. كان تأثير كل من ملاحظاته وفقدانه الوعي على إيلينه مثيرًا للدهشة، لكن لو فكرنا مليًا- ذلك أن هذه رواية حادة الذهن في ملاحظتها النفسية والاجتماعية- ربما لن يحق لنا بأن نشعر بهذا القدر من الدهشة. نجد أن إيلينه الآن تتساءل ما إذا كان «حبها لأوتو قد لا يكون كافيًا في النهاية»؛ للحظة كانت ترى وراء تخيلاتها عن حياتها الزوجية المستقبلية «شبحًا» ينذر بالخطر. قرَّبها إغماء فنسنت نحوه عاطفيًا ورومانسيًا- رغم أنه ليس لدينا دليل على أي مشاعر من جانبه أعمق من العاطفة والامتنان بين أبناء العم. (بالفعل لو كانت هناك عاطفة، لما اقتربت منه بهذا الشكل) كوبيروس، الذي وُلِدَ في العام ١٨٦٣ كان أكبر من كارل جوستاف يونج باثنى عشر عامًا (١٨٧٥-١٩٦١)، لكن رواية إيلينه فيره (١٨٨٩) تنبأت بشكل مثير للدهشة بأفكار يونجية أساسية، وتظهر أيضًا في رواياته، التي كتبتها بعد ذلك. فنسنت المريض والبائس القريب والخامل ظل shadow لأوتو في نفس إيلينه، ومن ثم رؤيتها العابرة لكنها مخيفة للـ« شبح»، الذي يُعَدُّ تسليط الضوء على هذا الظل. ما أعقب ذلك من تخلي إيلينه عن أوتو الذي تحبه- والذي تسبب لها في عذاب حقيقي والذي كان فيه القلق والاهتمام بالشاب المرفوض، بالرغم من أنانيتها، مكونًا قويًا- ليس في الحقيقة إلا محاولة دافعية غير واعية لتأكيد شخصيتها بكل

تعقيدها على حساب سعيها، الذي لا ينتهي، حاجتها التي تدفعها إلى الاكتمال. يمكننا أن نراه أيضًا، بطبيعة الحال، كتمرد ضد الحتمية- المجتمعية أو الظرفية أو كليهما- والتي كان ابن عمها يؤكدها قبل أن يغمى عليه.

لكن لا يزال هناك المزيد لنكتشفه في تصرف إيلينه. حالاتها المزاجية وعصبيتها وخيالاتها وأوهامها المنافية للعقل، والتي دارت بعيدًا عن أولئك الذين آثاروها، ونوبات مرضها (أو انتقاء صحتها غير القابل للتعريف) قد تثير سخطنا نحن القراء تقريبًا مثلما أثارت سخط أختها الكبرى بيتسي، لكن عندما نرجع خطوة للوراء وننظر إليها نظرة شاملة، هل تكشف عن إدراكها الغريزي غير الواعي لما هو ميت أو ممل في مجتمعها، لما قد يكون سارًا، بل ومثيرًا للإعجاب على السطح المقبول والمليء بالتقاليد الجوفاء، والتي لا تخاطب أبدًا ما هو أعمق؟ ربما كانت إيلينه عند بلوغها الثالثة والعشرين، أملاً في توقف مؤقت لحركة الزمن، ترعى أحلام مراهقة ساذجة، لكن ألم تكن أيضًا، وسط حماس أمنياتها، تصارع نفسها وتصارع قوى فهمها المخيفة؟ ألم يكن لديها طول الوقت تقدير للجانب الأكثر ظلامًا من الحياة- بينما لم يكن لأوتو الأقل تعقيدًا، على أي حال وحتى هذه النقطة، تقدير له؟ نبعت مشاكل إيلينه من عدم معرفتها لكيفية التوافق مع ذلك التقدير المُتْعِب، حيث لم تتلقَ أي إرشاد هنا من الأعراف الخانقة بشكل كبير، والتي عاش أصدقائها وأقاربها الأكثر تكيفًا من خلالها.

يشكل رفض إيلينه لأوتو قلب الرواية، بنيويًا وأخلاقيًا على حد سواء. كما يشير ما قيل أعلاه، كان تصرفها أبعد ما يكون عن مجرد مسألة بسيطة. كتب ليونيل تريلنج عن رواية إيما لجين أوستن (في كتاب فيما وراء الثقافة، ١٩٧٥): «لن نعرف أبدًا من أين نمسكها. لو انتهينا منها بالليل، وظننا أننا عرفنا ما الذي ترمي إليه، سوف نستيقظ صباح اليوم التالي لنؤمن بأنها ترمي إلى شيء آخر تمامًا، لقد صارت رواية مختلفة». يصدق هذا أيضًا على رواية إيلينه فيره، وفي كلتا الحالتين، قدرة الرواية على تغيير نفسها في أذهاننا لا ينفصل

عن تصوير المرأة، التي أعطت لكل رواية منها اسمها.

***

لم يكن لويس كوبيروس بلغ السادسة والعشرين من عمره عندما صدرت رواية إيلينه فيره، وكان قد نشر قبلها قصائد غير مُرْضِية وثانوية (في عامي ١٨٨٣ و١٨٨٤). رغم أن الرواية تحفة أدبية تَشِي بالتطور والاكتمال السابق لآوانه، فإنها أيضًا وبشكل جليّ إبداع شاب كانت سنوات حياته ميزة عظيمة بالنسبه له في تأليفها. ذلك أن كوبيروس كان لا يزال منتميًا للبيئة والوسط، الذي أعاد خلقه، لكنه واعٍ رغم ذلك بعيوبه ومثالبه، ومن الواضح أنه كان قريبًا بصورة حميمة، كأحدٍ أفراد المجتمع لاهاي المفعم بالشباب، من المتع والتوقعات الآمال، التي نَسَبَها لطاقم شخصياته الكبير، والتي كانت كلها تقريبًا من معاصريه. نميميتهم ومزاحهم وغزلهم وشجاعتهم وسوء تفاهماتهم الصغيرة وتصالحاتهم وخططهم لحياتهم المستقبلية وشكوكهم حول طبيعتها تقنعنا (ولن تزيدنا إقناعًا عن إنجليزية إنا ريلكه المفعمة بالحيوية والحساسة لغويًا) لأنها حدثت بشكل جوهري من الداخل. شاب مثل إتيان فان إرليفورت، يتراوح بين الكسل والإجتهاد، الفكاهة والمحبة، يقفز إلى الحياة من صفحات الرواية- التي لم يؤد فيها فعلاً دراميًا جوهريًا على الإطلاق- كما لو أن أحد أقارب المؤلف الذي لوحظ بمكر على مر السنين يُقَدَّم إلينا.

يفسر الشباب بالتأكيد أيضًا جسدية العمل المُعدية. نلهو مع الشخصيات على شواطئ شيڤينينجن وكثبانها الرملية، وفي أعماق غابات خيلدرلاند أيضًا؛ نحضر مباريات المصارعة الودية، التي تنتهي بولدٍ يقفز كالضفدع على زميله، ونكون هناك تمامًا في القارب الصغير وهو يسير فوق أحد جداول الماء في الريف ويمر بجانب أوراق زنابق الماء الطافية الكثيفة، كل هذه انتصارات قدرات الكاتب الحركية، وتقف في تقابل، بل وتختلف مع قدراته الجمالية الأقل صحية واكتمالاً، عندما يقربنا من أرض الظلال الثقيلة والمُهَدِّدة، والتي يعرفها أولئك الذين يشبهون فنسنت فيره معرفة وثيقة.

ساعد كوبيروس في مهمته، التي اختارها ليضفي الحياة على مجتمعه ملمحان مُهمان من ملامح المشهد الأدبي المعاصر. أطلق على إيلينه فيره «رواية من لاهاي»، جزئيًا لأنه ازدهر في ذلك الوقت جنس أدبي شائع عرف ببساطة باسم «رواية لاهاي». عالجت هذه الرواية حياة المدينة الاجتماعية، في شيء يسير على منوال روايات «الشوكة الفضية» الإنجليزية تلك في الفتره ١٨٢٥-١٨٥٠ أو على منوال مثل هؤلاء الروائيين الإنجليز المنسيين الآن لكنهم كانوا ذوي جمهور عريض من القراء في الثمانينيات من القرن التاسع عشر مثل رودا براوتون ودبليو إيه. نوريس. كان قراء هذه الرواية الرئيسيين من النساء المنتميات بصفة كبيرة لطبقة اجتماعية أقل من بطلات رواياتها؛ لذلك لَمَسَت حرصهن على سماع ما كان يجري في مثل تلك الشوارع الأنيقة بعاصمة هولندا الإدارية مثل ناساوپلاين، حيث كانت إيلينه تعيش مع هِنْك وبيتسي فان رات، في بيت كان يسكن فيه كوبيروس نفسه. نستطيع أن نرى كيف اشتركت إيلين فيره، التي كانت رواية ناجحة على نطاق ضخم منذ البداية، في هذه الفئة واستطاعت أن تلبي رغبات هواتها. بدايةً من وصفها الافتتاحي للاستعدادت المليئة بالبهجة لإحدى عروض التابلوهات، التي نظمتها إحدى الجمعيات لاستعادتها للذكريات في الختام للڤيلا «الفاخرة للغاية»، التي أثثت «بقدر كبير من الترف»، والتي يعيش فيها پول وفريدريك، اللذان تزوجا حديثًا (بما لا يمكن إنكاره ليس في لاهاي بل في هايبيك)، لا تترك الرواية لنا مجالاً لأي شك أننا ننتقل، ونتعامل مع الأثرياء وذوي النفوذ والذين يعرفهم المؤلف معرفة شخصية. قدرٌ كبير من السحر والجاذبية، التي يتمتع بها الأشخاص الذين يعنون لنا بالفعل يُستمد من موقفهم المفضل: أخلاقهم الدمثة وحديثهم المعبر، وحلاوة حفلات العشاء والرحلات، التي لا حصر لها، والتي تطلق بإسهاب شخصياتهم المعقدة في تطورها، وقدرتهم- إن أرادوا- كي يذعنوا لدافع ما ويمارسوا هواية ما أو حماسًا عابرًا (محاولات پول فان رات في الغناء والرسم تقفز إلى الأذهان بوضوح)، أو حتى يقضون وقتهم

في دراستهم وبالتالي في تقرير ما يريدون أن يفعلوه في حياتهم (إتيان مثال جيد وسعيد). وبعض منهم- طبعًا- لا يصل إلى أي قرار مُرْضٍ هنا، لكنهم لا يبدون بالنسبة لنا سيئين كثيرًا بسبب ذلك؛ في الحقيقة منحهم تمهل حياتهم نفسه مجالاً يُحسدون عليه لإبداء الخصال الودودة بشكل أساسي. البارع بشكل رائع هِنْك فان رات، بكلبيّ الصيد الأولمر المكرسيْن له، والذي يُشَبّه نفسه عدة مرات بكلب النيوفاوندلاند، ربما كان أفضل مثال لذلك. لن تكون خيوط الحبكة المهمة لعلاقة پول بفريدريك فان إرليفورت، وجورج دي ڤوده فان بيرغ بلي لي فرسترايتن، وماري بأوتو أبدًا في غير محلها في» رواية لاهاي» تقليدية، ومثل قراء ذلك الجنس الأدبي المستهدفين، نجد أنفسنا مدفوعين بلا توقف على مواصلة القراءة عن طريق سؤال أنفسنا (حتى في إعادة القراءات، فهذه هدايا كوبيروس السردية): «هل سيفعلون كذا ... أم لا؟ هل ستقوم بذلك ... أم لا؟»، توفر هذه الأسئلة وإجاباتها ديناميات القصة.

من الواضح أن ما ينحرف عن الاهتمامات المعتادة لمثل هذه الرواية هي رسم صورة إيلينه نفسها- المزعجة، ومتعددة الأوجه، والعَصِيَّة على النسيان- والتي تتجاوز أو، إنْ شئت، تُقَوِّض الجنس الأدبي، الذي تقف فيه بشكل مسيطر، لترفع هذا العمل إلى نوع آخر من أنواع الأعمال الأدبية بشكل كامل.

لكن سمة ثانية من سمات المناخ الأدبي تُعَدُّ أكثر أهمية عند النظر في إنتاج هذا المؤلف ذي الستة والعشرين عامًا: السمعة الهائلة وقتذاك في جميع أرجاء عالم القراء للروائي ليو تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠). في أحد الفصول المتأخرة نجد مدام فان رات العجوز تقرأ روايات فرنسية وروسية، وأُستشهد برواية الحرب والسلام (التي نُشِرَت في ١٨٦٥-١٨٦٩) على وجه التحديد.

بنى تولستوي روايته العظيمة من حلقات صغيرة لا تُحْصى من الحياة العادية والعائلية والمحلية والاجتماعية وأحيانًا ما يبدو أنها تافهة (ولا بد أن نضيف هنا أن سهولة استقبالنا لهذه الحلقات وإيماننا بصدقها الكامل هو ما مكننا من التوحد مع تلك، التي تشبهها عندما تجاوزها «التاريخ» في شكل نابليون

وغزوه لروسيا). تمامًا مثلما قالت چين أوستن إن «ثلاثة أو أربع عائلات في قرية ريفية هم فقط ما اشتغل عليه»، تحدث تولستوي عن رواياته بصفته مستمدة من المائتيّ عائلة، التي كان هو نفسه ينتمي إليها. انجذب كوبيروس في روايته الأولى بالمثل للكتابة عن أفراد طبقته (ربما كانوا الوحيدين، الذين يشعر معهم بالارتياح والألفة الكاملة)، واستفاد من مثال تولستوي. في الواقع، ونحن نتابع أفعال عائللات فان إرليفورت وفرسترايتن وفان رات ودي ڤوده فان بيرج، يمكننا أن نتصور بسهولة أنهم أصدقاء لعائلة روستوف في روايات تولستوي. كانوا جميعًا سيشعرون بالألفة تمامًا في أول حفل في بيت ناتاشا، (ولكن، ومع كل تربيتهم، لدينا عائلة فان إرليفورت البارزة هنا، وأموالهم، مع عائلة فان رات الأكثر ثراء، شخوص كوبيروس هي الأقرب كثيرًا في قيمها وأعرافها إلينا مقارنة بشخوص تولستوي؛ فما يفعلونه للتسلية واللهو وتطلعاتهم الأكثر جدية كليهما تنتمي إلى مجتمع رأسمالي حديث مُؤَسَّس على التجارة أكثر من انتمائها للمجتمع شبه الإقطاعي، الذي نقابله عند الروائي الروسي العظيم).

لكني أظن أن الشباب كوبيروس ربما كان أكثر تأثرًا بتولستوي آنا كارنينا (نُشِرَت في ١٨٧٥-١٨٧٨). بينما توحدت الحلقات التراكمية في الحرب والسلام في ملحمة شعب في أثناء شريحة كبيرة من الزمن التاريخي، صُوِّرت تلك الحلقات، التي بُنِيَت آنا كارنينا منها من خلال وعينا المكثف بشخصيتها المحورية، والمأزق، الذي يبدو أنها ورطت فيه نفسها، ولا إراديًا أولئك المقربين منها. هذه الرواية، على العكس من سابقتها، قبل كل شيء رواية تحقيق وتشريح أخلاقي ونفسي. «لي الانتقام أنا أجازي يقول الرب»، هو الشعار، الذي اختاره تولستوي لها، وباستعادة الأحداث يمكن أن نرى كيف أنه يتخلل كل مشهد، مهما كان الإحساس برتابة الحياة وعشوائيتها، التي قد تقدمه أيضًا. تعمل إيلينه فيره علينا بهذا الأسلوب أيضًا. يمكننا أن نرى هذا بالطريقة نفسها، التي قرر كوبيروس أن يقدم بها إيلينه لنا.

كانت غائبة عن استعدادات الشباب المرحة في الفصل الأول نفسه غيابًا

جليًا. «خسارة أن إيلينه ليست هنا!» صاحت خالتها بالمصاهرة. قيل لمدام فرسترايتن: «إنها ليست على ما يرام؛ إنها مسألة أعصاب على ما يبدو، هذا ما ابتلي به الجيل الأصغر».

لذلك لا نلتقي بإيلينه إلا في الفصل الثاني، وعندما نلتقي بها، فإننا نقابلها بالليل، في الساعة الثانية والنصف صباحًا. (بالنسبة للقراء البريطانيين والأمريكيين اليوم يسهر أفراد مجتمع لاهاي هؤلاء لساعات متأخرة بشكل مذهل، تمامًا كما يتناولون جميعًا كميات مذهلة من الشراب)، ورأيناها لأول مرة «شاحبة اللون إلى حد ما، وهي ترتدي روب أبيض من الصوف الخفيف، وشعرها طليق ومتدفق»، يمثل الأخير رمزًا من الرموز المفضلة في لوحات القرن التاسع عشر، من قبل الرفائيليين مرورًا بإدڤارت مونك، لرفض الفتاة لقيود الاحترام التقليدية. «واهنة ورشيقة»، غيَّبَت إيلينه نفسها عن مرح أقرانها ولهوهم من خلال «نزوة من الخمول والسأم»، والتي ندمت عليها منذ ذلك الحين، عاجزة عن تهدئة شجنها حتى بالقراءة. عندما وبخها زوج أختها هِنْك لاستسلامها لحالة مزاجية كئيبة أخرى- هِنْك، أول رجل تنجذب إليه بشكل جاد، والذي ربما لا يزال يملك قلبها أكثر من أي شخص آخر- انهارت في البكاء:

> كانت الرغبة في أن تُخرج ما في قلبها أقوى بكثير من أن تُقاوم. ما الذي كانت تعيش من أجله؟ ما النفع التي يمكن أن تقدمه لأي أحد؟ ذَرَعَت الحجرة ذهابًا وجيئة، وهي تفرك يديها وتنوح دون توقف. لم تكن تبالي إذا ماتت في غضون ساعة، لم تكن تبالي بأي شيء على الإطلاق، كان الأمر يتلخص في أن وجودها كان بلا جدوى، عديم الفائدة، بلا أي شيء يمكن أن تُكرس نفسها له بكل جوارحها تكريسًا كاملاً، وبات الأمر كله أعصى من أن تتحمله.

ما هي علّة إيلينه، وما معناها عند النظر إليها في سياق عالمها الاجتماعي؟

وهو أيضًا ما يجعلنا نسأل، ما معناها بالنسبة للرواية ككل؟ في حالة آنا كارنينا تمثل سبب سقوطها في ثقتها في حقيقة الحب أكثر من الحقائق الأخرى والاعتبارات الأخرى. وعلى أساس هذه الثقة قللت من قيمة وأهمية المجتمع نفسه، والذي أوقع عليها العقاب بكلا نوعيه الخارجي والداخلي. هذا لا يعني القول إن تولستوي يَقْبَل المجتمع من خلال تقييمه لنفسه(الذي غالبًا ما يكون تقييمًا منافقًا أو متشائمًا على نحو ساخر)؛ بل على العكس من ذلك. لكنه يعتقد بأنه فقط من خلال الإيثار المبني على المبادئ يمكن لحياة مُرْضِية أن تعاش، وهذا يستلزم وضع المجتمع في الاعتبار. نرى في آنا كارنينا كيف أدرك ليڤن المنحرف، مثل بيير في الحرب والسلام قبله، والذي كان ذا ماضٍ ماجن لرجل عادي، أن حياة زوجية فيها عطاء متبادل بينه وبين كيتي لن يفيده نفسه فحسب بل والعالم الأوسع أيضًا.

مثل هذا التفكير موجود أيضًا في إيلينه فيره. پول فان رات سخيف وأناني كالشباب في أغلب الأحيان، في الواقع ربما أكثر من كثير منهم بسبب الثروة والمكانة الاجتماعية العالية، التي وُلِدَ فيها، مجرد تفكيره فيها يجعله مغرورًا وإلى حد ما متهورًا، لكنه أيضًا طيب القلب ومراعٍ للآخرين، ومن خلال الحب، الذي يشعر به تجاه فريدريك والزواج منها سوف يصمد، وألا يسدد الدين للمجتمع فحسب بل ويجعله مكانًا أفضل(يتمثل هذا بالضبط في كونه صار رئيسًا لبلدية إقليمية صغيرة نسبيًا)، لكن إيلينه لن تقدم أي إسهام من هذا النوع على الإطلاق. المشترك بينها وبين آنا تولستوي أن ما ستورثه للمجتمع، التي أنجبها ورعاها موتٌ يصيبه بالمحنة والكدر في آنٍ. لماذا؟ ما الذي حدث؟

ليس عيب إيلينه مثل عيب البطلة التراجيدية الروسية متعلقًا بحدة الحافز الجنسي. إذا كان هناك أي شيء تصدمنا إيلينه به، فهو قصورها في المشاعر الشهوانية العادية. الباريتون فابريس وأوتو في معظم الأحيان (كان لا بد من تملقها للقبول به كخاطب)، وفنسنت وشخصية لورنس سانت كلير الغامضة- لا يوجد أي دليل على أن أيًا منهم أثارها جنسيًا، كما أنه ليس ثمة كثيرٍ من الأدلة

على أن الرجال عمومًا، وهم يبدون إعجابهم بجمالها وأناقتها الاجتماعية، استجابوا لها جسديًا، كما كان يفعل الرجال- لنأخذ أمثلة من الأدب- بما فيهم زوجها، في رواية فلوبير إيما بوڤاري، أو كما كان يفعل أولئك الرجال في نخبة كريستيانيا مع هيدا جابلر في إحدى مسرحيات إبسن المعاصرة تقريبًا (١٨٩٠). أي عوامل جاذبية تشعر بها إيلينه تجاه الرجال في حياتها، وأي مشاعر يكشفون عنها بها تتبدد بسرعة كبيرة إلى أحلام يقظة. لم يكن لفابريس- الذي ستشتري صورته من أجل ألبوماتها كأي بائعة في متجر مهووسة بأحد النجوم المشاهير- أي حقيقة واقعة بالنسبة لها بعيدًا عن طاولات خشبة المسرح، الذي كان يغني عليها لجونو. وسرعان ما شَوَّهَت مزاج فنسنت الكتوم، الذي ضاعف منه عدم استقراره ماليًا وصحيًا ليغدو اشتياق رجل مريض في رواية قصيرة للحب، والتي يمكنها بشكل ما في عالم من الخيال أن تصادفه. حتى أوتو، الذي تعرف عنه شيئًا لا يختلف عن الحب يصبح بالنسبة لها بصورة أساسية تجسيدًا للتفكير الذكوري السليم، الذي ستكون قادرة على الاعتماد عليه للأبد.

لكن وعلى العكس من إيما بوڤاري أو هيدا جابلر، لم تكن إيلينه سطحية أو حتى غير مثقفة بل ولا تقليدية- كما قال إبسن عن هيدا في ملاحظاته التحضيرية حول مسرحيته. يصر كوبيروس أن إنجليزية إيلينه جيدة بما لا يدع مجالاً للشك، وفرنسيتها متقنة بوضوح أيضًا، فهي تقرأ، وتتحدث بكلتا اللغتين، كما أنها مهتمة بالفنون، حتى وإن كانت معجبة إعجابًا مبالغًا فيه بويدا (!)، وعلى دراية بالثقافات خارج هولندا، وإن لم يكن ذلك أي شيء، فقد كانت تشعر بارتياح وألفة كبيرين وسط الأشخاص المتمردين والبوهيميين، الذين كان عمها دانيال وزوجته الشابة إليزا يتعاملان معهم. قد لا تستهوي مناقشاتها مع فنسنت أي فيلسوف متخصص أكثر مما تستهوي أختها بيتسي سريعة الغضب، لكنها تبين أن لديها، بالرغم من كسلها وتراخيها، حيوية ذهنية معينة، رغبة في استكشاف ما هو أبعد من حدود المحسوس بشكل مباشر، ومن الصعب تصور دخول أعضاء دائرتها من الشباب الآخرين في تلك المناقشات. إضافة إلى ذلك

لديها القدرة- التي تظهر، باعتراف الجميع، بعد فوات الأوان أو بما لا يكفي من قوة- لأن تبتعد لمسافة عن أوهامها بل وحتى عن سلوكها.

(فكروا في وعيها الحزين والمرتبك بمدى سلوكها بشكل سيئ نحو مدام فان رات العجوز الطيبة)، وبالمثل، لديها القدرة على تمييز الزيف والتصنع حتى لو كانت هى نفسها مَنْ تمارس الزيف والتصنع من خلال نزعاتها المسرحية القوية. عندما عادت بسبب يأسها للذهاب للكنيسة، استطاعت أن تدرك حقيقة تدينها- الأقرب كثيرًا إلى انتشائها بالأوبرا، الذي أفضى بها إلى عشق فابريس الرث المثير للشفقة لحد العبادة- وأيضًا حقيقة نفاق رفاقها من المتعبدين بالكنيسة.

لا، ليست مأساة إيلينه- لأنها ليست أقل من ذلك- نتيجة لوجود عاطفة شهوانية بها أكثر من اللازم أو كونها غير مشحوذة الذهن بما يكفي. المأساة أن لديها خيالاً وفيرًا وخصبًا للغاية في مجتمع يقلل من قيمة هذه الخاصة بشدة، بل لا يكاد في الواقع يجاملها بالكلام. الخيال ليس سمة مميزة يمكننا أن نعزوها إلى أي شخصية أخرى في الرواية- باستثناء ظل إيلينه الذاتي، فنسنت، على الأرجح، وربما فريدريك بطريقتها المُحْبَطة الخاصة. وسطها مُكَوَّنٌ من أشخاص برجماتيين وعمليين في الأساس، عاقلين بمجرد أن يرموا خمولهم المفعم بالشباب وراءهم، غير مهتمين، وقلما ينظرون لما يتجاوز شلتهم، يجربون في الفنون (كما فعل پول فان رات) بينما لا يدركون أن هذه الفنون لها أغراض أعمق من التسلية، قلق بشأن المال على شاكلة القلق بشأن الإنفاق على الشئون المنزلية، لكنهم لا ينزعجون أبدًا بشكل جاد من الأحداث الجارية- ووفقًا لذلك ينفرون تمامًا من تحدي الوضع الراهن.

خرجت إيلينه بالتأكيد من ذلك الجزء من تجربة كوبيروس الخاصة، والتي جعلته، بجانب حيوي، غريبًا في العالم الاجتماعي، الذي كان مقبولاً فيه بدرجة كبيرة. كان لعائلة كوبيروس اتصال طويل بجزر الهند الشرقية الهولندية. فوالد لويس كوبيروس، چون ريكوس كوبيروس، وُلِدَ هناك في ١٨١٦. وفي

١٨٧٢، عندما كان لويس في التاسعة من عمره فقط، سافر كوبيروس الكبير بعائلته من لاهاي إلى جزر الهند، حيث كانت لديهم ممتلكات، ولم يعودوا إلى هولندا حتى عام ١٨٧٨، عندما كان الصبي في الخامسة عشر من العمر. لذلك كان كوبيروس كأنه غريب في تلك الدوائر، التي كانت مفتوحة أمامه، والتي كان من المتوقع أن يكون له دور فيها، وتصبح قرابته هنا بإيلينه المدللة واليتيمة أوضح عندما ندرك مدى الحياة المدللة والمترفة، التي عرفها كطفل في باتافيا (عاصمة جاوة) كطفل من طبقتها الحاكمة. ما كان على دراية به في الحياة الجاوية حوله ميلها الثري للمعارف الموروثة، واعتمادها على الغريزة أكثر من المباديء العقلانية، والعناية بالظواهر الطبيعية، التي يقرؤها العقل الشعبي كنتائج للقوى الغامضة، التي غالبًا ما تكون مبهمة أو عدائية وتتعارض مع نوايا البشر أو إرادتهم الواعية. مثل هذه المعرفة لم يكن ليكتسبها لو أنه بقي في لاهاي.

في واحدة من أعظم روايات كوبيروس اللاحقة Stille Kracht (**القوة الخفية**، ١٩٠٠) يصور كوبيروس فان أودايك، رجل هولندي يشغل مكانة بارزة كمقيم في أحد أقاليم جاوة: لطيف، حيّ الضمير، وعلى استعداد ليكون رب الأسرة بالنسبة لجميع المسؤوليات، وما يترتب عليها من مظاهر إبداء المشاعر، بل وعلى استعداد لمواجهة شهواته الخاصة، لكنه يفتقر إلى الخيال، ويكبت بقوة أي إشارات على تلك السمة، والتي قد تطفو على السطح من آن لآخر، وكان لفشله هنا- ظهر في تعاملاته مع والدة وصيّ العرش الجاوي، أو أحد زعماء النبلاء- عواقب وخيمة بالنسبة للكثيرين، لكن قبل أن يصبح ذلك واضحًا تمامًا، مرَّ هو والمقربون منه بتجربة بشعة ومرعبة عندما شاهدوا أرواحًا خفية ومعادية، والتي يستطيع أي من السكان المحليين المؤمنين بالخرافات تحديدها، لكن الهولنديين المتعلمين رفضوا حتى الاعتراف بها إلا بعد فوات الأوان. تنعبث هذه المشاهدات من أرض الظل، المنطقة الواسعة من اللاوعي الجمعي، التي اختار المستعمرون في البداية أن يحتقروها، ثم تجاهلوها عن عمد.

بالتالي إيلينه فيره من جزر الهند الشرقية دون أن تكون على دراية بذلك. «الشبح»، الذي رأته وراء صورتها الكبيرة مع أوتو، والأوهام، التي نسجتها حول شخصية فنسنت المنغمسة في الملذات، والموكب المرعب من الصور، التي طاردتها في آخر أيام حياتها- هذه الأشياء تتصل اتصالاً وثيقًا بما عَذَّب فان أودايك وزوجته في رواية القوة الخفية.

تجلت أهمية جزر الهند الشرقية بالنسبة للويس كوبيروس في زواجه من ابنة خاله إليزابيث باود، التي تبوأت أسرتهما مكانة متميزة بالخدمة في جزر الهند، والتي عاش فيها الزوجان في الفترة من مارس ١٨٩٩ الى فبراير ١٩٠٠، وعادا مرة أخرى لمدة أربعة أشهر خلال رحلاتهما الطويلة من أكتوبر ١٩٢١ إلى أكتوبر ١٩٢٢. من بين طاقم شخصيات إيلينه فيره الوفيره مَالَ إتيان فان إرليفورت، الذي لا يمكن كبته للانضمام إلى الحكم الاستعماري، لكنه في النهاية فَضَّل البقاء في أرض الوطن، لكن هناك شخصية مهمة جدًا في الرواية ذات صلة بجاوة- وهى چين فيريلاين المريضة والفقيرة، والتي كان زوجها في إجازة زهيدة الأجر، والتي شعرت بالأسف على ما رأته من كآبة هولندا ورثاثتها مقابل ثراء جزر هندها، والتي ستعود إليها وتموت فيها. من الأهمية بمكانٍ أنه عندما هربت إيلينه أثناء انفعالها الهستيري من منزل فان رات بالليل، توجهت إلى چين، چين التي كانت ودودة معها بدفء عندما كانتا تلميذتيْن بالمدرسة، والتي سوف تواسيها الآن في مرضها وتدعمها، وعندما تعرف إيلينه لاحقًا بوفاة چين، فإنها تنزعج بدرجة كبيرة؛ بالفعل يمكن أن نرى استقبالها لهذا الخبر كأصدق لحظة في حياتها. هذه إذن هى مأساة إيلينه: أنها وُلِدَت بمخزون كبير للغاية من الخيال في مجتمع يركز كثيرًا على العلاقات المبنية على المال وعلى العيش عيشًا مريحًا، ولا يمثل جيرانها وأهلها في لاهاي إلا الثقافة السائدة في زمنهم تمثيلاً تامًا، والتي تمتد من أمريكا العصر الذهبي ليوبيل الملكة ڤيكتوريا في بريطانيا إلى فرنسا عشية قضية دريفوس.

***

لم يكن تولستوي التأثير الوحيد على ذهن كوبيروس الشاب المتقد والمتحقق. ولا أستطيع أن أرى من التولستوية نفسها، بتركيزها على كلمة الإنجيل، وعلى إيمان الناس العاديين الأكثر هدوءًا وسرية، سوى آثارٍ خفيفة فقط. مدام فان إرليفورت ومدام فان رات ورعتان دون دوغمائية، يهيمن على حياة كلتا المرأتين شعور أمومي حنون ودافئ يشمل بشكل جدير بالثناء الآخرين خارج أسرتيهما المباشرة، وبالتالي بات مثالاً يحتذى. (انظر إلى معاملة كلتا المرأتين لإيلينه) استدعى كوبيروس بلطفٍ الإيمان الريفي البسيط بالكنيسة أمامنا، بالفعل يمكننا وصف تصويره الكامل لحياة خيلدرلاند بأنها تفضي إلى الصحة الأخلاقية والاطمئنان الروحي أكثر من الدائرة الحضرية المعقدة في لاهاي وصفًا فضفاضًا أنها أشبه بتولستوي. وبالمثل يتعلق تفضيله للشخصيات طيبة القلب في كل الظروف- سواء تمثلت في هِنْك الكسول أو چين فيريلاين المجتهدة في عملها- بإعجاب تولستوي بالتأكيد بشخصياتـ] ه[، الكونت نيكولاس روستوف والأميرة ماري في الحرب والسلام على سبيل المثال. لكن يمكن النظر إلى كل هذا، بل ربما يجب أن ننظر إليها في الأساس بوصفها تعبيرًا عن أولويات وانشغالات مزاجية، وكذلك تعبيرًا عن الخوف المعاصر من أن العصر، في هوسه بالإنتاجية والثروة، أدى إلى حد ما إلى قطيعة جذرية للغاية مع الحياة الطبيعية. الأمر الملموس، الذي لا يقل عن ذلك بالنسبة لتولستوي هو دَيْن كوبيروس- الذي أميلُ لأن أسميه دينًا أيديولوجيًا- لإميل زولا (١٨٤٢-١٩٠٢). بحلول الوقت، الذي صدرت فيه إيلينه فيره كانت خمس عشرة رواية من سلسلة روجون- ماكار العظيمة ذات العشرين مُجلدًا قد صدرت، وكان طموحها أن تبين، من خلال عائليتين مترابطتين، كلاً من قوانين الوراثة البشرية وتطور فرنسا، (الذي يفسر هذه القوانين) حتى سقوط الإمبراطورية الثانية. من بين هذه الكتب كانت هناك أعمال مؤثرة وقوية لاسوموار (١٨٧٧)، وجيرمينال (١٨٨٥)، والأرض (١٨٨٧)- بينما صدرت رواية سادسة عشر في نفس العام، الذي صدرت فيه أولى روايات كوبيروس،

وهى رواية الحلم (١٨٨٨).

من أكثر الأمور وضوحًا أن الوراثة من بين اهتمامات إيلينه فيره. ركزت الرواية تركيزًا كبيرًا على ما ورثته الأختان من أبويهما. قيل لنا إن مدام فيره امرأة صعبة المراس وغير محبوبة، ومنها جاءت فظاظة بيتسي وتسلطها. ورثت إيلينه، كما تعتقد هى نفسها، من والدها شخصية رقيقة وحالمة، ضعيفة الإرادة وغير حاسمة. هذا مقنع جدًا حتى الآن، ولكن كوبيروس، الذي تخرج من مدرسة زولا كما أحس بنفسه، كان يريدنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. كلٌ من إيلينه وابن أخيه فنسنت يُظْهِر افتقار الراحل مستر فيره افتقارًا قاتلاً للصلابة والقوة، والذي يظهر أيضًا مُعَدَّلاً في أخيه الأصغر دانيال، بولعه بالأماكن الفاخرة وصحبته للرعاع والمتسكعين البوهيميين والغرباء المهدورين. استعداد إيلينه لأن يصادف أسلوب حياة عمها وزوجته هوىً في نفسها مظهرٌ من مظاهر نصيبها من هذه السمة المؤسفة والحاسمة، والتي ترتبط بشكل واضح في عقل كوبيروس- كما في عقل زولا وتوماس مان في وقت لاحق- بتكوين الفنان، ويبدو أن ما يُستَدلُّ عليه من ذلك أن أي عائلة، وبالتالي أي مجتمع، في حالة هبوط وتراجع يُكرس نفسه للفن.

خذ على النقيض من ذلك حالة پول فان رات، شاب مليء بالرجولة والحيوية، رغم نوبات الكسل والإسراف تلك، التي تعزى إلى مرحلة الحياة، التي يمر بها. ينجذب پول، في نقطتين مهمتين في الرواية، كثيرًا لكونه فنانًا. ندرك أن الأمر لا يتعلق كثيرًا بعدم تمتعه بما يكفي من موهبة ليصبح فنانًا، (رغم أن التعبير صحيح بما يكفي)، بقدر تعلقه بوراثته لجسد موفور الصحة بقدر كبير، ومن الواضح أن عائلة فان إرليفورت الكبيرة، التي تزوج منها ما يليق به حوض جيني ممتاز؛ إذ تزخر أوصاف الجيل الأصغر بالثناء والإطراء على حيويتهم وجاذبيتهم الجسدية. يمكن مقابلة هذا بشكل يبعث على الحزن بحالة ابن أخ پول نفسه. لأخيه هِنْك طفل، بِنْ، من إحدى نساء فيره، ولم تستطع صحة هِنْك القوية ولا طاقة بيتسي المكتسبة من الأمومة أن تمنع الصبي الصغير

المحبوب، بل وواسع لخيال من ألا يصبح طفلاً متأخرًا- وهى حالة صعبة عُبِّر عنها بشكل مؤثر. أهذا إذن سبب آخر لشعور إيلينه بأنها لا تستطيع، ولا يجب أن تتزوج أوتو؟ لم تكن تستطيع أن تعطي تلك العينة الرائعة من الطبيعية طفلاً مُرضيًا والذي من شأنه أن يستكمل هو نفسه يومًا ما سلالة قوية.

بالنسبة لي هذا الجانب من إيلينه فيره هو الأقل إقناعًا، ربما لأنه لم يجري التفكير فيه مليًا بما يكفي. علاوة على ذلك- وبالعكس تمامًا من أي إنتاج لزولا- لم تنسب الرواية للشخصيات في المقدمة أي خلفية مقنعة تربطها بالمجتمع بالمعنى الأوسع للكلمة. قُدِّمَت وظائف پول وأوتو، اللذين أصبحا بالفعل موظفيْن حكوميين مسئوليْن بصورة متعجلة ولامبالية؛ وتثير وظيفتهما اهتمامنا لأنهما تنسجمان مع النمط الشكلي الكليّ أكثر من تمتعهما بكثير من المصداقية في حد ذاتهما. فيما يتعلق بحالات الوراثة البيولوجية المحددة في الرواية، لم يكن لدى كوبيروس أي من إتقان زولا للتفاصيل، وشدة اهتمامه بحالات محددة ونظرته الثاقبة فيها. تخلف بِنْ فان رات، كاستسلام إيلينه العاجز الأخير للمرض النفسي والجسدي، يلمح إلى الأدب- وإن صاحبه تعاطف إنساني صادق- بدلاً من أن يشير إلى الحياة المدروسة علميًا من قِبَل المؤلف نفسه، لكن من المؤكد أن ثمة عاملاً آخر ذا صلة هنا.

رغم أن كوبيروس وجد في زوجته إليزابيث نموذجًا حقيقيًا من الصحبة والدعم الكريم، هناك افتراض بأن علاقاتهما كانت بوجه عام زواجًا أبيض. فكرة الإنجاب نفسها أرعبت كوبيروس، الذي كانت ميوله الشهوانية- وممارساته- وهو ما يتفق عليه الآن الخبراء حول الكاتب بوجه عام، ميولاً مثلية. بالتالي يمكن النظر إلى انعزال إيلينه المتزايد وغير المتعلق بالإنجاب عن المجتمع باعتباره معادلاً لحالة كوبيروس المثلية، ولا بد أن تقف المثلية الجنسية وراء أكثر اثنين إثارة للحيرة في الرواية، وهما فنسنت فيره وسانت لورانس كلير.

ذلك أنه أي شيء آخر من شأنه أن يربط هذين الرجلين معًا، لدرجة أنهما

على اتصال مستمر عندما يفترقان، ومستعدان للسفر معًا لعدة أشهر دون فترات انقطاع كبيرة؟ أحدهما «محتال» أمريكي- والذي يمكن أن يكون طريقة مهذبة للقول إنه رجل أعمال ناجح لم يقم بأكثر من مناورة قرصنة ذكية أو مناورتين- والآخر متشرد هائم لديه أفكار عن نفسه تفوق إنجازاته الفعلية بكثير. يقول سانت كلير إنه يرى فنسنت كأخ، لكن فنسنت بالنسبة له ليس الرجل، الذي عرفناه. يخبر إيلينه:

> «معظم الناس لديهم فكرة خاطئة عن فنسنت. يعتقدون بأنه كسول ومتقلب المزاج وأناني، ويرفضون أن يروا أنه ببساطة مريض. لا أستطيع أن أتخيل أن أي إنسان آخر سيكون قادرًا، رغم معاناته من مثل تلك الصحة المعتلة، على أن يشارك الكثير من موهبته وذكائه مع بقية البشر».
>
> كانت دائمًا تُكِنُّ تعاطفًا كبيرًا مع فنسنت، لكنها لم يسبق أن رأته في هذا الضوء من قبل.
>
> قالت: «نعم، أعتقد بأنك على حق!».

كم يتباين ذلك مع كيفية رؤية أوتو فان إرليفورت لفنسنت!

أخبر فنسنت فيره سانت كلير كثيرًا جدًا بالفعل عن ابنة عمه(مازجا بين المجاملة وعاطفة الإشفاق) لدرجة أن الأخير، قبل لقائهما الفعل في بروكسل، فكر بها باعتبارها« أختًا مجهولة»، ومن ثَمَّ اهتمامه الشديد بها، وقدرته الفريدة على استخراج الحقائق عن أعمق مشاعرها منها (من بينها الحزن العميق على صديقتها چين فيريلاين)، وإصراره الذي تقبلته أن تبتعد عن المجموعة المشبوهة، التي كان يختلط بها عمها وزوجته، وعرضه للزواج بها، والذي رفضته رغم تأثرها. ما نوع الزواج، الذي عرضه سانت كلير على إيلينه؟ نشعر بأنه، بصفة أساسية، زواج صحبة مهتمة كذلك الزواج، الذي تمتع به لويس كوبيروس وإليزابيث باود، رغم أن صدق مشاعره بل وعنايته بها لا يتسرب

إليها الشك، ولما بدأ يشاهد إيلينه، وهى تتحسن في بروكسل، بصفة كبيرة بسبب حديثه المهتم معها، بدأ يشعر

> بشوق كبير لأن أكرس حياتي بأكملها لكِ، لأنني فكرت إنني لو استطعت عمل ذلك، فإنها قد تستطيع أن تنفض عنها نظرتها القاتمة للحياة وتصبح سعيدة مرة أخرى. عزيزتي إيلي، أنتِ لا تزالين صغيرة جدًا وتظنين أن الوقت فات على أن تتغير الأمور. لا تفكري بهذه الطريقة مرة أخرى؛ ضعي ثقتك فيّ، عندئذٍ يمكننا أن ننطلق سويًا لنكتشف ما إذا كانت الحياة كئيبة ومحزنة كما تعتقدين أم لا.

ربما كان هناك الكثير من الفارس والمُعَلّم صاحب الإحسان والقليل من العاشق في هذا التصريح، رغم أنها لا تملك إلا أن تحترم الرجل لإطلاقه لذلك التصريح- تمامًا كما فعلت إيلينه، رغم أنه أبكاها أيضًا، لكن اُضطرت إلى الرفض، وهى تتعذب باستمرار بذكريات خطبتها الفاشلة لأوتو، (التي فسختها بنفسها في نهاية الأمر لأسباب حميمة لم يُفْصَح عنها بشكل كامل)، ربما كانت إيلينه تعترف من خلال رفضها، خارج أوهامها المرتبطة بالروائية ويدا، أن مجال الجسدي الكامل غير ملائم لها، تمامًا كما كان بالنسبة للمؤلفة كما هو واضح. في عقل كوبيروس يؤدي النشاط الجنسي إلى البؤس بنفس القدر، الذي يسببه للأطفال، بل إن الأخيرين (الذين كان ينفر منهم بدرجة كبيرة) قلما تغلبوا على الأول. إنه جزء جوهري، لكنه شنيع من نصيب البشرية، التي لم تصل بَعْدُ للقدرة على التوافق بشكل كافٍ وغير مؤلم مع غريزتها الجنسية، ذلك أن التطور لم يكتمل بَعْدُ في هذا الشأن. والتطور كلمة مفتاحية هنا.

لأن كوبروس كان منتميًا لجيل ما بعد داروين، غير القادر تمامًا على تقبل تفسيرات الدين التقليدي ومواساته، والمهووس كما لو كان عثر على اكتشاف جديد بالمحنة والتدمير المتبادل الكامن في الوجود نفسه، وعيٌ عبرت عنه

تعبيرًا لا يُنسى كتابات داروين الشخصية المأزومة والتي تسببت فيها ملاحظاته للقسوة المنتشرة في أنحاء العالم الحيواني. من واجب الكاتب المخلص، وفقًا لهذه الرؤية، أن يواجه الكآبة والرعب. حقيقة أن أي قوانين يمكننا أن نستكشفها صالحة في الحياة لا تعير اعتبارًا لمشاعر أولئك الذين تتحكم فيهم. في كل مكان هناك ضياعٌ مخيف، ضياع تمثله هنا مسارات فنسنت وسانت كلير الوظيفية العقيمة، تمثله امرأة غير مرتبطة بأحد مثل إيميلي دي ڤوده فان بيرج، والتي تتعامل مع أزمتها بارتداء قناع مرح وودود، وتمثله بصورة أكثر أهمية إيلينه. كان لتلك الروائية الرائعة من الجنوب الأمريكي والأصغر من كوبيروس بعشر سنوات، إلين جلاسكو (١٨٧٣-١٩٤٥) رؤية مماثلة للعالم، ضاعف منها وأيدها وعيٌ مصقول لا يقل شبهًا عن تلك الرؤية. في روايتها ڤرجينيا (١٩١٣)، كتبت جلاسكو عن شاب قُدِّرَ له ألا يصبح أبدًا الكاتب، الذي يحلم بأن يكون:

> لكن في سن الثانية والعشرين .... كان يجهل جهلاً مثيرًا للشفقة مكانه في إسراف الطبيعة. كان سيشعر مع بقيتنا بأنه مشدوه عند الإشارة إلى أنه ربما وُلِدَ لكي يُهْدَر. يعرف بأن أشياء أخرى أُهْدِرت، منذ أن عمل أولئك، الذين أطلقوا على الطبيعة اسم اقتصادي على تملقها على نحو فادح. بعثرت الأنواع والأعراق والثورات في إسراف مَلَكيّ- لكن أن يكون هو نفسه كذلك كان أمرًا غير قابل للتفكير فيه.

مقابل هذا الهدر أبدع البشر الفن، انتمى كوبيروس للجيل، الذي قدروا الفنانين تقديرًا خاصًا حتى وإن رأوهم كلعبة من لعب الطبيعة، لقدرتهم على توفير حصونٍ ومتاريس لا تقدر بثمن ضد فراغ الوجود النهائي. مع إعجابه الشديد ودوره الإعجاب، الذي حصل عليه من أفراد الحركة الجمالية من بينهم أوسكار وايلد نفسه، قدم كوبيروس إسهامه العظيم لفن الأدب، ليس من

خلال نزعته الجمالية الخاصة- التي تظهر من خلال غندرته وملذاته الإبيقورية، وميله إلى النثر- بقدر ما كانت في تلك الروايات الجادة والعميقة، التي تعد إيلينه فيره أول الروايات، التي استطاع فيها بأمانة دقيقة وفنية التصميم والعناية الشديدة بالتفاصيل أن يواجه تعقيد الحياة.

تعالج رائعته، المسنون والأشياء التي تمر، ١٩٠٦، اثنين من كبار السن ارتكبا جريمة بشعة، واللذين عندما كانا أصغر سنًا يعيشان في جزر الهند الشرقية كأفراد في خدمتها العسكرية الاستعمارية- جاءت مدى بشاعتها بمثابة صدمة حتى بالنسبة للقراء الذين توقعوا الكشف عنها منذ فترة طويلة، كم كانت وحشية جدًا وغادرة وبلا شفقة. كان لجريمة القتل غير المكتشفة، وبالتالي دون عقاب على مدى عقود، تأثير مُهَدِّد وطويل الأمد على أسر الجناة المتشابكة والمتشعبة في لاهاي(من نفس الوسط مثل شخصيات إيلينه فيره الرئيسية). لما كانت رواية عن الخداع والجهل وسوء الفهم والاكتشافات المترددة أو العصبية، فقد أتت إلى دائرة هولندية محدودة بتلك «القوة الخفية» المربكة والمرتبطة ارتباطًا لا انفصام له بالعاطفة وبثقافة لا تقوم على العقل، لتبين كيف تكمن وراء حتى أكثر التعاملات تقليدية أو رسمية، ورغم كونها معقدة في الشكل، بما فيها من لمحات في غاية الأهمية لماضٍ صادم وصارخ لرجل وامرأة طاعنين في السن، فإن الرواية تصف مسارًا لا يلين ويبدو سريع الحركة كسهم قاتل مُصَوب جيدًا. ينبغي ألا يُغَيِّب الانفتاح التولستوي لإيلينه فيره، بمشاهدها العديدة من صخب الحياة الاجتماعية غير المتميزة وضجيجها لأفراد غير متميزين إلى حد كبير، من إدراكنا أنها أيضًا صيغت بعناية وشكلت مسارًا مدمرًا. مرة أخرى، الرواية أقل قربًا من رواية الحرب والسلام منها إلى آنا كارنينا، والتي تعلمت بالتأكيد من بنيتها دروسًا قيمة. تبدأ الرواية بمحادثة بين بول وفريدريك اللذين، مثل بياتريس وبنديكت، سوف يستمران في التناطح طوال الرواية، فالفتاة تُظْهِر على الدوام عيوب الشاب في حين تكشف عن مشاعرها العميقة، بل حتى إيمانها به، وتظهر أيضًا- بدهاء مستمر، وإن كان

بقليلٍ من عمل الخير - الأخطاء في إيلينه، والتي من شأنها أن تؤدي إلى انزوائها ومصرعها. ستكون علاقة پول وفريدريك اتحاد أولئك، الذين وافقت عليهم الطبيعة وبذلك، وبصورة مناسبة، اختتمت الرواية بنافذة على حياتهما الزوجية الشابة، وبتصميم أوتو وماري على محاكاة ذلك.

تكمن بين حلقتيّ حب پول وفريدريك الافتتاحية والأخيرة، كما لو كانت بين فواصل كتب، قصص الأزواج الأخرى، وأيضًا، تلك التي همشتها الطبيعة. من بين تلك القصص لم تكن إيلينه نفسها مجرد تمثيل عنها، بل أحيانًا متحدثًا متحمسًا لها، في كثير من الأحيان حمقاء وغير مجدية، لكن في إدراكها ووعيها تستحق بحق أن يطلق اسمها على رواية من أكثر روايات أواخر القرن التاسع عشر ثراء وإمتاعًا.

كتب كوبيروس ملخصًا لنفسه:

«أيًا من أكون، أنا رجلٌ من لاهاي».

ساد حبه لمدينته روايته الأولى، بحيث أن زيارة للاهاي وشيڤنينجن القريبة يعني أن نعيش مرة أخرى التجارب، التي تحيكها، ولكن إيلينه ڤيره تكشف أيضًا، من خلال كونه بأمانة وصدق رجلاً من لاهاي، أن كوبيروس يمكنه التحدث إلى العالم البشري بأسره ومن أجله.

إيلينه فيره

رغم كونها باكورة إنتاج الروائي الهولندي الشاب لويس كوبيروس، استطاعت رواية « إيلينه فيره» التي نشرت لأول مرة في العام ١٨٨٩ أن تجد لنفسها مكانًا وسط عيون الأدب الأوروبي العالمي كروايات فلوبير وتولستوي وإبسن وجين أوستن. تتناول رواية «إيلينه فيره»قصة مأساوية لفتاة عاشت وسط مجتمع لاهاي الراقي، وظهرت حفلات المجتمع الساهرة وولائم العشاء العامرة لتتعارض مع عزلة بطلة الرواية المتزايدة. يستطيع كوبيروس باهتمامه الفائق بالتفاصيل الصغيرة أن يأخذ بيد القارىء ويلقي به وسط بحر عائلات فان رات وفان إرليفورت وفرسترايتن ليبدأ السباحة بنفسه، كما ذكر الناقد الأدبي پول بايندينج في دراسته التي نشرت في خاتمة الرواية إننا عند قراءتنا لرواية «إيلينه فيره» يمكننا أن نلهو مع الشخصيات على شواطئ شيڤينينجن وكثبانها الرملية، وفي أعماق غابات خيلدرلاند أيضًا؛ نحضر مباريات المصارعة الودية التي تنتهي پولدِ يقفز كالضفدع على زميله، ونكون هناك تمامًا في القارب الصغير وهو يسير فوق أحد جداول الماء في الريف ويمر بجانب أوراق زنابق الماء الطافية الكثيفة.

يمكن وصف هذه الرواية بأنها رواية نفسية تتبع المذهب الطبيعي الذي يدين به كوبيروس لإميل زولا. نشرت هذه الرواية لأول مرة في هيئة حلقات مسلسلة، وهو ما جعلها تمتلىء بحيوية الروايات الفكتورية دون ميلودرامتها.

في هذه الرواية، تمكن كوبيروس بقدرته الأدبية العالية أن يصف بدقة متناهية مشاعر البطلة وباقي شخصيات الرواية وغاص في أعماق النفس البشرية، إلى جانب الدخول في بعض المناقشات شبه الفلسفية الممتعة حول موضوعات مثل الإرادة الحرة والقدرية وغيرها.

ISBN 978-977-765-041-0
9789777650410

غلاف إيناس عماره

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS